أحداث الفتن السياسية

في عصر الخلافة الراشدة والدولة الأموية

عرض للأحداث وتحليل للأسباب والنتائج

تأليف

دكتور

زين العابدين كامل

قدم له

مجموعة من العلماء

دار الخلفاء الراشدين

الإسكندرية أبو سليمان ش عمر أمام مسجد الخلفاء الراشدين

الإدارة: ٠١٠٠٠٥٠١٣١٥١ ـ المبيعات: ٠١١٢٠٠٠٤٦٤٦

dar_alkholafaa@yahoo.com daralkholafaa@gmail.com

راسلونا على صفحتنا على فيسبوك (دار الخلفاء الراشدين)

حقوق الطبع محفوظة

اسم الكتاب: أحداث الفتن السياسية في عصر الخلافة الراشدة والدولة الأموية

اسم المؤلف: زين العابدين كامل

القطـــــع: ١٧ × ٢٤ سم

عدد الصفحات: ٦٤٠ صفحة

سنة الطبع: ١٤٤٤هـ/٢٠٢٣م

الطبعـــة: الثالثة: طبعة مزيدة ومنقحة

رقم الإيداع

٢٠١٩/٢٠٩٣٨م

الترقيم الدولي

٩٧٨-٩٧٧-٦٧٠٢-٢٨-٨

دار الخلفاء الراشدين

الإسكندرية أبو سليمان ش عمر

أمام مسجد الخلفاء الراشدين

٠١٠٠٥٠١٣١٥١ - ٠١١٢٠٠٠٤٦٤٦

دار الفتح الإسلامي

الإسكندرية مصطفى كامل

بجوار مسجد الفتح الإسلامي

٠١١٢٦٥٠٠٦٩٦ - ٠١٠٩٤٥٥٥١٥٧

طبع . نشر . توزيع

أحداث الفتن السياسية

في عصر الخلافة الراشدة والدولة الأموية

عرض للأحداث وتحليل للأسباب والنتائج

كتبه

دكتور

زين العابدين كامل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ
ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ
لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ
ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (التوبة : ١٠٠)

إِهْدَاءٌ

أُهدي هذا الكتاب إلى عشق القلب أُمي وإلى جوهر فؤادي أبي، حبًّا يحكيه دعائي دائمًا.

أُهدي هذا الكتاب إلى زوجتي الغالية وأبنائي فلذات كبدي، تقديرًا وعرفانًا.

أُهدي هذا الكتاب إلى أساتذتي وإخواني أتباع المنهج الصافي الذي سار عليه سلف الأمة.

أُهدي هذا الكتاب إلى كل محب للصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

تقديم فضيلة الشيخ/ محمد عبد الفتاح أبو إدريس

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه

أما بعد،

فما أحوج الأمة الإسلامية اليوم إلى أن تعرف تاريخها وما مر بها من أحداث وفتن على الصعيد السياسي أو الاجتماعي أو العقدي.

ولقد اطلعت على أجزاء من هذا البحث، فوجدت الباحث قد أجاد وأصاب في استعراض الأحداث السياسية التي وقعت منذ تولي الخليفة الراشد عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عام ٢٣هـ وحتى نهاية عصر الدولة الأموية، وما تخلل ذلك من أحداث وفتن.

ولعل البحث في الفتن السياسية التي وقعت في عصر الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، والخروج منها بالدروس والعبر، لهو من حسنات هذا البحث الذي بذل فيه الباحث الدكتور/ زين العابدين كامل، جهدًا مشكورًا.

وأيضًا وجدت اختياره للمنهج البحثي الذي يقوم على المنهج الوصفي والمنهج التحليلي كان اختيارًا موفقًا، ومع أن البحث الذي يقوم على المنهج الوصفي والمنهج التحليلي كان اختيارًا موفقًا، إلَّا أن البحث الذي يقوم على هذا المنهج يرهق صاحبه نظرًا لندرة الوثائق الأصلية التي يحتاج إليها لتوثيق الأحداث، إلا أنني أراه قد بذل جهدًا كبيرًا وسعيًا مشكورًا في الحصول على المراجع التي أُتيحت له حتى يخرج الكتاب بالصورة اللائقة به، وأدعو الله أن ييسر له من المراجع ما يمكنه من استدراك ما فاته من التوثيق.

كما أدعو طلبة العلم إلى الحرص على اقتناء هذا الكتاب حتى تعم الفائدة.

وفي الختام أدعو الله أن ينفع بهذا الكتاب كل من قرأه وأن يجعله في ميزان حسنات صاحبه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

كتبه

محمد عبد الفتاح

تقديم الدكتور/ أحمد محمود فريد

الحمد لله الذي رضي من عباده باليسير من العملِ، وتجاوز لهم عن الكثيرِ من الزللِ، وأفاض عليهم النعمة، وكتب على نفسه الرحمة، وضَمَّنَ الكتابَ الذي كتبه: أن رحمته سبقت غضبَه، دعا عباده إلى دارِ السلامِ فَعَمَّهم بالدعوة، حجة منه عليهم وعدلًا، وخَصَّ بالهدايةِ والتوفيقِ من شاء نعمةً ومِنَّةً وفضلًا، فهذا عدلُه وحِكمتُه وهو العزيزُ الحكيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاءُ والله ذو الفضل العظيمِ.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادةَ عبدِه وابن عبدِهِ وابن أمتهِ، ومن لا غنى به طرفة عينٍ عن فضلهِ ورحمته، ولا مطمع له في الفوزِ بالجنة والنجاةِ من النار إلا بعفوهِ ومغفرته، وأشهدُ أن محمدًا عبده ورسوله، وصفِيُّه وخليله، أرسله رحمةً للعالمين، وقدوةً للعاملين، ومَحَجَّةً للسالكين، وحُجَّةً على العباد أجمعين، وقد تركَ أمته على الواضحةِ الغَرَّاء، والمحجَّةِ البيضاء، وسلك أصحابه وأتباعه على أثره إلى جناتِ النعيم، وعدَل الراغبون عن هديه إلى صراطِ الجحيم، ليهلكَ من هلكَ عن بيِّنةٍ، ويحيى من حيٍّ عن بينة، وإن الله لسميع عليم، فصلَّى الله وملائكته وجميع عباده المؤمنين عليه، كما وَحَّدَ الله عَزَّوَجَلَّ وعرفنا به ودَعا إلَيه وسلم تسليمًا.

ثُمَّ أَمَّا بعد: فهذه مقدمتي لكتاب «أحداث الفتن السياسية في عصر الخلافة الراشدة والدولة الأُموية» للباحث السلفي أخينا الفاضل الدكتور/ زين العابدين كامل، أراد الباحث برسالته تصحيح التاريخ الإسلامي في عصر الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وأن يُعيد الحق إلى أهله وأن يرد كيد الكائدين ومكر الماكرين الذي أرادوا تزييف التاريخ، وتشويه الصحابة الكرام الذين عاصروا

هذه الفتن، والتزموا تقوى الله عَزَّوَجَلَّ فيها، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦].

فَمَا العِزُّ لِلإِسْلَامِ إِلَّا بِظِلِّهِمْ وَمَا المَجْدُ إِلَّا مَا بَنَوْهُ فَشَيَّدُوا

ومصداقًا لقول النبي ﷺ، **«فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»** [رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح] ظهرت الفتن في آخر عصر الصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وكان مقتل عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بداية هذه الفتن، فكان مقتله سببًا لموقعة الجمل بين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وطلحة والزبير ومعهما عائشة أم المؤمنين، رضي الله عن الجميع، ثم كانت موقعة صفين بين علي بن أبي طالب ومعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ونجحت الخوارج على حين فرقة كما أخبر النبي ﷺ، وقاتلهم أولى الطائفتين بالحق وهو علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم قُتل علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الخليفة الراشد، وبايع أنصاره الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ومصداقًا لقول النبي ﷺ، **«إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ»** [أخرجه البخاري] تنازل الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عنه الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ثم مات معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ واستُخلف يزيد بن معاوية وكان في زمنه مقتل الحسين بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ووقعة الحرة ومات يزيد واستُخلف معاوية بن يزيد، وبايع أهل الحجاز عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ومات معاوية بن يزيد واستُخلف مروان بن الحكم ثم عبد الملك بن مروان وقُتل عبد الله بن الزبير، ثم وقعت بعض الأحداث والفتن الأخرى.

فهذه الفترة من تاريخ الإسلام كثرت فيها الأحداث واختلفت فيها آراء الباحثين والمستشرقين، أو من أراد الطعن في الإسلام وحملة رايته وعلى رأسهم الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، فكان الواجب على المخلصين والمنصفين بيان هذه الأحداث والمواقف ذبًّا عن الإسلام وأهله وردًا على المستشرقين والمبغضين، وهذا ما قدم لنا أخونا الدكتور/ زين العابدين كامل في رسالته.

فأسأل الله تعالى أن يجعل ذلك في ميزان حسناته وأن ينفع بهذا البحث من انتهى إليه، وأن يجعله الله عَزَّوَجَلَّ عملًا صالحًا يقربه إليه، وأسأل الله تعالى أن يجزي خيرًا من أعده ومن شارك في نشره حتى ينفع الناس به، وهو مولانا ونعم النصير وحسبنا ونعم الوكيل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه

دكتور/ أحمد محمود فريد

٢٧ جمادى الآخرة ١٤٣٩هـ

تقديم الدكتور/ ياسر حسين محمود

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، ﷺ، أما بعد،

فإن دراسة التاريخ عظة وعبرة وخبرة لكل عاقل، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١]، وتاريخ أهل الإسلام مما تلزم دراسته لكل متصدر للعمل الإسلامي، لأنه شديد الحاجة لمعرفة السنن الشرعية والكونية ومعرفة موازين المصالح والمفاسد واعتبار المآلات وفهم النصوص الشرعية كفهم السلف الصالح الذين طبقوها وعملوا بها في فترات الأزمات والمحن كما في فترات الرخاء والسعة، وليصبح المنهج السلفي واقعًا مطبقًا في حياتنا لنسعد مما وعظ به غيرنا ونضم إلى علمنا وخبرتنا علم الأولين وخبرتهم، فما أشبه الليلة بالبارحة.

ولفترة الفتن والمحن الأولى التي شهدها المجتمع المسلم الأول والدولة المسلمة ابتداءً من أول عصر الخلافة الراشدة وحتى انتهاء العهد الأموي أثرًا بالغًا في تكوين العقل الجمعي السلفي وترسيخ حقائق النصوص الشرعية مرتبطة بمآلات الأمور وحقائق الواقع، وقد كان الكتاب الذي جمعه الأخ الفاضل الدكتور/ زين العابدين كامل، «**أحداث الفتن السياسية في عصر الخلافة الراشدة والدولة الأُموية**» جهدًا طيبًا لكشف اللثام عن هذه الفترة، وقد

راجعته فوجدته نافعًا في بابه، مفيدًا لطالب العلم، والقائد والموجه والعامل بالسياسة.

فأسأل الله أن ينفع به كاتبه ومراجعه وناشره وقارئه في الدنيا والآخرة.

كتبه

دكتور/ ياسر حسين محمود

شكر وتقدير

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٤٣]

لقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: **«مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ، فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ»**[١]، وَقَالَ أيضًا: **«مَنْ لَمْ يَشْكُرْ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرْ اللَّهَ»**[٢]. وعملًا بهذا التوجيه النبوي، أجد لزامًا عليَّ بعد إتمام هذا الكتاب أن أنسب الفضل لأهله، إذ يطيب لي من فيض الحب والتقدير أن أُسطر أجمل آيات الشكر، لأساتذتي الأفاضل الذين أشرفوا على رِسَالَتَيّ الماجستير والدكتوراه، وهم:

ـ **أ. د./ أحمد مختار العبادي،** أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، والرئيس الأسبق لقسم التاريخ والآثار بكلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية، والمبعوث الثقافي الأسبق بسفارة مصر في إسبانيا، والوكيل الأسبق لمعهد الدراسات الإسلامية بمدريد. وقد شرُفت بإشراف سيادته على رسالة الماجستير.

ـ **أ. د./ حمدي عبد المنعم حسين،** أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ورئيس قسم التاريخ الإسلامي ـ كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية، وقد شرُفت بإشراف سيادته على رِسَالَتَيّ الماجستير والدكتوراه.

ـ **د./ إيناس حمدي سرور،** مدرس التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية بكلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية، وقد شرُفت بإشراف سيادتها على رِسَالَتَيّ الماجستير والدكتوراه.

---

(١) رواه أبو داود (١٦٧٢)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٢) رواه أحمد (٧٥٠٤) وأبو داود، والبخاري في الأدب المفرد، وابن حبان، والطيالسي، وصححه الألباني.

كما أتوجه بخالص الشكر والتقدير لأساتذتي الكرام، الذين أَثْلَجَ صَدْرِي اشْتِرَاكُهُمْ في لجنة المناقشة والحكم، ولا ريب أنني شرُفت بمناقشتهم لي، وهم:

ـ **أ. د./ كمال السيد أبو مصطفى،** أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، كلية التربية ـ جامعة الإسكندرية، وقد كان سيادته عضوًا في لجنة مناقشة رسالة الماجستير.

ـ **أ. د./ أسامة محمد فهمي صديق،** أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، كلية الآداب ـ جامعة أسيوط، وقد كان سيادته عضوًا في لجنة مناقشة رسالة الدكتوراه.

ـ **أ. د./ حنان مبروك اللبودي،** أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية، وقد كانت سيادتها عضوًا في لَجْنَتَيِّ المناقشة في الرسالتين، الماجستير والدكتوراه.

كما أتقدم بخالص الشكر والتقدير لمشايخي الكرام الذين قاموا بمراجعة الكتاب والتقديم له، وهم: فضيلة الشيخ/ محمد عبد الفتاح أبو إدريس، وفضيلة الدكتور/ أحمد فريد، وفضيلة الدكتور/ ياسر حسين محمود.

كما أتقدم بخالص الشكر والتقدير، لدار الخلفاء الراشدين للطباعة والنشر، على تبنيها لهذا الكتاب وطباعته ونشره.

جزى الله الجميع عني خير الجزاء، على نصحهم وإرشادهم واهتمامهم بي، والله أسأل أن يجعل عملهم خالصًا وللأمة نافعًا.

كتبه

زين العابدين كامل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة المؤلف

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١]. **أما بعد:**

فإن الله ـ تَعَالَى ـ جعل التاريخ عبرة وعظة، فقال ـ تَعَالَى ـ: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف: ١١١]، والتاريخ فيه آيات ودلائل، قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الأنعام: ١١].

ولقد أرشد الله ـ تعالى ـ إلى دراسة التاريخ والاطلاع على أحداثه، وتدبر أحوال السابقين من الأمم والملوك والأنبياء والمرسلين، فقال ـ تَعَالَى ـ: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٩]، والآيات في هذا المعنى كثيرة في القرآن العظيم، ولا شك أن التاريخ هو مرآة الأمم، يعكس ماضيها، ويترجم حاضرها، وتستلهم مِن خلاله مستقبلها؛ لذا كان من الأهمية بمكانٍ الاهتمام به، والحفاظ عليه، ونقله إلى

الأجيال نقلًا صحيحًا، بحيث يكون نبراسًا وهاديًا لهم في حاضرهم ومستقبلهم، فالشعوب التي لا تاريخ لها لا وجود لها، فلن تستطيع الأمم أن تتقدم في حاضرها إلا بالرجوع إلى تاريخها وماضيها، فلا مستقبل لأمةٍ تجهل تاريخها، والتاريخ تُعرف به الأحداث والوقائع، وما صاحبها من تغيرات ومجريات، والتاريخ فيه استلهام للمستقبل على ضوء السنن الربانية الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل، ولا تُحَابِي أحدًا من الخلق بحال.

والتاريخ فيه شَحْذٌ للهمم، وبعث للرُّوح من جديد، وتنافُسٌ في الخير والصلاح، والبذل والعطاء، والتاريخ يُبْرِزُ القدوات الصالحة التي دخلت التاريخ من أوسع أبوابه، وتركت صفحات بيضاء ناصعة لا تُنسى على مرِّ الأيام والسنين.

والتاريخ يُعين على معرفة حال الأمم والشعوب من حيث القوة والضعف، والعلم والجهل، وبمعرفته نقف على الجوانب المشرقة في تاريخنا فنقتفي أثرها، ونقف أيضًا على الجوانب السلبية فيه فنحاول تجنبها والابتعاد عنها.

ومن أهم ما تفيده دراسة التاريخ: معرفة أخطاء السابقين، والحذر من الأخطاء والمحظورات التي تم الوقوع فيها عبر التاريخ، ورحم الله شوقي إذ يقول:

اقـرأ التـاريخَ إذ فيـه العـبر ... ضـلَّ قـومٌ لـيس يـدرون الخـبر

وأُنبِّه على أنه لا يعلم حقائق الأمور إلا الله ـ تَعَالَى ـ، فالتاريخ المُوَثَّق قليل في عالم الأحداث، وليس هناك أعظم من التاريخ الإسلامي، والتاريخ الإسلامي مثل غيره من تواريخ الأمم والشعوب، يتأثر ببعض المنعطفات والحوادث؛ لذا كان من الأهمية بمكان أن نبحث في تاريخ أمتنا في تلك الفترة الزمنية التي كانت

محل البحث، فهي من أخطر الفترات التي مرت على الأمة، وذلك لكثرة الفتن والخلافات التي وقعت بين أبناء الأمة، بل بين أفضل جيل من أجيال الأمة.

ولقد تناول البعض أحداث هذه الفترة دون مراعاةٍ لضوابط البحث العلمي؛ فشوهوا التاريخ، وكذبوا في النقولات التي أخذوها بلا علمٍ ولا درايةٍ، فنحن لا ننكر وقوع بعض الأخطاء والأحداث الجِسَام في تلك الحِقْبَة التاريخية، ولكننا أيضًا نرفض الأكاذيب التي نقلها البعض؛ إما بجهل منه أو بسبب التعصب والهوى؛ فلقد وَظَّفَ البعض هذه الأحداث توظيفًا خبيثًا لِلنَّيْلِ من مكانة بعض أصحاب القرن الأول، ونزل هذا الميدان مَن لا يجيد البحث وفق الضوابط العلمية والشرعية؛ لذا كان لابد من القيام بهذا العمل المتواضع لنجلي فيه حقائق التاريخ، دون هوى أو تعصب لأحدٍ. فهذه الدراسة هي محاولة لإزالة بعض الشبهات التي عَلِقَتْ في أذهان البعض، ولتنقية هذه المرحلة التاريخية وتنقيحها مما قد علق بها من أباطيل وأكاذيب، فهذا البحث هو محاولة لمعرفة الحقيقة المجردة والوقوف على حقيقة ما حدث خلال تلك الفترة، وما هي الأسباب التي أدت إلى هذه الأحداث وما ترتب عليها من نتائج؟

هذا وأريد أن ألقي الضوء على بعض التنبيهات الهامة التي ينبغي أن يراعيها القارئ الكريم:

١- ضرورة الاهتمام بقراءة الهوامش والحواشي لما تشكله مِن أهمية بالغة، فلقد وضعت بها قدرًا كبيرًا مِن الإضافات الهامة، والتي ستساهِم بقدرٍ كبيرٍ في اكتمال المعلومات التاريخية وتحقيقها.

٢- لعل القارِئ الكريم يتساءل عن سرِّ كثرة الهوامش والحواشي في هذا الكتاب؟

فهذا الكتاب هو في الأصل عبارة عن ملخص لرسالتيّ «الماجستير والدكتوراه» الذين حصلت عليهما وقد كان عنوان رسالة الماجستير «الحالة السياسية لأهل الحجاز في عصر الدولة الأموية» وأما رسالة الدكتوراه فكان عنوانها «أحوال العراق السياسية في عصر الدولة الأُموية» وقد حصلت على رسالتيّ الماجستير والدكتوراه من قسم التاريخ ـ كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية ـ هذا وقد شرُفت بتوصية من لجنتيّ المناقشة والحكم بطباعة الرسالتين على نفقة الجامعة وتداولهما ونشرهما بالجامعات الأخرى، ثم قمت بإجراء بعض التعديلات والإضافات اللازمة لتتناسب مع طبيعة الكتاب، والذي خرج أخيرًا بهذه الصورة.

٣- هناك بعض المواضع التي دعت الحاجة إلى أن تكون مشكولة بالضبط، فقمنا بتشكيلها وضبطها تسهيلًا على القارئ الكريم.

٤- يُعتبر الفصل الأول بكامله مقدمة وتمهيد لموضوع الرسالة، وليس من مضمون البحث ومتنه، ولكني رأيت ذكره إتمامًا للفائدة.

٥- لست أزعم لهذا الكتاب الكمال؛ فالكمال لله وحده، ولكني آمل أن أكون قد ساهمت بهذا الجهد المتواضع في إلقاء الضوء على بعض الجوانب الهامة في تلك الفترة الحرجة التي تحدث عنها الكتاب، ولقد بلغت قصارى جُهدي في اختيار الصحيح من الروايات، وتنقيح ما يمكن تنقيحه قدر المستطاع، والجمع بين الروايات المتعارضة، وذلك وفق الضوابط والقواعد العلمية، ولقد بذلت وسعي في إعطاء القارئ صورة صحيحة عن حقائق الأحداث السياسية في تلك الفترة. والله المستعان.

موضوع الكتاب:

يتحدث البحث عن أهم الأحداث والفتن السياسية التي وقعت في عصر الصحابة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ زمن الخلافة الراشدة، كفتنة مقتل أمير المؤمنين عثمان

ابن عفان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ ، وموقعتيّ الجمل وصفين، ثم ما حدث في زمن الدولة الأُموية، كمعارضة الحسين ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ ، ومعارضة أهل المدينة في عهد يزيد، وموقعة الحرة، والأحداث السياسية بين عبد الله بن الزبير ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ وبني أُمية، وفتنة ابن الأشعث عام ٨١ هـ، وثورة يزيد بن المهلب عام ١٠٢هـ، وثورة زيد بن علي بن الحسين عام ١٢٢هـ، فلقد تناول هذا البحث أهم الأحداث السياسية التي وقعت بأرض الحجاز والعراق منذ عام ٢٣هـ وحتى عام ١٢٢هـ.

وكذا تعرض البحث لترجمة مختصرة لسيرة الخليفتين؛ أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

خطة البحث وتقسيماته:

لقد اقتضت طبيعة الموضوع أن يتم تقسيمه إلى مقدمة وأربعة فصول، ثم الخرائط وخاتمة، ثم ثبت بأهم مصادر ومراجع الدراسة، وهو على النحو الآتي:

الفصل الأول: «المسرح الجغرافي لأرض الحجاز وشبه الجزيرة العربية، والحالة الدينية والسياسية لأهل الحجاز قبل الإسلام»

ـ وقد ضم الفصل الأول خمسة مباحث على النحو الآتي:

أولًا: دراسة المسرح الجغرافي لأرض الحجاز وشبه الجزيرة العربية.

ثانيًا: لفظة العرب ومدلولها وتطورها التاريخي.

ثالثًا: الحياة القبلية عند العرب.

رابعًا: الحالة الدينية لأهل الحجاز قبل الإسلام.

خامسًا: الحالة السياسية لأهل الحجاز قبل الإسلام.

سادسًا: ترجمة مختصرة حول سيرة أبي بكر وعمر رضي الله عنها:

الفصل الثاني: «موقف أهل الحجاز من قيام الدولة الأموية»

ـ وقد ضم هذا الفصل أربعة مباحث على النحو الآتي:

أولًا: نسب بني أمية وآراء المؤرخين في دولتهم.

ثانيًا: فتنة مقتل عثمان بن عفان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ، وبداية الخلاف.

ثالثًا: موقعتيّ الجمل وصفين، الأسباب والنتائج.

رابعًا: تَنَازُلْ الحسن بن علي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ عن الخلافة، وتأسيس الدولة الأُموية.

الفصل الثالث: «معارضة أهل الحجاز للدولة الأموية»

ـ وقد ضم هذا الفصل أربعة مباحث على النحو الآتي:

أولًا: خلافة معاوية وفتنة حجر بن عدي، وتحول الخلافة إلى ملك وراثي، وإشكالية أخذ البيعة ليزيد.

ثانيًا: معارضة الحسين بن علي في عهد يزيد بن معاوية.

ثالثًا: معارضة أهل المدينة في عهد يزيد وموقعة الحرة.

رابعًا: الأحداث السياسية بين عبد الله بن الزبير وبني أُمَيَّة.

الفصل الرابع: «الأحداث السياسية في أرض العراق بعد مقتل عبد الله بن الزبير ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ»

ـ وقد ضم هذا الفصل ثلاثة مباحث على النحو الآتي:

أولًا: فتنة ابن الأشعث عام ٨١ هـ.

ثانيًا: ثورة يزيد بن المهلب عام ١٠٢هـ.

ثالثًا: ثورة زيد بن علي بن الحسين عام ١٢٢هـ.

ثم كانت خاتمة البحث، وذكر ما توصلنا إليه من نتائج بعد عرضنا للأحداث، ثم أهم الخرائط، وأخيرًا: قائمة بالمصادر والمراجع، ثم الفهرس العام للكتاب.

الدراسات السابقة في موضوع البحث:

نظرًا لأهمية هذا الموضوع من الناحية التاريخية والحضارية أيضًا، كان من الأهمية بمكان، أن يأخذ حقه في الدراسات التاريخية الحديثة المتخصصة، وبالرغم من أن المؤرخين القدامى قد أسهموا بشكل كبير في إبراز أهم النقاط الخاصة به، وقد اهتموا به وبسرد أحداثه وتحليلها في بعض الأحيان، كالطبري(١) وخليفة بن خياط(٢) والدينوري(٣) وابن الجوزي(٤) وابن كثير(١) وغيرهم؛ إلَّا أن المتخصصين

---

(١) هو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري ـ رحمه الله تعالى ـ، يُكنى بأبي جعفر، وعُرف بذلك، واتفق المؤرخون على أنه لم يكن له ولد يسمَّى بجعفر، بل إنه لم يتزوج أصلًا، وُلد سنة ٢٢٤هـ وتوفي سنة ٣١٠ هـ، ومن مؤلفاته: تفسيره الكبير المسمَّى: «جامع البيان في تفسير القرآن»، وكتاب «تاريخ الرسل والملوك»، وكتاب «تهذيب الآثار، وتفصيل معاني الثابت عن رسول الله ـ ﷺ ـ من الأخبار»، وكتاب «اختلاف الفقهاء»، ويُسمَّى «اختلاف علماء الأمصار في أحكام شرائع الإسلام».

(٢) هو أبو عمرو خليفة بن خياط بن خليفة الشيباني العصفري البصري (المتوفى: ٢٤٠هـ)، ومن أهم مؤلفاته: «تاريخ خليفة بن خياط»، و«الطبقات لخيفة بن خياط».

(٣) أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري، المتوفى سنة (٢٨٢هـ)، قد ولد في بداية القرن الثالث الهجري بمدينة دينور، ونشأ في أسرةٍ من أصل فارسي، وقد عاش معظم حياته في مدينة دينور، ومن أهم مؤلفاته: كتاب «الأخبار الطوال».

(٤) جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، ومن أهم مؤلفاته: «المنتظم في تاريخ الأمم والملوك»، ويعد هذا الكتاب من أهم الكتب التي تكلمت في التاريخ، ويعد مرجعًا من مراجع هذا العلم، وقد امتاز ابن الجوزي بكثرة مؤلفاته وتنوعها، ومنها: «أعمار الأعيان»، و«بستان الواعظين»، و«تلبيس إبليس»، و«تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير»، و«تاريخ بيت المقدس»، و«الثبات عند الممات»،

من المعاصرين يجب عليهم أن يقوموا بنفس الدور في البحث والنقد والتحليل، لاسيما وأن هذه الفترة الزمنية تعد من أخطر الحقب التاريخية في تاريخ الإسلام؛ نظرًا لما شابها من كذب وافتراء وتدليس، بل وتزييف للتاريخ في بعض الأحيان، وتأتي أهمية المراجع الحديثة، حيث أنها أكثر تخصصًا، وتتميز بالدقة والتحليل، والنقد المجرد للأحداث، فهي مكملة وموضحة للمصادر الأصلية، من خلال عرضها للأحداث التاريخية وأسبابها ونتائجها، علمًا بأن هناك بعض الدراسات الحديثة قد اهتمت بهذا الموضوع، وأسهمت في إبراز معالم الأحداث خلال هذه الفترة، وهاك بعض الأمثلة:

كتاب «التاريخ الأموي والعباسي»(٢)، وكتاب «الدولة الأموية المفترى عليها، دراسة الشبهات ورد المفتريات»(٣)، وكتاب «عثمان بن عفان ذو النورين»(٤)، وكتب: «تيسير الكريم المنان في سيرة عثمان بن عفان ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ»، و«أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ»، و«الدولَة الأُمويَّة

و«جواهر المواعظ»، و«حسن السلوك في مواعظ الملوك»، و«صفة الصفوة»، و«صيد الخاطر»، وغير ذلك.

(١) هو عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (المتوفي: ٧٧٤هـ)، وقد امتاز ابن كثير بكثرة مصنفاته، ومنها: «السيرة النبوية»، و«قصص الأنبياء»، و«البداية والنهاية»، و«تفسير ابن كثير»، و«تحفة الطالب بمعرفة أحاديث مختصر ابن الحاجب»، و«النهاية في الفتن والملاحم»، وغير ذلك من الكتب.

(٢) لمحمد عبد الحميد الرفاعي، وهاشم عبد الراضي محمد عيسى.

(٣) لحمدي شاهين.

(٤) لمحمد رضا.

عَواملُ الازدهارِ وَتَداعيات الانهيار»[١]، وكتاب «تاريخ الخلفاء الراشدين»[٢]، وكتاب «فتنة مقتل عثمان بن عفان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ»[٣]، وكتاب «العالم الإسلامي في العصر الأموي»[٤]، ولقد استعنت في الفصل الأول من الكتاب بكتاب «تاريخ العرب القديم»[٥]، وكتاب «دراسات في تاريخ العرب القديم»[٦]، وكتاب «المفصل في تاريخ العرب»[٧]، وغير ذلك من الكتب والرسائل العلمية، وأرجو الله ـ تعالى ـ أن تكون هذه الرسالة إضافة جديدة لمكتبة التاريخ الإسلامي.

المنهج المُتَّبَع في دراسة الموضوع:

تقوم هذه الدراسة على مجموعة من المناهج البحثية، ومنها: المنهج الوصفي[٨]، والمنهج التحليلي[١]، وقد اتبعت خلال عملي في هذا البحث، منهجًا علميًّا

---

(١) عَلي محمد محمد الصَّلاَّبي.

(٢) لمحمد سهيل طقوش.

(٣) لمحمد بن عبد الله بن عبد القادر غبان الصبحي.

(٤) لعبد الشافي محمد عبد اللطيف.

(٥) لتوفيق برو.

(٦) لمحمد بيومي مهران.

(٧) لجواد علي.

(٨) هو من أهم المناهج المستعملة في البحث العلمي، يلجأ إليه الباحث عندما تتوفر لديه معرفة مسبقة عن أبعاد أو جوانب الظاهرة المراد دراستها، ويريد من جانبه «التوصل إلى معرفة دقيقة وتفصيلية عن عناصر الظاهرة موضوع البحث تفيد في تحقيق فَهْمٍ أفضل لها أو في وضع سياسات أو إجراءات مستقبلية خاصة بها». بدأ العمل بهذا المنهج في الغرب في نهاية القرن الثامن عشر، لكنه عرف أوج تطوره في القرن العشرين.

يعرف بأنه أسلوب من أساليب التحليل المركز على معلومات كافية ودقيقة عن ظاهرة أو موضوع محدد، أو فترة أو فترات زمنية معينة، وذلك من أجل الحصول على نتائج علمية، ثم

أكاديميًّا يقوم في الأساس على جمع المعلومات التاريخية من المصادر الأصلية، ثم النظر والاطلاع في المراجع الحديثة، وذلك للجمع بين رؤية الباحثين المعاصرين والمؤرخين القدامى، وذلك من أجل التوصل إلى النتائج العلمية السليمة، ولقد حرصت كل الحرص على اتباع المنهج البنائي، القائم على وضع وجمع كل التفاصيل المتناثرة في بوتقة واحدة من أجل الوصول إلى تصور واضح للأحداث، كما اتبعت أيضًا أسلوبًا علميًّا منهجيًّا قائمًا على المقابلة بين المصادر وتحليليها، واستنباط الأسباب والنتائج والحقائق قدر المستطاع، ولا شك أن الحديث عن هذه الحقبة التاريخية يُعد من الصعوبة بمكان، حيث إن البحث يدرس حالة من عدم الاستقرار وانتشار الفتن والخلافات والقتل بين بعض أصحاب القرن الأول، وهم أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ، وقد جاء في الحديث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ، عَنِ النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ قَالَ: **«خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»**(٢).

تفسيرها بطريقة موضوعية، بما ينسجم مع المعطيات الفعلية للظاهرة.كما يمكن تعريفه بأنه وصف دقيق وتفصيلي لظاهرة أو موضوع محدد على صورة نوعية أو كمية رقمية، فالتعبير الكيفي يصف الظاهرة ويوضح خصائصها، أما التعبير الكمي فيعطينا وصفًا رقميًّا يوضح مقدار هذه الظاهرة أو حجمها ودرجة ارتباطها مع الظاهرات المختلفة الأخرى.

(١) يقوم هذا المنهج على عمليّاتٍ ثلاث: «التّفسير، والنّقد، والاستنباط»، وقد تجتمع هذه العمليّاتُ كلّها في سياق بحثٍ معيّن، أو قد يُكتفى ببعضها عنها، وذلك بحسب طبيعة البحث. انظر: «المنطق الحديث ومناهج البحث»، و«الملتقى الفقهي للفوزان».

(٢) رواه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣). قال النووي ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: «الصَّحِيحُ أَنَّ قَرْنَهُ ـ ﷺ ـ: الصَّحَابَةُ. وَالثَّانِي: التَّابِعُونَ. وَالثَّالِثُ: تَابِعُوهُمْ» انتهى من «شرح النووي على مسلم» (١٦/٨٥).

لذا كان لابد من توخي الحذر أثناء تناول الموضوع؛ لأننا نتحدث عن أفضل جيل في أمة رسول الله ـ ﷺ ـ ، فهؤلاء هم أئمة الهدى ومصابيح الدُّجَى؛ هم السادة والأشراف، هم الأفاضل والنبلاء، هم مَن رضي الله ـ تعالى ـ عنهم في القرآن الكريم، هم أصحاب بدر وبيعة الرضوان، وفيهم مَن بشَّره رسول الله ـ ﷺ ـ بالجنة في حياته؛ **لذا كان من الصعوبات البالغة**: التنقيح للروايات التي ذكرها المؤرخون في كتبهم، لاسيما وأن أوقات الفتن تختلط فيها الأمور، وقد كثرت الروايات الضعيفة والموضوعة التي شوهت الصورة البيضاء النقية لأصحاب القرن الأول.

ومن الصعوبات أيضًا: ندرة الوثائق الأصلية التي يحتاج الباحث إلى الرجوع إليها أثناء البحث.

ومن الصعوبات أيضًا: أن بعض المصادر التي تحدثت عن هذا الموضوع، غلب على مؤلفيها التعصب المذهبي أحيانًا، واتباع الهوى وعدم الالتزام بالضوابط العلمية والشرعية؛ لذا بالغوا في ذكر بعض الأخبار التي ترجح ما يميلون إليه!

ومن الصعوبات أيضًا: تضارب وتعارض بعض الروايات في الموقف الواحد، وقد بلغت قصارى جهدي في اختيار الصحيح من الروايات، وتنقيح ما يمكن تنقيحه قدر المستطاع، والجمع بين الروايات المتعارضة، وذلك وفق الضوابط والقواعد العلمية، ولقد حاولت في بحثي هذا أن أجمع بين التاريخ كعلم للأخبار والحوادث، وبين التاريخ كتفسير لهذه الحوادث والمتغيرات، والنظر في الأسباب والنتائج والتحليل ونحو ذلك.

الفصل الأول

المسرح الجغرافي لأرض الحجاز وشبه الجزيرة العربية والحالة الدينية والسياسية لأهل الحجاز قبل الإسلام ومختصر لترجمة سيرة الخليفتين أبي بكر وعمر

المبحث الأول

المسرح الجغرافي لأرض الحجاز وشبه الجزيرة العربية

١- شبه الجزيرة العربية:

هي عبارة عن منطقة جغرافية تقع في جنوب غرب آسيا عند تلاقي آسيا مع أفريقيا، وهي أكبر شبه قارة على وجه الأرض(١).

وتشكِّل شبه الجزيرة العربية جزءًا هامًّا من قارة آسيا حيث إنها تلعب دورًا جيوسياسيًّا(٢) خطيرًا في الشرق الأوسط والعالم العربي جراء ما تمتلك من احتياطيات نفطية كبيرة ومصادر غاز طبيعية. وشبه الجزيرة العربية لها حدود بحرية من الشمال الغربي تتمثل في البحر الأحمر وخليج العقبة، ومن الجنوب بحر العرب، ومن الجنوب الشرقي خليج عمان والخليج العربي، وشبه جزيرة العرب عبارة عن هضبة صحراوية كانت في الأزمنة الجيولوجية الغابرة متصلة بالقارة الإفريقية حتى فصل بينهما الأخدود الانهدامي الطولاني الذي حدث في الزمن الجيولوجي الثالث نتيجة صدع في القشرة الأرضية، والذي نشأ عنه البحر الأحمر الفاصل بين القسمين؛ ولذا فإن التشابه بينها وبين أجزاء إفريقيا الشرقية «مصر والسودان والحبشة» التي تقابلها كبير، مما دعا أحد الكتاب الغربيين إلى تسميتها

---

(١) وهي تغطي نحو ٣,٢٣٧,٥٠٠ كم^2 تقريبًا، وهي تقع في الجنوب الغربي من قارة آسيا بين درجتي عرض ١٢-٣٠ْ إلى الشمال من خط الاستواء، انظر: «تاريخ العرب القديم» (ص ١٨).

(٢) معنى مصطلح «جيوسياسي»: هو تأثير العوامل الجغرافية على السياسة الدولية. وتشمل هذه العوامل المساحة والموقع والموارد الطبيعية، وهذا التعبير مشتق من كلمتين: جيو وهي باليونانية تعني الأرض، وكلمة السياسة أكاديميًّا، وقد صاغه لأول مرة العالم السويدي «كجلين» للدلالة على دراسة تأثير الجغرافيا على السياسة، ويعتبر هذا المصطلح من المصطلحات الحديثة، انظر: «قاموس المعاني».

ـ مبالغةً ـ باسم: «أفريقيا الآسيوية»(١)، أي أن قسمها الجنوبي يقع في المنطقة المدارية الصحراوية، فهي إذا استثنينا منها المناطق الجبلية الجنوبية العالية، حارَّة الإقليم, قاسية المناخ وكان من أثر الانهدام والحركات الأرضية الباطنية التي رافقته أن شبه الجزيرة قد مادت بمجموعها، واتخذت شكل سطح مائل ينحدر من الغرب ومن الجنوب الغربي «زاوية اليمن» نحو الشرق والشمال الشرقي «زاوية الكويت»، وأنها أصبحت مُحَاطَةٌ من أطرافها الثلاثة «عدا الشمال» بالبحار، وأن انحدار حافتها الغربية أصبح حادًّا وسريعًا نحو البحر الأحمر، بينما نشاهد أن انحدارها نحو الشرق انحدار هادئ بطيء متدرج (٢).

وبينما تكون حدودها من جهات الغرب والجنوب والشرق واضحة المعالم إذ تحف بها البحار، ثم إن حدودها الشمالية غير واضحة، وليس من فاصل طبيعي يفصل بينها وبين بلاد الشام. أما مساحتها فتبلغ نحو ثلاثة ملايين من الكيلو مترات المربعة، فهي بذلك تزيد على مساحة الهند، ونسبة مساحتها إلى مساحة القارة الأوروبية هو الربع, بينما تبلغ خمسة أمثال مساحة فرنسا.

فهي بهذا الاتساع وبما تتمتع به من مميزات وخصائص جديرة بأن تعتبر قارة مستقلة، وهي في الواقع أكبر شبه جزيرة في العالم. وتضم شبه الجزيرة من الناحية السياسية حاليًا عدة دول، هي: المملكة العربية السعودية، واليمن، وعمان، والأردن، والإمارات، والكويت، وقطر، والبحرين(٣).

---

(١) «دراسات في تاريخ العرب القديم» (ص٨١).

(٢) ويبلغ متوسط عرض شبه الجزيرة ٧٠٠ ميل «نحو ١١٥٠كم»، وأقصى طولها ١٢٠٠ ميل «نحو ٢٠٠٠كم»، فهي إذن تأخذ شكل مستطيل يمتد من الجنوب إلى الشمال. انظر: «تاريخ العرب القديم» (ص١٩).

(٣) «صفة جزيرة العرب» (ص٣).

لقد قسَّم جغرافيو العرب القدماء شبه جزيرة العرب إلى عدة أقسام، هي[١]:

١- **تهامة**، وهي السهل الساحلي الضيق الذي يحاذي ساحل البحر الأحمر في الجزيرة العربية. وهو يفصل بين البحر الأحمر في الغرب وجبال السروات في الشرق، ويمتد من خليج العقبة شمالًا حتى اليمن جنوبًا، وجاء اسم تهامة من التهم وهو شدة الحر وركود الريح، ولانخفاض أرضها سميت بالغور[٢]، وقد أصبح في العصر الحديث يقسم إلى ثلاث مناطق رئيسية، هي: «تهامة الحجاز» في الشمال بمحاذاة جبال الحجاز، و«تهامة عسير» في الوسط بمحاذاة جبال عسير، و«تهامة اليمن» ضمن حدود الجمهورية اليمنية. وقيل فيها أيضًا: إنها قطعة من اليمن وهي جبال مشتبكة، أولها في البحر القلزمي[٣] ومشرفة عليه، وحدودها في غربيها: بحر القلزم، وفي شرقيها: جبال متصلة من الجنوب إلى الشمال، وطول أرض تهامة من الشرجة[٤] إلى عدن على الساحل اثنتا عشرة مرحلة، وفي شرقيها مدينة صعدة[٥] وجرش[٦] ونجران، وفي شمالها: مكة وجدة، وفي جنوبها: صنعاء نحو عشرين مرحلة. وسميت تهامة؛ لتغير هوائها من قولهم: تهم الدهن، وتمه إذا تغير ريحه.

---

(١) «تاريخ العرب القديم» (ص ٢٠).

(٢) «الروض المعطار في خبر الأقطار» (ص١٦٥).

(٣) بحر القُلزُم (بضم القاف وتسكين اللام وضم الزاي) هو البحر الذي يفصل بين آسيا وإفريقيا، ومن أسمائه المشهورة جدًّا والتي أصبح يعرف بها حديثًا: هو «البحر الأحمر»، كذلك من أسمائه القديمة: «بحر الحبشة». انظر: موقع هيئة المساحة الجيولوجية بالسعودية.

(٤) الشرجة: هي إحدى قرى بمديرية عمد التابعة لمحافظة حضرموت، بلغ تعداد سكانها ١٥٧ نسمة حسب تعداد اليمن لعام ٢٠٠٤. انظر: «الموقع الجغرافي لبلاد اليمن».

(٥) صعدة: هي مدينة عامرة آهلة يقصدها التجّار من كل بلد، وبها مدابغ الأدم وجلود البقر التي للنعال. وهي خصبة كثيرة الخير، وكانت قديمًا مستقر ملوك اليمن. انظر: «المسالك والممالك» (ص٢٥).

(٦) جرش: هي مدينة صغيرة نزهة وعامرة من نواحي اليمن. انظر: «حدود العالم من المشرق إلى المغرب» (ص١٨١).

٢- **الحجاز**، وهي المنطقة الغربية من المملكة العربية السعودية حاليًا، ومن مدنها الرئيسية: مكة المكرّمة، والمدينة المنورة، وجدة، والطائف، وخيبر(١). ويأتي على رأس أشهر القبائل العربية التي استوطنت الحجاز قديمًا «قبيلة قريش» في مكة، وهي التي ينتسب إليها سيد الخلق سيدنا محمد ـ ﷺ ـ، والخلفاء الراشدون، والأمويون، والعباسيون، والأوس والخزرج في المدينة المنورة(٢).

٣- **والعروض**: تشمل اليمامة والبحرين، وما والاهما، وسميت عروض؛ لأنها تعترض بين اليمن والعراق ونجد، وكانت اليمامة تسمى قديمًا: «جوا»، وذلك عندما نزلتها طسم وجديس فعرفت باليمامة، وقاعدتها في القديم مدينة حجر، أما البحرين فإقليم فسيح قريب من الخليج العربي، وكانت قاعدتها «هجر»(٣).

٤- **اليمن**: وهي منطقة واسعة تمتد حدودها من تهامة إلى العروض، وسميت بذلك الاسم لتيامن العرب إليها؛ لأنها أيمن الأرض، وعرفت عند العرب بالخضراء، لكثرة مزارعها ونخيلها وثمارها، كما عرفت عند اليونان ببلاد العرب السعيدة(٤).

٥- **نجد**: وهي الهضبة الواسعة التي تقع في وسط شبه الجزيرة العربية، وتشمل المناطق الواقعة ما بين بادية السماوة في الشمال والدهناء في الجنوب، وأطراف العراق شرقًا والحجاز غربًا، وهي أوسع أقاليم شبه الجزيرة، ويتخللها الكثير من الأودية، مثل: وادي الرمة ووداي حنيفة ووادي عاقل؛ لذلك كانت نجد أطيب أقاليم شبه الجزيرة. وقد كانت نجد الموطن القديم للكثير من القبائل

---

(١) «البلدان» (ص٨٤).

(٢) «الروض المعطار في خبر الأقطار» (ص١٨٨).

(٣) «صفة جزيرة العرب» (ص٤٨)، و«دراسات في الحضارة القديمة، العرب قبل الإسلام» (ص٦٣).

(٤) «معجم البلدان» (٥/ ٤٤٧).

العربية الكبيرة، وشهدت مولد الدعوة الإصلاحية التي قامت على أساسها الدولة السعودية بمراحلها الثلاث. ويقع معظم ما يعرف بنجد حاليًا ضمن حدود المملكة العربية السعودية، وتقع بها العاصمة الرياض[١].

٢- المسرح الجغرافي لأرض الحجاز:

الحجاز بكسر الحاء وآخره زاي، قال أبو بكر الأنباري[٢]: «في الحجاز وجهان: يجوز أن يكون مأخوذًا من قول العرب: حجز الرجل بعيره، يحجزه إذا شدّه شدًّا يقيده به، ويقال للحبل: حجاز. ويجوز أن يكون سمي حجازًا؛ لأنه يحتجز بالجبال، يقال: احتجزت المرأة إذا شدّت ثيابها على وسطها واتّزرت، ومنه قيل: حجزة السراويل، وقول العامة: حزّة السراويل خطأ»[٣].

والحجاز: جبل ممتدّ حالّ بين غور تهامة ونجد؛ فكأنه منع كلّ واحد منهما أن يختلط بالآخر فهو حاجز بينهما، وهذه حكاية أقوال العلماء، قال الخليل: سمي الحجاز حجازًا؛ لأنه فصل بين الغور والشام وبين البادية. وقال عمارة بن عقيل: ما سال من حرّة بني سليم وحرّة ليلى فهو الغور حتى يقطعه البحر، وما سال من ذات عرق مغربًا فهو الحجاز إلى أن تقطعه تهامة، وهو حجاز أسود حجز بين نجد وتهامة، وما سال من ذات عرق مقبلًا فهو نجد إلى أن يقطعه العراق. وقال الأصمعي: ما احتزمت به الحرار حرّة شوران وحرّة ليلى وحرّة واقم وحرّة النار وعامة منازل بني سليم إلى المدينة، فذلك الشقّ كله حجاز. وقال الأصمعي أيضًا في كتاب جزيرة العرب: الحجاز اثنتا عشرة دارًا: المدينة، وخيبر، وفدك، وذو

---

(١) «تاريخ العرب القديم» (ص٢١).

(٢) «الزاهر في معاني كلمات الناس» (٢ / ٣٤٧)

(٣) «معجم البلدان» (٢/ ٢١٨).

المروة، ودار بليّ، ودار أشجع، ودار مزينة، ودار جهينة، ونفر من هوازن، وجلّ سليم، وجلّ هلال، وظهر حرّة ليلى، ومما يلي الشام شغب وبدا[١].

وقال الأصمعي في موضع آخر من كتابه: الحجاز من تخوم صنعاء من العبلاء وتبالة إلى تخوم الشام، وإنما سمي حجازًا؛ لأنه حجز بين تهامة ونجد، فمكة تهامية والمدينة حجازية والطائف حجازية، وقال غيره: حدّ الحجاز من معدن النقرة إلى المدينة، فنصف المدينة حجازيّ ونصفها تهاميّ، وبطن نخل حجازي وبحذائه جبل يقال له الأسود نصفه حجازي ونصفه نجديّ، وقيل أيضًا: إن الحجاز سمي حجازًا؛ لكثرة الحرار[٢] فيه واحتجاز أهلها من العدو؛ ولذلك قال النابغة وذكر امتناعه بحرة النار:

إما عُصيت فإني غير منقلب ... من اللِّصاب بجنبي حرَّة النَّار
فموضع الماء من صمَّاء مظلمة ... تقيِّد العير لا يسري بها السَّاري»[٣]

وذكر ابن أبي شبّة أن المدينة حجازية، وروي عن أبي المنذر هشام أنه قال:

«الحجاز ما بين جبلي طيّء إلى طريق العراق لمن يريد مكة، وسمي حجازًا؛ لأنه حجز بين تهامة ونجد، وقيل: لأنه حجز بين الغور والشام وبين السراة ونجد، وعن إبراهيم الحربي أن تبوك وفلسطين من الحجاز»[٤].

وقال أبو المنذر هشام بن أبي النضر الكلبي، في كتاب افتراق العرب وقد حدّد جزيرة العرب ثم قال: «فصارت بلاد العرب من هذه الجزيرة التي نزلوها

---

(١) «مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع» (١/ ٣٨٠).

(٢) والحَرَّةُ مِنَ الأَرضين: الصُّلبة الْغَلِيظَةُ الَّتِي أَلبستها حِجَارَةٌ سُودٌ نَخِرَةٌ كأَنها مُطِرَتْ، وَالْجَمْعُ حَرَّاتٌ وحِرَارٌ، قَالَ الأَزهري: «سُمِّيَ حِجازًا؛ لأَن الحِرَارَ حَجَزَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَالِيَةِ نَجْدٍ» «لسان العرب» (١٥/ ٣٣٠).

(٣) «صفة جزيرة العرب» (ص٢٠٥).

(٤) «الزاهر في معاني كلمات الناس» (ص٢٥٠).

وتوالدوا فيها على خمسة أقسام عند العرب في أشعارهم وأخبارهم: تهامة، والحجاز، ونجد، والعروض، واليمن، وذلك أن جبل السراة، وهو أعظم جبال العرب وأذكرها، أقبل من قعرة اليمن حتى بلغ أطراف بوادي الشام فسمّته العرب حجازًا؛ لأنه حجز بين الغور، وهو تهامة، وهو هابط، وبين نجد وهو ظاهر، فصار ما خلف ذلك الجبل في غربيه إلى أسياف البحر من بلاد الأشعريين وعكّ وكنانة وغيرها، ودونها إلى ذات عرق والجحفة وما صاقبها، وغار من أرضها الغور غور تهامة، وتهامة تجمع ذلك كله، وصار ما دون ذلك الجبل في شرقيه من صحاري نجد إلى أطراف العراق والسماوة وما يليها نجدًا، ونجد تجمع ذلك كله، وصار الجبل نفسه، وهو سراته، وهو الحجاز وما احتجز به في شرقيه من الجبال وانحاز إلى ناحية فيد والجبلين إلى المدينة، ومن بلاد مذحج تثليث وما دونها إلى ناحية فيد حجازًا، والعرب تسميه نجدًا وجلسًا وحجازًا، والحجاز يجمع ذلك كله، وصارت بلاد اليمامة والبحرين وما والاهما العروض»[1].

وقال الحسن: «إنما سمّي الحجاز حجازًا؛ لأنه حجز على الأنهار والأشجار، وقال الخليل: سمّي حجازًا؛ لأنه فصل بين الغور وبين الشام»[2].

فالحجاز منطقة تاريخية وتعد أحد أقاليم شبه الجزيرة العربية الخمسة، وتقع في الجزء الشمالي الغربي منها.

---

(١) «معجم البلدان» (٢/٢١٩).

(٢) «معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع» (١/١٢).

المبحث الثاني

لفظة العرب ومدلولها وتطورها التاريخي

ولعله من الضرورة بمكان أثناء تناولنا للحالة السياسية والدينية لأهل الحجاز قبل الإسلام أن نلقي الضوء على لفظة العرب ومدلولها، وتطورها التاريخي.

العَرَب: اسمٌ لِهَذَا الجِيل المَعْرُوف مِنَ النَّاسِ. وسَواءٌ أَقَامَ بالبَادِيَة أَوِ المُدُن. والنَّسب إِلَيْهِمَا: أَعْرَابِيّ وعَرَبِيّ، والعَرَبُ العَارِبَة هم الخُلَّص مِنْهُم،(١) وكانت كلمة العرب تطلق على قبائل عربية كانت تقيم في بادية الشام وفي طور سيناء، وفي الصحراء بأدوم، وقد توسع مدلولها بعد الميلاد، ولا سيما في القرن الرابع والخامس والسادس؛ فأطلقت على العرب عامة، حتى إن كتبة الكنيسة ومؤرخي هذا العصر قلما استعملوا كلمة «عرب» في كتبهم.

وقيل: إن العرب لغةً: الصحاري والقفار، والأرض المجدبة التي لا ماء فيها ولا نبات.

وقد أطلق هذا اللفظ منذ أقدم العصور على جزيرة العرب كما أطلق على قوم قطنوا تلك الأرض، واتخذوها موطنًا لهم.(٢)

وقيل: العَرَبُ العَارِبَةُ والعَرْباءُ: هم الخُلَّصُ، والعَرَبُ المُسْتَعْرِبَة هم الذين دَخَلُوا فيهم بَعْدُ. وتَصْغيرُ العَرَبِ: عُرَيْبٌ بغَير الهاء(٣).

---

(١) «النهاية في غريب الحديث والأثر» (ص٢٠٣). «جمهرة أنساب العرب» (ص٨). «الأنساب» (ص٣٢).

(٢) «القاموس المحيط» (ص١١٣). «الرحيق المختوم» (ص ١١).

(٣) «المحيط في اللغة» (ص٩٣).

والعربُ أَقْسَام:

الأَوَّلُ: عَارِبَة وعَرِبَاءُ وهم الخُلَّصُ، وهم تسْع قَبَائِل من وَلَد إرمَ بْنِ سَامِ ابْنِ نُوح، وَهِي: عَادٌ، وثمودُ، وأُميم، وعَبِيل، وطَسْم، وجَدِيس، وعِمْلِيق، وجُرْهُم، وَوَبار، وَمِنْهُم تَعَلَّم إِسماعِيلُ ـ عَلَيْهِ السَّلامُ ـ العربيةَ.

والقِسْمُ الثَّانِي: المُتَعَرِّبَة؛ وهم بَنُو إِسْمَاعِيل، وَلَدُ مَعَدّ بْنِ عَدْنَان بْنِ أُدَد[(١)].

ومن المؤرخين مَن قسَّم العرب إلى ثلاثة أقسام بحسب السلالات التي ينحدرون منها:

١ـ **العرب البائدة:** وهم العرب القدامى الذين لم يمكن الحصول على تفاصيل كافية عن تاريخهم، مثل: عاد، وثمود، وطسم، وجديس، وعملاق، وسواها. ولقد وُجد في زمننا الحاضر الكثير من آثارهم.

٢ـ **العرب العارية:** وهم العرب المنحدرة من صلب يعرب بن يشجب ابن قحطان، وتسمَّى بالعرب القحطانية. ومهدها بلاد اليمن[(٢)]، وقد تشعبت قبائلها وبطونها فاشتهرت منها قبيلتان: حمير وكهلان. أما حمير؛ فأشهر بطونها: زيد الجمهور، وقضاعة، والسكاسك. وأما كهلان؛ فأشهر بطونها: همدان، وأنمار، وطيء، ومذحج، وكندة، ولخم، وجذام، والأزد، والأوس، والخزرج، وأولاد جفنة ملوك الشام[(٣)].

٣ـ **العرب المستعربة:** وهي العرب المنحدرة من صلب إسماعيل، وتسمَّى بالعرب العدنانية.

---

(١) «تاج العروس من جواهر القاموس» (٣/ ٣٣٠).

(٢) «دراسات في الحضارة القديمة، العرب قبل الإسلام» (ص ٦٩).

(٣) «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» (٢٠/ ٢٦٠).

وجدهم الأعلى وهو سيدنا إبراهيم ـ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ـ، من بلاد العراق، ومن بلدة يقال لها: «أر» على الشاطيء الغربي من نهر الفرات، بالقرب من الكوفة، وقد جاءت الحفريات والتنقيبات بتفاصيل واسعة عن هذه البلدة، وعن أسرة إبراهيم ـ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ـ(١)، وعن الأحوال الدينية والاجتماعية في تلك البلاد(٢).

ومعلوم أن إبراهيم ـ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ـ هَاجَرَ منها إلى حاران أو حران، ومنها إلى فلسطين، فاتخذها قاعدة لدعوته، وكانت له جولات في أرجاء هذه البلاد وغيرها، وقدِم مرة إلى مصر، وقد حاول فرعون مصر أن يكيد له ويقع بزوجته سارة، ولكن الله ردّ كيده في نحره، وعرف فرعون ما لسارة من الصلة القوية بالله، حتى أخدمها بهاجر؛ اعترافًا بفضلها، ووهبتها سارة إبراهيم ـ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ـ(٣).

ولعل من المناسب هنا في هذا المقام أن نحدد معنى كلمة «عربي» وأصولها؛ تلك الكلمة التي تضاربت فيها آراء المفسرين، ولم يتفقوا على رأي واحد بشأنها(٤).

إن علماء العربية أنفسهم حَيَارَى في تعيين أول من نطق بالعربية، فذهب فريق إلى أن «يعرب بن قحطان» كان أول من أعرب في لسانه، وتكلم بهذا اللسان العربي؛ لأنه أول من سجع في العربية الواسعة، ونطق بأفصحها وأبلغها وأوجزها، والعربية منسوبة إليه مشتقة من اسمه(٥).

---

(١) «نسب قريش» (ص٦).

(٢) «مختار الصحاح» (ص٢٠٤).

(٣) «الرحيق المختوم» (ص١٥).

(٤) «المزهر في علوم اللغة وأنواعها» (١/٢٩).

(٥) «نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب» (ص ١١)، «المزهر في علوم اللغة» (١/ ٣١-٣٢)، «نهاية الأرب» (١٤ / ٣٣٩).

وهناك فريق ثانٍ يزعم أن هودًا ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ، كان أول من تكلم بالعربية، بينما يزعم آخرون أن أباه هو أول من تكلم بها، على أن فريقًا ثالثًا يرى أن نوحًا ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ هو أول الناطقين بالعربية، ويتجه فريق رابع إلى أنه عمليق، وهو أبو العمالقة، وذلك حين ظعن القوم من بابل، ومِن ثَمَّ فقد كان يقال للعماليق ـ وكذا لجدهم ـ «العرب العاربة». وأخيرًا: ذهب فريق خامس إلى أن إسماعيل ابن إبراهيم ـ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ـ كان أول مَن أُلهم هذا اللسان العربي المبين، وهو ما يزال بعد في الرابعة عشرة من عمره، ولعل هذا الاتجاه الأخير إنما كان السبب في أن يذهب البعض إلى أن قحطانَ إنما هو من ولد إسماعيل ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ[1].

ولعل هذه الآراء المتضاربة إنما كانت السبب في أن يحاول البعض التوفيق بين الرأيين الأساسيين ـ الأول والخامس ـ، ومِن ثَمَّ فقد ذهب هذا الفريق إلى أن «يعرب» هو أول مَن نطق بمنطق العربية، وأن إسماعيل هو أول مَن نطق بالعربية الحجازية الخالصة التي أنزل بها القرآن الكريم[2].

(١) «المنتخب في ذكر نسب قبائل العرب» (ص ٤).

(٢) «تاريخ الرسل والملوك» (١/٢٠٨).

المبحث الثالث

الحياة القبلية عند العرب

لعل من المناسب في هذا المقام ونحن نتحدث عن العرب أن نذكر شيئًا عن القبيلة بحكم توغلها في حياة العرب، بل هي من أركان وأصول الحياة عند العرب.

فالقبيلة هي: جماعة من الناس تنتمي في الغالب إلى نسبٍ واحدٍ يرجع إلى جد أعلى أو اسم حلف قبلي يعتبر بمثابة جد، وتتكون من عدة بطون وعشائر(١). وغالبًا ما يسكن أفراد القبيلة إقليمًا مشتركًا يعدونه وطنًا لهم، ويتحدثون بلهجة مميزة، ولهم ثقافة(٢) متجانسة أو تضامن مشترك (أي عصبية) ضد العناصر

---

(١) قال ابن دريد في «جمهرة اللغة»: «عشيرة الرجل: بنو أبيه الأَدْنَوْنَ الذين يعاشرونه، وهكذا ذكر أصحاب المغازي أن النبي - ﷺ - لما أنزل عليه: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ قام فنادى: يا بني عبد مناف، وعشير الرجل؛ امرأته التي تعاشره في بيته وهو عشيرها أيضًا»، قال في لسان العرب: «وعَشِيرَة الرجل: بنو أَبيه الأَدنونَ، وقيل: هم القبيلة، والجمع عَشَائر». وقال أيضًا: «والبَطْنُ: دون القبيلة، وهو الطبقة الرابعة من طبقات النسب، وجمعه بطون، وهو: ما انقسم فيه أنساب العمارة، وهو الذي يجمع الأفخاذ حيث تلتقي عنده ويجمع البطون العمارة». وقال: «والبَطْنُ: دون القبيلة. وقيل: هو دون الفَخِذِ وفوق العِمارة». «لسان العرب» (ص٤٤٥)، «جمهرة اللغة» (٧٢٨/٢).

(٢) الثقافة والمثقف كلمتان غامضتا الدلالة، واسعتا النطاق، يصعب أن يحويهما تعريف أو يحدهما مصطلح، وذلك لتعذر الموقف على معناهما الدقيق، ولقد أثارتا كثيرًا من التساؤلات، وتعددت الإجابات وتباينت حول مَفْهُومَيْهِمَا حتى إنه يمكن إحصاء مئات التعريفات لمصطلح الثقافة، وقد وصفها «المعجم الوسيط» بأنها كلمة محدثة في اللغة. إن جذر كلمة ثقافة هو: ث ق ف، ولهذا الجذر معنيان رئيسيان متباينان في اللغة العربية: **الأول:** ثَقَفَ: قال الفيروز أبادي: «ثَقَفه: أي صادفه أو أخذه أو ظفر به أو أدركه. وأُثقِفْتُهُ: قُيِّضَ لي. **والثاني:** ثَقِفَ يثقَف، وثَقُفَ يثقُف، ثَقْفًا وثَقَفًا وثقافة: صار حاذقًا خفيفًا فطنًا. ومنه: الكلام: حذقه وفهمه بسرعة، وثَقَّفَ الرمحَ: قوّمه وسوّاه، وثقَّف الولد: هذّبه وعلّمه. وثاقفه مثاقفةً: غالبه فغلبه في الحذق». ويبين ابن منظور في «لسان العرب» أن معنى ثَقَفَ: جدّد وسوّى، ويربط بين التثقيف والحذق وسرعة التعليم. ويعرف المعجم الوسيط الثقافة بأنها: (العلوم والمعارف والفنون التي يطلب فيها الحذق). انظر: «المعجم الوسيط».

الخارجية على الأقل. ولكل قبيلة جد تنتمي إليه وتفاخِر وتباهي به. وقد يكون هذا الجد جدًّا حقيقيًّا, أي: إنسانًا عاش ومات، وساد القبيلة، وترك أثرًا كبيرًا في قبيلته حتى نُسبت القبيلة إليه. وقد يكون الجد اسم حلف تكوَّن وتألف من قبائل عديدة، حتى عرفت به، ودعيت بذلك الحلف, وقد يكون اسم موضع، أقامت قبيلة به، فنسبت إليه, كما يذكر أهل الأخبار من اسم «غسان»، وقد يكون غير ذلك[١].

طبقات القبائل:

وقد رتب علماء الأنساب قبائل العرب على مراتب، هي: شعب، ثم قبيلة، ثم عمارة، ثم بطن، ثم فخذ، ثم فصيلة[٢]. وعلى الرغم من أن علماء الأنساب العرب يكادون يتفقون على ما تقدم من ترتيب طبقات النسب، إلا أن حركات هجرة القبائل، سواء أكانت طوعًا أو كرهًا جعلت هذا الترتيب غير مستقر، إذ ذابت البطون والأفخاذ، وقلما استخدمت مصطلحات العمارة والفصيلة[٣]، وصارت وحدة العشيرة أكثرها شيوعًا، بل صارت تُستخدم لتغطي معنى القبيلة أحيانًا بعد أن أصبح هناك خلط شديد بين المقصود من البطن أو الفخذ[٤].

---

(١) «تاج العروس من جواهر القاموس» (٤/ ٤١٠).

(٢) قام علماء الأنساب بترتيب قبائل العرب ترتيبًا تنازليًّا باختلاف طفيف بينهم سموه بطبقات النسب، كالآتي: الشعب: مثل عدنان وقحطان، ثم القبيلة: مثل ربيعة ومضر، ثم العمارة: مثل العمارة قريش، والقبيلة كنانة، ثم البطن: مثل بني عبد مناف، ثم الفخذ: مثل بني هاشم، ثم العشيرة مثل: بني عبدالمطلب، ثم الفصيلة: مثل بني أبي طالب وبني العباس. ويمكن إضافة طبقتين صغيرتين على طبقات النسب، وهما: الخامس: وهو الجد الخامس أو الجد المشهور الذي تعرف به الأسرة، ثم الأسرة: وهي أصغر طبقة في النسب. (للتوسع انظر: «نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب» (ص ١٤)، وانظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٤٥٥).

(٣) «سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي» (ص ٥٥).

(٤) « نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب» (ص ١٥).

مواطن القبائل العربية قبل الإسلام:

لقد ذكرنا آنفًا عند الحديث عن أنساب العرب وطبقاتهم أن المؤرخين يرجعون العرب إلى جدين اثنين: قحطان وعدنان، وأود أن ألقي الضوء على مواطن القبائل العربية قبل الإسلام.

إن مساكن القحطانيين تقع في جنوبي شبه جزيرة العرب، ومساكن العدنانيين في شماليها. وبالرغم مما يكتنف نسبة العرب إلى جدين مختلفين من شكوك أوردها الباحثون، فإنه لا بد من التسليم بتقسيمهم تقسيمًا جغرافيًّا, أي: إلى جنوبيين وشماليين، ولا بد من الإشارة إلى أن قبائل جنوبية قد نزحت إلى الشمال وقطنت في جوار القبائل الشمالية.

يرجع النسابون قبائل الشمال إلى عدنان، فيقولون: إنه كان لعدنان ولدان: **أولهما:** عك. **والثاني:** معد. وإن القبائل التي نسلت مِن الأول سميت باسم: «قبائل عك», والأخرى باسم: «قبائل معد». وقد نزلت قبائل عك في نواحي زبيد جنوبي تهامة.

يقول ابن حزم الأندلسي: «إن مِن ولد عك غافق بن الشاهد بن علقمة ابن عك، وإن عبد الرحمن الغافقي شهيد موقعة بلاط الشهداء في فرنسا منهم»[1]. ويقال: «إن بقية من عك بقيت حتى بعد ظهور الإسلام، وإنما لم يكن لها شأن يستحق الذكر»[2].

أما ابن عدنان الآخر معد، الذي تنتسب إليه قبائل عرب الشمال، فقد ذكر النسابون ولدين له، هما: قنص الذي سكنت قبائله أرض مكة وأوديتها وشعابها

---

(١) « جمهرة أنساب العرب» (ص ٤٤٠).

(٢) «تاريخ العرب القديم» (ص ٢٣١).

وجبالها، وما صاقبها من البلاد, ثم نزار الذي كان من أولاده: إياد وربيعة ومضر وأنمار، وكل منهم قد أنسل أولادًا أُطْلِقَ اسم كل منهم على القبيلة التي انتسبت إليه. وأما قبائل إياد فقد استوطنت تهامة، لكنها أُجْلِيَتْ عنها إثر حرب وقعت بينها وبين ربيعة ومضر، وكانت هي الخاسرة فيها، فاضطرت إلى النزوح نحو البحرين حيث اختلطت بقضاعة.

وفي أول حكم سابور الذي تولى ملك فارس وهو صبي حدث، انتقلت إياد مع كثير من غيرها من القبائل العربية نحو الكوفة, وقد عاصرت هذه النقلة أيام حكم امرئ القيس بن عمرو على الحيرة، فلما شب سابور وتولى الحكم الفعلي في مملكته بعد عهد وصاية عليه خشي من مغبة وجود هذه القبائل في جنوب العراق، فنكل بأفرادها تنكيلًا شديدًا وشردها، وكان يخلع أكتاف من يقع في قبضته من زعمائها، فأطلق عليه لقب «ذي الأكتاف».

وبقيت ربيعة ومضر في جهات تهامة إلى أن قامت الفتن والخلافات بين مختلف بطونها، فنزحت ربيعة إلى وسط شبه الجزيرة العربية[1]، وعند ظهور الإسلام كانت قبائل ربيعة تسكن اليمامة «في نجد» وهي قبائل حنيفة، وبني قيس ابن ثعلبة. وأما القبائل التي نسلت من مضر بن نزار فقد شكلت شعبًا عظيمًا على رأي النَّسَّابِين، فَمِنْ أبناء مضر: إلياس، وقيس عيلان. وقد أصبح لقبائل قيس عيلان شأن عظيم؛ إذ أصبحت تؤدي معنى العدنانية في مقابل القحطانية، ولم تزل مضر في تهامة بعد خروج ربيعة منها، حتى كثر عددها، وضاقت البلاد ببطونها، وتنافست على الكلأ والمرعى، وبغى بعضهم على بعض، واقتتلوا

(١) «جمهرة أنساب العرب» (ص ٤٥٦).

فتفرقوا، وظعنت قيس إلى بلاد نجد إلا بعض قبائلها: كهوازن التي قصدت الطائف، وذي المجاز، وحنينًا، وغرب نجد بوجهٍ عام[١].

ومن قيس عيلان تحدرت بعض القبائل البارزة، مثل: سعد وهوازن وسليم، وكانت تسكن الجزء الغربي من نجد ومن القبائل المضرية: مدركة وطابخة، وقد انحدرتا من إلياس خندف بن مضر، ومن مدركة تحدرت هذيل التي سكنت في السراة «بين مكة والمدينة»[٢].

وأما قبائل القحطانية: فقد جاءت هذه القبائل من الجنوب اليمني، وأول مَن قدِم منها قضاعة من نسل حمير بن سبأ؛ جاءت إلى جدة وما يصاقبها من تهامة إلى الجنوب, وقد اضطرت إلى النزوح من هذا المكان؛ لحربٍ وقعت بينها وبين ربيعة التي كانت في جوارها.

وقد تفرقت بطون قضاعة في نجد والبحرين ومشارف الشام كما هاجرت الأزد من كهلان بن سبأ إلى الشمال، فسكن قسم منهم في معان، والقسم الآخر في تهامة على ماء اسمه «غسان»، ومنه انتقلوا إلى جنوبي سورية، حيث كونوا دولتهم «دولة الغساسنة». وكذلك هاجرت إلى الشمال قبيلة طيء من عريب بن كهلان ابن سبأ، وبنو مرة وفروعهم التي سكنت شمالي الحجاز غير أن طيء تحولت بعدئذٍ إلى الشرق، وجاورت بني أسد، وانتزعت منهم جبل شمر، وسكنته قبل الإسلام بقرون[٣]، ونزحت أيضًا قبائل من الأزد إلى جهات البحرين، حيث كانت تقيم قبائل عديدة مختلفة المنشأ، منها: العدنانية. ومنها: القحطانية؛ فتآزرت وتضافرت

(١) «العرب قبل الإسلام» (ص ١٦٠).

(٢) «نسب عدنان وقحطان» (ص ٥-١١).

(٣) «العرب قبل الإسلام: أحوالهم الدينية والسياسية، وأهم مظاهر حضارتهم» (ص ٦٤).

واتحدت في حلفٍ جمع شملها تحت اسم: «تنوخ»، ونزحت إلى أطراف الحيرة حيث أقامت دولة المناذرة، ومن الأزد الجنوبيين: الأوس والخزرج، وقد انفصلتا عن كتلة الأزد الرئيسية، واتجهتا نحو الحجاز، وأقامتا في يثرب. ومنهم أيضًا: قبيلة خزاعة التي تسلطت على مكة قبل قُصَيّ وقريش[١]. وكان معظم هذه القبائل من البدو الرحل الذين ثابروا على الحياة البدوية المتنقلة، سواء منهم الشماليون أو الجنوبيون الذين انتقلوا إلى الشمال، باستثناء فئة منهم سكنوا بعض مدن الحجاز «مكة ويثرب والطائف» ولزموا حياة الاستقرار فيها، ومارسوا الزراعة والتجارة التي تيسرت لهم بسبب خصب الأرض في بعض الأماكن، وملاءمة الموقع الجغرافي للحياة التجارية، غير أنهم مع ذلك قد حافظوا على تقاليدهم القبلية[٢].

الحياة المجتمعية والتكوينات السياسية للقبائل العربية:

إن حياة العرب تكاد تكون حياة واحدة لا تغير فيها ولا تبدل، فهي على وتيرة واحدة, على تعدد القبائل وابتعاد مواضع بعضها عن بعض؛ ذلك لأن الظروف المخيمة عليهم، ظروف واحدة لا اختلاف فيها ولا تبدل, إلا ما كان منها بالنسبة إلى أعراب الضواحي والحواضر, فإن ظروفهم تختلف عن هؤلاء، ومجال تفكيرهم أوسع من مجال تفكير الأعراب؛ بسبب نوع المعيشة المتغير المتصل بالأرض، وقربهم من الحضر[٣] والمجتمع العربي: بدو وحضر, أهل وبر وأهل مدر، يتساوى في هذه الحال عرب الشمال وعرب الجنوب، وعرب جميع أنحاء جزيرة العرب الأخرى.

---

(١) «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» (٧/٣٣٩).

(٢) شجرة النسب القرشية هي: عدنان ـ معد ـ مضر ـ إلياس ـ مدركة ـ خزيمة ـ كنانة ـ النضر ـ مالك ـ فهر ـ غالب ـ لؤي ـ كعب ـ مرة ـ كلاب ـ قصي. انظر: «تاريخ العرب القديم» (ص ٣١٧).

(٣) « المرجع السابق» (٧/٢٠٣).

وقسَّم بعضهم عرب الجاهلية إلى ملوك وغير ملوك، وقسموا سائر الناس بعد الملوك إلى طبقتين: أهل مدر وأهل وبر[1]، فأما أهل المدر فهم الحواضر وسكان القرى، وكانوا يعيشون من الزرع والنخل والماشية والضرب في الأرض للتجارة. وأما أهل الوبر فهم قطان الصحاري، يعيشون من ألبان الإبل ولحومها، منتجعين منابت الكلأ، مرتادين لمواقع القطر، فيخيمون هنالك ما ساعدهم الخصب وأمكنهم الرعي، ثم يتوجهون لطلب العشب وابتغاء المياه، فلا يزالون في حلٍّ وترحال.

ويعرف الحضر، وهم العرب المستقرون بـ«أهل المدر»؛ عرفوا بذلك لأن أبنية الحضر إنما هي بالمدر، والمدر: قطع الطين اليابس[2].

وإذا نظرنا إلى الأحوال الداخلية نرى أن المصالح السياسية للقبائل لا تقيم وزنًا للأخوة وللنسب؛ فإذا اختلفت المصلحة فلا تجد القبائل عندئذٍ أيَّ غضاضة أو حرج في الانفصال عن قبيلة مؤاخية لها، لتتحالف مع قبيلة غريبة عنها في النسب، ومحاربة أختها التي انفصمت عنها؛ لأن المصالح السياسية مقدمة على ما سواها[3].

وكانت القبائل في حروبٍ متصلةٍ ما أن تنتهي حتى تبدأ حربًا أخرى، وكان القانون الوحيد الذي يخضع له جميع أفراد القبيلة هو قانون الأخذ بالثأر. وكانت

---

(١) ويذكر علماء اللغة أن الحضر والحاضرة والحضارة خلاف البادية والبداوة والبدو. والحضارة الإقامة في الحضر، والحاضر والحضر هي المدن والقرى والريف، سميت بذلك؛ لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار. والوَبَرُ: صُوفُ الإِبل والأَرانب ونحوِها، والواحدةُ: وَبَرَةٌ وأهل الوَبَر: أهل البادية أو البدو لأنّهم يتَّخذون بيوتهم من الوَبَر. المَدَرُ: الطِّين اللَّزِجُ المتماسك، وأهل المَدَر: سكان البيوت المبنيّة. انظر: «تاج العروس من جواهر القاموس» (٣٧/ ١٤٠) و«المعجم الوسيط» (٢/ ٢٦٠).

(٢) «تاريخ مختصر الدول» (ص ٩٣).

(٣) «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» (٨/ ١٠٢).

الحروب تنشب لأسبابٍ تافهة ويسيرة؛ فقد تسببها إهانة، أو نزاع بين شخصين من قبيلتين مختلفتين، أو بسبب اختلاف على المرعى ونحو ذلك؛ فتشتبك العشائر، وينضم بعضها إلى بعض فتنتشر الحرب بين قبائل كثيرة، وتحدث بينهم مقتلة عظيمة، أما عن الأسلحة التي كانت تستخدمها القبائل، فكانت تتمثل في الرماح والسيوف والدروع، وما شابه، أما السيف فكان رفيق العربي في حِلِّهِ وترحاله لا يكاد يفارقه[1].

ويرتبط أفراد القبيلة بروابط اجتماعية، وتمثِّل رابطة القرابة أهم هذه الروابط، وتزداد هذه الروابط بالزواج، وقلما يتزوج أفراد القبيلة العربية من خارج العشيرة، ولكن قد يتجاوز في ذلك أحيانًا حينما يتم زواج بنات بعض زعماء العشائر لتوثيق الصلات ودعم الأحلاف بينها، ويقدم ابن العم على غيره في الزواج، فإذا جاء رجل يريد خطبة ابنة رجل، سُئِلَ ابن عمها إن كان لها ابن عم عن رأيه في بنت عمه، فإن أظهر رغبته في الاقتران بها قُدِّمَ على غيره وزُوِّجِتَ منه، وإن أظهر أنه غير راغب فيها زُوِّجَتْ من غيره؛ ذلك لأن ابن العم مقدم على كل أحد في الزواج من ابنة العم[2].

وتتجلى العصبية القبلية في العصبية للأقارب وذوي الأرحام. وهذا النوع من العصبية يكون داخل إطار القبيلة ذاتها، فعلى الرغم من أن أفراد القبيلة يربطهم نسب واحد، إلا أن الرباط الكائن بين ذوي القربى من أمثال أبناء العمومة والخؤولة يكون أمتن من النسب العام[3].

(١) «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» (٨/٢٢٩).
(٢) «المرجع السابق» (٨/٢٢٩).
(٣) «المرجع نفسه» (٨/٢٢٠).

ولكل قبيلة أرض تعيش عليها وتنزل بها وتعتبرها ملكًا لها، تنتشر بها بطونها وعشائرها، ولا تسمح لغريبٍ النزول بها والمرور بها إلا بموافقتها وبرضاها، ولكل قبيلة حق حماية أرضها, شأنها في ذلك شأن الدول؛ لذا كان لا بد للتجار من ترضية سادات القبائل للسماح لهم بالمرور، بدفع حق المرور، وهي إتاوات تعارفت القبائل آنذاك على أخذها من المارة(١).

نظام الحكم في القبيلة

وسيد القبيلة بالنسبة للقبيلة، مثل ملك مملكة بالنسبة لمملكته(٢)؛ فهو الرئيس والمرجع والمسئول عن أتباعه في السلم والحرب, ورئيس القبيلة هو المسئول عن جمع الضرائب(٣) ويقال لسيد القبيلة: «رئيس القبيلة», وعلى الرئيس أن يكون في مقدمة القوم في الحروب والغزو، وأن يكون شجاعًا لا يهاب الموت حتى يكسب النصر لنفسه ولقومه، وقد كان الفرسان في الحروب يوجهون كل قوتهم نحو الرؤساء؛ لأنهم على علم بأنهم إن تمكنوا من الرئيس فقتلوه, غلبوا عدوهم في الغالب وقضوا عليه؛ فهو الروح المعنوية عند الأعراب، يليه حامل اللواء، فإذا سقط حامل اللواء قتيلًا أسرع من عُيِّنَ ليكون خليفته في التقاط الراية وحملها، وإذا سقط هذا أيضًا أسرع مَن يأتي بعده، وهكذا، فإن سقوط الراية معناه هزيمة منكرة ستحيق بمن سقطت رايته؛ ولهذا كانوا يختارون رجالًا شجعانًا يولونهم أمر اللواء(٤).

وليست قيادة القبيلة بأمر سهل يسير، لا سيما إذا كانت القبيلة قبيلة كبيرة ذات عشائر وأرهاط منتشرة في مواضع متباعدة، فإن رؤساء العشائر يستغلون فرصة

---

(١) «معجم قبائل العرب القديمة والحديثة» (١٠٣/٣).

(٢) «العرب في العصور القديمة» (ص ٣٥٩).

(٣) «تاريخ العرب القديم» (ص ١٩٨).

(٤) «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» (٢٣٣/٨).

ابتعادهم عن أرض الأم، ويعلنون انفصالهم عنها، وتوليهم أمرهم بأنفسهم، وقد يعلن الرئيس حربًا على العشيرة العاقَّة المنشقة، ولهذا يعد سيد القبيلة الذي تجتمع له رئاسة قبيلة كبيرة من السادات المحظوظين, وحظه هو ثمرة ذكائه ومواهبه وقابلياته ولا شك. ومِن هؤلاء المحظوظين الذين دوَّن أهل الأخبار أسماءهم: «جَهْبل بن ثعلبة اليشكري»، سيد «بكر بن وائل»، فقد اجتمعت «بكر» حوله، و«عمرو بن شيبان بن ذهل»، و«عمرو بن قيس الأصم», و«الكلح», و«بشر بن عمرو بن مسعود»، و«همام بن مرة», و«الحارث بن عباد», وقد اجتمعت حولهم «بكر بن وائل»، وانضوت تحت لوائهم, وذلك في مناسبات أشار إليها أهل الأخبار, مثل وقوع بعض الأيام؛ ولولا هذه الأيام، وتلك المناسبات التي اضطرت القبيلة إلى التكتل والتجمع فيها حول زعيم واحد ليخلصها من المخاطر، لَمَا تجمعت حوله.

ويذكر أهل الأخبار أن أهل الجاهلية كانوا لا يسودون إلا مَن تكاملت فيه ست خصال: السخاء، والنجدة، والصبر، والحلم، والتواضع، والبيان. وقالوا: «قيل لقيس بن عاصم(١): بِمَ سُدْتَ قومك؟

قال: ببذل الندى، وكف الأذى، ونصرة المولى، وتعجيل القِرَى»(٢).

ومِن أعراف الحكم عند القبائل: أن سيد القبيلة يستمد رأيه من رأي أشراف قبيلته ووجوهها في الأمور الهامة التي تخص حياة القبيلة؛ ليستنير برأيهم، وليعرف رأي أتباعه في معالجتها، فإلى جانب السيد أو شيخ القبيلة نستطيع أن نتبين من

(١) قيس بن عاصم بن سنان المنقري التميمي صحابي جليل، وهو الذي قدم على رسول الله سنة ٩هـ في وفد بني تميم فأكرمه وقال له: «هذا سيد أهل الوبر». انظر: «أسد الغابة في معرفة الصحابة» (٤/ ٤٤٠).

(٢) «الجوهر النفيس في سياسة الرئيس» (ص ١٦٠).

النصوص وجود تجمعين أو مجلسين يشاركانه في تصريف أمور القبيلة: أحدهما هو مجلس أعيان القبيلة، والآخر يضم كل أفراد القبيلة(١).

وعلى الرغم من استبداد بعض السادة برأيهم وحكمهم بما يوحي إليه به حسهم وشعورهم وتصرفهم في الأمور تصرفًا كيفيًّا، فإنهم كانوا يقيمون مع كل ذلك وزنًا للرأي، وقد يكون هذا الرأي رأي رجل مغمور من عامة أبناء القبيلة، أو رأي شاعر أو خطيب أو أي شخص آخر من أبناء القبيلة(٢).

---

(١) « العرب في العصور القديمة» (ص ٣٦١).

(٢) «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» (٧/ ٣٤٥).

المبحث الرابع

الحالة الدينية لأهل الحجاز قبل الإسلام

والمقصود بالحالة الدينية أو الحياة الدينية: الدين الحي أو الممارسات الدينية اليومية في المجتمع والدولة، وذلك يكون مقرونًا بالاعتقاد الذي يعتقده الإنسان(١).

كان معظم العرب قد اتبعوا دعوة إسماعيل ـ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ـ حين دعاهم إلى دين أبيه إبراهيم ـ عليه السّلام ـ وقد نشأ إسماعيل ـ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ـ وترعرع في مكة المكرمة، فكانت العرب تعبد الله وحده لا شريك له، حتى طال عليهم الأمد ونسوا حظًّا مما ذكروا به، واستحوذ عليهم الشيطان، وجاء عمرو بن لحي(٢) رئيس خزاعة(٣)، وكان قد نشأ على أمر عظيم من المعروف والصدقة والحرص على أمور الدين، فأحبه الناس، ثم إنه سافر إلى الشام، فرآهم يعبدون الأوثان، فاستحسن ذلك وظنه حقًّا، لأن الشام محل الرسل والكتب، فقدم معه بصنم هُبل وجعله في جوف الكعبة(٤)، ودعا أهل مكة إلى عبادة الأوثان، فأجابوه. ثم لم يلبث أهل الحجاز أن

---

(١) «دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية» (ص ٢٠١).

(٢) عمرو بن لحي كان من خزاعة وكان سيد مكة، وبالتالي كان مِن سادات العرب، يعد أول مَن غير دين إبراهيم «الحنيفية» ـ والذي كان يقوم على توحيد الله ـ، حيث إنه أدخل الأصنام لِتُعْبَدَ من دون الله بالجزيرة العربية. قال رسول الله ـ ﷺ ـ: **«رَأَيْتُ عَمْرَو بْنِ لُحَيٍّ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ»** (متفق عليه) يعني أمعاءه. انظر: «تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة» (ص ١٧٨).

(٣) خُزاعة بضم الخاء المعجمة وفتح الزاي، وواحدهم (الخُزَاعِيّ)، بنو عَمْرو بن لُحَيّ، اختلف في نسبها فقيل: إنها من بني مزيقياء بن عامر من الأزد، وقيل: إنها من بني قمعة بن خندف من مضر. كانت منازلهم بقرب الأبواء، وفي وادي غزال، ووادي دوران وعسفان في تهامة. صنمها في الجاهلية ذو الكفين، تشاركها فيه قبائل دوس. وهي من أمهات القبائل في الجزيرة العربية، حكمت مكة المكرمة في تهامة لفترة طويلة من الزمن، قال المسعودي: «كانت ولاية البيت الحرام في خزاعة ثلاثمائة سنة». انظر: «قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان» (ص ٣٧).

(٤) «الرحيق المختوم» (ص ٢٤).

تبعوا أهل مكة، لأنهم ولاة البيت وأهل الحرم، وكان أهل الجاهلية على ذلك، فيهم بقايا من دين إبراهيم، مثل: تعظيم البيت، والطواف به، والحج والعمرة، والوقوف بعرفة ومزدلفة، وإهداء البُدْن(١). وكانت نزار(٢) تقول في إهلالها: «لبيك اللَّهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك!».

فأنزل الله: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨](٣).

ومِن أقدم أصنامهم: مَنَاةَ، كانت بالمشلل(٤) على ساحل البحر الأحمر بالقرب من قديد(٥)، ثم اتخذوا اللَّات في الطائف، ثم اتخذوا العُزَّى بوادي نخلة، وهذه الثلاث أكبر أوثانهم، ثم كثر الشرك، وكثرت الأوثان في كل بقعة من الحجاز، وقد ذكر أهل التاريخ والسير أن عمرو بن لحي كان له رئى من الجن، فأخبره بأن أصنام قوم نوح ودًّا، وسواعًا، ويغوث، ويعوق، ونسرًا مدفونة بجدة، فأتاها فاستثارها ثم أوردها إلى تهامة، فلما جاء الحج دفعها إلى القبائل فذهبت بها إلى أوطانها، وهذه القصة لا تصادم العقل ولا تتعارض مع الواقع، فهذا أمر معروف عند العرب، وهكذا حتى صار لكل قبيلة في كل بيت صنم، وقد ملأوا المسجد

(١) (الْبَدنَة): نَاقَة أَو بقرة تنحر بِمَكَّة قربانًا. انظر: «المعجم الوسيط» (ص ٤٤).

(٢) نزار هي: إحدى القبائل العربية. انظر: «قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان» (ص ١٧٣).

(٣) «مختصر سيرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ» (ص ٧٢).

(٤) المشلل هي: منطقة بين مكة والمدينة. انظر: «تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن» (٥٨/٣).

(٥) وقديد: بضم القاف ودالين مهملتين. مصغرًا: قرية جامعة بين مكة والمدينة، كثيرة المياه. انظر: «بيان المعاني» (١٠٨/٥).

الحرام بالأصنام! ولما فتح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنمًا، فجعل يطعنها حتى تساقطت، ثم أمر بها فَأُخْرِجَتْ من المسجد وحُرِّقَتْ(١).

وهكذا صار الشرك وعبادة الأصنام أكبر مظهر من مظاهر دين أهل الجاهلية في أرض الحجاز(٢).

وكانت لهم تقاليد ومراسم في عبادة الأصنام، ابتدع أكثرها عمرو بن لحي، وكانوا يظنون أن ما أحدثه عمرو بن لحي بدعة حسنة، وليس بتغيير لدين إبراهيم(٣).

مراسم وطقوس عبادة العرب للأصنام:

كان من مراسم عبادتهم للأصنام أنهم كانوا يعكفون عليها، ويلتجئون إليها ويهتفون بها، ويستغيثون بها في الشدائد، ويدعونها لحاجاتهم، معتقدين أنها تشفع عند الله، وتحقق لهم ما يريدون. وكانوا يحجون إليها ويطوفون حولها، ويتذللون عندها، ويسجدون لها(٤).

وكانوا يتقربون إليها بأنواع من القرابين، فكانوا يذبحون وينحرون لها وبأسمائها، وهذان النوعان من الذبح ذكرهما الله ـ تعالى ـ في قوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣]، وفي قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١].

---

(١) الفرق بين «الصنم» و«الوثن»؟ الصنم: ما جعل على صورة إنسان يعبد من دون الله والوثن: ما عبد من دون الله على أي وجه كان، فالوثن أعمّ من الصنم، قَالَ ابْنُ عَرَفَةَ: مَا تَخِذُوهُ مِنْ آلِهةٍ فَكَانَ غيرَ صُورةٍ فَهُوَ وَثَنٌ، فَإِذَا كَانَ لَهُ صُورَةٌ فَهُوَ صَنَمٌ، وَقِيلَ: الْفَرْقُ بَيْنَ الوَثَن والصنم أَن الوَثَنَ مَا كَانَ لَهُ جُثَّة مِنْ خَشَبٍ أَو حَجَرٍ أَو فِضَّةٍ يُنْحَت ويُعْبَد، وَالصَّنَمُ الصُّورَةُ بِلَا جُثَّةٍ. انظر: «لسان العرب» (١٢/٣٤٩).

(٢) «معالم تاريخ العرب قبل الإسلام» (ص ٢٠٥).

(٣) «كتاب الأصنام» (ص ٥٤)، وانظر: «فتح الباري شرح صحيح البخاري» (٨/٦٦٨).

(٤) «تفسير القرآن العظيم» (٣/٢٦٠).

وكان من أنواع التقرب أنهم كانوا يخصون للأصنام شيئًا من طعامهم وشرابهم حسبما يبدو لهم، وكذلك كانوا يخصون لها نصيبًا من حرثهم وأنعامهم! ومن الطرائف: أنهم كانوا يخصون من ذلك جزءًا لله أيضًا! قال ـ تعالى ـ: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦][1].

وكان من أنواع التقرب إلى الأصنام: النذر في الحرث والأنعام، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٣٨].

وكانت منها البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي. والبَحيرة التي تُقطع أذنها إذا ولدت عددًا من البطون. والسائبة هي: التي تُترك للأصنام. والوصيلة هي: التي تتصل ولادتها بأنثى بعد أنثى. والحامي هو: الذكر من الإبل إذا وُلد من صلبه عددٌ من الإبل[2].

ولكن الكفار نسبوا ذلك إلى الله ـ تعالى ـ افتراء عليه، وأكثر الكافرين لا يميزون الحق من الباطل، وقيل في تفسير هذه الأنعام غير ذلك. وفي ذلك أنزل الله ـ تعالى ـ: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣]، وأنزل: ﴿وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٢٦٥).

(٢) «أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير» (٢/ ٢٠). «التفسير الميسر» (ص ١٢٤).

﴿فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ [الأنعام: ١٣٩]، وقد صرح سعيد بن المسيب[١] أن هذه الأنعام كانت لطواغيتهم. وفي الصحيح مرفوعًا: «أن عمرو بن لحي أول من سيب السوائب»[٢].

كانت العرب تفعل كل ذلك بأصنامهم، معتقدين أنها تقربهم إلى الله وتوصلهم إليه، وتشفع لديه، كما في القرآن: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

وكانت العرب تستقسم بالأزلام، والزلم: القدح الذي لا ريش عليه، فإن خرج «نعم» عملوا به، وإن خرج «لا» أخروه عامه ذلك حتى يأتوه مرة أخرى، ويقرب من هذا الميسر والقداح، وهو ضرب من ضروب القمار، وكانوا يؤمنون بأخبار الكهنة والعرافين والمنجمين، وغير ذلك من أنواع الشرك المختلفة، لكننا قد ذكرنا أهم الأنواع والمشهور عندهم.

كان أهل الجاهلية على ذلك، وفيهم بقايا من دين إبراهيم ـ ولم يتركوه كله ـ، مثل: تعظيم البيت والطواف به، والحج، والعمرة، والوقوف بعرفة والمزدلفة، وإهداء البدن، ولكنهم في نفس الوقت يبتدعون أمورًا عجيبة، وكانت المرأة إذا أرادت الطواف تضع ثيابها كلها إلا درعًا مفرجًا ثم تطوف فيه وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله ... وما بدا منه فلا أحله

وأنزل الله في ذلك: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١].

---

(١) «الطبقات الكبرى» (٥/ ٩٠).

(٢) «رواه البخاري» (٢/ ١٦٥).

ومنها أنهم كانوا لا يأتون بيوتهم من أبوابها في حال الإحرام، بل كانوا ينقبون في ظهور البيوت نقبًا يدخلون ويخرجون منه[١].

كانت هذه الديانة؛ ديانة الشرك وعبادة الأوثان، والاعتقاد بالوهميات والخرافيات والخزعبلات ديانة معظم العرب، وقد وجدت اليهودية، والمسيحية، والمجوسية والصابئية[٢] سبيلًا للدخول في ربوع العرب[٣]؛ فلقد هاجرت مجموعات من اليهود في عهد الفتوح البابلية[٤]

---

(١) «السيرة النبوية لابن هشام» (١/ ٢٠٢).

(٢) عن مجاهد، قال: الصابئون قوم بين المجوس واليهود والنصارى، ليس لهم دين. وقال أبو العالية والربيع بن أنس، والسدي، وأبو الشعثاء جابر بن زيد، والضحاك: «الصابئون فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور». ولهذا قال أبو حنيفة وإسحاق: «لا بأس بذبائحهم ومناكحتهم». وعن الحسن أنه كان يقول في الصابئين: «إنهم كالمجوس». وقيل: «هم قوم يعبدون الملائكة». وعن الحسن قال: «أخبر زياد أن الصابئين يصلون إلى القبلة ويصلون الخمس». وقال أبو جعفر الرازي: «بلغني أن الصابئين قوم يعبدون الملائكة، ويقرؤون الزبور، ويصلون إلى القبلة». وعن أبي الزناد، عن أبيه، قال: «الصابئون قوم مما يلي العراق، وهم يؤمنون بالنبيين كلهم، ويصومون من كل سنة ثلاثين يومًا، ويصلون إلى اليمن كل يوم خمس صلوات». انظر: «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٢٨٦).

(٣) «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» (١١/ ١٤٤).

(٤) بابل تعني بالأكّدية (بوابة الإله)، كان الفرس يطلقون عليها بابروش دولة بلاد ما بين النهرين القديمة. وكانت تعرف قديمًا ببلاد سومر، وبلاد سومر كانت تقع بين نهريّ دجلة والفرات جنوب بغداد بالعراق. ظهرت الحضارة البابلية ما بين القرنين ١٨ق.م. و٦ ق.م. انظر: «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية» (١١/ ١١).

والأشورية[١] في فلسطين[٢]؛ بسبب الضغط عليهم، وتخريب بلادهم وتدمير هيكلهم على يد الملك بختنصر[٢] سنة ٥٨٧ ق.م، وسبي أكثرهم إلى بابل، كما أن قسمًا منهم هجر البلاد الفلسطينية إلى الحجاز، وتَوَطَّنَ في ربوعها الشمالية[٣].

والمرحلة الثانية: تبدأ من احتلال الرومان لفلسطين سنة ٧٠ م، فقد نشأ عن ضغط الرومان على اليهود، وعن تخريب الهيكل وتدميره، أن قبائل عديدة من اليهود رحلت إلى الحجاز، واستقرت في يثرب وخيبر وتيماء، وأنشأت فيها القرى والآطام والقلاع، وانتشرت الديانة اليهودية بين قسم من العرب عن طريق

(١) أما الآشوريون؛ فكانوا ساميين لغةً ونسبًا، ولغتهم قريبة الشبه تمامًا بإخوتها اللغات السامية، وخصائص الآشوريين الخلقية والعقلية هي نفسها الخصائص التي يذكرها المؤرخون على أنها خصائص الجنس السامي. وينسب الآشوريون إلى بلادهم: آشور، وآشور أكبر مدنها، وعاصمة بلادهم مرتفع على مقربة من التقاء نهر دجلة ونهر الفرات الأسفل؛ ويمكن القول = = بأن الآشوريين شعبة من البابليين، هاجروا من بابل، التي هي جنوب العراق بعد أن ضاقت بهم؛ وذلك للتشابه بين اللغتين: الآشورية والبابلية بشكل عظيم، ولم يكن الفرق بين اللغتين يجاوز كثيرًا الفرق بين لهجتين للغة واحدة؛ كذلك أخذ الآشوريون أبجديتهم المسمارية، وعلومهم وتقاليدهم الاجتماعية. انظر: «تاريخ الفكر الديني الجاهلي» (ص ٥٢).

(١) «موجز تاريخ اليهود والرد على بعض مزاعمهم الباطلة» (ص ٢٥٧).

(٢) كان ملكًا على بلاد بابل في العراق، وقد جعل من الإمبراطورية الكلدانية البابلية أقوى الإمبراطوريات في عهده بعد أن خاض عدة حروب ضد الآشوريين والمصريين، كما أنه قام بإسقاط مدينة أورشليم «القدس» مرتين: الأولى: في سنة ٥٩٧ ق م. والثانية: في سنة ٥٨٧ ق م. انظر: «تاريخ الفكر الديني الجاهلي» (ص ١٩١).

(٣) «الرحيق المختوم» (ص ٣١).

هؤلاء المهاجرين(٤). وقد قيل أن اليهود اختاروا يثرب موطنًا لهم لأنهم يعلمون أنها ستكون الموطن للرسول الذي سيبعث.

أما الديانة النصرانية: فقد جاءت إلى بلاد العرب عن طريق احتلال الحبشة والرومان، وكان أول احتلال الحبشة لليمن سنة ٣٤٠م، واستمر إلى سنة ٣٧٨م.

وقد اعتنق النصرانية العرب الغساسنة(٢) وقبائل تغلب(٣) وطيء (٤) وغيرهما لمجاورة الرومان، بل قد اعتنقها بعض ملوك الحيرة(٥).

---

(٤) «المرجع السابق» (ص ٣٣).

(٢) الغساسنة: هم سلالة عربية أسست مملكة في الشام ضمن حدود الإمبراطورية البيزنطية في فترة ما قبل الإسلام؛ اعتنقوا المسيحية الأرثوذكسية المشرقية المعروفة في سورية آنذاك باليعقوبية، وظلت المملكة الغسانية موالية للبيزنطيين حتي الربع الأول من القرن السابع الميلادي عندما أسقط المسلمون مملكتهم عقب معركة اليرموك سنة ٦٣٦م. انظر: «تاريخ الفكر الديني الجاهلي» (ص ٢٣٤).

(٣) بنو تغلب بن وائل، قبيلة ربيعة عدنانية اشتركت بحرب البسوس ضد بني شيبان من نسل إخوتهم قبيلة بني بكر بن وائل، وإليها ينتمي كليب بن ربيعة وأخوه أبو ليلى المهلهل عدي بن ربيعة، وشاعر المعلقة عمرو بن كلثوم. وقد كانت تغلب على دين المسيحية يتنسبون إلى تغلب بن وائل بن قاسط ابن هنب بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان. انظر: «جمهرة أنساب العرب» (ص ٣٢٠)، «معجم قبائل العرب القديمة والحديثة» (١/ ١٢٠).

(٤) يرجع نسب قبيلة طيء إلى طيء واسمه جلهمة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد ابن كهلان بن سبأ، طيء سكنت شمال الجزيرة العربية، وتحديدًا في بلاد الجبلين «أجا وسلمى». وللطائيين تواجد خلال الفتوحات الإسلامية في كل من العراق وسوريا وتركيا وإيران. وبدأت هجراتهم لسوريا والعراق قبل وأثناء ظهور الإسلام، حيث كان جزء من قبيلة طيء يعتنق المسيحية النصرانية القديمة والمختلفة عن المسيحية المعروفة اليوم، وهاجر أفراد منها إلى أنطاكية، ومنها تفرقوا شمالًا وغربًا. انظر: «معجم قبائل العرب القديمة والحديثة» (٢/ ٦٨٨).

(٥) «الرحيق المختوم» (ص ٣٤).

أما المجوسية: فكان معظمها في العرب الذين كانوا بجوار الفرس، فكانت في عراق العرب وفي البحرين وهجر وما جاورها من منطقة سواحل الخليج العربي، ودان لها رجال من اليمن في زمن الاحتلال الفارسي[١].

أما الصابئية: فقد دلت الحفريات والتنقيبات في بلاد العراق وغيرها أنها كانت ديانة قوم إبراهيم الكلدانيين، وقد دان بها كثير من أهل الشام[٢].

كانت هذه الديانات هي ديانات العرب حين جاء الإسلام، فكانت العرب في الجاهلية على أديان ومذاهب مختلفة، كان منهم من آمن بالله، وآمن بالتوحيد: كزيد بن عمرو بن نوفيل[٣]، فعن أسماء بنت أبي بكر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ قالت: «لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسندًا ظهره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش، والذي نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري. ثم يقول: اللّهم إني لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به، ولكني لا أعلم. ثم يسجد على راحلته». وكان يحيي الموؤدة؛ يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: «لا تقتلها، أنا أكفيك مؤنتها» فيأخذها فإذا ترعرعت قال لأبيها: «إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كفيتك مؤنتها».

---

(١) انظر: «تاريخ الفكر الديني الجاهلي» (ص ٢٥٥).

(٢) راجع هامش (ص ٥٨).

(٣) زيد بن عمرو بن نفيل العدوي القرشي مؤمن حنيفي، أحد أشهر الموحدين في الجاهلية، نبذ عبادة الأصنام في الجاهلية، ووحد الله باحثًا عن دين إبراهيم الحنيف. ارتحل في الجزيرة العربية والشام والعراق باحثًا عن الإسلام، وهناك قابل أحبار اليهود والنصارى، وعلم أن نبيًّا سيبعث، ولم يقتنع باليهودية ولا النصرانية فظل على حنيفيته، إلا أن أحد الأحبار قال له: «ارجع فإن النبي الذي تنتظره يظهر في أرضك»، فرجع زيد إلى مكة، وقد لقي محمدًا ﷺ غير ما مرة، غير أنه لم يدرك البعثة. «سيرة ابن هشام» (ص ١١٧).

وثبت أن سعيد بن زيد وعمر بن الخطاب سألا النبي ـ ﷺ ـ عن زيد: إنك قد علمت من أمر زيد بن عمرو ما علمت، أفلا نستغفر له؟ فقال: **«استغفروا له فإنه يبعث يوم القيامة أمة وحده»**[(١)].وكان منهم من آمن بالله، وعبد الأصنام؛ إذ زعموا أنها تقربهم إليه، قال ـ تعالى ـ : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٣].

وكان منهم مَن تعبد للأصنام زاعمين أنها تنفع وتضر، وأنها هي الضارة النافعة. ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

وكان منهم مَن دان باليهودية والنصرانية، ومنهم مَن دان بالمجوسية، ومنهم مَن توقف فلم يعتقد بشيء، ومنهم مَن تزندق[(٢)]، ومنهم مَن آمن بتحكم الآلهة في الإنسان في هذه الحياة، وببطلان كل شيء بعد الموت، فلا حساب ولا نشر ولا كتاب، ولا أي شيء مما جاء في الإسلام عن يوم الدين.

---

(١) «البداية والنهاية» (٢/٢٩٩)، والحديث صححه أحمد شاكر، وله روايات متعددة.

(٢) الزندقة أو «الهرطقة»: عبارة عن مصطلح عام يطلق على حالات عديدة, يعتقد أنها أطلقت تاريخيًّا لأول مرة من قِبَل المسلمين لوصف أتباع الديانات المانوية أو الوثنية، والدجالين ومدعي النبوة، والذين يعتقدون بوجود قوتين أزليتين في العالم، وهما: النور والظلام. ولكن المصطلح بدأ يطلق تدريجيًا على الملحدين وأصحاب البدع. ويطلقه بعضهم على كل مَن يحيا ما اعتبره المسلمون حياةَ المجون من الشعراء والكتاب، واستعمل البعض تسمية زنديق لكل مَن خالف مبادئ الإسلام الأساسية. ولذلك قالوا: «الزنديق يرادف المنافق»، وخصوا المنافق بمبطن الكفر في زمن الرسول، والزنديق بمبطن الكفر بعد ذلك الزمن. انظر: «تاريخ الفكر الديني الجاهلي» (ص ٣٣٠)، وانظر: «مصطلحات في كتب العقائد» (ص ٩٣).

وهناك عدة عوامل دعت إلى ظهور الشرك: عوامل سياسية وثقافية، وتاريخية، واجتماعية، واقتصادية؛ كل هذه أثرت في شكل الشرك وفي تعدد الآلهة، وفي كيفية تصور الناس لآلهتهم. ولا يعني هذا أنها أثرت كلها مجتمعة وفي آنٍ واحدٍ؛ إنما يعني أن ظهور الشرك وشكله هو نتيجة عوامل متعددة وأسباب مختلفة أثرت في ظهوره وفي تكوين صورة الآلهة في نظر المؤمنين بها المتعبدين لها(١).

وتاريخ أديان العرب قبل الإسلام، فصل مهم جدًّا من فصول تاريخ العرب عامة قبل الإسلام وبعدها، فلابد من دراسة تاريخ العرب قبل الإسلام حتى نتمكن من فهم عقلية القوم الذين نزل الوحي بينهم وطريقة تفكيرهم ووجهة نظرهم إلى الخالق والكون ثم الأسباب التي دعت إلى نزول الوحي وظهور الإسلام.

وبدون دراسة أديان الجاهليين ومعرفة أحوالهم ومقالاتهم في الخالق والخلق، لا نتمكن أبدًا من فهم رسالة الإسلام فهمًا صحيحًا.

ومن الدراسات التي يجب أن تنال منا البحث والرعاية والعناية لمعرفة الحياة الدينية وتطورها عند الجاهليين معرفة صحيحة، دراسة المصطلحات الدينية بحسب اللهجات العربية، وأماكن تلك اللهجات، وأسماء الأصنام أو الأوثان، ومعتقدات سكان تلك الأراضي في العصور المختلفة(٢)، فإن مثل هذه تفيدنا فائدة كبيرة في معرفة أسس الحياة الدينية عند الجاهليين(٣).

---

(١) «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» (١١/٣١).

(٢) لمعرفة المصطلحات الدينية بحسب اللهجات العربية، وأماكن تلك اللهجات، وأسماء الأصنام والأوثان، ومعتقدات سكان تلك الأراضي في العصور المختلفة، راجع كتاب «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» (١١/٣٥). وما بعدها، وانظر: «مصطلحات في كتب العقائد».

(٣) «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» (ص ٣٤).

هذا وقد تنوعت وتباينت أخلاق العرب؛ فلقد انتشر الزنا في كثير من أوساط العرب، وكذلك شرب الخمر والرقص والمجون، ولعب القمار والميسر، وقتل البنات صغارًا، وغير ذلك، لكن لابد أن نذكر من باب الإنصاف بعض الأخلاق الحميدة التي كان يتحلى بها العرب أيضًا، وهكذا لابد أن يكون كاتب التاريخ.

لا ننكر أن أهل الجاهلية كانت فيهم دنايا ورذائل، وأمور ينكرها العقل السليم، ويأباها الوجدان، ولكن كانت فيهم من الأخلاق الفاضلة المحمودة ما يعجب منه الإنسان، ويفضي به إلى الدهشة، فمن تلك الأخلاق: الكرم، وكانوا يتبارون في ذلك ويفتخرون به، وقد استنفدوا فيه نصف أشعارهم. ومن تلك الأخلاق: الوفاء بالعهد، فقد كان العهد عندهم دينًا يتمسكون به. ومنها: عزة النفس وإباء قبول الخسف والضيم، وكان من نتائج هذا: فرط الشجاعة، وشدة الغيرة، وسرعة الانفعال؛ فكانوا لا يسمعون كلمة يشمون منها رائحة الذل والهوان إلا قاموا إلى السيف والسنان، وأثاروا الحروب العوان، وكانوا لا يبالون بتضحية أنفسهم في هذا السبيل. ومن أخلاقهم أيضًا: الحلم، والأناة، والتؤدة، فكانوا يتمدحون بها إلا أنها كانت فيهم عزيزة الوجود؛ لفرط شجاعتهم، وسرعة إقدامهم على القتال. ومن صفاتهم المتأصلة فيهم أيضًا: الفروسية، فكانوا مهرة فيها، وكانت تشكل بالنسبة لهم طابعًا ومحورًا أساسيًّا في الحياة، ثم معرفتهم الواسعة والشاملة لجميع نواحي اللغة العربية والشعر ونحو ذلك[1].

---

(١) «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» (ص٤٠)، «الرحيق المختوم» (ص ٤١).

المبحث الخامس

الحالة السياسية لأهل الحجاز قبل الإسلام

كانت بعض القبائل العربية بالحجاز قد سكنت الصحاري وسموا بأهل الوبر، والبعض الآخر سكن بعض مدن الحجاز وسموا بأهل المدر، وهؤلاء لزموا حياة الاستقرار، وكان لكل قسم من القسمين حياته السياسية الخاصة به(١).

النظام السياسي في مكة المكرمة

الفكرة القبلية هي جوهر الحياة السياسية والاجتماعية، ثم ضاعت منها القوة السياسية، وظلت وحدة المجتمع العربي في الإسلام(٢).

والقبيلة العربية: مجموعة من الناس، كانت تؤمن بوجود رابطة تجمعهم تقوم على أساسين من وحدة الدم، ووحدة الجماعة. وفي ظل هذه الرابطة نشأ قانون عرفي ينظم العلاقة بين الفرد والجماعة على أساس من التضامن بينهما في الحقوق والواجبات، وهذا القانون العرفي كانت القبيلة تتمسك به أشد التمسك في نظامها السياسي والاجتماعي على السواء، فإذا نظرنا إلى التنظيم السياسي في مكة المكرمة، رأينا سادة قريش يجتمعون في دار الندوة قرب الكعبة للبت في الشئون العامة لمكة المكرمة(٣). وكان هؤلاء السادة بمثابة الحكومة، لكن سلطتها في الغالب سلطة أدبية وليست قوة تنفيذية، وكانت هناك أيضًا مجالس خاصة بالعشائر والبطون تجتمع لمناقشة القضايا الخاصة(٤). ولا شك في أن مكة المكرمة أهم مواضع الحضر في الحجاز على الإطلاق.

---

(١) راجع معنى المدر والوبر في هامش (ص ٤٩).

(٢) «مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ» (ص ٣٠).

(٣) «شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام» (٢/١٠٤).

(٤) «تاريخ العرب قبل الإسلام، السياسي والحضاري» (ص ١٦١).

ويطلق القرآن الكريم على مكة عدة أسماء، منها: «**بكة**»[١]؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦]، وهنا يحاول الإخباريون أن يفرقوا بين مكة، وبكة، فالأولى هي القرية كلها، والثانية إنما المراد بها موضع البيت الحرام، أو أن «بكة» هي موضع البيت، ومكة ما سوى ذلك[٢].

ومنها: «**أم القرى**»؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢]، ولعل هذه التسمية إنما تشير إلى أن مكة هي أعظم مدن الحجاز؛ ولأنها تضم بيت الله، أول بيت وضع للناس، فيه هدى وفيه البركة، وفيه الخير الكثير، ومن أسماء مكة كذلك: «**البلد**»؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: ١، ٢]، ومنها: «**البلد الأمين**»؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: ١-٣].

مكة في عصر قصي بن كلاب[٣]:

لعل أهم ما يميز ذلك العصر، أنه العصر الذي بدأت به السيادة القرشية على مكة، بقيادة رجلها المعروف «قصي بن كلاب» ـ الجد الرابع للمصطفى ـ صَلَوَاتُ

(١) «تاريخ مكة: دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران» (ص ١٥).

(٢) «دراسات في تاريخ العرب القديم» (ص ٣٥٠).

(٣) قصي بن كلاب بن مرة، هو الجد الثاني لشيبة بن هاشم المشهور باسم عبد المطلب، وهو الجد الرابع للنبي محمد؛ حصل على نفوذ واسع في مكة، ويعتبر أشهر رئيس في قبيلة قريش في عصر ما قبل الإسلام حيث إنه انتصر لقريش على باقي قبائل كنانة وخزاعة حينما أخرجهم من مكة وجعل سكنى مكة خاصة لقريش، وكانت إليه السدانة، والسقاية، والرفادة، والندوة، ولواء الحرب. انظر: «سيرة ابن هشام» (ص ١٠٥).

اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ ـ الذي جمع أمر مكة في يديه[١]، ثم ورثه لأبنائه من بعده، بعد أن أزاح الخزاعيين عنها في حوالي منتصف القرن الخامس الميلادي، مما اضطرهم إلى الرحيل عن مكة، والنزول في بطن مر «وادي فاطمة»، وهكذا أصبح قصي رئيسًا للحكومة المكية وزعيمًا لديانتها، ومن ثَمَّ فقد اجتمعت له السقاية[٢]، والحجابة[٣]، والرفادة[٤]، واللواء[٥]، ودار الندوة[٦]، وهي أمور لم تجتمع لرجل من قبله.

ويرى البعض أنه من العسير أن نحدد لمكة نظامًا من نظم الحكم التي يعرفها الناس، فلم يكن ملك، ولم تكن جمهورية أرستقراطية بالمعنى المألوف لهذه العبارة، ولم تكن جمهورية ديمقراطية بالمعنى المألوف لهذه العبارة أيضًا، ولم يكن لها طاغية يدير أمورها على رغمها، وإنما كانت قبيلة عربية احتفظت بكثير من خصاص القبائل البادية، فهي منقسمة إلى أحياء وبطون وفصائل، والتنافس بين هذه جميعًا قد يشتد حينًا ويلين آخر، ولكنه لا يصل إلى الخصومات الدامية، كما هو الحال في البادية. وأمور الحكم تجري كما تجري في البادية، وكل ما وصلت إليه قريش من التطور في شئون الحكم هو أنها لم يكن لها سيد أو شيخ يرجع إليه فيما

---

(١) «الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة» (ص ١٥٢).

(٢) السقاية هي: موضع يُتَّخَذُ لسقي الناس، وذلك أن أهل مكة في موسم الحج يملأون حياضًا من الماء يحلونها بالتمر والزبيب. انظر: «سيرة ابن هشام» (ص ١٤١).

(٣) أن تكون مفاتيح البيت عند قصي فلا يدخله أحد إلا بإذنه. انظر: «سيرة ابن هشام» (ص ١٤٣).

(٤) الرفادة: إطعام الحجيج. انظر: «سيرة ابن هشام» (ص ١٤٤).

(٥) اللواء: أي العَلَم أو الراية التي لا يحملها إلا رجل يجتمعون عليه جميعًا في الحروب. انظر: «سيرة ابن هشام».

(٦) الندوة: مكان الاجتماع للمشورة والرأي.

يشكل من الأمر، وإنما كان لها سادة أو شيوخ يلتئم منهم مجلس في المسجد الحرام، أو في دار الندوة.

وقد عملت قريش على توفير الأمن في منطقة مكة، وهو أمر ضروري في بيئة تغلي بالغارات وطلب الثأر، حتى يكون البيت الحرام ملاذًا للناس وأمنًا، وحتى يجد فيها مَن تضيق به الحياة، ويتعرض لطلب الثأر، الأمن والحماية حتى يأمن الناس فيه على أنفسهم وأموالهم؛ هذا فضلًا عن حركة إصلاح أخرى قامت بها قريش، مؤداها ومفاداها ألا تقر بمكة ظلمًا، سواء أكان من أهلها أم من سائر الناس، فعقدت مع قبائلها ومع القبائل الأخرى المجاورة حلفًا عرف «بحلف الفضول»، يروي المؤرخون أن قبائل من قريش تداعت إلى حلف، فاجتمع في دار «عبد الله بن جُدعان»[١] بنو هاشم، وبنو المطلب، وبنو أسد، وبنو زهرة، وبنو تيم، وتعاهدوا على ألا يُظلم بمكة غريب ولا قريب، ولا حر ولا عبد، إلا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه من أنفسهم ومن غيرهم، وقد قال رسول الله - ﷺ -: **«لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا، مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، وَلَوِ أُدْعَى بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْتُ»**[٢]. وهذا الحلف روحه تنافي الحمية الجاهلية التي كانت العصبية تثيرها، ويقال في سبب هذا الحلف: أن رجلًا مِن زبيد[٣] قدم مكة

(١) عبد الله بن جدعان التيمي القرشي الكناني، هو أحد سادات قريش وسيد جميع كنانة في حرب الفجار ضد قيس عيلان، وكان معروفًا عنه الكرم والجود. راجع «العقد الفريد» (ص ١٩).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، وفيه دليل على جواز التعاون مع غير المسلمين لما فيه مصلحة.

(٣) قرية من اليمن التهامية. انظر: «معجم قبائل العرب القديمة والحديثة» (١/١٣١).

ببضاعة، واشتراها منه العاص بن وائل السهمي، وحبس عنه حقه،[١] فاستعدى عليه الأحلاف: عبد الدار، ومخزومًا، وجمحًا، وسهمًا، وعديًّا[٢]، فلم يكترثوا له، فعلا جبل أبي قبيس، ونادى بأشعار يصف فيها ظلامته رافعًا صوته، فمشى في ذلك الزبير بن عبد المطلب[٣]، وقال: «ما لهذا مترك!» حتى اجتمع الذين مضى ذكرهم في حلف الفضول، فقاموا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه حق الزبيدي بعد ما أبرموا الحلف[٤].

النظام السياسي في المدينة المنورة

كانت المدينة المنورة تسمى يثرب قبل الهجرة المباركة، وتعد المدينة[٥] من مدن الحجاز القديمة وقد عُرفت بعد ذلك بالمدينة بعد هجرة النبي ـ ﷺ ـ[٦]، ولها عدة أسماء[٧].

---

(١) «شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام» (١١٨/٢).

(٢) هؤلاء أسماء رجال في مكة.

(٣) الزبير بن عبد المطلب الهاشمي القرشي الكناني، كبير بني هاشم بعد أبيه وسيدهم في حرب الفجار بين كنانة وقيس عيلان، وهو أكبر أعمام النبي ـ ﷺ ـ أدركه النبي ـ ﷺ ـ في طفولته. ومن أبنائه الصحابي عبد الله بن الزبير المطلبي. انظر: «الإصابة في تمييز الصحابة» (٧٧/٤).

(٤) «الرحيق المختوم» (ص ١٣). وفي هذا دليل على جواز التعاون مع غير المسلمين لما فيه مصلحة شرعية.

(٥) تقع المدينة المنورة وسط سهل مرتفع على بعد ٥٠٠ كم تقريبًا إلى الشمال من مكة.

(٦) «تاريخ العرب قبل الإسلام، السياسي والحضاري» (ص ١٧٤).

(٧) قال العلماء: ولمدينة النبي ـ ﷺ ـ أسماء: «المدينة» قال الله ـ تعالى ـ: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ [التوبة: ١٢٠]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ [التوبة: ١٠١]. و«طابة» و«طيبة»، و«الدار». فأما «الدار»؛ فلأمنها والاستقرار بها. وأما «طابة وطيبة» فمن الطيب وهو الرائحة الحسنة، والطاب والطيب لغتان وقيل: من الطيب ـ بفتح الطاء وتشديد الياء ـ وهو الطاهر؛ لخلوصها من الشرك

وكانت المدينة قبل الهجرة النبوية منقسمة إلى عدة دوائر تسكنها بطون عربية ويهودية، وكل دائرة تابعة لبطن من البطون. وكانت الدائرة تنقسم إلى قسمين: يشتمل القسم الأول على الأراضي الزراعية بمنازلها وسكانها، ويشتمل القسم الثاني على الأطم أو الآطام[(١)]، وكان البطن يملك أطمًا أو أكثر، وهذه الآطام كانت ملكًا خاصًّا بالأسر العريقة، ورئيس الأسرة هو صاحب السلطان في الأطم، كما كان يعتبر زعيمًا من زعماء البطون[(٢)] وكانت الآطام عظيمة الأهمية في يثرب، يفزع إليها أفراد البطن عند هجوم الأعداء، ويأوي إليها النساء والأطفال والعجزة حين يخرج الرجال للقتال وكانت الآطام تستعمل كمخازن تجمع فيها الغلال والثمار؛ لأنها كانت معرضة في أماكنها المكشوفة للنهب والسلب، وفي كل حصن من الحصون يتم تخزين السلاح وتوضع الأموال، وفي كل أطم كان يوجد بئر أو أكثر يستقي منه أهله إذا هاجمهم عدو واضطروا إلى الاحتماء به، كما كانت أطم اليهود تشتمل على المعابد وبيوت المدارس، يجتمع فيها الزعماء للبحث والمشاورة.

وقد وُجدت في يثرب بطون لم تكن تملك الآطام، فكانت هذه البطون لذلك تقيم في الأحياء، حيث تحمي البطون الكبيرة مواليها من غارات البطون الأخرى،

وطهارتها. وقيل: من طيب العيش بها. وأما «المدينة»: ففيها قولان لأهل العربية: أحدهما ـ وبه جزم قطرب وابن فارس وغيرهما ـ: أنها مشتقة من (دان) إذا أطاع، والدين الطاعة. والثاني: أنها مشتقة من (مدن) بالمكان إذا أقام به. وجمع المدينة: مدن، ومدن بإسكان الدال وضمها، ومدائن بالهمز وتركه، والهمز أفصح، به جاء القرآن العزيز. انظر: «شرح مسلم للنووي، باب المدينة تنفى شراراها».

(١) وهي القلعة، انظر «المعجم الوسيط، باب الحاء» (١/ ١٨٨).

(٢) «وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى» (١/ ١٣٤).

وكانت الأحياء متضامنة متلاصقًا بعضها ببعض، وإن كان كل حي يهتم بشئونه الخاصة(١).

ومن هذه الأحياء وتلك الدوائر المحصنة كانت تتكون مدينة يثرب، فهي في الحقيقة مجموعة من القرى، تقاربت وتجمعت فتكونت منها المدينة.

كان اليهود جاليات كبيرة العدد متعددة الفروع، منتشرة في أماكن كثيرة من منطقة يثرب والطريق المؤدية إلى الشام. وكان التكتل لليهود على ما يبدو يتركز في يثرب بالذات، حيث كانت فيها ثلاث قبائل ربما بلغ عدد رجالها البالغين أكثر من ألفين وهي: قينقاع، والنضير، وقريظة(٢)، وإلى جانبها كانت توجد بطون وعشائر يهودية متفرقة، وقد ذكر السمهودي(٣) أنها كانت أكثر من عشرين بطنًا، منها: بنو القصيص، وبنو ناغصة، وبنو مريد، وبنو معاوية، وبنو ماسكة، وبنو محمم ـ محمر ـ وبنو زعورا، وبنو زيد اللات، وبنو حجر، وبنو ثعلبة، وبنو الشطبية، وبنو عكرمة، وبنو مراية، وبنو عوف، وبنو عدل ـ بهدل ـ، هذا إلى أعداد أخرى من اليهود سكنوا في جهات مختلفة من يثرب(٤).

وقد عاشت قبائل اليهود الثلاثة الكبرى في مساكنها عيشة التكتل والأحياء الخاصة؛ بينما عاشت البطون الصغيرة منتشرة إلى جوارهم أو إلى جوار البطون العربية في يثرب. وقد ابتنى اليهود الحصون والقلاع والقرى المحصنة، وكانت من القوة والمناعة بحيث ظنوا أنها مانعتهم ممن يريدهم، وبحيث ظن العرب ذلك،

---

(١) «مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ» (ص ١٤١).

(٢) هذه قبائل يهودية كانت تعيش في المدينة وما حولها. انظر: «سيرة ابن هشام، قبائل اليهود».

(٣) «وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى».

(٤) «البلدان» (ص ١٥١).

ومما لا ريب فيه أن هذه الحصون والقلاع والقرى كانت وسيلة لتوطيد مركز اليهود وإقرارًا لهيبتهم في نفوس العرب، كما كانت دليلًا على ما كانوا عليه من قوة. وقد ذكر السمهودي أن آطام اليهود في يثرب كانت تسعة وخمسين أطمًا(١)، وقد سكن اليهود الجهات الخصيبة الغنية في منطقة يثرب؛ فقد أقام بنو النضير بالعوالي في الجنوب الشرقي للمدينة على وادي مُذَيْنِب، وأقام بنو قريظة إلى شمالهم على وادي مَهْزُور ، أما بنو قينقاع فقد أقاموا عند منتهى جسر وادي بُطْحان مما يلي العالية، وكان لهم هناك سوق من أسواق المدينة عرفت بهم. أما بقية بطون اليهود فكانت منتشرة في أماكن أخرى متعددة من المناطق الغنية في يثرب.

وقد ذكرت المصادر أنه كان مع اليهود بالمدينة بطون عربية من اليمن، ومن بلى، ومن سليم، ومن غسان، ثم إن قبائل عربية كبيرة كانت تعيش بجوار هذه الأماكن الخصيبة، حالفها اليهود واتخذوا منها حماة تدافع عنهم، كحلف يهود خيبر مع غطفان.

كان العرب في وقت الهجرة النبوية أصحاب الكلمة العليا في يثرب، وبيدهم كان توجيه الأمور بها، وجموع العرب بالمدينة ـ ما عدا بعض العشائر الصغيرة(٢)ـ تنتسب إلى قبيلتين كبيرتين، هما: الأوس والخزرج(٣).

---

(١) «مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ» (ص ٢٤١).

(٢) وبطون الأوس الكبرى خمسة أبطن، هي: عوف بن مالك، وعمرو بن مالك وهم النبيت، ومرة ابن مالك، وجشم بن مالك، وامرؤ القيس بن مالك. وبطون الخزرج الكبرى أيضًا خمسة أبطن هي: عمرو بن الخزرج، وعوف بن الخزرج، وجشم بن الخزرج، وكعب بن الخزرج، والحارث ابن الخزرج. انظر: «المنتخب في ذكر نسب قبائل العرب» (ص ٢٠).

(٣) «عمدة الأخبار في مدينة المختار» (ص ٢٥).

العلاقات بين اليهود وبعضهم البعض

لم تحدثنا المصادر عن العلاقات التي كانت بين القبائل والبطون اليهودية بعد قدومها إلى يثرب واستقرارها بها؛ ولذلك فإنه ليس أمامنا إلا الاستنتاج نعتمد عليه من دراسة أحوالهم في الفترة التي سبقت الهجرة مباشرة، وفي عهد الهجرة النبوية، علمًا بأن اليهود جاءوا في يثرب في هجرات متتابعة نتيجة للظروف التي كانت تواجههم في موطنهم في فلسطين. وهم حين جاءوا إلى هذه المناطق من أرض الحجاز كانوا طارئين عليها، فكان من مصلحتهم أن يكونوا على علاقات طيبة فيما بينهم، وكان على السابق منهم أن يفسح مجالًا للاحق، بدافع الشعور بالمحنة المشتركة وحتى يكثر عددهم ويقووا على حماية أنفسهم في بيئتهم الجديدة. وقد شغلوا في فترتهم الأولى بتدبير أمر أنفسهم والتَّقَوِّي على مواجهة جيرانهم من البطون العربية النازلة في يثرب، ومن القبائل التي تجاورهم، وترجح أن حياتهم الأولى لم تكن سهلة ميسرة، وأن أحداثًا وقعت بينهم وبين جيرانهم؛ مما جعلهم يتوسعون في إقامة الحصون والآطام حتى يقووا على مواجهة أي هجوم عليهم؛ وهم مع ذلك يعملون لاستثمار الأراضي الخصيبة التي نزلوا فيها. وقد نجحوا في كلا الأمرين نجاحًا كبيرًا، فاستقروا، وتجمعت في أيديهم الثروة، وعلا شأنهم حتى أصبحوا أصحاب الكلمة العليا في يثرب[1].

(١) «ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر» (٢٤٣/٣).

العلاقات بين العرب واليهود في المدينة

يذكر المؤرخون أن العلاقات بين الأوس والخزرج حين قدموا يثرب وبين اليهود، كانت علاقات سلم وجوار، وكان بالمدينة قرى وأسواق من يهود بني إسرائيل، وكان قد نزلها عليهم أحياء من العرب فكانوا معهم، وابتنوا الآطام والمنازل قبل نزول الأوس والخزرج(١)؛ فقد قدم هؤلاء العرب على قوم مستقرين في ديارهم، وبيدهم الأموال والقوة وهم الذين يسيطرون على الحالة الاقتصادية، فكان طبيعيًّا أن يقنعوا منهم بالسماح لهم بمجاورتهم والإقامة معهم، ولعلهم لم يكونوا من كثرة العدد والقوة بحيث يخشى اليهود منهم. ومن الجائز أنهم فكروا في الاستفادة من خبرتهم السابقة في الزراعة في مواطنهم باليمن، فاتخذوا منهم عمالًا ومساعدين لهم في أراضيهم الزراعية أو في أعمالهم التجارية.

وقنع الأوس والخزرج بهذا من اليهود فنزلوا بينهم وحواليهم(٢)؛ ولما كانت الثروة والسلطان في أيدي اليهود ومواليهم من البطون العربية، فقد عاش الأوس والخزرج في جهد وضيق في المعاش؛ إذ لم يكن لهم أموال أو أغنام ونحو ذلك؛ لأن المدينة ليست بلاد مرعى، فعمل بعضهم مأجورًا في مزارع اليهود، ومن عمل لحسابه لم يكن له إلا اليسير من الغنم أو المزارع التي يستخرجها من أرض موت(٣).

وأقام اليهود والعرب على ذلك مدة طويلة يسودهم الوئام والوفاق(٤).

ويتحدث السمهودي عن دور الوفاق بين الطرفين، فيقول: «وأقامت الأوس والخزرج بالمدينة، ووجدوا الأموال والآطام والنخيل في أيدي اليهود، ووجدوا

---

(١) «الدرة الثمينة في أخبار المدينة» (ص ٢٨).

(٢) «عمدة الأخبار في مدينة المختار» (ص ٢٨).

(٣) «التاريخ الشامل للمدينة المنورة» (ص ٥٨).

(٤) «مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ» (ص ٢٦٥).

العدد والقوة معهم، فمكث الأوس والخزرج ما شاء الله؛ ثم إنهم سألوهم أن يعقدوا بينهم جوارًا وحلفًا يَأْمَنُ به بعضهم من بعض ويمتنعون به ممن سواهم فتعاقدوا وتحالفوا، واشتركوا وتعاملوا؛ فلم يزالوا على ذلك زمانًا طويلًا، وأمرت الأوس والخزرج - أي: كثرت أموالها- وصار لهم مال وعدد؛ فلما رأت قريظة والنضير حالهم خافوهم أن يغلبوهم على دورهم وأموالهم، فتنمروا لهم حتى قطعوا الحلف الذي بينهم»(١).

ويؤخذ من هذه الرواية أن الأوس والخزرج قنعوا بوضعهم في أول الأمر؛ لأنهم إنما كان همهم أن يستقروا ويجدوا لهم معاشًا ثم أخذوا بعد ذلك يعملون على تثبيت مركزهم؛ فسعوا إلى عقد الحلف بينهم وبين اليهود ليأمنوا على أنفسهم، وليستطيعوا توسعة دائرة أعمالهم، وقد أتاح لهم الحلف أن يشاركوا اليهود ويتعاملوا معهم، وتنبهت اليهود إلى ما طرأ على حلفائهم هؤلاء وأحسوا بخطورتهم، وأدركوا أن الحلف إنما يسير إلى مصلحة جيرانهم من العرب، فخافوا أن يتطور الأمر إلى أن يغلبوهم على دورهم في يوم من الأيام، فغيروا مسلكهم نحوهم وأساءوا معاملتهم وانتهوا إلى قطع الحلف معهم؛ عند ذلك ظهرت الفتن والعدوات بين الطرفين.

ولما كانت اليهود أكثر عدد وعدة فإن الأوس والخزرج أقاموا في منازلهم خائفين أن تجليهم يهود، ولم يكن أمامهم إلا أن يبحثوا لهم عن حليف ينصرهم في حال الخلاف ووجود الشقاق والقتال بينهم وبين اليهود، وكان طبيعيًّا أن يتجه تفكيرهم أول ما يتجه إلى قوم تربطهم بهم رابطة قرابة ونسب، ويُكَوِّنُوا لهم من القوة ما يمكنهم من الانتصار بهم على خصومهم، فاتجهوا إلى الغساسنة الذين كانوا مثلهم فرع من

---

(١) «وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى» (ص ١٤٥).

الأزد؛ فهم أبناء عمومة، وكان الغساسنة قد علا أمرهم بالشام وكوّنوا لهم مملكة بها[١]. ثم أخذت اليهود تعترض الأوس والخزرج وتناوشهم، فرأي مالك ابن عجلان[٢] أن الغلبة لم تكتمل لهم بعد على اليهود، فكادهم كيدًا شديدًا، ونجح في القضاء على عدد منهم، فذلوا وقل امتناعهم وخافوا خوفًا شديدًا، واضطرت بطونهم الصغيرة إلى الدخول في حلف مع جيرانهم من الأوس والخزرج، ولم يبقَ إلا بنو النضير وقريظة، ويبدو أنهم كانوا أصحاب قوة وأن حصونهم كانت منيعة فاعتمدوا عليها ولم يحالفوا أحدًا منهم، وجعل اليهود كلما هاجمهم أحد من الأوس والخزرج بشيء يكرهونه لم يمشِ بعضهم إلى بعض كما كانوا يفعلون قبل ذلك، ولكن يذهب اليهودي إلى جيرانه الذين هو بين أظهرهم فيقول: «إنما نحن جيرانكم ومواليكم»، فكان كل قوم من اليهود قد لجئوا إلى بطن من الأوس والخزرج يتعززون بهم[٣].

مما سبق يبدو أن العامل الاقتصادي كان هو المتحكم في العلاقات بين العرب واليهود؛ فالعرب قد قنعوا بوضعهم الاقتصادي السيئ أول الأمر مضطرين، ثم سعوا إلى تحسينه بالحلف مع اليهود ومشاركتهم[٤].

العلاقات بين الأوس والخزرج

لبث الأوس والخزرج بعد تغلبهم على اليهود زمنًا وكلمتهم واحدة، ثم وقعت بينهم حروب كثيرة بسبب التنافس السياسي والاقتصادي، استمرت أكثر من مائة سنة، ذكر المؤرخون عددًا من أيامهم فيها، منها حرب سمير، وحرب كعب بن

---

(١) «مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ» (ص ٢٧٢).

(٢) مالك بن عجلان، من كبار رجال الخزرج.

(٣) «وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى» (ص ١٥٠).

(٤) «المصدر السابق» (ص ١٥٢).

عمرو المازني، ويوم السرارة، ويوم فارع، ويوم الفجار الأول والثاني، وحرب الحصين بن الأسلت، وحرب حاطب بن قيس، ثم حرب بُعاث، وكان أولها حرب سمير وآخرها حرب بعاث قبل الهجرة بخمس سنوات.

وقالوا في حرب بعاث: «وكان سببها أن الحروب المتقدمة كلها كان الظفر والنصر في أكثرها للخزرج على الأوس، حتى ذهبت الأوس للتحالف مع بني قريظة وبني النضير؛ وذلك بعد ما أيقنت أنها غير قادرة على الصمود، فأرسلت الخزرج إلى بني قريظة وبني النضير: لئن فعلتم فأذنوا بحرب. فتراجعوا وأرسلوا إلى الخزرج: إنا لا نحالفهم، ولا ندخل بينكم. فقالت الخزرج لليهود: فأعطونا رهائن وإلا فلا نأمنكم. فأعطوهم أربعين غلامًا من بينهم، وزعتهم في بيوت زعمائها، ولما يئست الأوس من ضمان أسباب النصر، أوفدت إلى مكة وفدًا في محاولة منها لاستعداء قريش على الخزرج، فلم يستجب القرشيون إلى طلبها حرصًا على عدم التدخل في أمور من شأنها أن تمس سلامة علاقاتها التجارية مع الجوار»(١).

غير أن الخزرج قد أقدمت على تصرف أهوج، عندما أسفر أحد زعمائها عن نيته في الاستيلاء على ما في أيدي قريظة والنضير من أراضٍ ودور، وأنذرهم بتسليمها أو قتل غلمانهم، فأعطى بذلك المجال إلى تحالف تم بين القبيلتين اليهوديتين وبين الأوس، وبدأت حرب بين الطرفين، وأقدم زعماء الخزرج عدا عبد الله بن أبي بن سلول على قتل الرهائن اليهود، وحشد كل من الطرفين حلفاءهما من داخل المدينة ومن خارجها، فراسلت الأوس حلفاءها من بني مزينة، بينما رأت الخزرج

---

(١) «تاريخ العرب القديم» (ص ٢٠٧).

أن تراسل حلفاءها من بني أشجع وبني جهينة، وانضم إليها بنو قينقاع من اليهود(١).

وكانت الغلبة في اليوم الأول من القتال للخزرج، ثم لم يلبث الأوس أن مالوا على خصومهم يقتلونهم ويحرقون منازلهم ونخيلهم، بينما كان اليهود ينكلون بهم تنكيلًا شديدًا وفي النهاية مال الطرفان إلى الصلح, وبرزت شخصية عبد الله ابن أبي بن سلول الذي اختير ليكون ملكًا على يثرب، وكاد أن يتم له ذلك، لولا قدوم الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة، ومعه الصحابة المهاجرين - رضي الله عنهم -(٢).

كان يوم بعاث قبل الهجرة بخمس سنين، وهو اليوم الذي تقول فيه عائشة - رضي الله عنها - : «كان يوم بعاث يومًا قدمه الله لرسوله - صلى الله عليه وسلم - وقد افترق ملؤهم(٣)، وقتلت سرواتُهم(٤)، وجرحوا، قدمه الله لرسوله - صلى الله عليه وسلم - في دخولهم الإسلام»(٥).

---

(١) «الأغصان الندية شرح الخلاصة البهية بترتيب أحداث السيرة النبوية» (ص ١٢٨).

(٢) «المغازي» (٢/٤٢١).

(٣) ملؤهم: أي، جماعتهم. انظر: «المعجم الوسيط» (ص ٢٨٢).

(٤) سرواتهم أي، خيارهم وأشرافهم، جمع سراة وهو جمع سري، وهو السيد الشريف الكريم، والسري أيضًا: النفيس. انظر: «المعجم الوسيط» (١/٤٢٨).

(٥) أخرجه البخاريُّ (٣٧٧٧)، كتاب: «مناقب الأنصار، باب: مناقب الأنصار».

حواضر الحجاز

«مدينة الطائف»

بقي أن نتحدث بإيجازٍ شديدٍ عن أهم المدن القديمة في شمال غرب الجزيرة العربية، غير مكة والمدينة، مثل الطائف وتيماء ودومة الجندل ومدائن صالح.

والطائف هي ثالث مدينة مهمة في الحجاز[1] وكانت تسمَّى «وج» نسبةً إلى أحد رؤسائها من العمالقة كما يروى، وهي أبرد مكان في الحجاز، وتتميز على مكة المكرمة بأنها ذات جو طيب في الصيف، وبأنها كثيرة الشجر والثمر، وأكثر ثمارها «الزبيب والرمان والموز والأعناب»[2].

وتاريخ الطائف لا يزال غامضًا، وإن عثر الباحثون على كتابات مدونة على الصخور المحيطة بالمدينة، وفي مواضع ليست بعيدة عنها، بعضها بالنبطية، وبعضها بالثمودية، وبعضها الثالث بعربية القرآن الكريم، كما عثر على كتابات تشبه اليونانية، وأخرى تشبه الخط الكوفي، وإن كانت جميعها لم تدرس حتى الآن.

وقد سكنت الطائف قبيلة ثقيف[3] التي أثرت من الزراعة والتجارة إثراءً عظيمًا، وخشيت على ثروتها من غزو الطامعين من الأعراب الذين يقيمون حولها،

(١) تقع الطائف على مبعدة حوالي ٩٠ كيلو مترًا إلى الجنوب الشرقي من مكة، على جبل غزوان.

(٢) «دراسات في تاريخ العرب القديم» (ص ٤٣١).

(٣) «صفة جزيرة العرب» (ص ١٢٢).

ويهددون بغزوها بين حين وآخر، فبنت كما تقول الروايات سورًا «طائفًا» حول المدينة يحميها من جميع جهاتها فسميت «الطائف»(١).

هذا وهناك مَن يزعم أن أول من سكن الطائف إنما هم العماليق (٢)، ثم غلبهم عليها بنو عدوان من قيس بن عيلان، ثم بنو عامر بن صعصعة، ثم أخذتها منهم ثقيف، وزعم آخرون أن الذين سكنوا الطائف بعد العماليق، إنما هم قوم ثمود قبل ارتحالهم إلى وادي القرى، ومِن ثَمَّ فقد ربط أصحاب هذه الرواية نسب ثقيف بالثموديين الذين نسبوهم إلى جد أعلى هو «قسي بن منبه»، الذي يجعله بعضهم من «إياد»، بينما يجعله البعض الآخر من «هوزان».

ويختلف أهل الطائف عن أهل مكة وعن الأعراب، من حيث ميلهم إلى الزراعة والاشتغال بها، وعنايتهم بغرس الأشجار المثمرة التي كانوا دائمي السعي إلى تحسين أنواعها وجلب أنواع جديدة منها، كما كان لهم خبرة ومهارة بالأمور العسكرية، الأمر الذي ظهر واضحًا إبان محاصرة الرسول ـ ﷺ ـ لمدينتهم وتحصنهم بسورها، هذا إلى جانب ميلٍ إلى الحرف اليدوية: كالدباغة، والنجارة، والحدادة، وهي أمور مستهجنة في نظر العربي(٣).

---

(١) «تاريخ العرب القديم» (ص ١٩٢).

(٢) العماليق هو: اسم يطلقه العرب على قبائل الكنعانيين والأموريين الذين كانوا يسكنون شبة الجزيرة العربية، وهم من أقدم الأمم التي سكنت الجزيرة العربية، من ذرية عمليق بن لاوذ بن إرم بن سام ابن نوح، عاصروا الأنبياء وتفرقوا في البلاد وحكموا بلدان كثيرة: نجد، البحرين، عمان، مصر، اليمن، سوريا، الحجاز، تهامة، العراق. انظر «المنتظم في تاريخ الأمم والملوك» (١/ ٢٤٨).

(٣) «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» (٧/ ١٤٥).

«مدينة تيماء»

تيماء هي مدينة تتبع منطقة تبوك[1] وقد بدأت تيماء تظهر في التاريخ على الأقل منذ أيام الملك الآشوري «تجلات بلاسر الثالث» (٧٤٥-٧٢٧ق.م).

وتيماء في الروايات العربية، بلد في أطراف الشام بين الشام ووادي القرى على طريق حاج الشام ودمشق، ولهذا الموقع أهمية جغرافية بالغة؛ حيث يوجد الكثير من المواقع الأثرية ومراكز التجارة القديمة على الخطوط الدولية التي تربط جنوب ووسط الجزيرة العربية بشمالها.

ولا يوجد أحداث سياسية مشهورة وقعت في تيماء، ويرجع أول ظهور لتيماء على المسرح السياسي إلى عهد الملك الآشوري تيجلات بلاسر الثالث (٥٤٧ - ٧٢٧ ق.م)، الذي ذكر في نصوص تمجد أعماله أنه أخذ الجزية من أهالي تيماء، كما ورد ذكر هذه المدينة في عهدي الملكين الآشوريين: سرجون الثاني (٧٢٢- ٧٠٥ ق.م)، وآشور بانيبال (٦٦٩ -٦٢٧ ق.م)، اللَّذَيْنِ أغارا على عددٍ مِن مدن شمال الجزيرة، ومن ضمنها «تيماء»، في محاولة منهما لضمان السيطرة على الطرق التجارية القديمة، وقد كان اليهود يسكنون بها في فترة من الفترات[1].

---

(١) تيماء: تتبع منطقة تبوك في المملكة العربية السعودية، وتبعد نحو ٢٦٤ كم إلى الجنوب الشرقي من مدينة تبوك. وتبعد ٤٢٠ كم إلى الشمال الشرقي من المدينة المنورة، ونحو ٣٥٠ كم إلى الجنوب الغربي من الجوف، و١٥٠ كم. إلى الشمال الغربي من العلا. والعلا إحدى مدن = = المملكة العربية السعودية، تقع غرب الجزيرة العربية، وتتبع إداريًّا منطقة المدينة المنورة، وتبعد عنها تقريبًا ٣٠٠ كيلو متر شمالًا. وهي على بعد ثماني مراحل من المدينة بينها وبين الشام. انظر: «وفاء الوفا» (٢/ ٢٧٢)، و«مصلحة الإحصاءات العامة والمعلومات، المملكة العربية السعودية».

(١) «دراسات في تاريخ العرب القديم» (ص ٤٣٣).

ولما بلغ أهل تيماء في سنة تسع وطء النبي ـ ﷺ ـ وادي القرى، أرسلوا إليه وصالحوه على الجزية، وأقاموا ببلادهم وأرضهم بأيديهم، فلما أجلى عمر ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ اليهود عن جزيرة العرب أجلاهم معهم[٢].

«دُومة الجندل»

وتسمى دومة الجندل الآن: «الجوف»، وكان يطلق عليها في العصور الآشورية: «أدوماتو»، وفي التوراة: «دومة»، وأما في المصادر العربية فهي «دومة الجندل»، نسبة إلى دوم «أو دومان أو دما أو دوماء» ابن إسماعيل بن إبراهيم الخليل ـ عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ ـ[٢]، وعلى أي حال فقد نسبت إلى الجندل؛ لأن حصنها مبني بالجندل وهو الصخر، وهي في رأي «السكوني» حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبلي طيئ، كانت به بنو كنانة من كلب، وتقع دومة الجندل جنوب غرب مدينة سكاكا على صخور تنتمي إلى الدرع العربي، وهي من أهم المناطق الجيولوجية بالمملكة، وهي من أهم المواقع التاريخية والأثرية والحضارية في المملكة العربية السعودية[٣].

وكانت تعتبر بمثابة قلعة الجزيرة العربية الشمالية في وجه المهاجمين من الشمال والشمال الشرقي، وإذا ما سقطت دومة الجندل تساقطت بالتالي باقي المدن المجاورة، ويبدو أن دومة الجندل كانت فترة العصور الآشورية مركزًا دينيًّا مهمًا للقبائل العربية، كما أن هذه المنطقة قد عرفت في هذه الفترة حكم الملكات اللاتي كن يجمعن بين السلطتين الدينية والزمنية، ولعل أشهرهن زبيبه «زبيبي» وشمسي

---

(٢) «معجم البلدان» (٢/٦٧).

(٢) «معجم البلدان» (٢/٨٥).

(٣) وهي تبعد عن العاصمة السعودية الرياض حوالي ٩٠٠ كم، وعن العاصمة المقدسة مكة المكرمة حوالي ١٢٢٠ كم.

وتعلخونو وتبؤة، وفي العهد البابلي خضعت دومة الجندل للملك نبونيد، فلقد جرد الملك البابلي في العام الثالث من حكمه على المدينة واحتلها[١].

هذا وتشير المراجع العربية إلى أن دومة الجندل إنما كانت مدينة محصنة بسورٍ في داخله حصن منيع يقال له: «مارد»، نسبه البعض ـ طبقًا للروايات التقليدية ـ إلى سليمان ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ، ونسبه آخرون إلى «أكيدر الملك بن عبد الملك السكوني»، وهو يهودي على رأي، وعربي من كندة على رأي آخر، وعلى أي حال، فإن الحصن على ما يبدو قد بني قبيل القرن الثالث الميلادي لأسبابٍ، منها: صلة السكونيين بكندة. ومنها: أن الحصن يشتمل في بعض أجزائه على نقوش نبطية ـ والأنباط كما نعرف قد انتهت دولتهم في عام ١٠٦م ـ، ومع ذلك فالحصن ليس من عمل فرد واحد، ولا من فترة واحدة، وإنما من فترات متعاقبة؛ لعل آخرها منذ نصف قرن فقط.

وهناك في المصادر العربية ما يشير إلى أن سكان دومة الجندل، إنما كانوا أصحاب نخل وزرع، يسقون على النواضح، وزرعهم الشعير، وكان في بلدهم سوق يبدأ في أول يوم من شهر ربيع الأول، وينتهي في النصف منه، هذا وقد كانت تسكن دومة قبل الإسلام قبائل كلب وجديلة وطيئ، كما يتنازع السلطان فيها «الأكيدر» و«قنافة الكلبي» الذي كان يتولى الأمر فيها حين تكون الغلبة من نصيب الغساسنة، مما يدل على التنافس بين كندة وبني غسان على الطريق التجاري[٢].

وفي العام التاسع للهجرة بعث الرسول ـ ﷺ ـ خالد بن الوليد إلى دومة الجندل الذي استطاع فتحها وأَسَرَ حاكمها أكيدر بن عبد الملك السكوني وأخذه إلى الرسول ـ ﷺ ـ بالمدينة فأسلم أكيدر حيث أعاده ـ ﷺ ـ إلى دومة الجندل،

(١) «دراسات في تاريخ العرب القديم» (ص ٤٣٥).
(٢) «المرجع السابق» (ص ٣٣٨).

وبعد وفاة الرسول ـ ﷺ ـ ارتد أكيدر عن الإسلام وترك دومة الجندل. ولقد ظلت بعد ذلك ممرًا للجيوش والقوافل التجارية المتجهة إلى بلاد الشام والعراق، ونظرًا لموقعها الاستراتيجي الهام وردت في معظم الكتب التاريخية والجغرافية العربية، كما وضع عدد من الرحالة الأوروبيين كتبًا أوردوا فيها مدينة دومة الجندل «الجوف» وحللوا الأحداث التاريخية التي مرت بها منذ أيام الأشوريين وحتى انضمامها إلى الملك عبد العزيز، وفيها وقعت غزوة دومة الجندل في حياة الرسول ـ ﷺ ـ في السنة الخامسة للهجرة، كما دارت بعد عدة سنوات معركة دومة الجندل في عهد أبي بكر الصديق ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ[1].

(١) «السيرة النبوية وأخبار الخلفاء» (١/ ٢٥٠).

المبحث السادس

ترجمة مختصرة حول سيرة أبي بكر وعمر رضي الله عنها:

لما كان الموضوع الأساسي لهذا الكتاب هو أحداث الفتن السياسية في عصر الخلافة الراشدة والدولة الأموية، ومن المعلوم أن أحداث الفتن السياسية تبدأ من منتصف خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، كان من المناسب أن نلقي الضوء بتصرف واختصار حول سيرة الخليفتين الصديق والفاروق رضي الله عنهما، وذلك حتى نكون قد جمعنا تاريخ فترة الخلافة الراشدة.

أولًا: نُبْذَة مختصرة حول سيرة أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

هو: عبد الله بن عثمان بن عامر ويلتقي مع الرسول صلى الله عليه وسلم، في النسب في الجد السادس مرة بن كعب، يكنى بأبي بكر ويُلقب بالعتيق والصديق والصاحب وغير ذلك. وهو عالم من علماء الأنساب عند العرب – لم يشرب الخمر ولم يسجد لصنم في الجاهلية – هو أول من أسلم من الرجال الأحرار.

اجتماع سقيفة بني ساعدة وخلافة أبي بكر الصديق:

مِن أهمِّ الأحداث السياسية التي وقعتْ بالمدينة المنورة عقب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم: اجتماع الصحابة رضي الله عنهم في سقيفة بني ساعدة، وهي الدار التي اعتادوا أن يعقدوا فيها اجتماعاتهم المهمة، وكان هذا الاجتماع لاختيار الخليفة الأول للمسلمين.

ويُعدُّ اجتماع السقيفة بمنزلة مؤتمرٍ سياسي شرعي يُعقَد للمرة الأولى.
فلقد اجتمع الأنصار أولًا "أوسهم وخزرجهم"؛ لاختيار خليفة للمسلمين مِن بينهم، وقد رأى الأنصار أن الخليفةَ لا بد أن يكون منهم؛ لاعتباراتٍ كثيرةٍ.

مِن أهمها:

- أنهم أصحاب البلد الذي هَاجَر إليه المهاجرون، فهم أهل البلد الأصليون، فقد كانت المدينة وكأنها دولة مستقلة، يعيش فيها الأوس والخزرج، وذلك قبل قدوم الرسول صلى الله عليه وسلم، والمهاجرين إليها، ثم اضُطهد المهاجرون في بلدهم مكة، فاضطروا إلى ترك بلدهم واللجوء إلى المدينة المنورة، وقد استقبل الأنصارُ المهاجرين خيرَ استقبال في بلدهم، وأكرموهم غاية الإكرام، ونصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنفس والمال؛ ولذا أثنى الله عليهم في القرآن العظيم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

ثم مرَّت الأيام ومات النبيُّ محمد صلى الله عليه وسلم وهو قائد المدينة المنورة وزعيمها وحاكمها، وهنا سؤال يطرح نفسه: مَن يتولى قيادة المدينة من بعده؟!
زعيم وحاكم من أهلها الأصليين أم من المهاجرين لها، اللاجئين إليها؟
فمِن الطبيعي أن يتولى الحكم رجل من أهل المدينة؛ ولذا أسرع الأنصار إلى سقيفة بني ساعدة لترشيح رجل منهم.

- ثم إن أهل المدينة أدرى بشعابها ودروبها مِن غيرهم.

- ثم هم الذين ضحوا بالغالي والنفيس من أجل إقامة دولة الإسلام؛ فلولاهم ما قامت الدولة.

فلهذه الأسباب -ولغيرها- اعتقد الأنصارُ أنه مِن الطبيعي أن يكون الخليفةُ مِن بينهم، وليس من المهاجرين؛ ليس تقليلًا لشأن المهاجرين، ولا إجحافًا بهم، ولكن لاعتقادهم أن هذا حق لا ينازعهم فيه أحدٌ، فهم أولى من غيرهم.

ويدل على ذلك ما قاله خطيب الأنصار في كلمته، حيث قال: "فَنَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ وَكَتِيبَةُ الْإِسْلَامِ، وَأَنْتُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ رَهْطٌ مِنَّا، وَقَدْ دَفَّتْ دَافَّةٌ مِنْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَخْتَزِلُونَا مِنْ أَصْلِنَا وَيَحْضُنُونَا مِنَ الْأَمْرِ".

وبالفعل اجتمع الأنصار أوسهم وخزرجهم على اختيار أحدهم لتولي الخلافة، وكان المرشح الأول هو: الصحابي سعد بن عبادة رضي الله عنه، وهو زعيم الخزرج، ولما بلغ ذلك المهاجرين، اجتمع المهاجرون إلى أبي بكر وذهبوا إلى إخوانهم من الأنصار في سقيفة بني ساعدة، ولما سمع أبو بكر كلام الأنصار قال لهم: "فَمَا ذَكَرْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَأَنْتُمْ أَهْلُهُ، وَلَمْ تَعْرِفِ الْعَرَبُ هَذَا الْأَمْرَ إِلَّا لِهَذَا الْحَيِّ مِنْ قُرَيْشٍ، هُمْ أَوْسَطُ الْعَرَبِ نَسَبًا وَدَارًا"، وأخبرهم أن الإمامة لا تكون إلا في قريش، واحتج بقول النبي صلى الله عليه وسلم: «الْأَئِمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ»(١).

(١) رواه أحمد (١٩٧٧٧)، والحاكم (٦٩٦٢)، وصححه الألباني، وأصله في الصحيحين، وفي رواية البخاري: «إِنَّ هَذَا الأَمْرَ فِي قُرَيْشٍ لَا يُعَادِيهِمْ أَحَدٌ، إِلَّا كَبَّهُ اللَّهُ عَلَى وَجْهِهِ، مَا أَقَامُوا الدِّينَ» [رواه البخاري (٣٥٠٠)].

وفي رواية: «لَا يَزَالُ هَذَا الأَمْرُ فِي قُرَيْشٍ مَا بَقِيَ مِنْهُمُ اثْنَانِ» [رواه البخاري (٣٥٠١)، ومسلم (١٨٢٠)].

ثم قال: "وَقَدْ رَضِيتُ لَكُمْ أَحَدَ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ أَيَّهُمَا شِئْتُمْ وَأَخَذَ بِيَدِي عمر بن الخطاب، وأَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ"، وهنا قام رجل من الأنصار وقال: "مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ"، ثم كَثُر اللَّغَط وَارْتَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ، وكادوا أن يختلفوا اختلافًا شديدًا حتى استقروا جميعًا على بيعة الصديق رضي الله عنه بعد أن قام عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال: "ابسط يدك يا أبا بكر"، فبسط يده، فبايعه عمر وبايعه المهاجرون ثم بايعته الأنصار، وهكذا تمت البيعة للخليفة الأول في تاريخ الإسلام، وهكذا لعب عمر بن الخطاب دورًا بارزًا يوم السقيفة.

وفي رواية قال سعد لأبي بكر بعدما ذكر الحديث: صدقت، نحن الوزراء، وأنتم الأمراء، وهناك من قال لقد رضيه رسول الله لديننا أفلا نرضاه لدنيانا – وقد استشهد البعض باستخلاف الرسول لأبي بكر مكانه في الصلاة واعتبروا ذلك إشارة من رسول الله.

وقد توفي النبي صلى الله عليه وسلم حين اشتد الضحى من يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة ثم تمت البيعة يوم الإثنين في السقيفة، ثم تمت البيعة العامة يوم الثلاثاء في المسجد، ثم دفن رسول الله أوسط ليلة الأربعاء [١].

قال الحافظ ابن حجر: "وليس المراد حقيقة العدد، وإنما المراد به انتفاء أن يكون الأمر في غير قريش" [فتح الباري لابن حجر (١٣/ ١١٧)].

[١] للمزيد راجع: البداية والنهاية لابن كثير، وصحيح البخاري، وكتاب: تاريخ الخلفاء الراشدين: الفتوحات والإنجازات السياسية، محمد سهيل طقوش.

فضائل أبي بكر الصديق:

أوذي أبو بكر بعد إسلامه وحثي على رأسه التراب، وضرب في المسجد الحرام حتى أوشك على الموت وتم نقله إلى بيته.

و دافع عن رسول الله وكان يقول لكفار قريش، "أَتَقْتُلُونَ رَجُلا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّه".

و أنفق الأموال في سبيل الله و لتحرير المعذبين في سبيل الله – كما فعل ذلك مع بلال. – عن عمر قال " أمرَنا رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ أن نتصدَّقَ فوافقَ ذلِكَ عندي مالًا، فقلتُ اليومَ أسبِقُ أبا بَكرٍ إن سبقتُهُ يومًا، قالَ فَجِئْتُ بنِصفِ مالي فقالَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ ما أبقيتَ لأَهْلِكَ؟ قلتُ مثلَهُ، وأتَى أبو بَكرٍ بِكُلِّ ما عندَهُ، فقالَ يا أبا بَكرٍ ما أبقَيتَ لأَهْلِكَ فقالَ أبقيتُ لَهُمُ اللَّهَ ورسولَهُ قلتُ لا أسبقُهُ إلى شيءٍ أبدًا"[1] وفي الحديث " ما لِأَحدٍ عندَنَا يَدٌ إلَّا وقَدْ كافأناهُ، ما خلَا أبا بكرٍ، فإنَّ لَهُ عِندنَا يَدًا يُكافِئُهُ اللهُ بِها يومَ القيامَةِ، ومَا نفَعَنِي مَالُ أحدٍ قَطُّ مَا نَفَعِني مالُ أبي بِكْرٍ" وفي رواية وكان يقضي في مال أبي بكر كما" يقضي في مال نفسه"

---

(١) (صحيح الترمذي)

وكان له دوره العظيم في حدث الهجرة – وفي الأية دلالة على أفضلية الصديق من عدة أوجه – (أنه الصاحب الوحيد في أشد المواقف، كالهجرة ومقامه يوم بدر مع النبي في العريش، ومع الرسول عند خروجه لدعوة قبائل العرب ، و أنه المقصود بقوله تعالى{ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} لأن الشيعة ينكرون ذلك – و أنه المشفق على رسول الله { إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} يدل على انه كان محبًا وناصرًا ومشفقًا على رسول الله – وهو المشارك له في المعية الخاصة{ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا}- و أنه الصاحب المشارك في حال نزول السكينة {فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ}

وكثرجهاده مع رسول الله، فشارك في بدر وأحد وحمراء الأسد وبني النضير وبني المصطلق والخندق وبني قريظة والحديبية وخيبر وسرية نجد وبني فزارة وفي عمرة القضاء وذات السلاسل وفتح مكة وحنين والطائف وتبوك وتولى إمارة الحج عام ٩ وكان في حجة الوداع.

و اشتهر بالورع والزهد والحياء، ومن أخبار أبي بكر الصديق في ذلك مارواه الإمام أحمد بإسناده عن قيس بن أبي حازم قال: كان لأبي بكر غلام فكان إذا جاء بغلَّته لم يأكل من غلته حتى يسأله، فإن كان شيئًا مما يحب أكل، وإن كان شيئًا يكره لم يأكل، قال: فنسي ليلةً فأكل ولم يسأله، ثم سأله فأخبره أنه من شيء كرهه،-

تكهن لإنسان فخدعه- فأدخل يده فتقيأ حتى لم يترك شيئًا ، وفي رواية أنه لم يستطع إخراج تلك اللقمة، فقال له من حوله: إنها لا تخرج إلا بالماء، فشرب فخرجت، فقيل له: رحمك الله، كلُّ هذا من أجل هذه اللقمة، فقال: لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها، سمعت رسول الله يقول: "كل جسم نبت من حرام فالنار أولى به ".فهذا مثال على ورع أبي بكر – رضي الله عنه – حيث كان يتحرى الحلال في مطعمه ومشربه، ويجتنب الشبهات، وهذه الخصلة تدل على بلوغه درجات عُليا في التقوى، ولا يخفى أهمية طيب المطعم والمشرب والملبس في الدين، وعلاقة ذلك بإجابة الدعاء.

وأما عن زهده في الدنيا، فقد ثبت أنه قال: وددت أني يوم سقيفة بني ساعدة كنت قذفت الأمر في عنق أحد الرجلين؛ أبي عبيدة أو عمر.

وهو السَّابقُ إلى مَكرُمةٍ الحياء – يقولُ رضي الله عنه: «يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَظَلُّ حِينَ أَذْهَبُ إِلَى الْغَائِطِ فِي الْفَضَاءِ مُتَقَنِّعاً بِثَوْبِي؛ اسْتِحْيَاءً مِنْ رَبِّي» (١).

سياسته في الحكم والإدارة: كان من كمال أبي بكر أن يولي الشديد ويستعين به ليعتدل أمره، ويخلط الشدة باللين – فاللين في موطن الشدة ضعف، والشدة في

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق.

موطن اللين عنف-، فكان يقوم باستشارة عمر وباستتنابة خالد ونحو ذلك، -؛ ولهذا اشتد في قتال أهل الردة شدة برز بها على عمر وغيره، فجعل الله فيه من الشدة ما لم يكن فيه قبل ذلك، وأما عمر رضي الله عنه فكان شديدًا في نفسه، فكان من كماله استعانته باللين ليعتدل أمره - فكان يستعين بأبي عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص، وأبي عبيد الثقفي، والنعمان بن مقرن، وسعيد بن عامر، وأمثال هؤلاء.

ومن شمائله: العفو والتسامح : كان الصديق يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ، فَحَلَفَ أَبُو بَكْرٍ، أَنْ لَا يَنْفَعَ مِسْطَحًا بِنَافِعَةٍ أَبَدًا، حيث خاض مسطح في حادثة الإفك على عائشة رضي الله عنها، فجلده الرسول صلى الله عليه وسلم فيمن جلد في ذلك- فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ} يَعْنِي: أَبَا بَكْرٍ {أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ} [النور: ٢٢] يَعْنِي: مِسْطَحًا {أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [النور: ٢٢] فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَى " وَاللهِ إِنَّا لَنُحِبُّ أَنْ تَغْفِرَ لَنَا "، وَعَادَ أَبُو بَكْرٍ لِمِسْطَحٍ بِمَا كَانَ يَصْنَعُ بِهِ.. -

وتأمل ماذا قال عمر الفاروق عن الصديق ؟ ذَكَرَ رِجَالٌ عَلَى عَهْدِ عُمْرَ فَكَأَنَّهُمْ فَضَّلُوا عُمَرَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ،فَبَلَغَ ذَلِكَ عُمَرَ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَلَيْلَةٌ مِنْ أَبِي بَكْرٍ خَيْرٌ مِنْ آلِ عُمَرَ، وَلَيَوْمٌ مِنْ أَبِي بَكْرٍ خَيْرٌ مِنْ آلِ عُمَرَ لَقَدْ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ لَيْلَةَ انْطَلَقَ إِلَى الْغَارِ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ فَجَعَلَ يَمْشِي سَاعَةً بَيْنَ يَدَيْهِ وَسَاعَةً خَلْفَهُ، حَتَّى فَطِنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: " يا أبا بكر مالك تمشي ساعة خلفي وساعة بين يدي؟ " فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَذْكُرُ الطَّلَبَ، فَأَمْشِي خَلْفَكَ، ثُمَّ أَذْكُرُ الرَّصَدَ، فَأَمْشِي بَيْنَ يَدَيْكَ(١).

وتأمل أحوال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أبي بكر؛ عَنْ رَبِيعَةَ الْأَسْلَمِيِّ قَالَ: كُنْتُ أَخْدُمُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْطَانِي بَعْدَ ذَلِكَ أَرْضًا، وَأَعْطَى أَبَا بَكْرٍ أَرْضًا، وَجَاءَتِ الدُّنْيَا فَاخْتَلَفْنَا فِي عِذْقِ نَخْلَةٍ، فَقُلْتُ أَنَا: هِيَ فِي جَدِّي، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: هِيَ فِي جَدِّي، فَكَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي بَكْرٍ كَلَامٌ، فَقَالَ لِي أَبُو بَكْرٍ كَلِمَةً كَرِهَهَا وَنَدِمَ عَلَيْهَا، وَقَالَ لِي: يَا رَبِيعَةُ، رُدَّ عَلَيَّ مِثْلَهَا، حَتَّى يَكُونَ قِصَاصًا، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: لَتَقُولَنَّ أَوْ لَأَسْتَعْدِيَنَّ عَلَيْكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ، قَالَ: وَرَفَضَ الْأَرْضَ، وَانْطَلَقَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَانْطَلَقْتُ أَتْلُوهُ، فَجَاءَ نَاسٌ مِنْ أَسْلَمَ فَقَالُوا لِي: رَحِمَ اللَّهُ أَبَا بَكْرٍ، فِي أَيِّ شَيْءٍ يَسْتَعْدِي عَلَيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَهُوَ الَّذِي قَالَ لَكَ مَا قَالَ؟ قَالَ: فَقُلْتُ: أَتَدْرُونَ مَا هَذَا؟ هَذَا أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، هَذَا ثَانِيَ اثْنَيْنِ، وَهُوَ ذُو شَيْبَةِ الْمُسْلِمِينَ، أَتَاكُمْ لَا يَلْتَفِتُ فَيَرَاكُمْ تَنْصُرُونِي

---

(١) (البداية والنهاية)

عَلَيْهِ فَيَغْضَبُ فَيَأْتِيَ رَسُولَ اللَّهِ فَيَغْضَبُ لِغَضَبِهِ، فَيَغْضَبُ اللَّهُ لِغَضَبِهِمَا، فَتَهْلِكَ رَبِيعَةُ، قَالَ: مَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: ارْجِعُوا، وَانْطَلَقَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَتَبِعْتُهُ وَحْدِي، حَتَّى أَتَى رَسُولَ اللَّهِ فَحَدَّثَهُ الْحَدِيثَ كَمَا كَانَ، فَرَفَعَ إِلَيَّ رَأْسَهُ فَقَالَ: «يَا رَبِيعَةُ، مَا لَكَ وَلِلصِّدِّيقِ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَانَ كَذَا وَكَذَا، قَالَ لِي كَلِمَةً كَرِهَهَا، فَقَالَ لِي: قُلْ كَمَا قُلْتُ؛ حَتَّى يَكُونَ قِصَاصًا، فَأَبَيْتُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَجَلْ، فَلَا تُرَدَّ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ قُلْ: غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ "، فَقُلْتُ: غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، قَالَ الْحَسَنُ: فَوَلَّى أَبُو بَكْرٍ وَهُوَ يَبْكِي[١].

وفي حادثة أخرى، كَانَتْ بيْنَ أَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ مُحَاوَرَةٌ، فأَغْضَبَ أبو بَكْرٍ عُمَرَ فَانْصَرَفَ عنه عُمَرُ مُغْضَبًا، فَاتَّبَعَهُ أبو بَكْرٍ يَسْأَلُهُ أنْ يَسْتَغْفِرَ له، فَلَمْ يَفْعَلْ حتَّى أغْلَقَ بَابَهُ في وجْهِهِ، فأقْبَلَ أبو بَكْرٍ إلى رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَقالَ أبو الدَّرْدَاءِ ونَحْنُ عِنْدَهُ: فَقالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أمَّا صَاحِبُكُمْ هذا فقَدْ غَامَرَ قالَ: ونَدِمَ عُمَرُ علَى ما كانَ منه، فأقْبَلَ حتَّى سَلَّمَ وجَلَسَ إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وقَصَّ علَى رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الخَبَرَ، قالَ أبو الدَّرْدَاءِ: وغَضِبَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وجَعَلَ أبو بَكْرٍ يقولُ: واللَّهِ يا

---

(١) .(مسند أحمد والبداية والنهاية).

رَسولَ اللَّهِ لَأَنَا كُنْتُ أظْلَمَ، فَقالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: هلْ أنتُمْ تَارِكُونَ لي صَاحِبِي، هلْ أنتُمْ تَارِكُونَ لي صَاحِبِي، إنِّي قُلتُ: يا أيُّها النَّاسُ، إنِّي رَسولُ اللَّهِ إلَيْكُمْ جَمِيعًا، فَقُلتُمْ: كَذَبْتَ، وقالَ أبو بَكْرٍ: صَدَقْتَ، قالَ أبو عبدِ اللَّهِ: غَامَرَ: سَبَقَ بالخَيْرِ[١].

قتال المرتدين وإنفاذ جيش أسامة بن زيد:

من أهم المحطات التاريخية في خلافة أبي بكر رضي الله عنه؛ قتاله للمرتدين، وإنفاذ جيس أسامة بن زيد رضي الله عنه.

فمن المعلوم أنه بعد عودة النبي صلى الله عليه وسلم، من حجة الوداع، جهز جيشًا بقيادة أسامة بن زيد رضي الله عنه، على أن يسير الجيش إلى حدود الشام، وفي هذا الصدد يقول ابن كثير رحمه الله " أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بِالْمَسِيرِ إِلَى تُخُومِ الْبَلْقَاءِ مِنَ الشَّام، حَيْثُ قُتِلَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، وَجَعْفَرٌ وَابْنُ رَوَاحَةَ: فيغتزوا عَلَى تِلْكَ الْأَرَاضِي، فَخَرَجُوا إِلَى الجُرُف فخيَّموا به، وكان بينهم عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَيُقَالُ: وَأَبُو بَكْرٍ الصِّديق فاستثناه رسول الله مِنْهُمْ للصَّلاة، فلمَّا ثَقُلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلَّم أَقَامُوا هُنَالِكَ، فلمَّا مَاتَ عَظُمَ الْخُطَبُ واشتدَّ

---

(١) صحيح البخاري.

الْحَالُ وَنَجَمَ النِّفاق بِالْمَدِينَةِ، وارتدَّ مَنِ ارتدَّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ حَوْلَ الْمَدِينَةِ، وَامْتَنَعَ آخَرُونَ مِنْ أَدَاءِ الزَّكاة إِلَى الصِّديق، ولم يبق للجمعة مقام في بَلَدٍ سِوَى مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، وَكَانَتْ جُوَاثَا مِنَ الْبَحْرَيْنِ أَوَّل قَرْيَةٍ أَقَامَتِ الْجُمُعَةَ بَعْدَ رُجُوعِ النَّاس إِلَى الحقِّ كَمَا فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ كَمَا سَيأْتِي، وَقَدْ كَانَتْ ثَقِيفٌ بالطَّائف ثَبَتُوا عَلَى الْإِسْلَامِ، لَمْ يفرُّوا وَلَا ارتدُّوا، وَالْمَقْصُودُ أَنَّه لَمَّا وَقَعَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ أَشَارَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاس عَلَى الصِّديق أَنْ لَا يُنْفِذَ جَيْشَ أُسَامَةَ لِاحْتِيَاجِهِ إليه فيما هو أهمّ، لأنَّ ما جهِّز بِسَبَبِهِ فِي حَالِ السَّلامة، وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ مَنْ أَشَارَ بِذَلِكَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَامْتَنَعَ الصِّديق مِنْ ذَلِكَ، وَأَبَى أشدَّ الْإِبَاءِ، إِلَّا أَنْ يُنْفِذَ جَيْشَ أُسَامَةَ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَحُلُّ عُقْدَةً عَقَدَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَوْ أَنَّ الطَّير تخطَّفنا، والسَّباع مِنْ حَوْلِ الْمَدِينَةِ وَلَوْ أَنَّ الْكِلَابَ جَرَّتْ بِأَرْجُلِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ لأجهزنَّ جَيْشَ أُسَامَةَ وَأَمَرَ الْحَرَسَ يَكُونُونَ حَوْلَ الْمَدِينَةِ فَكَانَ خُرُوجُهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مِنْ أَكْبَرِ الْمَصَالِحِ وَالْحَالَةُ تِلْكَ، فَسَارُوا لَا يمرُّون بحيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ إِلَّا أُرْعِبُوا مِنْهُمْ، وَقَالُوا: مَا خَرَجَ هَؤُلَاءِ مِنْ قَوْمٍ إِلَّا وَبِهِمْ مَنَعَةٌ شَدِيدَةٌ، فقاموا أربعين يوماً ويقال سبعين يوماً، ثمَّ أتوا سَالِمِينَ غَانِمِينَ، ثمَّ رَجَعُوا فجهَّزهم حِينَئِذٍ مَعَ الأحياء الذين أخرجهم لقتال المرتدَّة، وما نعي الزَّكاة".

وقال أيضًا " لَمَّا بُويعَ أَبُو بَكْرٍ وَجَمَعَ الْأَنْصَارَ فِي الْأَمْرِ الَّذِي افْتَرَقُوا فِيهِ، قَالَ، لِيَتِمَّ بَعْثُ أُسَامَةَ وَقَدِ ارتدَّت الْعَرَبُ إمَّا عامَّة وإمَّا خاصَّة، فِي كُلِّ قَبِيلَةٍ، وَنَجَمَ النِّفاق واشرأبَّت الْيَهُودِيَّةُ والنَّصرانية، وَالْمُسْلِمُونَ كَالْغَنَمِ الْمَطِيرَةِ فِي اللَّيْلَةِ الشَّاتِيَةِ، لِفَقْدِ نَبِيِّهِمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلَّم، وقلَّتهم وَكَثْرَةِ عدوِّهم، فَقَالَ لَهُ النَّاس: إنَّ هَؤُلَاءِ جلَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْعَرَبُ عَلَى ما ترى قد انتقصت بِكَ، وَلَيْسَ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تفرِّق عَنْكَ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ: وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي بَكْرٍ بِيَدِهِ لَوْ ظَنَنْتُ أَنَّ السِّباع تخطَّفني لَأَنْفَذْتُ بَعْثَ أُسَامَةَ كَمَا أَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلَّم، وَلَوْ لَمْ يَبْقَ فِي الْقُرَى غَيْرِي لَأَنْفَذْتُهُ، ثمَّ نَهَضَ أبو بكر بِنَفْسِهِ إِلَى الجُرُف فَاسْتَعْرَضَ جَيْشَ أُسَامَةَ وَأَمَرَهُمْ بِالْمَسِيرِ، وَسَارَ مَعَهُمْ مَاشِيًا، وَأُسَامَةُ رَاكِبًا، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ يَقُودُ بِرَاحِلَةِ الصِّديق، فَقَالَ أُسَامَةُ: يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ، إِمَّا أَنْ تَرْكَبَ وإمَّا أَنْ أَنْزِلَ، فَقَالَ: وَاللَّهَ لَسْتَ بِنَازِلٍ وَلَسْتُ بِرَاكِبٍ(١).

ثم تفرغ الصديق لقتال المرتدين، فَعَقَدَ أَحَدَ عَشَرَ لِوَاءً لقتالهم، وقرر أن يقاتل من ارتد بالكلية، ومن منع الزكاة فقط، هذا بخلاف من ادعى النبوة، ثم اختلف بعض الصحابة مع أبي بكر حول قتال من منعوا الزكاة فقط، واقترحوا عليه أَنْ يَتْرُكَهُمْ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ مَنْعِ الزَّكاة ويتألَّفهم حتى يتمكَّن الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ: ثمَّ

(١) ابن كثير: البداية والنهاية (٦/ ٣٣٥).

هُمْ بَعْدَ ذَلِكَ يزكُّون، فَامْتَنَعَ الصِّديق مِنْ ذَلِكَ وَأَبَاهُ، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ: عَلَامَ تُقَاتِلُ النَّاس؟ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلَّم: أُمرت أَنْ أُقَاتِلَ النَّاس حتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا منِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عِنَاقًا، وَفِي رِوَايَةٍ: عِقَالًا كَانُوا يؤدُّونه إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلَّم لأقاتلنَّهم عَلَى مَنْعِهَا، إنَّ الزَّكاة حقَّ الْمَالِ، وَاللَّهِ لأقاتلنَّ مَنْ فرَّق بَيْنَ الصَّلاة والزَّكاة، قَالَ عُمَرُ: فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ، فَعَرَفْتُ أَنَّه الْحَقُّ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ}(١).

واستطاع أبو بكر بفضل الله تعالى وتوفيقه؛ أن يسيطر على الأوضاع والأحوال، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَوْلَا أَنَّ أَبَا بَكْرٍ اسْتُخْلِفَ مَا عُبِدَ اللَّهُ، ويقول علي بن المديني؛ أيد الله هذا الدين برجلين لا ثالث لهما، بأبي بكر الصديق يوم الردة؛ وبأحمد بن حنبل في يوم المحنة(٢).

---

(١) أخرجه أحمد، ومسلم، والبخاري، وابن حبان والبيهقي.

(٢) أبو الحسين ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة.

الفتوحات الإسلامية في عصر خلافة أبي بكر:

ترتبط البدايات الأولى لفتح العراق بانتهاء حروب الردَّة، فقد وجد المسلمون أنفسهم على حدود العراق؛ حيث طارد المثنى بن حارثة الشيباني فلول المرتدِّين حتى دخل جنوبي العراق، فاستأذن أبا بكر في غزوه، وطلب منه أن يُؤمِّره على قومه ليُقاتل بهم الفرس، فكان له ما أراد، وقد عزز أبو بكر عمليات الفتح بإرسال جيش بقيادة خالد بن الوليد، وآخر بقيادة عياض بن غنم، على أن يلتقيا بالحيرة ثم يبدأ الفتح بالْأُبُلَّة(١)، وكان ذلك عام ١٢ هـ.

وكانت العراق في ذلك التوقيت أرضًا ممهَّدةً ومهيَّأةً للعمليَّات العسكريَّة، فقد تدهورت العلاقات بين الفرس وبين عرب العراق.

المعارك التي قامت بين المسلمين والفرس على أرض العراق:

معركة ذات السلاسل: وهي أول المعارك، ربط هرمز جنوده بالسلاسل خشية الفرار، وقد انتصر فيها المسلمون وغنموا أموالًا كثيرة، وظهرت عبقرية خالد في تلك المعركة وظهرت فراسة الصديق عندما قال عن القعقاع بن عمرو- لَصَوْتُ القعقاع في الجيش خيْرٌ من ألف رجل- وقال لا يهزم جيش فيه القعقاع - ولم

---

(١) بلدة على شاطئ دجلة قريبًا من البصرة. والصحيح أن الأبلة فتحت عام ١٤هـ، في خلافة عمر بن الخطاب كما سيأتي.

يتعرض خالد لمن لم يقاتلوه من الفلاحين بل أحسن معاملتهم كما أوصاه الصديق، وأبقاهم في الأرض التي يفلحونها ومكنهم من إنتاجها ومتعهم بثمرات عملهم، وكانت هذه الواقعة في منطقة – الكاظمة – في طريق البحرين من البصرة.

معركة الْمَذَارِ" الثِّنْي ":

وقعت هذه المعركة بمكان يسمى المذار[١]، في شهر صفر عام ١٢هـ، وقد انتصر المسلمون على الفرس، وقتل من الفرس ثلاثون ألفًا، وقُتل قائدهم – قَارَن –.

معركة الوَلَجة:

وقعت هذه المعركة بمكان يسمى الولجة[٢]، وانتصر المسلمون على الفرس بعد أن حاصرهم خالد من ثلاث جهات.

معركة أُلَّيْس وفتح أَمْغِيْشَيَا:

بعد هزيمة الفرس في الولجة تجمع نصارى العرب الموالون للفرس وانضموا إلى الفرس، وعسكروا في أُلَيس، و تقابل الطرفان واستمر الجيشان في رحى معركة ضارية، انتهت بانتصار المسلمين، وتبدت قوى التحالف سبعين ألف قتيل، وقد

(١) هي مدينة بين واسط والبصرة.

(٢) بطريق القادسية.

وقعت المعركة في شهر صفر عام (١٢هـ-٦٣٣م)، وبعد أن فرغ خالد من أليس نهض حتى أتى أمغيشيا وسيطر عليها.

فتح الحيرة:

والحيرة مدينة تبعد ثلاثة أميال من الكوفة - ضرب المسلمون الحصار على الحيرة، وقد تحصن أهلها بحصونهم، ورفضوا ما عرضه عليهم خالد من الدخول في الإسلام، أو الاستسلام ودفع الجزية، وأصروا على المقاومة، وبعد مناوشات عسكرية خارج أسوار الحصون، تمكن المسلمون من اقتحامها، واضطر المقاومون إلى الاستسلام، وجرت مفاوضات بين الجانبين، وقد وافق نقباء الحيرة على دفع الجزية، وجرى تحرير معاهدة الصلح في شهر ربيع الأول (١٢ هـ/ ٦٣٣م)، وتعد الحيرة أول عاصمة إقليمية فارسية يفتحها المسلمون.

مجموعة من الفتوحات:

ثم كان فتح الأنبار في شهر رجب عام ١٢هـ، واستقر خالد في الأنبار، وقدمت عليه وفود من العرب والفرس، ممن يقيمون في الجوار، يطلبون الصلح، فصالحه.

ثم تم فتح حصن عين التمر في شهر رجب من نفس العام، واقتحم المسلمون الحصن واستسلم من به.

ثم تم فتح دُومة الجندل: وهو موقع حصين بين المدينة ودمشق، في شهر رجب أيضًا من نفس العام.

ثم دارت عدة معارك تفوق فيها المسلمون: كوقعة الْحُصَيْدُ في شهر شعبان والمصيَّخ والثَّنِي والزُّمَيل والفِراض - وأقام خالد في الفراض عشرة أيام، ثم عاد للحيرة وكان ذلك في شهر ذي القعدة عام ١٢هـ، وهذه أخر فتوحات خالد بن الوليد في أرض العراق في خلافة الصديق.

مختصر فتوحات الشام وجهاد الروم في عصر أبي بكر الصديق:

استشار الصديق الصحابة في جهاد الروم ودعا المسلمين إلى الجهاد فاستجابوا ورحبوا، وأرسل الصديق أربعة جيوش إلى الشام، أرسل جيشًا بقيادة يزيد بن أبي سفيان وحدد له دمشق كهدف، و شرحبيل بن حسنة قائدًا للجيش الثاني، وهدفه بصرى عاصمة حوران ، و الثالث: يقوده أبو عبيدة بن الجراح وهدفه حمص، والرابع بقيادة عمرو بن العاص، وهدفه فلسطين، والجيش الخامس كان بقيادة عكرمة بن أبي جهل، وقد أبقاه أبو بكر في المدينة كاحتياط وتأمين.

وقد انطلقت الجيوش الإسلامية من قاعدتها في المدينة باتجاه أهدافها المحددة، وبعد عدة معارك أصدر الصديق قرارًا بتحرك خالد بجيشه من العراق إلى الشام وأن يتولى خالد إمارة الجيوش.

وبالفعل انتصر المسلمون في معركة أجنادين في جُمادى الأولى عام ١٣هـ، واجه فيها الروم بـ ١٠٠ ألف مقاتلٍ، جيش المسلمين البالغ ٣٣ ألفًا.

ثم توجه المسلمون إلى دمشق بعد أن فرغوا من أجنادين، وبدأت تتحقق الإنتصارات على الروم في بلاد الشام، وقدر الله تعالى أن يموت الصديق رضي الله عنه في شهر جمادى الآخرة عام (١٣هـ/ ٦٣٤م)، ثم تولى أمر الخلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وهنا أصدر عمر قرارًا بعزل خالد بن الوليدعن قيادة جيوش الشام، وولى أبا عبيدة بدلًا منه، لكن الأخير أخَّر نشر نبأ العزل؛ لأن المسلمين كانوا في صدد تحضير فتح دمشق، ولم يشأ أن يحدث هذا التغيير أي خلل في صفوف الجيش الإسلامي.

ثانيًا: نُبْذَة مختصرة حول سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب:

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى، ويجتمع نسبه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، في كعب بن لؤي بن غالب القرشي، يكني أبا حفص ويلقب بالفاروق، ولد بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة.

لقد عاش عمر حالة من الصراع النفسي، فهو إما أن يكون زعيمًا في مكة، أو أن يكون تابعًا في هذا الدين الجديد، ثم هداه الله للإسلام.

وقد جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "اللَّهمَّ أعِزَّ الإسلامَ إليك، بأبي جهلٍ أو بعمرَ بنِ الخطابِ"، قال ابن عمر؛" فكان أحبُّهما إلى اللهِ عمرَ بنَ الخطابِ"[١]، وقد أسلم بعد حمزة بثلاثة أيام، وكان ذلك في العام السادس تقريبًا. حيث أن إسلامه كان بعد الهجرة الأولى إلى الحبشة، ومن المؤرخين من يقول؛ أن إسلامه كان بعد الهجرة الثانية إلى الحبشة، ولذا رجح ابن كثير رحمه الله تأخر إسلام عمر رضي الله عنه حتى السنة التاسعة من البعثة، ويقال أنه أسلم وهو ابن ست وعشرين سنة تقريبًا.

استخلاف عمر بن الخطاب:

في شهر جمادى الآخرة من العام الثالث عشر للهجرة، مرض أبو بكر وشعر بدنو أجله، ففكر في أمر الخلافة، وخشي إن هو توفي، ولم يعهد بالخلافة إلى أحد، أن يتجدد الخلاف بين المسلمين، كما حدث في سقيفة بني ساعدة، ولئن اختلفوا هذه المرة، فيكون اختلافهم أشد خطرًا، وربما أدى إلى الفتنة، وأدرك أبو بكر بخبرته وتجربته أن عبء الخلافة الثقيل لا يستطيع أن يتحمله شخص آخر سوى عمر،

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي بسند صحيح.

ثم إن عمر كان لصيقًا بأبي بكر أثناء خلافته، وأتاحت له هذه الميزة أن يطلع على دقائق الأمور أثناء تسيير دفة الحكم، فاكتسب مزيدًا من الخبرة في الشأن العام والسياسة والإدارة.

فقام عثمان بعرض قراره على كبار الصحابة واستشارهم في أمر عمر، فلم يعترض أحد منهم.

ومن الذين استشارهم الصديق في أمر استخلاف عمر: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وعبد الرحمن بن عوف، وأسيد بن حضير، وسعيد بن زيد، وطلحة بن عبيد الله، وغيرهم من المهاجرين والأنصار، وقد أجمعوا على أن عمر يصلح لهذا الأمر، إلا أن بعضهم كان يخشى من شدة عمر ، كعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، وفي النهاية كتب أبو بكر عهدًا باستخلاف عمر بن الخطاب.

وقد أوصى أبو بكر عمر قبل موته بوصايا ومنها استكمال حركة الفتوحات، وقد لقب عمر ونودي بأمير المؤمنين بدلًا من خليفة كما كان أبو بكر.

بعض فضائل عمر بن الخطاب:

لقد ثبتت عدة أحاديث في فضل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومنها: قوله صلى الله علي وسلم: إن الله وضع الحق على لسان عمر يقول به[١]. وقوله: اللّهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب[٢]. وفي صحيح مسلم: أن عليًا ترحم على عمر وقال: ما خلفت أحدًا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ بِمِثْلِ عَمَلِهِ مِنْكَ، وَايْمُ اللهِ إِنْ كُنْتُ لأَظُنُّ أَنْ يَجْعَلَكَ اللَّهُ مع صَاحِبَيْكَ، وَذَاكَ أَنِّي كُنْتُ أُكَثِّرُ أَسْمَعُ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ يقولُ: جِئْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَدَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، فإنْ كُنْتُ لأَرْجُو، أَوْ لأَظُنُّ، أَنْ يَجْعَلَكَ اللَّهُ معهُمَا[٣].

وفي مسلم أيضا أنه صلى الله عليه وسلم قال فيه: "والذي نفسي بيده؛ ما لقيك الشيطان قط سالكًا فجًا إلا سلك فجًا غير فجك".

وقال عنه النبي صلَّى الله عليه وسلَّم لأبي موسى الأشعري : " افتحْ له وبشِّره بالجَنَّة"، ففتحتُ له فإذا هو عمر[٤].

---

(١) رواه ابن ماجة وصححه الألباني.

(٢) رواه ابن ماجه وصححه الألباني.

(٣) صحيح مسلم.

(٤) متفق عليه.

ومن فضائله أيضًا؛ أنه صلى الله عليه وسلم قال فيه "لو كان بَعدي نبيٌّ، لكان عمر بن الخطاب"(١).

ولا شك أن ما ذكرناه هو غيض من فيض، حيث إن فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب تحتاج إلى عدة مجلدات، ولكننا نقطف زهرة واحدة من بستانه اليانع، نشم رحيقها، ونستنشق ريحها الطيب.

موافقات عمر بن الخطاب للقرآن الكريم:

ما أكثر المواطن التي نزل فيها القرآن الكريم موافقًا لرأي عمر بن الخطاب واجتهاده رضي الله عنه.

ونحن هنا نشير إلى تلك المواطن إشارة عامة مجملة، وعلى القارىء الكريم أن يتعرف على التفاصيل وأسباب نزول الآيات المذكورة عبر كتب التفسير.

فمن الآيات التي نزلت موافقة لرأي عمر بن الخطاب واجتهاده رضي الله عنه، ما يلي: قوله تعالى { وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ}، وقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلا أَنْ يُؤْذَنَ

---

(١) رواه أحمد، والترمذي، والحاكم، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع.

لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا}، وقوله تعالى {عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا } وقوله تعالى {وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ}، وقوله تعالى {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} وقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } وقوله تعالى { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ

تَتَفَكَّرُونَ } وقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا }، وقوله تعالى { إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ }.

وهكذا كثرت موافقات القرآن العظيم لما رآه واجتهد فيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، هذا فضلًا عن إلمامه بأسباب النزول، وحفظه للقرآن، وعلمه بتفسير الكثير من الآيات والسور(١).

مختصر حركة فتوحات العراق وفارس والمشرق في خلافة عمر بن الخطاب:

لقد تُوفي الصديقُ وقد فتح المسلمون أماكن كثيرة في أرض العراق، وكانت هذه الفتوحات بتوجيهات من أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقد انتصر المسلمون في معارك كثيرة على الفرس وغيرهم ممن حالفهم، كما ذكرنا سابقًا.

---

(١) راجع: كتب التفسير، و السيوطي: الإتقان في علوم القرآن.

لقد تولى فاروق الأمة وقرر أن يستكمل حركة فتوحات العراق، وقد وقع اختيار عمر على أبي عبيد بن مسعود الثقفي قائدًا للجيش؛ لأنه أول من لبى النداء، متجاوزًا غيره من القادة المشهورين.

وقد اتخذ عمر قرارًا أيضًا يخص جبهة الشام، وهو عزل خالد بن الوليد من إمارة الجيوش.

حول قرار أمير المؤمنين عمر بعزل خالد بن الوليد:

لا مِراء في أن تاريخ جيل الصحابة هو الفصل الأهم في تاريخ الأمة الإسلامية، فهم عظماء الإسلام الذين ارتووْا مباشرة من الينبوع النبوي الصافي، فقد بين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه السبب الذي جعله يعزل خالد بن الوليد رضي الله عنه عن قيادة الجيش، حيث قال: ما عزلته عن خيانة، ولكن خشيت أن يقال: إنه صانع النصر، أو خشية أن يفتن الناس به، وقد جاء في رواية أن عمر قال" يَا خَالِد وَاللَّهِ إِنَّكَ عَلَيَّ لَكَرِيمٌ، وَإِنَّكَ إِلَيَّ لَحَبِيبٌ. وَكَتَبَ إِلَى الْأَمْصَارِ: إِنِّي لَمْ أَعْزِلْ خَالِدًا عَنْ سُخْطَةٍ وَلَا خِيَانَةٍ، وَلَكِنَّ النَّاسَ فَخَّمُوهُ وَفُتِنُوا بِهِ، فَخِفْتُ أَنْ يُوكَلُوا إِلَيْهِ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ الصَّانِعُ، وَأَنْ لَا يَكُونُوا بِعَرَضِ فِتْنَةٍ. وسبب ذلك أن خالداً رضي الله عنه لم يهزم في أي معركة خاضها لا في جاهلية ولا في إسلام..

وقد أمر عمر أبا عبيدة أن يستشير خالداً؛ فجمع للأمة بين أمانة أبي عبيدة وشجاعة خالد.

ومن الأسباب ما تواتر عن شدة خالد، ومن هذا ما ورد أن عمر بن الخطاب قال لأبي بكر الصدِّيق رضي الله عنهما زمن خلافة الصدِّيق: «اعْزِله فإن في سيفه رَهَقاً، فقال أبو بكر: لا أُغمِد سيفاً سلَّه الله على الكفار، ومن المعلوم أن خالد بن الوليد في عصر النبي صلى الله عليه وسلم، قتل من قالوا من لم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فلقد بَعَثَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خَالِدَ بنَ الوَلِيدِ إلى بَنِي جَذِيمَةَ، فَلَمْ يُحْسِنُوا أنْ يقولوا أسْلَمْنَا، فَقالوا: صَبَأْنَا صَبَأْنَا، فَجعَلَ خَالِدٌ يَقْتُلُ ويَأْسِرُ، ودَفَعَ إلى كُلِّ رَجُلٍ مِنَّا أسِيرَهُ، فأمَرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنَّا أنْ يَقْتُلَ أسِيرَهُ، فَقُلتُ: واللَّهِ لا أقْتُلُ أسِيرِي، ولَا يَقْتُلُ رَجُلٌ مِن أصْحَابِي أسِيرَهُ، فَذَكَرْنَا ذلكَ للنبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَقالَ: اللَّهُمَّ إنِّي أبْرَأُ إلَيْكَ ممَّا صَنَعَ خَالِدُ بنُ الوَلِيدِ مَرَّتَيْنِ(١).

ومن الأسباب أيضًا: بذله الأموال لأهل الشرف وذوي اللسان قال عمر " فوالله ما نقمت على خالدٍ في شيء إلا في إعطائه المال"(٢).

وفيما يلي نشير إلى أهم المعارك والفتوحات التي تمت على أرض العراق وفارس.

---

(١) أخرجه البخاري.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، وابن عساكر: تاريخ دمشق.

معركة النمارق[١] (١٣هـ/ ٦٣٤م):

عبَّأ أبو عبيد بن مسعود الثقفي جيشه، عشرة آلاف مقاتل، قرب الكوفة، وعسكر بمواجهة جابان، وبدأ القتال وانتصر المسلمون على القوات الفارسية، وجرت المعركة شهر شعبان (١٣هـ/ ٦٣٤م)[٢].

معركة السَّقاطِية(١٣هـ/ ٦٣٤م):

انضم من نجا من الفرس إلى كَسْكَر والتحق بجيش نَرْسِيّ، وهو ابن خالة كسرى، وهنا وقف لهم المثنى وقام بعمليات مطاردة على أوسع نطاق، وهجم أبو عبيد بجيشه عليهم واصطدم بقواته في الساقطية[٣] وهزمهم وانتصر عليهم، وفر نَرْسِيٌّ وكان ذلك في شهر شعبان (١٣هـ/ ٦٣٤م)، وقد رفعت هذه الانتصارات الروح المعنوية للقوات المسلحة المسلمة، ودخل الفرس تحت لواء المنتصرين ودفعوا الجزية [٤].

(١) النمارق: موضع قرب الكوفة من أرض العراق، الحموي: معجم البلدان (٥/ ٣٠٤).

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك(٣/ ٤٥٠).

(٣) ناحية بكسكر من أرض واسط بالعراق، الحموي: المصدر السابق، (٣/ ٢٢٦).

(٤) الطبري: المصدر السابق، (٣/ ٣٤٥٥) الحميدي: التاريخ الإسلامي، ص ٢٣٥، ومحمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين الفتوحات والإنجازات السياسية، الناشر: دار النفائس، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م، ص١٨٢.

معركة الجسر(١٣هـ/ ٦٣٤م):

هي أول معركة يخسرها المسلمون أمام الفرس[١]، فلقد حفزت هزائم الفرس رستم فعبَّأ جيشًا كبيرًا قوامه ١٢٠٠٠ مقاتل بقيادة بَهْمَنْ جَاذَوَيْهِ، ويساعده جيش آخر مليء بالفيلة، وبالفعل التقى الجيشان على نهر الفرات، وفي البداية أثرت الفيلة في خط سير المعركة، ثم تحامل المسلمون عليهم ، وللأسف خسر الجيش الإسلامي في هذه المعركة ٤٠٠٠ مقاتل، وكان انتصار الفرس واضحًا، وجرت معركة الجسر في شهر شعبان ١٣هـ/ ٦٣٤م[٢].

معركة البُوَيْب (١٣هـ/ ٦٣٤م):

لقد كان حتمًا على المسلمين أن ينتصروا وأن يعوضوا الخسارة التي كانت في المعركة السابقة والمعروفة بمعركة الجسر، قاد المثنى جيش المسلمين والتقى بالفرس بقيادة مهران في البويب[٣]، وانتصر عليهم المثنى وتعقب الفرس وهم

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، (٣/ ٤٥٠).

(٢) زهير الكلبي: موسوعة خلفاء المسلمين، دار الفكر العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٤، ص ٤٥-٤٦.

(٣) وهذه أيضا تسمى النخيلة، ، الحموي: معجم البلدان، (١/ ٥١٢).

يفرون من كل ناحية، وبذلك استطاع المسلمون أن يعيدوا الأمن للمنطقة وأن يعيدوا هيبتهم مرة أخرى .[١]

معركة القادسية(١٤هـ/ ٦٣٥م):

وصلت أخبار إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، بأن الحشود الفارسية تتجمع وتتجه نحو الحيرة، حيث تمركز القوات المسلمة، وبعد مشاورات كثيرة جدًا مع الأصحاب في العراق، تقرر إعادة نشر القوات مرة أخرى، ثم قام المثنى بن حارثة بالتعاون مع القبائل العربية لقتال الكفار، وفي سنة ١٤هـ من أول المحرم[٢]، عسكر عمرُ بن الخطاب خارج المدينة يريد الغزوَ، فاجتمع إليه الناس، لكن عبدالرحمن بن عوف أشار عليه بعدم الخروج وأن يولي على الجيش سعد بن أبي وقاص، وبالفعل ولاه عمرقيادة الجيش في العراق، وسيَّره في أربعة آلاف، وأرسل إلى المثنَّى لكي يَنضمَّ إليه، وأرسل عمر المدد والجيوش، وقُدِّر عدد جيش المسلمين بأكثر من ثلاثين ألفًا، وجيش الفرس بأكثر من مائة وعشرين

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك(٣/٤٦١) وطقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين الفتوحات والإنجازات السياسية، ص١٨٩ والحميدي: التاريخ الإسلامي، ص٣٢٠-٣٣٠.

(٢) وقيل في شعبان عام ١٥هـ.

ألفًا، وقد لعب القعقاع بن عمرو دورًا كبيرًا في هذه المعركة، واستطاعت الجيوش المسلحة المسلمة أن تتفوق على الفرس، كما قُتل القائد الجَالِينُوسَ أثناء فراره، و استشهد من المسلمين نحوًا من ثمانية آلاف وخمسمائة مُقاتِل، وقُتِل من جنود الفرس ما يزيد على خمسين ألفًا، وشُرِّد جيشهم، فلم يَصِل منهم إلى المدائن إلا القليل، وقتل رستم قائدهم، وانهزم الفرس هزيمة منكرة، علمًا بأن المعركة قد استمرت لأربعة أيام[1].

فتح المدائن(١٦ هـ/ ٦٣٧م):

وبعد انتهاء معركة القادسية أقام سعد بن أبي وقاص بها لمدة شهرين تقريبًا[2]، فتحرك المسلمون بعد القادسية إلى منطقة المدائن، بعد أن سقطت أمامهم جيوش ومناطق بابل ثم بُرس[3]، وكذا منطقة بَهُرَسِير[4]، عام (١٦ هـ/ ٦٣٧م)، وفر قائدهم المعروف يَزْدَجِرْد من منطقة المدائن إلى حلوان، واستطاع المسلمون أن

---

(١) الطبري: المصدر السابق، (٤/ ٢٤-٣٤) زهير الكلبي: موسوعة خلفاء المسلمين، ص٤٧.

(٢) وإنما سمّتها العرب المدائن لأنها سبع مدائن بين كل مدينة إلى الأخرى مسافة قريبة أو بعيدة، بينها وبين بغداد ٢٥ ميلا، الحموي: معجم البلدان (٥/ ٧٥).

(٣) موضع بأرض بابل الحموي: المصدر السابق، (١/ ٣٨٤)..

(٤) إحدى ضواحي المدائن، الحموي: المصدر السابق، (٤/ ٤٧٨).

يقوموا باقتحام نهر دجلة، وهنا عجز الفرس عن الدفاع، ثم دخل المسلمون القصر الأبيض (١).

موقعة جَلُولَاء وفتح حُلْوَان(١٦ هـ/ ٦٣٧م):

تحصن مهران في جَلُولَاء (٢)، وخندق على نفسه، وهنا حاول القائد الفارسي يزدجرد أن ينظم جيوشه ويتحرك في اتجاه المدائن، وتحرك هاشم بن عتبة ومعه ١٢,٠٠٠ من المقاتلين (٣)، ثم وصل إلى موقع جلولاء بعد عدة أيام، ودارت معركة طاحنة بين الطرفين، حتى ضعف الفرس وتراجعوا، فاقتحم المسلمون المدينة، وكبدوا العدو آلاف القتلى، وكان ذلك في شهر ذي القعدة (١٦هـ / ٦٣٧م) (٤)، وبذلك تمت الهزيمة الساحقة للفرس في جَلُولَاء، واستطاع القعقاع بن عمرو أن يدخل أيضا مدينة تسمى حُلْوَان، ولا شك أن هذا يدل على قوة المعركة وقوة المسلمسين وقوة جيشهم، وبذلك سيطر المسلمون على المنطقة وما حولها.

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، (٣٩/٤).

(٢) في طريق خراسان، بينها وبين خانقين سبعة فراسخ الحموي: الحموي: معجم البلدان، (١٥٦/٢).

(٣) الحموي: المصدر السابق (٢ /٢٩٠).

(٤) الحموي: المصدر نفسه(٢ / ٣٤٠).

فتح تِكْرِيت(١٦ هـ/ ٦٣٧م):

لقد تجمع البيزنطييون من الموصل ومن غيرها ، وانضمت اليهم كثير من القبائل وتمركزوا في تِكْرِيت، وهنا أرسل سعد بن أبي وقاص سرية وأرسلوا أيضًا الي القبائل وعرضوا عليهم التعاون، وهنا بدأت القبائل في الانسحاب وتركت الفرس، ثم وقع القتال بين الطرفين وبدأ الهجوم من الخلف مما أدى إلى ارتباك الجيش البيزنطي، وبالفعل انتصر المسلمون وقاموا بفتحِ كْرِيت (١٦هـ/ ٦٣٧م)(١).

فتح نِينَوَى والموصل(١٦ هـ/ ٦٣٧م):

وعملًا بتعليمات عمر، أرسل عبد الله بن الْمُعْتَمِّ ربعيًا بن الْأَفْكَلِ إِلَى الْحِصْنَيْنِ، وَهُمَا نِينَوَى وَالْمَوْصل، على رأس أربعة آلاف مقاتل، بالإضافة إلى من انضم إليه من العرب الذين أسلموا حديثًا، وبعد اقتحام الحصنين، طالب أهلها بالصلح، فتصالح الطرفان على الجزية، وذلك في أواخر عام (١٦هـ / ٦٣٧م)(٢).

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، (٤/ ٢٩) طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين الفتوحات والإنجازات السياسية ص٢١١.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، (٤/ ٢٩).

فتح قَرْقِيسِياء وهِيت (١٦ هـ/ ٦٣٧م):

لقد انتشرت أنباء نصر المسلمين وهزيمة العنصر البيزنطي في تكريت، والموصل وغيرهما، وهنا تجمعت القوات بناءً على تعليمات من عمربن الخطاب، ثم أرسل سعدُ القائد عمر بن مالك بن عتبة إلى هيت[١]، على رأس فرقة عسكرية، فلما وصل إليها حاصرها، وفصل قسمًا من جيشه لحصار قَرْقِيسِياء، فاستلمت المدينتان[٢].

فتح مَاسَبَذَان(١٦ هـ/ ٦٣٧م):

تحركت قوة عسكرية بقيادة آذِينَ بْن الْهُرْمُزَان، في منطقة ماسبذان[٣] على الحدود الفاصلة بين العراق من الغرب، وفارس من الشرق، وذلك بعد أن فروا من جلولاء، فأرسل إليهم سعد ضرارًا بن الخطاب على رأس قوة عسكرية، بناءً على أوامر عمر بن الخطاب، وانتهى المسلمون إلى سهل ماسبذان، والتقوا بالقوة الفارسية في بَهَنْدَف، وجرت بينهما معركة أسفرت عن انتصار المسلمين، وتشتت

(١) هيت: بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار، الحموي: معجم البلدان (٥/ ٤٢١).

(٢) الطبري: المصدر نفسه، (٤/ ٣٨).

(٣) ماسبذان: مدينة كبيرة عامرة كثيرة الخير، الحموي: معجم البلدان (٥/ ٤١).

الفرس وأُسر آذين فقتله ضرار، ودخل المنتصرون المدينة وفر سكانها إلى الجبال، فدعاهم ضرار إلى العودة مقابل الأمان، ودفع الجزية فعادوا(١).

بناء مدينة الكوفة ١٧هـ:

كانت الكوفة في عصر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب خالية من السكان، وقد استقر المسلمون في المدائن بعد فتحها، ويبدو أنَّ البنية الجغرافيَّة لإقليم المدائن لم تتناسب مع ما ألفه العرب من جوٍّ صحراوي مفتوح، فشحب لونهم، وذبلت أجسامهم، وتغيَّرت صحَّة الجند، ولعل أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه كان يخشى أيضًا من تأثر البعض بعادات أهل المدائن من الترف، ونحو ذلك؛ ولذا أمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، بأن يتَّخذ للمسلمين دار هجرةٍ يُقيمون فيها، وأن يختار مكانًا مناسبًا بحيث لا يكون بينهم وبينه بحرٌ ولا جسر.

وقد جاء في كتاب عمر رضي الله عنه: "إنَّ العرب بمنزلة الإبل، لا يُصلحها إلا ما يُصلح الإبل، فارتد لهم موضعًا عدنًا، ولا تجعل بيني وبينهم بحرًا"(٢).

وإنَّما أراد عمر رضي الله عنه بهذا أن يُحقق عِدَّة أهداف، لعلَّ مِن أهمها: أن يكون المكان المختَار لمقام هؤلاء العرب جافًّا كالبادية، وتجري فيه مع ذلك المياه، وأن تكون المدينة الجديدة قاعدة لإمداد الفاتحين بحيث لا يحول بحرٌ ولا جسرٌ دون

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، (٤/٣٧).

(٢) الطبري: المصدر السابق، (٤/ ٤٠).

إرسال المدد إلى الجند المقيمين في هذه المنطقة إذا احتاجوا يومًا إلى ذلك.

وبالفعل بدأ سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يبحث في مدن العراق، ونزل في بادئ الأمر مدينة الأنبار، وقرَّر اتخاذها مقرًّا، ولكن كثرة الذباب فيها اضطرَّه إلى النزوح إلى قرية كويفة عمر، فلم يجدها كما يرغب، فكتب إلى الخليفة للوقوف على رأيه، فأجابه: "إنَّ العرب لا يُوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان، فابعث سلمان وحذيفة رائدين فليرتادوا منزلًا بريًّا بحريًّا ليس بيني وبينكم فيه بحرٌ ولا جسر".

وبالفعل نفَّذ سعدٌ أوامر أمير المؤمنين عمر، ونجح الرائدان في اختيار مكانٍ مناسبٍ بين الحيرة والفرات، وهو: الكوفة، فنزله المسلمون في شهر المحرم ١٧ هـ / ٦٣٨م، وضربوا خيامًا في بادئ الأمر حتى يظلُّوا متأهِّبين للجهاد، ثم أقام المسلمون بيوتًا من القصب والقش، ولكنَّ حريقًا كبيرًا شبَّ فالتهم معظم هذه البيوت، فطلب المسلمون من عمر رضي الله عنه أن يأذن لهم بإعادة البناء باللبن، فأَذِن لهم بشرط ألَّا يتطاولوا في البنيان[1].

بناء مدينة البصرة وفتح الأُبُلَّةِ:

لقد كانت البصرة في الجاهلية من ثغور العراق، وقد عاش على أرض البصرة: الفرس، واليونان، والهنود، وكان العرب قديمًا يسمونها: أرض الهند، وكانت هي والأبلة مركزين للتجارة الداخلية والخارجية، وكان يرتادها تجار العرب.

وقيل: تردد عليها أبو بكر الصديق رضي لله عنه في الجاهلية.

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك (٤/ ٤٤).

ويُقال لمدينة البصرة: قُبَّة الإسلام[1]، كما يُقال ذلك للكوفة أيضًا، والبصرة في كلام العرب: الأرض الغليظة التي فيها حجارة صلبة بيضاء.

وتُعدُّ مدينة البصرة أول مدينة إسلامية بُنيت خارج الجزيرة العربية زمن الفتوحات الإسلامية؛ فلقد بناها عتبة بن غزوان رضي الله عنه، عام (١٤ هـ / ٦٣٥م)، فالبصرة قد شيَّدها العرب وعمَّروها، لكن المؤرخين قد اختلفوا في سنة بنائها، بين سنة ١٤ هـ، أو ١٥هـ، أو ١٦هـ، أو ١٧ هـ، وهل كان بناؤها قبل فتح المدائن ١٦ هـ، أو بعدها.

قال الإمام الطبري رحمه الله: "وفي هذه السنة -١٤ هـ - وجَّه عمر بن الخطاب عتبة بن غزوان إلى البصرة، وأمره بنزولها بمن معه، وقطع مادة أهل فارس عن الذين بالمدائن ونواحيها منهم"، ويتفق هذا مع رواية الشعبي أنه لما قُتِل مهران قائد الفرس في صفر ١٤ هـ، بَعَث عمر إلى عتبة: "قَدْ فَتَحَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ عَلَى إِخْوَانِكُمُ الْحِيرَةَ وَمَا حَوْلَهَا، وَقُتِلَ عَظِيمٌ مِنْ عُظَمَائِهَا، وَلَسْتُ آمَنُ أَنْ يَمُدَّهُمْ إِخْوَانُهُمْ مِنْ أَهْلِ فَارِسَ، فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُوَجِّهَكَ إلى أَرْضِ الْهِنْدِ، لِتَمْنَعَ أَهْلَ تِلْكَ الْجِيزَةِ مِنْ إِمْدَادِ إِخْوَانِهِمْ عَلَى إِخْوَانِكُمْ، وَتُقَاتِلَهُمْ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَفْتَحَ عَلَيْكُمْ فَسِرْ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ"، وزاد أبو حنيفة الدينوري: "وقاتلهم مما يلي الأبلة"، فتقدَّم إليها عتبة في خمسمائة،

---

[1] النووي: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، وبدر الدين العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ومحمد البكري الشافعي: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، والكرماني: الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، ومحمد الخكني الشنقيطي: كوثَر المَعَاني الدَّرَارِي في كَشْفِ خَبَايا صَحِيحْ البُخَاري، وعلي بن العطار: العدة في شرح العمدة في أحاديث الأحكام.

وقيل: ثمانمائة مقاتل، فنزلها في ربيع الأول –أو الآخر– ١٤هـ"[١].

وعند البلاذري: "لما نزل عتبة بن غزوان الخريبة (مسالح الفرس قريبة من الأبلة) كتب إلى عُمَر بن الخطاب يعلمه نزوله إياها، وأنه لا بد للمسلمين من منزل يشتون به إذا شتوا، ويكنسون فيه إذا انصرفوا من غزوهم، فكتب إليه: اجمع أصحابك في موضع واحد وليكن قريبًا مِن الماء والرعي، واكتب إليَّ بصفته، فكتب إليه: إني وجدتُ أرضًا كثيرة القصبة في طرف البر إلى الريف، ودونها مناقع ماء فيها قصباء، فلما قرأ الكتاب قال: هذه أرض نضرة قريبة من المشارب والمراعي والمحتطب، وكتب إليه: أن أنزلها الناس، فأنزلهم إياها، وذلك في سنة ١٤ هـ"[٢].

وفي رواية سيف بن عمر: أن البصرة مصرت في ربيع سنة ١٦ هـ، وذكر اليعقوبي في البلدان وغيره: أن عتبة بن غزوان مصَّر البصرة سنة ١٧ هـ[٣].

وقد قام المسلمون بقيادة عتبة بن غزوان بتشييد المسجد الجامع في مدينة البصرة، وكذلك بنى الناس منازلهم، ولم تكن البصرة في العهد الراشدي بالمدينة الكبيرة؛ وذلك يرجع إلى حداثة نشأتها العربية، وكانت مستوخمة رديئة الهواء والماء، ليست بالخصبة ولا الغنية.

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، (٣/ ٥٩١) والدينوري: الأخبار الطوال(١/ ١١٦).

(٢) البلاذري، فتوح البلدان (١/ ٣٣٧).

(٣) اليعقوبي، البلدان (١/ ١٧).

ثم قام عتبة بن غزوان ببناء مدينة البصرة بناء على تعليمات من عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حتى يتم الدفاع عن العراق من الناحية الجنوبية عن طريقها ،وبالفعل تم بناء البصرة لحماية المسلمين من هجمات الجنوب الفارسي.

وأما فيما يخص فتوحات فارس والمشرق، لقد روى الإمام الطبري رحمه الله، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: "وددت أن بيننا وبين فارس جبلًا من نار، لا يصلون إلينا منه ولا نصل إليهم"، و لم يكن عمر بن الخطاب في البداية قد خطط لتفح بلاد فارس المعروفة بإيران اليوم، وكان الهدف من المعارك التي وقعت داخل الأراضي الفارسية؛ هو الحفاظ على إنجازات المسلمين، ولكن الفرس لم يركنوا إلى الهدوء، فكانوا يجهزون الجيوش استعدادًا لمواصلة الحرب، كما كانوا يقومون بأعمال التمرد في البلاد المفتوحة، ولذا كان لابد من مواجهتهم في قلب بلادهم.

ونحن نذكر هنا مجملًا مختصرًا عن حركة الفتوحات التي وقعت بأرض فارس وبلاد المشرق، وعلى القارىء الكريم أن يراجع التفاصيل عبر كتب التاريخ(١).

---

(١) راجع: تاريخ الطبري وابن كثير البداية والنهاية، وطقوش تاريخ الخلفاء الراشدين الفتوحات والإنجازات السياسية.

لقد كانت الأوضاع السياسية في فارس مزعزعة، وتفرق أركان الدولة من الحكام في نواحيها، فقد رحل يزدجرد إلى الري، ثم تعرض لمؤامرة من الحاكم آبان جاذويه، فغادرها إلى خراسان، وأقام بمرو، واتخذها قاعدة جديدة يحكم منها ما تبقى من مملكته، واستقر الهرمزان في الأهواز، وتشتت جنود فارس في مختلف النواحي.

ولم يزل يزدجرد يثير الفرس من قاعدته في مرو، حتى تجمعت قوة عسكرية كبيرة وذلك بمدينة رَامَهُرْمُز(١)، ثم تحركت نحو تُستر عاصمة الأهواز بقيادة الهرمزان، فأرسل سعد فرقة عسكرية من الكوفة إلى الأهواز بقيادة النُّعْمَان بْن مُقَرِّنٍ ، وأخرى من البصرة بقيادة سهل بن عدي، ووقع القتال مع الفرس عند أَرْبُك(٢)، وانتصر المسلمون عليهم، وتم فتح الأهواز وتُسْتَرَ، ثم تم إرسال الهرمزان إلى عمر في المدينة، فأعلن إسلامه أمامه، ثم تم فتح السُّوس(٣)، وفتح رَامَهُرْمُز، و جندى سابور(٤)، وقيل أن معظم هذه الفتوحات كانت ما بين عام ١٩هـ وحتى

---

(١) وهي مدينة مشهورة بنواحي خوزستان.

(٢) أربك: بلد وناحية من نواحي الأهواز ذات قرى ومزارع.

(٣) بلدة بخوزستان "الأهواز".

(٤) وقيل جندي وليس جندى.

٢٠ هـ، ثم تم فتح نَهَاوَنْد[١]، عام ٢١هـ، ثم فتح َهمَذَانَ، والري، وجرجان، وأذربيجان، وخرسان، و إِصْطَخْر، و كَرْمَانَ، وسجستان، ومُكران، وقُومِس، وأصفهان، وطَبَرِسْتَان، ما بين عام ٢٢هـ، و عام ٢٣هـ[٢].

مُجمل مختصر عن فتوحات الشام و مصر وليبيا في خلافة أمير المؤمنين عمر:

بعد الفتوحات التي تمت في عصر خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، استكمل عمر رضي الله عنه حركة فتوحات الشام، ومن أهم المعارك التي وقعت على أرض الشام، معركة دمشق، وقد سار أبوعبيدة نحو دمشق، ويصاحبه مجموعة من القادة على رأس التشكيلات العسكرية، كخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعياض بن غنم، وشرحبيل بن حسنة، وقام المسلمون بمحاصرة المدينة، نظرًا لمناعة أسوارها، وذلك رغم صعوبة الطقس، وقد لعب القعقاع بن عمرو دورًا كبيرًا حيث تسلق السور وتبعه بعض أفراد الجيش، ثم تم اقتحام السور عن طريق خالد بن الوليد، ثم دخلت قوات المسلمين المدينة، وقد اختلف

(١) هي مدينة عظيمة في قبلة همذان.

(٢) راجع: تاريخ الطبري وابن كثير البداية والنهاية، وطقوش تاريخ الخلفاء الراشدين الفتوحات والإنجازات السياسية.

المؤرخون هل فتحت دمشق صلحًا أم عنوة؟ وأكثر العلماء على أنها فتحت صلحًا والله أعلم، وقد تم فتح مدينة دمشق عام، ١٣هـ وقيل عام ١٤هـ.

ثم كانت وقعة فِحْلٍ، بمدينة فِحْلٍ نحو الجنوب، وقد بلغ جيش الروم مائة ألف مقاتل، وقام المسلمون بمحاصرة المدينة، ولم يتمكن المسلمون من الهجوم على المدينة، وذلك نظرًا لوجود مانع مائي اصطنعه الروم عن طريق شق بعض الترع من بحيرة طبرية، ثم تجمعت القوى الإسلامية، واستطاعت أن تنتصر على الروم في النهاية، ثم تم فتح بيسان وطبرية، ثم كانت وقعة حمص عام ١٥هـ، وكذا وقعة قِنَّسْرِين، وقيسارية في نفس العام.

ثم تم فتح بيت المقدس عام ١٦هـ، بعد حصار المسلمين للمدينة، وقد ذهب عمر بن الخطاب، وهو الذي استلم مفاتيح بيت المقدس، وصلى بالمسجد الأقصى، وفي عام ١٧هـ، تم فتح الجْزِيرَةِ ، ثم تم بعد ذلك التوجه نحو فتح مصر، وهذا ما سنسلط الضوء عليه خلال الصفحات التالية.

فتح مصر والإسكندرية:

لا شك أن تاريخ مصر قد احتل مساحة عريضة في كتب التاريخ الإسلامي، سواء في المصادر القديمة أو المراجع الحديثة، وذلك لما تشكله مصر من أهمية إقليمية كبيرة في الشرق، ثم لكثرة الدول التي قامت على أرضها.

ومن أشهر وأقدم الكتب التي اهتمت بتاريخ مصر:

كتاب" فتوح مصر والمغرب " لابن عبد الحكم، وقد ولد ابن عبد الحكم في الفُسْطَاطُ عام ١٨٧ هـ/ وتوفي عام ٢٥٧ه، وعاش وترعرع وتعلم في مصر، وهو أقرب مؤرخ مصري لحقبة الفتح الإسلامي لمصر.

كتابي" ولاة مصر " " قضاة مصر" للكِندي، وهو من أشهر مؤرخي مصر الإسلامية؛ وقد عاش الكندي في مصر وتوفي عام ٣٥٠هـ.

ومن المؤرخين في هذا الشأن: المقريزي، الذي ولد عاش في القاهرة وتناول تاريخ مصر في العديد من مؤلفاته، وتوفي عام ٨٤٥هـ، ومن أشهر كتبه المواعظ والاعتبار بذكر الخِطط والآثار.

وكذلك ابن تغري بردي: وهو مؤرخ مصري ولد بالقاهرة عام٨١٢هـ، وتوفي عام ٨٧٤ هـ، ومن أشهر كتبه عن تاريخ مصر كتاب: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة.

ومن المؤرخين في هذا الشأن: ابن إياس: صاحب كتاب: بدائع الزهور في وقائع الدهور، وهو مؤرخ مصري ولد بالقاهرة عام ٨٥٢ه، وتوفي ٩٣٠هـ.

أحوال مصر قبل الفتح الإسلامي:

إذا أردنا أن نلقي نظرة سريعة حول أحوال مصر قبل الفتح الإسلامي، فنقول: لقد كانت مصر عبارة عن ولاية بيزنطية، تخضع للإمبراطور البيزنطي في القسطنطينية، وينوب عنه حاكم في مصر، مقره مدينة الإسكندرية، وكانت مصر ولاية رومانية تابعة مباشرة لرومة منذ عام ٣١ ق. م، حين استولى الرومان عليها، وكانت مصر من الناحية الإدارية تنقسم لعدة أقسام: منها مصر العليا والمقصود بها الصعيد، و هناك مصر الوسطى والدلتا أو مصر السفلى، وينقسم كل قسم لعدة مديريات على رأس كل مديرية حاكم.

وأما عن الحالة الاقتصادية: كان البيزنطيون يتعاملون مع مصر على أنها البقرة الحلوب، حيث كان الناتج الزراعي وخصوصًا القمح يتم نقله إلى العاصمة البيزنطية، ويتم فرض ضرائب باهظة على الشعب المصري، ضرائب على الفرد- الأرض الزراعية- المواشي- العقارات- وهذه الضرائب أثقلت كواهل المصريين، حتى أن بعضهم ترك أرضه الزراعية و هاجر إلى أماكن أخرى.

وكان سكان مصر ينقسمون إلى عدة طبقات- الطبقة الحاكمة وهم كبار الحكام و رجال الأعمال و قادة الجيش والجنود البيزنطيين، وهناك الطبقة المغلوب على

أمرها، وهي التي تعمل لتعيش الطبقة الأولى في رفاهية، وكانت هناك طبقة اليهود وكانوا يعملون في مجال التجارة وكان معظمهم من متوسطي الحال.

الاضطهاد الديني للمصريين:

لقد دخلت المسيحية إلى مصر في منتصف القرن الأول الميلادي على يد رجل يعرف بالقديس مرقص، وقد اعترف الإمبراطور قسطنطين الكبير بالمسيحية عام ٣١٣م، لكن وقع خلاف شديد بين الكنيسة المصرية وهي التي تعتقد بأن المسيح له طبيعة واحدة، وبين الكنيسة الرومانية، التي تعتقد بأن المسيح له طبيعتان، وقد أطلق المصريون على أنفسهم الأرثوذكس – وهي كلمة يونانية معناها: أتباع الديانة الصحيحة، واشتد الخلاف بين الطرفين وتدخل كبار الأباطرة لحل هذا النزاع العقدي، وعقدوا المجامع الدينية على مستوى العالم، ومنه مجمع خلقدونية – مكان باسطنبول الحالية – وعقدت الجلسة الأولى للمجمع في ٨ أكتوبر عام ٤٥١م بحضور أكثر من خمسمائة من الأساقفة، وصدر قرار المجمع بأن للمسيح طبيعتين، ومن قال بالطبيعة الواحدة فهو كافر.

وهنا بدأ الأقباط في مصر مرحلة عصيبة، تعرضوا فيها للتعذيب والاضطهاد والقتل من قبل الرومان، حتى أن البطريرك بنيامين هرب من الإسكندرية إلى

وادي النطرون، ثم إلى الصعيد، واستمر هذا الوضع لسنوات ولم ينته إلا بدخول عمرو بن العاص إلى مصر.

دوافع فتح مصر:

لم يكن فتح مصر عشوائيًّا، وإنما كان ذلك بخطة محكمة ودراسة مسبقة، ويرجع السبب في ذلك إلى عدة عوامل؛ منها ما هو ديني أو عسكري أو سياسي أو اقتصادي.

إن حركة الفتوحات هي حركة هداية للناس، وقد أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم قديمًا دعوة إلى المقوقس دعاه فيها إلى الإسلام، فأراد المسلمون أن ينشروا الإسلام بين الناس، وأن يطلع الناس على مفهوم الإسلام ومعاني الإسلام وعقيدة الإسلام، ولما كانت مصر خاضعة للإمبراطورية البيزنطية كان من الضروري مواجهتها.

ثم إن مصر هي الامتداد الطبيعي لفِلسطين والشام بوجه عام.

وكان من دواعي فتح مصر أيضًا أن البيزنطيين حاولوا استرداد الشام من المسلمين، وأرادوا عرقلة جهودهم للتوجه جنوبًا، وهاجموهم من شمال الشام.

ثم إن فتح مصر لن يكلف المسلمين كثيرًا، لقلة التحصينات بها.

ثم ما تَجَمَّع لدى المسلمين من معلومات عن أوضاع مصر الاقتصادية السيئة، ويُضَافُ إلى ذلك الصراع الديني المذهبي.

ثم إن مصر مشهورة بثرواتها وخيراتها، فستكون عونًا لهم، وقد رغب عمرو بن العاص أمير المؤمنين عمر في فتحها فقال "إِنَّكَ إن فَتَحْتَهَا كَانَت قُوَّةً للمُسْلِمِين وَعَوْنًا لهُم، وَهِيَ أَكْثَرُ الأَرْضِ أَمْوَالًا وَأَعْجَزَهَا عَنِ القِتَالِ وَالحَرْبِ". (ابن عبد الحكم)

ومما يذكره المؤرخون أنه مع بداية دخول عمرو إلى مصر، وقعت مجاعة بالمدينة المنورة وما حولها، وكان ذلك عام ١٨هـ، وهو العام المعروف بعام الرمادة، فحُبس المطر من السماء وأجدبت الأرض، وهلكت الماشية، واستمرت هذه المجاعة تسعة أشهر تقريبًا، وكتب عمر إلى أمراء الشام والعراق ومصر يطلب منهم المساعدة، وهنا يذكر ابن سعد وغيره أن عمرو بن العاص بَعَثَ إِلَيْ عمر فِي الْبَحْرِ بِعِشْرِينَ سَفِينَةً تَحْمِلُ الدَّقِيقَ، وَبَعَثَ إِلَيْهِ فِي الْبَرِّ بِأَلْفِ بَعِيرٍ تَحْمِلُ الدَّقِيقَ، وأرسل إليه خَمْسَةَ آلاف كِسَاء.

أعمال وأحداث الفتح:

هناك إشارة نبوية إلى أن المسلمين سيفتحون مصر: عن كعب بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "إِذَا افْتَتَحْتمُ مِصْرَ فاستوْصوا بالقِبْط خيرًا" وَفِي

رِوَايَةٍ: "فَاستَوصُوا بِأَهْلِها خَيْراً فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِماً" وفي رواية " ذمة وصهراً" وفي رواية مسلم " فإذا فَتَحْتُمُوها فأَحْسِنُوا إلى أَهْلِها، ".

أما الرحم فلكون هاجر أم إسماعيل منهم ، وأما الصهر فلكون مارية أم إبراهيم منهم.

وقد اجتمع عمرو بن العاص بعمر بن الخطاب في الجابية -وهي قرية من أعمال دمشق - حين جاء إلى بلاد الشام بعد طاعون عمواس، وعرض عليه فتح مصر وطلب السماح له بالمسير إليها، وتشير بعض المصادر إلى أن عمر هو من أمر عمرًا بالمسير إلى مصر.

وبالفعل سار عمرو في أربعة آلاف مخترقًا صحراء سيناء، وقد سلك الطريق الساحلي، حتى وصل إلى العريش في عيد الأضحى: ١٠ ذو الحجة ١٨هـ، فوجدها خالية من القوات البيزنطية، وواصل سيره حتى وصل إلى الفَرَمَا – ناحية بور سعيد – وهنا وصلت الأخبار إلى المقوقس – وهو لقب معناه المفخم أو المبجل، كما نقول اليوم: صاحب السمو، أو فخامة الرئيس، وقد ذهب بعض المؤرخين أن هذ المقوقس ليس هو من راسله رسول الله، والله أعلم، وهنا تحصن المقوقس بحصن بابليون، واعتمد في الفرما على بعض القوات المتمركزة هناك، هذا وقد تم بناء حصن بابليون في عصر احتلال الرومان لمصر، فالبعض يرى أن

الحصن تم بناؤه في نهاية القرن الأول أو بداية القرن الثاني الميلادي، وبعض المؤرخين يرى أن الحصن كان موجودًا قبل الميلاد بمئات السنين، وهو الآن يقع بجوار محطة مارجرجس لمترو الأنفاق.

ولم يرد المقوقس أن يصطدم بالمسلمين بالعريش أو الفرما لقربهما من فلسطين، فيسهل إمدادهم بالجنود، ولذلك فضل أن يتوغل المسلمون في مصر.

لكن وقع قتال في الفرما بين المسلمين والروم وانتصر المسلمون في شهر محرم عام ١٩هـ، وقام عمرو بهدم حصون وأسوار المدينة، وتشير بعض المصادر التاريخية أن القتال استمر ما يقرب من شهر، وأن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعوانًا.

ثم توغل عمرو في مصر حتى وصل إلى بلبيس، وهذه هي المحطة الرئيسية الثالثة، وتشير بعض المصادر التاريخية أن أعدادًا من البدو انضموا لعمرو أثناء سيره، وضرب عمرو الحصار على المدينة، ووقع القتال بينه وبين بعض القوات المرابطة في المدينة وكذلك القوات التي أرسلها المقوقس، فقتل ألف تقريبًا وأُسر ثلاثة آلاف، ودخل المسلمون مدينة بلبيس بعد شهر تقريبًا من الحصار والقتال.

ثم سار عمرو متوغلًا في مصر ومر على منطقة عين شمس (بعض الروايات تفيد بوقوع قتال بعين شمس وبعض المؤرخين يذكر أن قتال عين شمس كان متأخرًا،

أي كان بعد أُمُّ دُنَيْن والفيوم) ثم وصل إلى قرية على النيل تعرف بأم دُنَيْن – وهي موقع حديقة الأزبكية – وكانت هذه القرية تشبه الميناء، حيث أنها على الضفة الشرقية لنهر النيل، فلها أهمية خاصة، ولذا عسكر عمرو قريبًا منها، وبسبب أهمية أم دنين، كان المقوقس يخشى من سيطرة المسلمين عليها، وهنا حشد المقوقس جيشًا عظيمًا للدفاع عنها، وكان آنذاك بمدينة الإسكندرية، فغادر الإسكندرية وعسكر المقوقس بنفسه عند حصن بابليون وكان يدير العمليات العسكرية بنفسه، واستمر القتال لعدة أسابيع تحت اسوار أم دُنين، وهنا أيقن عمرو صعوبة هذه المحطة وأنها تختلف عن الفرما وبلبيس، فأرسل رسالة إلى أمير المؤمنين عمر يستحثه في إرسال إمدادات عسكرية على وجه السرعة، ومع بداية وصول الإمدادات سقطت أم دنين، وكان عمرو يتتبع القواعد الشرعية قبل القتال كعرض الإسلام وغير ذلك.

ثم واصل عمرو سيره متوجهًا نحو الفيوم، وهنا تصدت له القوات البيزنطية بقيادة حاكم الفيوم- دومنتيانوس- ووقع القتال بين الفريقين، لكن عمرًا لم يستطع أن يفتح الفيوم.

معركة عين شمس:

بلغ عدد الجنود الذين أرسلهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب اثني عشر ألف

مقاتل من بينهم عدد من كبار الصحابة، أمثال الزبير بن العوام، وعبادة بن الصامت، والمقداد بن الأسود، مسلمة بن مخلد وغيرهم، ولما طلب عمرُو بن العاص المددَ من أمير المؤمنين عمرَ بنِ الخطاب في فتح مِصر كتب إليه أما بعد : "فإني أمددتك بأربعةِ آلافِ رجل، على كلِ ألف رجلٌ منهم مقامُ الألف" يقصد هؤلاء الأربعة، وكان الهدف التالي لعمرو أن يفتح حصن بابليون، فعسكر في عين شمس، وهنا خرج عشرون ألفاً من القوات البيزنطية للقاء المسلمين، ولما علم عمرو بذلك وضع خطة لمواجهة الجيش البيزنطي، تتمثل في تمركز فرقة عسكرية بأم دنين، وفرقة بمكان يعرف بمغار بني وائل – شرق العباسية – وكانت بقيادة خارجة بن حذافة السهمي وهو مِنْ مُسلمة الفتح، وتحرك عمرو من عين شمس في اتجاه العباسية، ووقع القتال بمنطقة العباسية ولما احتدم القتال ظهرت فجأة فرقة خارجة وهجموا على مؤخرة جيش الروم، وأحدث ذلك الهجوم حالة من الفوضى في صفوف الجيش البيزنطي، فانسحبوا في اتجاه أم دنين، فقابلتهم الفرقة الأخرى، وهنا أيقن الروم أنهم وقعوا في فخ، فلاذوا بالفرار وانهزموا، وقع ذلك القتال في شهر شعبان عام ١٩هـ.

ولما وصلت أنباء الهزيمة من بحصن بابليون من الجنود خافوا على أنفسهم،

وقرر بعضهم الفرار، والبعض الآخر قرر أن يمكث للدفاع عن الحصن، وهنا إِغْتَنَمَ عمرو الفرصة وانتقل بقواته من عين شمس وقام بمحاصرة الحصن،

ثم سار إلى مدينة تسمى منف واستولى عليها بدون قتال، (منف جنوب القاهرة وهي قرية قريبة من ميت رهينة الحديثة، و هي إحدى القرى التابعة لمركز البدرشين) ولم يستطع الجيش البيزنطي الموجود في الحصن أن يمد لها يد المساعدة.

فتح الفيوم: عندما بلغت أنباء انتصار المسلمين دومنتيانوس حاكم الفيوم، خشي أن يهاجمه هؤلاء، وهو لا قبل له بمقاومتهم، فقرر الفرار، وبالفعل فر بجنوده، ولما علم عمرو بذلك أرسل فرقة عسكرية فتحت إقليم الفيوم، وتوغلت في جنوبي الدلتا، ووصلت الفتوحات إلى مدينة مَنُوفُ في إقليم المنوفية.

فتح حصن بابليون: بعد المعارك والفتوحات التي ذكرناها لم يبق أمام عمرو سوى حصن بابليون، و لم يبق تحت سيطرة الروم بالمنطقة من المراكز الرئيسية سوى حصن بابليون، ولذا سار إليه عمرو في شوال عام ١٩هـ، وقام بمحاصرته.

تمت محاصرة الحصن ولكن لم يستطع المسلمون أن يحكموا سيطرتهم على الطرق المائية، ومن ثم كانت هناك بعض الإمدادات تصل إلى الروم داخل الحصن، وكان المقوقس أثناء الحصار داخل الحصن.

كان الروم يطلقون المنجانيق على المسلمين من داخل الحصن، وكان المسلمون يرمونهم بالسهام ونحو ذلك، واستمر الحصار لمدة شهر، والمسلمون صامدون، وهنا أيقن المقوقس أن عزيمة المسلمين لن تخور، وأن بأسهم شديد، وأن صبرهم لا حدود له، وهنا قرر أن يدخل في جولة مفاوضات مع عمرو بن العاص.

المفاوضات: اجتمع المقوقس مع مستشاريه ثم قرر أن يذهب لملاقاة عمرو والتفاوض معه، فخرج مع جماعة من الحصن ليلًا في سرية تامة، وركب سفينة ووصل إلى إحدى جزر النيل وهي جزيرة الروضة، ومنها أرسل رسالة إلى عمرو مع بعض الرسل يدعوه إلى عقد مفاوضات بين الطرفين، فلما أتت عمرو بن العاص رسل المقوقس حبسهم عنده يومين وليلتين حتى خاف عليهم المقوقس فقال لأصحابه "أترون أنهم يقتلون الرسل ويحبسونهم ويستحلون ذلك في دينهم ؟" وإنما أراد عمرو بذلك أن يطلع الرسل على حال المسلمين وقوتهم وبأسهم، ثم عاد الوفد بعد يومين يحملون رد عمرو، وهو تخيير المقوقس بين إحدى ثلاث خصال: إما الدخول في الإسلام أو الجزية أو القتال.

فلما جاءت رسل المقوقس إليه قال كيف رأيتموهم قالوا " رأينا قوما الموت أحب إلى أحدهم من الحياة والتواضع أحب إليهم من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة، وإنما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد

منهم، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ،ولا السيد فيهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد منهم، يغسلون أطرافهم بالماء ويتخشعون في صلاتهم" فقال عند ذلك المقوقس" والذي يحلف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ولا يقوى على قتال هؤلاء أحد ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل، لم يجيبونا بعد اليوم".

ثم أرسل المقوقس رسالة إلى عمرو يطالبه فيها بإرسال وفد من المسلمين للتشاور والتفاوض، فأرسل عمرو إليه وفدًا برئاسة عبادة بن الصامت، وقد طمأنهم بأنهم سيكونون آمنين على أنفسهم، وأموالهم وكنائسهم، وذراريهم إن هم قبلوا دفع الجزية مما شجعه على المضي في طريق الإذعان والصلح. وكان المقوقس يميل إلى دفع الجزية بدلًا من القتال، ولكن بعض مستشاريه رفضوا فقال لهم" أطيعونى وأجيبوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث، فو الله ما لكم بهم طاقة، ولئن لم تجيبوا إليها طائعين، لتجيبنّهم إلى ما هو أعظم كارهين، فأنا أعلم أنكم لن تقووا عليهم، ولن تصبروا صبرهم، ولا بدّ من الثالثة؛ قالوا: أفنكون لهم عبيدًا أبدًا؟ قال: نعم تكونوا عبيدًا مسلّطين فى بلادكم، آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم، خير لكم من أن تموتوا عن آخركم، وتكونوا عبيدًا تباعوا وتمزّقوا فى البلاد مستعبدين أبدًا أنتم وأهلوكم وذراريكم، قالوا: فالموت أهون علينا"

ثم غادر المقوقس حصن بابليون وتوجه إلى الإسكندرية حيث أرسل عهد الصلح وبنوده إلى القسطنطينية، وطلب موافقة هرقل عليه، ولكن هرقل رفض التصالح وعنف المقوقس وقيل أنه قام بنفيه، وجاءت الأخبار إلى المسلمين برفض هرقل للصلح في ذي الحجة عام ١٩هـ، وهنا وقع القتال بين الطرفين،- وكان الغالب على القتال هو التراشق بالمنجانيق والسهام، وصمد المدافعون عن الحصن عدة أشهر، حتى جاء الخبر بوفاة الإمبراطور هرقل في شهر ربيع الأول ٢٠هـ، وقد أثر الخبر على معنويات الجند فخارت معنوياتهم، وفت ذلك في عضدهم، وتراجعت قدرتهم القتالية، وهنا شدد المسلمون الحصار ثم اقتحموه في ٢١ ربيع الآخر عام ٢٠هـ.

ولم تتم عملية الاقتحام بسهولة، وذلك نظرًا لمناعة الأسوار، لكن الزبير بن العوام قد اعتلى السور ومعه نفر من المسلمين فكبروا، وهنا ظن أهل الحصن أن المسلمين اقتحموا ففروا هاربين، وفي رواية أنهم فتحوا باب الحصن لعمرو بن العاص وطالبوه بالصلح.

الطريق نحو مدينة الإسكندرية:

بعد وفاة هرقل سادت حالة من الفوضى وسط الدولة البيزنطية، ووقع نزاع بين الأسرة الحاكمة على العرش، ولا شك أن سقوط حصن بابليون كان له تأثير

سلبي على الروم، حيث انهار خط الدفاع الأقوى، وهنا طلب عمرو من أمير المؤمنين عمر أن يزحف نحو الإسكندرية، لما تشكله من أهمية إقليمية، بل كانت ثانية حواضر الإمبراطورية بعد القسطنطينية، وهي من أعظم المدن التجارية في العالم آنذاك.

وقد أدرك البيزنطيون أن سقوط الإسكندرية سيؤدي إلى زوال سلطانهم من مصر، وقد عبر الإمبراطور البيزنطي عن ذلك بقوله: "لئن ظفر العرب بالإسكندرية لقد هلك الروم وانقطع ملكهم"، فأسرعوا بإرسال المقوقس على رأس قوة عسكرية إلى الإسكندرية، ووصل المقوقس إلى الإسكندرية في شهر شوال ٢٠هـ، وغادر عمرو بن العاص حصن بابليون في شهر جمادى الأولى ٢٠هـ، وقد ساعده بعض الأقباط في إصلاح الطرق وإقامة الجسور، وقد تعرضت بعض فرق الروم العسكرية في الطريق لجيش المسلمين، ووقع بينهم قتال، وعلى سبيل المثال: وقع قتال في قرية تَرْنُوطُ، وهي المعروفة الآن بقرية الطرّانة بمدينة السادات، وكذلك وقع قتال بقرية نَقْيُوس بالقرب من مركز منوف، ثم وقع قتال كذلك بقرية تسمى سُلْطَيْسُ، وكانت تقع بمدينة ومركز دمنهور، وأخيرًا اصطدم عمرو بقوة عسكرية بيزنطية أخرى عند حصن كِرْيَوْنُ بالقرب من الإسكندرية، وهو آخر سلسلة الحصون قبل الإسكندرية، وقد

اعتصم به تيودور قائد الجيش البيزنطي مع حامية قوية، كما تدفقت عليه الإمدادات من المناطق المجاورة، واشتبك الطرفان في عدة معارك على مدى بضعة عشر يومًا، و كان القتال شديدًا في تلك المرة، حتى إن عمرًا صلى يومًا صلاة الخوف، وتمكن المسلمون أخيرًا من اقتحام الحصن، وانتصروا على الحامية العسكرية، وقُتل عدد من الروم وفر الباقون نحو الإسكندرية، فطاردهم المسلمون حتى بلغوا الإسكندرية في منتصف شهر رجب ٢٠هـ، وهكذا انتصر عمرو على كل من تعرض له في الطريق.

فتح الإسكندرية:

وصل عمرو إلى مدينة الإسكندرية فوجدها مدينة محصنة لأقصى درجة ممكنة، حولها أسوار ويُحيط بها خنادق مملوءة من ماء البحر، ولها أبراج عليها منجانيق، ويقوم بحمايتها أكثر من خمسين ألف جندي، ويسيطر على سواحلها الأسطول البيزنطي، ومع ذلك وضع عمرو خطة عسكرية تمكنه من اقتحام المدينة، فبدأ عمرو في حصارها، وشدد الحصار حتى يضطر الروم للخروج لمواجهة المسلمين من أجل تخفيف الحصار، واستمر الحصار لمدة شهرين ولم يخرج البيزنطيون من تحصيناتهم للقتال، سوى مرة واحدة، فلقد خرجت قوة عسكرية بيزنطية من

ناحية البحيرة، واشتبكت مع قوة إسلامية، ثم عادت إلى الحصن، وفي الغالب كانت هذه مجرد فرقة استطلاعية.

وأثناء الحصار اشتد الصراع على الحكم في القسطنطينية، و انقطعت الإمدادات البيزنطية عن الإسكندرية، مما أثر سلبًا على القوات البيزنطية، ثم أن عمرو بن العاص كان يقوم أثناء الحصار ببعض الغارات على قرى الصعيد والدلتا والساحل، وذلك حفاظًا على معنويات الجيش، ثم أرسل عمر رسالة إلى عمرو يستعلم فيها عن سبب تأخر الفتح.

وأخيرًا بعد أربعة أشهر ونصف تقريبًا، وقع الاقتحام ففتحت المدينة في ٢٨ من ذي القعدة عام ٢٠هـ، وفر معظم الجنود، وكان قائد الجيش عو عبادة من الصامت، ولذا يقول البعض أن عبادة بن الصامت هو فاتح مدينة الإسكندرية وليس عمرو بن العاص، ولا شك أن عمرو هو القائد العام للجيوش.

ثم استكمل عمرو حركة الفتوحات، ففتح بعض الأماكن الأخرى كرشيد والبرلس ودمياط وتنيس وغيرها، فأمنوا بذلك الساحل من العريش إلى الإسكندرية.

وكتب عمرو بن العاص بعد ذلك إلى عمر بن الخطاب، أما بعد، "فإني فتحت مدينة لا أصف ما فيها، غير أني أصبت فيها أربعة آلاف بنية بأربعة آلاف حمّام؛

وأربعين ألف يهودي عليهم الجزية، وأربعمائة ملهى للملوك" وقد قال المقريزي عنها: "هذه المدينة من أعظم مدائن الدنيا وأقدمها وضعًا"

هل ثبت أن الأقباط كانوا يعاونون المسلمين في الفتح؟:

نعم ثبت ذلك في كثير من المرويات التاريخية، وقد فعل الأقباط ذلك لعدة أسباب ودوافع، منها؛ أنهم فعلوا ذلك نكاية في أعدائهم البيزنطيين، ثم للتخلص من حكمهم الظالم، ثم أنهم يتطلعون إلى تحقيق الحرية الدينية، لاسيما وأنهم قد سمعوا عن تسامح المسلمين و معاملتهم الحسنة التي عمت بلاد الشام والعراق بعد سيطرة المسلمين عليها.

وتمثلت تلك المساعدة كما يذكر ذلك ابن عبد الحكم وغيره في إقامة الجسور وإصلاح الطرق وتقديم الأطعمة و العلف، وعندما تحدث ابن عبد الحكم عن فتح الفرما قال " إن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعوانًا"، وعندما تحدث عن فتح حصن بابليون قال" وصارت لهم القبط أعوانًا"، وعندما تحدث عن خروج عمرو نحو الإسكندرية قال" وخرج معه جماعة من رؤساء القبط وقد أصلحوا لهم الطرق، وأقاموا لهم الجسور والأسواق، وصارت لهم القبط أعوانًا على ما أرادوا من قتال الروم".

وقد ذكر ذلك أيضًا المقريزي وابن تغر بردي وبعض مؤرخي الأقباط.

وفي المقابل عاش الأقباط أزهى عصورهم بعد أن قام عمرو بتنفيذ وصية رسول الله واستوصى بأهل مصر خيرًا، حتى أن البطريرك القبطي بنيامين عاد إلى الإسكندرية بعد أن قضى ثلاثة عشر عامًا هاربًا.

وقد عامل عمرو المصريين معاملة من فُتِحَتْ بلادُهم صلحًا، وليس عُنوة، ولذا عقد عمرو هدنة أو اتفاقًا مع المقوقس على بنود معينة.

ثم جعل عمرو نصف الجنود معه بالفُسطاط، وأمر النصف الآخر بالمرابطة بسواحل مصر، خاصة الإسكندرية لحماية الحدود المصرية.

اتهام عمرو بن العاص بحرق مكتبة الإسكندرية:

لا شك أن محو الأمية مطلب شرعي، وأول ما نزل من القرآن الكريم قوله تعالى{ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}، وقد فادى رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعض أسرى بدر بتعليم عدد من أبناء المسلمين بالمدينة الكتابة كما جاء في مسند الإمام أحمد عن ابن عباس قال: " كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة" والشواهد والآثار حول هذا المعنى كثيرة في القرآن والسنة وتاريخ المسلمين.

والغرض المقصود أن الإسلام يدعو إلى العلم والتعلم النافع في مختلف المجالات.

وأما ما أثير حول اتهام أمير مصر عمرو بن العاص بحرق مكتبة الإسكندرية، فنقول: ترجع نشأة مكتبة الإسكندرية إلى ما قبل ميلاد المسيح بمئات السنين، وتعتبر مكتبة الإسكندرية هى أحد الصروح الثقافية العملاقة على مستوى العالم، حيث أنها كانت تحتوي على مئات الآلاف من المجلدات في الفنون المختلفة.

وتؤكّد الروايات التاريخية أن مكتبة الإسكندرية قد شهدت حريقًا هائلاً تسبب في تدمير كنوزها العلمية المختلفة من الكتب والمخطوطات والمجلَّدات ونحوه، عام ٤٨ ق.م، وذلك بسبب الصراع الذي قام على العرش بمصر خلال عصر الملكة كليوباترا.

وتشير بعض الروايات الأخرى أن ما تبقى من الكتب والمحتويات بالمكتبة بعد الحريق الأول، قد تم تدميره وحرقه خلال القرن الرابع الميلادي وبالتحديد عام عام ٣٩١م.

ثم ظهرت روايات نسبَت جريمة إحراق المكتبة إلى الجيش المسلم الذي قام بفتح مصر عام (٢٠هـ/ ٦٤١ م) تحت قيادة عمرو بن العاص، وذلك بأمرٍ من الخليفة عمر بن الخطاب، وأوَّل مَن أورد هذه الرواية هو المؤرخ عبداللطيف البغدادي المولود عام٥٥٧ هـ، والمتوفي عام ٦٢٩ هـ، في كتابه "الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهَدة والحوادِث المُعايَنة بأرض مصر"، ثم تناقلها عنه بعض المؤرخين.

ومفاد الرواية أن عمرو بن العاص بعد الفتح استأذن عمر في أمر المكتبة، فأذن له أن يتخلص من الكتب التي تحتوي عليها المكتبة، وقام عمرو بتوزيع الكتب على حمامات الإسكندرية، ثم أحرقها بعد ذلك خلال ستة أشهر.

وهذه الرواية المزعومة هي محض كذب وافتراء وقد كذبها بعض المؤرخين والمفكرين العرب و في الغرب أيضًا، واعتبروها أسطورة خرافية.

ومن هؤلاء: المؤرخ الفرنسي؛ غوستاف لوبون في كتابه؛ "حضارة العرب"، حيث يقول" أما إحراقُ مكتبَة الإسكندرية المزعوم فمِن الأعمال الهمجيَّة التي تأباها عادات العرب، والتي تجعَل المرء يسأل: كيفَ جازت هذه القصة على بعض العلماء الأعلام زمنًا طويلاً؟! وهذه القصة دُحضت في زماننا، فلا نرى أن نعود إلى البحث فيها، ولا شيء أسهلَ مِن أن نُثبت بما لدينا من الأدلة الواضحة أن النصارى هم الذين أحرَقوا كتبَ المُشركين في الإسكندرية قبل الفتح العربي بعنايةٍ كالتي هدموا بها التماثيل، ولم يبقَ منها ما يُحرق" وقد تابعه عدد من مؤرخي الغرب على هذا الرأي، كالمؤرخ البريطاني؛ ألفريد بتلر في كتابه "فتح العرب لمصر"؛ حيث اعتبر أن تهمة إحراق المسلمين للمكتبة سخافة ومحض خرافة مُستبعَدة علميًّا وعقليًّا.

وكذلك دحض هذه الفرية كثير من المؤرخين والباحثين العرب كالمؤرخ السكندري د. مصطفى العبادى، في كتابه "مكتبة الإسكندرية" وغيره من المؤرخين.

ومما يدل على عدم ثبوت الرواية المذكورة ما يلي:

١-أن المؤرخين الأوائل الثقات الذين كتبوا عن تلك الحقبة الزمنية، كالبلاذُري، وابن عبدالحكم، والكِندي، وغيرهم من مؤرخي القرون الأولى، لم يذكروا تلك الرواية، فمن أين جاء بها المتأخرون؟!

٢-تزعم الرواية أن عمروَ بنَ العاص قام بتوزيع الكتب على الحمامات بالإسكندرية، وهي أربعة آلاف حمَّام، و أن الحرق استغرق ستة أشهر؛ وهذه الطريقة لا تتناسب مع سياسة عمرو ودهائه وفطنته؛ حيث إن تلك الطريقة ستسمح بتسرُّب وانتشار الكتب عن طريق بيعها أو إخفائها على يد أصحاب الحمامات، فلو أراد عمرو ذلك لأحرقها كلها في الحال.

٣-استشهد البعض على صحة الرواية بأن إحراق الكتب كان أمرًا معروفًا وشائعًا آنذاك، حيث يقوم كل منتصر بالقضاء على ثقافة غيره وفكره، كما عمل هولاكو التتري عام ٦٥٦هـ بإلقاء خزائن الكتب في دجلة، والقضاء على مكتبة بغداد، أو بيت الحكمة.

ولا شك أن هذا قياس فاسد، حيث إنه من الجهل بل ومن الظلم أن نضع هولاكوا وعمر بن الخطاب وعمرو بن العاص في كفة واحدة، فلا يقاس من جاء ليحصد الحضارات، بمن قام بنشر الحضارة في العالم.

٤-ولو فرضنا جدلًا أن مكتبة الإسكندرية بقيت إلى عصر الفتح الإسلامي، لم يكن هناك ما يمنع من نقلها إلى القسطنطينية على أيدي الروم في أثناء الهدنة التي عقدت مع المسلمين.

وأخيرًا: نقول؛ إن الأدلة على بطلان الرواية المزعومة كثيرة، ولكننا نكتفي بما ذكرنا خشية الإطالة، مع الأخذ في الاعتبار أن يجوز حرق الكتب التي تحتوي على مناهج وأفكار كفرية أومنحرفة.

إعادة فتح الإسكندرية وحقيقة الخلاف بين عثمان بن عفان وعمرو بن العاص:

كان والي مصر في خلافة عمر بن الخطاب هو عمرو بن العاص الذي حكمها ما يقرب من أربع سنوات تقريبًا، وتوفي عمر وهو وال عليها، وقد أقره عثمان بن عفان في بداية خلافته، وقد كان عمر قد عين عبد الله بن سعد بن أبي السرح على صعيد مصر بعد فتحها، و كان عبد الله مصاحبًا لعمرو بن العاص منذ أيام فتوحه في فلسطين؛ ثم أوكل عثمان في خلافته مهمة الخراج لعبد الله بن أبي

السرح، بدلًا من عمرو بن العاص، (والخراج هو ضريبة مالية تُفرَض على بعض الأراضي) علمًا بأن عمر كان يستبطئ عمرًا في جمع الخراج، ويستقل ما يجمعه من مصر، إلا أنه لم يقم بعزله عن الخراج، فلما فعل عثمان ذلك غضب عمرو، وقيل أن خلافًا وقع بين عمرو وابن أبي السرح، في وجهات النظر، وهنا رأى عثمان أن من الأصلح عزل عمرو عن مصر وتولية عبد الله بن أبي السرح مكانه، وهذا ما حدث بالفعل.

وفي عهد ولاية عبد الله بن سعد بن أبي سرح، هاجم البيزنطيون الإسكندرية، انطلاقًا من جزيرة رودس بهدف استعادتها، وبالفعل استولوا عليها، بل وتوغلوا في أرض مصر، وكان ذلك عام ٢٥هـ، وقيل ٢٧هـ، ولم ينقذ الموقف سوى عمرو بن العاص الذي عينه الخليفة عثمان واليًا على الجيش، وبالفعل استطاع عمرو أن يسترد الإسكندرية، ثم قام بتدمير أسوارها، حتى لا يتحصن البيزنطيون فيها مرة أخرى، وتمر الأيام ويقوم معاوية بتولية عمرو لمصر أيضًا.

قصة نيل مصر:

لما فتح عمرو بن العاص مصر قال له أهلها " أَيُّهَا الْأَمِيرُ إِنَّ لِنِيلِنَا هَذَا سُنَّةً لَا يَجْرِي إِلَّا بِهَا فَقَالَ لَهُمْ وَمَا ذَاكَ قَالُوا إِذَا كَانَ لِثِنْتَيْ عَشْرَةَ لَيْلَةً خَلَتْ مِنْ هَذَا الشَّهْرِ عَمَدْنَا إِلَى جَارِيَةٍ بِكْرٍ بَيْنَ أَبَوَيْهَا فَأَرْضَيْنَا أَبَوَيْهَا وَجَعَلْنَا عَلَيْهَا مِنَ الحلي وَالثِّيَابِ

أَفْضَلَ مَا يَكُونُ ثُمَّ أَلْقَيْنَاهَا فِي هَذَا النِّيلِ، فَقَالَ لَهُمْ عَمْرٌو إِنَّ هَذَا لَا يَكُونُ فِي الْإِسْلَامِ وَإِنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ ما قبله فأقاموا بؤنة وَالنِّيلُ لَا يَجْرِي لَا قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا ؛ وفي رواية فأقاموا ثلاثة أشهر وَهُوَ لَا يَجْرِي حَتَّى هَمُّوا بِالْجَلَاءِ، فَكَتَبَ عَمْرٌو إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ بِذَلِكَ فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ إِنَّكَ قَدْ أَصَبْتَ بِالَّذِي فَعَلْتَ وَإِنِّي قَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكَ بِطَاقَةً دَاخِلَ كِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهَا فِي النِّيلِ فَلَمَّا قدِمَ كِتَابُهُ أَخذَ عَمْرٌو البطاقة ففتحها فإذا فيها " من عند اللَّهِ عُمَرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى نِيلِ مِصْرَ – أما بعد – فإن كنت تَجْرِي مِنْ قِبَلِكَ فَلَا تجرِ وَإِنْ كَانَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ هُوَ الَّذِي يُجْرِيكَ فَنَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُجْرِيَكَ؛ فَأَلْقَى عَمْرٌو الْبِطَاقَةَ فِي النِّيلِ فَأَصْبَحَ يَوْمُ السَّبْتِ وَقَدْ أَجْرَى اللَّهُ النِّيلَ سِتَّةَ عَشَرَ ذِرَاعًا فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ وَقَطَعَ اللَّهُ تِلْكَ السُّنَّة عَنْ أَهْلِ مِصْرَ إِلَى الْيَوْمِ "(١).

بناء مدينة الفسطاط:

يعتبر تخطيط وإنشاء المدن الإسلامية من الأعمال العمرانية المهمة التي قام بها عمرو، فإن العرب المسلمين حينما خرجوا فاتحين كانوا مهيئين لهذه النقلة

---

(١) البداية والنهاية – ابن عبد الحكم في فتوح مصر – وابن عساكر في تاريخ دمشق . والخبر ضعيف عند المحققين، حيث أنه جاء من طريق ابْن لَهِيعَةَ وهو ضعيف.

التاريخية من طور البداوة إلى طور الحضارة، وهذا ما جسده بناء البصرة والكوفة، ثم الفسطاط في عهد الخليفة عمر بن الخطاب.

ولما أتم عمرو فتح مدينة الإسكندرية، ورأى بيوتها وبناءها قد شيدت غير محتاجة إلى إصلاح، هم أن يسكنها وقال: منازل قد كفيناها، فكتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك فسأل عمر الرسول: هل يحول بيني وبين المسلمين ماء؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل، فكتب إلى عمرو: إني لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلًا يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف، فلا تجعلوا بيني وبينكم ماءً، فتحوّل عمرو بن العاص من الإسكندرية إلى موضع فسطاطه القديم، ونشير إلى أن عمرو بن العاص حينما عزم على التوجه إلى الإسكندرية، أمر بنزع فسطاطه الذي ضربه قرب حصن بابليون، وذلك حينما استشار أصحابه أين ينزلون، فأشاروا عليه بالنزول في هذا الموضع، ثم انضمت إليه القبائل، وتم البناء، وإقامة المسجد الجامع، وسَرْعان ما اتخذت الفسطاط مظهر المدينة بجامعها الكبير، وبأسواقها التجارية، وقم تم البناء والتشييد عام ٢١هـ.

والفسطاط من حيث المناخ، تتبع المناخ شبه الصحراوي، فهي حارة نهارًا وباردة ليلاً، لا ينزلها المطر إلا نادرًا، كما هو الحال في باقي إقليم مصر، عدا المدن الساحلية، وقد اكتشف هذا الموقع الإستراتيجي الفراعنة والبابليون والرومان،

فالموقع الذي ضرب عليه عمرو فسطاطه كان موضعًا لمدينة قديمة اندثرت ثم ازدهرت ثانية مع دخول الإسلام لمصر.

وننوه على أن الصلة بين مصر وبين الدول المسيطرة عليها على مر التاريخ، كانت تستلزم أن تكون العاصمة في الإسكندرية، فلما انتقل مركز السيادة على مصر إلى العرب، كان يجب أن تكون العاصمة إما على البحر الأحمر، وإما على نقطة تسهل منها المواصلات البرية، ولكن العرب لم يكونوا أمة بحرية، فلم يكن بد من أن تكون عاصمة مصر في نقطة برية سهلة التواصل مع بلاد العرب.

جامع عمرو بن العاص:

جامع عمرو بن العاص أول جامع أقيم في مصر، ويعرف بالجامع العتيق، وقد وقف على تحرير قبلته جمع كبير من جِلَّة الصحابة رضوان الله عليهم، قال المقريزي: إنهم ثمانون رجلاً من أصحاب رسول الله ، منهم: الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، وأبو ذر الغفاري، وغيرهم رضي الله عنهم، وكان طوله خمسين ذراعًا في عرض ثلاثين، وتم افتتاح المسجد بأول صلاة جمعة في ٦ محرم ٢١هـ.

وهذا هو المشهور عند المؤرخين، ولكن بعض الباحثين في الآثار يقولون أن مسجد سادات قريش الواقع في شارع بورسعيد بمدينة بلبيس بمحافظة الشرقية،

يعد أول مسجد أقيم بمصر، وقد أطلق عليه هذا الاسم تكريماً لشهداء المسلمين، والراجح عندي قول المؤرخين، وليس علماء الآثار.

فتح برقة وطرابلس:

بعد أن استقر الأمر لعمرو بن العاص يأرض مصر، أراد أن يؤمن مصر من الناحية الغربية، لاسيما مع وجود قوات عسكرية للروم ببرقة وطرابلس، ولذلك سار عمرو بجيشه متوجهًا نحو أدنى بلاد المغرب، وهي ليبيا، واستطاع أن يفتح برقة وطرابلس عام ٢٢هـ، وقد أراد عمرو أن يستكمل الفتوحات وأن يتوغل في بلاد المغرب وتونس، فأصدر عمر تعليماته لعمرو بن العاص بأن يتوقف عند ذلك الحد، وخشي عمر من التوغل في بلاد المغرب، حتى يطمئن إلى ما تم فتحه بالشام ومصر، وهكذا امتدت دولة الإسلام في عصر عمر بن الخطاب، شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا.

الفصل الثانى

موقف أهل الحجاز من

قيام الدولة الأموية

المبحث الأول

نسب بني أمية وآراء المؤرخين في دولتهم

بعد أن ذكرنا في الفصل الأول من البحث، قدرًا مفصلًا عن لفظة العرب ومدلولها وتطورها التاريخي ثم تحدثنا عن الحياة القبلية ثم الحالة الدينية لأهل الحجاز قبل الإسلام، ثم الحالة السياسية لأهل الحجاز قبل الإسلام أيضًا، نتحدث في هذا الفصل عن أهل الحجاز وأحوالهم السياسية في العصر الإسلامي، وبالتحديد منذ زمن الخليفة الراشد عثمان بن عفان ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ، والصراعات السياسية في هذه الحقبة التاريخية، والأحداث الجسام بين أهل الحجاز والأمويين.

ولكننا نبدأ بالتعريف بنسب بني أُمية:

نسب بني أمية:

ينتسب الأمويون إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وفي عبد مناف يلتقي بنو أمية مع بني هاشم، وكان بنو عبد مناف يتمتعون بمركز الزعامة في مكة، لا يناهضهم فيه أحد من بطون قريش، وجميع قريش تعرف ذلك وتسلم لهم الرياسة عليها[1].

فهم عشيرة من عشائر قريش ويلتقون مع رسول الله ـ ﷺ ـ عند جده الثالث عبد مناف، وكان بينهم وبين بني هاشم مفاخرات وتنافس على السيادة والشرف قبل الإسلام[2].

---

(١) «جمل من أنساب الأشراف» (٥/ ١٢٠).

(٢) «جمهرة أنساب العرب» (ص ١٠). وانظر «سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي» (٣/ ١٠٥).

آراء المؤرخين في دولة بني أمية:

تختلف آراء المؤرخين في نظرتهم لبني أُمية ودولتهم، فهناك مَن يشتد عليهم ويتهمهم بالكفر والخروج على الإسلام، مثل: «الجاحظ»[(١)] حيث يقول: «استوى معاوية على الملك, واستبد على بقية الشورى, وعلى جماعة المسلمين من الأنصار والمهاجرين في العام الذي سموه عام الجماعة, وما كان عام جماعة، بل عام فرقة وقهر، وجبرية وغلبة, والعام الذي تحولت فيه الإمامة ملكًا كسرويًّا, والخلافة غصبًا قيصريًّا!».

ويقول أيضًا في موطن آخر: «فخرج بذلك من حكم الفجار إلى حكم الكفار، وليس قتل حجر بن عدي، وإطعام عمرو بن العاص خراج مصر، وبيعة يزيد الخليع، والاستئثار بالفيء واختيار الولاة على الهوى، وتعطيل الحدود بالشفاعة والقرابة من جنس حد الأحكام المنصوصة، والشرائع المشهورة، والسنن المنصوبة، وسواء في باب ما يستحق من الأكفار حجر الكتاب ورد السُّنَّة إذا كانت السنة في شهرة الكتاب وظهوره؛ إلا أن أحدهما أعظم وعقاب الآخرة عليه أشد؛ فهذه أول كفرة كانت في الأمة»[(٢)].

---

(١) الجاحظ الكناني هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة الليثي الكناني البصري (١٥٩هـ-٢٥٥ هـ)، أديب عربي كان من كبار أئمة الأدب في العصر العباسي، ولد في البصرة وتوفي فيها، انظر «معجم الأدباء»، «إرشاد الأريب إلى معرفة الأدي» (٥/٢١١).

(٢) انظر: «مجلة لغة العرب العراقية ـ مجلة شهرية أدبية علمية تاريخية» (٨/٣٤)، وانظر: رسالة من رسائل الجاحظ المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٢٨٥٥) والتي نشرت بكتاب صدر عام ١٩٤٦ وبعنوان: (رأي أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في معاوية والأمويين).

وكذلك المقريزي[١] حيث يقول حول الأسباب التي دفعته إلى تأليف كتابه: «النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم»: «فإني كثيرًا ما كنت أتعجب من تطاول بني أمية إلى الخلافة مع بعدهم من جذم رسول الله ـ ﷺ ـ وقرب بني هاشم، وأقول: كيف حدثتهم أنفسهم بذلك؟! وأين بنو أمية وبنو مروان ابن الحكم طريد رسول الله ـ ﷺ ـ ولعينه من هذا الحديث مع تحكم العداوة بين بني أمية وبني هاشم في أيام جاهليته؟! ثم شدة عداوة بني أمية لرسول الله ـ ﷺ ـ ومبالغتهم في أذاه، وتماديهم على تكذيبه فيما جاء به منذ بعثه الله ـ عَزَّوَجَلَّ ـ بالهدى ودين الحق إلى أن فتح مكة شرفها الله ـ تعالى ـ»[٢]. وكذلك بعض مؤرخي الشيعة من القدماء والمحدثين، مثل: جمال الدين بن عتبة (ت ٨٢٨هـ-١٤٢٥م) في كتابه: «عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب»، وكذلك هاشم معروف الحسيني في كتابه: «الانتفاضات الشيعية عبر التاريخ»، وهو يسمي بني أمية: معسكر الشرك والجاهلية، ويرى أن العام الذي حكم فيه بنو أمية عام المحنة، وبداية الكوارث على المسلمين[٣].

وهناك فريق آخر يبالغ في فضائل بني أمية، ويرى أنهم أهل الجماعة وحماة السُّنَّة وأنهم امتداد للخلفاء الراشدين، مثل: محمد بن علي بن طولون الصالحي (ت٩٥٣هـ-١٥٤٦م) الذي دافع بشدة عن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان في

(١) مؤرخ مسلم، شيخ المؤرخين المصريين «أحمد بن علي المقريزي» المعروف باسم تقي الدين المقريزي، ولد وتوفي في القاهرة (٧٦٤ هـ - ٨٤٥ هـ)، وهو ممن اهتموا بالتاريخ بكل نواحيه. انظر: «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» (٢/ ٢٥١).

(٢) «رسائل المقريزي» (ص ٦٥).

(٣) «التاريخ الأموي والعباسي» (ص ٨).

كتابه: «قيد الشريد من أخبار يزيد» وتجاهل بعض المآخذ الذي أخذها العلماء على يزيد[١].

وكذلك بعض مؤرخي الشام بالغوا في الدفاع عن بني أُمية، وهناك مِنَ المؤرخين مَنْ كان في المنتصف بين الفريقين، وتَوَسَّطَ واعْتَدَلَ في الحكم على بني أُمية، وصاحبه الإنصاف، ومال إلى الحيدة والاعتدال، ومن هؤلاء المؤرخين: الطبري[٢]، وابن الأثير[٣]، وابن طَبَاطَبَا[٤]، وابن خلدون[٥]. ونجد من هؤلاء

(١) ومن العجيب أن يقوم جهاد الترباني، الباحث الفلسطيني؛ بذكر يزيد كشخصية من عظماء الإسلام في كتابه: "مائة من عظماء أمة الإسلام غيروا مجرى التاريخ".

(٢) محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير بالإمام أبو جعفر الطبري (٢٢٤هـ - ٣١٠هـ) إمام من أئمة المسلمين من أهل السُّنَّة والجماعة، مؤرخ ومُفسر وفقيه مسلم، صاحب أكبر كتابين في التفسير والتاريخ. انظر: «البدر الطالع» (ص ٣٧٠).

(٣) عز الدين أبي الحسن الجزري الموصلي (٥٥٥-٦٣٠هـ) المعروف بـ«ابن الأثير الجزري» مؤرخ إسلامي كبير، عاصر دولة صلاح الدين الأيوبي، ورصد أحداثها ويُعد كتابه الكامل في التاريخ مرجعًا لتلك الفترة من التاريخ الإسلامي. انظر: «الأعلام» (ص ٣٠٩).

(٤) أبو الحسن بن طَبَاطَبَا محمد بن أحمد بن محمد الهاشمي القرشي (ت ٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م)، عالم وشاعر وأديب، ولد في أصبهان وتوفي فيها. انظر: «الأعلام» (٥/ ٢٩٠).

(٥) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون أبو زيد ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (٧٣٢ -٨٠٩هـ)، مؤرخ من شمال أفريقيا، تونسي المولد، أندلسي الأصل، عاش بعد تخرجه من جامعة الزيتونة في مختلف مدن شمال أفريقيا، حيث رحل إلى بسكرة وغرناطة وبجاية وتلمسان، كما تَوَجَّهَ إلى مصر حيث أكرمه سلطانها الظاهر برقوق، ووَلِيَ فيها قضاء المالكية، وظلَّ بها ما يناهز ربع قرن (٧٨٤-٨٠٨هـ)، حيث تُوُفِّيَ عام ١٤٠٦ عن عمر بلغ ستة وسبعين عامًا ودُفِنَ قرب باب النصر بشمال القاهرة تاركًا تراثًا ما زال تأثيره ممتدًا حتى اليوم، ويعتبر ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع الحديث، وهو أب للتاريخ والاقتصاد. انظر: «الأعلام» (٣/ ٣٣٠).

إجماعًا على أن الدولة الأموية برغم مآثرها وإنجازاتها، كانت دون سابقتها «دولة الخلفاء الراشدين» في المثالية والالتزام الديني.

وقد اهتم ابن عساكر[١] في «تاريخ دمشق»، وابن كثير[٢] في «البداية والنهاية»، وابن العربي[٣] في «العواصم من القواصم»، وابن تيمية في الجزء الرابع من كتابه: «منهاج السنة» بإنصاف بني أُمية وتخريج الأحاديث التي تُروى بشأنهم، وتحقيق الروايات التي تنتقص منهم، ولكنهم اعتبروهم من الملوك أو من خلفاء الملوك؛ لكون الخلافة أصبحت وراثية في عهدهم[٤].

---

(١) أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي (٤٩٩-٥٧١هـ)، الإمام والعلامة الحافظ الكبير محدث الشام، وصاحب كتاب تاريخ دمشق وغيره من أمهات الكتب. انظر: «الأعلام» (٤/ ٢٧٠).

(٢) أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن زرع القرشي المعروف بـ«ابن كثير»، عالم مسلم، وفقيه، ومفت، ومحدث، وحافظ، ومفسر، ومؤرخ ولد في سوريا سنة ٧٠١هـ كما ذكر ذلك في كتابه البداية والنهاية، وتوفي إسماعيل بن كثير يوم الخميس ٢٦ شعبان ٧٧٤هـ في دمشق عن ثلاث وسبعين سنة. وكان قد فقد بصره في آخر حياته، وهو يؤلف «جامع المسانيد». انظر: «الأعلام» (١/ ٢٣٠).

(٣) محمد بن عبد الله بن محمد المعافري المشهور بالقاضي أبو بكر بن العربي الإشبيلي المالكي الحافظ، عالم أهل الأندلس ومسندهم، ولد في إشبيلية سنة ٤٦٨ هـ، تأدّب ببلده وقرأ القراءات، أتقن الفقه والأصول وقيد الحديث واتسع في الرواية وأتقن مسائل الخلاف والكلام وتبحّر في التفسير وبرع في الأدب والشعر. صنف كتبًا في الحديث والفقه والأصول والتفسير والأدب والتاريخ، وولي قضاء إشبيلية، ومات في فاس في ربيع الآخر سنة ٥٤٣ هـ، ودفن بها. انظر: «الأعلام» (٦/ ٢٣١).

(٤) «التاريخ الأموي والعباسي» (ص ٩).

التحريف فِي تاريخ بني أُمية:

يرى الباحث أن التاريخ الأموي تعرَّضَ لكثيرٍ مِن التشويه والتحريف، واتسعت هذه الظاهرة لتشمل غالب مصادر التاريخ الأموي، وامتدت لتترك بصماتها على بعض كتب التفسير والحديث التي تشكِّل مصدرًا أساسيًّا مِن مصادر التاريخ الإسلامي في تلك الحقبة الزمنية. وإذا كان الله ـ تعالى ـ قد قيض للسُّنَّة النبوية مَن يقوم بتنقيحها لما تشكله من أهمية كبيرة في أمر التشريع؛ فإن طبيعة علم التاريخ وكثرة نقولاته ورواياته وتعدد عصوره قد وقفت حائلًا دون إتمام هذا العمل من التنقيح، كما حدث في كتب السُّنَّة، ومع ذلك فقد حاول كثير من العلماء والمؤرخين الغوص في بعض كتب التاريخ، لاسيما التي عُرف عن أصحابها الكذب والتدليس، وقاموا بتنقيح كثير من المرويات التاريخية قدر استطاعتهم.

الدلائل والبراهين على ثبوت التحريف فِي التاريخ الأموي:

لقد ظهر بما لا يدع مجالًا للشك أن التاريخ الأموي قد تعرض لكثيرٍ مِن التحريف؛ فقد أثبت بعض المؤرخين القدماء ذلك وحذروا منه، رغم أنهم لم يجدوا بُدًّا من ذكر هذه الأخبار الموضوعة لشيوعها أحيانًا، ولكيلا يتهمهم أحد بجهل شيء ذكره آخرون، أو لأنهم كانوا يعتبرون من الأمانة العلمية أن يذكر أحدهم كل ما يُروَى له، واتجه فريق آخر منهم إلى الانتقاء من هذا الركام الكبير، فاختار ما صَحَّ عنده، ونبَّه إلى زيف كثيرٍ مما عداه، وهذا هو عين الإنصاف.

ابن جرير الطبري:

يقول شيخ المؤرخين ابن جرير الطبري في مقدمة كتابه: «تاريخ الرسل والملوك»: «فما في كتابي هذا من خبر يستنكره قارئه، أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهًا في الصحة، فليعلم أنه لم يأتِ ذلك من قِبَلنا، وإنما أتى مِن قِبَل بعض ناقليه إلينا، وإنما أدينا ذلك على نحو ما أُدِّيَ إلينا»(١). ويروي أبو الفرج الأصفهاني ما يعتبره من أكاذيب بعض الرواة، وينبِّه إليه أحيانًا فيقول: «وهذا من أكاذيب ابن الكلبي، وإنما ذكرته على ما فيه لئلا يسقط من الكتاب شيء قد رواه الناس وتداولوه»(٢).

ابن الأثير:

هذا بينما ينتقي ابن الأثير بعض الروايات ويهمل بعضها، ويقول في سبب ذلك: «فإن الناس قد حشدوا تواريخهم بمقتضى الأهواء»(٣).

ابن العربي وكتابته عن الدولة الأموية:

لقد حذر ابن العربي من تتبع المرويات الموضوعة والمكذوبة التي تشوه التاريخ، وتزيف حقائقه، وتطعن في كثيرٍ مِن الشخصيات، فيقول: «ولا تقبلوا رواية إلا عن أئمة الحديث، ولا تسمعوا لمؤرخ كلامًا إلا للطبري، وغير ذلك هو الموت الأحمر والخطر الأكبر؛ فإنهم ينشئون أحاديث احتقار الصحابة والسلف

---

(١) «تاريخ الرسل والملوك» (٨/١).

(٢) مجلة البيان (العدد ٢٣٨) تصدر عن المنتدى الإسلامي، مقال بعنوان: «نظرة أين ذهب تاريخ الأدب؟!».

(٣) «الدولة الأموية المفترى عليها، دراسة الشبهات ورد المفتريات» (ص ٣٣). وللمزيد: انظر: «موجز تاريخ الدولة الأموية: جامعة أم القرى»، وانظر: «موقع قصة الإسلام، أدلة تحريف التاريخ الأموي».

والاستخفاف بهم، واختراع الاسترسال في الأقوال والأفعال عنهم. فإذا قاطعتم أهل الباطل، واقتصرتم على رواية العدول سَلِمتم من هذه الحبائل»[١].

ويعد كتابه «العواصم من القواصم» مِن أبرز الكتابات التاريخية التي تسعى لإنصاف الأمويين، وتنقية تاريخهم مما علق به من شبهات المؤرخين والأدباء، وهو لم يحاول إنصاف الأمويين وحدهم، بل امتد بحثه إلى تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ـ ﷺ ـ، ورد الشبهات عن تاريخهم.

ويتعجب ابن العربي من استكثار الناس ولاية بني أمية مع أن أول من عقد لهم عقد الولاية رسول الله ـ ﷺ ـ، فقال: «نكتة وعجبًا لاستكبار الناس ولاية بني أمية، وأول من عقد لهم الولاية رسول الله ـ ﷺ ـ، فإنه وَلَّى يوم الفتح عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية مكة ـ حرم الله وخير بلاده ـ وهو فَتِيُّ السن قد أبقل أو لم يبقل[٢]. واستكتب معاوية بن أبي سفيان أمينًا على وحيه، ثم ولى أبو بكر يزيدَ بن أبي سفيان أخاه الشام. وما زالوا بعد ذلك يتوقلون في سبيل المجد، ويترقون في درج العز، حتى أنهتهم الأيام إلى منازل الكرام»، ويرد الزعم بوجود أحاديث نبوية تهاجم الأمويين وتغض من شأنهم [٣].

وعندما يتحدث عن حروب علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ، يرى أن كلًّا من الفريقين كان يجتهد رأيه لتقرير الحق، وأنهم جميعًا مؤمنون، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]، ويتحدث ابن العربي عن مزايا معاوية ومكانته العالية في السياسة والفقه، ويرفض

(١) «العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ـ ﷺ ـ» (ص ٢٦٠).

(٢) أبقل: أي نبت شعره واشتد.

(٣) «العواصم من القواصم» (ص ٢٨٤).

الرواية المشهورة عن التحكيم وخداع عمرو بن العاص أبا موسى الأشعري ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ ، ويرى أن كلًّا من الحكمين خلعا صاحبه، وتركا الأمر شورى بين المسلمين بغير سباب بينهما، ويتعرض أبو بكر بن العربي لبحث بعض الشبهات التي تثار حول خلافة معاوية بن أبي سفيان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ، مثل: قتله حجر ابن عدي، فيرى أن حجرًا أراد أن يقيم الخلق للفتنة، فجعله معاوية ممن سعى في الأرض فسادًا، ويرى أن استلحاق معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ زياد بن أبيه لم يكن خروجًا عن شريعة الإسلام كما يزعم أعداء الدولة الأموية، فإن المسألة محل خلاف بين العلماء [(١)].

---

(١) فإن زياد بن أبيه رجل من أهل الطائف، ولد عام الهجرة في الطائف، وقد اختلفوا في اسمه، فقيل: إنه زياد بن عبيد الثقفي؛ وقيل: إنه ابن أبي سفيان، وقد ذكر الذهبي في لسان الميزان، وابن حجر في الإصابة نقلًا عن ابن عساكر أنه لم ير النبي صلى الله عليه وسلم، وقد ذكر ابن حجر في الفتح أن أمه سمية كانت مولاة تحت رجل من ثقيف اسمه عبيد، فلما ولد على فراشه كان يدعى زياد بن عبيد، وقيل أن أمه سمية كانت جارية عند الحارث بن كلدة الثقفي الطبيب الشهير، ثم استلحقه معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه لما شهد له شهود بأن أبا سفيان رضي الله عنه استلحقه، ثم إنه لما انقرض عصر بني أمية كان زياد يسمى زياد بن أبيه، وقد ذكر الشوكاني أن أهل العلم أجمعوا على تحريم نسبته إلى أبي سفيان، عملًا بحديث الصحيحين: الولد للفراش وللعاهر الحجر، ولعل عذر معاوية رضي الله عنه أنه لم يبلغه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك؛ وقد كان زياد هذا رجلًا وافر العقل قوي المعرفة جيد السياسة، وهو قائد عسكري شهير في عهد الخلافة الراشدة، وسياسي أموي ساهم في تثبيت الدولة الأموية، وكان واحدًا من أربعة دهاة لدى العرب.

اعتمد على نفسه في تكوين شخصيته وأصبح من خطباء العرب، عمل كاتبًا لأبي موسى الأشعري ونبغ في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، وفي عهد الخليفة الراشد علي بن أبي طالب تولى زياد ولاية فارس وكرمان والبصرة، وفي سنة ٤٥هـ ، ولاه معاوية البصرة وخراسان وسجستان، فقدم البصرة آخر شهر ربيع الأول سنة ٤٥هـ، وتوفي سنة ٥٣هـ. وللمزيد راجع: العواصم من القواصم؛ و سير أعلام النبلاء؛و لسان الميزان والأعلام.

وحين يبحث ابن العربي تولية معاوية ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ يزيد العهد، يرفض القول بأن يزيد بن معاوية لم يكن عدلًا، ولم يكن يستحق الخلافة كما ينفي الزعم بأن يزيد بن معاوية كان شارب خمر، فقال: «فإن قيل: كان يزيد خمارًا، قلنا: لا يحل إلا بشاهدين، فمَن شهد بذلك عليه؟! بل شهد العدل بعدالته». فروى يحيى ابن بكير، عن الليث بن سعد، قال الليث: «توفي أمير المؤمنين يزيد في تاريخ كذا، فسماه الليث أمير المؤمنين، بعد ذهاب ملكهم وانقراض دولتهم، ولولا كونه عنده كذلك ما قال إلا توفي يزيد»[١].

ولما بحث ثورة الحسين بن علي ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا ـ وخروجه على يزيد بن معاوية، أخذ على الحسين ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ أنه لم يقبل نصيحة أعلم أهل زمانه ابن عباس ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا ـ، وعدل عن رأي شيخ الصحابة ابن عمر ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا ـ ويلتمس العذر لقاتليه، فإنه: «ما خرج إليه أحد إلا بتأويل، ولا قاتلوه إلا بما سمعوا من جده ـ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ـ، المخبر بفساد الحال، المحذر من الدخول في الفتن». ثم يذكر الأحاديث التي تنهي عن الخروج على الجماعة وتفريق الأمة، ويعتب على الحسين بن علي ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا ـ حسن ظنه بأهل الكوفة الذين أسلموه»[٢].

وأخيرًا: فإن بحث ابن العربي لم يقتصر على هذه الفترة الباكرة من عصر الدولة الأموية، بل يمتد بعض الشيء حتى يروي الروايات عن فقه عبد الملك ابن مروان وعلمه.

---

(١) «العواصم من القواصم» (ص ٢٨٩).

(٢) «المصدر السابق» (ص ٢٩٩). وانظر «الدولة الأموية المفترى عليها، دراسة الشبهات ورد المفتريات» (ص ٣٥)، وراغب السرجاني نقلًا من موقع قصة الإسلام، «عوامل تحريف التاريخ الأموي».

ومن المؤرخين المحدثين الداعين لإنصاف بني أُمية، د. محمد ضياء الدين الريس في كتابه: «عبد الملك بن مروان»، ود. أحمد شلبي في الجزء الرابع من «موسوعة التاريخ الإسلامي»، ود. عبد المنعم ماجد الذي قال في كتابه: «التاريخ السياسي للدولة الأموية»: «إن الدولة الأموية برغم ما أحدثته من تغيير سياسي، وحرص على الملك ومظاهره؛ إلا أن الصفة العامة للدولة بقيت دينية بحكم أن دستورها هو الإسلام الذي هو دين ودولة»[١].

عوامل تحريف التاريخ الأموي:

لا شك أن تدوين العلوم لم يصبح ظاهرة واسعة مشتهرة إلا في العصر العباسي، لكن ذلك لم يحدث دفعة واحدة، بل عبر مراحل طويلة كانت العلوم تُدَوَّن فيها على استحياءٍ كعاملٍ مساعد للحفظ، وقد وُجِدَتْ عدة عوامل أحاطت بذلك التدوين التاريخي في طوره التمهيدي قبل العصر العباسي، وبعض هذه العوامل أثَّر تأثيرًا كبيرًا على تحريف التاريخ الأموي، مثل ضياع معظم النتاج التاريخي الباكر.

ومن المؤكد أن كثيرًا من ذلك النتاج التاريخي كان سينصف بني أمية، وسيلقي مزيدًا من الضوء على تاريخهم، وسيعطي وجهات نظر محايدة عنهم أو مؤيدة لهم، إذا كُتِبَ معظمُه في عهدهم، وبأيدي بعض رجالهم، أو علمائهم المقربين منهم والخبيرين بهم.

لقد حكمت دولة بني أمية المسلمين أكثر من تسعين سنة، وكان لهم في هذه المدة دعاة وعلماء وأولياء وأنصار من مؤرخين وفقهاء وشعراء، وغير ذلك؛ وعلى ذلك فمن البديهي أن نفترض أنه كان هناك نتاج ضخم من الكتابات لصالح

(١) «التاريخ الأموي والعباسي» (ص ١٠).

بني أمية ودولتهم، ولم يأخذ حظه من العناية والتدوين، أو من النشر، أو تعرض عمدًا للإضاعة والإخفاء. ويذكر المسعودي ما يعزز هذا الافتراض بقوله: «ورأيت في سنة ٣٢٤هـ بمدينة طبرية من بلاد الأردن من أرض الشام عند بعض موالي بني أمية ممن ينتحل العلم والأدب، ويتحيز إلى العثمانية كتابًا فيه نحو من ثلاثمائة ورقة بخط مجموع مترجم بكتاب «البراهين في إمامة الأمويين ونشر ما طوي من فضائلهم.. أبواب مترجمة، ودلائل مفصلة»[(١)].

كما ضاعت جُلُّ الوثائق السياسية لذلك العصر بما تحمل من دلالات قوية على سير الحياة فيه من وجهة نظر حكومية أو إدارية.

وقد ساعدت عدة أسباب على ضياع ذلك التاريخ، منها: نظرة العلماء آنذاك إلى الآثار المكتوبة كعامل مساعد فقط على الحفظ، دون أن يُعَوَّل عليها بشكلٍ أساسي في التعليم وحلقات الدرس؛ فلم يتم الاهتمام بها بما ينبغي؛ وذلك لتخوُّفهم مما يَعْرِض للكتابة من تغيير وتبديل أو نسخ وإزالة أو تحريف وتصحيف.

ومن هذه الأسباب: قيام كثير من الثورات والصراعات التي أفرزت وأسفرت عن كثير من الأحزاب المعارضة: كالشيعة، والخوارج، والزبيريين، وهذا أدى بلا شك إلى التحامل على بني أُمية[(٢)].

ثم إن هذه المعارضة وهذه الثورات أكلت كثيرًا من التراث المعارض لها وسط مظاهر الغضب الجامح، بل إن كثيرًا من هذه الوثائق السياسية الخاصة بالعصر الأموي كان قد لحقها الدمار حين تعرضت بعض الدواوين التي كانت تحفظ فيها

---

(١) «الدولة الأموية المفترى عليها» (ص ٤٥)، «الدولَة الأمويَّة: عَواملُ الازدهارِ وَتَداعيات الانهيار» (٢/ ٥٩٠). وانظر موقع بيان الإسلام: «الطعن في تاريخ بني أُمية».

(٢) «التاريخ الأموي والعباسي» (ص ١٠).

للحريق في أيام بني أمية، مثلما حدث في ديوان الكوفة الذي احترق بما كان يضمه من وثائق سنة ٨٢هـ إبان فتنة ابن الأشعث، ومثلما حدث لديوان الفسطاط الذي تعرَّض للحريق أيضًا في العصر الأموي.

وهكذا لم يبق، من مستندات الدولة الأموية إلا ما ندر من أوراق البردي أو بعض المسكوكات التي عُثِرَ عليها أخيرًا، وبعض النصوص الوثائقية التي حفظتها لنا كتب التاريخ المتأخرة، مثل: ابن سعد، والبلاذري، والقلقشندي، وغيرهم، ومن المؤكد أن ضياع هذه الآثار التاريخية عن دولة الأمويين قد أساء كثيرًا إلى تاريخهم حيث انفردت الكتابات المتأخرة، والتي تم معظمها في العصر العباسي، بالتأثير الأكبر والدور الأعظم في رسم صورة بني أمية، ومعروف عداء العباسيين للأمويين.

ومن الأسباب التي أدت إلى تشويه تاريخهم أيضًا: أن دولتهم قامت بعد دولة راقية وسامية ومثالية، وهي دولة الخلفاء الراشدين[1].

ومن الأسباب التي أدت إلى تشويه تاريخهم أيضًا: تأثير الحزبية السياسية والعصبية على عملية تدوين التاريخ، فقد شهد العصر الأموي تكوين عدد من التجمعات الإسلامية التي ناصبت الأمويين العداء: كالشيعة، والخوارج، والزبيريين، كما حدث ذلك أيضًا مع الموالي الفرس الذين اعتصموا بقوميتهم الفارسية وشكلوا جبهة مناوئة للأمويين في معظم فترات تاريخهم.

ومِن الأسباب التي أدت إلى تشويه تاريخهم أيضًا: ظهور الفرق المخالفة لهم فكريًّا، وبعضها نشأ متأخرًا نتيجة اجتهادات دينية وكلامية مثل المعتزلة، وكان

---

(١) «الدولة الأموية المفترى عليها» (ص ٥٤)، وانظر «تصحيح ما عُلق بالعقول تجاه دولة بني أُمية»، شبكة «أنا المسلم» للحوار الإسلامي.

موقف المعتزلة من الأمويين سافر العداء؛ إذ يعدونهم فاسقين وفاقدين للعدالة التي يجب توافرها في الخلفاء، وهم يعتبرون أن الفاسق في منزلة بين الإيمان والكفر وهو ما يعبرون عنه في أحد أصولهم الخمسة بالمنزلة بين المنزلتين ـ وهو على ذلك في النار، إذ لا توجد في الآخرة إلا الجنة والنار ـ(١).

ومن الأسباب أيضًا: أن تاريخ دولتهم كُتِبَ بعد ذهاب دولتهم، حيث برز كثير من المؤرخين الذين يدينون بأفكار تلك الاتجاهات المعادية للأمويين، وكان من الطبيعي أن تأتي كتاباتهم عنها متأثرة بذلك العداء... وكان للشيعة الدور الأبرز في ذلك المجال(٢).

ومن الأسباب التي أدت إلى تشويه تاريخهم أيضًا: أن دولتهم لم تقم نتيجة اتفاق سلمي بين المسلمين، بل قامت بعد صراع دام لفترات طويلة، سفكت فيه دماء كثيرة من دماء المسلمين، وتركت هذه الفتنة جراحات كثيرة يصعب أن تلتئم بيسر وسهولة (٣).

وبهذا نكون قد استعرضنا آراء المؤرخين في الدولة الأموية، وذكرنا أيضًا الأسباب التي أدت إلى تشويه تاريخ الدولة الأموية.

---

(١) «الدولَة الأمويَّة عَواملُ الازدهارِ وَتَداعيات الانهيار» (٢/ ٥٤٥)، وانظر موقع قصة الإسلام: «عوامل تحريف التاريخ الأموي».

(٢) «الدولة الأموية نموذجًا لتشويه التاريخ الإسلامي»، موقع طريق الإسلام.

(٣) «التاريخ الأموي والعباسي» (ص ١١).

المبحث الثاني

فتنة مقتل عثمان بن عفان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ، وبداية الخلاف

أولًا: نبذة حول سيرة عثمان بن عفان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ :

اسمه ونسبه ولقبه وكنيته:

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ابن قصي بن كلاب, ويلتقي نسبه بنسب رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ في عبد مناف، وكان يكنى في الجاهلية: أبا عمرو، فلما كان الإسلام ولد له من رقية بنت رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ غلام سماه عَبْد الله واكتنى به، فكناه المسلمون أَبَا عَبْد الله[(١)]. وكان عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ يلقب بذي النورين، وقد ذكر بدر الدين العيني[(٢)]، أنه قيل للمهلب بن أبي صفرة[(٣)]: «لم قيل لعثمان: ذو النورين؟» فقال: «لأنا لا نعلم أحدًا أرسل سترًا على بنتي نبي غيره»[(٤)].

تزوج عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ثماني زوجات كلهن بعد الإسلام، ومنهن: رقية بنت

---

(١) «الطبقات الكبرى» (٣/٣٩).

(٢) هو محمود بن أحمد بن موسى العيني، أبو محمد، من علماء التاريخ والحديث والفقه، له تآليف كثيرة، توفي ٨٥٥هـ، انظر: «شذرات الذهب» (٧/ ٢٨٦).

(٣) هو المهلب بن أبي صفرة الأزدي العقلي، من الأمراء الأبطال، غزا المهلب الهند في خلافة معاوية، وولي الجزيرة لابن الزبير، وحارب الخوارج في عهد عبد الملك بن مروان، ثم ولي خراسان من قبله سنة ٧٩هـ، وترجع شهرته إلى حرب الخوارج، توفي عام ٨٣هـ. انظر: «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» (٥ / ٣٥٠)، «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٣٨٣).

(٤) «عمدة القاري شرح صحيح البخاري» (١٦/ ٢٠١).

رسول الله ـ ﷺ ـ، وقد أنجبت له عبد الله بن عثمان، ثم تزوج أم كلثوم بنت رسول الله ـ ﷺ ـ بعد وفاة رقية [١].

صفته الخَلْقيَّة:

كان رجلًا ليس بالقصير ولا بالطويل، رقيق البشرة، كث اللحية عظيمها، عظيم الكراديس[٢]، عظيم ما بين المنكبين، كثير شعر الرأس[٣]، يصفِّر لحيته. وقال الزهري: «كان عثمان رجلًا مربوعًا، حسن الشعر، حسن الوجه، أصلع، أروح الرجلين[٤]، وأقنى[٥]، خدل الساقين[٦]، طويل الذراعين، قد كسا ذراعيه جعد الشعر، أحسن الناس ثغرًا، جُمَّته[٧] أسفل من أذنيه، حسن الوجه»[٨].

صفاته الخُلُقية ومكانته في الجاهلية:

كان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ في أيام الجاهلية من أفضل الناس في قومه، وكان عريض الجاه ثري، شديد الحياء، عذب الكلمات، فكان قومه يحبونه أشد الحب ويوقرونه. لم يسجد في الجاهلية لصنم قط، ولم يقترف فاحشة قط[٩]؛ فلم يشرب خمرًا قبل

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤٦٢/٢)، ويُروى أن رسول الله ﷺ قال" لَوْ كَانَتْ عِنْدَنَا ثَالِثَةٌ لَزَوَّجْنَاهَا عُثْمَانَ" وهو ضعيف.

(٢) الكراديس: جمع كردوس، وهو كل عظمين التقيا في مفصل. انظر: «المعجم الوسيط» (٤٥٥/٢).

(٣) أصابه الصلع بعد ذلك.

(٤) أروح الرجلين: منفرج ما بينهما. انظر: «لسان العرب» (١٢٢/١١).

(٥) أقنى: طويل الأنف مع دقة أرنبته، وحدب في وسطه. انظر: «المرجع السابق» (٣١٧/١١).

(٦) خدل الساقين: أي ضخم الساقين. انظر: «المعجم الوسيط» (٢٢١/١).

(٧) جمته: مجتمع شعر الرأس. انظر: «المرجع السابق» (١٠٥/١٢).

(٨) «تيسير الكريم المنان في سيرة عثمان بن عفان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ: شخصيته وعصره» (ص ١٤).

(٩) «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» (٦٠/١-٦١).

الإسلام وكان يقول: «إنها تُذْهب العقل»، والعقل أسمى ما منحه الله للإنسان، وعلى الإنسان أن يسمو به، لا أن يصارعه. وفي الجاهلية كذلك لم تجذبه أغاني الشباب، ولا حلقات اللهو، ثم إن عثمان كان يتعفف عن أن يرى عورة.

قال عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ : «ما تغنيت، ولا تمنيت[١]، و لا مسست ذكري بيمني منذ بايعت بها رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ ، ولا شربت خمرًا في جاهلية ولا إسلام، ولا زنيت في جاهلية ولا في إسلام»[٢]. غَالِب أَحْوَالِه الْكَرَم وَالْحَيَاء، وَالْحَذَر وَالرجاء، حَظّه مِنَ النهَار الْجُود وَالصِيَام، وَمِنَ اللَّيْلِ السجُودُ وَالْقِيَام، مُبَشَّر بِالْبَلْوَى، وَمُنَعَّم بِالنَّجْوَى.

عَنْ عَلِيِّ بْنِ رَبَاحٍ، أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ، قَالَ: «ثَلاثَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ أَصْبَحُ النَّاسِ وُجُوها، وَأَحْسَنُهَا أَخْلاقًا، وَأَثْبَتُهَا حَيَاءً، إِنْ حَدَّثُوكَ لَمْ يَكْذِبُوكَ، وَإِنْ حَدَّثْتَهُمْ لَمْ يُكَذِّبُوكَ: أَبُو بَكْرٍ الصِدِيقُ، وَعُثْمَانُ بْن عَفَّانَ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ».

وَعَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ التَّيْمِي، قَالَ: قَالَ أَبِي: «لأَغْلِبَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى الْمَقَامِ، قَالَ: فَلَمَّا صَلَّيْت الْعَتَمَة تَخَلَّصْت إِلَى الْمَقَامِ حَتَّى قُمْت فِيهِ، قَالَ: فَبَيْنَمَا أَنَا قَائِم إِذَا رَجل وَضَعَ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ، فَإِذَا هُوَ عُثْمَان بْن عَفَّانَ، قَالَ: فَبَدَأَ بِأُمِّ الْقُرْآنِ فقَرَأَ حَتَّى خَتَمَ الْقُرْآنَ، فَرَكَعَ وَسَجَدَ ثُم أَخَذَ نَعْلَيْهِ، فَلَا أَدْرِي أَصَلَّى قَبْلَ ذَلِكَ شيئًا أَمْ لَا؟». وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ، قَالَ: قَالَتِ امْرَأَةُ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ حِينَ أَطَافُوا بِهِ يُرِيدُونَ قَتلَهُ: «إِنْ تَقْتُلُوهُ أَوْ تَتْرُكُوهُ فَإِنَّهُ كَانَ يُحْيِي اللَّيْلَ كُلَّهُ فِي رَكْعَةٍ يَجْمَعُ فِيهَا الْقُرْآنَ»[٣]. وكان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ على علم بمعارف العرب في الجاهلية، ومنها: الأنساب،

---

(١) أي كذبت، التمني التكذب.

(٢) «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» (١/ ٥٤).

(٣) «المصدر السابق» (١/ ٥٦)، وانظر: «البداية والنهاية» (٧/ ٢١٥).

والأمثال، وأخبار الأيام، وساح في الأرض فرحل إلى الشام والحبشة، وعاشر أقوامًا غير العرب، فعرف من أحوالهم وأطوارهم ما ليس يعرفه غيره. واهتم بتجارته التي ورثها عن والده، ونمت ثرواته, وأصبح يعد من رجالات بني أمية الذين لهم مكانة في قريش كلها، فقد كان المجتمع المكي الجاهلي الذي عاش فيه عثمان يقدر الرجال حسب أموالهم، ويهاب فيه الرجال حسب أولادهم وإخوتهم ثم عشيرتهم وقومهم، فنال عثمان مكانة مرموقة في قومه، ومحبة كبيرة(١).

ومن أطرف ما يروى عن حب الناس لعثمان؛ لما تَجَمَّع فيه من صفات الخير: أن المرأة العربية في عصره كانت تغني لطفلها أغنية تحمل تقدير الناس له وثناءهم عليه، فقد كانت تقول: «أحبك والرحمن... حبَّ قريش لعثمان»(٢).

هجرته إلى الحبشة:

وفي بداية أمر الدعوة إلى الإسلام كان الأمر صعبًا وشديدًا، فلقد وقفت قريش برجالها حجر عثرة أمام هذه الدعوة الوليدة، وفي هذه المرحلة اشتد الإيذاء بالمسلمين جميعًا، وتجاوز الحد حيث قتل ياسر وزوجته سمية، والنبي - ﷺ - يتألم أشد الألم، إلى أين يذهب المسلمون؟ ثم أرشدهم رسول الله - ﷺ - إلى الحبشة حيث قال للمسلمين: **«لَوْ خَرَجْتُمْ إِلَى الْحَبَشَةِ، فَإِنَّ بِهَا مَلِكًا صَالِحًا لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ»**. وبدأت الهجرة والنبي - ﷺ - يتألم، وهو يرى الفئة المؤمنة تتسلل سرًّا خارجة من مكة، ويركبون البحر، وخرج يمتطي بعضهم الدواب، والبعض الآخر يسير على الأقدام، وتابعوا السير حتى وصلوا ساحل البحر

(١) «تيسير الكريم المنان في سيرة عثمان بن عفان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -» (ص ١٧). نقلًا عن «عبقرية عثمان» للعقاد.
(٢) «موسوعة التاريخ الإسلامي» (٦١٨/١).

الأحمر، ثم أمَّروا عليهم عثمان بن مظعون(١)، وقدَّر الله لهم أن يجدوا سفينتين فركبوا، وكان ممَن هاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الأولى والهجرة الثانية عثمان بن عفان ومعه فيهما امرأته رقية بنت رسول الله ـ ﷺ ـ، وَقَالَ رَسُول الله ـ ﷺ ـ: **«إِنَّهُمَا لأَوَّلُ مَنْ هَاجَرَ إِلَى اللَّهِ بَعْدَ لُوطٍ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ»**(٢).

وكان وصولهم للحبشة في شهر رجب من السنة الخامسة من البعثة، فوجدوا الأمن والأمان وحرية العبادة، وقد تحدث القرآن الكريم عن هجرة المسلمين الأوائل إلى أرض الحبشة، قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤١].

عثمان ـ رضي الله عنه ـ من المبشرين بالجنة:

كان عثمان ـ رضي الله عنه ـ أحد العشرة الذين شهد لهم رسول الله ـ ﷺ ـ بالجنة وقال ـ ﷺ ـ: « **أبو بكرٍ في الجنَّةِ، وعمرُ في الجنَّةِ، وعليٌّ في الجنَّةِ، وعثمانُ في الجنَّةِ، وطَلحةُ في الجنَّةِ، والزُّبَيرُ بنُ العوَّامِ في الجنَّةِ، وعبدُ الرَّحمنِ بنُ عوفٍ في الجنَّةِ، وسعدُ بنُ أبي وقَّاصٍ في الجنَّةِ، وسَعيدُ بنُ زيدِ بنِ عمرو بنِ نُفَيلٍ في الجنَّةِ، وأبو عُبَيدةَ بنُ الجرَّاحِ في الجنَّةِ**»(٣). وعن سعيد بن زيد أن رجلًا قال له: أحببت عليًا حبًا لم أحبه شيئًا قط. قال: «**أحسنت، أحببت رجلًا من أهل الجنة**». قال: «وأبغضت عثمان بغضًا لم أبغضه شيئًا قط»، قال: «**أسأت، أبغضت رجلًا من أهل الجنة**»، ثم أنشأ يحدث قال: بينما رسول الله ـ ﷺ ـ على حراء ومعه أبو بكر وعمر، وعثمان وعلي، وطلحة والزبير ـ

---

(١) «الطبقات» (١/ ٢٠٤).

(٢) «التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان» (ص ٢١). والحديث ضعفه بعض العلماء.

(٣) رواه أبو داود في كتاب السنة، باب: في الخلفاء (٤٦٤٨)، وابن ماجه في المقدمة، باب: فضائل أصحاب رسول الله ـ ☺ ـ. وصححه الألباني.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ ، قال: **«اثْبُتْ حِرَاءُ ما عليك إلا نبيٌّ أو صدِّيق أو شهيد»**(١)، وعن أنس قال: صعد النبي ـ ﷺ ـ أُحدًا ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فرجف الجبل، فقال: **«اثبت أُحد، فإنما عليك نبيٌّ وصدِّيق وشهيدان»**(٢).

اختصاصه بكتابة الوحي:

عن فاطمة بنت عبد الرحمن عن أمها أنها سألت عائشة وأرسلها عمها فقال: إن أحد بنيك يقرئك السلام ويسألك عن عثمان بن عفان، فإن الناس قد شتموه! فقالت: لعن الله من لعنه، فوالله لقد كان عند نبي الله ـ ﷺ ـ وإن رسول الله ـ ﷺ ـ لمسند ظهره إليَّ، وإن جبريل ليوحي إليه القرآن، وإنه ليقول له: اكتب يا عثيم، فما كان الله لينزل تلك المنزلة إلا كريمًا على الله ورسوله(٣). وعن جعفر ابن محمد عن أبيه قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا جلس، جلس أبو بكر عن يمينه، وعمر عن يساره، وعثمان بين يديه، وكان كَاتب سر رسول الله ـ ﷺ ـ(٤).

ثانيًا: استخلاف عثمان بن عفان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ :

لا شك أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ حافظ على وحدة الأمة ومستقبلها حتى اللحظات الأخيرة من حياته، رغم ما كان يعانيه من آلام جراحاته البالغة، وقد استطاع الفاروق في تلك اللحظات الحرجة أن يبتكر طريقة

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٤٨) في كتاب السنة، باب: في الخلفاء، والترمذي في كتاب المناقب، باب: ٢٧، وابن ماجه في المقدمة باب: في فضائل أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ. وأهم فضائل الصحابة (٢٣٠) وصححه الألباني.

(٢) رواه البخاري (٤٦٦) في كتاب فضائل الصحابة، باب: قول النبي ـ ﷺ ـ: **«لو كنت متخذًا خليلًا»**، وأبو داود في كتاب السنة، باب: في الخلفاء.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده باب: فضائل الصحابة، والحاكم في مستدركه.

(٤) «عثمان بن عفان ذو النورين» (ص ٢٨).

جديدة في اختيار الخليفة للمسلمين، كانت هذه الطريقة دليلًا ملموسًا, ومعلمًا واضحًا على فقهه في سياسة الدولة الإسلامية.

لقد مضى قبله الرسول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ولم يستخلف بعده أحدًا بنص صريح، ولقد مضى أبو بكر الصديق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - واستخلف الفاروق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بعد مشاورة كبار الصحابة، ولما طُلب من الفاروق أن يستخلف وهو على فراش الموت، فكَّر في الأمر مليًّا وقرر أن يسلك مسلكًا آخر يتناسب مع المقام؛ فرسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ترك الناس وكلهم مُقِرٌّ بأفضلية أبي بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وأسبقيته عليهم، فاحتمال الخلاف كان نادرًا وخصوصًا أن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وجَّه الأمة قولًا وفعلًا إلى أن أبا بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أولى بالأمر من بعده، والصديق لما استخلف عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - كان يعلم أن عند الصحابة أجمعين قناعة بأن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أقوى وأفضل مَن يحمل المسئولية بعده، فاستخلفه بعد مشاورة كبار الصحابة ولم يخالف رأيه أحد منهم، وحصل الإجماع على بيعة عمر(١).

وأما طريقة انتخاب الخليفة الجديد فتعتمد على جعل الشورى في عدد محصور، وهم ستة من صحابة رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كلهم يصلحون لتولي الأمر، وهم: علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - جميعًا. وجميعهم من المهاجرين، أي قرشيين، من أوائل الصحابة، وتوفي النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وهو راضٍ عنهم، وهم مِن بين العشرة المبشرين بالجنة، ويمثِّلون مراكز القوى في المدينة من حيث النفوذ، والقدرة والشهرة؛ بدليل وصف عمر لهم بأنهم: «رؤساء الناس

(١) «تاريخ الخلفاء» (١/ ١١٧).

وقادتهم»(١)، وكان عمر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ حريصًا على إبعاد الإمارة عن أقاربه، مع أن فيهم مَن هو أهل لها(٢).

وحدد لهم عمر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ، طريقة الانتخاب ومدته، وعدد الأصوات الكافية لانتخاب الخليفة، وحدد الحكم في المجلس، والمرجح إن تعادلت الأصوات(٣)؛ فلقد أمرهم أن يجتمعوا في بيت أحدهم ويتشاوروا وفيهم عبد الله بن عمر يحضر معهم مشيرًا فقط، وليس له من الأمر شيء، ويصلي بالناس أثناء التشاور صهيب الرومي، وقال له: أنت أمير الصلاة في هذه الأيام الثلاثة حتى لا يولي إمامةَ الصلاة أحدًا من الستة فيصبح هذا ترشيحًا من عمر له بالخلافة، وهذه المدة حددها الفاروق ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ بثلاثة أيام وهي فترة كافية وإن زادوا عليها فمعنى ذلك أن شقة الخلاف ستتسع؛ ولذلك قال لهم: «لا يأتي اليوم الرابع إلا وعليكم أمير».

وأمر بمجموعة من الصحابة لمراقبة سير الانتخابات في المجلس، وعقاب من يخالف أمر الجماعة، ومنع الفوضى بحيث لا يسمحون لأحد أن يدخل أو يسمع ما يدور في مجلس أهل الحل والعقد، فلقد طلب عمرُ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ أبا طلحة الأنصاري ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ، وقال له: «يا أبا طلحة، إن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أعز الإسلام بكم، فاختر خمسين رجلًا من الأنصار، فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلًا منهم». وقال للمقداد بن الأسود: «إذا وضعتموني في حفرتي، فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلًا منهم»(٤).

---

(١) «تاريخ الخلفاء الراشدين، الفتوحات والإنجازات السياسية» (ص ٣٦٦).
(٢) «الحضارة الإسلامية» (ص ١٥٤).
(٣) «البداية والنهاية» (٧/ ١٦٥).
(٤) «التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان» (ص ٢٦).

ولقد أوصى بالتحاكم إلى عبد الله بن عمر حال الاختلاف؛ فلقد أوصى بأن يحضر عبد الله بن عمر معهم في المجلس، وأن ليس له من الأمر شيء، ولكن قال لهم: «فإن رضي ثلاثةٌ رجلًا منهم، وثلاثة رجلًا منهم؛ فَحَكِّمُوا عبد الله بن عمر، فأي الفريقين حكم له فليختاروا رجلًا منهم، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف»، ووصف عبد الرحمن بن عوف بأنه «مسدد رشيد، له من الله حافظ، فاسمعوا منه»(١). وعندما اجتمع أهل الشورى قال لهم عبد الرحمن بن عوف: «اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم، فقال الزبير: جعلت أمري إلى علي، وقال طلحة: جعلت أمري إلى عثمان، وقال سعد: جعلت أمري إلى عبد الرحمن بن عوف، وأصبح المُرَشَّحُون الثلاثة: علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، فقال عبد الرحمن: أَيُّكُمَا تَبَرَّأَ مِنْ هَذَا الأَمْرِ(٢)، فَنَجْعَلُهُ إِلَيْهِ وَاللَّهُ عَلَيْهِ وَالإِسْلاَمُ، لَيَنْظُرَنَّ أَفْضَلَهُمْ فِي نَفْسِهِ؟ فَأُسْكِتَ الشَّيْخَانِ، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: أَفَتَجْعَلُونَهُ إِلَيَّ وَاللَّهُ عَلَيَّ أَنْ لاَ آلُ عَنْ أَفْضَلِكُمْ قَالاَ: نَعَمْ »(٣).

وبدأ عبد الرحمن بن عوف ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ اتصالاته ومشاوراته فور انتهاء اجتماع المرشحين الستة صباح يوم الأحد(٤)، وقد تنازل هو أيضًا عن منصب الخلافة، واستمرت مشاوراته واتصالاته ثلاثة أيام كاملة، حتى فجر يوم الأربعاء الرابع من محرم، وهو موعد انتهاء المهلة التي حددها لهم عمر، وبدأ عبد الرحمن بعلي بن أبي

(١) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/ ٣٢٥).

(٢) أي: أيكما يتبرأ من أمر الخلافة ونجعل الاختيار بين الاثنين المتبقين.

(٣) صحيح البخاري: «بَابُ قِصَّةِ البَيْعَةِ، وَالِاتِّفَاقِ عَلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ وَفِيهِ مَقْتَلُ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ » (١٥/١).

(٤) أقرب الأقوال أن مقتل عمر رضي الله عنه كان يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة، عام ٢٣هـ، ودفن يوم الأحد غرة المحرم، عام ٢٤هـ، وبعد ثلاثة أيام بويع لعثمان.

طالب فقال له: إن لم أبايعك فأشر عليَّ، فمن ترشح للخلافة؟ قال علي: عثمان بن عفان، وذهب عبد الرحمن إلى عثمان وقال له: إن لم أبايعك، فمن تُرَشِّحُ للخلافة؟ فقال عثمان: علي بن أبي طالب، وذهب ابن عوف بعد ذلك إلى الصحابة الآخرين واستشارهم، وكان يشاور كل من يلقاه في المدينة من كبار الصحابة وأشرافهم، ومن أمراء الأجناد، ومن يأتي للمدينة، وشملت مشاورته النساء في خدورهن، وقد أبدين رأيهن، كما شملت الصبيان والعبيد في المدينة، وكانت نتيجة مشاورات عبد الرحمن بن عوف أن معظم المسلمين كانوا يشيرون بعثمان بن عفان، ومنهم من كان يشير بعلي بن أبي طالب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -.

وفي ليلة الأربعاء، ذهب عبد الرحمن بن عوف إلى بيت ابن أخته: المسور بن مخرمة، فطرق البيت، فوجد المسور نائمًا، فضرب الباب حتى استيقظ فقال: «أراك نائمًا، فوالله ما اكتحلت هذه الليلة بكبير نوم، انطلق فادع الزبير وسعدًا»، قال المسور: «فدعوتهما له، فشاورهما ثم دعاني فقال: ادع لي عليًّا، فدعوته فناجاه حتى ابهارَّ[1] الليل، ثم قام علي من عنده ثم قال: ادع لي عثمان فدعوته فناجاه حتى فرق بينهما المؤذن بالصبح». وفي رواية: «فَأَخَذَ بِيَدِ علي ابن أبي طالب فَقَالَ: لَكَ قَرَابَةٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَالقَدَمُ فِي الإِسْلَامِ مَا قَدْ عَلِمْتَ، فَاللَّهُ عَلَيْكَ لَئِنْ أَمَّرْتُكَ لَتَعْدِلَنَّ، وَلَئِنْ أَمَّرْتُ عُثْمَانَ لَتَسْمَعَنَّ، وَلَتُطِيعَنَّ»، ثُمَّ خَلَا بِالْآخَرِ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ[2].

---

(١) أي انتصف الليل. «المعجم الوسيط، باب الباء» (١/ ٧٣).

(٢) «التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان» (ص ٣٥).

وبعد صلاة صبح يوم البيعة، وكان صهيب الرومي الإمام [١]؛ إذ أقبل عبد الرحمن بن عوف، وقد اعْتَمَّ بالعمامة التي عممه بها رسول الله ـ ﷺ ـ, وكان قد اجتمع رجال الشورى عند المنبر، أرسل إلى مَن كان حاضرًا من المهاجرين والأنصار وأمراء الأجناد، منهم: معاوية أمير الشام، وعمير بن سعد أمير حمص، وعمرو بن العاص أمير مصر، وكانوا وافوا تلك الحجة مع عمر وصاحبوه إلى المدينة، فلما اجتمعوا تشهد عبد الرحمن ثم قال: «أما بعد، يا علي إني قد نظرت في أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان، فلا تجعلن على نفسك سبيلًا، فقال: أبايعك على سنة الله ورسوله والخليفتين من بعده»، فبايعه عبد الرحمن وبايعه الناس؛ المهاجرون والأنصار، وأمراء الأجناد والمسلمون[٢]، وجاء في رواية صاحب «التمهيد والبيان» أن علي بن أبي طالب أول مَن بايع بعد عبد الرحمن بن عوف[٣].

ثالثًا: منهج عثمان بن عفان ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ في الحكم:

تولى الخلافة أمير المؤمنين عثمان ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ، وحاول بكل سبيل أن يحافظ على كيان الأمة وألا يفرق شملها، واجتهد في الحفاظ على ما ورثه من الخليفتين أبي بكر وعمر ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ـ ، وعندما بويع عثمان ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ بالخلافة قام في الناس خطيبًا فأعلن عن منهجه السياسي، مبينًا أنه سيتقيد بالكتاب والسُّنَّة وسيرة

---

(١) لَمَّا مَاتَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأُحْضِرَتْ جِنَازَتُهُ تَبَادَرَ إِلَيْهَا عَلِيٌّ وَعُثْمَانُ أَيُّهُمَا يُصَلِّي عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُمَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: لَسْتُمَا مِنْ هذا في شئ، إِنَّمَا هَذَا إِلَى صُهَيْبٍ الَّذِي أَمَرَهُ عُمَرُ أَنْ يُصَلِّيَ بالنَّاس. فَتَقَدَّمَ صُهَيْبٌ وَصَلَّى عَلَيْهِ. ابن كثير: البداية والنهاية،(١٦٣/٧).

(٢) صحيح البخاري «كتاب الأحكام» (٧٢٠٧).

(٣) «التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان» (ص ٢٧).

الشيخين، كما أشار في خطبته إلى أنه سيسوس الناس بالحلم والحكمة إلا فيما استوجبوه من الحدود، ثم حذرهم من الركون إلى الدنيا والتنافس عليها.

فقال في خطبته: «أما بعد، فإني كلفت وقد قبلت، ألا وإني متبع ولست بمبتدع، ألا وإن لكم عليَّ بعد كتاب الله وسنة نبيه ـ ﷺ ـ ثلاثًا: اتباع مَن كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وسننتم، وسن أهل الخير فيما تسنوا عن ملأ، والكف عنكم إلا فيما استوجبتم العقوبة. وإن الدنيا خضرة وقد شهيت إلى الناس، ومال إليها كثير منهم، فلا تركنوا إلى الدنيا ولا تثقوا بها فإنها ليست بثقة، واعلموا أنها غير تاركة إلا مَن تركها»[١].

كُتُب عثمان إلى عماله وولاته وأمراء الجند وعامة الناس:

ثم أخذ عثمان يراسل الولاة والأمراء والجند وعامة الناس، يُذكرهم وينصحهم ويوضح لهم طريقة سياسته ومنهجه الذي سيسير عليه، فكان مما قال: «فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة، وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة، لم يخلقوا جباة، ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين فيما عليهم فتعطوهم ما لهم، وتأخذوهم بما عليهم، ثم تثنوا بالذمة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم، ثم العدو الذي تنتابون، فاستفتحوا عليهم بالوفاء»[٢].

وراسل الأجناد في الأقاليم ومِن أقواله لهم: «فإنكم حماة المسلمين وسادتهم، وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا، بل كان على ملأ منا، ولا يبلغني عن أحد منكم

---

(١) «تاريخ الرسل والملوك» (٤/٤٢٢).
(٢) «المصدر السابق» (٤/٣٩٦).

تغيير ولا تبديل فيغير الله بكم، ويستبدل بكم غيركم، فانظروا كيف تكونون؛ فإني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه»[١].

وراسل العامة فقال: «أما بعد، فإنكم إنما بلغتم بالاقتداء والاتباع فلا تلفتنكم الدنيا عن أمركم، فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم: تكامل النعم، وبلوغ أولادكم من السبايا، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن، فإن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: **«الكفر في العجمة، فإذا استعجم عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا»**[٢].

وَرَاسَلَ عمال الخراج فقال لهم: «فإن الله خلق بالحق، فلا يقبل إلا الحق، خذوا الحق وأعطوا الحق به، والأمانة الأمانة، قوموا عليها، ولا تكونوا أول مَن يسلبها؛ فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم، والوفاء الوفاء، لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد؛ فإن الله خصم لِمَنْ ظلمهم[٣].

هذا وقد أعلن عثمان ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ المرجعية العليًّا للدولة، فقد قال: «ألا وإني متبع ولست بمبتدع، ألا وإن لكم عليَّ بعد كتاب الله وسنة نبيه ـ ﷺ ـ ، ثلاثًا: اتباع من كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وسننتم...». وقد أكد عثمان ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ حق الأمة في محاسبة الخليفة في قوله: «إن وجدتم في كتاب الله أن تضعوا رِجْلِي في القيد فضعوا رِجْلِي في القيد»[٤].

---

(١) «المصدر نفسه» (٤/٣٩٧)، وانظر: «الخلفاء الراشدون: مواقف وعبر» (ص ٦٢٧).

(٢) هذا الحديث لم أجده في كتب السُّنَّة المعتمدة، وقد ذكره الطبري في تاريخ الرسل والملوك،(٤/٣٩٨). ومعناه؛ أن غير العربي الذي لم يتقن العربية ربما تمر عليه نصوص الوحي فلا يتبين معناها، ويؤولها أو يفسرها تفسيرًا باطلًا؛ والعجمة هي عدم وضوح الشيء.

(٣) «تاريخ الرسل والملوك» (٤/٤٠٠).

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٨٧٣٧). وانظر: «تيسير الكريم المنان في سيرة عثمان بن عفان ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ» (ص ٨٤).

قواعد الدولة الإسلامية التي اعتمدها عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ :

من القواعد التي اعتمدها عثمان في إداراته للدولة، مبدأ الشورى:

وقد اتخذ عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ في دولته مجلسًا للشورى يتألف من كبار أصحاب رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ من المهاجرين والأنصار، وقد طلب عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ من العمال والقادة قائلًا: «أما بعد، فقوموا على ما فارقتم عليه عمر ولا تبدلوا، ومهما أُشْكِلَ عليكم فردوه إلينا نجمع عليه الأمة ثم نرده عليكم»، فأخذ قادته بذلك، فكانوا إذا هَمُّوا بالغزو والتقدم في الفتوحات الإسلامية استأذنوه واستشاروه، فيقوم هو بدوره بجمع الصحابة واستشارتهم للإعداد والإقرار، والتنفيذ ووضع الخطط المناسبة لذلك[١].

ومن القواعد العامة في الدولة: «العدل والمساواة»:

فقد كتب ذو النورين إلى الناس في الأمصار: «أن ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، ولا يذل المؤمن نفسه، فإني مع الضعيف على القوي ما دام مظلومًا ـ إن شاء الله ـ». فقد كانت سياسته تقوم على العدل بأسمى صوره؛ فقد أقام الحد على والي الكوفة الوليد بن عقبة (أخيه لأمه) عندما شهد عليه الشهود بأنه شرب الخمر[٢].

رابعًا: جمع المصحف والفتوحات:

١ ـ جمع القرآن الكريم في عهد عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ :

عن أنس بن مالك ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ : «أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة

---

(١) «المصدر نفسه» (٤/٤١١).

(٢) «تاريخ الرسل والملوك» (٤/٤١٤). وانظر: «تيسير الكريم المنان في سيرة عثمان بن عفان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ» (ص ٨٥-٨٧)، نقلًا عن «نظام الحكم في عهد الخلفاء الراشدين» (ص ١٤٩).

اختلافهم في القراءة[١]، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أَدْرِكْ هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف، رد عثمان الصحف إلى حفصة، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق»[٢].

وقد اتفقت كلمة الأمة اتفاقًا تامًّا على أن ما في تلك الصحف هو القرآن كما تلقته عن النبي ـ ﷺ ـ في آخر عرضة على أمين الوحي جبريل ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ، وأن تلك الصحف ظلت في رعاية الخليفة الأول أبي بكر الصديق، ثم انتقلت بعده إلى رعاية الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، ثم لما عرف عمر حضور أجله ولم يولِّ عهده أحدًا معينًا في خلافة المسلمين، أوصى بحفظ الصحف عند ابنته حفصة أم المؤمنين ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ[٣]، وأن عثمان اعتمد في جمعه على تلك الصحف، وفي بعض

(١) اختلفوا في القراءات واللهجات، فبعضهم يقرأ بقراءة أبي بن كعب، وبعضهم يقرأ بقراءة ابن مسعود، وبعضهم يأخذ بمصحف عائشة، واختلفوا فيما بينهم. وسيأتي مزيد بيان حول هذه المسألة.

(٢) البخاري «كتاب فضائل القرآن» (٤٩٨٧) وانظر: «عثمان بن عفان ذو النورين» (ص ٩١).

(٣) «فتنة مقتل عثمان بن عفان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ» (١/٣٦٦).

الروايات أن الذين أمرهم عثمان أن يكتبوا من الصحف اثنا عشر رجلًا، فيهم أبي بن كعب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، وآخرون من قريش والأنصار(١).

قال القرطبي في التفسير: «وكان هذا من عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بعد أن جمع المهاجرين والأنصار وجلة أهل الإسلام وشاورهم في ذلك، فاتفقوا على جمعه بما صح وثبت من القراءة المشهورة عن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - واطراح ما سواها، واستصوبوا رأيه، وكان رأيًا سديدًا موفقًا(٢).

٢ - الفتوحات في عهد عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - :

اتسعت رقعة الدولة الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، بفتح أراضي الإمبراطورية الفارسية، والأراضي البيزنطية في بلاد الشام، ومصر وجزء من شمالي إفريقية، وأصبحت هذه المناطق تحت الحكم الإسلامي، ولم تتوقف سلسلة هذه الفتوح في عهد عثمان، وقد عمل عثمان على توطيد نفوذ المسلمين في كثير من البلاد التي تم فتحها من قبل(٣).

وعمل المسلمون على توطيد نفوذهم من جديد في بعض المدن الفارسية التي ثارت ضد الحكم الإسلامي؛ ذلك لأن المسلمين لم يكونوا قد استقروا بها استقرارًا تامًّا؛ لاسيما في مناطق الأطراف والحدود، ولم يوطدوا حكمهم فيها فكانوا ينطلقون من الكوفة أو البصرة للفتح، ثم يعودون إليها بعد أن يعقدوا الصلح مع السكان المحليين، وتصدى المسلمون لهذه الثورات على حكمهم، وتمكنوا من إخمادها.

(١) المرجع السابق،(١/٣٦٨).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١/٥٢).

(٣) «تاريخ الخلفاء الراشدين الفتوحات والإنجازات السياسية» (١/ ٣٧٧).

وثبتوا أقدامهم في المناطق الثائرة، مثل: همذان(١)، وأذربيجان(٢)، والري(٣)، واصطخر(٤)، وطبرستان(٥)، وجرجان(٦)، وخراسان(٧)، وكرمان(٨)، وفي عام (٢٥هـ/ ٦٤٥م) أعاد المسلمون فتح مدينة الإسكندرية في عهد ولاية عبد الله

---

(١) هَمِدان أو همذان: مدينة إيرانية وعاصمة محافظة همدان، وتعرف أيضًا باسم أكبتانا، وذكر السيوطي في كتابه «تاريخ الخلفاء»: أن المسلمين سيطروا عليها في زمن عمر بن الخطاب عام ٢٢ للهجرة. انظر: «البلدان» (١/ ٧٧)، «معجم البلدان» (٥/ ٤١٠).

(٢) أذربيجان: واحدة من ست دول تركية مستقلة في منطقة القوقاز في أوراسيا، تقع في مفترق الطرق بين أوروبا الشرقية وآسيا الغربية، ويحدها بحر قزوين إلى الشرق، وروسيا من الشمال، وجورجيا إلى الشمال الغربي وأرمينيا إلى الغرب، وإيران في الجنوب. انظر: «معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع» (١/ ١٢٩).

(٣) الري: مدينة تاريخية تقع بالقرب من طهران في إيران، كما ينسب إليها عدد من علماء المسلمين، ومنهم: فخر الدين الرازي صاحب تفسير مفاتيح الغيب, والكيميائي محمد بن زكريا الرازي. انظر: «معجم البلدان» (٣/ ١١٦).

(٤) اصطخر: مدينة قديمة تقع في جنوب إيران في محافظة فارس. انظر: «حدود العالم من المشرق إلى المغرب» (ص ١٤٤).

(٥) طبرِستان (بفتح الطاء والباء وكسر الراء): إقليم عرفه العرب والفرس باسمه منذ القرون القديمة، وهو يَقع في شمال دولة إيران اليوم ويَمتد في مُعظمه على الساحل الجنوبي لبحر قزوين. انظر: «معجم البلدان» (٤/ ١٣).

(٦) جرجان: أو بالفارسية: گرگان وكانت قديمًا تسمّى أستراباذ أو أستراباد، وهي إحدى المدن الشهيرة في إيران، وتقع في شمالي إيران. انظر: «معجم البلدان» (٢/ ١١٩).

(٧) خراسان الكبرى: تعرف باللغة الفارسية خراسان بزرگ وهي منطقة جغرافية واسعة. من الناحية التاريخية: يشمل إقليم «خراسان الإسلامي» شمال غرب أفغانستان، مثل: مدينة حيرات، وأجزاء من جنوب تركمانستان، إضافة لمقاطعة خراسان الحالية في إيران. انظر: «معجم البلدان» (٢/ ٣٥٠).

(٨) كرمان: مدينة إيرانية تقع وسط البلاد في محافظة كرمان. وهذه المدينة من أهم المدن في إيران، وتعتبر هذه المدينة ثامن مدينة من حيث المساحة في إيران. وكرمان من المدن التاريخية والثقافية في إيران. انظر: «معجم البلدان» (٤/ ٤٥٤).

ابن سعد بن أبي سرح، بعد أن هاجمها البيزنطيون انطلاقًا من جزيرة رودس[١] بهدف استعادتها، كما نجح ولاته في ضم مناطق جديدة إلى حوزة الدولة الإسلامية، ففي سنة٢٤هـ - ٦٤٥م، جرى غزو «أذربيجان» و«أرمينية»[٢] للمرة الثانية على يد الوليد بن عقبة بعد أن امتنع أهلها عن دفع ما كانوا قد صالحوا المسلمين عليه، وفي نفس العام وصل معاوية بن أبي سفيان إلى الشام لصد الروم التي تحركت لغزو الشام واستعادتها من المسلمين، فأرسل جيشًا من أهل الكوفة بقيادة سلمان بن ربيعة الباهلي في ثمانية آلاف رجل، وتولى قيادة جيش الشام حبيب بن مسلمة الفهري، فشنوا الغارات على الروم، وانتصروا عليهم[٣].

وتوالت الفتوحات الإسلامية، فعاود معاوية بن أبي سفيان غزو الروم، وتوغل في أرضهم حتى وصل «عمورية»، وكان معاوية يهدف من وراء ذلك إلى شغل الروم بالدفاع عن الأقاليم المُتَاخِمَة للقسطنطينية فيسهل عليه فتح ما تبقى لهم من قلاع وحصون على ساحل الشام، وقد نجح في ذلك ففتح قنسرين وغيرها. وفي الشرق بلغ «عثمان بن عبد الله» أرض كابل (أفغانستان الحالية). وفي سنة (٢٧هـ-٦٤٨م) جهز الخليفة جيشًا لفتح إفريقية (تونس حاليًّا)، وفي العام التالي أمد

---

(١) جزيرة رودس: جزيرة يونانية في البحر الأبيض المتوسط، تقع بالقرب من الساحل الجنوبي لتركيا، في منتصف المسافة بين جزر اليونان الرئيسية وقبرص، وتعد رودس أبعد الجزر الشرقية بالنسبة لليونان. ورودس: جزيرة مقابل الإسكندرية على ليلة منها في البحر، وهي أوّل بلاد أفرنجة. انظر: «معجم البلدان» (٢/٢٢٨).

(٢) أرمينيا: بلد جبلي غير ساحلي يقع في القوقاز من أوراسيا، تحدها تركيا من الغرب، وجورجيا من الشمال، وأذربيجان في الشرق، أما من الجنوب فتحدها إيران ومكتنف ناخيتشيفان الأذربيجاني. انظر: «خريطة العالم الجغرافية».

(٣) «تاريخ الرسل والملوك» (٤/٥٢٥).

الخليفة جيش الفتح بقوات جديدة في مقدمتها عدد من أعلام الصحابة كعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، والذين قد عرفوا بالعبادلة، وانتصر جيش المسلمين على الجيش البيزنطي وسميت هذه الواقعة بغزوة «العبادلة»، وفيها قتل القائد البيزنطي جُرْجير على يد عبد الله ابن الزبير، وسيطر المسلمون على أرض تونس سنة ٢٧هـ. وفي سنة (٢٨هـ- ٦٤٩م) عمل معاوية - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - على وضع النواة الأولى للأسطول الإسلامي، فاستأذن الخليفة في ذلك، فأذن له فبدأ يعمل على إنشاء هذا الأسطول [1].

كذلك سلك نفس المسلك عبد الله بن سعد بن أبي سرح والي مصر، ولَمَّا أتم معاوية تجهيز أول أسطول إسلامي، اتجه به إلى غزو قبرص حيث كانت تعد محطة تموين للأسطول البيزنطي في البحر المتوسط، وهو الذي اعتاد مهاجمة الشواطئ الإسلامية، وتم لمعاوية فتحها سنة (٢٨هـ - ٦٤٩م)[2].

ذات الصواري: عام (٣١هـ-٦٥١م)

ولما بلغ هرقل إمبراطور الروم خبر استيلاء العرب على بلاده في إفريقية؛ جهز أسطولًا كبيرًا مؤلفًا من ٦٠٠ مركب، واتجه به من القسطنطينية في البحر إلى ناحية تونس هادفًا إلى القضاء على البحرية الإسلامية الناشئة، فخرج إلى الأسطول الإسلامي بِشِقَّيْه الشامي والمصري بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح، والتقوا

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل(٤/٢٨٨)، وانظر طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين الفتوحات والإنجازات السياسية، (١/٣٧٩)، وقد ورجح الدكتور شوقي أبو خليل أن المعركة كانت على شواطئ الإسكندرية.

(٢) «البداية والنهاية» (٧/٣٤٥).

بمراكب الروم بالقرب من شواطئ «كيليكيا»؛ فانهزم الأسطول الرومي، وفر قائده بما بقي من مراكبه في موقعة «ذات الصواري» عام (٣١هـ-٦٥١م)[١].

وهكذا فقد كانت الفتوحات الإسلامية أيام عثمان بن عفان كبيرة وواسعة؛ إذ أضافت بلادًا جديدة في إفريقية وقبرص وأرمينيا، وأجبرت من نقض العهد إلى الصلح من جديد في فارس، وخراسان، وباب الأبواب[٢].

خامسًا: فتنة مقتل عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وبداية الخلاف:

إن ما وقع من أحداث جسام في فتنة مقتل عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وما ترتب عليها من أحداث تحتاج لدراسة عميقة ومتأنية لكي نستخرج من تلك الْحِقْبَة التاريخية دروسًا وعبرًا نستضيء بها في حاضرنا؛ لكي نسترشد بها في سعينا الجاد لإعادة الخلافة الراشدة على منهاج النبوة، حتى تَسْعَدَ البشرية بدين الله وشرعه، وتخرج من شقاوتها وتعاستها وضنكها بسبب بعدها عن شرع الله - تعالى -[٣].

ولقد أخبر النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في كثير من أحاديثه بأن هذه الأمة ستختلف وستتقاتل، وتعددت الأحاديث التي تشير إلى ذلك بإجمال أو بتفصيل.

وتبدأ هذه المرحلة الحرجة من تاريخ الصحابة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - بمقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان، وكانت هذه هي البداية الحقيقية لوقوع الفتنة بين الصحابة، ولقد

(١) «تاريخ الخلفاء الراشدين الفتوحات والإنجازات السياسية» (ص ٣٦٠)، وقيل كانت المعركة عام ٣٤هـ؛ هذا وقد ذهب بعض المؤرخين كابن تغري بردي وابن خلدون وغيرهما؛ إلى أن معركة ذات الصواري كانت على سواحل غرب مدينة الإسكندرية.

(٢) باب الأبواب: مدينة على بحر طبرستان. انظر: «معجم البلدان» (١/٣٠٣).

(٣) «تيسير الكريم المنان في سيرة عثمان بن عفان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -» (ص ٣٠٦).

أُخْبِرَ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالفتنة التي تعرض لها عثمان بن عفان، وهذه من علامات نبوة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وقد أخبر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عثمان ببعض معالم هذه الفتنة، فقال له: **«يا عثمانُ، إنه لعل الله يُقَمِّصُك قميصًا، فإن أرادوك على خلعه، فلا تخلعه لهم»**(١).

وقد بشره الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالجنة على بلوى تصيبه(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (٢٥١٦٢)، والترمذي (٣٧٠٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع».

(٢) عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ : أَنَّهُ تَوَضَّأَ فِي بَيْتِهِ ثُمَّ خَرَجَ، فَقَالَ: «لأَلْزَمَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ وَلأَكُونَنَّ مَعَهُ يَوْمِي هَذَا. قَالَ: فَجَاءَ الْمَسْجِدَ، فَسَأَلَ عَنِ النَّبِيِّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فَقَالُوا: خَرَجَ وَوَجَّهَ هَاهُنَا، قَالَ: فَخَرَجْتُ عَلَى أَثَرِهِ أَسْأَلُ عَنْهُ حَتَّى دَخَلَ بِئْرَ أَرِيسٍ، قَالَ: فَجَلَسْتُ عِنْدَ الْبَابِ، وَبَابُهَا مِنْ جَرِيدٍ حَتَّى قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ حَاجَتَهُ وَتَوَضَّأَ، فَقُمْتُ إِلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ قَدْ جَلَسَ عَلَى بِئْرِ أَرِيسٍ، وَتَوَسَّطَ قُفَّهَا، وَكَشَفَ عَنْ سَاقَيْهِ وَدَلَّاهُمَا فِي الْبِئْرِ، قَالَ: فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، ثُمَّ انْصَرَفْتُ، فَجَلَسْتُ عِنْدَ الْبَابِ، فَقُلْتُ لأَكُونَنَّ بَوَّابَ رَسُولِ اللَّهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ الْيَوْمَ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ، فَدَفَعَ الْبَابَ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: أَبُو بَكْرٍ، فَقُلْتُ: عَلَى رِسْلِكَ، قَالَ: ثُمَّ ذَهَبْتُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا أَبُو بَكْرٍ يَسْتَأْذِنُ، فَقَالَ: **«ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ»**، قَالَ: فَأَقْبَلْتُ حَتَّى قُلْتُ لأَبِي بَكْرٍ: ادْخُلْ وَرَسُولُ اللَّهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ يُبَشِّرُكَ بِالْجَنَّةِ، قَالَ: فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَجَلَسَ عَنْ يَمِينِ رَسُولِ اللَّهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ مَعَهُ فِي الْقُفِّ، وَدَلَّى رِجْلَيْهِ فِي الْبِئْرِ كَمَا صَنَعَ النَّبِيُّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وَكَشَفَ عَنْ سَاقَيْهِ، ثُمَّ رَجَعْتُ، فَجَلَسْتُ وَقَدْ تَرَكْتُ أَخِي يَتَوَضَّأُ وَيَلْحَقُنِي، فَقُلْتُ: إِنْ يُرِدِ اللَّهُ بِفُلَانٍ يُرِيدُ أَخَاهُ خَيْرًا يَأْتِ بِهِ، فَإِذَا إِنْسَانٌ يُحَرِّكُ الْبَابَ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟، فَقَالَ: عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَقُلْتُ: عَلَى رِسْلِكَ، ثُمَّ جِئْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، وَقُلْتُ: هَذَا عُمَرُ يَسْتَأْذِنُ، فَقَالَ: **«ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ»**، فَجِئْتُ عُمَرَ، فَقُلْتُ: أَذِنَ وَيُبَشِّرُكَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ بِالْجَنَّةِ، قَالَ: فَدَخَلَ فَجَلَسَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ فِي الْقُفِّ عَنْ يَسَارِهِ، وَدَلَّى رِجْلَيْهِ فِي الْبِئْرِ، ثُمَّ رَجَعْتُ، فَجَلَسْتُ، فَقُلْتُ: إِنْ يُرِدِ اللَّهُ بِفُلَانٍ خَيْرًا يَعْنِي أَخَاهُ يَأْتِ بِهِ، فَجَاءَ إِنْسَانٌ فَحَرَّكَ الْبَابَ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، فَقُلْتُ: عَلَى رِسْلِكَ، قَالَ وَجِئْتُ النَّبِيَّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: **«ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ مَعَ بَلْوَى تُصِيبُهُ»**، قَالَ: فَجِئْتُ، فَقُلْتُ: ادْخُلْ وَيُبَشِّرُكَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ بِالْجَنَّةِ مَعَ بَلْوَى تُصِيبُكَ، قَالَ: فَدَخَلَ فَوَجَدَ الْقُفَّ قَدْ مُلِئَ فَجَلَسَ وِجَاهَهُمْ مِنَ الشِّقِّ الْآخَرِ، قَالَ شَرِيكٌ: فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ: فَأَوَّلْتُهَا قُبُورَهُمْ» (رواه البخاري ومسلم). (٣٦٧٤) (٢٤٠٣).

أسباب فتنة مقتل عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ :

قال الإمام الزهري: «ولي عثمان اثنتي عشرة سنة أميرًا للمؤمنين، أول ست سنين منها لم ينقم الناس عليه شيئًا، وإنه لأحب إلى قريش من عمر بن الخطاب؛ لأن عمر كان شديدًا عليهم، أما عثمان فقد لان لهم ووصلهم»[١].

ثم حدثت الفتنة بعد ذلك، وقد سمى المؤرخون المسلمون الأحداث في النصف الثاني من ولاية عثمان (٣٠ - ٣٥هـ) (الفتنة) التي أدت إلى استشهاد عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ»[٢].

وإن أول الفتن التي ابتلي بها الصحابة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ: خروج المنافقين على عثمان بن عفان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ، وطلبهم نزعه من الخلافة، ثم قتله ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ[٣].

العوامل التي ساعدت على قيام الفتنة:

١ـ تعدد الثقافات في المجتمع وموت كثير من جيل كبار الصحابة الكرام:

لما توسعت الدولة الإسلامية عبر حركة الفتوحات حدث تغير في تركيبة المجتمع؛ لأن هذه الدولة بتوسعها المكاني والبشري ورثت ما على هذه الرقعة الواسعة من ألوان، ولغات، وثقافات، وعادات، وأفكار، وظهرت على سطح هذا النسيج ألوان مضطربة وخروقات كثيرة، ولا شك أن الصحابة كانوا يقلون رويدًا رويدًا، فمنهم مَن يموت على فراشه، ومنهم من يموت في أرض الجهاد، وهناك جمع غفير جدًّا منهم قد مات في طاعون عمواس، وتستقبل الأرض بدلًا عنهم أعدادًا وفيرة مِن أبناء المناطق المفتوحة، مِن: فرس، وترك، وروم، وقبط،

---

(١) «الطبقات» (١/٣٩-٤٧)، «البداية والنهاية» (٧/١٤٤-١٤٩).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٣/٢٠).

(٣) «تيسير الكريم المنان في سيرة عثمان بن عفان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ» (ص ٣١٠).

وكرد، وبربر، وكان أكثرهم من الفرس أو من النصارى العرب أو غيرهم، فنشأ أفراد مسلمون لم يتخرجوا من المدرسة التي تخرج منها الصحابة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - ، ولم يتلقَ هؤلاء التعليم من رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مباشرة كالصحابة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - . ولم يغتنم هؤلاء وجود الصحابة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - بينهم ولم يحرص هؤلاء على تلقي العلوم المختلفة من الصحابة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - ؛ ومِن ثَمَّ ساعد ذلك على ظهور بعض الانحرافات الفكرية والسلوكية كنشر الشائعات من جهة، وتصديقها من جهة أخرى، وهذا بلا شك ساعد على وقوع الفتن المتنوعة.

وهذه هي خطورة العولمة التي نحياها الآن، فالصحابة كالنجوم في السماء، وهم يقلون رويدًا رويدًا، ومِن ثَمَّ تزداد الظلمة في المجتمع؛ وليس معنى هذا أن عدم وجود الجيل الأول هو السبب الرئيسي، لا، ولكن عدم التمسك بمنهج الجيل الأول هو السبب في وقوع الضعف والفرقة والاختلاف، وهذا المنهج محفوظ ولم يفنَ بعد، بل هو بين أيدينا، وهو يتمثل في القرآن والسُّنَّة بفهم السلف - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - .

٢ - عدم التعامل الحسن مِن الناس تجاه رأفة عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وحلمه:

لا شك أن هناك تباينًا ملحوظًا بين أسلوبي عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - في كيفية إدارة الدولة، وسياسة التعامل مع الرعية؛ فبينما كان عمر قوي الشكيمة، شديد المحاسبة لنفسه، ولمن تحت يديه، كان عثمان ألين طبعًا وأرق في المعاملة، ولم يكن يأخذ نفسه أو يأخذ الناس بما يأخذهم به عمر، حتى يقول عثمان نفسه: «يرحم الله عمر، ومن يطيق ما كان عمر يطيق»[(١)]. لكن الناس وإن رغبوا في الشوط الأول من خلافته؛ لأنه لان معهم وكان عمر شديدًا عليهم، حتى أصبحت

(١) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/٤١٨).

محبته مضرب المثل، فكان عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ يتحلى بالرأفة والرحمة واللين مع الرعية، وللأسف قابل كثير من الناس هذه المعاملة الطيبة بالإساءة! وهذا اللين وهذه الرأفة من مميزات عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ، لكن بعض الناس لم يحسنوا أن يقابلوا ذلك بالإحسان والطاعة، وقد أدرك عثمان ذلك حين قال لأقوام سجنهم: «أتدرون ما جرأكم عليَّ؟ ما جرأكم علي إلا حلمي، قد فعل هذا بكم عمر فلم تصيحوا به»[1].

وروى يحيى عن أفلح بن حميد عن أبيه قال: «لما أراد عثمان أن يكلم الناس على المنبر ويشاورهم في أمر توسعة المسجد، قال له مروان بن الحكم: فداك أبي وأمي، هذا أمر خير لو فعلته ولم تذكر لهم، فقال: ويحك! إني أكره أن يروا أني أستبد عليهم بالأمور، قال مروان: فهل رأيت عمر حيث بناه وزاد فيه ذكر ذلك لهم؟ قال: اسكت، إن عمر اشتد عليهم فخافوه، حتى لو أدخلهم في جحر ضب دخلوا، وإني لنت لهم حتى أصبحت أخشاهم، قال مروان بن الحكم: فداك أبي وأمي لا يسمع هذا منك فيجترأ عليك»[2]. وحين بدت نوايا الخارجين وقد ألزمهم عثمان الحجة في رده على المآخذ التي أخذوها عليه أمام الملأ من الصحابة والناس، أبى المسلمون إلا قتلهم، وأبى عثمان إلا تركهم لحلمه ووداعته قائلًا: «بل نعفو ونقبل، ولنبصرهم بجهدها، ولا نحادّ أحدًا حتى يرتكب حدًّا أو يبدي كفرًا».

يقول محب الدين الخطيب عن هؤلاء الذين قابلوا الإحسان بالإساءة: «وفيهم مَن أصابهم من عثمان شيء من التعزير لبوادر بدرت منهم تخالف أدب الإسلام،

(١) «المصدر السابق» (٥/ ٢٥٠).

(٢) «وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى» (٢/ ٨٣).

فأغضبهم التعزير الشرعي من عثمان، ولو أنهم قد نالهم من عمر أشد منه لرضوا به طائعين»[١].

٣ ـ العودة إلى العصبية الجاهلية:

لقد حذر رسول الله ـ ﷺ ـ من العصبية وقال: **«دعوها فإنها منتنة»**، وقد جاء في الحديث الذي أخرجه مسلم بسنده عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: «كنا مع النبي في غزاة، فكسع رجل من المهاجرين ـ أي ضرب ـ رجلًا من الأنصار، فقال الأنصارِيُّ: يا للأنصار، وقال المُهَاجِرِيُّ: يا للمهاجرين. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: **«مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؟»** قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَسَعَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: **«دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ»**[٢].

وقد ظهرت هذه العصبية عند بعض الأفراد أثناء الفتنة وساعدت هذه العصبية على اشتعال الفتنة.

إن جوهر رسالة أمة الإسلام هو وحدتها واجتماعها على تعظيم الخالق وعبادته ـ سبحانه ـ ، يقول ـ تعالى ـ: ﴿ **وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ** ﴾ [المؤمنون: ٥٢]. ويقول ـ سبحانه ـ:

﴿ **إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ** ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، وقد كان من أول أعمال النبي ـ ﷺ ـ في المدينة النبوية: تأسيس المجتمع الجديد على المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وإرساء دعائم المحبة والأخوة والائتلاف بين جميع المسلمين، ونَبْذ كل ألوان العصبية الجاهلية التي تفرق الناس، وتثير نعرات

---

(١) «العواصم من القواصم» تعليق محب الدين الخطيب (ص ٥٨).

(٢) أخرجه أحمد (١٥١٢٩)، والبخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٤٨).

العصبية والاختلاف؛ فَآصِرَةُ الاجتماع والولاء في المجتمع الإسلامي تقوم على الإيمان بالله ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ ﴾ [التوبة: ٧١]، وفي فتح مكة خطب النبي ـ ﷺ ـ الناس، وأعلن للناس ركيزة تأسيس هذه الأمة، فقال: «**يا أيها الناس، إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة (العبية: الكبر والفخر) الجاهلية وتعاظمها بآبائها. الناس رجلين: بَرٌّ تقي كريم على الله، وفاجر شقي هيِّن على الله. والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب**». قال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [الحجرات: ١٣](١).

فلابد من إحياء عوامل الوحدة في الأمة، وجمع الصفوف على كلمة التوحيد الجامعة؛ امتثالًا لقول الحق ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ـ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وهذا هو اللواء الذي رفعه الإسلام لينقذ البشرية من العصبية للجنس، والعصبية للأرض، والعصبية للقبيلة، وكلها من الجاهلية.

وقد حارب الإسلام هذه العصبية الجاهلية في كل صورها وأشكالها، ليقيم نظامه الإنساني العالمي في ظل راية واحدة: راية الله وحده لا سواه، قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «**كلكم بنو آدم، وآدم خلق من تراب. ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم، أو**

(١) أخرجه الترمذي.

ليكونن أهون على الله ـ تعالى ـ من الجعلان»(١). وقال ـ ﷺ ـ عن العصبية الجاهلية: **«دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ»**(٢).

٤ ـ تآمر الحاقدين ودور عبد الله بن سبأ في إشعال الفتنة:

لقد دخل في الإسلام منافقون يجمعون الحقد والدهاء والمكر في أشخاصهم، ووجدوا من يستمع إليهم بآذان صاغية؛ هذا بالإضافة إلى مكر اليهود والنصارى وحقدهم على الإسلام، فاستغل أولئك الحاقدون من يهود ونصارى وفرس، وأصحاب الجرائم الذين أُقيم عليهم الحدود الشرعية، مجموعات من الناس كان معظمهم مِن الأعراب مَمَن لا يفقهون هذا الدين على حقيقته, فتكونت لهؤلاء جميعًا طائفة وصفت من جميع من قابلهم بأنهم أصحاب شر، فقد وصفوا بالغوغاء من أهل الأمصار، ونُزَّاع القبائل، وأنهم حُثَالَة الناس ومتفقون على الشر(٣)، وسفهاء عديمو الفقه, وأراذل من أوباش القبائل(٤) فهم أهل جفاء وهمج، ورعاع من غوغاء القبائل، وسفلة الأطراف الأراذل، وأنهم آلة الشيطان(٥).

---

(١) رواه البزار في مسنده من حديث حذيفة، وأحمد (١٠٧٨٤)، وأبو داود (٥١١٦)، وحسنه الألباني.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٢٥٨٤)، والجعلان هي الخنفساء.

(٣) «الطبقات» (٣/ ٧١).

(٤) «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» (١/ ٢٠١).

(٥) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/ ٣٢٧). قلتُ: «وقد تردد في المصادر اسم عبد الله بن سبأ الصنعاني اليهودي ضمن هؤلاء الموتورين الحاقدين، وأنه كان من اليهود ثم أسلم، ولم ينقب أحد عن نواياه فتنقل بين البلدان الإسلامية باعتباره أحد أفراد المسلمين». يقول ابن تيمية: «إن مبدأ الرفض إنما كان من الزنديق عبد الله بن سبأ», ويقول الذهبي: «عبد الله بن سبأ من غلاة الزنادقة، ضال مضل ادعى الإلهية في علي بن أبي طالب، وقد أحرقهم علي بالنار في خلافته».

وكان ابن سبأ أول مَن أحدث القول برجعة علي - رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ - إلى الدنيا بعد موته، وبرجعة رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - ، وأول مكان أظهر فيه ابن سبأ مقالته هذه في مصر، فكان يقول: «العجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ويكذب برجوع محمد، وقال الله - عَزَّوَجَلَّ - : ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القَصَص : ٨٥]؛ فمحمد أحق بالرجوع من عيسى!؟ فقبل ذلك منه ووضع لهم الرجعة فتكلموا فيها[١]، وهو أول مَن قال بوصية رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - لعلي، وأنه خليفته على أمته من بعده بالنص وأول من أظهر البراءة من أعداء علي - رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ - ، وادعى ابن سبأ اليهودي أن عليًّا - رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ - هو دابة الأرض، وأنه هو الذي خلق الخلق وبسط الرزق[٢].

وقد برز دور عبد الله بن سبأ في السنوات الأخيرة من خلافة عثمان - رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ - حيث بدت في الأفق سمات الاضطراب في المجتمع الإسلامي[٣]، وغاية ما جاء به ابن سبأ آراء ومعتقدات ادعاها واخترعها من قِبَل نفسه وافتعلها من يهوديته الحاقدة، وجعل يروجها وينشرها في المجتمع لغايةٍ ينشدها؛ وهو الدس في المجتمع الإسلامي، بغية النيل من وحدته وإذكاء نار الفتنة، وغرس بذور الشقاق بين أفراده، فكانت هذه الأفكار من أهم العوامل التي أدت إلى قتل أمير المؤمنين عثمان - رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ - ، وتفرق الأمة شيعًا وأحزابًا.

وبعد أن استقر الأمر في نفوس أتباعه انتقل إلى هدفه، وهو خروج الناس على الخليفة عثمان - رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ - ، فصادف ذلك هوى في نفوس بعض القوم حيث قال لهم: «من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - ، ووثب على وصيِّ رسول الله

---

(١) «ابن سبأ حقيقة لا خيال» (ص ١٥١).

(٢) «المرجع السابق» (ص ١٥٦).

(٣) «تاريخ دمشق» (٣/٢٩).

ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتناول أمر الأمة؟!»، ثم قال لهم بعد ذلك: «إن عثمان أخذها بغير حق، وهذا وصي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فانهضوا في هذا الأمر فحركوه، وابدأوا بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس، وادعوهم إلى هذا الأمر»(١).

إن المشاهير من المؤرخين والعلماء من سلف الأمة وخَلَفِهَا يتفقون على أن ابن سبأ ظهر بين المسلمين بعقائد وأفكار وخطط سبئية ليلفت المسلمين عن دينهم وطاعة إمامهم، ويوقع بينهم الفُرْقة والخلاف، فاجتمع إليه من غوغاء الناس ما تكونت به بعد ذلك الطائفة السبئية المعروفة, التي كانت عاملًا من عوامل الفتنة في المجتمع المسلم(٢).

وهنا تظهر خطورة النفاق وخطورة المنافقين في المجتمع؛ لذا كان النفاق أخطر من الكفر، وعقوبته أشد؛ لأنه كفر بلباس الإسلام، وضرره أعظم؛ ولذلك جعل الله المنافقين في أسفل النار كما قال ـ سبحانه ـ : ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء : ١٤٥].

إن أهل النفاق دائمًا في خداع ومكر؛ ظاهرهم مع المؤمنين وباطنهم مع الكافرين ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء : ١٤٣]، والمنافقون لفساد قلوبهم أشد الناس إعراضًا عن دين الله كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء : ٦١]، وتصرفات المنافقين تدور مع مصالحهم، فإذا لقوا المؤمنين أظهروا الإيمان، وإذا لقوا سادتهم وكبراءهم؛ قالوا: نحن معكم

---

(١) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/٣٤٧).

(٢) «تيسير الكريم المنان في سيرة عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ» (ص ٣٣٨).

على ما أنتم عليه من الشرك, والكفر، كما قال ـ سبحانه ـ عنهم: ﴿ وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [البقرة : ١٤، ١٥].

ومن صفاتهم: العداوة والحسد للمؤمنين، كما قال ـ سبحانه ـ : ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾ [التوبة : ٥٠].

ومن صفاتهم: الفساد في الأرض بالكفر والنفاق والمعاصي، قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة : ١١-١٢].

ومن صفاتهم: البهتان والكذب كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ [التوبة : ٥٦].

ومن صفاتهم: الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، والبخل بالمال كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة : ٦٧].

ومن صفاتهم: الطمع والجشع ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ [التوبة : ٥٨].

ومن صفاتهم: ما بينه الرسول ـ ﷺ ـ بقوله: **«أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْ النِفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»**(١).

وحيث إن خطر الكفار والمنافقين على الأمة الإسلامية عظيم؛ لذا أمر الله رسوله بجهادهم فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التحريم: ٩].

وها هو القرآن الكريم يبين لنا خطر المنافقين على المجتمع حتى وإن كانوا قلة، قال ـ تعالى ـ: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٧]، أي: لو خرج فيكم هؤلاء المنافقون: ﴿مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾، أي إلا فسادًا وشرًّا وضرًّا؛ لأنهم جبناء مخذولون، ولسعوا في الفتنة والشر بينكم، وفرقوا جماعتكم المجتمعين، ﴿وَفِيكُمْ﴾ أناس ضعفاء العقول ﴿سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ أي: مستجيبون لدعوتهم، يغترون بهم؛ ولذلك ثبَّطتُهم عن الخروج معكم.

والسؤال الذي يطرح نفسه: هل كان عدد المنافقين كبيرًا لهذا الحد؟! هل كان عددهم كافيًا لنشر الشر والفساد والفتن بين المؤمنين؟! والجواب: ليس الأمر بكثرة العدد أو قلته؛ لقد خرج رسول الله ـ ﷺ ـ إلى تبوكَ، وخرج معه ثلاثون ألف مقاتل، وعدد المنافقين الذين تخلفوا عنه كانوا بضعة وثمانين رجلًا. فسبحان الله! هذا العدد القليل جدًّا بالنسبة لتعداد الجيش، كان سينشر الشر والفساد ويوقع الفتن بين المؤمنين الخُلَّصِ مع كثرة عددهم؛ ولذلك أنزل الله في صدر

---

(١) رواه مسلم (١٠٦).

سورة البقرة أربع آيات في المؤمنين الخلص، وأنزل في الكفار الخلص آيتين، وأنزل بالفريق الثالث المنافقين بضع عشرة آية.

فاللهم احفظ البلاد والعباد من المنافقين وشرهم يا أرحم الراحمين.

المآخذ التي ذكرها قتلة عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ :

قالوا: لقد جاء عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ في ولايته بمظالم ومناكير، منها:

١ - ضربه لعمار حتى فتق أمعاءه.

٢ - ولابن مسعود حتى كسر أضلاعه ومنعه عطاءه.

٣ - وابتدع في جمع القرآن وتأليفه، وفي حرق المصاحف.

٤ - وحمى الحمى.

٥ - وأجلى أبا ذر إلى الربذة.

٦- وأخرج من الشام أبا الدرداء.

٧ - ورد الحكم بعد أن نفاه رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ .

٨ - وأبطل سنة القصر في الصلوات في السفر.

٩ - وولى معاوية، وعبد الله بن عامر بن كريز، ومروان، وولى الوليد ابن عقبة وهو فاسق ليس من أهل الولاية.

١٠ - وأعطى مروان خمس إفريقية.

١١ - وكان عمر يضرب بالدرة وضرب هو بالعصا

١٢ - وعلا على درجة رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وقد انحط عنها أبو بكر وعمر.

١٣ - ولم يحضر بدرًا، وانهزم يوم أحد، وغاب عن بيعة الرضوان.

١٤- ولم يقتل عبيد الله بن عمر بالهرمزان (الذي أعطى السكين إلى أبي لؤلؤة، وحرضه على عمر حتى قتله).

١٥ - وكتب مع عبده على جمله كتابًا إلى ابن أبي سرح في قتل من ذكر فيه.

١٦ - كان يمنح أقاربه هبات مالية ويخصهم بالمزيد من العطايا.

الرد على الشبهات والتُهم[1]:

١ - ضربه لعمار حتى فتق أمعاءه، ولابن مسعود حتى كسر أضلاعه ومنعه عطاءه:

والرد على هذه التهمة الباطلة: أن مسألة ضربه لعمار أو لابن مسعود - رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا - غير ثابتة، قال أبو بكر بن العربي: «هذا كله باطل سندًا ومتنًا؛ أما قولهم: «جاء عثمان بمظالم ومناكير» فباطل. وأما ضربه لابن مسعود ومنعه عطاءه فزور، وضربه لعمار إفك مثله، ولو فتق أمعاءه ما عاش أبدًا».

وقال أبو عبد الله محمد بن بكر المالقي في كتابه: «التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان»: «فإن قيل: بأن عثمان - رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ - ضرب عمارًا، قيل: هذا لا يثبت[2]، ولو

---

(١) «البداية والنهاية»، و«تاريخ الرسل والملوك»، و«العواصم من القواصم مع تعليقات محب الدين الخطيب»، «منهاج السنة»، «التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان».

(٢) روى ابن أبي شيبة في "مصنفه" (٧/ ٥٢١) : وابن شبة في " تاريخ المدينة " (٣/١١٠١) من طريق حُصَيْن بْن عَبْدِ الرَّحْمَنِ، قَالَ: حَدَّثَنِي جهيم، رَجُلٌ مِنْ بَنِي فِهْرٍ, قَالَ: أَنَا شَاهِدُ هَذَا الْأَمْرِ, قَالَ: جَاءَ سَعْدٌ وَعَمَّارٌ فَأَرْسَلُوا إِلَى عُثْمَانَ أَنِ ائْتِنَا, فَإِنَّا نُرِيدُ أَنْ نَذْكُرَ لَكَ أَشْيَاءَ أَحْدَثْتَهَا، أَوْ أَشْيَاءَ فَعَلْتَهَا, قَالَ: فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ أَنِ انْصَرِفُوا الْيَوْمَ, فَإِنِّي مُشْتَغِلٌ، وَمِيعَادُكُمْ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا ،قَالَ: فَانْصَرَفَ سَعْدٌ، وَأَبَى عَمَّارٌ أَنْ يَنْصَرِفَ، قَالَ: فَلَمَّا اجْتَمَعُوا لِلْمِيعَادِ وَمَنْ مَعَهُمْ، قَالَ لَهُمْ عُثْمَانُ مَا تَنْقِمُونَ مِنِّي ؟

ثبت فإن للإمام أن يؤدب بعض رعيته بما يراه». وقال محب الدين الخطيب: «وهذا مما يفعله ولي الأمر في مثل هذه الأحوال قبل عثمان وبعده، وكم فعل عمر مثل ذلك بأمثال عمار ومن هم خير من عمار بما له من حق الولاية على المسلمين».

ولما نظم السبئيون حركة الإشاعات، وصاروا يرسلون الكتب من كل مصر إلى الأمصار الأخرى بالأخبار الكاذبة، فأشار الصحابة على عثمان بأن يبعث رجالًا ممن يثق بهم إلى الأمصار حتى يرجعوا إليه بحقيقة الحال تناسى عثمان ما كان من عمار، وأرسله إلى مصر ليكون موضع ثقته في كشف حالها. وقال شيخ الإسلام في منهاج السنة: «وَأَمَّا قَوْلُهُ: إِنَّهُ لَمَّا حَكَمَ ضَرَبَ ابْنَ مَسْعُودٍ حَتَّى مَاتَ»: «فَهَذَا كَذِبٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ، فَإِنَّهُ لَمَّا وَلِيَ أَقَرَّ ابْنَ مَسْعُودٍ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْكُوفَةِ إِلَى أَنْ جَرَى مِنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مَا جَرَى. وَمَا مَاتَ ابْنُ مَسْعُودٍ مِنْ ضَرْبِ عُثْمَانَ أَصْلًا، وفي الجملة فإذا قيل: إن عثمان ضرب ابن مسعود أو عمارًا فهذا لا يقدح في أحد منهم، فإنا نشهد أن الثلاثة في الجنة، وأنهم من أكابر أولياء الله المتقين، وإن ولي الله قد يصدر عنه ما يستحق عليه العقوبة الشرعية، فكيف بالتعزير؟! وقد ضرب عمر بن الخطاب أبيّ بن كعب بالدرة لما رأي الناس يمشون خلفه، وقال: «هذا ذلة للتابع وفتنة للمتبوع» فإن كان عثمان أدب هؤلاء، فإما أن يكون عثمان مصيبًا في تعزيرهم لاستحقاقهم ذلك، ويكون ذلك الذي عزروا عليه تابوا

قَالُوا: نَنْقِمُ عَلَيْكَ ضَرْبَكَ عَمَّارًا ؟!قَالَ عُثْمَانُ: جَاءَ سَعْدٌ وَعَمَّارٌ ، فَأَرْسَلْتُ إِلَيْهِمَا, فَانْصَرَفَ سَعْدٌ، وَأَبَى عَمَّارٌ أَنْ يَنْصَرِفَ, فَتَنَاوَلَهُ رَسُولٌ مِنْ غَيْرِ أَمْرِي; فَوَ اللَّهِ مَا أَمَرْتُ وَلَا رَضِيتُ, فَهَذِهِ يَدِي لِعَمَّارٍ فَيَصْطَبِرُ – يَعْنِي : يَقْتَصُّ. وهذا إسناد لا بأس به، رجاله ثقات، وجهيم – ويقال : جهم – تابعي روى عنه ثقتان ووثقه ابن حبان، فحديثه محتمل للتحسين .

منه وكَفَّرَ عنهم بالتعزير وغيره من المصائب أو بحسناتهم العظيمة أو بغير ذلك. وإما أن يقال: كانوا مظلومين مطلقًا. فالقول في عثمان كالقول فيهم وزيادة، فإنه أفضل منهم، وأحق بالمغفرة والرحمة» اهـ.

بل ثبت أنه عندما بُويع عثمانُ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ بالخلافة، قال عبد الله بن مسعود: «بايعنا خيرنا ولم نأل»، وكان عبد الله بن مسعود ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ واليًا لعثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ على بيت مال الكوفة، وكان والي الكوفة في ذلك الوقت **سعد بن أبي وقاص** ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ، وقد حدث خلاف بينهما بسبب أن سعدًا ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ استقرض مالًا من بيت المال، ولم يردّه في الموعد المحدد، فحدث خلاف بينهما بسبب هذا الأمر، فاشتدا في الكلام واجتمع حولهما الناس فعزل عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ سعدًا من ولاية الكوفة، وأقرّ على بيت المال عبد الله بن مسعود، وهذه القصة تدلنا على تورع كلا الصحابيين، وتدل على حاجة سعد إلى المال، وعدم وجود ما يكفيه، وأنه لذلك اضطر إلى الاقتراض من بيت المال، كما تدل على اجتهاد عبد الله ابن مسعود في حفظ أموال المسلمين وإصراره على استرداد القرض من سعد والي الكوفة وحاكمها، ولكن الخلاف الذي حدث بين عثمان وابن مسعود ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ ، وقع لما أراد عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ جمع الناس على مصحف واحد، واختار ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ لهذا الأمر **زيد بن ثابت** ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ، وكان أبو بكر وعمر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قد اختاراه من قبل لجمع القرآن في المرة الأولى، وذلك لأن زيدًا ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ هو الذي حفظ العرضة الأخيرة للقرآن من رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ ، وكان ابن مسعود يود لو أن كتابة المصحف نيطت به، وكان يود أيضًا لو يبقى مصحفه الذي كان يكتبه لنفسه فيما مضى، فجاء عمل عثمان على خلاف ما كان يوده ابن مسعود في الحالتين، والقضية أنه كان لعبد الله بن مسعود مصحف يختلف في ترتيب السور عن مصحف

زيد بن ثابت - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ولهجة عبد الله بن مسعود - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - من هزيل، وليست من قريش، وقد كان الأمر أن تكون كتابة المصحف على الاتفاق، وعند الاختلاف يُرجع إلى لهجة قريش؛ لأن القرآن نزل بلسانها، فلما علم عبد الله بن مسعود أن القرآن سيجمع على قراءة ثابت، وأن مصحفه سوف يحرق غضب غضبًا شديدًا وأراد أن يحتفظ بمصحفه واجتمع كبار الصحابة مع عبد الله بن مسعود، وتحدثوا معه وحدثوه بأن هذا الأمر فيه الخير للمسلمين، فلما علم ذلك رجع عن رأيه.

وقد عقد ابن أبي داود[١] - رَحِمَهُ اللَّهُ - في كتاب «المصاحف» بابًا بعنوان: «باب رضاء عبد الله بن مسعود بعد ذلك بجمع عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - المصاحف»، قال: «حدثنا عبد الله بن سعيد، ومحمد بن عثمان العجلي، قالا: حدثنا أبو أسامة، قال: حدثني زهير، قال: حدثني الوليد بن قيس، عن عثمان بن حسان العامري، عن فلفلة الجعفي، قال: فزعت فِيمَنْ فزع إلى عبد الله في المصاحف، فدخلنا عليه، فقال رجل من القوم: إنا لم نأتك زائرين، ولكنا جئنا حين راعنا هذا الخبر، فقال: «إن القرآن أنزل على نبيكم من سبعة أبواب على سبعة أحرف، وإن الكتاب قبلكم كان ينزل من باب واحد على حرف واحد، معناهما واحد»[٢].

وجاء في كتاب «غاية النهاية في طبقات القراء» للإمام ابن الجزري: «وكان الأعمش يجود حرف ابن مسعود، وكان ابن أبي ليلى يجود حرف علي، وكان أبو إسحاق يقرأ من هذا الحرف، ومن هذا الحرف. وكان حمران يقرأ قراءة ابن مسعود ولا يخالف مصحف عثمان، يعتبر حروف معاني عبد الله ولا يخرج من موافقة مصحف عثمان، وهذا كان اختيار حمزة».

---

(١) هو: أبو بكر بن أبي داود، عبد الله بن سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني (المتوفى: ٣١٦هـ).

(٢) أخرجه الطحاوي، وأحمد (٤٢٥٢)، وحسنه الألباني.

وقد ذكر الإمام الذهبي في السير ما نصه: «إِنَّمَا شَقَّ عَلَى ابْنِ مَسْعُوْدٍ؛ لِكَوْنِ عُثْمَانَ مَا قَدَّمَهُ عَلَى كِتَابَةِ المُصْحَفِ، وَقَدَّمَ فِي ذَلِكَ مَنْ يَصْلُحُ أَنْ يَكُوْنَ وَلَدَهُ، وَإِنَّمَا عَدَلَ عَنْهُ عُثْمَانُ لِغَيْبَتِهِ عَنْهُ بِالكُوْفَةِ؛ وَلأَنَّ زَيْدًا كَانَ يَكْتُبُ الوَحْيَ لِرَسُوْلِ اللهِ ـ ﷺ ـ فَهُوَ إِمَامٌ فِي الرَّسْمِ، وَابْنُ مَسْعُوْدٍ فَإِمَامٌ فِي الأَدَاءِ، ثُمَّ إِنَّ زَيْدًا هُوَ الَّذِي نَدَبَهُ الصِّدِّيْقُ لِكِتَابَةِ المُصْحَفِ وَجَمْعِ القُرْآنِ؛ فَهَلَّا عَتَبَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ؟ وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ ابْنَ مَسْعُوْدٍ رَضِيَ وَتَابَعَ عُثْمَانَ وَلِلَّهِ الحَمْدُ، وَفِي مُصْحَفِ ابْنِ مَسْعُوْدٍ أَشْيَاءُ أَظُنُّهَا نُسِخَتْ، وَأَمَّا زَيْدٌ فَكَانَ أَحْدَثَ القَوْمِ بِالعَرْضَةِ الأَخِيْرَةِ الَّتِي عَرَضَهَا النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ عام توفي على جبريل».

وقال الحافظ ابن كثير في تفسير القرآن العظيم: «وهذا مشهور عند كثير من القراء والفقهاء، وأن ابن مسعود كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه، فلعله لم يسمعها من النبي ـ ﷺ ـ، ولم يتواتر عنده، ثم لعله قد رجع إلى قول الجماعة، فإن الصحابة أثبتوها في المصاحف الأئمة، ونفذوها إلى سائر الآفاق، ولله الحمد والمنة».

وقال في مقدمته أيضًا: «وهذا ـ أيضًا ـ من أكبر مناقب أمير المؤمنين عثمان ابن عفان، ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ، فإن الشيخين سبقاه إلى حفظ القرآن أن يذهب منه شيء وهو جمع الناس على قراءة واحدة؛ لئلا يختلفوا في القرآن، ووافقه على ذلك جميع الصحابة، وإنما روي عن عبد الله بن مسعود شيء من التغضب؛ بسبب أنه لم يكن ممن كتب المصاحف، وأمر أصحابه بغل مصاحفهم لما أمر عثمان بحرقه ما عدا المصحف الإمام، ثم رجع ابن مسعود إلى الوفاق» اهـ.

ومن المعلوم: أن ابن مسعود وافق عثمان وتابعه فيما دُوِّنَ، ذلك عندما أتم الصلاة خلفه، وعلل ذلك: أن الخلاف شر، فما بالك في الاختلاف في القرآن؟! فإنه سيكون أكثر ضررًا، وأعظم خطرًا، وأشد فتكًا بجماعة المسلمين.

وفي النهاية: فإن عثمان على حق في هذا، وهو يعلم ـ كما يعلم سائر الصحابة ـ مكانة ابن مسعود وعلمه وصدق إيمانه، ثم إن عثمان كان على حق أيضًا في حرق المصاحف الأخرى كلها ـ ومنها مصحف ابن مسعود ـ؛ لأن توحيد كتابة المصحف هو من أعظم أعمال عثمان بإجماع الصحابة، وكان جمهور الصحابة في كل ذلك مع عثمان على ابن مسعود، وعلى كل حال فإن عثمان لم يضرب ابن مسعود ولم يمنعه عطاءه، وبقي يعرف له قدره كما بقي ابن مسعود على طاعته لإمامه الذي بايع له، وهو يعتقد أنه خير المسلمين وقت البيعة.

وابتدع في جمع القرآن وتأليفه، وفي حرق المصاحف:

ومما أنكروه على عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ: أنه ابتدع في جمع القرآن وتأليفه، وفي حرق المصاحف! قال أبو بكر بن العربي ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: «وأما جمع القرآن، فتلك حسنته العظمى، وخصْلتُه الكبرى، وإن كان وَجدها كاملة، لكنه أظهرها وردَّ الناس إليها، وحسم مادة الخلاف فيها(١). وكان نفوذُ وعد الله بحفظ القرآن على يديه، وقد ثبت في صحيح البخاري وغيره أن زيد بن ثابت قال: أرسل إليّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده، فقال أبو بكر: «إن عمر أتانا فقال: إن القتل قد استحرَّ يوم اليمامة بقرّاء القرآن، وإني أخشى أن يستحرّ القتلُ بالقرّاء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تجمع القرآن. قلتُ لعمر: كيف نفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ؟ قال عمر: هذا والله خير. فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيتُ في ذلك الذي رأى عمر» قال زيد: قال أبو بكر: «إنك رجل شاب عاقل لا نتّهِمُك، وقد كنت تكتب

(١) كان الجمع الأول في خلافة أبي بكر عام ١١هـ، بعد معركة اليمامة.

الوحي لرسول الله - ﷺ -، فتتبَّع القرآن فاجمعه». فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمروني به من جمع القرآن. قلتُ: كيف تفعلون شيئًا لم يفعله رسول الله - ﷺ - ؟! قال عمر: «هذا والله خير». فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر، فتتبعتُ القرآنَ أجمعهُ من العُسُب، واللِّخاف (أي: جريد النخل والحجارة البيضاء)، وصدور الرجال حتى وجدتُ آخر سورة التوبة مع خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، حتى خاتمة براءة. فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر. حتى قدم حُذيفة بن اليمان على عثمان وكان يُغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذْرِبَيجان مع أهل العراق، فحدثه حذيفة عن اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى(١): فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف، ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر به زَيْدَ بنَ ثَابِتٍ ، وعَبْدَ اللَّهِ بنَ الزُّبَيْرِ، وعَبْدَ الرَّحْمَنِ بنَ الحَارِثِ بنِ هِشَامٍ، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القُرشيين

---

(١) اختلفوا في القراءات واللهجات، وسبب هذا الخلاف أن بعض المسلمين يأخذون بمصحف أبي بن كعب، وبعضهم بمصحف ابن مسعود، وبعضهم بمصحف عائشة، فاختلفوا فيما بينهم وتنازعوا حتى كفر بعضهم بعضًا. وقد قال علي بن أبي طالب "لو كنت الوالي وقت عثمان، لفعلت في المصاحف مثل الذي فعل عثمان".

الثلاثة: «إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم» ففعلوا.

حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردّ عثمانُ الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أُفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة ومصحف أن يُحرق.

وقد سلّم الصحابة كلهم بذلك إلا ما رُوِيَ عن ابن مسعود آنفًا، وبهذا حقق الله وعده في قوله ـ سبحانه ـ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

وقد تولى الخلافة بعد هؤلاء الشيوخ الثلاثة أمير المؤمنين عليٌّ فأمضى عملهم وأقر مصحف عثمان برسومه وتلاوته في جميع أمصار ولايته، وبذلك انعقد إجماع المسلمين في الصدر الأول على أن ما قام به أبو بكر وعمر وعثمان هو أعظم حسناتهم، وبهذا يتبين لكل ذي لب أن ما فعله أمير المؤمنين عثمان من جمعه للمصحف يُعد من أعظم حسناته، وأن كل مَن عد ذلك جرمًا ومنكرًا، قد انتكس عقله وظهر حقده، و بانت سريرته.

ومن التهم التي رموه بها أيضًا: أنه حمى الحمى:

والحمى موضعًا يعينه الحاكم ويخصصه لرعي مواشي الزكاة وغيرها مما يرجع ملكه إلى بيت مال المسلمين، ويمنع عامة الناس من الرعي فيه. ومعنى ذلك: أن عثمان خصص مساحة معينة من الأرض لبعض الإبل لترعى فيها دون غيرها من الإبل. فقالوا: إنه ابتدع في هذا الأمر، وقالوا: إنه كان يجعلها لإبله وخيله!

والرد على هذه التهمة الباطلة: أن الحمى كان موجودًا في الجاهلية قبل رسول الله ـ ﷺ ـ، فقد كان السيد يدخل الأرض التي يريد أن يجعلها حمى لإبله، ومعه

كلب يعوي، ويكون حدود حماه على امتداد عواء كلبه، وتكون تلك المنطقة من الأرض خاصة به لا تستطيع أي إبل غير إبله أن ترعى فيها، وهذا هو الحمى، فلما جاء رسول الله - ﷺ - ألغى هذا الأمر كله، إلا لإبل الصدقة فقط، فعن الصعب بن جثامة أن رسول الله - ﷺ - قال: **«لَا حِمَى إِلَّا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ»**(١).

وعن نافع عن ابن عمر أن النبي - ﷺ - حمى النقيع للخيل(٢). قال حماد ابن خالد راوي هذا الحديث عن عبد الله بن عمر العمري: يا أبا عبد الرحمن خيله؟ قال: خيل المسلمين(٣).

وقد فعل أبو بكر الصديق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مِثْلَ فِعْلِ رسول الله - ﷺ - في الحمى، ولما جاء عمر بن الخطاب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - زاد في هذه المساحة، وضم إليها أماكن كثيرة، وذلك لكثرة الفتوحات في عهد عمر بن الخطاب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، وكثرة إبل الجهاد، فكان لابد من التوسعة؛ فاتسع الحمى فشمل (سرف) و(الربذة)، وكان لعمر عامل على الحمى هو مولى له يدعى هنيًّا كما في صحيح البخاري عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: اسْتَعْمَلَ مَوْلًى لَهُ يُدْعَى هُنَيًّا عَلَى الحِمَى، فَقَالَ: «يَا هُنَيُّ اضْمُمْ جَنَاحَكَ عَنِ المُسْلِمِينَ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ، فَإِنَّ دَعْوَةَ المَظْلُومِ مُسْتَجَابَةٌ، وَأَدْخِلْ رَبَّ الصُّرَيْمَةِ (صاحب الإبل القليلة) وَرَبَّ الغُنَيْمَةِ (صاحب الغنم القليلة) وَإِيَّايَ، وَنَعَمَ ابْنِ عَوْفٍ، وَنَعَمَ ابْنِ عَفَّانَ، فَإِنَّهُمَا

---

(١) أخرجه البخاري.

(٢) أخرجه أحمد.

(٣) أي الخيل المرصودة للجهاد، أو ما يملكه بيت المال. والنقيع هذا في المدينة على عشرين فرسخًا منها، ومساحته ميل في ثمانية أميال كما في موطأ مالك.

إِنْ تَهْلِكْ مَاشِيَتُهُمَا يَرْجِعَا إِلَى نَخْلٍ وَزَرْعٍ، وَإِنَّ رَبَّ الصُّرَيْمَةِ، وَرَبَّ الغُنَيْمَةِ: إِنْ تَهْلِكْ مَاشِيَتُهُمَا، يَأْتِنِي بِبَنِيهِ»(١).

ولما كان عهد عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - اتسعت رقعة الدولة الإسلامية، وكثرت الخيرات عند المسلمين، وكثرت الإبل، فاتسعت منطقة الحمى إلى أكبر مما كانت عليه. فالذي أجازه النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لسوائم بيت المال، ومضى على مثله أبو بكر وعمر، يجوز مثله لبيت المال في زمن عثمان، ويكون الاعتراض عليه اعتراضًا على أمر داخل في التشريع الإسلامي. ولما أجاب عثمان على مسألة الحمى عندما دافع عن نفسه على ملأ من الصحابة أعلن أن الذين يلون له الحمى اقتصروا فيه على صدقات المسلمين يحمونها؛ لئلا يكون بين مَن يليها وبين أحد تنازع، وذكر عن نفسه أنه قبل أن يلي الخلافة كان أكثر العرب بعيرًا وشاء، ثم أمسى وليس له غير بعيرين لحجه. وسأل من يعرف ذلك من الصحابة: أكذلك؟ قالوا: اللّٰهم نعم. ثم إن خير عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - سابق على المسلمين منذ أسلم حتى استشهد - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه -، فظهر جليًّا أن هذه تهمة منكرة ألقى بها أصحاب النفوس المريضة، والعقول المنكوسة.

---

(١) حَذَّرَه أنْ يُقدِّمَ إِبِلَ عَبدِ الرَّحمنِ بنِ عَوفٍ وعُثمانَ بنِ عَفَّانَ رَضيَ اللهُ عنهما على إبِلِ غَيرِهما، وخَصَّهما بالذِّكرِ على طَريقِ المِثالِ؛ لِكَثرةِ مِلْكِهما لبَهيمةِ الأنعامِ؛ لِأنَّهما كانا مِن مَياسيرِ الصَّحابةِ، ولم يُرِدْ بذلك مَنعَهما ألبتَّةَ، وإنَّما أراد أنَّه إذا لم يَسَعِ المَرعَى إلَّا أنعامَ أحَدِ الفَريقَيْنِ، فأصحابُ الأنعامِ القليلةِ أَولى؛ وذلك لِأنَّ هذه الإبِلَ إنْ مُنِعَتْ مِن دُخولِ المَرْعى حيث الكَلَأُ والعُشبُ، هَلَكتْ، وإذا هَلَكتْ إبِلُ ابنِ عَوفٍ وابنِ عَفَّانَ وأمثالِهما، فإنَّهم سَوفَ يَرجِعونَ إلى عِوَضِ ذلك مِن أموالِهما مِن نَخلٍ وزَرعٍ وغَيرِهما، أمَّا المُقِلُّونَ والفُقَراءُ فسَوف يأتونَه بأولادِهم قائِلينَ له: نحن فُقَراءُ، مُحتاجونَ، وهو لنْ يَترُكَهم كذلك، فسَيحْتاجُ إلى تَعويضِهم.

ومن هذه التهم الباطلة: أن عثمان ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ نفى أبا ذر ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ إلى الرَّبذة(١): وهذا أيضًا من الأكاذيب والأباطيل، والصحيح أن أبا ذر ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ هو الذي طلب ذلك من عثمان ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ.

قال شيخ الإسلام في منهاج السنة: «وَأَمَّا قَوْلُهُ: «إِنَّهُ نَفَى أَبَا ذَرٍّ إِلَى الرَّبَذَةِ وَضَرَبَهُ ضَرْبًا وَجِيعًا، مَعَ أَنَّ النَّبِيَّ ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ فِي حَقِّهِ: **«مَا أَقَلَّتِ الْغَبْرَاءُ وَلَا أَظَلَّتِ الْخَضْرَاءُ عَلَى ذِي لَهْجَةٍ أَصْدَقَ مِنْ أَبِي ذَرٍّ»**.

فَالْجَوَابُ: أَنَّ أَبَا ذَرٍّ سَكَنَ الرَّبَذَةَ وَمَاتَ بِهَا لِسَبَبِ مَا كَانَ يَقَعُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنَّ أَبَا ذَرٍّ ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ كَانَ رجلًا صَالِحًا زَاهِدًا، وَكَانَ مِنْ مَذْهَبِهِ أَنَّ الزُّهْدَ وَاجِبٌ، وَأَنَّ مَا أَمْسَكَهُ الْإِنْسَانُ فَاضِلًا عَنْ حَاجَتِهِ فَهُوَ كَنْزٌ يُكْوَى بِهِ فِي النَّارِ(٢)، وَاحْتَجَّ عَلَى ذَلِكَ بِمَا لَا حُجَّةَ فِيهِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، احْتَجَّ بِقَوْلِهِ ـ تَعَالَى ـ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٤]، وَجَعَلَ الْكَنْزَ مَا يَفْضُلُ عَنِ الْحَاجَةِ، وَاحْتَجَّ بِمَا سَمِعَهُ مِنَ النَّبِيِّ ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَهُوَ أَنَّهُ قَالَ: **«يَا أَبَا ذَرٍّ مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا يَمْضِي عَلَيْهِ ثَالِثَةٌ وَعِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ، إِلَّا دِينَارًا أَرْصُدُهُ لِدَيْنٍ»**. وَأَنَّهُ قَالَ: **«الْأَكْثَرُونَ هُمُ الْأَقَلُّونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا مَنْ قَالَ بِالْمَالِ هَكَذَا وَهَكَذَا»**. وَلَمَّا تُوُفِّيَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَخَلَّفَ مَالًا، جَعَلَ أَبُو ذَرٍّ ذَلِكَ مِنَ الْكَنْزِ الَّذِي يُعَاقَبُ عَلَيْهِ، وَكَانَ قَدْ وَقَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُعَاوِيَةَ بِالشَّامِ بِهَذَا السَّبَبِ.

---

(١) الرَّبذة: قرية تقع في شرق المدينة المنورة، وتبعد عنها قرابة ١٧٠ كم.

(٢) وبهذا يكون لا عبرة للنصاب.

وَقَدْ وَافَقَ أَبَا ذَرٍّ عَلَى هَذَا طَائِفَةٌ مِنَ النُّسَّاكِ، وقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: «**لَيْسَ فِيمَا دُونَ خَمْسَةِ أَوْسُقٍ صَدَقَةٌ**[١]**، وَلَيْسَ فِيمَا دُونَ خَمْسِ ذَوْدٍ صَدَقَةٌ**[٢]**، وَلَيْسَ فِيمَا دُونَ خَمْسِ أَوَاقٍ**[٣] **صَدَقَةٌ**»، فَنَفَى الْوُجُوبَ فِيمَا دُونَ الْمِائَتَيْنِ، وَلَمْ يَشْتَرِطْ كَوْنَ صَاحِبِهَا مُحْتَاجًا إِلَيْهَا أَمْ لَا؟ وَقَالَ جُمْهُورُ الصَّحَابَةِ: الْكَنْزُ هُوَ الْمَالُ الَّذِي لَمْ تُؤَدَّ حُقُوقُهُ، وَكَانَ أَبُو ذَرٍّ يُرِيدُ أَنْ يُوجِبَ عَلَى النَّاسِ مَا لَمْ يُوجِبِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَيَذُمُّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يَذُمُّهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِ، مَعَ أَنَّهُ مُجْتَهِدٌ فِي ذَلِكَ، مُثَابٌ عَلَى طَاعَتِهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - كَسَائِرِ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْ أَمْثَالِهِ. وكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يُقَوِّمُ رَعِيَّتَهُ تَقْوِيمًا تَامًّا، فَلَا يَعْتَدِي لَا الْأَغْنِيَاءُ وَلَا الْفُقَرَاءُ. فَلَمَّا كَانَ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ تَوَسَّعَ الْأَغْنِيَاءُ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى زَادَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ عَلَى قَدْرِ الْمُبَاحِ فِي الْمِقْدَارِ وَالنَّوْعِ، وَتَوَسَّعَ أَبُو ذَرٍّ فِي الْإِنْكَارِ حَتَّى نَهَاهُمْ عَنِ الْمُبَاحَاتِ. وَهَذَا مِنْ أَسْبَابِ الْفِتَنِ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ. فَكَانَ اعْتِزَالُ أَبِي ذَرٍّ لِهَذَا السَّبَبِ، وَلَمْ يَكُنْ لِعُثْمَانَ مَعَ أَبِي ذَرٍّ غَرَضٌ مِنَ الْأَغْرَاضِ»[٤].

وقال ابن العربي: كان أبو ذر زاهدًا، وكان يقرّع عمال عثمان، ويتلو عليهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤]، ويراهم يتسعون في المراكب والملابس حين وجدوا، فينكر ذلك عليهم، ويريد تفريق جميع ذلك من بين أيديهم، وهو غير لازم. قال ابن عمر وغيره من الصحابة: إن ما أديت زكاته فليس بكنز، فوقع بين أبي ذر ومعاوية

---

(١) الوسق: مكيال للحبوب، ويقدر بستين صاعًا.

(٢) أي ليس فيما دون خمس من الإبل صدقة.

(٣) يَعْنِي لَيْسَ فِي أَقَلَّ مِنْ مِائَتَيْ دِرْهَمٍ صَدَقَةٌ.

(٤) بتصرف من «منهاج السنة».

كلام بالشام[١]، وكان أبو ذر يطلق من الكلام ما لم يكن يقوله في زمان عمر، فأعلم معاويةُ بذلك عثمانَ، وخشي من العامة أن تثور منهم فتنة، فإن أبا ذر كان يحملهم على التزهد وأمور لا يحتملها الناس كلهم، وإنما هي مخصوصة ببعضهم، فكتب إليه عثمان أن يَقدم المدينة، فخرج إلى المدينة، فاجتمع إليه الناس، فجعل يسلك تلك الطرق، فقال له عثمان: «لو اعتزلتَ». معناه: «إنك على مذهب لا يصلح لمخالطة الناس، فإن للخلطة شروطًا وللعزلة مثلها»، ومن كان على طريقة أبي ذرّ فحاله يقتضي أن ينفرد بنفسه، أو يخالط ويسلِّم لكل أحد حاله مما ليس بحرام في الشريعة، فخرج إلى الربذة زاهدًا فاضلًا»[٢].

وقال الشيخ محبَ الدين الخطيب ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ معلقًا: «وإنما اختار أبو ذر ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ أن يعتزل في الربذة، فوافقه عثمان على ذلك كما صح في حديث عبد الله ابن الصامت، قال: قدم أَبو ذر على عثمان من الشام فقال: «يا أَميرَ المؤمنين! افتح البابَ حتى يدخل الناس، أَتحسِبُني من قوم يقرؤون القرآنَ لا يجاوزُ حناجرَهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، ثمَّ لا يعودون فيه حتّى يعودَ السهم على فُوقه، هم شرّ الخلق والخليقة؟! والذي نفسي بيده؛ لو أَمرتني أَن أَقعدَ لَمَا

(١) و لَمَّا وَرَدَ ابْنُ السَّوْدَاءِ – ابن سبأ- الشَّامَ لَقِيَ أَبَا ذَرٍّ، فَقَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ، أَلا تَعْجَبُ إِلَى مُعَاوِيَةَ، يَقُولُ: الْمَالُ مَالُ اللَّهِ! أَلا إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ لِلَّهِ كأنه يريد ان يحتجنه دُونَ الْمُسْلِمِينَ، وَيَمْحُوَ اسْمَ الْمُسْلِمِينَ فَأَتَاهُ أَبُو ذَرٍّ، فَقَالَ: مَا يَدْعُوكَ إِلَى أَنْ تُسَمِّيَ مَالَ الْمُسْلِمِينَ مَالَ اللَّهِ! قَالَ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ يَا أَبَا ذَرٍّ، أَلَسْنَا عِبَادَ اللَّهِ، وَالْمَالُ مَالُهُ، وَالْخَلْقُ خَلْقُهُ، وَالأَمْرُ أَمْرُهُ! قَالَ: فَلا تَقُلْهُ، قَالَ: فَإِنِّي لا أَقُولُ: إِنَّهُ لَيْسَ لِلَّهِ، وَلَكِنْ سَأَقُولُ: مَالُ الْمُسْلِمِينَ.

(٢) بتصرف من «العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ».

قمتُ، ولو أَمرتني أَن أَكونَ قائمًا لقمت ما أَمكَنَتْني رجلاي، ولو ربطتني على بعير لم أُطْلِق نفسي حتّى تكون أَنتَ تطلقني. ثمَّ استأذنه أَن يأتيَ الرَّبَذَة، فأذنَ له، فأتاها؛ فإذا عبدٌ يؤمهم، فقالوا: أَبو ذر، فنكص العبد، فقيل له: تقدّم، فقال: أوصاني خليلي - ﷺ - بثلاث: أَن أَسمع وأطيع ولو لعبد حبشيّ مجدع الأَطراف...»(١).

وقد ذكر ابن خلدون في «العبر» أن أبا ذر استأذن عثمان في الخروج من المدينة وقال: «إن رسول الله - ﷺ - أمرني أن أخرج منها إذا بلغ البناء سلعًا(٢)»، فأذن له، ونزل الربذة وبنى بها مسجدًا، وأقطعه عثمان صرمة من الإبل وأعطاه مملوكين، وأجرى عليه رزقًا، وكان يتعاهد المدينة، فعدّ أولئك الرهط خروج أبي ذرّ فيما ينقمونه على عثمان!

وذكر الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» عند كلامه عن خلافة عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ما نصه: «ثم لما مات رسول الله - ﷺ - ومات أبو بكر، خرج إلى الشام فكان فيه حتى وقع بينه وبين معاوية، فاستقدمه عثمان إلى المدينة، ثم نزل الربذة فأقام بها حتى مات في ذي الحجة من هذه السنة، وليس عنده سوى امرأته وأولاده، فبينما هم كذلك لا يقدرون على دفنه إذ قدم عبد الله بن مسعود من العراق في جماعة من أصحابه، فحضروا موته، وأوصاهم كيف يفعلون به. وقيل: قدموا بعد وفاته فولوا غسله ودفنه، وكان قد أمر أهله أن يطبخوا لهم شاة من غنمه ليأكلوه بعد الموت، وقد أرسل عثمان بن عفان إلى أهله فضمهم مع أهله» اهـ.

---

(١) صححه الألباني في صحيح موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان.

(٢) وسلع جبلٌ في المدينة قريب من مسجده صلى الله عليه وسلم.

والحاصل أنه نزل الربذة باختياره ولم يكن نفيًا، وبهذا يتبين بما لا يدع مجالًا للشك أن هذه تهمة باطلة ولم تثبت.

ومن التهم الباطلة أيضًا: أن عثمان أخرج من الشام أبا الدرداء وعزله ونفاه.

قالوا: ووقع بين أبي الدرداء ومعاوية كلام وكان أبو الدرداء زاهدًا فاضلًا قاضيًا لهم في دمشق، فلما اشتد في الحق، وأخرج طريقة عمر في قوم لم يحتملوها عزلوه فخرج إلى المدينة.

قال ابن العربي: «وهذه كلها مصالح لا تقدح في الدين، ولا تؤثر في منزلة أحد من المسلمين بحال، وأبو الدرداء وأبو ذر بريئان من العيب، وعثمان بريء أعظم براءة وأكثر نزاهة، فمن روى أنه نُفِيَ، وروى سببًا فهو كله باطل» اهـ.

وقال الشيخ محبَ الدين الخطيب: «بل إن معاوية نفسه حاول السير على طريقة عمر، كما نقل ذلك الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» عن الزهري: «أن معاوية عمل سنتين عمل عمر ما يخرم فيه ثم إنه بعُد عن ذلك». ثم قال الشيخ محب الدين معلقًا:

وقد يظن مَن لا نظر له في حياة الشعوب وسياستها أن الحاكم يستطيع أن يكون كما يريد أن يكون حيثما يكون، وهذا خطأ؛ فللبيئة من التأثير في الحاكم وفي نظام الحكم أكثر مما للحاكم ونظام الحكم من التأثير على البيئة، وهذا من معاني قول الله ـ عَزَّوَجَلَّ ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١١].

قلتُ: وقد ذكر أصحاب السير أن أبا الدرداء ـ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ ـ توفي بدمشق في سنة إحدى وثلاثين. وقيل: اثنتين وثلاثين في خلافة عثمان ـ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ ـ ، ولو وقعت

الحادثة المذكورة، فهي لا تقدح في أحد من الثلاثة، فمن حق الحاكم أن يفعل ما يراه مصلحة، فيعزل من يشاء ويولي من يشاء.

ومن هذه التهم الباطلة: أنه رد الحكَم بن أبي العاص بن أمية بعد أن نفاه رسول الله - ﷺ - .

قالوا: وَطَرَدَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - الْحَكَمَ بْنَ أَبِي الْعَاصِ عَمَّ عُثْمَانَ عَنِ الْمَدِينَةِ، وَمَعَهُ ابْنُهُ مَرْوَانُ، فَلَمْ يَزَلْ طَرِيدًا هُوَ وَابْنُهُ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَلَمَّا وَلِيَ عُثْمَانُ آوَاهُ وَرَدَّهُ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَجَعَلَ مَرْوَانَ كَاتِبَهُ وَصَاحِبَ تَدْبِيرِهِ، مَعَ أَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - قَالَ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]. وقصة النفي هذه لم تثبت بسند صحيح، وعلى فرض ثبوتها فهي لا تقدح في عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ولا تعد مأخذًا عليه.

قال شيخ الإسلام في «منهاج السنة»: «وَالْجَوَابُ: أَنَّ الْحَكَمَ بْنَ أَبِي الْعَاصِ كَانَ مِنْ مُسْلِمَةِ الْفَتْحِ، وَكَانُوا أَلْفَيْ رَجُلٍ، وَمَرْوَانُ ابْنُهُ كَانَ صَغِيرًا إِذْ ذَاكَ، فَإِنَّهُ مِنْ أَقْرَانِ ابْنِ الزُّبَيْرِ وَالْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ، عُمْرُهُ حِينَ الْفَتْحِ سِنَّ التَّمْيِيزِ: إِمَّا سَبْعُ سِنِينَ، أَوْ أَكْثَرُ بِقَلِيلٍ، أَوْ أَقَلُّ بِقَلِيلٍ، فَلَمْ يَكُنْ لِمَرْوَانَ ذَنْبٌ يُطْرَدُ عَلَيْهِ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ - ﷺ -، وَلَمْ تَكُنِ الطُّلَقَاءُ تَسْكُنُ بِالْمَدِينَةِ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ - ﷺ - . فَإِنْ كَانَ قَدْ طَرَدَهُ، فَإِنَّمَا طَرَدَهُ مِنْ مَكَّةَ لَا مِنَ الْمَدِينَةِ، وَلَوْ طَرَدَهُ مِنَ الْمَدِينَةِ لَكَانَ يُرْسِلُهُ إِلَى مَكَّةَ. وَقَدْ طَعَنَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي نَفْيِهِ، وَقَالُوا: هُوَ ذَهَبَ بِاخْتِيَارِهِ. وَقِصَّةُ نَفْيِ الْحَكَمِ لَيْسَتْ فِي الصِّحَاحِ، وَلَا لَهَا إِسْنَادٌ يُعْرَفُ بِهِ أَمْرُهَا. وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَرْوِي أَنَّهُ حَاكَى النَّبِيَّ - ﷺ - فِي مِشْيَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ غَيْرَ ذَلِكَ، وَيَقُولُونَ: إِنَّهُ نَفَاهُ إِلَى الطَّائِفِ.

وَالطُّلَقَاءُ لَيْسَ فِيهِمْ مَنْ هَاجَرَ، وَالطَّرْدُ هُوَ النَّفْيُ، وَالنَّفْيُ قَدْ جَاءَتْ بِهِ السُّنَّةُ فِي الزَّانِي وَفِي الْمُخَنَّثِينَ، وَكَانُوا يُعَزِّرُونَ بِالنَّفْيِ.

وَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ - ﷺ - قَدْ عَزَّرَ رجلًا بِالنَّفْيِ، لَمْ يَلْزَمْ أَنْ يَبْقَى مَنْفِيًّا طُولَ الزَّمَانِ، فَإِنَّ هَذَا لَا يُعْرَفُ فِي شَيْءٍ مِنَ الذُّنُوبِ، وَلَمْ تَأْتِ الشَّرِيعَةُ بِذَنْبٍ يَبْقَى صَاحِبُهُ مَنْفِيًّا دَائِمًا، بَلْ غَايَةُ النَّفْيِ الْمُقَدَّرِ سَنَةً، وَهُوَ نَفْيُ الزَّانِي وَالْمُخَنَّثِ حَتَّى يَتُوبَ مِنَ التَّخْنِيثِ، فَإِنْ كَانَ تَعْزِيرُ الْحَاكِمِ لِذَنْبٍ حَتَّى يَتُوبَ مِنْهُ، فَإِذَا تَابَ سَقَطَتِ الْعُقُوبَةُ عَنْهُ، وَإِنْ كَانَتْ عَلَى ذَنْبٍ مَاضٍ فَهُوَ أَمْرٌ اجْتِهَادِيٌّ لَمْ يُقَدَّرْ فِيهِ قَدْرٌ، وَلَمْ يُوَقَّتْ فِيهِ وَقْتٌ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ، فَالنَّفْيُ كَانَ فِي آخِرِ الْهِجْرَةِ، فَلَمْ تَطُلْ مُدَّتُهُ فِي زَمَنِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ. فَلَمَّا كَانَ عُثْمَانُ طَالَتْ مُدَّتُهُ، وَقَدْ كَانَ عُثْمَانُ شَفَعَ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ - ، وَكَانَ كَاتِبًا لِلْوَحْيِ، وَارْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَكَانَ النَّبِيُّ - ﷺ - قَدْ أَهْدَرَ دَمَهُ فِيمَنْ أَهْدَرَ، ثُمَّ جَاءَ بِهِ عُثْمَانُ فَقَبِلَ النَّبِيُّ - ﷺ - شَفَاعَتَهُ فِيهِ وَبَايَعَهُ، فَكَيْفَ لَا يَقْبَلُ شَفَاعَتَهُ فِي الْحَكَمِ؟!

وَقَدْ رَوَوْا أَنَّ عُثْمَانَ سَأَلَ النَّبِيَّ - ﷺ - أَنْ يَرُدَّهُ فَأَذِنَ لَهُ فِي ذَلِكَ. وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ ذَنْبَهُ دُونَ ذَنْبِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ. وَقِصَّةُ عَبْدِ اللَّهِ مَعْرُوفَةٌ بِالْإِسْنَادِ الثَّابِتِ. وَأَمَّا قِصَّةُ الْحَكَمِ فَعَامَّةُ مَنْ ذَكَرَهَا إِنَّمَا ذَكَرَهَا مُرْسَلَةً، وَالْمَعْلُومُ مِنْ فَضَائِلِ عُثْمَانَ، وَمَحَبَّةِ النَّبِيِّ - ﷺ - لَهُ، وَثَنَائِهِ عَلَيْهِ، وَتَخْصِيصِهِ بِابْنَتَيْهِ، وَشَهَادَتِهِ لَهُ بِالْجَنَّةِ، وَإِرْسَالِهِ إِلَى مَكَّةَ، وَمُبَايَعَتِهِ لَهُ عَنْهُ لَمَّا أَرْسَلَهُ إِلَى مَكَّةَ، وَتَقْدِيمِ الصَّحَابَةِ لَهُ بِاخْتِيَارِهِمْ فِي الْخِلَافَةِ، وَشَهَادَةِ عُمَرَ وَغَيْرِهِ لَهُ بِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - مَاتَ وَهُوَ عَنْهُ رَاضٍ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِمَّا يُوجِبُ الْعِلْمَ الْقَطْعِيَّ بِأَنَّهُ مِنْ كِبَارِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، فَلَا يُدْفَعُ هَذَا بِنَقْلٍ لَا يَثْبُتُ إِسْنَادُهُ، وَلَا يُعْرَفُ كَيْفَ وَقَعَ،

وَيُجْعَلُ لِعُثْمَانَ ذَنْبٌ بِأَمْرٍ لَا يُعْرَفُ حَقِيقَتُهُ، بَلْ مِثْلُ هَذَا مِثْلُ الَّذِينَ يُعَارِضُونَ الْمُحْكَمَ بِالْمُتَشَابِهِ، وَهَذَا مِنْ فِعْلِ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ؛ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْفِتْنَةَ.

وَبِالْجُمْلَةِ، فَنَحْنُ نَعْلَمُ قَطْعًا أَنَّ النَّبِيَّ ـ ﷺ ـ لَمْ يَكُنْ يَأْمُرُ بِنَفْيِ أَحَدٍ دَائِمًا ثُمَّ يَرُدُّهُ عُثْمَانُ مَعْصِيَةً لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَلَا يُنْكِرُ ذَلِكَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ، وَكَانَ عُثْمَانُ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ أَتْقَى لِلَّهِ مِنْ أَنْ يُقْدِمَ عَلَى مِثْلِ هَذَا، بَلْ هَذَا مِمَّا يَدْخُلُهُ الِاجْتِهَادُ، فَلَعَلَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ لَمْ يَرُدَّاهُ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَطْلُبْ ذَلِكَ مِنْهُمَا، وَطَلَبَهُ مِنْ عُثْمَانَ، فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ، أَوْ لَعَلَّهُ لَمْ يَتَبَيَّنْ لَهُمَا تَوْبَتُهُ، وَتَبَيَّنَ ذَلِكَ لِعُثْمَانَ. وَغَايَةُ مَا يُقَدَّرُ أَنْ يَكُونَ هَذَا خَطَأً مِنَ الِاجْتِهَادِ أَوْ ذَنْبًا، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ. وَأَمَّا اسْتِكْتَابُهُ مَرْوَانَ، فَمَرْوَانُ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي ذَلِكَ ذَنْبٌ؛ لِأَنَّهُ كَانَ صَغِيرًا لَمْ يَجْرِ عَلَيْهِ الْقَلَمُ، وَمَاتَ النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ وَمَرْوَانُ لَمْ يَبْلُغِ الْحُلُمَ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ، بَلْ غَايَتُهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ عَشْرُ سِنِينَ أَوْ قَرِيبٌ مِنْهَا، وَكَانَ مُسْلِمًا بَاطِنًا وَظَاهِرًا، يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَفَقَّهُ فِي الدِّينِ، وَلَمْ يَكُنْ قَبْلَ الْفِتْنَةِ مَعْرُوفًا بِشَيْءٍ يُعَابُ بِهِ، فَلَا ذَنْبَ لِعُثْمَانَ فِي اسْتِكْتَابِهِ» اهـ (بتصرف من منهاج السنة).

فهذا فيما يتعلق بالحكم بن أبي العاص وقصة نفيه، وعذر عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ في رده إلى المدينة على تقدير ثبوت القصة.

ومن المآخذ التي ذكروها أيضًا: أنه أبطل سنة القصر في الصلوات في السفر، وكان ذلك في منى في موسم الحج سنة ٢٩هـ.

وقد ذكر الطبري أن عبد الرحمن بن عوف عاتب عثمان في إتمامه الصلاة وهم في منى، فاعتذر له عثمان بأن بعض من حج من أهل اليمن وجفاة الناس قالوا في العام الماضي: إن الصلاة للمقيم ركعتان، وهذا إمامكم عثمان يصلي ركعتين. ثم

قال عثمان لعبد الرحمن بن عوف: وقد اتخذت بمكة أهلًا (أي أنه صار في حكم المقيم، لا المسافر) فرأيت أن أصلي أربعًا لخوف ما أخاف على الناس، ثم خرج عبد الرحمن بن عوف من عند عثمان فلقي عبد الله بن مسعود وخاطبه في ذلك، فقال ابن مسعود: «الخلاف شر، قد بلغني أنه صلى أربعًا فصليت بأصحابي أربعًا». فقال عبد الرحمن بن عوف: «قد بلغني أنه صلى أربعًا فصليت بأصحابي ركعتين. وأما الآن فسوف يكون الذي تقول «يعني نصلي معه أربعًا».

قال ابن العربي: «وأما تَرْكُ القصر فاجتهاد، إذ سمع أن الناس افتتنوا بالقصر، وفعلوا ذلك في منازلهم، فرأي أن السُّنة ربما أدت إلى إسقاط الفريضة، فتركها خوف الذريعة مع أن جماعة من العلماء قالوا: إن المسافر مخيّر بين القصر والإتمام، واختلف في ذلك الصحابة» اهـ.

إذن القضية هنا قضية اجتهاد، فقد اجتهد عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - في هذا الأمر، وإن كان الأولى هو القصر في السفر، كما ثبت عن رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أنه لم يتم صلاة قط في سفر، إلا أن الأمر كان موضع اجتهاد، ووافقه الصحابة لتجنب الخلاف، ولو كان حرامًا لَمَا وافقه الصحابة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جميعًا - ؛ فإن كان عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قد أخطأ في اجتهاده هذا فله أجر واحد، وإن كان أصاب فله أجران. وقد كان لعثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - تأويلات يستند إليها في رأيه كزواجه وماله بالطائف، وافتتان الناس بالقصر، وهذا الأمر لا يُحِلُ دمه - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بأي حال من الأحوال. قال الإمام الشافعي - رَحِمَهُ اللَّهُ -: «لو كان فرض المسافر ركعتين لما أتم عثمان، ولا عائشة، ولا ابن مسعود، ولم يجز أن يتمها مسافر مع مقيم». وقال ابن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: «صَحِبْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فَكَانَ لَا يَزِيدُ فِي السَّفَرِ عَلَى رَكْعَتَيْنِ، وَأَبَا بَكْرٍ

وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ كَذَلِكَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ»[(١)]. يعني في أول خلافة عثمان؛ وإلا فعثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ كان يتم في آخر خلافته وما كان ذلك إلا لعلة رآها ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ.

ومن التهم: أنه ولّى معاوية بن أبي سفيان وولّى عبد الله بن عامر وولّى مروان ابن الحكم. وهؤلاء من أقاربه.

إن شخصية معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قد نالها من الطعن والتشويه والافتراء والظلم الكثير، والطعن في الصحابة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ طعن في الدين؛ لأن الدين أتانا عن طريقهم، كما يقول **ابن تيمية** ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ. وقد ذكرت بعض المصادر التاريخية الكثير من الروايات الضعيفة أو المكذوبة على معاوية بن أبي سفيان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ؛ أما عن ولاية معاوية فعمر ولاه، وجمع له الشامات كلها، وأقرّه عثمان، بل إنما ولاه أبو بكر الصديق ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ وجعله خليفة لأخيه **يزيد بن أبي سفيان** على الجيش الخارج لحرب الروم في الشام، وكان معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ في عهد رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يكتب له الوحي، فقد كان الرسول ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يأتمنه على وحي السماء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «منهاج السنة»: «والْجَوَابُ: أَنَّ مُعَاوِيَةَ إِنَّمَا وَلَّاهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ، لَمَّا مَاتَ أَخُوهُ يَزِيدُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ وَلَّاهُ عُمَرُ مَكَانَ أَخِيهِ. وَاسْتَمَرَّ فِي وِلَايَةِ عُثْمَانَ، وَزَادَهُ عُثْمَانُ فِي الْوِلَايَةِ. وَكَانَتْ سِيرَةُ مُعَاوِيَةَ مَعَ رَعِيَّتِهِ مِنْ خِيَارِ سِيَرِ الْوُلَاةِ، وَكَانَتْ رَعِيَّتُهُ يُحِبُّونَهُ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ أَنَّهُ قَالَ: «خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ، وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ». وَإِنَّمَا ظَهَرَ الْإِحْدَاثُ مِنْ مُعَاوِيَةَ فِي الْفِتْنَةِ لَمَّا قُتِلَ عُثْمَانُ، وَلَمَّا قُتِلَ

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

عُثْمَانُ كَانَتِ الْفِتْنَةُ شَامِلَةً لِأَكْثَرِ النَّاسِ، لَمْ يَخْتَصَّ بِهَا مُعَاوِيَةُ، بَلْ كَانَ مُعَاوِيَةُ أَطْلَبَ لِلسَّلَامَةِ مِنْ كَثِيرٍ مِنْهُمْ، وَأَبْعَدَ عَنِ الشَّرِّ مِنْ كَثِيرٍ مِنْهُمْ» اهـ.

وقد ورد الخبر بدعاء النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لمعاوية - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، فقد روى الترمذي في فضائل معاوية - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أنه لما تولَّى أَمْرَ الناس كانت نفوسهم لا تزال مشتعلة عليه؛ فقالوا: كيف يتولى معاوية وفي الناس من هو خير مثل الحسن والحسين؟ فقال عبد الرحمن بن أبي عميرة: لا تذكروه إلا بخير، فإني سمعت رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يقول: **«اللَّهم اجعله هاديًا مَهْدِيًّا وَاهْدِ به»**(١).

ويروي الطبري مرفوعًا إلى عبد الله بن عباس قوله: «ما رأيتُ أحدًا أخلق للملك من معاوية، إن كان ليرد الناس منه على أرجاء وادٍ رَحْب..».

ويقول ابن تيمية: «فلم يكن من ملوك المسلمين ملك خيرًا من معاوية إذا نُسِبَتْ أيامه إلى أيام من بعده، أما إذا نسبت إلى أيام أبي بكر وعمر ظهر التفاضل..». وكانت صلاته - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أشبه بصلاة رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فرُوي عن أبي الدرداء أنه قال: «ما رأيت أشبه صلاة برسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من أميركم هذا - يعني معاوية -».

وكان فقيهًا يَعْتَدُّ الصحابة بفقهه واجتهاده؛ فقد روى البخاري في صحيحه في كتاب المناقب عن أبي مليكة قال: «أَوْتَرَ معاوية بعد العشاء بركعة وعنده مولى لابن عباس؛ فأتى ابن عباس فأخبره، فقال: دعه؛ فإنه قد صحب رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ». وفي رواية أخرى: قيل لابن عباس: «هل لك في أمير المؤمنين معاوية فإنه ما أوتر إلا بواحدة، قال: أصاب إنه فقيه». وقد كان لمعاوية - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - شرف قيادة أول حملة بحرية، وهي التي شبهها رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بالملوك على

(١) أخرجه: أحمد (١٧٨٩٥)، والترمذي (٣٨٤٢)، وابن سعد في «الطبقات»، وصححه الألباني.

الأَسِرَّة؛ فقد روى البخاري في صحيحه من طريق **أنس بن مالك** عن خالته **أم حرام بنت ملحان** قالت: «نام النبي - ﷺ - يومًا قريبًا مني، ثم استيقظ يبتسم، فقلت: ما أضحك؟ قال: أناس من أمتي عرضوا عليَّ يركبون هذا البحر الأخضر كالملوك على الأسرة، قالت: فادع الله أن يجعلني منهم، فدعا لها، ثم نام الثانية، ففعل مثلها فقالت قولها، فأجابها مثلها، فقالت: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: أنت من الأولين، فخرجت مع زوجها **عبادة بن الصامت** غازيًا أول ما ركب المسلمون البحر مع معاوية - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، فلما انصرفوا من غزوتهم قافلين فنزلوا الشام، فَقُرِّبَت إليها دابة لتركبها فصرعتها فماتت»[١].

قال ابن حجر معلقًا على رؤيا رسول الله - ﷺ -: قوله: «**ناس من أمتي عرضوا عليَّ غزاة...**» يشعر بأن ضَحِكَهُ كان إعجابًا بهم، فرحًا لِمَا رأى لهم من المنزلة الرفيعة.

وأخرج البخاري - أيضًا - من طريق أم حرام بنت ملحان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قالت: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «**أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا**. قالت أم حرام: قلت: يا رسول الله أنا فيهم؟ قال: أنتِ فيهم، ثم قال النبي - ﷺ - : «**أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر** - أي القسطنطينية - **مغفور لهم..**». فقلت: أنا فيهم يا رسول الله؟ قال: «**لا**»[٢]. ومعنى أوجبواْ: أي فعلوا فعلًا وجبت لهم به الجنة.

قال ابن حجر في الفتح: «ومن المتفق عليه بين المؤرخين أن غزو البحر وفتح جزيرة قبرص كان في سنة ٢٧ هـ في إمارة معاوية - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - على الشام أثناء خلافة عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -».

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٩٩).

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٢٤).

وكان معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ أهلًا للإمارة والخلافة معًا، ومن أجل هذه الأهلية ظل أميرًا على الشام عشرين سنة، وخليفة للمسلمين ما يقرب من عشرين سنة، فلم يَهْجُهُ أحد في دولته، بل دانت له الأمم، وحكم على العرب والعجم، وكان ملكه على الحرمين ومصر، والشام والعراق، وخراسان، وفارس، والجزيرة، واليمن والمغرب، وغير ذلك.

وذكر ابن كثير في «البداية والنهاية» أن علي بن أبي طالب ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال بعد رجوعه من صِفِّين: «أيها الناس لا تكرهوا إمارة معاوية؛ فإنكم لو فقدتموها رأيتم الرءوس تندر عن كواهلها كأنها الحنظل».

وقد حزن معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ لمقتل علي بن أبي طالب ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ حزنًا شديدًا، فيُرْوَى أنه عندما جاءه خبر قتله بكى بكاءً شديدًا؛ فقالت له امرأته: أتبكيه وقد قاتلته؟ فقال: «ويحك! إنك لا تدرين ما فقد الناس من الفضل والفقه والعلم».

وذُكِرَ **عمر بن عبد العزيز** عند الأعمش فقال: «فكيف لو أدركتم معاوية؟ قالوا: في حلمه، قال: لا والله، في عدله».

وإليك شهادة الذهبي له حيث يقول: «وحَسْبُك بمن يؤمِّره عمر ثم عثمان على إقليم فيضبطه، ويقوم به أتم قيام، ويُرضي الناس بسخائه وحلمه، فهذا الرجل ساد وساس العالم بكمال عقله وفَرْط حلمه وسعة نفسه، وقوه دهائه ورأيه» اهـ.

وما أكثر الفتوحات التي تمت في عهد عثمان بن عفان على يد معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ ثم ما أكثر الفتوحات التي كانت في خلافته؛ فبعد أن استقر الأمر لمعاوية بن أبي سفيان سنة ٤١هـ خليفة للمسلمين باشر في تطوير الأسطول البحري ليكون قادرًا على دك معاقل القسطنطينية عاصمة الروم، ومبعث العدوان والخطر الدائم ضد المسلمين، وأنشأ أول دار صناعة للأساطيل لإنتاج السفن الحربية المختلفة بمصر سنة ٥٤هـ.

يقول محب الدين الخطيب معلقًا على أثر ابن عباس: «ما رأيت رجلًا أخلق بالملك من معاوية»: «وهل يكون الرجل أخلق الناس بالملك إلا أن يكون عادلًا حكيمًا، يحسن الدفاع عن ملكه، ويستعين بالله في نشر دعوة الله في الممالك الأخرى، ويقوم بالأمانة في الأمة التي ائتمنه الله عليها؟! والذي يكون أخلق الناس بالملك هل يُلام عثمان على توليته؟! ويا عجبًا! كيف يلام عثمان على توليته وقد ولاه من قبله عمر، وتولى لأبي بكر من قبل عمر، وتولى بعض عمل رسول الله - ﷺ - قبل أن تصير الخلافة إلى أبي بكر وعمر وعثمان؟! إن المخ الذي يعبث به الشيطان فيسوّل له مثل هذه الوساوس لا شك أنه مخ فاسد، يفسد على الناس عقولهم ومنطقهم قبل أن يفسد عليهم دينهم وتاريخهم» اهـ.

وأما توليته لعبد الله بن عامر فهو من بني أُمية من جهة الأب، ومن بني هاشم من جهة الأم، فأم جدته الكبرى عمة رسول الله - ﷺ - ، فإن أم أبيه أروى بنت كريز، أمها البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم عمة النبي - ﷺ - . ولما ولد عبد الله بن عامر بن قريظ أُتي به إلى النبي - ﷺ - ، فقال لأهله: **«هَذَا أَشْبَهُ بِنَا مِنْهُ بِكُمْ»**، ثم تفل في فيه فازدرده(١)، فقال - ﷺ - : **«أَرْجُو أَنْ يَكُونَ مَسْقِيًّا»**(٢). فكان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لا يعالج أرضًا إلا ظهر منها الماء(٣).

ويُعدّ عبد الله بن عامر من أشهر الفاتحين في الإسلام؛ فقد فتح خراسان كلها، وأطراف فارس، وساجستان، وأعاد فتح كرمان بعد نقضها للعهد، وكان هذا الجهاد سببًا في تقويض آمال المجوس في استعادة ملكهم، ومِن ثَمَّ يُكِنّون له هذا

---

(١) أي: بلَعَهَا بِسُرْعَةٍ.

(٢) «دلائل النبوة» للبيهقي.

(٣) ذكره ابن حجر العسقلاني في «الإصابة» (٥/ ١٤).

الحقد العظيم في نفوسهم، وعندما انطلق الشيعة من تلك الأراضي أخذوا يطعنون في من قوضوا ملك فارس من أمثال المجاهد عبد الله بن عامر بن قريظ الذي فعل هذا، ولم يكن يبلغ من العمر سوى خمسة وعشرين سنة.

قال ابن كثير في «البداية والنهاية»: «هو أول من اتخذ الحياض بعرفة لحجاج بيت الله الحرام، وأجرى إليها الماء المعين». وقال **ابن تيمية** ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ في «منهاج السنة»: «إن له من الحسنات، والمحبة في قلوب الناس ما لا يُنكر».

وأما توليته مروان بن الحكم:

مَن هو مروان بن الحكم؟

هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن شمس بن عبد مناف القرشي الأموي. روى عن النبي ـ ﷺ ـ **في صلح الحديبية**، والحديث في صحيح البخاري عن مروان **والمسور بن مخرمة**، كما روى مروان عن عمر وعثمان، وكان كاتبَه ـ أي كان كاتب عثمان ـ وروى عن علي **وزيد بن ثابت**. وروى عنه ابنه عبد الملك وسهل بن سعد، وسعيد بن المسيب، **وعروة بن الزبير** وعلي ابن الحسين (زين العابدين)، ومجاهد، وغيرهم. وكان مروان بن الحكم من سادات قريش وفضلائها، وقد قاتل مروان يوم الدار قتالًا شديدًا، وقَتَلَ بعض الخارجين على عثمان، وكان على الميسرة يوم الجمل، وكان علي بن أبي طالب ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ يُكْثِرُ السؤال عن مروان حين انهزم الناس يوم الجمل، يخشى عليه من القتل، فلما سُئِلَ عن ذلك قال: «إنه يعطفني عليه رحم ماسة، وهو سيد من شباب قريش». وكان مروان ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ قارئًا لكتاب الله، فقيهًا في دين الله، شديدًا في حدود الله، ومن أجل ذلك وَلَّاهُ معاوية المدينة غير مرة. والواقع أن

مروان بن الحكم لم يُولّ، وإنما كان عثمان ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ يستشيره في كثير من الأمور، وكان يقربه إليه، ولم يولّه إمارةً من الإمارات.

يقول القاضي ابن العربي في «العواصم من القواصم»: «مروان رجل عدل من كبار الأمة عند الصحابة، والتابعين، وفقهاء المسلمين». وكان مروان جوادًا كريمًا فقد روى المدائني عن إبراهيم بن محمد عن جعفر بن محمد أن مروان أسلف علي بن الحسين ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا ـ حين رجع إلى المدينة بعد مقتل الحسين ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ ستة آلاف دينار، فلما حضرته الوفاة أوصى إلى ابنه عبد الملك أن لا يسترجع من علي بن الحسين شيئًا، فبعث إليه عبد الملك بذلك فامتنع من قبولها، فَأَلَحَّ عليه فقبلها، وكان الحسن والحسين يصليان خلف مروان ولا يعيدان, وكان إذا وقعت معضلة أثناء ولايته على المدينة جمع من عنده من الصحابة فاستشارهم فيها, وهو الذي جمع الصيعان فأخذ بأعدلها, فنسب إليه فقيل صاع مروان, وكان ذا شهامة وشجاعة ومكر ودهاء.

وبعد وفاة **معاوية بن يزيد** اضطرب أمر بني أمية اضطرابًا شديدًا، وكادت دولتهم أن تذهب لولا أن تداركوا أمرهم فيما بينهم، وفي هذا التوقيت أخذ عبد الله بن الزبير البيعة لنفسه في مكة، وبدأت البيعة تأتيه من سائر الأقاليم حتى من بلاد الشام ذاتها مركز ثقل الأمويين، فقد انقسم أهلها إلى فريقين: فريق مال إلى ابن الزبير، والفريق الآخر ظل على ولائه للأمويين.

وكان مروان وبنوه في المدينة عند وفاة يزيد بن معاوية، ثم رحلوا إلى الشام، فلما وصلوها وجدوا الأمر مضطربًا والانقسامات على أشدها، مما جعل مروان يفكر في العودة إلى الحجاز ومبايعة ابن الزبير، فهناك روايات تذكر أن مروان ابن الحكم كان قد عزم على مبايعة ابن الزبير لولا أن تدخل عبيد الله بن زياد والحصين بن نمير السكوني وغيرهما في آخر لحظة وأثنوه عن عزمه.

وفي النهاية نقول: إن عثمان ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ لم يولِ مروان ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ كما يَدَّعِي الكذابون، وإنما كان عثمان ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ يستشيره في كثير من الأمور، وكان يقربه إليه، ولاشك أن بني أُمية كانت من أكبر القبائل العربية آنذاك، وكان فيهم الكثير ممن يصلح للحكم والولاية، وكانوا من أشراف العرب، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يوليهم في كثير من الأمور، فنجد أنه في عهد رسول الله ـ ﷺ ـ ، وبعد أن فُتحت مكة ولّى عليها **عتَّاب بن أسيد** من بني أمية، بينما كان عمره لا يتجاوز العشرين سنة، فولّاه الرسول ـ ﷺ ـ على أفضل بقاع الأرض على مكة.

قال شيخ الاسلام في «مجموع الفتاوى» وهو يتحدث عن الطلقاء: «بل ظهر منهم من حسن الإسلام، وطاعة الله ورسوله، وحب الله ورسوله، والجهاد في سبيل الله، وحفظ حدود الله، ما دل على حسن إيمانهم الباطن وحسن إسلامهم، ومنهم مَن أمَّره النبي ـ ﷺ ـ واستعمله نائبًا له، كما استعمل عتاب بن أسيد أميرًا على مكة نائبًا عنه، وكان من خيار المسلمين. وقد استعمل النبي ـ ﷺ ـ أبا سفيان بن حرب ـ أبا معاوية ـ على نجران نائبًا له، وتوفي النبي ـ ﷺ ـ وأبو سفيان عامله على نجران. وكان معاوية أحسن إسلامًا من أبيه باتفاق أهل العلم، كما أن أخاه «يزيد بن أبي سفيان» كان أفضل منه ومن أبيه؛ ولهذا استعمله أبو بكر الصديق ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ على قتال النصارى حين فتح الشام، وكان هو أحد الأمراء الذين استعملهم أبو بكر الصديق» اهـ.

وقال أيضًا في «منهاج السنة»: «وَمِنَ الْعَجَبِ: أَنَّ الشِّيعَةَ يُنْكِرُونَ عَلَى عُثْمَانَ مَا يَدَّعُونَ أَنَّ عليًّا كَانَ أَبْلَغَ فِيهِ مِنْ عُثْمَانَ. فَيَقُولُونَ: إِنَّ عُثْمَانَ وَلَّى أَقَارِبَهُ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ عليًّا وَلَّى أَقَارِبَهُ مِنْ قِبَلِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ: كَعَبْدِ اللَّهِ وَعُبَيْدِ اللَّهِ ابْنَيِ الْعَبَّاسِ. فَوَلَّى عُبَيْدَ اللهِ بْنَ عَبَّاسٍ عَلَى الْيَمَنِ، وَوَلَّى عَلَى مَكَّةَ وَالطَّائِفِ قُثَمَ

ابْنَ الْعَبَّاسِ. وَأَمَّا الْمَدِينَةُ فَقِيلَ: إِنَّهُ وَلَّى عَلَيْهَا سَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ. وَقِيلَ: ثُمَامَةَ ابْنَ الْعَبَّاسِ. وَأَمَّا الْبَصْرَةُ فَوَلَّى عَلَيْهَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ. وَوَلَّى عَلَى مِصْرَ رَبِيبَهُ مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي بَكْرٍ الَّذِي رَبَّاهُ فِي حِجْرِهِ. ثُمَّ إِنَّ الْإِمَامِيَّةَ تَدَّعِي أَنَّ عليًّا نَصَّ عَلَى أَوْلَادِهِ فِي الْخِلَافَةِ، أَوْ عَلَى وَلَدِهِ، وَوَلَدِهِ عَلَى وَلَدِهِ الْآخَرِ، وَهَلُمَّ جرًّا. وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ إِنْ كَانَ تَوْلِيَةُ الْأَقْرَبِينَ مُنْكَرًا، فَتَوْلِيَةُ الْخِلَافَةِ الْعُظْمَى أَعْظَمُ مِنْ إِمَارَةِ بَعْضِ الْأَعْمَالِ، وَتَوْلِيَةُ الْأَوْلَادِ أَقْرَبُ إِلَى الْإِنْكَارِ مِنْ تَوْلِيَةِ بَنِي الْعَمِّ» اهـ.

وقد ولّى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على صنعاء، واليمن، وصدقات بني مذحج خالدَ بن سعيد بن العاص الأموي، وولّى على تيماء، وخيبر، وقُرى عرينة، عثمانَ بن سعيد بن العاص الأموي، وولّى على البحرين أبان بن سعيد بن العاص، واستعملهم بعد ذلك أيضًا أبو بكر الصديق وعمر ـ رضي الله عنهما ـ، وزاد عمر ـ رضي الله عنه ـ يزيد بن أبي سفيان، ومعاوية بن أبي سفيان.

إذن لا يستطيع أحد أن ينكر منزلة بني أُمية في التاريخ، فهم الذين ثبتوا دعائم الدولة الإسلامية، ونشروا الإسلام في بقاع كثيرة.

ثم نطرح سؤالًا: هل كان معظم ولاة عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ من أقاربه بالفعل؟ والإجابة: لا، فلقد كانت المناصب العُليَا في عهد عثمان ـ رضي الله عنه ـ، وتحديدًا في الوقت الذي جاء فيه المجرمون المنافقون يطلبون عزله ـ رضي الله عنه ـ، كانت هذه المناصب على هذا النحو التالي:

كان على القضاء: زيد بن ثابت الأنصاري، وكان على بيت المال: عقبة ابن عامر الجهني، وكان على إمارة الحج: عبد الله بن عباس الهاشمي، وعلى الخراج: جابر

بن فلان المزني، وسماك الأنصاري، وعلى إمارة الحرب: القعقاع بن عمرو التميمي، وعلى الشرطة: عبد الله بن قنفذ من بني تيّم.

فهذه المناصب الستة العُليَا في الدولة لم يكن فيها أحد من بني أمية، أما ولاة عثمان بن عفان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ على البلاد المختلفة، فكانوا على هذا النحو التالي:

كان على اليمن: يعلى بن أمية التميمي، **وكان على مكة:** عبد الله بن عمرو الحضرمي، **وعلى همذان: جرير بن عبد الله البجلي، وعلى الطائف:** القاسم ابن ربيعة الثقفي، **وعلى الكوفة:** أبو موسى الأشعري، **وعلى البصرة:** عبد الله ابن عامر بن قريظ، **وعلى مصر:** عبد الله بن سعد بن أبي سرح، **وعلى الشام:** معاوية ابن أبي سفيان، **وعلى حمص: عبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومي، وعلى قنسرين:** حبيب بن مسلمة القرشي الهاشمي، **وعلى الأردن:** أبو الأعور السلمي، **وعلى فلسطين:** علقمة بن حكم الكنعاني، **وعلى أذربيجان: الأشعث بن قيس الكندي، وعلى حلوان ـ في أرض فارس ـ:** عتيبة بن النهاس العجلي، **وعلى أصفهان في عمق فارس: السائب بن الأقرع الثقفي.**

ولا نلحظ في كل هذه الولايات إلا اثنين فقط من أقارب عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ هما: عبد الله بن عامر بن قريظ، ومعاوية بن أبي سفيان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ . ثم نقول: إن الولاية أمر يجتهد فيه أمير المؤمنين أو الخليفة حسب ما يرى، وحسب من يصلح أن يكون أهلًا للإمارة؛ سواء أكان قريبًا له، أو غير قريب، بل إن له أن يعزل الفاضل، ويولّي المفضول إن رأي في ذلك مصلحة للمسلمين، أو دفع فتنة عنهم، كما فعل عمر بن الخطاب ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ عندما عزل سعد بن أبي وقّاص، وهو أحد

العشرة المبشرين بالجنة، وخال الرسول ـ ﷺ ـ [(١)]، والوحيد الذي افتداه الرسول ـ ﷺ ـ بأبيه وأمه، وولّى بعده من هو أقل منه درجة: عبد الله بن عبد الله ابن عتبان، ثم زياد بن حنظلة، ثم عمار بن ياسر، ولم ينكر عليه أحد ذلك.

قال شيخ الاسلام: «وَقَدْ وَلَّى عَلِيٌّ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ زِيَادَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ، أَبَا عُبَيْدِ اللَّهِ ابْنَ زِيَادٍ قَاتِلِ الْحُسَيْنِ، وَوَلَّى الْأَشْتَرَ النَّخَعِيَّ، وَوَلَّى مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي بَكْرٍ، وَأَمْثَالَ هَؤُلَاءِ. وَلَا يَشُكُّ عَاقِلٌ أَنَّ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ كَانَ خَيْرًا مِنْ هَؤُلَاءِ كُلِّهِمْ» اهـ.

ومن التهم التي وجهت إلى أمير المؤمنين عثمان، قالوا: **أنه ولى الوليد ابن عقبة [(٢)] وهو فاسق ليس من أهل الولاية:**

قال أبو بكر بن العربي ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: «وأما تولية الوليد بن عقبة فإن الناس ـ على فساد النيات ـ أسرعوا إلى السيئات قبل الحسنات. فذكر الافترائيون أنه إنما ولاه للمعنى الذي تكلم به. قال عثمان: ما وليت الوليد؛ لأنه أخي (هو أخوه لأمه

---

(١) لم يكن خالًا للنبي صلى الله عليه وسلم، حقيقة؛ وإنما دعاه بذلك لالتقائه معه في النسب من جهة الأم، وليس المراد أنه أخو أمه.

(٢) له صحبة، وقد روى بعض المفسرين أن الله سماه فاسقا في قوله {إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ} [الحجرات: ٦] فإنها – في قولهم – نزلت فيه، أرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى بني المصطلق، فأخبر عنهم أنهم ارتدوا، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم خالد بن الوليد فتثبت في أمرهم فبين بطلان قوله؛ وقد قال بعض العلماء بعدم ثبوت هذه القصة، وقيل بل هو المقصود ولكنه لم يتعمد الكذب، لأن بعض بني المصطلق خرج لاستقباله، فتوهم أنهم خرجوا لقتاله، ففر راجعًا، والصحابة عدول، فلا يقتضي ذلك أن يكون الوليد فاسقًا، لأن العبرة بعموم اللفظ، فالآية عامة لبيان وجوب التثبت من الأخبار.

أروى بنت كريز) وإنما وليته لأنه ابن أم حكيم البيضاء عمة رسول الله ـ ﷺ ـ وتوأمة أبيه.

ويقول محب الدين الخطيب ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ معلقًا على هذه التهمة: «قد يظن مَن لا يعرف صدر هذه الأمة أن أمير المؤمنين عثمان جاء بالوليد بن عقبة من عرض الطريق فولاه الكوفة". أما الذين أنعم الله عليهم بنعمة الأنس بأحوال ذلك العصر وأهله فيعلمون أن دولة الإسلام الأولى في خلافة أبي بكر تلقفت هذا الشاب الماضي العزيمة الرضيّ الخلق، الصادق الإيمان، فاستعملت مواهبه في سبيل الله إلى أن توفي أبو بكر، وأول عمل له في خلافة أبي بكر أنه كان موضع السر في الرسائل الحربية التي دارت بين الخليفة وقائده خالد بن الوليد في وقعة المذار مع الفرس سنة ١٢هـ، ثم وجهه مددًا إلى قائده عياض بن غنم الفهري. وفي سنة ١٣هـ كان الوليد يلي لأبي بكر صدقات قضاعة، ثم لما عزم الصديق على فتح الشام كان الوليد عنده بمنزلة عمرو بن العاص في الحرمة والثقة والكرامة، فكتب إلى عمرو بن العاص وإلى الوليد بن عقبة يدعوهما لقيادة فيالق الجهاد، فسار ابن العاص بلواء الإسلام نحو فلسطين، وسار الوليد بن عقبة قائدًا إلى شرق الأردن، ثم رأينا الوليد في سنة ١٥هـ أميرًا على بلاد بني تغلب وعرب الجزيرة يحمي ظهور المجاهدين في شمال الشام؛ لئلا يؤتوا من خلفهم، فكانت تحت قيادته ربيعة وتنوخ؛ مسلمهم وكافرهم. وانتهز الوليد بن عقبة فرصة ولايته وقيادته على هذه الجهة التي كانت لا تزال مليئة بنصارى القبائل العربية فكان مع جهاده الحربي وعمله الإداري داعيًا إلى الله يستعمل جميع أساليب الحكمة والموعظة الحسنة لحمل نصارى إياد وتغلب على أن يكونوا مسلمين كسائر العرب. وهربت منه إياد إلى الأناضول الذي كان تحت حكم البيزنطيين، فحمل الوليدُ خليفته عمرَ

على كتابة كتاب تهديد إلى قيصر القسطنطينية بأن يردهم إلى حدود الدولة الإسلامية، وحاولت تغلب أن تتمرد على الوليد في نشره الدعوة الإسلامية بين شبانها وأطفالها، فغضب غضبته المضرية المؤيدة بالإيمان الإسلامي، وقال فيهم كلمته المشهورة:

إذا ما عصبتُ الرأسَ مني بمشوذ فغيّكِ مني تغلب ابنة وائل

وبلغت هذه الكلمة عمر، فخاف أن يبطش قائده الشاب بنصارى تغلب فيفلت من يده زِمَامُهم في الوقت الذي يحاربون فيه مع المسلمين حمية للعروبة، فكف عنهم يد الوليد ونحاه عن منطقتهم. وبهذا الماضي المجيد جاء الوليد في خلافة عثمان فتولى الكوفة له، وكان من خير ولاتها عدلًا ورفقًا وإحسانًا، وكانت جيوشه مدة ولايته على الكوفة تسير في آفاق الشرق فاتحة ظافرة موفقة[١]. وبهذا تبيَّن أنها تهمة باطلة كسابقيها من التهم.

ومن هذه المآخذ: أن عثمان أعطى مروان بن الحكم خمس إفريقية:

وهذا لم يصح، والذي صح هو إعطاؤه خمس الخمس لعبد الله بن أبي سرح جزاء جهاده المشكور، ثم عاد فاسترده منه. جاء في حوادث سنة ٢٧ من تاريخ الطبري: أن عثمان لما أمر عبد الله بن سعد بن أبي سرح بالزحف من مصر على تونس لفتحها قال له: «إن فتحَ الله عليك غدًا إفريقية فلك مما أفاء الله على المسلمين خمس الخمس من الغنيمة نفلًا». فخرج بجيشه حتى قطعوا أرض مصر، وأوغلوا في أرض إفريقية وفتحوها سهلها وجبلها، وقسم عبد الله على الجند ما أفاء الله عليهم، وأخذ خمس الخمس وبعث بأربعة أخماسه إلى عثمان مع وثيمة

(١) انظر: «تاريخ الطبري».

النصري. فشكا وفد ممن معه إلى عثمان ما أخذه عبد الله بن سعد، فقال لهم عثمان: أنا أمرت له بذلك، فإن سخطتم فهو رد. قالوا: إنا نسخطه. فأمر عثمان عبد الله ابن سعد بأن يرده فرده. ورجع عبد الله بن سعد إلى مصر وقد فتح إفريقية.

قال محب الدين الخطيب: «وقد ثبت في السنة تنفيل أهل الغَناء والبأس[1] في الجهاد، كما فعل النبي - ﷺ - في مكافأة سلمة بن الأكوع في إغارة عبد الرحمن الفزاري على سرح النبي - ﷺ -» اهـ.

وقال أبو بكر بن العربي: «وقد ذهب مالك وجماعة إلى أن الإمام يرى رأيه في الخمس، وينفذ فيه ما أداه إليه اجتهاده، وأن إعطاءه لواحد جائز» اهـ.

إذن فهذا الأمر جائز شرعًا، وفعله من هو خير من عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -؛ فعله الرسول - ﷺ -، وفعله أبو بكر الصديق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، وفعله عمر بن الخطاب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وأقطعوا القطائع والأعطيات لبعض الناس؛ إما ترغيبًا لهم، وتأليفًا لقلوبهم، وإما جزاء لهم على حسن البلاء، وقد ذكر أبو يوسف الكثير من هذه الأمثلة في كتابه (الخراج).

وكان عمر يضرب بالدرة وضرب هو بالعصا:

والدرة: (عصا صغيرة يحملها السلطان يزع بها) وهذه من المآخذ التي أخذوها على عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، وهذا الأمر ليس له أصل، ولا سند، ولا يصح فيه خبر واحد، ولو صح ذلك فللإمام أن يؤدب ويعزر بما يراه مناسبًا للأحوال.

علوه على منبر رسول الله - ﷺ -:

قالوا: إن عثمان علا على درجة رسول الله - ﷺ -، وقد نزل عنها أبو بكر وعمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -.

---

(1) أهل الغَناء والبأس؛ هم الذين لا غنى عنهم، لأنهم يقومون بما لم يقم به غيرهم.

يقول القاضي ابن العربي في «العواصم من القواصم»: «لا يصح لهذه الرواية إسناد، ولو صح إسنادها فلم ينكر عليه أحد من الصحابة هذا الأمر، ولو كانوا أنكروه، فلا يحل ذلك دمه بحال من الأحوال».

ويقول محب الدين الخطيب: «كان مسجد رسول الله ـ ﷺ ـ ضيق المساحة في عصر النبوة وخلافة أبي بكر، وكان من مناقب عثمان في زمن النبي ـ ﷺ ـ عندما زاد عدد الصحابة أن اشترى من ماله مساحة من الأرض وسَّع بها المسجد النبوي، ثم وسعه أمير المؤمنين عمر فأدخل فيه دار العباس بن عبد المطلب. ثم ازداد عدد المصلين بازدياد عدد سكان المدينة وقاصديها فوسعه أمير المؤمنين عثمان مرة أخرى، وجعل طوله ستين ومائة ذراع وعرضه خمسين ومائة ذراع وجدد بناءه. فاتساع المسجد وازدياد غاشيته وبعد أمكنة بعضهم عن منبر الخطابة يجوز أن يكون من ضرورات ارتفاع الخطيب ليراهم ويروه ويسمعوه» اهـ.

هذا إن صحت الرواية القائلة بأنه علا على الدرجة التي كان يقف عليها رسول الله ـ ﷺ ـ ، وهي لا تصح ـ كما ذكرنا آنفًا ـ.

ولم يحضر بدرًا، وانهزم يوم أحد، وانهزم يوم حنين، وغاب عن بيعة الرضوان:

والرد على هذه التهم: هو ما أخرج البخاري من حديث عثمان بن عبد الله ابن موهب قال: جاء رجل من أهل مصر يريد حج البيت، فرأي قومًا جلوسًا، فقال: مَن هؤلاء القوم؟ قالوا: هؤلاء قريش. قال: فمن الشيخ فيهم؟ قالوا: عبد الله بن عمر. قال: يا ابن عمر، إني سائلك عن شيء فحدثني عنه. هل تعلم أن عثمان فر يوم أحد؟ قال: نعم. فقال: تعلم أنه تغيب عن بدر ولم يشهد؟ قال: نعم. قال: هل تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟ قال: نعم. قال: الله أكبر! قال ابن عمر: تعالَّ أبيِّن لك. أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له. وأما تغيبه عن بدر فإنه كان تحته بنت رسول الله ـ ﷺ ـ وكانت مريضة فقال له

رسول الله ـ ﷺ ـ : إن لك أجر رجل ممن شهد بدرًا وسهمه. وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه، فبعث رسول الله ـ ﷺ ـ عثمان وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ بيده اليمنى: «هذه يد عثمان» فضرب بها على يده فقال: «هذه لعثمان». ثم قال له ابن عمر: اذهب بها الآن معك»[(١)] اهـ.

وفي تاريخ الطبري: «وقد بعث النبي ـ ﷺ ـ ببشرى النصر في بدر مع زيد ابن حارثة إلى عثمان في المدينة. قال أسامة بن زيد: «فأتانا الخبر حين سوينا التراب على رقية بنت رسول الله ـ ﷺ ـ التي كانت عند عثمان بن عفان، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ خلفني عليها مع عثمان» اهـ.

والذي حدث في بيعة الرضوان أن رسول الله ـ ﷺ ـ قبل أن يبعث عثمان دعا عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال عمر: يا رسول الله، إني أخاف قريشًا على نفسي وليس في مكة من بني عدي ابن كعب أحد يمنعني، ولكني أدلك على رجل هو أعز مني فيها: عثمان بن عفان. فدعاه رسول الله ـ ﷺ ـ فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش.

قال محب الدين الخطيب: «وحينئذٍ كان لعثمان الشرف المضاعف بأن يد رسول الله ـ ﷺ ـ نابت عن يده في عقد البيعة عنه. فبيعة الرضوان كانت انتصارًا لعثمان، وجميع الصحابة بايعوا بأيدي أنفسهم إلا عثمان فإن أشرف يد بالوجود نابت عن يده في إعطاء بيعته. ولو لم يكن لعثمان من الشرف في حياته كلها إلا هذا لكفاه» اهـ.

وأما عن يوم حنين فلم يبقَ إلا نفر يسير مع رسول الله ـ ﷺ ـ وهو أمر قد اشترك فيه الصحابة، وقد عفا الله عنه ورسوله.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٩٨).

قال أبو بكر بن العربي: «فلا يحل ذكرُ ما أسقطه الله ورسوله والمؤمنون، وأود أن أشير إلى خطورة نشر الأخبار الكاذبة والإشاعات المغرضة بين الناس، وخطورة ذلك على المجتمع، فنشر الأخبار الكاذبة واستقرارها في نفوس البعض وتصديقها بلا دليل ولا برهان يؤدي إلى وقوع البغضاء والكره، فالإعلام الذي كان في عهد أمير المؤمنين عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ والذي كان يحركه السبئية وغيرهم من المنافقين نجح في تهييج مشاعر بعض أفراد المجتمع ضد أمير المؤمنين؛ حتى وصل الأمر إلى صعوبة قبول الحق لو كان مع عثمان! جاء في صحيح البخاري عَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَيْدَةَ، قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عُمَرَ فَسَأَلَهُ عَنْ عُثْمَانَ، فَذَكَرَ عَنْ مَحَاسِنِ عَمَلِهِ، قَالَ: لَعَلَّ ذَاكَ يَسُوءُكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَأَرْغَمَ اللَّهُ بِأَنْفِكَ (أي: ألصقه بالرغام وهو التراب وهو كناية عن الذل والإهانة). ثُمَّ سَأَلَهُ عَنْ عَلِيٍّ فَذَكَرَ مَحَاسِنَ عَمَلِهِ، قَالَ: هُوَ ذَاكَ بَيْتُهُ، أَوْسَطُ بُيُوتِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ (أي: يشير بذلك إلى منزلته عند النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ). ثُمَّ قَالَ: لَعَلَّ ذَاكَ يَسُوءُكَ؟ قَالَ: أَجَلْ، قَالَ: فَأَرْغَمَ اللَّهُ بِأَنْفِكَ انْطَلِقْ فَاجْهَدْ عَلَيَّ جَهْدَكَ[١] (أي: اذهب من عندي، واعمل في حقي ما تستطيعه وتقدر عليه، فإني لا أبالي بعد قولي بالحق)».

فهذه التهم والمظالم والمناكير التي وقعت في نفوس بعض أفراد المجتمع واستقرت، كان لها أثر واضح في كره البعض لعثمان والخروج عليه وقتله، فوجب علينا أن نحذر من ذلك، وأن نحذر الناس.

(١) أخرجه البخاري (٣٧٠٤).

ومن هذه المآخذ: قالوا: ولم يقتل عبيد الله بن عمر بالهرمزان (الذي أعطى السكين إلى أبي لؤلؤة، وحرضه على عمر حتى قتله).

طُعن عمر بن الخطاب ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ على يد أبي لؤلؤة المجوسي، ثم قتل أبو لؤلؤة نفسه بعدها، ولم يمت عمر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ في اليوم الذي طعن فيه(١)، وقبل موت

---

(١) وقد حجَّ عمر في العام الذي قُتل فيه، وسأل الله في حجَّته حُسْنَ الختام؛ فعن سعيدٍ بن المسيِّب رحمه الله تعالى: "أنَّ عمرَ لما أفاض من مِنى، أناخ بالإبْطِح، فكوَّم كومةً من بَطْحَاءَ، وطرح عليها طَرَف ثوبه، ثم استلقى عليها، ورفع يديه إلى السماء وقال: اللَّهم كبرَتْ سنِّي، وضعفتْ قوَّتي، وانتشرتْ رعيَّتي؛ فاقبضني إليكَ غير مضيِّعٍ ولا مفرِّط". قال سعيد: "فما انسلخ ذو الحجَّة حتى طُعِنَ (حلية الأولياء، والطبقات، والآحاد والمثاني لابن أبي عاصم، وفضائل الصحابة للإمام أحمد).

وخَطَبَ مرَّةً فقال: " إِنِّي رَأَيْتُ كَأَنَّ دِيكًا نَقَرَنِي ثَلَاثَ نَقَرَاتٍ، وَإِنِّي لَا أُرَاهُ إِلَّا حُضُورَ أَجَلِي "، فما مرَّ إلا تلك الجمعة حتى طُعِنَ (صحيح مسلم).وفي روايةٍ: " أن رؤياه عُبِّرَتْ بأنه يقتله رجلٌ من الأعاجم".
(الطبقات، وفتح الباري لابن حجر).

وكان من سياسة عمر رضيَ الله عنه أنه لا يأذن لسَبْيٍ بقيَ على كفره أن يدخل المدينة، أو يعمل فيها؛ حتى كتب إليه المُغِيرَة بنُ شُعْبَة رضيَ الله عنه وهو على الكوفة، يذكر له غلامًا عنده صانعًا، ويستأذنه في أن يدخله المدينة، ويقول: " إن عنده أعمالاً تنفع النَّاس، إنه حدَّادٌ نقَّاشٌ نجَّارٌ"؛ فأَذِنَ له، فضرب عليه المغيرة كل شهر مائةً، فشكى إلى عمر شدَّة الخَراج، فقال له: "ما خراجكَ بكثيرٍ في جنب ما تعمل". فانصرف ساخطًا، فلبث عمرُ لياليَ، فمرَّ به العبد فقال: ألم أحدَّث أنكَ تقول: "لو أشاءُ، لصنعت رَحًى تطحن بالرِّيح". فالتفت إليه عابسًا فقال: "لأصنعنَّ لك رحًى يتحدَّث النَّاس بها". فأقبل عمر على من معه فقال: "توعَّدني العبدُ" (الطبقات، وتاريخ الطبري).

وفي رواية أخرى : "قَالَ الْمِسْوَرُ بْنُ مَخْرَمَةَ: خَرَجَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَطُوفُ يَوْمًا فِي السُّوقِ، فَلَقِيَهُ أَبُو لُؤْلُؤَةَ غُلَامُ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ، وَكَانَ نَصْرَانِيًّا، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَعِدْنِي عَلَى الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ فَإِنَّ عَلَيَّ خَرَاجًا كَثِيرًا. قَالَ: وَكَمْ خَرَاجُكَ؟ قَالَ: دِرْهَمَانِ كُلَّ يَوْمٍ. قَالَ: وَإِيْشٍ صِنَاعَتُكَ؟ قَالَ: نَجَّارٌ، نَقَّاشٌ، حَدَّادٌ. قَالَ: فَمَا

عمر أتى **عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق** ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ، وقال: إنه رأي الهرمزان (وهو رجل فارسي) يتناجي في السر مع أبي لؤلؤة المجوسي فارتاب في أمرهما، فاقترب منهما، ثم هجم عليهما فجأة، فسقط منهما خنجر له رأسان، ثم ذهبوا فالتمسوا الخنجر الذي طعن به عمر بن الخطاب ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ، فوجدوه بنفس مواصفات الخنجر الذي ذكره عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ، فتيقن القوم أن الهرمزان مشارك لأبي لؤلؤة المجوسي في التخطيط لقتل عمر بن الخطاب ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ، فسمع بذلك عبيد الله بن عمر بن الخطاب، فأمسك ـ أي لم يتصرف ـ حتى مات عمر بن الخطاب ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ، فحمل سيفه وخرج فقتل الهرمزان، فلما تولى عثمان بن عفان الخلافة نظر في القضية.

يقول الطبري: «جلس عثمان في جانب المسجد ودعا عبيد الله وكان محبوسًا في دار سعد بن أبي وقاص، وهو الذي نزع السيف من يده. فقال عثمان لجماعة من المهاجرين والأنصار: أشيروا علي في هذا الذي فتق في الإسلام ما فتق. فقال علي ابن أبي طالب: أرى أن تقتله. فقال بعض المهاجرين: قُتل عمر أمس، ويُقتل ابنه اليوم؟ فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين، إن الله أعفاك أن يكون هذا الحدث كان ولك على المسلمين سلطان، إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك. قال عثمان: أنا وليهم، وقد جعلتها دية، واحتملتها في مالي».

أَرَى خَرَاجَكَ كَثِيرًا عَلَى مَا تَصْنَعُ مِنَ الْأَعْمَالِ، قَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ تَقُولُ: لَوْ أَرَدْتُ أَنْ أَصْنَعَ رَحًى تَطْحَنُ بِالرِّيحِ لَفَعَلْتُ! قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَاعْمَلْ لِي رَحًى. قَالَ: لَئِنْ سَلِمْتَ لَأَعْمَلَنَّ لَكَ رَحًى يَتَحَدَّثُ بِهَا مَنْ بِالْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ! ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْهُ. فَقَالَ عُمَرُ: لَقَدْ أَوْعَدَنِي الْعَبْدُ الْآنَ"(الطبري و الكامل لابن الأثير).

قال أبو بكر بن العربي: «وأما امتناعه عن قتل عبيد الله بن عمر بن الخطاب بالهرمزان، فإن ذلك باطل، فإن كان لم يفعل فالصحابة متوافرون، والأمر في أوله. وقد قيل: إن الهرمزان سعى في قتل عمر، وحمل الخنجر وظهر تحت ثيابه وكان قتل عبيد الله له وعثمان لم يلِ بعد، ولعل عثمان كان لا يرى على عبيد الله حقًّا، لما ثبت عنده من حال الهرمزان وفعله. وأيضًا: فإن أحدًا لم يقم بطلبه» اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «منهاج السُّنَّة»: «فالجواب الأول: أن عبيد الله كان متأولًا أن الهرمزان أعان على قتل أبيه، فكانت هذه شبهة مانعة من وجوب القصاص، وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّ الْمَقْتُولَ مَعْصُومُ الدَّمِ يَحْرُمُ قَتْلُهُ، لَكِنْ كَانَ الْقَاتِلُ مُتَأَوِّلًا يَعْتَقِدُ حِلَّ قَتْلِهِ لِشُبْهَةٍ ظَاهِرَةٍ، صَارَ ذَلِكَ شُبْهَةً تَدْرَأُ الْقَتْلَ عَنِ الْقَاتِلِ، كَمَا أَنَّ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ لَمَّا قَتَلَ ذَلِكَ الرَّجُلَ بَعْدَمَا قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» وَاعْتَقَدَ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ لَا يَعْصِمُهُ، عَزَّرَهُ النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ بِالْكَلَامِ، وَلَمْ يَقْتُلْهُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ مُتَأَوِّلًا، لَكِنَّ الَّذِي قَتَلَهُ أُسَامَةُ كَانَ مُبَاحًا قَبْلَ الْقَتْلِ، فَشَكَّ فِي الْعَاصِمِ، وَإِذَا كَانَ عُبَيْدُ اللَّهِ ابْنُ عُمَرَ مُتَأَوِّلًا يَعْتَقِدُ أَنَّ الْهُرْمُزَانَ أَعَانَ عَلَى قَتْلِ أَبِيهِ، وَأَنَّهُ يَجُوزُ لَهُ قَتْلُهُ، صَارَتْ هَذِهِ شُبْهَةً يَجُوزُ أَنْ يَجْعَلَهَا الْمُجْتَهِدُ مَانِعَةً مِنْ وُجُوبِ الْقِصَاصِ، فَإِنَّ مَسَائِلَ الْقِصَاصِ فِيهَا مَسَائِلُ كَثِيرَةٌ اجْتِهَادِيَّةٌ. وقد قال عبد الله بن عباس لما طعن عمر ـ وقال له عمر: كنت أنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوج بالمدينة ـ فقال ابن عباس: «إن شئت أن نقتلهم». فقال عمر: «كذبت، أفبعد أن تكلموا بلسانكم، وصلوا إلى قبلتكم؟». قال ابن تيمية: فهذا ابن عباس ـ وهو أفقه من عبيد الله بن عمر، وأدين وأفضل بكثير ـ يستأذن عمر في قتل علوج الفرس مطلقًا الذين كانوا بالمدينة، لما اتهموهم بالفساد، اعتقد جواز مثل هذا، وإذا كان الهرمزان ممن أعان على قتل عمر كان من المفسدين في الأرض المحاربين فيجب قتله لذلك. ولو قدر

أن المقتول معصوم الدم يحرم قتله، لكن كان القاتل متأولًا ويعتقد حل قتله لشبهة ظاهرة، صار ذلك شبهة تدرأ عن القاتل (يعني عن عبيد الله بن عمر).

وأما الجواب الثاني: فهو أن الْهُرْمُزَانَ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَوْلِيَاءُ يَطْلُبُونَ دَمَهُ، وَإِنَّمَا وَلِيُّهُ وَلِيُّ الْأَمْرِ، وَمِثْلُ هَذَا إِذَا قَتَلَهُ قَاتِلٌ كَانَ لِلْإِمَامِ قَتْلُ قَاتِلِهِ؛ لِأَنَّهُ وَلِيُّهُ، وَكَانَ لَهُ الْعَفْوُ عَنْهُ إِلَى الدِّيَةِ؛ لِئَلَّا تَضِيعَ حُقُوقُ الْمُسْلِمِينَ» اهـ.

وقال محب الدين الخطيب: «وإلى هذا ذهب عثمان في اكتفائه بالدية واحتملها من ماله الخاص. ولو أن حادث مقتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ بجميع ظروفه ـ وقع مثله في أي بلد آخر مهما بلغ في ذروة الحضارة لما كان منهم مثل الذي كان من الصحابة في تسامحهم إلى حد المطالبة حتى بقتل ابن أمير المؤمنين المقتول بيد الغدر والنذالة والبغي الذميم».

وقال ابن كثير ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ : «وأما أول حكومة حكم عثمان فيها: فَقَضِيَّةُ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ غَدَا عَلَى ابْنَةِ أَبِي لُؤْلُؤَةَ قَاتِلِ عُمَرَ فَقَتَلَهَا، وَضَرَبَ رجلًا نَصْرَانِيًّا يُقَالُ لَهُ جُفَيْنَةُ بِالسَّيْفِ فَقَتَلَهُ، وَضَرَبَ الْهُرْمُزَانَ الَّذِي كَانَ صَاحِبَ تستر فقتله، وكان قد قيل إنهما مالآ أَبَا لُؤْلُؤَةَ عَلَى قَتْلِ عُمَرَ ـ فَاللَّهُ أَعْلَمُ ـ وَقَدْ كَانَ عُمَرُ قَدْ أَمَرَ بِسَجْنِهِ لِيَحْكُمَ فِيهِ الْخَلِيفَةُ مِنْ بَعْدِهِ، فَلَمَّا وَلِيَ عُثْمَانُ وَجَلَسَ لِلنَّاسِ كَانَ أَوَّلَ مَا تُحُوكِمَ إِلَيْهِ فِي شَأْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ، فَقَالَ عَلِيٌّ: مَا مِنَ الْعَدْلِ تَرْكُهُ، وَأَمَرَ بِقَتْلِهِ، وَقَالَ بَعْضُ الْمُهَاجِرِينَ: أَيُقْتَلُ أَبُوهُ بِالْأَمْسِ وَيُقْتَلُ هُوَ الْيَوْمَ؟ فَقَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَدْ بَرَّأَكَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ، قَضِيَّةٌ لَمْ تَكُنْ فِي أَيَّامِكَ فَدَعْهَا عَنْكَ، فَوَدَى عُثْمَانُ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ أُولَئِكَ الْقَتْلَى مِنْ مَالِهِ؛ لِأَنَّ أَمْرَهُمْ إِلَيْهِ، إِذْ لَا وَارِثَ لَهُمْ إِلَّا بَيْتُ الْمَالِ، وَالْإِمَامُ يَرَى الْأَصْلَحَ فِي ذَلِكَ، وَخَلَّى سَبِيلَ عُبَيْدِ اللَّهِ» اهـ.

وفي رواية عند الطبري عن شعيب، عن سيف، عن أبي منصور، قال: «سمعت القماذبان (هو ابن الهرمزان) يحدث عن قتل أبيه قال: فلما ولي عثمان دعاني فأمكنني منه (أي من عبيد الله بن عمر بن الخطاب) ثم قال: يا بني هذا قاتل أبيك، وأنت أولى به منا، فاذهب فاقتله. فخرجت به وما في الأرض أحد إلا معي، إلا أنهم يطلبون إلي فيه. فقلت لهم: ألي قتله؟ قالوا: نعم. وسبوا عبيد الله. فقلت: أفلكم أن تمنعوه؟ قالوا: لا. وسبوه. فتركته لله ولهم. فاحتملوني. فوالله ما بلغت المنزل إلا على رءوس الرجال وأكفهم».

وبهذا يتبين بما لا يدع مجالًا للشك أن أمير المؤمنين عثمان لم يترك عبيد الله ابن عمر ولم يغفل هذه القضية، وبهذا يتبين كذب من ادعى هذا الادعاء على ذي النورين - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -.

ومن هذه المآخذ: قالوا: وكتب مع عبده على جمله كتابًا إلى ابن أبي سرح في قتل مَن ذكر فيه:

وهذه أيضًا من المناكير والأباطيل.

لقد ثار أهل الكوفة على سعيد بن العاص والي عثمان على الكوفة، فذهب سعيد بن العاص إلى عثمان وأخبره خبر القوم، قال له عثمان: «ماذا يريدون؟ هل خلعوا يدًا من طاعة؟ وهل خرجوا على الخليفة وأعلنوا عدم طاعتهم له؟ قال له سعيد: لا، لقد أظهروا أنهم لا يريدونني واليًا عليهم، ويريدون واليًا آخر مكاني، قال له عثمان: مَن يريدون واليًا؟ قال سعيد بن العاص: يريدون أبا موسى الأشعري، قال عثمان: قد عينا وأثبتنا أبا موسى واليًا عليهم، والله لن نجعل لأحد عذرًا، ولن نترك لأحد حجة، ولنصبرن عليهم كما هو مطلوب منا، حتى نعرف حقيقة ما يريدون». وكتب عثمان إلى أبي موسى بتعيينه واليًا على الكوفة.

وقام أبو موسى الأشعري ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ بتهدئة الأمور، ونهى الناس عن العصيان، وقال لهم: «أيها الناس، لا تخرجوا في مثل هذه المخالفة، ولا تعودوا لمثل هذا العصيان، الزموا جماعتكم والطاعة، وإياكم والعجلة، اصبروا فكأنكم بأمير. فقالوا: فصلِّ بنا، قال: لا، إلا على السمع والطاعة لعثمان بن عفان، قالوا: على السمع والطاعة لعثمان».

وكتب عثمان بن عفان إلى الخارجين من أهل الكوفة كتابًا يبين فيه الحكمة من استجابته لطلبهم في عزل سعيد وتعيين أبي موسى بدله، وهي رسالة ذات دلالات هامة، وتبين طريقة عثمان في مواجهة هذه الفتن، ومحاولته تأجيل اشتعالها ما استطاع، مع علمه اليقيني أنها قادمة، وأنه عاجز عن مواجهتها، فهذا ما علمه من رسول الله ـ ﷺ ـ ، قال لهم عثمان في رسالته: «أما بعد، فقد أمَّرت عليكم من اخترتم، وأعفيتكم من سعيد، والله لأفرشن لكم عرضي، ولأبذلن لكم صبري، ولأستصلحنكم بجهدي، واسألوني كل ما أحببتم مما لا يُعصى الله فيه، فسأعطيه لكم، ولا شيئًا كرهتموه لا يعصى الله فيه إلا استعفيتم منه، أنزل فيه عند ما أحببتم حتى لا يكون لكم عليَّ حجة». وكتب بمثل ذلك في الأمصار.

رضي الله عن أمير المؤمنين عثمان، ما أصلحه، وأوسع صدره! وكم ظلمه السبئيون والخارجون والحاقدون وكذبوا وافتروا عليه.

ثم جاءت فرق المصريين، فقالوا لعثمان: «ادع بالمصحف فدعا به، فقالوا: افتح السابعة، وكانوا يسمون سورة يونس بالسابعة، فقرأ حتى أتى هذه الآية:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٥٩].

فقالوا له: قف. أرأيت ما حميت من الحمى؟ آلله أذن لك أم على الله تفتري؟ فقال: نزلت في كذا وكذا، فأما الحمى فإن عمر حماه قبلي لإبل الصدقة، فلما وليت زادت إبل الصدقة فزدت في الحمى لما زاد من إبل الصدقة»، ثم فجعلوا يأخذونه بالآية، فيقول نزلت في كذا فما يزيدون. فأخذوا ميثاقه، وكتبوا عليه شرطًا، وأخذ عليهم ألا يشقوا عصا، ولا يفارقوا جماعة ما أقام لهم شرطهم، ثم رجعوا راضين.

وبعد هذا الصلح وعودة أهل الأمصار جميعًا راضين تبيَّن لمشعلي الفتنة أن خطتهم قد فشلت، وأن أهدافهم الدنيئة لم تتحقق؛ لذا خططوا تخطيطًا آخر يشعل الفتنة ويحييها، وزوروا كتابًا على أمير المؤمنين عثمان؛ ففي أثناء طريق عودة أهل مصر، رأوا راكبًا على جمل يتعرض لهم، ويفارقهم يُظهر أنه هارب منهم، فقبضوا عليه، وقالوا له: ما لك؟ فقال: أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر عبد الله بن أبي السرح، ففتشوه فإذا هم بالكتاب على لسان عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ وعليه خاتمه إلى عامله، ففتحوا الكتاب فإذا فيه أمر بصلبهم أو قتلهم، أو تقطيع أيديهم وأرجلهم، فرجعوا إلى المدينة حتى وصلوها ونفى عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ أن يكون كتب هذا الكتاب، وقال لهم: «إنهما اثنتان: أن تقيموا رجلين من المسلمين أو يمين بالله الذي لا إله إلا هو ما كتبت ولا أمللت، ولا علمت، وقد يكتب الكتاب على لسان الرجل وينقش الخاتم»، فلم يصدقوه، وقد أقسم لهم عثمان بأنه ما كتب هذا الكتاب.

قال أبو بكر بن العربي: «وأما تعلقهم بأن الكتاب وجد مع راكب، أو مع غلامه ـ ولم يقل أحد قط إنه كان غلامه ـ إلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح يأمره بقتل حامليه فقد قال لهم عثمان: «إما أن تقيموا شاهدين على ذلك، وإلا فيميني أني ما

كتبت ولا أمرت، وقد يكتب على لسان الرجل، ويضرب على خطه، وينقش على خاتمه».

قال محب الدين الخطيب في مسألة الغلام: «وإنما قالوا: إنه غلام الصدقة، أي أحد رعاة إبل الصدقة. وإبل الصدقة ألوف كثيرة لها مئات من الرعاة. وإن صح أنه من رعاة إبل الصدقة فهؤلاء لكثرتهم وتبدلهم دائمًا بغيرهم لا يكاد يعرفهم رؤساؤهم فضلًا عن أن يعرفهم أمير المؤمنين وكبار عماله وأعوانه. ومع افتراض أنه من رعاة إبل الصدقة فما أيسر أن يستأجره هؤلاء البغاة لغرض من أغراضهم، وكيف يكتب إلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح وقد أذن له بالمجيء إلى المدينة ويعلم أنه خرج من مصر، وكان المتسلط على الحكم في الفسطاط محمد بن أبي حذيفة رئيس البغاة وعميدهم في هذه الجهة. وقد أورد الطبري خبرًا عن على بن أبي طالب قال فيه مخاطبًا أهل العراق " كيف علمتم يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ ويا أهل الْبَصْرَة بِمَا لقي أهل مصر، وَقَدْ سرتم مراحل، ثُمَّ طويتم نحونا؟ هَذَا وَاللَّهِ أمر أبرم بِالْمَدِينَةِ!. وهكذا أثبت علي بن أبي طالب وجود مؤامرة، لكنهم لم يستجيبوا.

ومضمون الكتاب المزور قد اضطرب رواة أخباره في تعيين مضمونه، بل لقد ذكروا عن محمد بن أبي حذيفة ربيب عثمان الآبق من نعمته أنه كان في نفس ذلك الوقت موجودًا في مصر يؤلب الناس على أمير المؤمنين ويزور الكتب على لسان أزواج النبي - ﷺ - ، ويأخذ الرواحل فيضمرها، ويجعل رجالًا على ظهور البيوت في الفسطاط ووجوههم إلى وجه الشمس لتلوح وجوههم تلويح المسافر، ثم يأمرهم أن يخرجوا إلى طريق الحجاز بمصر ثم يرسلوا رسلًا يخبرون عنهم الناس ليستقبلوهم، فإذا لقوهم قالوا إنهم يحملون كتبًا من أزواج النبي - ﷺ -

في الشكوى من حكم عثمان، وتتلى هذه الكتب في جامع عمرو بالفسطاط على ملأ الناس وهي مكذوبة مزورة، وحملتها كانوا في مصر ولم يذهبوا إلى الحجاز!

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «منهاج السُّنَّة»: «كل ذي علم بحال عثمان يعلم أنه لم يكن ممن يأمر بقتل محمد بن أبي بكر ولا أمثاله، ولا عرف منه قط أنه قتل أحدًا من هذا الضرب. وقد سعوا في قتله (أي في قتل أمير المؤمنين عثمان) ودخل عليه محمد فيمن دخل، وهو لا يأمر بقتالهم دفعًا عن نفسه، فكيف يبتدئ بقتل معصوم الدم» اهـ.

هذا وقد زور المجرمون كتبًا أخرى على علي وعائشة وطلحة والزبير - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - ، وهذا الكتاب الذي زعم هؤلاء المتمردون البغاة المنحرفون أنه من عثمان وعليه خاتمه إلى عامله بمصر ابن أبي السرح، يأمر فيه بقتل هؤلاء الخارجين؛ هو كتاب مزور مكذوب على لسان عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - [1].

ومن المآخذ أيضًا: أنه كان يمنح أقاربه هبات مالية ويخصهم بالمزيد من العطايا. وقد دافع عثمان رضي الله عنه، عن نفسه في هذه المسألة، واعترف بأنه يحب أقاربه ويمنحهم من ماله الخاص، فقال" وَقَالُوا: إني أحب أهل بيتي وأعطيهم، فأما حبي فإنه لم يمل معهم عَلَى جور، بل أحمل الحقوق عَلَيْهِم، وأما إعطاؤهم؛

---

(١) من الأدلة على أن الكتاب مزور : أن حامل الكتاب هو الذي تعرض لهم، وهو يُظهر أنه يستخفي منهم، ثم كيف علم العراقيون بما حدث مع أهل مصر؟ ولذا قال لهم علي بن أبي طالب" كيف علمتم يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ ويا أهل الْبَصْرَة بِمَا لقي أهل مصر، وَقَدْ سرتم مراحل، ثُمَّ طويتم نحونا؟ هَذَا وَاللَّهِ أمر أبرم بِالْمَدِينَةِ!".

فإني أعطيهم من مالي، وَلا أستحل أموال الْمُسْلِمِينَ لنفسي، وَلا لأحد مِنَ النَّاسِ" وقال الإمام الطبري " كَانَ عُثْمَان قَدْ قسم ماله وأرضه فِي بني أُمَيَّة " (١)

وبهذا نكون قد استعرضنا التهم والمطاعن والمناكير التي ذكرها الثوار المجرمون، وكانت النهاية خروج ثورة ظالمة على ذي النورين ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ(٢).

وقائع وأحداث فتنة مقتل عثمان بن عفان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ :

أخبر النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ بوقوع الفتنة وإخباره حق وصدق ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ** ﴾ [النجم : ٣، ٤]، وإخباره هذا من الأمور الغيبية التي أطلعه الله عليها؛ فوقوعها محقق لا محالة.

ونستعرض الآن بعض الوقائع والأحداث التي سبقت مقتل الخليفة الراشد عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ، ثم نذكر وقائع الفتنة ومقتل عثمان بن عفان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ .

الوقائع والأحداث التي سبقت مقتل عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ :

لقد نجح الثوار المجرمون الكاذبون في إزاحة الوليد بن عقبة(٣) عن ولاية الكوفة، وعين عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ سعيد بن العاص واليًا جديدًا على الكوفة، وعندما وصل سعيد إلى ولايته صعد المنبر، وبعدما حمد الله وأثنى عليه، قال: «والله لقد بعثت إليكم وإني لكاره، ولكني عندما أمرني عثمان، لم أجد بدًّا من التنفيذ، ألا وإن

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك،(٣٤٨/٣).

(٢) «البداية والنهاية»، و«تاريخ الرسل والملوك»، و«العواصم من القواصم مع تعليقات محب الدين الخطيب»، و«منهاج السنة»، و«التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان»، و«موقع قصة الإسلام، الدفاع عن عثمان».

(٣) له صحبة قليلة، ورواية يسيرة، وهو أخو أمير المؤمنين عثمان لأمه ، من مسلمة الفتح.

الفتنة قد أطلت رأسها فيكم، والله لأضربن وجهها حتى أقمعها أو تغلبني، وإني رائد نفسي اليوم»[1]. واستطاع سعيد بن العاص أن يتعرف على توجهات الناس فيها، وأدرك حقيقة الفتنة، وأن مجموعة من الخوارج والحاقدين وأعداء الإسلام هم السبب في هذه الفتنة، وقد سيطر الرعاع والأعراب على الرأي فيها[2].

وكتب سعيد رسالة إلى أمير المؤمنين عثمان يخبره فيها بالأوضاع المتردية في الكوفة، ومما قال فيها: «إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم, وقد غلب فيها أهل الشرف والسابقة والقِدمة، والغالب على تلك البلاد روادف ردفت, وأعراب لَحَتْ حتى ما ينظر فيها إلى ذي شرف وبلاء». فرد عليه عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ برسالة طلب منه فيها إعادة ترتيب أوضاع أهلها وتصنيفهم على أساس السبق والجهاد، وتقديم أهل العلم والصدق والجهاد على غيرهم، وقام سعيد بتنفيذ توجيهات عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ وأخبر الخليفة بما فعل[3]، وجمع عثمان أهل الحل والعقد في المدينة، وأبلغهم بأوضاع الكوفة ورسوخ الفتنة فيها، وإجراءات سعيد بن العاص لمواجهتها، فقالوا: «أصبت بما فعلت، ولا تسعف أهل الفتنة بشيء ولا تقدمهم على الناس[4]، ولا تطعهم فيما ليسوا له بأهل، فإنه إذا تولى الأمور من ليس أهلًا لها، لم يقم بها، بل يفسدها. فقال عثمان لهم: يا أهل المدينة، إن الناس قد تحركوا للفتنة، فاستعدوا لمواجهتها، واستمسكوا بالحق، وسوف أخبركم بأخبارها وأنقلها لكم أولًا بأول».

---

(١) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/ ٢٨٠).

(٢) «خلافة عثمان بن عفان» (ص ١١٠).

(٣) «تيسير الكريم المنان في سيرة عثمان بن عفان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ» (ص ٣٤٢).

(٤) «جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين» (ص ٣٨٥).

وهنا تأذى أهل الحقد والغل من تقديم أصحاب السابقة والجهاد والبلاء، والعلم والتقوى في المجالس والرئاسة والاستشارة، وصاروا يعيبون على الولاة تقديم هؤلاء عليهم واستشارتهم دونهم، واستغل الحاقدون هذا الأمر في نفوسهم، وغرسوا فيهم كره الخليفة والدولة، ورفض أعمال الوالي سعيد بن العاص، ورفض عامة الناس في الكوفة كلام الحاقدين، فسكت هؤلاء الحاقدون وصاروا يخفون شبهاتهم ولا يظهرونها؛ لرفض معظم المسلمين لها، وكان أعداء الإسلام من اليهود والنصارى والمجوس يتآمرون على الإسلام والمسلمين، وينشرون الإشاعات الكاذبة ضد الخليفة والولاة، ويستثمرون الأخطاء التي تصدر عن بعضهم في تهييج العامة ضدهم، ويزيدون عليها الكثير من الافتراءات والتزويرات، وهم يهدفون من ذلك إلى نشر الفوضى وتعميق الفرقة بين المسلمين، وجعلوا لهم أتباعًا في المدن الكبيرة والأقاليم العديدة، وكونوا شبكة اتصالات سرية بينهم.

وأوصى ابن سبأ أتباعه المجرمين في جمعيته السرية الخبيثة، المنتشرين في بلاد المسلمين، فقال لهم: «انهضوا في هذا الأمر، فحركوه وابدأوا بالطعن على أمرائكم وولاتكم الذين يعينهم الخليفة، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتستميلوا الناس إليكم، وادعوهم إلى هذا الأمر»(١).

وصار أتباع ابن سبأ يؤلفون الأكاذيب والافتراءات عن عيوب أمرائهم وولاتهم، وينشرونها في كتب يرسلها بعضهم إلى بعض في الأمصار، وبذلك أفسد السبئيون الأرض وأفسدوا المسلمين، ومزقوا كلمتهم، وأضعفوا وحدتهم وشوكتهم، وهيجوا الناس على الولاة والأمراء، ونشروا الافتراءات ضد الخليفة عثمان

(١) «تاريخ الرسل والملوك» (٨/٣٤٥).

نفسه[١].ثم توجَّه ابن سبأ إلى الشام ليفسد بعض أهلها ويؤثر فيهم، ولكنه لم ينجح في هدفه الخبيث، فقد كان له معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ بالمرصاد.

ذهب ابن سبأ إلى الكوفة فوجد فيها رجالًا من المنحرفين جاهزين لاستقباله، فجندهم لجماعته وحزبه، ولما علم به سعيد بن العاص أخرجه من الكوفة، فتوجه إلى مصر، فأقام فيها واستمال أناسًا هناك من الرعاع الحاقدين، ومن العصاة والمذنبين. وكان ابن سبأ يرتب الاتصالات السرية بين مقره في مصر، وبين أتباعه في المدينة والبصرة والكوفة، ويتحرك رجاله بين هذه البلدان.

وفي يوم من أيام عام ٣٣هـ، جلس سعيد بن العاص في مجلسه العام وحوله عامة الناس، وكانوا يتحدثون ويتناقشون فيما بينهم، فتسلل هؤلاء الخوارج من السبئيين إلى المجلس، وعملوا على إفساده، وعلى إشعال نار الفتنة[٢].

ثم ذهب الخوارج المفتونون إلى بيوتهم وصاروا ينشرون الإشاعات ويذيعون الافتراءات والأكاذيب ضد سعيد وضد عثمان، وضد أهل الكوفة ووجهائها، فاستاء أهل الكوفة منهم وطلبوا من سعيد أن يعاقبهم[٣] فقال لهم سعيد: «إن عثمان قد نهاني عن ذلك، فإذا أردتم ذلك فأخبروه»، وكتب أشراف أهل الكوفة إلى عثمان بشأن هؤلاء النفر، وطلبوا منه إخراجهم من الكوفة ونفيهم عنها، فهم مفسدون مخربون فيها، فأمر عثمان واليه سعيد بن العاص بإخراجهم من الكوفة، وكانوا بضعة عشر رجلًا، وأرسلهم سعيد إلى معاوية في الشام بأمر عثمان، وكتب عثمان إلى معاوية بشأن هؤلاء فقال له: «إن أهل الكوفة قد أخرجوا إليك نفرًا خلقوا للفتنة، فَرُعْهم وأخفهم وأدبهم وأقم عليهم، فإن آنست منهم رشدًا فاقبل

(١) «خلافة عثمان بن عفان» (ص ١١٨).

(٢) «الكامل في التاريخ» (٢/ ٥١٠).

(٣) «تاريخ الخلفاء» (١٢٣/ ١٣٠).

منهم». وبذل معاوية كل طاقاته الفكرية والثقافية والسياسية من أجل صلاح أحوالهم وتغيير فكرهم وبعدهم عن إيثار الفتن في المجتمع[١]، وكان دائمًا يدعوهم إلى تقوى الله وطاعته، والاستمساك بالجماعة والابتعاد عن الفرقة، وإذا بهم يرفعون عقيرتهم قائلين: «ليس لك أن تطاع في معصية الله، ونحن نأمرك أن تعتزل عملك؛ فإن بالمسلمين من هو أحق به منك»[٢].

وهنا كتب معاوية إلى عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قائلًا: «بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عثمان أمير المؤمنين من معاوية بن أبي سفيان، أما بعد: يا أمير المؤمنين، فإنك بعثت إليَّ أقوامًا يتكلمون بألسنة الشياطين، وما يملون عليهم، ويأتون الناس ـ زعموا ـ من قِبَل القرآن فيشبهون على الناس، وليس كل الناس يعلم ما يريدون، وإنما يريدون فرقة، ويقربون فتنة، قد أثقلهم الإسلام وأضجرهم، وتمكنت رقى الشيطان من قلوبهم، فقد أفسدوا كثيرًا من الناس ممن كانوا بين ظهرانيهم من أهل الكوفة، ولست آمن إن أقاموا وسط أهل الشام أن يغروهم بسحرهم وفجورهم، فارددهم إلى مصرهم، فلتكن دارهم في مصرهم الذي نجم فيه نفاقهم»[٣].

ثم كتب عثمان إلى سعيد بن العاص، فردهم إليه، فلم يكونوا إلا أطلق ألسنة منهم حين رجعوا، وكتب سعيد إلى عثمان يضج منهم، فكتب عثمان إلى سعيد أن سيِّرهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وكان أميرًا على حمص، فلما وصلوا إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد استدعاهم، وكلمهم كلامًا شديدًا، وكان مما قاله

(١) «عثمان بن عفان ذو النورين» (ص ١٣٥).

(٢) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/٣٢٥).

(٣) «المصدر السابق» (٥/٣٢٧).

لهم: «يا آلة الشيطان، لا مرحبًا بكم ولا أهلًا، لقد رجع الشيطان محسورًا خائبًا، وأنتم ما زلتم نشيطين في الباطل خسَّر الله عبد الرحمن إن لم يؤدبكم ويخزكم، يا معشر من لا أدري من أنتم: أَعَرَبٌ أم عجم، لن تقولوا لي كما كنتم تقولون لسعيد ومعاوية، أنا ابن خالد بن الوليد، أنا ابن من قد عجمته العاجمات، أنا ابن فاقئ الردة، والله لأذلنكم». وأقامهم عبد الرحمن بن خالد عنده شهرًا كاملًا، وعاملهم بمنتهى الحزم والشدة، ولم يلن معهم كما لان سعيد ومعاوية، وكان إذا مشى مشوا معه، وإذا ركب ركبوا معه, وإذا غزا غزوا معه، وكان لا يدع مناسبة إلا ويذلهم فيها، وكان إذا قابل زعيمهم (صعصة بن صوحان) يقول له: «يا ابن الخطيئة، هل تعلم أن من لم يصلحه الخير أصلحه الشر، وأن من لم يصلحه اللين أصلحته الشدة، وكان يقول لهم: لماذا لا تردون عليَّ كما كنتم تردون على سعيد في الكوفة، وعلى معاوية بالشام؟ لماذا لا تخاطبوني كما كنتم تخاطبونهما؟».

ونفع معهم أسلوب عبد الرحمن بن خالد، وأخرسهم حزمه وشدته وقسوته, وأظهروا له التوبة والندم، وقالوا له: «نتوب إلى الله ونستغفره، أقلنا أقالك الله، وسامحنا سامحك الله»[١]، ثم هربوا بعد ذلك وعادوا إلى الكوفة.

أما أهل الفتنة بالبصرة بزعامة حكيم بن جبلة فقد كانوا ضد أهل الفضل فيها, وتآمروا وكذبوا عليهم، وكان من أفضل وأتقى أهل البصرة (أشج عبد القيس) واسمه عامر بن عبد القيس، وكان زعيمًا لقومه، وقد وفد على رسول الله ـ ﷺ ـ وتعلم منه، ومدحه رسول الله بقوله: «إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة»[٢]. وكان عامر بن عبد القيس من قادة الجهاد في القادسية وغيرها،

---

(١) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/٣٢٩).

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٢٥).

وكان مقيمًا في البصرة، وكان على قدر كبير من الصلاح والتقوى، فكذب الخارجون عليه، واتهموه بالباطل، فسيَّره عثمان إلى معاوية بالشام، ولما كلمه معاوية وعامله، عَرَفَ براءته وصدقه، وكَذِبْ الخوارج وافتراءهم عليه.

وفي عام ٣٤هـ، «السنة الحادية عشرة من خلافة عثمان»: أَحْكَمَ عبد الله ابن سبأ اليهودي خطته، ورسم مؤامراته, ورتب مع جماعته السبئيين الخروج على الخليفة وولاته، فقد اتصل ابن سبأ اليهودي في مصر بالشياطين من حزبه في البصرة والكوفة والمدينة، واتفق معهم على تفاصيل الخروج، وكاتبهم وكاتبوه، وراسلهم وراسلوه(١).

قال الطبري عن أوضاع الكوفة سنة أربع وثلاثين: «وفد سعيد بن العاص إلى عثمان في سنة إحدى عشرة من إمارة عثمان، وقد بعث سعيد قبل خروج الأشعث بن قيس إلى أذربيجان، وسعيد بن قيس إلى الري، والنسير العجلي إلى همذان، والسائب بن الأقرع إلى أصبهان، ومالك بن حبيب إلى ماه، وحكيم بن سلامة إلى الموصل، وجرير بن عبد الله إلى قرقيسيا، وسلمان بن ربيعة إلى الباب، وعتيبة ابن النهاس إلى حلوان، وجعل على الحرب القعقاع بن عمرو التميمي، وكان نائبه بعد خروجه عمرو بن حريث، وبذلك خلت الكوفة من الوجوه والرؤساء، ولم يبقَ فيها إلا منزوع أو مفتون»(٢).

خرج يزيد بن قيس في الكوفة، وهو يريد خلع عثمان، فدخل المسجد وجلس فيه, وتجمع عليه في المسجد السبئيون, الذين كان ابن السوداء يكاتبهم من مصر، ولما تجمع الخارجون في المسجد، علم بأمرهم القعقاع بن عمرو أمير الحرب، فألقى

(١) «تاريخ الخلفاء الراشدين: الفتوحات والإنجازات السياسية» (ص ٣٩٠).
(٢) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/٣٣٧).

القبض عليهم، وأخذ زعيمهم يزيد بن قيس معه، ولما رأي يزيد شدة القعقاع ويقظته وبصيرته لم يجاهره بهدفهم وخطتهم في الخروج على الخليفة عثمان وخلعه، وأظهر له أن كل ما يريده هو وجماعته عزل الوالي سعيد بن العاص، والمطالبة بوال آخر مكانه، فاستجيب لطلبهم, ولذلك أطلق القعقاع سراح الجماعة لما سمع كلام يزيد، ثم قال ليزيد: «لا تجلس لهذا الهدف في المسجد، ولا يجتمع عليك أحد واجلس في بيتك، واطلب ما تريد من الخليفة وسيحقق لك ذلك»(١).

وهنا اضطر إلى تعديل خطته في الخروج والفتنة، واستأجر هذا السبئي (يزيد ابن قيس) رجلًا وأعطاه دراهم وبغلًا، وأمره أن يذهب بسرعة إلى السبئيين من أهل الكوفة الذين نفاهم عثمان بن عفان إلى الشام, ثم إلى الجزيرة، وهم مقيمون عند عبد الرحمن بن خالد بن الوليد هناك، وقد أظهروا له التوبة والندم، وقال يزيد لإخوانه الشياطين في كتابه: «إذا وصلكم كتابي فلا تضعوه من أيديكم حتى تأتوا إليَّ، فقد راسلنا إخواننا في مصر واتفقنا معهم على الخروج». ولما قرأ الأشتر كتاب يزيد خرج فورًا للكوفة، ولحق به إخوانه الخارجون، وفقدهم عبد الرحمن ابن خالد فلم يجدهم فأرسل جماعة في طلبهم فلم يدركوهم، واتصل يزيد بن قيس بجماعته مرة ثانية، واتصل جماعته بالرعاع والغوغاء في الكوفة، وتجمعوا في المسجد، ودخل عليهم الأشتر النخعي في المسجد وعمل على إثارتهم وتهييجهم ودفعهم للثورة والخروج(٢).

سار يزيد بن قيس ومعه الأشتر النخعي بالألف من الخارجين إلى مكان على طريق المدينة يسمى (الجَرَعة)، وبينما كانوا معسكرين في الجرعة، طلع عليهم

---

(١) «تاريخ خليفة بن خياط» (ص ١٥٨).

(٢) «تاريخ الرسل والملوك» (٣٣٩/٥).

سعيد بن العاص، ورأي سعيد بن العاص أن من الحكمة عدم مواجهتهم، وعدم تأجيج نار الفتنة، بل محاولة إخمادها، وهذا رأي أبي موسى الأشعري، وعمرو بن حريث, والقعقاع بن عمرو في الكوفة، وعاد سعيد بن العاص إلى عثمان وأخبره خبر القوم الخوارج، قال له عثمان: «ماذا يريدون؟ هل خلعوا يدًا من طاعة؟ وهل خرجوا على الخليفة وأعلنوا عدم طاعتهم له؟ قال له سعيد: لا، لقد أظهروا أنهم لا يريدونني واليًا عليهم، ويريدون واليًا آخر مكاني. قال له عثمان: مَن يريدون واليًا؟ قال سعيد بن العاص: يريدون أبا موسى الأشعري، قال عثمان: قد عينا وأثبتنا أبا موسى واليًا عليهم، والله لن نجعل لأحد عذرًا، ولن نترك لأحد حجة، ولنصبرن عليهم كما هو مطلوب منا، حتى نعرف حقيقة ما يريدون. وكتب عثمان إلى أبي موسى بتعيينه واليًا على الكوفة»[١].

وقبل وصول كتاب عثمان بتعيين أبي موسى واليًا، كان في مسجد الكوفة بعض أصحاب رسول الله - ﷺ -، وقد حاولوا ضبط الأمور وتهدئة العامة، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك؛ لأن السبئيين والحاقدين سيطروا على الرعاع والغوغاء وهيجوهم، فلم يعودوا يسمعون صوت عقل أو منطق. وكان في مسجد الكوفة وقت التمرد والفتنة اثنان من أصحاب رسول الله - ﷺ - هما: حذيفة بن اليمان، وأبو مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري البدري[٢].

قام أبو موسى الأشعري - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بتهدئة الأمور، ونهى الناس عن العصيان، وقال لهم: «أيها الناس، لا تخرجوا في مثل هذه المخالفة، ولا تعودوا لمثل هذا العصيان، الزموا جماعتكم والطاعة، وإياكم والعجلة، اصبروا فكأنكم بأمير.

---

(١) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/ ٣٣٩).

(٢) «جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين» (ص ٣٩٠).

فقالوا: فصلِّ بنا، قال: لا، إلا على السمع والطاعة لعثمان بن عفان، قالوا: على السمع والطاعة لعثمان»[(١)].

وكتب عثمان بن عفان إلى الخارجين من أهل الكوفة كتابًا يبين فيه الحكمة من استجابته لطلبهم في عزل سعيد وتعيين أبي موسى بدله[(٢)]، وهي رسالة ذات دلالات هامة كما ذكرنا آنفًا، وتبين طريقة عثمان في مواجهة هذه الفتن، ومحاولته تأجيل اشتعالها ما استطاع، مع علمه اليقيني أنها قادمة، وأنه عاجز عن مواجهتها، فهذا ما علمه من رسول الله ـ ﷺ ـ ، قال لهم عثمان في رسالته: «أما بعد، فقد أَمَّرت عليكم من اخترتم، وأعفيتكم من سعيد، والله لأفرشن لكم عرضي، ولأبذلن لكم صبري، ولأستصلحنكم بجهدي، واسألوني كل ما أحببتم مما لا يعصى الله فيه، فسأعطيه لكم، ولا شيئًا كرهتموه لا يعصى الله فيه إلا استعفيتم منه، أنزل فيه عند ما أحببتم؛ حتى لا يكون لكم عليَّ حجة»، وكتب بمثل ذلك في الأمصار، رضي الله عن أمير المؤمنين عثمان، ما أصلحه، وأوسع صدره! وكم ظلمه السبئيون والخارجون، والحاقدون، وكذبوا وافتروا عليه[(٣)]!

ثوار الأمصار يتحركون من مراكزهم لمهاجمة عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ :

توجه معاوية بن أبي سفيان إلى عثمان، وعرض عليه أن يذهب معه إلى بلاد الشام، وقال له: «يا أمير المؤمنين, انطلق معي إلى الشام، قبل أن يتكالب عليك هؤلاء ويحدث ما لا قبل لك به.

---

(١) «عثمان بن عفان ذو النورين» (ص ١٣٧).
(٢) «تاريخ الخلفاء» (ص ١٣٣).
(٣) «الكامل في التاريخ» (٢/٥١٩).

قال عثمان: أنا لا أبيع جوار رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بشيء ولو كان فيه قطع خيط عنقي. قال له معاوية: إذن أبعث لك جيشًا من أهل الشام، يقيم في المدينة، ليدافع عنك وعن أهل المدينة، قال عثمان: لا، حتى لا أُضيق على جيران وأصحاب رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الأرزاق بجند تساكنهم في المدينة».

واتفق أهل الفتنة على مهاجمة عثمان في المدينة، وحمله على التنازل عن الخلافة وإلا يقتل، وقرروا أن يأتوا من مراكزهم الثلاثة: مصر، والكوفة، والبصرة في موسم الحج، وأن يغادروا بلادهم مع الحجاج، وأن يكونوا في صورة الحجاج، فإذا وصلوا المدينة، تركوا الحجاج يذهبون إلى مكة لأداء مناسك الحج، واستغلوا فراغ المدينة من معظم أهلها الذين ذهبوا لأداء فريضة الحج، وقاموا بمحاصرة عثمان تمهيدًا لخلعه أو قتله(١).

وفي شوال عام ٣٥هـ، كان أهل الفتنة على مشارف المدينة (٢)، بعد أن خرجوا من مصر في أربع طوائف؛ لكل طائفة أمير، ولهؤلاء الأمراء أمير، ومعهم عبد الله بن سبأ، وكان عدد الطوائف الأربعة: ألف رجل تقريبًا؛ وخرجت فرقة أخرى من الكوفة في ألف رجل تقريبًا، في أربع طوائف أيضًا، وخرجت فرقة أخرى من البصرة في ألف رجل تقريبًا، في أربع طوائف أيضًا(٣)، وكان أهل الفتنة من مصر يريدون عليًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خليفة، وكان أهل الفتنة من الكوفة يريدون الزبير

(١) «تيسير الكريم المنان في سيرة عثمان بن عفان - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - » (ص ٣٧٠).

(٢) «إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء» (ص ١٨٣).

(٣) «مختصر تاريخ الخلفاء» (ص ٦٩)، وهناك تباين واختلاف بين المؤرخين حول الأعداد المذكورة، حيث قال البعض: ستمائة رجل في كل فرقة.

ابن العوام خليفة، وكان أهل الفتنة من البصرة يريدون طلحة بن عبيد الله[١].

ولعل هذا العمل منهم كان بهدف الإيقاع بين الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ.

وبعد مقتل عثمان، عُرض الأمر على الثلاثة فرفضوا.

وبلغ خبر قدومهم عثمان ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ قبل وصولهم، وكان في قرية خارج المدينة فلما سمعوا بوجوده فيها، اتجهوا إليه فاستقبلهم فيها، وكان أول من وصل فرق المصريين، فقالوا لعثمان: «ادع بالمصحف فدعا به، فقالوا: افتح السابعة، وكانوا يسمون سورة يونس بالسابعة، فقرأ حتى أتى هذه الآية: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٥٩]. فقالوا له: قف. أرأيت ما حميت من الحمى؟ آلله أذن لك أم على الله تفتري؟ فقال: نزلت في كذا وكذا، فأما الحمى فإن عمر حماه قبلي لإبل الصدقة، فلما وليت زادت إبل الصدقة فزدت في الحمى لما زاد من إبل الصدقة»، فجعلوا يأخذونه بالآية، فيقول نزلت في كذا فما يزيدون، وتم الصلح بينهم وبين عثمان، على شروط تم الاتفاق عليها بينهم وبينه وكتبوا بذلك كتابًا، وأخذ عليهم ألا يشقوا عصا، ولا يفارقوا جماعة ما أقام لهم شرطهم، ثم رجعوا راضين، وقد حضر هذا الصلح علي بن أبي طالب ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ[٢].

وبعد هذا الصلح وعودة أهل الأمصار جميعًا راضين تبيَّن لمشعلي الفتنة أن خطتهم قد فشلت، وأن أهدافهم الدنيئة لم تتحقق؛ لذا خططوا تخطيطًا آخر يشعل الفتنة

---

(١) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/٣٥٧).

(٢) «فتنة مقتل عثمان بن عفان ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ» (١/١٦٠).

ويحييها، وزوروا كتابًا على أمير المؤمنين عثمان كما ذكرنًا آنفًا[١]، وقد زور المجرمون كتبًا أخرى على علي وعائشة وطلحة والزبير - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - .

ثم تمت عملية الحصار لعثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - [٢]، وبعد أن تم الحصار، وأحاط الخارجون على عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بالدار طلبوا منه خلع نفسه أو يقتلوه, فقد رفض عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - خلع نفسه، وقال: لا أخلع سربالًا سربلنيه الله[٣] يشير إلى ما أوصاه به رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بينما كان قلة من الصحابة - رضوان الله عليهم - يرون خلاف ما ذهب إليه, وأشار عليه بعضهم بأن يخلع نفسه ليعصم دمه، ومن هؤلاء: المغيرة بن الأخنس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، لكنه رفض ذلك.

ودخل ابن عمر على عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - أثناء حصاره، فقال له عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : «انظر إلى ما يقول هؤلاء، يقولون: اخلعها ولا تقتل نفسك! فقال ابن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: إذا خلعتها: أمخلد أنت في الدنيا؟ فقال عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: لا. قال: فإن لم تخلعها هل يزيدون على أن يقتلوك؟ قال عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: لا. قال: فهل يملكون لك جنة أو نارًا؟ قال: لا. قال: فلا أرى لك أن تخلع قميصًا قمَّصكه الله فتكون سنة، كلما كره قوم خليفتهم أو إمامهم قتلوه»[٤].

وبينما كان عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - في داره، والقوم أمام الدار محاصروها دخل ذات يوم مدخل الدار، فسمع توعد المحاصرين له بالقتل، فخرج من المدخل ودخل على

---

(١) راجع ص ١٧٥.

(٢) قيل أن مدة الحصار استمرت أربعين يومًا، وقيل لمدة شهر؛ وقيل حاصروه اثنين وعشرين يومًا.

(٣) «التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان» (ص ٤٧).

(٤) «الخلفاء الأربعة: أيامهم وسيرتهم» (ص ١٧١).

من معه في الدار ولونه ممتقع(١)، فقال: «إنهم ليتوعدونني بالقتل آنفًا، فقالوا له: يكفيكم الله يا أمير المؤمنين، فقال: ولِمَ يقتلونني وقد سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «**لا يحل دم امرئ مسلم إلا في إحدى ثلاث: رجل كفر بعد إيمانه، أو زنى بعد إحصانه، أو قتل نفسًا بغير نفس**»؟ فوالله ما زنيت في جاهلية ولا في إسلام قط، ولا تمنيت أن لي بديني بدلًا منذ هداني الله، ولا قتلت نفسًا، ففيم يقتلونني؟».

ثم أشرف على المحاصرين وحاول تهدئة ثورتهم وخروجهم على إمامهم.

وعَنْ ثُمَامَةَ بْنِ حَزْنٍ الْقُشَيْرِيِّ، قَالَ: شَهِدْتُ الدَّارَ حِينَ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ عُثْمَانُ، فَقَالَ: ائْتُونِي بِصَاحِبَيْكُمُ اللَّذَيْنِ أَلَّبَاكُمْ عَلَيَّ. قَالَ: فَجِيءَ بِهِمَا فَكَأَنَّهُمَا جَمَلَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا حِمَارَانِ، قَالَ: فَأَشْرَفَ عَلَيْهِمْ عُثْمَانُ، فَقَالَ: أَنْشُدُكُمْ بِاللَّهِ وَالإِسْلَامِ هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ يُسْتَعْذَبُ غَيْرَ بِئْرِ رُومَةَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ يَشْتَرِي بِئْرَ رُومَةَ فَيَجْعَلَ دَلْوَهُ مَعَ دِلَاءِ الْمُسْلِمِينَ بِخَيْرٍ لَهُ مِنْهَا فِي الْجَنَّةِ»؟ فَاشْتَرَيْتُهَا مِنْ صُلْبِ مَالِي فَأَنْتُمُ الْيَوْمَ تَمْنَعُونِي أَنْ أَشْرَبَ مِنْهَا حَتَّى أَشْرَبَ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ؛ قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ؛ فَقَالَ: أَنْشُدُكُمْ بِاللَّهِ وَالْإِسْلَامِ هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ الْمَسْجِدَ ضَاقَ بِأَهْلِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ يَشْتَرِي بُقْعَةَ آلِ فُلَانٍ فَيَزِيدَهَا فِي الْمَسْجِدِ بِخَيْرٍ لَهُ مِنْهَا فِي الْجَنَّةِ»؟ فَاشْتَرَيْتُهَا مِنْ صُلْبِ مَالِي فَأَنْتُمُ الْيَوْمَ تَمْنَعُونِي أَنْ أُصَلِّيَ فِيهَا رَكْعَتَيْنِ؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ، نَعَمْ. قَالَ: أَنْشُدُكُمْ بِاللَّهِ وَبِالْإِسْلَامِ، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنِّي جَهَّزْتُ جَيْشَ الْعُسْرَةِ مِنْ مَالِي؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ. ثُمَّ قَالَ: أَنْشُدُكُمْ بِاللَّهِ وَالإِسْلَامِ هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ عَلَى ثَبِيرِ مَكَّةَ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَأَنَا فَتَحَرَّكَ الْجَبَلُ حَتَّى تَسَاقَطَتْ حِجَارَتُهُ بِالْحَضِيضِ قَالَ: فَرَكَضَهُ بِرِجْلِهِ وَقَالَ: «اسْكُنْ ثَبِيرُ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ

---

(١) مُمْتقِعُ الوَجْهِ: مُتَغَيِّرٌ لَوْنُهُ مِنْ حُزْنٍ أو فَزَعٍ.

نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ؟» قَالُوا: اللَّهُمَّ، نَعَمْ. قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ شَهِدُوا لِي وَرَبِّ الكَعْبَةِ أَنِّي شَهِيدٌ، ثَلَاثًا[١].

موقف الصحابة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ تجاه أمير المؤمنين عثمان:

لما رأي عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ إصرار المتمردين على قتله حذرهم من ذلك ومن مغبته، فاطلع عليهم من كوة وقال لهم: «أيها الناس، لا تقتلوني واستعتبوني، فوالله لئن قتلتموني لا تقاتلوا جميعًا أبدًا، ولا تجاهدوا عدوا أبدًا، لتختلفن حتى تصيروا هكذا، وشبك بين أصابعه». وفي رواية أنه قال: «أيها الناس، لا تقتلوني، فإني والٍ وأخ مسلم، فوالله إن أردت إلا الإصلاح ما استطعت، أصبت أو أخطأت، وإنكم إن تقتلوني لا تصلوا جميعًا أبدًا، ولا تغزوا جميعًا أبدًا، ولا يقسم فيئكم بينكم».

وأرسل عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ إلى الصحابة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ يشاورهم في أمر المحاصرين وتوعدهم إياه بالقتل، فجاء علي بن أبي طالب ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ فقال: «إن معي خمسمائة دارع، فأذن لي فأمنعك من القوم، فإنك لم تحدث شيئًا يستحل به دمك، فقال: جُزيت خيرًا، ما أحب أن يهراق دم بسببي»[٢].

وعن أبي حبيبة[٣] قال: «بعثني الزبير بن العوام إلى عثمان وهو محاصر، فدخلت عليه في يوم صائف وهو على كرسي، وعنده الحسن بن علي، وأبو هريرة، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، فقلت: بعثني إليك الزبير بن العوام وهو يقرئك السلام ويقول لك: إني على طاعتي لم أبدل ولم أنكث، فإن شئت دخلت الدار معك، وكنت رجلًا من القوم، وإن شئت أقمت، فإن بني عمرو بن عوف

---

(١) أخرجه الترمذي بسند حسن.

(٢) «تاريخ دمشق» (٣٩/٣٩٥).

(٣) هو أبو حبيبة مولى الزبير بن العوام، روى عن الزبير، وسمع أبا هريرة وعثمان محصور.

وعدوني أن يصبحوا على بابي، ثم يمضون على ما آمرهم به، فلما سمع يعني عثمان الرسالة قال: الله أكبر، الحمد لله الذي عصم أخي، أقرئه السلام، ثم قل له: مكانك أحبّ إليَّ، وعسى الله أن يدفع بك عني. فلما قرأ الرسالة أبو هريرة قام فقال: ألا أخبركم ما سمعت أذناي من رسول الله ـ ﷺ ـ؟ قالوا: بلى، قال: أشهد لسمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: **«تكون بعدي فتن وأمور»**، فقلنا: فأين المنجى منها يا رسول الله؟ قال: **«إلى الأمين وحزبه»**(١)، وأشار إلى عثمان بن عفان، فقام الناس، فقالوا: قد أمكنتنا البصائر، فأذن لنا في الجهاد؟ فقال: أعزم على من كانت لي عليه طاعة ألا يقاتل»(٢).

ودخل عليه وهو محاصر المغيرة بن شعبة، فقال: «إنك إمام العامة، وقد نزل بك ما ترى، وإني أعرض عليك خصالًا ثلاثة اختر إحداهن: إما أن تخرج فتقاتلهم، فإن معك عددًا وقوة، وأنت على الحق وهم على الباطل، وإما أن تخرق بابًا سوى الباب الذي هم عليه، فتقعد على رواحلك فتلحق بمكة، فإنهم لن يستحلوك بها، وإما أن تلحق بالشام فإنهم أهل الشام وفيهم معاوية، فقال عثمان: أما أن أخرج فأقاتل فلن أكون أول من خلف رسول الله ـ ﷺ ـ في أمته بسفك الدماء، وأما أن أخرج إلى مكة فإنهم لن يستحلوني, فإني سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: **«يلحد رجل من قريش بمكة يكون عليه نصف عذاب العالم»**، ولن أكون أنا، وأما أن ألحق بالشام فإنهم أهل الشام وفيهم معاوية فلن أفارق دار هجرتي ومجاورة

---

(١) في بعض النسخ: إلى الأمير وحزبه.

(٢) «فضائل الصحابة» (١/ ٥١١، ٥١٢).

الرسول ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ»[١]. وعزم الصحابة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ على الدفاع عن عثمان، ودخل بعضهم الدار، ولكن عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ عزم عليهم بشدة، وشدد عليهم في الكف عن القتال دفاعًا عنه[٢].

وقد حث كعب بن مالك ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ الأنصار على نصرة عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ وقال لهم: «يا معشر الأنصار، كونوا أنصار الله مرتين»، فجاءت الأنصار عثمان ووقفوا بابه، ودخل زيد بن ثابت ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ وقال له: «هؤلاء الأنصار بالباب، إن شئت كنا أنصار الله مرتين»[٣]، فرفض القتال وقال: «لا حاجة لي في ذلك، كفوا»[٤].

وجاء الحسن بن علي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ، وقال له: «أخترط سيفي؟ قال له: لا، أبرأ إلى الله إذن مِنْ دمك، ولكن ثم[٥] سيفك، وارجع إلى أبيك»، وجاء أبو هريرة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ودخل الدار على عثمان وأراد الدفاع عنه، فقال له عثمان: «يا أبا هريرة، أيسرك أن تقتل الناس جميعًا وإياي؟! قال: لا، قال: فإنك والله إن قتلت رجلًا واحدًا فكأنما قُتِل الناس جميعًا»، فرجع ولم يقاتل[٦].

ولما رأي بعض الصحابة إصرار عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ على رفض قتال المحاصرين، وأن المحاصرين مصرون على قتله، لم يجدوا حيلة لحمايته سوى أن يعرضوا عليه مساعدته في الخروج إلى مكة هربًا من المحاصرين، فقد روي أن عبد الله

(١) «البداية والنهاية» (٧/٢١١). والحديث أخرجه أحمد في مسنده، وصححه الألباني، وضعفه شعيب الأرنؤوط (٧/٢٢٩)، وقال بضعفه أيضًا أحمد شاكر.

(٢) «موجز التاريخ الإسلامي» (ص ١٢٦).

(٣) «الطبقات» (٣/٧٠).

(٤) «فتنة مقتل عثمان بن عفان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ» (١/١٦٢).

(٥) الثم هو: إصلاح الشيء وإحكامه، ويحتمل أن تكون مصحفة من شم، والشم هو: إعادة السيف إلى غمده. «لسان العرب» (١٢/ ٧٩).

(٦) «من أخلاق الخلفاء الراشدين» (ص ٧٥).

ابن الزبير، والمغيرة بن شعبة، وأسامة بن زيد، عرضوا عليه ذلك، وكان عرضهم متفرقًا، فقد عرض كل واحد منهم عليه ذلك على حدة، وعثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يرفض كل هذه العروض[1].

موقف أمهات المؤمنين:

وكان موقف أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - من المواقف البالغة الخطر في هذه الأحداث.

فلما حوصر عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ومُنع عنه الماء، سرَّح عثمان ابنًا لعمرو بن حزم الأنصاري من جيران عثمان إلى علي بأنهم قد منعونا الماء، فإن قدرتم أن ترسلوا إلينا شيئًا من الماء فافعلوا، وإلى طلحة وإلى الزبير وإلى عائشة وأزواج النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فكان أولهم إنجادًا له علي وأم حبيبة، وكانت أم حبيبة معنية بعثمان - كما قال ابن عساكر - ، وكان هذا طبيعيًّا منها، حيث النسب الأموي الواحد، فجاءت أم حبيبة، فضربوا وجه بغلتها، فقالت: «إن وصايا بني أمية إلى هذا الرجل، فأحببت أن ألقاه فأسأله عن ذلك كيلا تهلك أموال أيتام وأرامل». قالوا: «كاذبة!»، وأهووا لها وقطعوا حبل البغلة بالسيف فندت[2] بأم حبيبة فتلقاها الناس وقد مالت راحلتها، فتعلقوا بها، وأخذوها وقد كادت تقتل، فذهبوا بها إلى بيتها، ويبدو أنها - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أمرت ابن الجراح مولاها أن يلزم عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، فقد حدثت أحداث الدار، وكان ابن الجراح حاضرًا[3].

---

(١) «فتنة مقتل عثمان» (١/ ١٦٦).

(٢) ند البعير ونحوه ندًّا وندودًا: نفر وشرد. انظر: «لسان العرب» (٣/ ٤١٩).

(٣) «تاريخ المدينة» (٤/ ١٣١١).

وما فعلته السيدة أم حبيبة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ فعلت مثله السيدة صفية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ؛ فلقد روي عن كنانة [(١)] قال: «كنت أقود بصفية لتردَّ عن عثمان، فلقيها الأشتر[(٢)]، فضرب وجه بغلتها حتى مالت، فقالت: ذروني لا يفضحني هذا، ثم وضعت خشبًا من منزلها إلى منزل عثمان تنقل عليه الطعام والماء[(٣)]. وخرجت عائشة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ من المدينة وهي ممتلئة غيظًا على المتمردين، وجاءها مروان بن الحكم، فقال: «أم المؤمنين، لو أقمت كان أجدر أن يراقبوا هذا الرجل، فقالت: أتريد أن يصنع بي كما صنع بأم حبيبة، ثم لا أجد من يمنعني، لا والله لا أُعَيَّر[(٤)]، ولا أدري إلام يسلم أمر هؤلاء»[(٥)]. ورأت ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ أن خروجها ربما كان معينًا في فض هذه الجموع، وتجهزت أمهات المؤمنين إلى الحج هربًا من الفتنة، وكانت هذه محاولة منهن لتخليص عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ من أيدي هؤلاء المفتونين، الذين كان منهم في بادىء الأمر؛ محمد بن أبي بكر[(٦)] أخو السيدة عائشة ـ

---

(١) كنانة بن عدي بن ربيعة بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف العبشمي. انظر: «أنساب الأشراف» (٩/ ٣٨٠).

(٢) الأشتر النخعي، واسمه مالك بن الحارث. انظر: «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٣٤)، «تهذيب التهذيب» (١٠/ ١١).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٤٨٨).

(٤) أُعَيَّر: من العار، وقد يبدي هذا التعبير أن الحالة التي وضع فيها الغوغاء السيدة أم حبيبة كانت شديدة الإيلام. انظر: «المعجم الوسيط» (٢/ ٢٤٠).

(٥) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/ ٤٠١).

(٦) وقد نزَّه الله ـ تعالى ـ أصحاب النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ أن يكون أحد منهم مشاركًا في قتل عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ، بل لم يكن أحدٌ من أبناء الصحابة مشاركًا، ولا معينًا لأولئك الخوارج المعتدين، وكل ما ورد في مشاركة أحد من الصحابة: كعبد الرحمن بن عديس، وعمرو بن الحمِق؛ فمما لم يصح إسناده. قال النووي ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ : «ولم يشارك في قتله أحد من الصحابة» انتهى من

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ الذي حاولت أن تستتبعه معها إلى الحج فأبى، وهذا هو ما أكد عليه الإمام ابن العربي، قال: «تغيب أمهات المؤمنين مع عدد من الصحابة كان قطعًا للشغب بين الناس رجاء أن يرجع الناس إلى أمهاتهم، وأمهات المؤمنين، فيرعوا حرمة نبيهم»(١).

يوم الدار واستشهاد عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ :

واستدعى عثمان عبد الله بن عباس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ ، وكلفه أن يحج بالناس هذا الموسم، فقال له ابن عباس: «دعني أكن معك وبجانبك يا أمير المؤمنين في مواجهة هؤلاء، فوالله إن جهاد هؤلاء أحبَّ إليَّ من الحج، قال له: عزمت عليك

«شرح مسلم». وأما محمد بن أبي بكر: فليس هو من الصحابة أصلًا، ثم إنه لم يصح اشتراكه في قتل عثمان، ولا في التحريض عليه، وقد أثبت بعض العلماء روايات تبين تراجعه عن المشاركة في قتل عثمان. قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ : «ليس له صحبة ولا سابقة ولا فضيلة، فهو ليس من الصحابة؛ لا من المهاجرين ولا الأنصار، وليس هو معدودًا من أعيان العلماء والصالحين الذين في طبقته». ثم قال: «وأما محمد بن أبي بكر فليس له ذكر في الكتب المعتمدة في الحديث والفقه». انتهى من «منهاج السنة النبوية» (٤ / ٣٧٥-٣٧٧).

وقال ابن كثير ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ : «ويروى أن محمد بن أبي بكر طعنه بمشاقص في أذنه حتى دخلت في حلقه؛ والصحيح: أن الذي فعل ذلك غيره، وأنه استحى ورجع حين قال له عثمان: لقد أخذت بلحية كان أبوك يكرمها، فتذمم من ذلك وغطى وجهه، ورجع وحاجز دونه فلم يُفِد، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا، وكان ذلك في الكتاب مسطورًا» انتهى من «البداية والنهاية» (٧ / ٢٠٧). وقال الأستاذ محمد بن عبد الله غبان الصبحي ـ حَفِظَهُ اللَّهُ ـ : «محمد بن أبي بكر لم يشترك في التحريض على قتل عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ، ولا في قتله، وكل ما روي في اتهامه بذلك: باطل لا صحة له».

(١) «العواصم من القواصم» (ص ١٥٦).

أن تحج بالمسلمين»، فلم يجد ابن عباس أمامه إلا أن يطيع أمير المؤمنين[١]، وكتب عثمان كتابًا مع ابن عباس ليقرأ على المسلمين في الحج، بيَّن فيه قصته مع الذين خرجوا عليه، وموقفه منهم، وطلباتهم منه، وقد خاطب عثمان جمعًا من أهل المدينة فقال " يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ، إِنِّي أَسْتَوْدِعُكُمُ اللَّهَ، وَأَسْأَلُهُ أَنْ يُحْسِنَ عَلَيْكُمُ الْخِلَافَةَ مِنْ بعدي "، وفي آخر أيام الحصار ـ وهو اليوم الذي قُتل فيه ـ نام ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ فأصبح يحدِّث الناس: «ليقتلني القوم»، ثم قال: «رأيت النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ في المنام، ومعه أبو بكر وعمر، فقال النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: يا عثمان، أفطر عندنا، فأصبح صائمًا وقتل من يومه»[٢].

وهاجم المتمردون الدار فتصدى لهم الحسن بن علي، وعبد الله بن الزبير، ومحمد بن طلحة، ومروان بن الحكم، وسعيد بن العاص، ومن كان من أبناء الصحابة أقام معهم، فنشب القتال فناداهم عثمان: «الله الله، أنتم في حل من نصرتي»، فأبوا، ودخل غلمان عثمان لينصروه، فأمرهم ألا يفعلوا؛ بل إنه أعلن أنه من كف يده منهم فهو حر[٣]. وقال عثمان في وضوح وإصرار وحسم، وهو الخليفة الذي تجب طاعته: «أعزم على كل من رأي أن عليه سمعًا وطاعة إلا كف يده وسلاحه»[٤].

ولا تبرير لذلك إلا بأن عثمان كان واثقًا من استشهاده بشهادة النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ له بذلك، ولذلك أراد ألا تراق بسببه الدماء، وتقوم بسببه فتنة بين المسلمين، وكان

---

(١) «تيسير الكريم المنان في سيرة عثمان بن عفان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ» (ص ٣٨٦).

(٢) «موقف الصحابة من أحداث العنف في عهد الخلفاء الراشدين» (ص ٣٠).

(٣) «البداية والنهاية» (٧/ ١٩٠).

(٤) «العواصم من القواصم» (ص ١٣٧).

المغيرة بن الأخنس بن شريق فيمن حج ثم تعجل في نفر حجوا معه، فأدرك عثمان قبل أن يقتل، ودخل الدار يحمي عنه وقال: «ما عذرنا عند الله إن تركناك ونحن نستطيع ألا ندعهم حتى نموت؟!»، فأقدم المتمردون على حرق الباب والسقيفة، فثار أهل الدار وعثمان يصلي حتى منعوهم، وقاتل المغيرة بن الأخنس، والحسن ابن علي، ومحمد بن طلحة، وسعيد بن العاص، ومروان بن الحكم، وأبو هريرة، فأبلوا أحسن البلاء وعثمان يرسل إليهم في الانصراف دون قتال، ثم ينتقل إلى صلاته، فاستفتح قوله ـ تعالى ـ: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [طه: ١ - ٣]، وكان سريع القراءة، فما أزعجه ما سمع، ومضى في قراءته ما يخطئ وما يتعتع، حتى إذا أتى إلى نهايتها قبل أن يصلوا إليه ثم دعا فجلس وقرأ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧][(١)].

وأصيب يومئذٍ أربعة من شبان قريش، وهم: الحسن بن علي، وعبد الله بن الزبير، ومحمد بن حاطب، ومروان بن الحكم، وقتل المغيرة بن الأخنس، ونيار بن عبد الله الأسلمي، وزياد الفهري، واستطاع عثمان أن يقنع المدافعين عنه، وألزمهم بالخروج من الدار، وخلى بينه وبين المحاصرين، فلم يبقَ في الدار إلا عثمان وآله، وليس بينه وبين المحاصرين مدافع ولا حام من الناس.

وفتح ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ باب الدار[(٢)]، وبعد أن خرج من في الدار ممن كان يريد الدفاع عنه، نشر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ المصحف بين يديه، وأخذ يقرأ منه وكان إذ ذاك صائمًا، فإذا برجل من المحاصرين لم تسمه الروايات يدخل عليه، فلما رآه عثمان ـ

---

(١) «تاريخ دمشق» (٦٤/٢٤٥).

(٢) «فتنة مقتل عثمان بن عفان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ» (١/١٨٨).

رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ فقال له: «بيني وبينك كتاب الله», فخرج الرجل وتركه[١]، وما إن وَلَّى حتى دخل آخر، وهو رجل من بني سدوس، يقال له: الموت الأسود، فخنقه ثم أهوى إليه بالسيف، فاتقاه عثمان ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ بيده فقطعها، فقال عثمان: «أما والله إنها لأول كف خطت المفصَّل»[٢]؛ وذلك أنه كان من كتبة الوحي، وهو أول من كتب المصحف من إملاء رسول الله ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ ، فقتل ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ والمصحف بين يديه، وعلى إثر قطع اليد انتضح الدم على المصحف الذي كان بين يديه يقرأ منه، وسقط على قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

وجاء رجل فضرب عثمان على جبهته فسال منه الدم، وجاء آخر وضربه على صدره، ثم تجمعوا عليه بسيوفهم، ولما أحاطوا به قالت امرأته نائلة بنت الفرافصة: «إن تقتلوه أو تدعوه فقد كان يحيى الليل بركعة يجمع فيها القرآن»[٣].

وقد دافعت نائلة عن زوجها عثمان، وانكبت عليه واتقت السيف بيدها, فتعمدها سودان بن حمران ونضح أصابعها فقطع أصابع يدها، وولت، فغمز أوراكها[٤].

ولما رأى أحد غلمان عثمان الأمر، راعه قتل عثمان، وكان يسمى (نجيح) فهجم نجيح على سودان بن حمران فقتله، ولما رأي قتيرة بن فلان السكوني نجيحًا قد قتل سودان، هجم على نجيح فقتله، وهجم غلام آخر لعثمان اسمه (صبيح) على قتيرة ابن فلان فقتله، فصار في البيت أربعة قتلى: شهيدان، ومجرمان، أما الشهيدان: فعثمان وغلامه نجيح، وأما المجرمان: فسودان وقتيرة السكونيان، ولما تم قتل عثمان ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ نادى منادٍ القوم السبئيين قائلًا: «إنه لم يحل لنا دم الرجل ويحرم علينا

---

(١) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/ ٤٠٥).

(٢) «المصدر السابق» (٥/ ٣٩٩).

(٣) «الطبقات» (٣/ ٧٦).

(٤) «المصدر نفسه» (٥/ ٤٠٧).

ماله، ألا إن ماله حلال لنا، فانهبوا ما في البيت»، فعاث رعاع السبئيين في البيت فسادًا، ونهبوا كل ما في البيت، حتى نهبوا ما على النساء، وهجم أحد السبئيين ويدعى كلثوم التجيبي على امرأة عثمان (نائلة) ونهب الملاءة التي عليها، ثم غمز وركها، وقال لها: «ويح أمك من عجيزة ما أتمك»[١]، فرآه غلام عثمان (صبيح) وسمعه وهو يتكلم في حق نائلة هذا الكلام الفاحش، فعلاه بالسيف فقتله، وهجم أحد السبئيين على الغلام فقتله، وبعدما أتم السبئيون نهب دار عثمان، تنادوا وقالوا: «أدركوا بيت المال، وإياكم أن يسبقكم أحد إليه، وخذوا ما فيه»، وسمع حراس بيت المال أصواتهم، ولم يكن فيه إلا غرارتان من طعام فقالوا: «انجوا بأنفسكم، فإن القوم يريدون الدنيا»، واقتحم السبئيون بيت المال وانتهبوا ما فيه[٢].

حقق المجرمون السبئيون مرادهم، وقتلوا أمير المؤمنين، وتوقف كثير من أتباعهم من الرعاع والغوغاء بعد قتل عثمان ليفكروا, وما كانوا يظنون أن الأمر سينتهي بهم إلى قتله.

وحزن الصالحون في المدينة لمقتل خليفتهم، وصاروا يسترجعون ويبكون، لكن ماذا يفعلون وجيوش السبئيين تحتل المدينة، وتعيث فيها فسادًا، وقد علق كبار الصحابة على مقتل عثمان، فقال الزبير بن العوام ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ لما علم بمقتل عثمان: «رحم الله عثمان، إنا لله وإنا إليه راجعون، فقيل له: إن القوم نادمون، فقال: دبروا ودبروا، ولكن كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ [سبأ: ٥٤]». وقال علي بن أبي طالب ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ لما علم بمقتل عثمان: «رحم الله عثمان، إنا لله وإنا إليه راجعون. قيل

(١) عَجِيزَةُ الْمَرْأَةِ: مُؤَخِّرَتُهَا.

(٢) «الفتنة ووقعة الجمل» (ص ٧٣).

له: إن القوم نادمون، فقرأ قوله ـ تعالى ـ: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الحشر: ١٦، ١٧](١).

وقال سعد بن أبي وقاص ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ: «رحم الله عثمان، ثم تلا قوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾ [الكهف: ١٠٣ - ١٠٦]، ثم قال سعد: اللّٰهم اندمهم واخزهم واخذلهم، ثم خذهم»(٢). واستجاب الله دعوة سعد، وكان مستجاب الدعوة، فقد أُخذ كل مَن شارك في قتل عثمان، مثل: عبد الله ابن سبأ، والغافقي، والأشتر، وحكيم بن جبلة، وكنانة التجيبي، حيث قتلوا فيما بعد(٣).

---

(١) «الفتنة ووقعة الجمل» (ص ٧٤).

(٢) «البداية والنهاية» (٧/١٩٤).

(٣) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/٤١٠). وأخرج أحمد بإسناد صحيح عَنْ عَمْرَةَ بِنْتِ أَرْطَاةَ الْعَدَوِيَّةِ قَالَتْ: «خَرَجْتُ مَعَ عَائِشَةَ سَنَةَ قُتِلَ عُثْمَانُ إِلَى مَكَّةَ، فَمَرَرْنَا بِالْمَدِينَةِ وَرَأَيْنَا الْمُصْحَفَ الَّذِي قُتِلَ وَهُوَ فِي حِجْرِهِ، فَكَانَتْ أَوَّلُ قَطْرَةٍ قَطَرَتْ مِنْ دَمِهِ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]، قَالَتْ عَمْرَةُ: فَمَا مَاتَ رَجُلٌ مِنْهُمْ سَوِيًّا». «فضائل الصحابة» (١/٥٠١) بإسنادٍ صحيحٍ. وقال الحسن البصري: «ما علمت أحدًا أشرك في دم عثمان، ولا أعان عليه، إلا قُتِل». و في رواية أخرى: «لم يدع الله الفَسَقة (قتلة عثمان)، حتى قتلهم بكل أرض». انظر: «تاريخ المدينة المنورة» لابن شبّة (٤/١٢٥٢).

قُتل عثمان ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ في شهر ذي الحجة في السنة الخامسة بعد الثلاثين من الهجرة، وتوفي وعمره اثنتان وثمانون (٨٢ سنة)، وهو قول الجمهور.

وقام نفر من الصحابة في يوم قتله بغسله وكفنوه وحملوه على باب، ومنهم: حكيم بن حزام، وحويطب بن عبد العزى، وأبو الجهم بن حذيفة، ونيار ابن مكرم الأسلمي، وجبير بن مطعم، والزبير بن العوام، وعلي بن أبي طالب، وجماعة من أصحابه ونسائه، منهن امرأتاه: نائلة وأم البنين بنت عتبة بن حصين، وصلوا عليه صلاة الجنازة، وقد دفنوه ليلًا، وقد أكد ذلك ما رواه ابن سعد والذهبي؛ حيث ذكرا أنه دفن بين المغرب والعشاء ـ رضوان الله عليه ـ [1].

لقد كانت فتنة قتل عثمان سببًا في حدوث كثير من الفتن الأخرى، وألقت بظلالها على أحداث الفتن التي تلتها، فتغيرت قلوب الناس وظهر الكذب، وبدأ الخط البياني للانحراف عن الإسلام في عقيدته وشريعته، وكان مقتل عثمان من أعظم الأسباب التي أوجبت الفتن بين الناس، وبسببه تفرقت الأمة إلى اليوم[2]؛ فتفرقت القلوب، وعظمت الكروب، وظهرت الأشرار وذل الأخيار، وسعى في الفتنة من كان عاجزًا عنها، وعجز عن الخير والصلاح من كان يحب إقامته، ثم بقيت المدينة بعد مقتل عثمان ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ خمسة أيام وأميرها الغافقي بن حرب أحد قتلة عثمان ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ[3] ثم تمت مبايعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ وهو أحق الناس بالخلافة حينئذٍ، وأفضل مَن بقي, لكن القلوب

---

(١) «الطبقات» (٣/٧٨).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٥/٣٠٣).

(٣) هذه الرواية ضعفها بعض المحققين، ومن الممكن أن يكون الغافقي قد تصدر المشهد، لكنه لم يكن أميرًا للمدينة.

متفرقة ونار الفتنة متوقدة، فلم تتفق الكلمة ولم تنتظم الجماعة، ولم يتمكن الخليفة وخيار الأمة مِن كل ما يريدون من الخير، ودخل في الفرقة والفتنة أقوام كثيرون.

إن الظلم والاعتداء على الآخرين بغير حق من أسباب الهلاك في الدنيا والآخرة، كما قال الله ـ عَزَّوَجَلَّ ـ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩]، وإن المتتبع لأحوال أولئك الخارجين على عثمان ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ المعتدين عليه، يجد أن الله ـ تعالى ـ لم يفلتهم، بل أذلهم وأخزاهم وانتقم منهم، فلم ينجُ منهم أحدٌ[1].

رأي الباحث في منهجية الحكم الصحيحة:

بعد أن استعرضنا فترة حكم أمير المؤمنين عثمان ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ وما تخللها من أحداث، نقول: إنه لابد للحاكم أن يحكم أمور الدولة بكل حزم، لأنه لا يَجترئ على فِعل المُحرمات والتّعدي على حقوق الناس ومُمتلكاتهم، ونَشر الفوضى وأعمال العنف والتمادي في الإجرام إلا مَن أمِن العقوبة، فمَن أمِن العقوبة أساء الأدب، واللين في موضع الشدة ضعف، والشدة في موضع اللين عنف، وها هو عثمان ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ يروي كيف تلقى بعض الناس رفقه ولينه معهم، وذلك بعد فترة من حكمه. روى يحيى عن أفلح بن حميد عن أبيه قال: «لما أراد عثمان أن يكلم الناس على المنبر ويشاورهم في أمر توسعة المسجد، قال له مروان ابن الحكم: فداك أبي وأمي، هذا أمر خير لو فعلته ولم تذكر لهم. فقال: ويحك! إني أكره أن يروا أني أستبد عليهم بالأمور، قال مروان: فهل رأيت عمر حيث بناه وزاد فيه ذكر ذلك لهم؟ قال: اسكت، إن عمر اشتد عليهم فخافوه، حتى

---

(١) «تيسير الكريم المنان في سيرة عثمان بن عفان ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ» (ص٤٢٠).

لو أدخلهم في جحر ضب دخلوا، وإني لنت لهم حتى أصبحت أخشاهم! قال مروان بن الحكم: فداك أبي وأمي لا يسمع هذا منك فيجترأ عليك»[(١)].

وروى سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب أن أباه قال: «لقد عتبوا على عثمان أشياء لو فعلها عمر ما عتبوا عليه». وعبد الله بن عمر كان شاهد عيان لخلافة عثمان من أولها إلى آخرها، وهو يشهد لعثمان بأن كل ما عتبوا به عليه كان يحتمل أن يكون من عمر وهو أبوه. ولو كان ذلك من عمر لما عتب أو اعترض عليه أحد، فقوة عمر وحزمه وشدته المتزنة الممزوجة بالحكمة كان لها تأثير بالغ في أحواله مع الرعية، فكان عمر قوي الشكيمة، شديد المحاسبة لنفسه, ولمن تحت يديه، وكان عثمان ألين طبعًا وأرق في المعاملة، ولم يكن يأخذ نفسه أو يأخذ الناس بما يأخذهم به عمر حتى يقول عثمان نفسه: «يرحم الله عمر، ومَن يطيق ما كان عمر يطيق». وقد أدرك عثمان ذلك أيضًا حين قال لأقوام سجنهم: «أتدرون ما جرأكم عليَّ؟! ما جرأكم عليَّ إلا حلمي!»؛ فهذا اللين وهذه الرأفة من مميزات عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ، لكن بعض الناس لم يحسنوا أن يقابلوا ذلك بالإحسان والطاعة.

قلتُ: هذا مع وجود اللين والرفق مع مَن استحق ذلك مِن الرعية، فلابد من التوازن بين الشدة واللين، ولا تكون الشدة إلا في موضعها، وكذلك اللين يكون في موضعه. ونؤكد على أن الحلم واللين مع الرعية كان من حسنات عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ، ولم يكن أبدًا من سيئاته كما يظن البعض، ولا يُعد حلمه ورحمته من النقائص والمعايب، بل كان العيب في الذين لم يحسنوا أن يعيشوا في كنف الحلم

(١) «وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى» (٢/ ٨٣).

واللين والرحمة، ولم يحسنوا أن يقابلوا الإحسان بالطاعة، بل كانوا على العكس من ذلك تمامًا.

ثم إننا نشير إلى أن رقعة الدولة قد توسعت وازدادت في عصر عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، ودخل كثير من الناس الإسلام بثقافات وطباع مختلفة، وهذا أيضًا كان له أثر بالغ في المجتمع؛ لذا وجب على الحاكم أن يراعي تنوع ثقافات الناس واختلاف طباعها، لاسيما مَن تعود منهم على أسلوب الملك وهو بلا شك يختلف عن أسلوب الخلافة، ثم أنه كان ينبغي على أمير المؤمنين عثمان ألا يحدث الناس على المنبر في أمر توسعة المسجد وغيره، بل كان عليه أن يتخذ مجلس شورى من الثقات يستشيرهم ويكتفي بذلك.

ثم لابد أن نعلم أن فترة الخلافة هي بالطبع أفضل مما بعدها من فترات الملك، ولابد أيضًا من وجود سياسة الاستيعاب بحكمة واعتدال دون إفراط أو غلو، ومَن تدبر منهج معاوية - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - في الحكم علم ذلك جيدًا، فلقد استطاع معاوية أن يحكم الدولة الواسعة المترامية الأطراف بكل حزم وحكمة، وقد سُئل **معاوية** - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - كيف حكمت **الشام** أربعين سنة ولم تحدث فتنة؟! فقال: «إنّي لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، كانوا إذا مدّوها أرخيتها، وإذا أرخوها مددتها»(١).

فقد امتاز معاوية - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بالعقلية الفذة, فإنه كان يتمتع بالقدرة الفائقة على الاستيعاب, فكان يستفيد من كل ما يمر به من الأحداث, ويعرف كيف

---

(١) «العقد الفريد» (١/ ٢٥).

يتوقاها, وكانت خبراته الواسعة وممارسته لأعباء الحكم على مدى أربعين سنة, منذ ولاه عمر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ الشام, فكانت ولايته على الشام عشرين سنة أميرًا, وعشرين سنة خليفة؛ هذه الفترة الطويلة التي تقلب فيها بين المناصب العسكرية والولاية، أكسبته خبرة في سياسة البلاد, والاستفادة من كل الظروف والأوضاع التي تمر بها, حتى استطاع أن يسير بالدولة عشرين سنة دون أن ينازعه منازع؛ لذا أثنى كثير من الصحابة وأهل العلم على معاوية وسياسته في الحكم.

يقول الشيخ الخضري: «أما معاوية نفسه, فلم يكن أحد أوفر منه يدًا في السياسة, صانع رءوس العرب, وكانت غايته في الحلم لا تدرك, وعصابته فيه لا تنزع، ومرقاته(١) فيه تزل عنها الأقدام»(٢).

ومن المعلوم أن السياسة الناجحة تتوقف على القدرة على ضبط النفس عند الغضب, واحتواء الشدائد حتى تنجلي, واستخدام الأساليب المتنوعة حسب الأحداث والمتغيرات، ولمعاوية في ذلك نصيب، وكانت تلك سياسته مع العامة والخاصة, قال عمر بن الخطاب: «تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية!». ويقول عبد الله بن عمر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ: «ما رأيت أحدًا أسود من معاوية. قيل: ولا عمر؟ قال: كان عمر خيرًا منه وكان معاوية أسود منه».

---

(١) مِرْقاة: مفرد مَرَاقٍ، موضع الرُّقِيّ والصُّعود أو أداته كالدَّرجة من درجات السُّلَّم.

(٢) «تيسير الكريم المنان في سيرة عثمان بن عفان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ » (ص ١٧٥) نقلًا عن «الدولة الأموية للخضري» (ص ٣٧٧).

وفي رواية: «ما رأيت أحدًا بعد رسول الله ـ ﷺ ـ أسود من معاوية. قيل: ولا أبا بكر؟ قال: كان أبو بكر وعمر وعثمان خيرًا منه, وهو أسود منهم»(١).

ويقول عبد الله بن عباس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ: «ما رأيت رجلًا كان أخلق بالملك من معاوية»(٢).

وقال ابن أبي العز الحنفي: «وأول ملوك المسلمين معاوية، وهو خير ملوك المسلمين». ويقول ابن تيمية: «واتفق العلماء على أن معاوية أفضل ملوك هذه الأمة, فإن الأربعة قبله كانوا خلفاء نبوة وهو أول الملوك, كان ملكه ملكًا ورحمة»(٣). وقال: «فلم يكن من ملوك المسلمين خيرًا منهم في زمان معاوية إذا نسبت أيامه إلى أيام من بعده، أما إذا نسبت إلى أيام أبي بكر وعمر ظهر التفاضل».

وذكر ابن تيمية قول الأعمش عندما ذكر عنده عمر بن العزيز فقال: «فكيف لو أدركتم معاوية؟ قالوا: في حلمه؟ قال: لا والله في عدله»(٤).

وهكذا يجب أن يكون الحكام في كل موطن، وفي كل وقت، يتعاملون مع الواقع بما يتناسب معه.

إذن لابد من وجود قدر من الحزم والقوة، وقدر من اللين والحلم، وقدر من الاستيعاب بحكمة، أما استعمال صفتي اللين والحلم مع الجميع بمختلف

---

(١) «البداية والنهاية» (١١/ ٤٣٠). وأسود: أي أحكم، والأَسْوَدُ من الناس: أكثرهُم سيادة. انظر: «معجم المعاني»، ورواه أبو بكر بن الخلال في «السنة».

(٢) «البداية والنهاية» (١١/ ٤٣٩).

(٣) «الفتاوى» (٤/ ٤٧٨).

(٤) «منهاج السنة» (٦/ ٢٣٢).

التوجهات؛ فهذا ربما يقابله البعض بالإجرام والتمادي في الظلم، وهذا حتمًا سيؤثر بالسلب على أمن العباد والبلاد ـ والله تعالى أعلم ـ .

المبحث الثالث

الجمل وصفين: «الأسباب والنتائج»

لقد أخبر الصادق الذي لا ينطق عن الهوى ـ ﷺ ـ، بوقوع الفتن، بل وحدد موطنها فقال: «ألا إن الفتنة هاهنا» وأشار إلى جهة المشرق(١).

وحدث ما أخبر به رسول الله ـ ﷺ ـ، فمن العراق: ظهر الخوارج(٢)، والشيعة، والروافض(٣)، والباطنية(٤)، وغيرهم. ومن جهة الفرس: خرجت

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الفتن «باب: قول النبي ـ ﷺ ـ: **«الفتنة من قبل المشرق»** (٧٠٩٣).

(٢) الخوارج: طائفة عندها غلو، مجتهدة في الدين، في الصلاة والقراءة، وغير ذلك، ولكن عندهم غلو فَيُكَفِّرُن أهل المعاصي، فلشدة غلوهم يرون مَن زنى كفر، ومَن شرب الخمر كفر، ومَن عق والديه كفر، ويكفرون بالذنوب، قال فيهم النبي ـ ﷺ ـ: **«يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وقراءته مع قراءتهم، يمرقون من الإسلام ثم لا يعودون إليه»**. وفي رواية: **«يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد، فإنه أينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجرًا لمن قتلهم»** [أخرجه البخاري (٣٦١١)] والجمهور على أنهم عصاة مبتدعة ضالون. انظر: «الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة» (١/٣٣٣). وسيأتي مزيد من الإيضاح والتفصيل حول الخوارج، في المبحث الرابع من الفصل الثاني.

(٣) قال ابن تيمية في أصل تسمية الرافضة في «منهاج السنة»: «من زمن خروج زيد ـ يقصد زيد بن علي ـ افترقت الشيعة إلى رافضة وزيدية، فإنه لما سئل عن أبي بكر وعمر فترحم عليهما، رفضه قوم فقال لهم: رفضتموني. فسُمّوا رافضة لرفضهم إياه، وسُمّي من لم يرفضه من الشيعة زيديًّا لانتسابهم إليه». والرفض: بمعنى الترك. قال ابن منظور في اللسان: «الرفض تركك الشيء، تقول: رفضني فرفضته، رفضت الشيء أرفضه رفضًا. تركته وفرقته، وهم يسبون الصحابة ويرون أن عليًّا أحق بالخلافة بعد رسول الله ـ ﷺ ـ، وأنه ليس هناك أي صحابي حافظ على دينه وإسلامه إلا ستة فقط، ويكفرون أبا بكر وعمر، وحين يتكلمون عن الصحابة بخير فهم يقصدون هؤلاء الستة فقط لا يقصدون مثلنا كل صحابة رسول الله ـ ﷺ ـ. «الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة» (١/٧٦).

(٤) يشترك الغزالي وابن الجوزي في ذكر ألقاب الباطنية الثمانية وهي: الباطنية والتعليمية، والسبعية، والقرامطة والإسماعيلية، والخرمية والبابكية، والمحمرة. والملاحظ على هذه الألقاب أن بعضها =

القاديانية [١]، والبهائية [٢]، وغيرها مِن الفرق، وكذا من جهة المشرق: مسيلمة الكذاب، والدجال.

= يدل على فرق الباطنية، وبعضها يدل على أصولهم ومعتقداتهم، والبعض الآخر يدل على الحركات الثورية التي تعتبر كالممهد والبداية لظهور التيار الباطني في العالم الإسلامي، فالباطنية لقب عام تشترك فيه عدة فرق وينضوي تحت لوائه طوائف متعددة القاسم المشترك بينها: تأويل النصوص الشرعية عن معناها الظاهر إلى معانٍ باطنية غير معهودة ومعروف لدى المسلمين شرعًا أو لغةً أو عقلًا. ومن أشهر هذه الفرق: طائفتا الإسماعيلية والقرامطة، وجميع هذه الفرق تندرج تحت ستار التشيع لآل البيت. «الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة» (١/ ٣٦٩).

(١) القاديانية: حركة نشأت سنة ١٩٠٠م بتخطيط من الاستعمار الإنجليزي في القارة الهندية، بهدف إبعاد المسلمين عن دينهم وعن فريضة الجهاد بشكل خاص؛ حتى لا يواجهوا المستعمر باسم الإسلام، وكان لسان حال هذه الحركة هو مجلة الأديان التي تصدر باللغة الإنجليزية.كان مرزا غلام أحمد القادياني ١٩٠٨م أداة التنفيذ الأساسية لإيجاد القاديانية. وقد ولد في قرية قاديان من بنجاب في الهند عام ١٨٣٩م، وكان ينتمي إلى أسرة اشتهرت بخيانة الدين والوطن، وهكذا نشأ غلام أحمد وفيًّا للاستعمار مطيعًا له في كل حال! ويعتقد القاديانيون أن الله يصوم ويصلِّي، وينام ويصحو، ويكتب ويخطئ ويجامع - تعالى الله عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا -، كما صرَّح أحمد القادياني بأن إلهه إنجليزي؛ لأنه يخاطبه بالإنجليزية! وتعتقد القاديانية أيضًا: بأن النبوة لم تختم بمحمد - ﷺ -، بل هي جارية، والله يرسل الرسول حسب الضرورة، وأن غلام أحمد هو أفضل الأنبياء جميعًا، وأن جبريل - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كان ينزل على غلام أحمد القادياني، وأنه كان يُوحي إليه، وأن إلهاماته كالقرآن، وقد ألَّف بالفعل كتابًا سمَّاه الكتاب المبين. «الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة» (١/ ٤١٩).

(٢) الميرزا حسين علي الملقب «البهاء»: ولد في قرية «نور» بنواحي «مازندران» بإيران، سنة ١٢٣٣هـ. التقى البهاء بأحد مدعي النبوة، واسمه «الباب»، وأصبح البهاء من أتباعه إلى أن مات، وتنازع هو وأخوه «صبح الأزل» على خلافة الباب بعد موته حتى افترقا جسدًا وفكرًا. ثم ادعى البهاء النبوة، ولم يكتفِ بها، بل تجاوزها إلى ادعاء الألوهية، وأنه القيوم الذي سيبقى ويخلد، وأنه روح الله، وأنه هو من بعث الأنبياء والرسل، وأوحى بالأديان، وزعم أن «الباب» لم يكن إلا نبيًّا مهمته التبشير بظهوره، والبابية والبهائية حركة نبعت من المذهب الشيعي الشيخي سنة ١٢٦٠هـ/ ١٨٤٤م تحت رعاية الاستعمار الروسي واليهودية العالمية والاستعمار الإنجليزي؛ بهدف إفساد العقيدة الإسلامية وتفكيك وحدة المسلمين، وصرفهم عن قضاياهم الأساسية. «الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة» (١/ ٤٠٧).

ومنذ أن مات الخليفة الراشد عمر بن الخطاب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، والفتن لم تتوقف، وقد أخبر بذلك أيضًا رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وبدأت الفتن تشتعل بموت أمير المؤمنين عثمان بن عفان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، وها نحن نبيّن الآن ما حدث بين الصحب الكرام بعد موت عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - .

أولًا: بيعة علي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وتوليه أمر الخلافة:

بقيت المدينة بعد مقتل عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - خمسة أيام بلا أمير، وأميرها الغافقي بن حرب[١] أحد قتلة عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، والناس يلتمسون مَن يجيبهم إلى القيام بالأمر فلا يجدونه، وهنا فكر الناس في علي بن أبي طالب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، فأتى عليٌّ داره فدخلها فأغلق بابه، فأتاه الناس فضربوا عليه الباب فدخلوا عليه، فقالوا: «إن عثمان قد قتل، ولابد للناس من خليفة ولا نعلم أحدًا أحق بها منك. فقال لهم علي: لا تريدوني فإني لكم وزير خير مني لكم أمير، فقالوا: لا والله لا نعلم أحدًا أحق بها منك، قال: فإن أبيتم عليَّ فإن بيعتي لا تكون سرًّا، ولكن أخرج إلى المسجد». فبايعه الناس. وفي رواية أخرى: «فأتاه أصحاب رسول الله فقالوا: إن هذا الرجل قد قُتل ولابد للناس من إمام، ولا نجد أحدًا أحق بها منك، أقدم مشاهد، ولا أقرب من رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - . فقال عليٌّ: لا تفعلوا فإني لكم وزير خير مني أمير، فقالوا: لا والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك، قال: ففي المسجد فإنه ينبغي لبيعتي ألا تكون خفيًا، ولا تكون إلا عن رضا المسلمين». فقال عبد الله بن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : «لقد كرهت أن يأتي المسجد كراهية أن يشغب عليه، وأبى هو إلا المسجد»، فلما

---

(١) هذه الرواية ضعفها بعض المحققين، ومن الممكن أن يكون الغافقي قد تصدر المشهد، لكنه لم يكن أميرًا للمدينة.

دخل المسجد جاء المهاجرون والأنصار فبايعوا وبايع الناس(١)، وكان فيهم طلحة والزبير، فأتوا عليًّا فقالوا: «يا أبا حسن، هلم نبايعك، وتمت البيعة منهما(٢).

وهكذا تمت بيعة علي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ بالخلافة بطريقة الاختيار، بعد الثورة(٣) الظالمة التي قامت على أمير المؤمنين عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ.

---

(١) «السنة» للخلال (٢/٤١١٢). وانظر: «تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام» (٢/٢٧٠).

(٢) وتفيد بعض الروايات بأن عَلِيًّا جَاءَ فَقَالَ لِطَلْحَةَ: ابْسُطْ يَدَكَ يَا طَلْحَةَ لأُبَايِعَكَ، فقال طلحة: أنت أحق، وأنت أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، فَابْسُطْ يَدَكَ، قَالَ: فَبَسَطَ عَلِيٌّ يَدَهُ فَبَايَعَهُ. وأما الروايات التي تذكر أنهما بايعا مكرهين فهي لا تثبت، ولو كانا يطمعان في الخلافة، فلماذا تنازلا عنها لغيرهما وهما ضمن الستة الذين رشحهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه. «تاريخ الرسل والملوك» (٤/٤٤٤).

(٣) جاء في «لسان العرب»: «ثور: ثار الشيء ثورًا وثئورًا وثورانًا. وتثور: هاج; وأثرته وهثرته على البدل وثورته، وثور الغضب: حدته. والثائر: الغضبان. ويقال للغضبان أهيج ما يكون: قد ثار ثائره، وفار فائره، إذا غضب وهاج غضبه. وثار إليه ثورًا وثئورًا وثورانًا: وثب. والمثاورة: المواثبة. وثاوره مثاورة وثوارًا; عن اللحياني: واثبه وساوره. ويقال: انتظر حتى تسكن هذه الثورة، وهي الهيج. وثار الدخان والغبار وغيرهما يثور ثورًا وثئورًا وثورانًا» (٤/١٠٧). والثورة كمصطلح سياسي هي: الخروج عن الوضع الراهن وتغييره باندفاع يحركه عدم الرضا أو التطلع إلى الأفضل أو حتى الغضب، والثورة تدرس على أنها ظاهرة اجتماعية تقوم بها فئة أو جماعة ما هدفها التغيير (لا تشترط سرعة التغيير) وفقًا لأيدولوجية هذه الفئة أو الجماعة، ولا ترتبط بشرعية قانونية, كما تعبر عن انتقال السلطة من الطبقة الحاكمة إلى طبقة الثوار، والتعريف أو الفهم المعاصر والأكثر حداثةً للثورة هو التغيير الكامل لجميع المؤسسات والسلطات الحكومية في النظام السابق لتحقيق طموحات التغيير لنظام سياسي نزيه وعادل، ويوفر الحقوق الكاملة والحرية والنهضة للمجتمع. وأما عن المفهوم الدارج أو الشعبي للثورة فهو الانتفاض ضد الحكم الظالم. وقد تكون الثورة شعبية مثل الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م وثورات أوروبا الشرقية عام ١٩٨٩م، أو عسكرية وهي التي تسمى انقلابًا مثل الانقلابات التي سادت أمريكا اللاتينية في حقبتي الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، أو حركة مقاومة ضد مستعمر، مثل: الثورة الجزائرية (١٩٥٤-١٩٦٢).

ثانيًا: اختلاف الصحابة حول مسألة إقامة الحد على قتلة عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -:

وبعد أن تمت البيعة لعلي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، ذهب طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وطلبا منه أن يقيم الحد على قتلة عثمان، فاعتذر أمير المؤمنين علي.

ومن هنا بدأ الخلاف، فلقد رأي علي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بفهمه وفقهه واجتهاده، ومراعاته للمصالح والمفاسد أن يُؤجل إقامة الحد على قتلة عثمان؛ لاسيما وأن في مثل هذه الأمور يصعب أولًا تحديد الجناة، وهذا يحتاج إلى تحقيق واسع للتعرف على الجناة؛ لاسيما مع صعوبة التثبت في أوقات الفتن والفوضى، ثم إن ذلك يحتاج إلى قوة واستقرار في الدولة للقدرة على إقامة القصاص لو ثبتت شروطه، وهنا رفض طلحة والزبير هذا الاجتهاد، وقررا الخروج إلى مكة حيث مقام أم المؤمنين عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - بعد أن أدت فريضة الحج، ثم استأذن طلحة

كما قد تعني الثورة في معنى آخر وهو التطور، كما هو متعارف عليه في مجال التكنولوجيا والعلوم التطبيقية حيث يستخدم مصطلح ثورة في الإشارة إلى ثورة المعلومات والتكنولوجيا، والثورة في التاريخ السياسي هي حركة سياسية في البلد حيث يحاول الشعب إخراج السلطة الحاكمة تستخدم هذه المجموعات الثورية العنف في محاولة إسقاط حكوماتها. يؤسس الشعب حكومة جديدة في البلد بعد إسقاط الحكومة السابقة، ويسمى هذا التغيير في نظام الحكومة (أو في القادة الحاكمة) «الثورة»؛ لأنه يصبح إلى السلطة الحاكمة الجديدة، ونرى في التاريخ أن الثورة حادث سياسي خطير. ومعظم الثورات في التاريخ السياسي عنيفة، وكثير من الثورات أصبحت حروبًا ثورية ومات فيها كثير من الأبرياء. ومن معاني الثورة أيضًا: هي مجموعة من التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية تؤدي إلى تغيير جذري شامل في المجتمع. انظر: «المشاركة السياسية للمرأة في ثورتي مصر وليبيا ٢٠١١م، دراسة أنثروبولوجية ميدانية مقارنة»، (ص ٧).

والزبير عليًّا في العمرة، فأذن لهما، فلحقا بمكة[١]، ثم أرسلت نائلة زوج عثمان قميص عثمان الذي قُتل فيه إلى معاوية بن أبي سفيان في بلاد الشام، ووضعت فيه أصابعها التي قُطعت وهي تدافع عن زوجها أمير المؤمنين عثمان.

ونود أن نؤكد على أن الخلاف الذي نشأ بين أمير المؤمنين علي من جهة، وبين طلحة والزبير وعائشة من جهة أخرى، ثم بعد ذلك بين علي ومعاوية لم يكن سببه أن هؤلاء كانوا يقدحون في خلافة أمير المؤمنين علي وإمامته، وأحقيته بالخلافة والولاية على المسلمين، فقد كان هذا محل إجماع بينهم، قال ابن حزم: «ولم ينكر معاوية قط فضل عليّ واستحقاقه الخلافة، ولكن اجتهاده أداه إلى أن رأي تقديم أخذ القود من قتلة عثمان ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ على البيعة، ورأى نفسه أحق بمطلب دم عثمان»[٢].

وهكذا اعتذر علي ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ عن أخذ الثأر، وقال: «إن قتلة عثمان لهم مدد وأعوان»، وقد تعصب لهم كثير من الناس وبلغ عددهم ما يقرب من عشرة آلاف، وهم متفرقون في المدينة والكوفة ومصر، ولما سمعت السيدة عائشة ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا ـ بموت عثمان في طريق عودتها من مكة إلى المدينة رجعت إلى مكة ودخلت المسجد الحرام، وقصدت الحجر فتستَّرت فيه، واجتمع الناس إليها، فقالت: «أيها الناس، إن الغوغاء من أهل الأمصار، وأهل المياه[٣]، خلجوا[٤]

---

(١) «تاريخ الرسل والملوك» (٤/ ٤٥٠).
(٢) «الفصل في الملل والأهواء والنحل» (٤/ ٢٢٥).
(٣) هم الذين يتتبعون الأرض الخصبة طلبًا للماء والمرعى.
(٤) خلجوا: تحركوا واضطربوا. انظر: «المعجم الوسيط» (١/ ٢١٤).

وبادروا بالعدوان، نبا فعلهم عن قولهم، فسفكوا الدم الحرام، واستحلوا البلد الحرام، وأخذوا المال الحرام، واستحلوا الشهر الحرام، والله لإصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم، فنجاة[١] من اجتماعكم عليهم حتى يَنْكل بهم غيرهم، ويشرَّد من بعدهم، ووالله لو أن الذي اعتدوا به عليه كان ذنبًا نخلُص منه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من درنه، إذ ماصوه كما يماص الثوب بالماء»[٢].

وجاء في رواية: أن عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - حين انصرفت راجعة إلى مكة أتاها عبد الله بن عامر الحضرمي أمير مكة، فقال لها: «ما ردّك يا أم المؤمنين؟ قالت: ردي أن عثمان قُتل مظلومًا، وأن الأمر لا يستقيم ولهذه الغوغاء أمر، فاطلبوا بدم عثمان تعزوا الإسلام»[٣]، وقد ثبت بالنصوص الصحيحة الصريحة ثناء عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - على عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، ولعنها لمن قتله في روايات متعددة.

وهكذا قدم طلحة والزبير إلى مكة ولقيا عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جميعًا -، وكان وصولهما إلى مكة بعد أربعة أشهر من مقتل عثمان تقريبًا، أي في ربيع الآخر من عام ٣٦هـ، ثم بدأ التفاوض في مكة مع عائشة، - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - للخروج[٤]، وقد كانت هناك ضغوط نفسية كبيرة على الذين وجدوا أنفسهم لم يفعلوا شيئًا لإيقاف عملية قتل الخليفة المظلوم، فقد اتهموا أنفسهم بأنهم خذلوا الخليفة وأنه لا تكفير لذنبهم هذا

---

(١) أي: اطلبوا النجاة باجتماعكم عليهم.

(٢) «تاريخ الرسل والملوك» (٥ / ٤٧٣، ٤٧٤).

(٣) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/٤٧٥).

(٤) «المصدر السابق» (٥/٤٧٦).

حسب قولهم إلا الخروج للمطالبة بدمه(١)؛ علمًا بأن عثمان هو الذي نهى كل مَنْ أراد أن يدافع عنه في حياته تضحية في سبيل الله، فعائشة تقول: «إن عثمان قُتل مظلومًا، والله لأطالبن بدمه»، وطلحة يقول: «إنه كان مني في عثمان شيء ليس توبتي إلا أن يُسْفَكَ دمي في طلب دمه»، والزبير يقول: «نُنهض الناس فيدرك بهذا الدم لئلا يَبْطل، فإن في إبطاله توهين سلطان الله بيننا أبدًا، إذا لم يُفطم الناس عن أمثالها لم يبقَ إمام إلا قتله هذا الضرب»(٢).

وبعد أن دار حوار بينهم حول الجهة التي يتوجهون إليها، فقال بعضهم: نتوجه إلى المدينة، ومن هؤلاء: عائشة ـ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا ـ. وظهر رأي آخر يطلب التوجه إلى الشام ليتجمعوا معًا ضد قتلة عثمان(٣)، وهناك من رأي الذهاب إلى الكوفة، وبعد نظر طويل استقروا على البصرة(٤)؛ لأن المدينة فيها كثرة ولا يقدرون على مواجهتهم لقلتهم؛ ولأن الشام صار مضمونًا لوجود معاوية، ومن ثم يكون دخولهم البصرة أولى، لأنها أقل البلدان قوة وسلطة، ويستطيعون من خلالها تحقيق خطتهم، وكانت خطتهم ومهمتهم واضحة سواء قبل خروجهم، أو أثناء طريقهم، أو عند وصولهم إلى البصرة، وهي: المطالبة بدم عثمان، والإصلاح، وإعلام الناس بما فعل الغوغاء، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن هذا

---

(١) «أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ ـ ، (شخصيته وعصره ـ دراسة شاملة)» (١/ ٥١٢).

(٢) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/ ٤٧٨).

(٣) «تسديد الإِصَابَةِ فِيْمَا شَجَرَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ» (ص ٤٠).

(٤) «فتنة مقتل عثمان بن عفان ـ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ ـ » (١/ ٢٧٠).

المطلب هو لإقامة حد من حدود الله, وأنه إذا لم يؤخذ على أيدي قتلة عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فسيكون كل إمام معرضًا للقتل من أمثال هؤلاء[١].

وسمي يوم خروجهم من مكة نحو البصرة بيوم النحيب، فلم يُرَ يوم كان أكثر باكيًا على الإسلام، أو باكيًا له من ذلك اليوم[٢]، فلما خرجت إلى البصرة وبلغ ذلك عثمان بن حنيف وهو والي البصرة من قِبَل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أرسل إلى عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - عند قدومها البصرة يسألها عن سبب قدومها، فقالت: «إن الغوغاء من أهل الأمصار، ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وأحدثوا فيه الأحداث، وآووا فيه المحدثين، واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا ترة ولا عذر؛ فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه، وانتهبوا المال الحرام، وأحلوا البلد الحرام، والشهر الحرام، ومزقوا الأعراض والجنود، وأقاموا في دار قوم كانوا كارهين لمقامهم، ضارين مضرين، غير نافعين ولا متقين، ولا يقدرون على امتناع ولا يأمنون، فخرجت في المسلمين أُعلمهم ما أتى هؤلاء القوم وما فيه الناس وراءنا، وما ينبغي لهم أن يأتوا في إصلاح هذا، وقرأتْ: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]، فنهض في الإصلاح ممن أمر الله - عَزَّ وَجَلَّ - وأمر رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الصغير والكبير، والذكر والأنثى، فهذا شأننا إلى معروف نأمركم به ونحضكم عليه، ومنكر ننهاكم عنه ونحثكم على تغييره»[٣].

وقد كادت عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أن تعود وترجع أثناء سيرها في الطريق إلى البصرة، فعن قيس بن حازم أن رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال لأزواجه: «كيف بإحداكن تنبح

---

(١) «تاريخ الخلفاء الراشدين: الفتوحات والإنجازات السياسية» (ص ٤٣٩).

(٢) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/ ٤٨٠).

(٣) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/ ٤٨١).

عليها كلاب الحوأب»، وبالفعل مرت عائشة في الطريق على بعض مياه بني عامر ليلًا فنبحت عليها الكلاب، فقالت: أي ماء هذا؟ فقالوا: ماء الحوأب، فوقفت وقالت: ما أظنني إلا راجعة، إن رسول الله ـ ﷺ ـ قال لنا: «أيتكن تنبح عليها كلاب الحوأب». فقال لها الزبير: «أترجعين؟ عسى الله ـ عَزَّوَجَلَّ ـ أن يُصلح بك بين الناس»(١)؛ وعن ابن عباس ، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو عند أزواجه:" لَيْتَ شِعْرِي، أَيَّتُكُنَّ صَاحِبَةُ الْجَمَلِ الْأَدْبَبِ، تَخْرُجُ فَيَنْبَحُهَا كِلَابُ حَوْأَبٍ، يُقْتَلُ عَنْ يَمِينِهَا وَعَنْ يَسَارِهَا قَتْلَى كَثِيرٌ، ثُمَّ تَنْجُو بَعْدَمَا كَادَتْ "(٢)

ولما أرسل عليٌّ القعقاع بن عمرو لعائشة ومَن كان معها يسألها عن سبب قدومها، دخل عليها القعقاع فسلم عليها، وقال: «أي أُمه، ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة؟ قالت: أي بني، إصلاح بين الناس»(٣)، هذا وقد كانت أزواج النبي ـ ﷺ ـ قد خرجن إلى الحج في هذا العام فرارًا من الفتنة، فلما بلغ الناس بمكة أن عثمان قد قُتل أقمن بمكة، وكن قد خرجن منها فرجعن إليها،

(١) أخرجه أحمد (٢٤٢٥٤) في مسنده، وابن أبي شيبة، والحاكم، وابن حبان (٦٧٣٢)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة».

(٢) وقال الحافظ في "الفتح" (١٣/٥٥) : " رجاله ثقات " ، وكذا قال الهيثمي في "المجمع" (٧/٢٣٤) ، وصححه الألباني في "الصحيحة" (١/٨٥٣) ، والحَوْأَب: قال ابن الأثير رحمه الله : " مَنْزل بَيْنَ مَكَّةَ والبَصْرة ، وَهُوَ الَّذِي نَزَلَتْهُ عَائِشَةُ لمَّا جاءَتْ إِلَى الْبَصْرَةِ في وقْعَة الجَمل " انتهى من " النهاية " (١/ ٤٥٦)، والجَمَلِ الأَدْبَبِ : أَراد الأَدَبَّ ، فأَظْهَر التَّضْعِيفَ ، والأَدَبَّ: هُوَ الْكَثِيرُ الوَبرِ؛ وَقِيلَ: الكثيرُ وَبَرِ الوجهِ، لِيُوازِن بِهِ الحَوْأَبِ. قَالَ ابْنُ الأَعرابي: جَمَلٌ أَدَبُّ: كثيرُ الدَّبَبِ." لسان العرب " (١/ ٣٧٣) .

(٣) «الفتنة ووقعة الجمل» (ص ٩٥)، وانظر: «تاريخ الطبري» (٥/٥٨٢).

وجعلن ينتظرن ما يصنع الناس ويتحسسن الأخبار، فلما بويع عليّ خرج عدد من الصحابة من المدينة كارهين المقام بها بسبب الغوغاء من أهل الأمصار(١)، فاجتمع بمكة منهم خلق كثير من الصحابة وأمهات المؤمنين، وبقية أمهات المؤمنين قد وافقن عائشة على السير إلى المدينة، فلما اتفق رأي عائشة ومن معها من الصحابة على السير إلى البصرة، رجعن عن ذلك وقلن: «لا نسير إلى غير المدينة»، وكانت حفصة بنت عمر أم المؤمنين قد وافقت عائشة على المسير إلى البصرة، فمنعها أخوها عبد الله من ذلك، وأبى هو أن يسير معهم إلى غير المدينة، وسار الناس بصحبة عائشة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ في ألف فارس، وقيل: تسعمائة فارس من أهل المدينة ومكة، وتلاحق بهم آخرون، فصاروا في ثلاثة آلاف رجل(٢).

هل كانت أم المؤمنين عائشة تريد إقامة الحد، أم كانت تريد الإصلاح؟

أورد ابن سعد في الطبقات أن كَعْبَ بْنَ سُورٍ لَمَّا قَدِمَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَعَائِشَةُ الْبَصْرَةَ دَخَلَ فِي بَيْتٍ وَطَيَّنَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ فِيهِ كَوَّةً يُنَاوَلُ مِنْهَا طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ اعْتِزَالًا لِلْفِتْنَةِ؛ فَقِيلَ لِعَائِشَةَ: إِنَّ كَعْبَ بْنَ سُورٍ إِنْ خَرَجَ مَعَكِ لَمْ يَتَخَلَّفْ مِنَ الأَزْدِ أَحَدٌ، فَرَكِبَتْ إِلَيْهِ فَنَادَتْهُ وَكَلَّمَتْهُ فَلَمْ يُجِبْهَا؛ فَقَالَتْ: يَا كَعْبُ أَلَسْتُ أُمَّكَ وَلِي عَلَيْكَ حَقٌّ؟ فَكَلَّمَهَا فَقَالَتْ: " إِنَّمَا أُرِيدُ أَنْ أُصْلِحَ بَيْنَ النَّاسِ"؛ وَكَانَ كعب رحمه الله مَعْرُوفًا بِالْخَيْرِ وَالصَّلاحِ، علمًا بأن كعب بن سور هو أحد كبار التابعين، وقد بذل كل جهد من أجل وقف القتال، فقد استمر في محاولة الصلح إلى أن وقع

(١) «البداية والنهاية» (٧/ ٢٤١).
(٢) «البداية والنهاية» (٧/ ٢٤٤)، «تاريخ الرسل والملوك» (٥/ ٥٥٨).

القتال، و قُتل وهو بين الصفين يدعو هؤلاء ويدعو هؤلاء إلى تحكيم كتاب الله وكف السلاح.

فهذه الرواية التي أوردها ابن سعد تنص على أن أم المؤمنين عائشة خرجت من أجل الإصلاح، وهذا موافق لقوله تعالى: { لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا }.

وذكر الطبري رواية أخرى وفيها " ولما سمعت عائشة رضي الله عنها بموت عثمان في طريق عودتها من مكة إلى المدينة رجعت إلى مكة ودخلت المسجد الحرام، وقصدت الحجر فتستَّرت فيه، واجتمع الناس إليها فقالت: أيها الناس إن الغوغاء من أهل الأمصار، وأهل المياه، خلجوا[١]، وبادروا بالعدوان، نبا فعلهم عن قولهم، فسفكوا الدم الحرام، واستحلوا البلد الحرام، وأخذوا المال الحرام، واستحلوا الشهر الحرام، والله لإصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم، فنجاة [٢] من اجتماعكم عليهم حتى يَنْكل بهم غيرهم، ويشرَّد من بعدهم، ووالله

---

[١] خلجوا: تحركوا واضطربوا، انظر:المعجم الوسيط (١/ ٢١٤)

[٢] أي :اطلبوا النجاة باجتماعكم عليهم

لو أن الذي اعتدوا به عليه كان ذنبًا نخلُص منه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من درنه، إذ ماصوه كما يماص الثوب بالماء (١).

وجاء في رواية أن عائشة رضي الله عنها حين انصرفت راجعة إلى مكة أتاها عبد الله ابن عامر الحضرمي أمير مكة فقال لها: ما ردّك يا أم المؤمنين؟ قالت: ردي أن عثمان قُتل مظلومًا، وأن الأمر لا يستقيم ولهذه الغوغاء أمر، فاطلبوا بدم عثمان تعزوا الإسلام (٢).

وهذه الروايات الذي ذكرها الإمام الطبري تنص على أن عائشة رضي الله عنها قد خرجت من أجل إقامة الحد على قتلة عثمان.

وبالجمع بين الروايات نقول: لعل أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها كانت ترى أن الإصلاح المنشود لن يكون إلا بإقامة الحد على قتلة عثمان، وبهذا تستقر الأوضاع في الحجاز والعراق وغيرها من البلدان، وهذا ما يؤكده الحوار الذي دار بينها وبين القعقاع بن عمرو، عندما سألها، ما أقدمك يا أماه إلى البصرة؟ قالت له: يا بنى من أجل الإصلاح بين الناس، فطلب القعقاع منها أن تبعث إلى

---

(١) الطبرى:تاريخ الرسل والملوك، (٥ / ٤٧٣، ٤٧٤) .

(٢) الطبرى: المصدر السابق، (٥/٤٧٥) .

طلحة والزبير ليحضرا، ويكلمهما في حضرتها وعلى مسمع منها، ولما حضرا سألهما عن سبب حضورهما، فقالا كما قالت عائشة: من أجل الإصلاح بين الناس، فقال لهما: أخبراني ما وجه هذا الإصلاح؟ فوالله لئن عَرفناه لنصلحنَّ معكم، ولئن أنكرناه لا نصلح، قالا له: قتلة عثمان رضي الله عنه، لابد أن يُقتلوا، فإن تُركوا دون قصاص كان هذا تركًا للقرآن، وتعطيلاً لأحكامه، وإن اقُتصَّ منهم كان هذا إحياء للقرآن [١] .

ثالثًا: أحداث موقعة الجمل (٣٦ هـ - ٦٥٦م):

١ - طلحة والزبير وعائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - في البصرة:

عندما وصل طلحة والزبير وعائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - ومن معهم إلى البصرة، أرسلوا إلى أعيان وأشراف القبائل يستعينون بهم على قتلة عثمان، وكان كثير من المسلمين في البصرة وغيرها، يرغبون في القود من قتلة عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إلا أن بعض هؤلاء يرون أن هذا من اختصاص الخليفة وحده، وأن الخروج في هذا الأمر بدون أمره وطاعته معصية، ولكن خروج هؤلاء الصحابة المشهود لهم بالجنة، وأعضاء الشورى ومعهم أم المؤمنين عائشة حبيبة رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وأفقه النساء، جعل الكثير من البصريين على اختلاف قبائلهم ينضمون إليهم [٢].

---

(١) ابن كثير:البداية والنهاية (٧/٧٣٩).

(٢) «أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - » (ص ٥٢٠).

وأرسل الزبير إلى الأحنف بن قيس السعدي التميمي يستنصره على الطلب بدم عثمان، والأحنف من رؤساء تميم وكلمته مسموعة.

يقول الأحنف واصفًا هول الموقف: «فأتاني أفظع أمر أتاني قط! فقلت: إن خُذْلَانِي هؤلاء ومعهم أم المؤمنين وحواري رسول الله - ﷺ - لشديد»، إلا أنه اختار الاعتزال، فاعتزل معه ستة آلاف ممن أطاعه من قومه، وعصاه في هذا الأمر كثير منهم، ودخلوا في طاعة طلحة والزبير وأم المؤمنين، ويذكر الزهري أن عامة أهل البصرة تبعوهم(١).

وهكذا انضم إلى طلحة والزبير وعائشة ومن معهم أنصار جدد لقضيتهم التي خرجوا من أجلها. وقد حاول ابن حنيف تهدئة الأمور، والإصلاح قدر المستطاع؛ إلا أن الأمور خرجت من يده(٢).

٢ - عَلِيٌّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يغادر المدينة متوجهًا إلى الكوفة:

همَّ عليٌّ بالنهوض إلى الشام، ليزور أهلها وينظر ما هو رأي معاوية وما هو صانع(٣)، فقد كان يرى أن المدينة لم تعدُ تمتلك المقومات التي تملكها بعض الأمصار في تلك المرحلة، فلما علم أبو أيوب الأنصاري - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بهذا قال: «يا أمير المؤمنين، أقم بهذه البلاد؛ لأنها الدرع الحصينة، ومهاجرة رسول الله - ﷺ - ، وبها قبره ومنبره ومادة الإسلام، فإن استقامت لك العرب كنت كمن كان، وإن تشغب عليك قوم رميتهم بأعدائهم، وإن ألجئت حينئذٍ إلى السير سرت وقد أعذرت»، فأخذ الخليفة بما أشار به أبو أيوب وعزم المقامة بالمدينة، وبعث العمال على الأمصار(٤)، وقد

(١) «المصنف» (٥/٤٥٦) بسندٍ صحيحٍ إلى الزهري مرسلًا.
(٢) «الفتنة بين الصحابة» (ص ١٨٩).
(٣) «الثقات» (٢/٢٧٢).
(٤) «المصدر السابق» (٢/٢٧٦).

بعث معاوية كتابًا مع رجل، فدخل به على عليّ، فقال له علي: «ما وراءك؟ قال: جئتك من عند قوم لا يريدون إلا القود[١]، كلهم موتور[٢]، تركت ستين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان، وهو على منبر دمشق. فقال علي: اللّهم إني أبرأ إليك من دم عثمان». ثم خرج رسول معاوية من بين يدي علي فَهَمَّ به أولئك الخوارج الذين قتلوا عثمان يريدون قتله، فما أفلت إلا بعد جهد[٣].

وبعد وصول رد معاوية لأمير المؤمنين علي عزم الخليفة على قتال أهل الشام، وكتب إلى قيس بن سعد بمصر يستنفر الناس لقتالهم، وإلى أبي موسى بالكوفة، وبعث إلى عثمان بن حُنيف بذلك، وخطب الناس فحثّهم على ذلك، وعزم على التجهز، وخرج من المدينة واستخلف عليها قُثم بن العباس، وهو عازم أن يقاتل بمن أطاعه من عصاه وخرج من أمره ولم يبايعه مع الناس[٤]، ولكن نظرًا لبعض المستجدات السياسية على الساحة وما يحدث في البصرة؛ قرر أمير المؤمنين مغادرة المدينة، وأن يتوجه إلى الكوفة، فاستنفر أهل المدينة ودعاهم إلى نصرته، وكان كثير من أهل المدينة يرون أن الفتنة ما زالت مستمرة، فلابد من التروي حتى تنجلي الأمور أكثر، وهم يقولون: «لا والله ما ندري كيف نصنع؟ فإن هذا الأمر لمشتبه علينا، ونحن مقيمون حتى يضيء لنا ويسفر»[٥].

---

(١) القود: القاتل بالقتيل.

(٢) رَجُلٌ مَوْتُورٌ: مَنْ قُتِلَ لَهُ قَرِيبٌ، وَلاَ قُدْرَةَ لَهُ عَلَى أَخْذِ ثَأْرِهِ ورَجُلٌ مَوْتُورٌ: عصبي مشدود. انظر: «المعجم الوسيط».

(٣) «البداية والنهاية» (٧/ ٢٤٠).

(٤) «المصدر السابق» (٧/ ٢٤٠).

(٥) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/٥٠٩).

وروى الطبري: أن عليًّا ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ خرج في تعبئته التي كان تعبى بها إلى الشام، وخرج معه مَن نشط مِن الكوفيين والبصريين متخففين في سبعمائة رجل[١]، والأدلة على تثاقل كثير من أهل المدينة عن إجابة أمير المؤمنين للخروج كثيرة، كما أن رجالًا من أهل بدر لزموا بيوتهم بعد مقتل عثمان فلم يخرجوا إلا إلى قبورهم[٢]، وحاول عبد الله بن سلام صاحب رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ أن يثني عزم أمير المؤمنين عليّ عن الخروج[٣]، فأتاه وقد استعد للمسير، وأظهر له خوفه عليه، ونهاه أن يقدم على العراق قائلًا: «أخشى أن يصيبك ذُباب السيف[٤]»، كما أخبره بأنه لو ترك منبر رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ، فلن يراه أبدًا[٥].

وفي الربذة[٦] قام إليه ابنه الحسن ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ وهو يبكي لا يخفي حزنه وتأثره على ما أصاب المسلمين من تفرق واختلاف، وقال الحسن لوالده: «قد أمرتك

---

(١) «المصدر السابق» (٥/٥١٦).

(٢) «البداية والنهاية» (٧/٢٥٠).

(٣) «تضارب روايات الفتنة الكبرى» (ص ١٤).

(٤) حَدّ طرفيه.

(٥) «أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ» (ص٥٦٥).

(٦) تقع الربذة على طريق الحجاز إذا رحلت من فيد تريد مكّة، وبهذا الموضع قبر أبي ذر الغفاري ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ، واسمه جندب بن جنادة، وكان قد خرج إليها مغاضبًا لعثمان بن عفان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ، فأقام بها إلى أن مات في سنة ٣٢. والرَّبذة مدينة تاريخية أثرية، تقع في شرق المدينة المنورة وتبعد عنها قرابة ١٧٠ كم تقريبًا، وهي إحدى محطات القوافل على درب زبيدة الممتد من العراق إلى مكة المكرمة. انظر: «معجم البلدان» (٢/٢٣). وانظر: الخريطة رقم (١) في ثبت الخرائط.

فعصيتني، فتُقتل غدًا بمضيعة لا ناصر لك! فقال عليّ: إنك لا تزال تخن[١] خنين الجارية، وما الذي أمرتني فعصيتك؟ قال: أمرتك يوم أحيط بعثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ أن تخرج من المدينة فيُقتل ولستَ بها، ثم أمرتك يوم قُتل ألا تبايع حتى يأتيك وفود أهل الأمصار والعرب وبيعة كل مصر، ثم أمرتك حين فعل هذان الرجلان ما فعلا أن تجلس في بيتك حتى يصطلحوا، فإن كان الفساد كان على يدي غيرك، فعصيتني في ذلك كله. قال: أي بنى، أما قولك: لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان، فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به، وأما قولك: لا تبايع حتى تأتى بيعة الأمصار، فإن الأمر أمر أهل المدينة، وكرهنا أن يضيع هذا الأمر، وأما قولك حين خرج طلحة والزبير، فإن ذلك كان وهنًا على أهل الإسلام، والله ما زلت مقهورًا منذ وليت، منقوصًا لا أصل إلى شيء مما ينبغي، وأما قولك: اجلس في بيتك، فكيف لي بما قد لزمني، أو من تريدني؟ أتريدني أن أكون مثل الضبع التي يحاط بها، ويقال: دباب دباب[٢]، ليست هٰهنا حتى يحل عرقوباها ثم نُخرج، وإذا لم أنظر فيما لزمني من هذا الأمر ويعنيني، فمن ينظر فيه؟ فكف عنك أي بني»[٣].

ولـمَّا أَرَادَ عَلِيٌّ الْخُرُوجَ مِنَ الرَّبَذَةِ إِلَى الْبَصْرَةِ قَامَ إِلَيْهِ ابْنٌ لِرِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ، فَقَالَ: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَيَّ شَيْءٍ تُرِيدُ؟ وَإِلَى أَيْنَ تَذْهَبُ بِنَا؟ فَقَالَ: أَمَّا الَّذِي نُرِيدُ وَنَنْوِي فَالإِصْلاحَ، إِنْ قَبِلُوا مِنَّا وأجابونا إليه، قال: فان لم يجيبوا إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَدَعُهُمْ

---

(١) خن: أخرج الصوت من خياشميه. قَالَ شَمِرٌ: «خَنَّ خَنِينًا فِي الْبُكَاءِ إِذا رَدَّد الْبُكَاءَ فِي الخَياشيم»، انظر: «لسان العرب» (١٣/ ١٤٤).

(٢) دعاء الضبع للضبع. «لسان العرب» (١٤/ ١٠٤).

(٣) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/ ٥٨٢).

بِعُذْرِهِمْ وَنُعْطِيهِمُ الْحَقَّ وَنَصْبِرُ، قَالَ: فَإِنْ لَمْ يَرْضَوْا؟ قَالَ: نَدَعُهُمْ مَا تَرَكُونَا، قَالَ: فَإِنْ لَمْ يَتْرُكُونَا؟ قَالَ: امْتَنَعْنَا مِنْهُمْ، قَالَ:فَنَعَمْ إِذن»(١).

وأرسل علي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ من الربذة يستنفر أهل الكوفة ويدعوهم إلى نصرته، وكان الرسولان محمد بن أبي بكر الصديق، ومحمد بن جعفر ولكنهما لم ينجحا في مهمتهما، إذ أن أبا موسى الأشعري والي الكوفة من قبل علي، ثبط الناس ونهاهم عن الخروج والقتال في الفتنة وأسمعهم ما سمعه من رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ من التحذير من الاشتراك في الفتنة(٢)، فأرسل علي بعد ذلك هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، ففشل في مهمته، لتأثير أبي موسى عليهم، ثم تحرك عليٌّ بجيشه إلى ذي قار فعسر به بعد ثماني ليال من خروجه من المدينة، وهو في تسعمائة رجل تقريبًا(٣)، فبعث للكوفة في هذه المرة عبد الله بن عباس فأبطأوا عليه، فأتبعه بعمار بن ياسر والحسن بن علي، وعزل أبا موسى الأشعري واستعمل قرظة بن كعب(٤) بدلًا منه، وكان للقعقاع(٥) بن عمرو ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ

---

(١) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/٥٨٩).

(٢) «المصدر السابق» (٥/٥٩٠).

(٣) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/ ٥١٩ - ٥٢١).

(٤) قَرَظَةُ بْنُ كَعْبٍ الْأَنْصَارِيُّ أَحَدُ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ , حَلِيفٌ لِبَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ مِنَ الْأَوْسِ وَيُكْنَى أَبَا عَمْرٍو وَهُوَ أَحَدُ الْعَشَرَةِ مِنَ الْأَنْصَارِ الَّذِينَ وَجَّهَهُمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى الْكُوفَةِ فَنَزَلَهَا وَابْتَنَى بِهَا دَارًا فِي الْأَنْصَارِ, وَمَاتَ بِهَا فِي خِلَافَةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ، وَهُوَ صَلَّى عَلَيْهِ بِالْكُوفَةِ. انظر: «الطبقات الكبرى» (١٧/٧).

(٥) القعقاع بن عمرو التميمي: فارس وقائد مسلم، وبطل عربي مشهور، اُختلف في كونه صحابيًا، فلم تثبت صحبته من طرق صحيحة، لكنه شهد معركة القادسية واليرموك وغيرهما من معارك المسلمين في عصر الفتوحات الإسلامية، ظهرت ملامح شخصيته بوضوح شديد في الفتوحات فقد كان شجاعًا مقدامًا ثابتًا في أرض المعارك، وبجوار شجاعته وشدة بأسه على الأعداء كان

دور عظيم في إقناع أهل الكوفة، فقد قام فيهم وقال: «إني لكم ناصح وعليكم شفيق، وأحب أن ترشدوا، ولأقولن لكم قولًا هو الحق، والقول الذي هو القول، إنه لابد من إمارة تنظم الناس وتنزع الظالم، وتعز المظلوم، وهذا عليٌّ يلي ما ولي، وقد أنصف في الدعاء، وإنما يدعو إلى الإصلاح، فانفروا وكونوا في هذا الأمر بَمَرْأَى ومسمع».

وكان للحسن بن علي أثر واضح، فقد قام خطيبًا في الناس وقال: «أيها الناس، أجيبوا دعوة أميركم، وسيروا إلى إخوانكم، فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه، والله لأن يليه أولو النُّهَى(١) أمثل في العاجلة وخير من العاقبة، فأجيبوا دعوتنا وأعينونا على ما ابْتُلِينَا به وابْتُلِيتُم»(٢). ولبى كثير من أهل الكوفة وخرجوا مع عمار والحسن إلى علي ما بين سبعة إلى ستة آلاف رجل، ثم انضم إليهم من أهل البصرة ألفان من عبد القيس، ثم توافدت عليه القبائل إلى أن بلغ جيشه عند حدوث المعركة اثنى عشر ألف رجل تقريبًا(٣).

شديد الذكاء وذو حنكة عسكرية في إدارة المعارك ويظهر ذلك في معركة القادسية. وهناك بضع مؤرخين يؤكدون فروسيته وبطولاته. ويقال إنه من الصحابة، لذلك ذكره في الصحابة ابن قانع في كتاب «معجم الصحابة» (٢/ ٣٦٧)، وابن عبد البر في «الاستيعاب» (١٢٨٣/٣)، وابن الأثير في «أسد الغابة» (١٠٩/٤) وابن حجر في «الإصابة» (٥/ ٣٤٢).

(١) أولو النهى: أصحاب العقول. والنُّهْيَةُ: الْعَقْلُ، بِالضَّمِّ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ؛ لأَنها تَنْهَى عَنِ الْقَبِيحِ. «لسان العرب» (٣٤٥/١٥).

(٢) «تاريخ الرسل والملوك» (٥٨٥٩/٥).

(٣) «المصنف» (٥/ ٤٥٦، ٤٥٧).

وبعض الروايات تذكر أنه اجتمع مع علي بن أبي طالب عشرون ألفًا، والتف حول عائشة نحوًا من ثلاثين ألفًا(١).

وعندما التقى أهل الكوفة بأمير المؤمنين علي بذي قار قال لهم: «يا أهل الكوفة، أنتم وليتم شوكة العجم وملوكهم وفضضتم جموعهم، حتى صارت إليكم مواريثهم، فأعنتم حوزتكم، واغتنم الناس على عدوهم، وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة، فإن يرجعوا فذاك ما نريد، وإن يَلِجُوا داويناهم بالرفق، وبايناهم حتى يبدءونا بظلم، ولن ندع أمرًا فيه صلاح إلا آثرناه على ما فيه الفساد ـ إن شاء الله ـ، ولا قوة إلا بالله»(٢).

وقبل أن يتحرك علي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ بجيشه نحو البصرة أقام في ذي قار(٣) أيامًا، وكان غرضه ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ، هو القضاء على هذه الفرقة والفتنة بالوسائل السلمية، وتجنيب المسلمين شر القتال والصدام المسلح بكل ما أُوتي من قوة وجهد، وكذلك الحال بالنسبة لطلحة والزبير.

٣ ـ محاولات الصلح بين الفريقين:

وقد شارك في محاولات الصلح عدد من الصحابة وكبار التابعين ممن اعتزلوا الأمر، منهم: عمران بن حصين ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ؛ فقد أرسل في الناس يخذل الفريقين جميعًا، وكعب بن سور أحد كبار التابعين، فقد بذل كل جهد، وقام

---

(١) هناك اختلاف وتباين بين أقوال المؤرخين حول الأعداد المذكورة.

(٢) «أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ» (ص ٥٥٨).

(٣) ذو قار: ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة. «معجم البلدان» (٤/ ٣٩٣). وانظر: الخريطة رقم (٢) في ثبت الخرائط.

بدور يعجز عنه كثير من الرجال، فقد استمر في محاولة الصلح إلى أن وقع القتال، وقُتل وهو بين الصفين يدعو هؤلاء ويدعو هؤلاء إلى تحكيم كتاب الله وكف السلاح[١]، والقعقاع بن عمرو التميمي؛ وهو من كبار التابعين أيضًا، حيث أرسله أمير المؤمنين عليٌّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - في مهمة الصلح إلى طلحة والزبير[٢]، وقال: «القَ هذين الرجلين، فادعهما إلى الألفة والجماعة، وعظّم عليهما الاختلاف والفرقة». وذهب القعقاع إلى البصرة [٣]، فبدأ بعائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - وقال لها: «ما أقدمك يا أماه إلى البصرة؟ قالت له: يا بني من أجل الإصلاح بين الناس». فطلب القعقاع منها أن تبعث إلى طلحة والزبير ليحضرا، ويكلمهما في حضرتها وعلى مسمع منها، ولما حضرا سألهما عن سبب حضورهما، فقالا كما قالت عائشة: «من أجل الإصلاح بين الناس». فقال لهما: «أخبراني ما وجه هذا الإصلاح؟ فوالله لئن عَرفناه لنصلحنَّ معكم، ولئن أنكرناه لا نصلح. فقالا له: قتلة عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، لابد أن يُقتلوا، فإن تُركوا دون قصاص كان هذا تركًا للقرآن، وتعطيلًا لأحكامه، وإن اقُتصَّ منهم كان هذا إحياء للقرآن؛ قال القعقاع: لقد كان في البصرة ستمائة من قتلة عثمان وأنتم قتلتموهم إلا رجلًا واحدًا، وهو حُرقُوص بن زهير السعدي[٤]، فلما هرب منكم احتمى بقومه من بني

---

(١) «الطبقات» (٢٩٠٩/٧).

(٢) «البداية والنهاية» (٧٣٩/٧).

(٣) «تضارب روايات الفتنة الكبرى» (ص ١٦).

(٤) لقد وقع قتال في البصرة، وقُتل ستمائة من قتلة عثمان بتحريض من طلحة والزبير، وحرقوص بن زهير السعدي كان من الذين شاركوا في مقتل أمير المؤمنين عثمان، و بقي حرقوص إلى أيام علي وشهد معه صفين, ثم صار من الخوارج، ومن أشدهم على علي بن أبي طالب, وكان مع

سعد، ولما أردتم أخذه منهم وقَتْله؛ منعكم قومه من ذلك، وغضب له ستة آلاف رجل اعتزلوكم، ووقفوا أمامكم وقفة رجل واحد، فإن تركتم حرقوصًا ولم تقتلوه، كنتم تاركين لما تقولون وتنادون به وتطالبون عليًّا به، وإن قاتلتم بني سعد من أجل حرقوص، وغلبوكم وهزموكم وأديلوا عليكم، فقد وقعتم في المحذور، وقوَّيتموهم، وأصابكم ما تكرهون، وأنتم بمطالبتكم بحرقوص أغضبتم ربيعة ومضر من هذه البلاد، حيث اجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرة لبني سعد، وهذا ما حصل مع علي، ووجود قتلة عثمان في جيشه»[(١)]. يعني أن الذي تريدونه من قتل قتلة عثمان مصلحة، ولكنه يترتب عليها مفسدة هي أربى منها، وكما أنكم عجزتم عن الأخذ بثأر عثمان من حرقوص بن زهير، لقيام ستة آلاف في منعه ممن يريد قتله، فعلي أعذر في تركه الآن قتل قتلة عثمان، وإنما أخر قتل قتلة عثمان إلى أن يتمكن منهم، فإن الكلمة في جميع الأمصار مختلفة[(٢)].

وهنا تأثرت أمُّ المؤمنين ومن معها بمنطق القعقاع وحجته المقبولة، فقالت له: «فماذا تقول أنت يا قعقاع؟ قال: أقول: «هذا أمر دواؤه التسكين، ولابد من التأني في الاقتصاص من قتلة عثمان، فإذا انتهت الخلافات، واجتمعت كلمة الأمة على أمير المؤمنين تفرغ لقتلة عثمان، وإن أنتم بايعتم عليًّا واتفقتم معه، كان هذا علامة خير، وتباشير رحمة، وقدرة على الأخذ بثأر عثمان، وإن أنتم أبيتم ذلك، وأصررتم على المكابرة والقتال كان هذا علامة شر، وذهابًا لهذا الملك، فآثروا العافية ترزقوها،

الخوارج لما قاتلهم علي، فقتل يومئذٍ سنة سبع وثلاثين؛ وقتله حبيش بن ربيعة أبو المغيرة. انظر: «أسد الغابة» (١/ ٢٥١).

(١) «البداية والنهاية» (٧/ ٧٣٩).

(٢) «البداية والنهاية» (٧/ ٧٤٥).

وكونوا مفاتيح خير كما كنتم أولًا، ولا تُعرِّضونا للبلاء، فتتعرضوا له، فيصرعنا الله وإياكم، وايم الله إني لأقول هذا وأدعوكم إليه، وإني لخائف أن لا يتم، حتى يأخذ الله حجته من هذه الأمة التي قلَّ متاعها، ونزل بها ما نزل، فإنّ ما نزل بها أمر عظيم، وليس كقتل الرجل الرجل، ولا قتل النفر الرجل، ولا قتل القبيلة القبيلة».

وبعد هذه الكلمات العذبة والتي أخلص فيها القعقاع وافقوا على دعوته إلى الصلح، وقالوا له: «قد أحسنت وأصبت المقالة»، فارجع، فإن قدم علي وهو على مثل رأيك، صلح هذا الأمر ـ إن شاء الله ـ.

عاد القعقاع إلى علي في ذي قار وقد نجح في مهمته، وأخبر عليًّا بما جرى معه، فأُعجب علي بذلك، وأوشك القوم على الصلح، كرهه من كرهه، ورضيه من رضيه، ثم أرسل عليٌّ ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ رسولين إلى عائشة والزبير ومن معهما يستوثق مما جاء به القعقاع بن عمرو، فجاءا عليًّا بأنه على ما فارقنا عليه القعقاع فأقدم[1]، فارتحل عليّ حتى نزل بحيالهم، فنزلت القبائل إلى قبائلهم: مضر إلى مضر، وربيعة إلى ربيعة، واليمن إلى اليمن، وهم لا يشكون في الصلح، فكان بعضهم بحيال بعض، وبعضهم يخرج إلى بعض، ولا يذكرون ولا ينوون إلا الصلح, وكان أمير المؤمنين علي ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ لما نوى الرحيل قد أعلن قراره الخطير: «ألا وإني راحل غدًا فارتحلوا ـ يقصد إلى البصرة ـ ، ألا ولا يرتحلن غدًا أحد أعان على عثمان بشيء في شيء من أمور الناس»[2].

٤ ـ دور السبئية في نشوب الحرب:

كان في عسكر علي ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ من أولئك الطغاة ـ الخوارج الذين قتلوا عثمان ـ من لم يُعرف بعينه، ومن تنتصر له قبيلته، ومن لم تقم عليه حجة بما فعله،

(١) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/٥٢٥).

(٢) «المصدر السابق» (٥/٥٢٥).

ومن في قلبه نفاق لم يتمكن من إظهاره, وحرص أتباع ابن سبأ على إشعال الفتنة وتأجيج نيرانها حتى يفلتوا من القصاص[١]. فلما نزل الناس منازلهم واطمأنوا، خرج علي وخرج طلحة والزبير، فتوافقوا وتكلموا فيما اختلفوا فيه فلم يجدوا أمرًا، هو أمثل من الصلح وترك الحرب حين رأوا أن الأمر أخذ في الانقشاع، فافترقوا على ذلك، ورجع عليٌّ إلى عسكره، ورجع طلحة والزبير إلى عسكرهما، وأرسل طلحة والزبير إلى رؤساء أصحابهما، وأرسل علي إلى رؤساء أصحابه، ما عدا أولئك الذين حاصروا عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فبات الناس على نية الصلح والعافية وهم لا يشكون في الصلح، فكان بعضهم بحيال بعض، وبعضهم يخرج إلى بعض، لا يذكرون ولا ينوون إلاّ الصّلح، وبات الذين أثاروا الفتنة بشر ليلة باتوها قط؛ إذ أشرفوا على الهلاك وجعلوا يتشاورون ليلتهم كلها حتى اجتمعوا على إنشاب الحرب في السر واستسروا بذلك؛ خشية أن يفتضح أمرهم، وقال قائلهم: «أما طلحة والزبير فقد عرفنا أمرهما، وأما علي فلم نعرف أمره حتى كان اليوم؛ وذلك حين طلب من الناس أن يرتحلوا في الغد، ولا يرتحل معه أحد أعان على عثمان بشيء، ورأي الناس فينا والله واحد، وإن يصطلحوا مع علي فعلى دمائنا!». وتكلم عبد الله بن سبأ فقال: «يا قوم إن عزّكم في خلطة الناس فصانعوهم، وإذا التقى الناس غدًا فانشبوا القتال»، فاجتمعوا على هذا الرأي بإنشاب الحرب في السّر، وقبيل الفجر انقسم أهل الفتنة بالفعل إلى فريقين، ونفذوا ما تم الاتفاق عليه، فنهضوا من قبل طلوع الفجر وهم قريب من ألفي رجل، فانصرف كل فريق إلى قراباتهم فهجموا عليهم بالسيوف، وقتلوا مجموعة كبيرة من الفريقين، وصاحوا، وصرخوا أن كلا من الفريقين البصرة والكوفة قد

---

(١) «الفتنة بين الصحابة» (ص ١٩٩).

هجم على الآخر(١)، وفزع الناس من نومهم إلى سيوفهم وليس لديهم شك أن الفريق الآخر قد غدر بهم، ونقض ما اتفق عليه من وجوب الصلح، فثارت كل طائفة إلى قومهم ليمنعوهم، وقام الناس من منامهم إلى السلاح، فقالوا: «طرقتنا أهل الكوفة ليلًا، وبيتونا وغدروا بنا»، وظنوا أن هذا عن ملأ من أصحاب علي، فبلغ الأمر عليًّا فقال: «ما للناس؟ فقالوا، بيتنا أهل البصرة»؛ فثار كل فريق إلى سلاحه ولبسوا اللأمة وركبوا الخيول، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا، وقامت الحرب على ساق وقدم، وتبارز الفرسان(٢)، ولم يكن هناك أي فرصة للتثبت من الأمر في ظلام الليل, وفي الجانب الآخر ينادي طلحة وهو على دابته وقد غشيه الناس فيقول: «يا أيها الناس أتنصتون؟»، فجعلوا يركبونه ولا ينصتون، فما زاد أن قال: «أف أف، فَرَاش نَارٍ، وَذِبَّان طَمَعٍ »(٣).

ومن خلال هذا العرض يتبين أثر ابن سبأ وأعوانه في المعركة ويتضح بما لا يدع مجالًا للشك حرص الصحابة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ على الإصلاح وجمع الكلمة، وأن

(١) «تاريخ الخلفاء الراشدين الفتوحات والإنجازات السياسية» (ص ٤٤٠).
(٢) «الفتنة ووقعة الجمل» (ص ١٥٦).

(٣) ومنه تعليق الحسن على حديث " إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ فِتَنًا كَأَنَّهَا قِطَعُ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ قَوْمٌ فِيهَا خَلَاقَهُمْ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا يَسِيرٍ، أَوْ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا" قَالَ الْحَسَنُ: "فَوَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، لَقَدْ رَأَيْتُهُمْ صُوَرًا وَلَا عُقُولَ، وَأَجْسَامًا وَلَا أَحْلَامَ، فَرَاشَ نَارٍ، وَذِبَّانَ طَمَعٍ، يَغْدُونَ بِدِرْهَمَيْنِ، وَيَرُوحُونَ بِدِرْهَمَيْنِ، يَبِيعُ أَحَدُهُمْ دِينَهُ بِثَمَنِ عَنْزٍ". رواه أحمد والحاكم وخليفة في تاريخه.

القتال الذي وقع بين الصحب الكرام، وقع رغمًا عنهم، وهذا هو الحق الذي تثبته النصوص وتطمئن إليه النفوس(١).

٥ ـ نشوب القتال بين الطرفين:

زاد السبئيّون في الجيشين من جهودهم في إنشاب القتال، وإغراء كل فريق بخصمه، وتهييجه على قتاله، ونشبت المعركة عنيفة قاسية، وكانت المعركة يوم الجمعة في السادس عشر من جمادى الثانية، سنة ست وثلاثين، في منطقة «الزابوقة» قرب البصرة(٢)، وحزن عليّ لِمَا جرى ونادى مناديه: «كفوا عن القتال أيها الناس»، ولم يسمع نداءه أحد، فالكل كان مشغولًا بقتال خصمه(٣).

وكانت معركة الجمل على جولتين: الجولة الأولى كان قائدا جيش البصرة فيها: طلحة والزبير، واستمرت من الفجر حتى قبيل الظهيرة, ونادى علي في جيشه، كما نادى طلحة والزبير في جيشهما: «لا تقتلوا مدبرًا، ولا تُجهزوا على جريح، ولا تلحقوا خارجًا من المعركة تاركًا لها»(٤)، وقد كان الزبير ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ أوصى ابنه عبد الله بقضاء دينه فقال: «إنه لا يقتل اليوم إلا ظالم أو مظلوم، وإني لا أراني إلا سأقتل مظلومًا، وإن أكبر همي دَيْني»(٥). وأثناء ذلك جاء رجل إلى الزبير وعرض عليه أن يقتل عليًّا، وذلك بأن يندس مع جيشه، ثم يفتك به، فأنكر عليه بشدة،

(١) «أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ» (ص٥٦٠).

(٢) انظر: خريطة رقم (٣) في ثبت الخرائط.

(٣) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/ ٥٤٠).

(٤) «المصدر السابق» (٥/ ٥٤٤).

(٥) «المصنف في الأحاديث والآثار» (٧/ ٥٤١).

وقال: «لا؛ لا يفتك مؤمن بمؤمن، أو أن الإيمان قيَّد الفتك»[١]. وهذا يدل على عدم عزمه على القتل، وقد تقابل أمير المؤمنين عليٌّ والزبير ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ ، فكلمه عليٌّ وذكَّره بحديث سمعه من رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يقول له: «أي الزبير: لتقاتلنه وأنت له ظالم»[٢]. وهنا قرر الزبير أن ينصرف ويغادر أرض المعركة.

وبعض الروايات ترجع السبب في انصراف الزبير ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قبيل المعركة لما علم بوجود عمار بن ياسر في الصف الآخر، وقد ثبت عن رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ أنه قال: **«وَيْحَ عَمَّارٍ، تَقْتُلُهُ الفِئَةُ البَاغِيَةُ، يَدْعُوهُمْ إِلَى الجَنَّةِ، وَيَدْعُونَهُ إِلَى النَّارِ»**[٣]. وبعضها يرجع السبب في انصرافه إلى شكه في صحة موقفه من هذه الفتنة[٤].

وهناك رواية ترجع السبب في انصرافه إلى أن ابن عباس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ ، ذكره بالقرابة القوية من علي؛ إذ قال له: «أين صفية بنت عبد المطلب[٥] حيث تقاتل بسيفك علي بن أبي طالب بن عبد المطلب؟!، فخرج الزبير من المعركة، فلقيه ابن جُرمُوز فقتله كما سيأتي تفصيله ـ بإذن الله ـ. فالزبير ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ كان على

---

(١) «مسند الإمام أحمد بن حنبل» (١٩/٣). ومعنى الحديث: «أن الإيمان يمنع من الفتك الذي هو القتل بعد الأمان غدرًا، كما يمنع القيد من التصرف». انظر: «عون المعبود شرح سنن أبي داود، باب في العدو يؤتى على غرة ويتشبه بهم».

(٢) أخرجه الحاكم وغيره، وقد اختلف العلماء في صحته، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة: «صحيح بمجموع طرقه»، وانظر: «المطَالِبُ العَالِيَةُ بِزَوَائِدِ المَسَانيد الثَّمَانِيَةِ» (١٣٥/١٨).

(٣) «الجامع المسند الصحيح» (٤٤٧).

(٤) «تاريخ الرسل والملوك» (٥٠٦/٥)، وانظر: «أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ » (ص ٥٧٢).

(٥) صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي أم الزبير بن العوام.

وعي لهدفه ـ وهو الإصلاح ـ، ولكنه لما رأي حلول السلاح مكان الإصلاح رجع ولم يقاتل، وعلى إثر هذا الحديث انصرف الزبير وترك الساحة[١].

وأما طلحة بن عبيد الله ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ القائد الثاني لجيش البصرة، فقد أصيب في بداية المعركة؛ إذ جاءه سهم غرب لا يعرف مَن رماه[٢]، فأصابه إصابة مباشرة، ونزف دمه بغزاره فقالوا له: «يا أبا محمد، إنك لجريح، فاذهب وادخل البيوت لتعالج فيها، فقال طلحة لغلامه: احملني، وابحث لي عن مكان مناسب»، فأُدخل البصرة، ووضع في دار فيها ليعالج، ولكن جرحه ما زال ينزف حتى توفي في البيت، ثم دفن في البصرة، ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ[٣]. وأما الرواية التي تشير إلى تحريض الزبير وطلحة على القتال، وأن الزبير لما رأى الهزيمة على أهل البصرة ترك المعركة ومضى، فهذه الرواية لا تصح [٤]. وهذا يخالف الروايات الصحيحة التي تنص على أن أصحاب الجمل ما خرجوا إلا للإصلاح، فكيف يستقيم هذا الفعل من الزبير ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ، مع الهدف الذي خرج من مكة إلى البصرة من أجله؛ ألا وهو الإصلاح بين الناس؟! وبالفعل فإن موقف الزبير ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ كان السعي في الإصلاح حتى آخر لحظة، وكذلك طلحة؛ فقد جاء من أجل الإصلاح وليس من أجل إراقة الدماء.

---

(١) «المدينة النبوية في فجر الاسلام والعصر الراشدي» (٢/٣٢٤).

(٢) تشير بعض الروايات إلى أن مروان بن الحكم هو الذي رمى السهم، أو أنه هو الذي أمر بقتل طلحة، وقد تعقب بعض المحققين تلك الروايت وقالوا لا تثبت.

(٣) «البداية والنهاية» (٧/٢٥٣).

(٤) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/٥٤٠).

وهكذا خرج الزبير من ميدان المعركة، ومات طلحة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ ، وأما عن مقتل طلحة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ فقد كان عند بدء القتال كما صرح بذلك الأحنف ابن قيس[١].

وبسقوط القتلى والجرحى من الجانبين تكون قد انتهت الجولة الأولى من معركة الجمل، وكانت الغلبة فيها لجيش علي، وكان علي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ يراقب سير المعركة ويرى القتلى والجرحى في الجانبين، فيتألم ويحزن، وأقبل عليٌّ على ابنه الحسن وضمّه إلى صدره، وصار يبكي ويقول له: «يا بُنيَ، ليت أباك مات قبل هذا اليوم بعشرين عامًا. فقال الحسن: يا أبت، لقد كنت نهيتك عن هذا، فقال علي: ما كنت أظن أن الأمر سيصل إلى هذا الحد، وما طعمُ الحياة بعد هذا؟ وأيُّ خير يُرجى بعد هذا؟»[٢].

ووصل الخبر إلى أم المؤمنين بما حدث من القتال، فخرجت على جملها تحيط بها القبائل الأزدية، ومعها كعب الذي دفعت إليه مصحفًا يدعو الناس إلى وقف الحرب، وتقدمت أم المؤمنين وكلها أمل أن يسمع الناس كلامها لمكانتها في قلوب الناس؛ فتحجز بينهم وتطفِئ هذه الفتنة التي بدأت تشتعل, وحمل كعب ابن سور المصحف، وتقدم أمام جيش البصرة، ونادى جيش علي قائلًا: «يا قوم، أنا كعب بن سور، قاضي البصرة، أدعوكم إلى كتاب الله، والعمل بما فيه، والصلح على أساسه». وخشي السبئيون في مقدمة جيش علي أن تنجح

---

(١) «تاريخ خليفة بن خياط» (ص ١٨٥).

(٢) «البداية والنهاية» (٧/٢٥١).

محاولة كعب فرشقوه بنبالهم رشقة رجل واحد، فمات والمصحف في يده[١]. وأصابت سهام السبئيين ونبالهم جمل عائشة وهودجها، فصارت تنادي، وتقول: «يا بني، الله، الله، اذكروا الله ويوم الحساب، وكفوا عن القتال». والسبئيون لا يستجيبون لها، وهم مستمرون في ضرب جيش البصرة، وكان علي من الخلف يأمر بالكف عن القتال، وعدم الهجوم على البصريين، لكن السبئيين في مقدمة جيشه لا يستجيبون له، ويأبون إلا إقدامًا وهجومًا وقتالًا، ولما رأت عائشة عدم استجابتهم لدعوتها، ومقتل كعب بن سور أمامها، قالت: «أيها الناس، العنوا قتلة عثمان وأشياعهم». وصارت عائشة تدعو على قتلة عثمان وتلعنهم، وضج أهل البصرة بالدعاء على قتلة عثمان وأشياعهم، ولعنهم، وسمع عليٌّ الدعاء عاليًا في جيش البصرة فقال: «ما هذا؟ قالوا: عائشة تدعو على قتلة عثمان، والناس يدعون معها». فقال علي: «ادعوا معي على قتلة عثمان وأشياعهم والعنوهم». وضجّ جيش علي بلعن قتلة عثمان والدعاء عليهم[٢], وقال علي: «اللّهم العن قتلة عثمان في السهل والجبل»[٣]، ثم اشتدت الحرب واشتعلت، وتشابك القوم وتشاجروا بالرماح، ثم استلوا السيوف فتضاربوا بها, ودنا الناس بعضهم من بعض[٤], ووجّه السبئيون جهودهم لعقر الجمل وقتل عائشة أم المؤمنين، فسارع جيش البصرة لحماية عائشة وجملها، وقاتلوا أمام الجمل، وكان لا يأخذ أحد بخطام الجمل إلا قُتل، حيث كانت المعركة أمام الجمل في غاية الشدة والقوة، حتى

(١) «البداية والنهاية» (٧/٢٥٣).

(٢) «المصدر السابق» (٧/٢٥٣).

(٣) «المصنف في الأحاديث والآثار» (٧/٥٣٨).

(٤) «الطبقات» (٥/٢).

أصبح الهودج كأنه قُنفُذ[١] مما رمي فيه من النبل[٢]. وقتل حول الجمل كثير من المسلمين من الأزد وبني ضبة وأبناء وفتيان قريش بعد أن أظهروا شجاعة منقطعة النظير[٣]، وقد أصيبت عائشة بحيرة شديدة وحرج؛ فهي لا تريد القتال، ولكنه وقع رغمًا عنها، وصارت تنادي بالكف، فلا مجيب! وكان كل من أخذ بخطام الجمل قتل، فجاء محمد بن طلحة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ (السَّجَّاد)[٤] وأخذ بخطامه، وقال لأمه أم المؤمنين: «يا أماه ما تأمرين؟ فقالت: كن كخيري ابني آدم». أي كف يدك، فأغمد سيفه بعد أن سله، فُقتل ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ[٥]. وأما عبد الله بن الزبير، فقد قاتل قتالًا شديدًا، ورمى بنفسه بين السيوف، فقد استخرج من بين القتلى وبه بضع وأربعون ضربة وطعنة، كان أشدها وآخرها ضربة الأشتر؛ إذ من حنقه على ابن الزبير لم يرضَ أن يضربه وهو جالس على فرسه، بل وقف في الركابين فضربه على رأسه ظانًا أنه قتله[٦]. واستحر القتل أيضًا في بني عدى وبني ضبة والأزد،

(١) معنى تَقَنْفَذَ: تقبَّض. و(القُنْفُذ): دويْبَّة من الثَّدييات ذات شوك حادّ، يلتفُّ فيصير كالكرة، وبذلك يقي نفسه من خطر الاعتداء عليه. انظر: «المعجم الوسيط» (٢/ ٧٦٠).

(٢) «تاريخ خليفة بن خياط» (ص ١٩٠).

(٣) «البداية والنهاية» (٧/ ٢٥٤).

(٤) هو: محمد بن طلحة بن عبيد الله الملقب بالسجاد لعبادته. والده هو طلحة بن عبيد الله أحد المبشرين بالجنة. وُلِدَ: فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ ، قُتِلَ شَابًّا يَوْمَ الجَمَلِ، لَمْ يَزَلْ بِهِ أَبُوْهُ حَتَّى سَارَ مَعَهُ. وَأُمُّهُ: هِيَ حَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ. انظر: «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٢١٥).

(٥) «التاريخ الأوسط» (١/ ١٨٥).

(٦) «المصنف في الأحاديث والآثار» (٧/ ٥٢٨)، بسند صححه ابن حجر في «الفتح» (١٣/ ٥٧- ٥٨).

وقد أبدى بنو ضبة حماسة وشجاعة وفداء لأم المؤمنين، وكان علي ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ يردد: «اللّٰهم ليس هذا أردت، اللّٰهم ليس هذا أردت»(١).

ولما أخذت السيوف مأخذها من الرجال قال أمير المؤمنين علي ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ : «لوددتُ أني متُّ قبل هذا بعشرين سنة»، ثم فكر علي ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ ، كيف يوقف هذا القتال؟ وأيقن أن في بقاء الجمل استمرارًا للحرب، وهلاكًا للناس، وأن أصحاب الجمل لن ينهزموا أو يكفوا عن الحرب ما بقيت أم المؤمنين في الميدان، كما أن في بقائها خطرًا على حياتها؛ فالهودج الذي هي فيه أصبح كالقنفذ من السهام, فأمر علي نفرًا من جنده، منهم: محمد بن أبي بكر «أخو أم المؤمنين»، وعبد الله بن بديل أن يعرقبا(٢) الجمل، ويخرجا عائشة من هودجها إلى الساحة، فعقروا الجمل, واحتمل أخوها محمد وعبد الله بن بديل الهودج حتى وضعاه أمام علي، فأمر به عليٌّ فأدخل في منزل عبد الله بن بديل.

وهنا بدأت الأمور تهدأ، وأُخرجت أم المؤمنين من الميدان(٣)؛ ولو لم يتخذ هذا الإجراء لاستمرت الحرب إلى أن يفني جيش البصرة أصحاب الجمل، أو ينهزم جيش علي.

وعندما بدأت الهزيمة نادى علي أو مناديه في جيشه ألَّا يتبعوا مدبرًا ولَا يجهزوا على جريح، ولا يغنموا إلا ما حمل إلى الميدان أو المعسكر من عتاد أو سلاح فقط،

---

(١) «المصدر السابق» (٧/٥٤١).

(٢) أي يضربا قوائم الجمل بالسيف. العَقْرُ عِنْدَ الْعَرَبِ كَشْفُ عُرْقوب الْبَعِيرِ، ثُمَّ يُجْعَل النَّحْرُ عَقْرًا؛ لأَن ناحِرَ الإِبل يَعْقِرُها ثُمَّ يَنْحَرُهَا. «لسان العرب» (٤/٥٩٤).

(٣) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/٥٤٠).

وليس لهم ما وراء ذلك من شيء، ونهاهم أن يدخلوا الدور، ليس هذا فحسب، بل قال لمن حاربه من أهل البصرة: «من وجد له شيئًا من متاع عند أحد من أصحابه، فله أن يسترده»(١).

عدد القتلى:

أسفرت هذه الحرب الشديدة عن عدد من القتلى اختلفت وتباينت في تقديره الروايات.

ذكر الطبري في تاريخه: عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: «كان قتلى الجمل حوالي عشرة آلاف، نصفهم من أصحاب علي، ونصفهم من أصحاب عائشة؛ من الأزد ألفان، ومن سائر اليمن خمسمائة، ومن مضر ألفان، وخمسمائة من قيس، وخمسمائة من تميم، وألف من بني ضبة، وخمسمائة من بكر بن وائل. وقيل: قتل من أهل البصرة في المعركة الأولى خمسة آلاف، وقتل من أهل البصرة في المعركة الثانية خمسة آلاف، فذلك عشرة آلاف قتيل من أهل البصرة، ومن أهل الكوفة خمسة آلاف. قالا: وقتل من بني عدي يومئذٍ سبعون شيخًا، كلهم قد قرأ القرآن، سوى الشباب ومن لم يقرأ القرآن(٢). وقال قتادة: «إن قتلى يوم الجمل عشرون ألفًا», وأما اليعقوبي فقد جاوز هؤلاء جميعًا؛ إذ وضع عدد القتلى اثنين وثلاثين ألفًا(٣). هذا وقد أورد خليفة بن خياط بيانًا بأسماء مَن حفظ من قتلى يوم الجمل فكانوا قريبًا من المائة(٤). فلو فرضنا أن عددهم كان مائتين وليس مائة،

---

(١) «المصنف» (١٥/ ٢٨٦، ٢٨٧).

(٢) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/ ٥٤٢).

(٣) «المصنف» (٧/ ٥٦٤).

(٤) «تاريخ خليفة بن خياط» (ص ١٩١).

فإن هذا يعني أن قتلى معركة الجمل لا يتجاوز المائتين. وهذا هو الرقم الذي ترجَّح لدى خالد بن محمد الغيث في رسالته: «استشهاد عثمان ووقعة الجمل في مرويات سيف بن عمر في تاريخ الطبري ـ دراسة نقدية»[(١)].

٦ ـ أحداث ما بعد المعركة:

نداء أمير المؤمنين بعد الحرب: بعد أن هدأت الأمور وانتهت الحرب، نادى منادي علي: «ألَّا يجهزوا على جريح، ولا يتبعوا مدبرًا، ولا يدخلوا دارًا، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، وليس لجيشه من غنيمة»، ونادى منادي أمير المؤمنين فيمن حاربه من أهل البصرة: «من وجد شيئًا من متاعه عند أحد من جنده، فله أن يأخذه»، وقد ظن بعض الناس في جيش علي أن عليًّا سيقسم بينهم السبي، فتكلموا به ونشروه بين الناس، ولكن سرعان ما فاجأهم علي ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ ، حين أعلن في ندائه: «وليس لكم أم ولد، والمواريث على فرائض الله، وأي امرأة قُتل زوجها فلتعتد أربعة أشهر وعشرًا. فقالوا مستنكرين متأولين: يا أمير المؤمنين تُحَلُّ لنا دماؤهم ولا تُحَلُّ لنا نساؤهم؟ فقال علي: كذلك السيرة في أهل القبلة»، ثم قال: «فهاتوا سهامكم وأقرعوها على عائشة فهي رأس الأمر وقائدهم، ففي سهم مَن تكون السيدة عائشة؟!»، فبهتهم بهذا القول، فتركوه وانصرفوا. وقالوا: «نستغفر الله»، وتبين لهم أن قولهم وظنهم خطأ فاحش، ولكن ليرضيهم قسم عليهم ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ من بيت المال خمسمائة خمسمائة[(٢)].

---

(١) «أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ» (ص ٥٧٩).

(٢) «المصنف في الأحاديث والآثار» (٧/ ٥٥٠).

وبعد انتهاء المعركة خرج علي يتفقد القتلى مع نفر من أصحابه، فأبصر محمد ابن طلحة (السجاد) فقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون، أما والله لقد كان شابًا صالحًا»، ومر علي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - على طلحة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بعد ما قُتل، فجعل عليٌّ يمسح التراب عن وجهه ويبكي ويقول: «عزيز على أبا محمد أن أراك مجندلًا في التراب تحت نجوم السماء»، ثم قال: «إلى الله أشكو عجري وبجري»[(١)].

وبعد خروج الزبير بن العوام من المعركة تبعه عمرو بن جرموز فهجم عليه فقتله ثم احتز رأسه وذهب إلى عليّ، ورأي أن ذلك يحصل له به حظوة ومنزلة ومكانة عنده فاستأذن، فقال علي: «سمعت رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يقول: بَشِّرْ قاتل ابن صفية بالنار»، ثم قال علي: «سمعت رسول الله يقول: «لكل نبي حواري وحواريّ الزبير». ولما رأي عليّ سيف الزبير قال: «إن هذا السيف طالما فرج الكرب عن وجه رسول الله»، وفي رواية: منع أمير المؤمنين علي ابن جرموز من الدخول عليه، وقال: «بشر قاتل ابن صفية بالنار»[(٢)]. ثم صلى علي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - على قتلى الفريقين، ثم قعد عليٌّ كئيبًا حزينًا ودعا للقتلى بالمغفرة، وترحم عليهم وأثنى على عدد منهم بالخير والصلاح، وعاد إلى منزله فإذا امرأته وابنتاه يبكين على عثمان وقرابته، والزبير وطلحة وغيرهم من أقاربهم القرشيين. فقال لهن: «إني لأرجو أن نكون من الذين قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]».

وهكذا مرت الأحداث الجسام، إنها حقًّا فتنة عظيمة مرت على الأمة، وواجهت القبائل المختلفة بعضها بعضًا في رحى معركة ضارية، مضر البصرة واجهت مضر

---

(١) أي: همومي وأحزاني وغُمُومِي. انظر: «لسان العرب» (٤/ ٤٠٩).

(٢) «البداية والنهاية» (٧/ ٢٦١)، ورواه أحمد (٦٨١)، والحاكم، وحسنه ابن حجر.

الكوفة، وربيعة البصرة واجهت ربيعة الكوفة، ويمن البصرة واجهت يمن الكوفة، ووجدت القبائل نفسها في أتون معركة تدفع ثمنها من أرواح أبنائها.

مبايعة أهل البصرة:

كان أمير المؤمنين علي ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ حريصًا على وحدة الصف، واحترام الجميع، ومعاملتهم المعاملة الكريمة، وكان لهذه المعاملة أثر بالغ في مبايعة أهل البصرة لأمير المؤمنين علي، وكان أمير المؤمنين قد وضع الأسرى في مساء يوم الجمل في موضع خاص، فلما صلى الغداة طلب موسى بن طلحة بن عبيد الله، فقربه ورحب به وأجلسه بجواره وسأله عن أحواله وأحوال إخوته، ثم قال له: «إنا لم نقبض أرضكم هذه ونحن نريد أن نأخذها، إنما أخذناها مخافة أن ينتهبها الناس»، ودفع له غلتها، وكذلك فعل مع أخيه عمران بن طلحة فبايعاه، فلما رأى الأسارى ذلك دخلوا على علي ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ يبايعونه، فبايعهم وبايع الآخرين على راياتهم قبيلة قبيلة[١] كما سأل عن مروان بن الحكم وقال: «يعطفني عليه رحم ماسة، وهو مع ذلك سيد من شباب قريش»، وقد أرسل مروان إلى الحسن والحسين وابن عباس ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ـ ليكلموا عليًّا فقال علي: «هو آمن فليتوجه حيث شاء».

وقد أثنى مروان ـ رحمه الله ـ على أفعال أمير المؤمنين علي فقال لابنه الحسن: «ما رأيت أكرم غلبة من أبيك، ما كان إلا أن ولَّينا يوم الجمل حتى نادى مناديه: ألا لا يتبع مدبر، ولا يذفف على جريح»[٢]. وبذلك تمت بيعة أهل البصرة لأمير

---

(١) «الطبقات» (٣/٢٢٤).

(٢) «الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي» (١٣/١١٥).

المؤمنين علي، وَوَلَّى عليهم ابن عمه عبد الله بن عباس ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا ـ[١]. وقد جاء عبد الرحمن بن أبي بكرة الثقفي إلى أمير المؤمنين فبايعه فقال له علي: «أين المريض؟ ـ يعنى أباه ـ فقال: إنه والله مريض يا أمير المؤمنين، وإنه على مسرتك لحريص. فقال: امش أمامي»، فمضى إليه فعاده، واعتذر إليه أبو بكرة فعذره، وعرض عليه البصرة فامتنع وقال: «رجل من أهلك يسكن إليه الناس»، وأشار عليه بابن عباس فولاه على البصرة، وجعل معه زياد بن أبيه على الخراج وبيت المال، وأمر ابن عباس أن يسمع من زياد[٢].

وجاء أمير المؤمنين إلى الدار التي فيها أم المؤمنين عائشة، فاستأذن وسلم عليها ورحبت به، وإذا النساء في دار بني خلف يبكين على من قُتل، منهم عبد الله وعثمان ابنا خلف، فعبد الله قتل مع عائشة، وعثمان قتل مع علي، فلما دخل علي قالت له صفية امرأة عبد الله، أم طلحة: «أَيْتَمَ الله منك أولادك كما أَيْتَمْتَ أولادي». فلم يرد عليها علي شيئًا، فلما خرج أعادت عليه المقالة أيضًا فسكت، فقال له رجل: «يا أمير المؤمنين أتسكت عن هذه المرأة وهي تقول ما تسمع؟ فقال: ويحك إنا أمرنا أن نكف عن النساء وهن مشركات، أفلا نكف عنهن وهن مسلمات؟!»[٣].

أمير المؤمنين علي ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ يرد عائشة ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا ـ إلى مأمنها:

جهز أمير المؤمنين علي عائشة بكل شيء ينبغي لها من مركب وزاد ومتاع، وأخرج معها من نجا ممن خرج معها إلا من أحب المقام، واختار لها أربعين امرأة من نساء

(١) «الفتنة ووقعة الجمل» (ص ١٨١).

(٢) «البداية والنهاية» (٣٥٧/٧).

(٣) «المصدر السابق» (٣٥٦/٧).

أهل البصرة المعروفات لمرافقتها في السفر، فلما كان اليوم الذي ترتحل فيه جاءها حتى وقف لها، وخرجت من الدار في الهودج، فودعت الناس ودعت لهم وقالت: «يا بني، لا يغتب بعضكم بعضًا، إنه والله ما كان بيني وبين علي بن أبي طالب ـ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ ـ في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وإنه لمن الأخيار»، فقال علي ـ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ ـ: «صدقت، والله ما كان بيني وبينها إلا ذلك، وإنها زوجة نبيكم ـ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِۦوَسَلَّمَ ـ في الدنيا والآخرة». وخرجت يوم السبت لغرة رجب سنة ست وثلاثين، وشيعها عليٌّ أميالًا وسرح بنيه معها يومًا[١].

وبتلك المعاملة الكريمة من أمير المؤمنين علي ـ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ ـ نراه قد اتبع ما أوصاه به نبي الأمة ـ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ـ عندما قال له: «إنه سيكون بينك وبين عائشة أمر. قال: أنا يا رسول الله؟ قال: نعم. قال: أنا؟ قال: نعم. قلت: فأنا أشقاهم يا رسول الله. قال: لا، ولكن إذا كان ذلك فارددها إلى مأمنها»[٢].

هذا وقد ظهر موقف أمير المؤمنين علي ـ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ ـ ممن ينال من عائشة؛ فلقد جاء إليه رجل وقال: «يا أمير المؤمنين، إن على الباب رجلين ينالان من عائشة» فأمر عليٌّ القعقاع بن عمرو أن يجلد كل واحد منهما مائة، وأن يخرجهما من ثيابهما، وقد قام القعقاع بذلك[٣]. وقد ندمت عائشة على خروجها وكانت إذا قرأت قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، تبكي حتى تبل خمارها، وكانت كلما تذكرت الجمل قالت: «وددت أني كنت جلست كما جلس صواحبي»[٤].

---

(١) «السيرة النبوية وأخبار الخلفاء» (٢/٥٣٧).

(٢) مسند أحمد (٦/ ٣٩٣) بسندٍ حسنٍ. وانظر: «فتح الباري» (١٣/٥٥).

(٣) «البداية والنهاية» (٧/٣٥٨).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (٢/ ١٧٧)، وانظر: «فتح الباري» (١٣/٥٥).

وعَنْ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ الْعَلاءِ، عَنِ ابْنِ أَبِي عَتِيقٍ، قَالَ قَالَتْ عَائِشَةُ: إِذَا مَرَّ ابْنُ عُمَرَ فَأَرُونِيهِ، فَلَمَّا مَرَّ ابْنُ عُمَرَ قَالُوا: هَذَا ابْنُ عُمَرَ، فَقَالَتْ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، مَا مَنَعَكَ أَنْ تَنْهَانِي عَنْ مَسِيرِي؟ قَالَ: رَأَيْتُ رَجُلا قَدْ غَلَبَ عَلَيْكِ، وَظَنَنْتُ أَنَّكِ لا تُخَالِفِينَهُ -يَعْنِي ابْنَ الزُّبَيْرِ- قَالَتْ: أَمَا إِنَّكَ لَوْ نَهَيْتَنِي مَا خَرَجْتُ[1].

تاريخ معركة الجمل:

اختلف المؤرخون في تاريخ وقعة الجمل على أقوال كثيرة، منها:

أ- أخرج خليفة بن خياط من طريق قتادة أن الفريقين التقيا يوم الخميس في النصف من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين، وكانت الوقعة يوم الجمعة[2].

ب- أخرج عمر بن شبَّة أن الوقعة كانت في النصف من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين[3].

ج- أخرج الطبري من طريق الواقدي أن الواقعة كانت يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين[4].

د- ذكر المسعودي أن الوقعة كانت يوم الخميس في العاشر من جمادى الأولى[5].

---

(١) ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٣/ ٩١٠).

(٢) «تاريخ خليفة بن خياط» (ص ١٨٤).

(٣) «المصدر السابق» (١٣/ ٦١).

(٤) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/ ٥٥٨).

(٥) «مروج الذهب» (٢/ ٣٦٠).

وبذلك يكون قد أجمع المؤرخون على تحديد العام والشهر، فالواقعة كانت في شهر جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين؛ عدا المسعودي الذي ذهب إلى أنها كانت في جمادى الأولى، والقول الأول أرجح. والله أعلى وأعلم.

رابعًا: أحداث موقعة صفين في شهر صفر (٣٧ هـ - ٦٥٧م)

أهل الشام يرفضون البيعة ويطالبون بدم عثمان:

إن معركة صفين تشكل مرحلة حرجة، ومحطة تاريخية مؤلمة في التاريخ الإسلامي، فبعد أحداث الجمل بايع أهل البصرة جميعًا عليًّا ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ، سواءً مَنْ كانوا معه، أو مَنْ كانوا عليه، وتمكن ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ من الأمور، ثم ترك البصرة، وتوجّه إلى الكوفة التي كان أغلب جيشه منها، ومكث ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ في الكوفة ليسيطر على الأمور، ودانت له البصرة والكوفة، وهي مناطق كبيرة، وبها من الجنود الكثير، وقد ولى علي بن أبي طالب عبد الله بن عباس ولاية البصرة، أما مصر فقد كان على إمرتها أثناء خلافة عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ عبد الله بن سعد ابن أبي سرح، وقد خرج بجيشه من مصر متوجهًا لنجدة عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ، ولكنه لمّا علم بمقتله توجه إلى الشام، فأرسل علي بن أبي طالب ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قيس ابن سعد أحد رجالاته إلى مصر للسيطرة على الأمور، فذهب ومعه مجموعة من الرجال، وسيطر عليها، وصعد المنبر وأعلن أنه يبايع عليًّا ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ، فبايعه أهل مصر.

وقد ذكرنا آنفًا خروج النعمان بن بشير ومعه قميص عثمان مضمخ بالدماء، ومعه أصابع نائلة التي أصيبت حين دافعت عنه بيدها إلى معاوية في بلاد الشام[1]، فلما رأي معاوية القميص بكى ووضع معاوية القميص على المنبر[2]، وكتب بالخبر إلى

---

(١) «البداية والنهاية» (٧/ ٥٣٩)

(٢) «المصدر السابق» (٧/ ٥٤٠).

الأجناد، وثاب إليه الناس، وبكوا سنة وهو على المنبر والأصابع معلقة فيه، وآلى الرجال من أهل الشام ألا يأتوا النساء، ولا يمسهم الماء للغسل إلا من احتلام، ولا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن عرض دونهم بشيء أو تفنى أرواحهم، فمكثوا حول القميص سنة[١]، وكان معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ يرى أنه ولي دم عثمان، وأنه لا بدّ من إقامة القصاص على هؤلاء القتلة، وأنه لا يجوز له بحالٍ أن يقصّر في هذا الأمر، وكان معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ، واليًا على الشام في عهد عمر وعثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ ، ولما تولى الخلافة عليٌّ أراد عزله وتولية عبد الله بن عمر، فاعتذر عبد الله بن عمر، فأرسل عليٌّ سهل بن حنيف بدلًا منه، إلا أنه ما كاد يصل مشارف الشام (وادي القرى) حتى عاد من حيث جاء، إذ لقيته خيل لمعاوية عليها حبيب بن مسلمة الفهري، فقالوا له: «إن كان بعثك عثمان فحيهلا بك وإن كان بعثك غيره فارجع»[٢].

لقد امتنع معاوية وأهل الشام عن البيعة، ورأوا أن يقتص علي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ من قتلة عثمان ثم يدخلون البيعة, وقالوا: «لا نبايع من يؤوي القتلة»[٣].

ولهذا اعتبر أمير المؤمنين علي؛ أن أهل الشام طائفة خارجة عليه وعلى الدولة.

لقد كان الحرص الشديد على تنفيذ حكم الله في القتلة السبب الرئيسي في رفض أهل الشام بزعامة معاوية بن أبي سفيان بيعة علي بن أبي طالب، ورأوا أن تقديم حكم إقامة الحد مقدم على البيعة، وليس لرغبة معاوية في ولاية الشام، أو طلبه ما ليس له بحق، إذ كان يدرك إدراكًا تامًّا أن هذا الأمر في بقية الستة من أهل الشورى،

---

(١) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/ ٦٢١).
(٢) «البداية والنهاية» (٧/ ١٢٩).
(٣) «العواصم من القواصم» (ص١٦٢).

وأن عليًّا أفضل منه وأولى بالأمر منه، وقد انعقدت البيعة له بإجماع الصحابة بالمدينة، وكان اجتهاد معاوية يخالف الصواب. وقد بعث علي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ كتبًا كثيرة إلى معاوية فلم يرد عليه جوابها، وتكرر ذلك مرارًا إلى الشهر الثالث من مقتل عثمان في صفر ثم بعث معاوية كتابًا مع رجل، فدخل به على عليّ فقال له علي: «ما وراءك؟ قال: جئتك من عند قوم لا يريدون إلا القود[١]، كلهم موتور[٢]، تركت ستين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان، وهو على منبر دمشق. فقال علي: اللّهم إني أبرأ إليك من دم عثمان». ثم خرج رسول معاوية من بين يدي علي فَهَمَّ به أولئك الخوارج الذين قتلوا عثمان يريدون قتله، فما أفلت إلا بعد جهد[٣].

وبعد وصول رد معاوية لأمير المؤمنين علي، عزم الخليفة على قتال أهل الشام، وكتب إلى قيس بن سعد بمصر يستنفر الناس لقتالهم، وإلى أبي موسى بالكوفة، وبعث إلى عثمان بن حُنيف بذلك، وخطب الناس فحثّهم على ذلك، وعزم على التجهز، وخرج من المدينة، واستخلف عليها قُثم بن العباس، وهو عازم أن يقاتل بمن أطاعه من عصاه وخرج من أمره ولم يبايعه مع الناس، وجاء إليه ابنه الحسن بن علي فقال: «يا أبه دَعْ هذا، فإنّ فيه سفك دماء المسلمين، ووقوع الاختلاف

---

(١) القود: القاتل بالقتيل.

(٢) رَجُلٌ مَوْتُورٌ: مَنْ قُتِلَ لَهُ قَرِيبٌ، وَلاَ قُدْرَةَ لَهُ عَلَى أَخْذِ ثَأْرِهِ. ورَجُلٌ مَوْتُورٌ: عصبي مشدود. انظر: «المعجم الوسيط».

(٣) «البداية والنهاية» (٧/ ٢٤٠).

بينهم»، فلم يقبل منه ذلك، بل صمم على القتال[١]، وجهز جيشًا ضخمًا اختلفت الروايات في تقديره[٢].

ولا شك أن هناك بعض الناس حول معاوية يشعلون الموقف ولهم رغبات متعددة، وكذلك في جيش علي أيضًا، لكنه توجه في النهاية إلى الكوفة وليس إلى الشام، نظرًا لما ذكرنا من خروج عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة.

وقد بعث علي ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ إلى جرير بن عبد الله، وكان على همذان من زمان عثمان، وإلى الأشعث بن قيس وهو على نيابة أذربيجان من أيام عثمان يأمرهما أن يأخذا البيعة له على مَن هُنالك ثم يُقبلان إليه، ففعلا ذلك، فلما أراد علي أن يبعث إلى معاوية ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ يدعوه إلى بيعته، قال جرير بن عبد الله البجلي: «أنا أذهب إليه يا أمير المؤمنين، فإنّ بيني وبينه وُدًا، فآخذ لك البيعة منه»، فبعثه وكتب معه كتابًا إلى معاوية يعلمه باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته، ويخبره بما كان في وقعة الجمل، ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه الناس، فلمّا انتهى إليه جرير ابن عبد الله، أعطاه الكتاب وطلب معاوية عمرو بن العاص ورءوس أهل الشام فاستشارهم، فأبوا أن يبايعوا حتى يقتل قتلة عثمان، أو أن يسلم إليهم قتلة عثمان، وإن لم يفعل قاتلوه ولم يبايعوه حتى يقتلهم عن آخرهم، فرجع جرير إلى علي

---

(١) «البداية والنهاية» (٧/ ٢٤٠، ٢٤١).

(٢) هناك مَن قال: «مائة وخمسون ألفًا أو يزيدون» «البداية والنهاية» (٧/ ٢٦٠). وقيل: مائة وعشرون ألفًا. «المعرفة والتاريخ» بسند منقطع، وقدر بتسعين ألفًا «تاريخ خليفة بن خياط» (ص ١٩٣). وفي رواية أخرى: «خمسين ألفًا».

فأخبره بما قالوا، فقرر علي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أن يقاتل بمن أطاعه من عصاه وخرج من أمره ولم يبايعه مع الناس[١].

خروج أمير المؤمنين علي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إلى بلاد الشام:

خرج علي بن أبي طالب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - من الكوفة، وعسكر في منطقة النخيلة[٢] خارج الكوفة، فتوافدت عليه القبائل من شتى إقليم العراق، وأرسل علي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مقدمة جيشه نحو الشام، وتقدمت هذه المقدمة حتى تجاوزت نهر الفرات، ووصلت إلى منطقة تُسمّى (صفين)[٣]، وتتبع علي بن أبي طالب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - المقدمة بجيشه، وكانت قد أتته الأخبار بأن معاوية قد خرج لملاقاته وعسكر بصفين، فتقدم علي إلى الرقة[٤]، وعبر منها الفرات غربًا ونزل على صفين[٥].

خروج معاوية - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إلى صفين:

كان معاوية جادًا في مطاردة قتلة عثمان، وكان أهل الشام قد بايعوا معاوية على الطلب بدم عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - والقتال, وقد قام عمرو بن العاص - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -

---

(١) «البداية والنهاية» (٧/ ٢٨٠).

(٢) موقع قرب الكوفة من جهة الشام. «معجم البلدان» (٥/ ٢٧٨). وانظر: خريطة رقم (٤) في ثبت الخرائط.

(٣) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/ ٦٠٣). وصفين: مكان على شاطئ الفرات في آخر حدود العراق وأول حدود الشام. وهو موضع بقرب الرّقّة على شاطئ الفرات من الجانب الغربي بين الرّقّة وبالس. «معجم البلدان» (٣/ ٤١٤).

(٤) الرقة: مدينة مشهورة - في سوريا اليوم - على نهر الفرات الشرقي. «معجم البلدان» (٣/ ١٥٣)، وانظر: خريطة رقم (٥) في ثبت الخرائط.

(٥) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/ ٦٠٤). وانظر: خريطة رقم (٦) في ثبت الخرائط.

بتجهيز الجيش وعقد الألوية، وسار معاوية في جيش ضخم، اختلفت الروايات في تقديره[١]، ولا شك أن هناك بعض الناس حول معاوية يشعلون الموقف ولهم رغبات متعددة، وكذلك في جيش علي أيضًا.

وكان قادة جيش معاوية على النحو التالي: عمرو بن العاص على خيول أهل الشام كلها، والضحاك بن قيس على رجالة الناس كلهم، وذو الكلاع الحميري على ميمنة الجيش، وحبيب بن مسلمة على ميسرة الجيش، وأبو الأعور السلمي على المقدمة [٢].

وصل جيش علي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ إلى صفين حيث عسكر معاوية، وفوجئ جيش العراق بمنع معاوية عنهم الماء، فهرع البعض إلى علي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ يشكون إليه هذا الأمر، فأرسل علي إلى الأشعث بن قيس فخرج في ألفين ودارت أول معركة بين الفريقين انتصر فيها الأشعث واستولى على الماء [٣]؛ إلا أنه قد وردت رواية تنفي وقوع القتال في أصله، مفادها: أن الأشعث بن قيس جاء إلى معاوية فقال: «الله الله يا معاوية في أمة محمد ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ ، هبوا أنكم قتلتم أهل العراق، فمن للبعوث والذراري؟ إن الله يقول: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]. فقال معاوية: فما تريد؟ قالوا: خلوا بيننا وبين الماء. فقال لأبي الأعور: خلِّ بين إخواننا وبين الماء»[٤]. وهذه الرواية هي الأوثق والأرجح.

---

(١) فقدر بمائة ألف وعشرين ألفًا، وقدر بسبعين ألف مقاتل، وقدر بأكثر من ذلك بكثير. انظر: «تاريخ خليفة بن خياط» (ص ١٩٣)، «المعرفة والتاريخ» (٣/ ٣١٣).

(٢) «أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ » (ص ٦٣٠)، نقلًا عن «امتداد العرب في صدر الإسلام» (ص٧٣).

(٣) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/ ٦٠٥).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٤١).

وأريد أن أذكر بعض الروايات التي تؤكد على أن معاوية - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لم يقاتل من أجل خلافة أو رئاسة - كما زعم البعض -[١]، وإنما من أجل دم عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، ويتضح موقفه وهو يحاور بعض رجاله، مما توضحه الرواية التالية: «جاء أبو مسلم الخولاني وناس معه إلى معاوية فقالوا له: أنت تنازع عليًّا أم أنت مثله؟ فقال معاوية: لا والله إني لأعلم أن عليًّا أفضل مني، وإنه لأحقُّ بالأمر مني، ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قُتل مظلومًا، وأنا ابن عمه، وإنما أطلب بدم عثمان، فأتوه فقولوا له فليدفع إليَّ قتلة عثمان وأسلِّمُ له. فأتوا عليًّا فكلموه بذلك فلم يدفعهم إليه»[٢]. وكان معاوية يؤكد على هذا المعنى: «ما قاتلت عليًّا إلا في أمر عثمان»[٣].

وقد رأى معاوية أنه ولي دم عثمان؛ لأنه صار رأس بني أمية مكانةً، والأحاديث النبوية تدل على أن عثمان يُقتل مظلومًا، بل تذكر أن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أوصاه بأن لا يخلع نفسه من الخلافة، ووصف الثائرين عليه بالمنافقين»[٤]. وقد قال الجويني: «وَمُعَاوِيَة وَإِن قَاتل عليًّا فَإِنَّهُ كَانَ لَا يُنكر إِمَامَته، وَلَا يدعيها لنَفسِهِ، وَإِنَّمَا كَانَ يطْلب قتلة عُثْمَان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ظَانًّا أَنه مُصِيب»[٥]. وقال ابن حزم: «وَلم يُنكر

---

(١) «عصر الخلافة الراشدة محاولة لنقد الرواية التاريخية وفق منهج المحدثين» (ص ٤٦٠).

(٢) «تاريخ دمشق» (٣٩/ ٣٨٠).

(٣) «المصنف في الأحاديث والآثار» (١١/ ٢٩٠).

(٤) عن عائشة قالت: قال رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «يا عثمان، إن ولاك الله هذا الأمر يومًا فأرادك المنافقون أن تخلع قميصك الذي قمصك الله فلا تخلعه» يقول ذلك ثلاث مرات. قال النعمان: «فقلت لعائشة: ما منعك أن تعلمي الناس بهذا؟! قالت: أنسيته». انظر: «مسند أحمد» (٦ /٧٥ -٨٦-٨٧-١٤٩)، والترمذي، (تحفة الأحوذي ١٠/ ٢٠٠)، وابن ماجه (١/ ٤١- ١١٢- ١١٣) وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (١/ ٢٥).

(٥) «لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة» (ص ١٣٠).

مُعَاوِيَة قطّ فضل عَليّ واستحقاقه الْخلَافَة، لَكِن اجْتِهَاده أداه إِلَى أَن رأى تَقْدِيم أَخذ الْقود من قتلة عُثْمَان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - على الْبيعَة، وَرَأي نَفسه أَحَق بِطَلَب دم عُثْمَان»[1].

وقد خرج جماعة من قراء العراق منهم عبيدة السلماني، وعلقمة بن قيس، وعامر بن عبد قيس، وعبد الله بن عتبة بن مسعود، وغيرهم جاءوا معاوية فقالوا له: «ما تطلب؟ قال: أطلب بدم عثمان قالوا: فمن تطلب به؟ قال: عليًّا، قالوا: أهو قتله؟ قال: نعم! وآوى قتلته»، فانصرفوا إلى علي فذكروا له ما قال فقال: «كذب! لم أقتله وأنتم تعلمون أني لم أقتله». فرجعوا إلى معاوية فقال: «إن لم يكن قتله بيده فقد أمر رجالًا». فرجعوا إلى علي فقال: «والله لا قتلت، ولا أمرت ولا ماليت».

فرجعوا فقال معاوية: «فإن كان صادقًا فليقدنا من قتلة عثمان، فإنهم في عسكره وجنده»، فرجعوا فقال علي: «تأول القوم عليه القرآن في فتنة، ووقعت الفرقة لأجلها وقتلوه في سلطانه وليس لي عليهم سبيل». فرجعوا إلى معاوية فأخبروه فقال: «إن كان الأمر على ما يقول فماله أنفذ الأمر دوننا من غير مشورة منا ولا ممن هاهنا؟» فرجعوا إلى علي فقال علي: «إنما الناس مع المهاجرين والأنصار، فهم شهود الناس على ولايتهم وأمر دينهم، ورضوا وبايعوني، ولست أستحل أن أدع مثل معاوية يحكم على الأمة ويشق عصاها»، فرجعوا إلى معاوية فقال: «ما بال من ها هنا من المهاجرين والأنصار لم يدخلوا في هذا الأمر؟» فرجعوا، فقال علي: «إنما هذا للبدريين دون غيرهم، وليس على وجه الأرض بدري إلا وهو معي، وقد بايعني وقد رضي، فلا يغرنكم من دينكم وأنفسكم»، قال: «فأقاموا يتراسلون في ذلك شهر ربيع الآخر وجماديين ويقرعون في غبون ذلك القرعة بعد القرعة،

---

(١) «الفصل في الملل والأهواء والنحل» (٤/ ١٢٤).

ويزحف بعضهم على بعض، ويحجز بينهم القراء، فلا يكون قتال»، قال: «فقرعوا في ثلاثة أشهر خمسة وثمانين قرعة!».

قال: «وخرج أبو الدرداء وأبو أمامة فدخلا على معاوية فقالا له: «يا معاوية على ما تقاتل هذا الرجل؟ فوالله إنه أقدم منك ومن أبيك إسلامًا، وأقرب منك إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وأحق بهذا الأمر منك. فقال: أقاتله على دم عثمان وأنه آوى قتلته، فاذهبا إليه فقولا له فليقدنا من قتلة عثمان ثم أنا أول من يبايعه من أهل الشام»، فذهبا إلى علي فقالا له ذلك فقال: «هؤلاء الذين تريان فخرج خلق كثير فقالوا: كلنا قتلة عثمان فمن شاء فليرمنا». قال: فرجع أبو الدرداء وأبو أمامة فلم يشهدا لهم حربًا»(١).

وَمن اعْتِقَاد أهل السُّنَّة والجماعة أَن مَا جرى بَين مُعَاوِيَة وَعلي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ من الحروب فَلم يكن لمنازعة مُعَاوِيَة لعَلي فِي الْخلَافَة للْإِجْمَاع على أحقيتها لعَلي كَمَا مرَّ فَلم تهج الْفِتْنَة بِسَبَبِهَا، وَإِنَّمَا هَاجَتْ بِسَبَب أَن مُعَاوِيَة وَمن مَعَه طلبُوا من عَليّ تَسْلِيم قتلة عُثْمَان إِلَيْهِم لكَون مُعَاوِيَة ابْن عَمه، فَامْتنعَ عَليّ ظنًّا مِنْهُ أَن تسليمهم إِلَيْهِم على الْفَوْر مَعَ كَثْرَة عَشَائِرهمْ واختلاطهم بعسكر عَليّ يُؤَدِّي إِلَى اضْطِرَاب وتزلزل فِي أَمر الْخلَافَة الَّتِي بهَا انتظام كلمة أهل الْإِسْلَام؛ سِيمَا وَهِي فِي ابتدائها لم يستحكم الْأَمر فِيهَا، فَرَأى عَليّ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ أَن تَأْخِير تسليمهم أصوب إِلَى أَن يرسخ قدمه فِي الْخلَافَة، ويتحقق التَّمَكُّن من الْأُمُور فِيهَا(٢).

---

(١) «البداية والنهاية» (٧-٢٨٨).

(٢) «الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة» (٢/٦٢٢).

وقد قام معاوية خطيبًا فقال: «أيها الناس! قد علمتم أني خليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وأني خليفة أمير المؤمنين عثمان عليكم، وأني لم أقم رجلًا منكم على خزائه قط، وأني ولي عثمان وابن عمه، قال الله ـ تعالى ـ في كتابه: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الإسراء: ٣٣]، وقد علمتم أنه قتل مظلومًا، وأنا أحب أن تعلموني ذات أنفسكم في قتل عثمان. فقال أهل الشام بأجمعهم: بل نطلب بدمه»، فأجابوه إلى ذلك وبايعوه، ووثقوا له أن يبذلوا في ذلك أنفسهم وأموالهم، أو يدركوا بثأره، أو يفني الله أرواحهم قبل ذلك(١).

ثم يؤكد الباحث على ما أكده الدليل النبوي وكذا علماء الأمة: أن الحق كان مع أمير المؤمنين علي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ وأن معاوية اجتهد وتأول فأخطأ، فَعَنْ زِيَادِ بْنِ الْحَارِثِ، قَالَ: «كُنْتُ إِلَى جَنْبِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ بِصِفِّينَ، وَرُكْبَتِي تَمَسُّ رُكْبَتَهُ، فَقَالَ رَجُلٌ: كَفَرَ أَهْلُ الشَّامِ! فَقَالَ عَمَّارٌ: «لَا تَقُولُوا ذَلِكَ، نَبِيُّنَا وَنَبِيُّهُمْ وَاحِدٌ، وَقِبْلَتُنَا وَقِبْلَتُهُمْ وَاحِدَةٌ، وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ مَفْتُونُونَ جَارُوا عَنِ الْحَقِّ، فَحَقَّ عَلَيْنَا أَنْ نُقَاتِلَهُمْ حَتَّى يَرْجِعُوا إِلَيْهِ»(٢).

وهكذا إذا وجدت الدماء ظهرت بدعة المبتدع، وظهر الفكر المنحرف، وظهرت العقائد الفاسدة، فهذا الرجل كفَّر أهل الشام دون بينة أو دليل! وهذا ما يحدث اليوم من التساهل والتسرع في تكفير الناس بلا برهان ولا دليل؛ لذا وجب على أهل السُّنَّة أن يقفوا أمام هذه البدع لاسيما في أوقات الفتن وإذا سالت الدماء، وأن يبينوا الحق للناس، وعمار هذا الذي قال فيه رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ كما جاء عن أَبِي سَعِيدٍ الخدري في ذكر بِنَاءِ الْمَسْجِدِ، قَالَ: «كُنَّا نَحْمِلُ لَبِنَةً لَبِنَةً، وَعَمَّارٌ لَبِنَتَيْنِ لَبِنَتَيْنِ، فَرَآهُ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَيَنْفُضُ التُّرَابَ عَنْهُ، وَقَالَ: **«وَيْحَ عَمَّارٍ! تَقْتُلُهُ الفِئَةُ**

(١) «البداية والنهاية» (٧-٢٩٠).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٨/٢٧٧).

البَاغِيَةُ، يَدْعُوهُمْ إِلَى الجَنَّةِ، وَيَدْعُونَهُ إِلَى النَّارِ». قَالَ: يَقُولُ عَمَّارٌ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الفِتَنِ»[١].

وقال ابن كثير: «ولكن كان علي وأصحابه أدنى الطائفتين إلى الحق من أصحاب معاوية، وأصحاب معاوية كانوا باغين عليهم[٢]. وقد كان الصحابة ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ ـ يوم صفين يتبعون عمارًا لعلمهم بأنه مع الفئة العادلة[٣]. وهذا يدل على صحة إمامة علي ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ ووجوب طاعته، وأن الداعي إلى طاعته داع إلى الجنة، وأن الداعي إلى مقاتلته داعٍ إلى النار، وإن كان متأولًا أو باغيًا بلا تأويل[٤].

محاولات الصلح:

وما إن دخل شهر المحرم حتى بادر الفريقان إلى الموادعة والهدنة طمعًا في صلح يحفظ دماء المسلمين، فاستغلوا هذا الشهر في المراسلات بينهم، وقيل: إن البادئ بالمراسلة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ فأرسل بشير ابن عمرو الأنصاري، وسعيد بن قيس الهمداني، وشبث بن ربعي التميمي إلى معاوية ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ ، يدعوه كما دعاه من قبل إلى الدخول في الجماعة والمبايعة، فرد معاوية عليه برده السابق المعروف، بتسليم قتلة عثمان أو القود منهم أولًا ثم يدخل في البيعة.

وقد تبين لنا موقف علي من هذه القضية, كما أن قراء الفريقين قد عسكروا في ناحية من صفين، وهم عدد كبير، قد قاموا بمحاولات للصلح بينهما، فلم تنجح تلك المحاولات لالتزام كل فريق منهما برأيه وموقفه[٥].

---

(١) رواه البخاري (٤٤٧).

(٢) «البداية والنهاية» (٧/ ٣٠٠).

(٣) «تهذيب الأسماء واللغات» (٢/ ٣٨).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٤٣٧).

(٥) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/ ٦١٢، ٦١٣).

وقد حاول اثنان من الصحابة، وهما: أبو الدرداء، وأبو أمامة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ الصلح بين الفريقين، فلم تنجح مهمتهما أيضًا لنفس الأسباب السابقة، فتركا الفريقين ولم يشهدا معهما أمرهما, وكذلك حضر مسروق بن الأجدع أحد كبار التابعين فَوَعَظَ وَخَوَّفَ، ولم يقاتل(١).

وقوع القتال بين الفريقين:

لقد فشلت محاولات الصلح بين الفريقين، ثم خرج علي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ وأعلن في جيشه أن غدًا الأربعاء سيكون الالتحام الكلي لجميع الجيش(٢) ثم نبذ معاوية يخبره بذلك(٣), فثار الناس في تلك الليلة إلى أسلحتهم يصلحونها ويحدونها، وقام عمرو بن العاص بإخراج الأسلحة وهو يحرض الناس على الاستبسال في القتال, وبات جميع الجيشين في مشاورات وتنظيم للقيادات والألوية.

وأصبح الجيشان في يوم الأربعاء، لسبع خلون من شهر صفر، وقد نظمت صفوفهم, وتقابلت الجيوش الإسلامية، ومن كثرتها قد سدت الأفق!

وتذكر بعض الروايات: أن عليًّا خطب في جيشه، وحرضهم على الصبر والإقدام والإكثار من ذكر الله. وتذكر أيضًا: أن عَمْرو بن العاص قد استعرض جيشه، وأمرهم بتسوية الصفوف وإقامتها(٤). وهذه الروايات قد ضَعَّفَهَا بعض أهل العلم.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٦٧).

(٢) تشير بعض الروايات إلى أن عدة مبارزات كانت قد وقعت بين المجموعات، ولذلك استمرت الحرب لعدة أيام وقيل استمرت لعدة أسابيع.

(٣) «البداية والنهاية» (٧/ ٢٧٣).

(٤) «المصدر السابق» (٧/ ٢٧٣).

والتحم الجيشان في قتال عنيف استمر محتدمًا إلى غروب الشمس لا يتوقف إلا لأداء الصلاة، ويصلي كل فريق في معسكره وبينهما جثث القتلى في الميدان تفصل بينهما، وسأل أحد أفراد جيش علي ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ حين انصرافه من الصلاة، فقال: «ما تقول في قتلانا وقتلاهم يا أمير المؤمنين؟ فقال: «من قتل منا ومنهم يريد وجه الله والدار الآخرة دخل الجنة»(١).

وقد صبر بعضهم على بعض فلم يغلب أحد أحدًا، ولم يرَ موليًّا حتى انتهى ذلك اليوم، وفي المساء خرج علي ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ إلى ساحة القتال فنظر إلى أهل الشام، فدعا ربه قائلًا: «اللّٰهم اغفر لي ولهم»(٢).

وفي يوم الخميس اشتبك الطرفان في قتال عنيف أشد من سابقه، وبدأ أهل العراق في التقدم وأظهروا تفوقًا على أهل الشام، واستطاع عبد الله بن بديل أن يكسر ميسرة معاوية، وعليها حبيب بن مسلمة، ويتقدم باتجاه كتيبة معاوية (الشهباء)، وصاحب هذا التقدم الجزئي تقدم عام لجيش العراق، وهنا استحث معاوية كتيبته الشهباء، واستطاعوا قتل عبد الله بن بديل، وتماسك أهل الشام وبايع بعضهم على الموت، وانقلب الأمر لجيش الشام وأظهر تقدمًا، وبدأ جيش العراق في التراجع، واستحر القتل في أهل العراق وكثرت الجراحات.

ولما رأى علي جيشه في تراجع أخذ يناديهم ويحمسهم، وقاتل قتالًا شديدًا، واتجه إلى القلب حيث ربيعة، فثارت فيهم الحمية وبايعوا أميرهم خالد بن المعتمر على الموت وكانوا أهل قتال.

---

(١) «الطبقات» (٤/ ٢٥٥) من طريق الواقدي.

(٢) «المصنف في الأحاديث والآثار» (١٥/ ٢٩٧).

وكان عمّار بن ياسر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قد جاوز التسعين عامًا، وكان يحارب بحماس، يحرض الناس، ويستنهض الهمم، ولكنه بعيد كل البعد عن الغلو، فقد سمع رجلًا بجواره يقول: «كفر أهل الشام!». فنهاه عمار عن ذلك وقال: «إنما بغوا علينا، فنحن نقاتلهم لبغيهم، فإلهنا واحد، ونبينا واحد، وقبلتنا واحدة»[١].

وهذا هو الفهم الصحيح لقضايا الكفر والإيمان وهذا هو التطبيق العملي لتنحية العاطفة وتغليب المنهج، وعمار يقول: «تقدم يا هشام، الجنة تحت ظلال السيوف، والموت في أطراف الأسل[٢]، وقد فتحت أبواب السماء وتزينت الحور العين، اليوم ألقى الأحبة: محمّدًا وحزبه»[٣].

وعند غروب شمس ذلك اليوم الخميس، طلب عمار شربة من لبن ثم قال: «إن رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قال لي: إن آخر شربة تشربها من الدنيا شربة لبن»[٤]، ثم تقدم واستحث معه حامل الراية هشام بن عتبة بن أبي وقاص الزهري فلم يرجعا وقتلا ـ رحمهما الله و رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ [٥].

---

(١) «المصنف في الأحاديث والآثار» (١٥/ ٢٩٠).

(٢) الأسل: الرماح. والأَسَل: عِيدانٌ تَنْبُتُ طِوَالًا دِقَاقًا مُسْتَوِيَةً لَا وَرَقَ لَهَا يُعْمَل مِنْهَا الحُصُر. والأَسَل: شَجَرٌ. وَيُقَالُ: كُلُّ شَجَرٍ لَهُ شَوْكٌ طَوِيلٌ فَهُوَ أَسَل، وَتُسَمَّى الرِّمَاحُ أَسَلًا. «لسان العرب» (١١/ ١٥).

(٣) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/ ٦٥٢).

(٤) «المصنف» (١٥/ ٣٠٢/ ١٩٧٢٣)، وأحمد (٤/ ٣١٩)، وكذا ابن سعد (٣/ ٢٥٧)، وأبو يعلى (٣/ ١٨٨/ ١٦١٣)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق » (١٢/ ٦٥٨)، والحاكم (٣/ ٣٨٩) وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي.

(٥) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/ ٦٥٣).

ثم عادت الحرب في نفس الليلة – الجمعة – بشدة لم تشهدها الأيام السابقة، وكان اندفاع أهل العراق بحماس وروح عالية حتى أزالوا أهل الشام عن أماكنهم، وذكر أن عليًّا ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ صلى بجيشه المغرب صلاة الخوف(١)، ومن شدة القتال فنيت نبالهم، واندقت رماحهم، وانقصفت سيوفهم، ومشى بعضهم إلى بعض وتضاربوا بما بقي من السيوف وعمد الحديد(٢).

ويقول ابن كثير في وصف ليلة الْهَرِيرِ (٣)؛ ويوم الجمعة: «أَنَّهُمُ اقْتَتَلُوا بِالرِّمَاحِ حَتَّى تَقَصَّفَتْ، وَبِالنِّبَالِ حَتَّى فَنِيَتْ، وَبِالسُّيُوفِ حَتَّى تَحَطَّمَتْ ثُمَّ صَارُوا إِلَى أَنْ تَقَاتَلُوا بِالْأَيْدِي وَالرَّمْيِ بِالْحِجَارَةِ والتراب في الوجوه، وتعاضوا بالأسنان يَقْتَتِلُ الرَّجُلَانِ حَتَّى يُثْخِنَا ثُمَّ يَجْلِسَانِ يَسْتَرِيحَانِ، وكل واحد منهما يهمر على الآخر ويهمر عليه ثم يقومان فيقتتلان كما كانا، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

وَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبُهُمْ حَتَّى أَصْبَحَ النَّاسُ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ وَهُمْ كَذَلِكَ وَصَلَّى النَّاسُ الصُّبْحَ إِيمَاءً وهم في القتال حتى تضاحى النهار وَتُوَجَّهَ النَّصْرُ لِأَهْلِ الْعِرَاقِ عَلَى أَهْلِ الشَّامِ»(٤).

وكان قتل عمّار ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ شديدًا على جيش علي بن أبي طالب ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ، لكنه كان أشد على جيش الشام؛ لأن الرسول ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قد أخبر أن عمارًا ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ تقتله الفئة الباغية؛ قد كان عمار علمًا لأصحاب رسول الله يتبعونه حيث سار، وكان خزيمة بن ثابت حضر صفين وكان كافًّا سلاحه، فلما رأى مقتل عمار سل

(١) «السنن الكبرى»، وقال الألباني: «رواه البيهقي بصيغة التمريض»، «إرواء الغليل» (٣/ ٤٢).
(٢) «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» (١/ ٢١١).
(٣) يُقَالُ: هَرَّ الكلبُ يَهِرُّ هَرِيراً، فَهُوَ هارٌّ وهَرَّارٌ إِذا نَبَحَ وكَشَرَ عَنْ أَنيابه، وَقِيلَ: هُوَ صَوْتُهُ دُونَ نُباحه. والهرير أيضًا: صوت الرَّحَى عند دورانها. انظر: لسان العرب.
(٤) «البداية والنهاية» (٧/ ٢٨٣).

سيفه وقاتل أهل الشام، وذلك لأنه سمع حديث رسول الله - ﷺ - عن عمار: «تقتله الفئة الباغية». واستمر في القتال حتى قُتل[١]، وكان لمقتل عمّار أثر في معسكر معاوية، فهذا أبو عبد الرحمن السلمي دخل في معسكر أهل الشام، فرأى معاوية وعمرو بن العاص وابنه عبد الله بن عمرو، وأبا الأعور السلمي، عند شريعة الماء يسقون. وكانت هي شريعة الماء الوحيدة التي يستقي منها الفريقان، وكان حديثهم عن مقتل عَمّار بن ياسر، إذ قال عبد الله بن عمرو لوالده: «لقد قتلنا هذا الرجل، وقد قال فيه رسول الله - ﷺ -: **«تَقْتُلُهُ الفِئَةُ البَاغِيَةُ»**. فقال عمرو لمعاوية: «لقد قتلنا الرجل وقد قال فيه رسول الله - ﷺ - ما قال». فقال معاوية: «اسكت، فوالله ما تزال تدحض[٢] في بولك، أنحن قتلناه؟ إنما قتله من جاء به»[٣].

وجاء في رواية: أن معاوية قال: «أو نحن قتلناه؟! إنما قتله علي وأصحابه، وجاءوا به حتى ألقوه بين رماحنا، أو قال: بين سيوفنا». وانتشر تأويل معاوية بين أهل الشام وهذه الكلمة من معاوية - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ليست في محلها في هذا الموطن؛ لأن علي بن أبي طالب كان على الحق في هذا الخروج.

قال ابن كثير: «ومعلوم أن عمارًا كان في جيش علي يوم صفين، وقتله أصحاب معاوية من أهل الشام، وكان الذي تولى قتله رجل يقال له أبو الغادية، رجل من أفناد الناس. وقيل: إنه صحابي».

---

(١) «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد» (٧/ ٢٤٢). وقال فيه: «رواه الطبراني وفيه أبو معشر وهو لين».

(٢) الدَّحْضُ: الزَّلَقُ. والإِدْحاضُ: الإِزْلاقُ. والدُّحَّضُ: جَمْعُ داحِضٍ، وَهُمُ الَّذِينَ لَا ثَبَاتَ لَهُمْ وَلَا عَزِيمَةَ فِي الأُمور. «لسان العرب» (١٤٨/٧).

(٣) مسند أحمد (٢/ ٢٠٦) بسندٍ حسن.

ويخبر عمرو بن العاص ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ الخبر فيقول: «سمعت رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يقول: «قَاتِلُ عمار وسالبه في النار»[(١)].

وعن حبيب بن أبي ثابت قال: «أتيت أبا وائل أحد رجال علي بن أبي طالب فقال: كنا بصفين، فلما استحر القتل بأهل الشام، قال عمرو لمعاوية: أرسل إلى عليٍّ المصحف؛ فادعه إلى كتاب الله، فإنه لا يأبى عليك، فجاء به رجل فقال: بيننا وبينكم كتاب الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣]، فقال علي: نعم، أنا أولى بذلك، فقام القُراء ـ الذين صاروا بعد ذلك خوارج ـ بأسيافهم على عواتقهم، فقالوا: يا أمير المؤمنين ألا نمشي إلى هؤلاء حتى يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقام سهل بن حنيف الأنصاري ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ فقال: أيها الناس اتهموا أنفسكم، لقد كنا مع رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يوم الحديبية، ولو نرى قتالًا لقاتلنا، وذلك في الصلح الذي بين رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وبين المشركين»، ثم حدثهم عن معارضة عمر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ للصلح يوم الحديبية ونزول سورة الفتح على رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ، فقال علي: «أيها الناس إن هذا فتح»، فقبل القضية ورجع، ورجع الناس»[(٢)]. ويروى أن عليًّا ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قد أبدى معارضة في بداية الأمر، ولكنه سرعان ما وافق على التحكيم والتحاكم إلى كتاب الله ـ تعالى ـ[(٣)]. وهكذا كان الصحابة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ يتعلمون من سيرة رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ، فهي المنهج الحقيقي الواضح الصافي في كيفية التعامل مع الواقع، وأظهر سهل بن حنيف ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ

---

(١) «السلسلة الصحيحة» (٥/ ١٨، ١٩).

(٢) «المصنف» (٨/ ٣٣٦)، مسند أحمد مع «الفتح الرباني» (٨/ ٤٨٣).

(٣) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/٤٩).

رفضه الشديد حول استمرار الحرب بين الإخوة، وقال: «أيها الناس اتهموا رأيكم على دينكم»[١]، وبيَّن لهم أنه لا خيار عن الحوار والصلح، لأن ما سواه فتنة لا تعرف عواقبها، إن الدعوة إلى تحكيم كتاب الله دون التأكيد على تسليم قتلة عثمان إلى معاوية وقبول التحكيم دون التأكيد على دخول معاوية في طاعة علي والبيعة له، تطور فرضته أحداث حرب صفين؛ إذ إن الحرب التي أودت بحياة الكثير من المسلمين، أبرزت اتجاهًا جماعيًّا رأى أن وَقْفَ القتال وحقن الدماء أصبح ضرورة.

إن أمير المؤمنين عليًّا ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ قَبِل وَقْفَ القتال في صفين، ورضي التحكيم وعدَّ ذلك فتحًا ورجع إلى الكوفة، وعلَّق على التحكيم آمالًا في إزالة الخلاف، وجمع الكلمة، ووحدة الصف، وتقوية الدولة، وإعادة حركة الفتوح من جديد[٢]، وقد خشي عدد من عقلاء الطرفين من استمرار القتال حتى لا يهلك المسلمون، فيستغل الأعداء ذلك، ويستأصلوا الإسلام، فلا تقوم له بعد ذلك قَوْمة، وكان عقلاء الكوفة أسبق إلى الموادعة؛ فهذا الأشعث بن قيس الكندي لـمَّا اشتد القتال يخطب في قومه ـ أهل الكوفة ـ في المساء خطبته التي قادت للصلح؛ فيقول: «قد رأيتم يا معشر المسلمين ما قد كان في يومكم هذا الماضي، وما قد فني فيه من العرب، فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ، فما رأيت مثل هذا اليوم قَطُّ! ألا فليبلغ الشاهد الغائب، إنْ نحن توافقنا غدًا إنه لفناء العرب وضيعة الحرمات. أما والله ما أقول هذه المقالة جزعًا من الحتف، ولكني رجل مسنّ

(١) رواه البخاري (٤١٨٩).

(٢) «دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين» (ص ٣٨).

أخاف على النساء والذراري غدًا إذا فنينا. اللّٰهم إنك تعلم أني قد نظرت لقومي ولأهل ديني فلم آل، وما توفيقي إلا بالله»(١).

فلما وصل الخبر معاوية بخطبة الأشعث قال: «أصاب ورب الكعبة، لئن نحن التقينا غدًا لتميلن الروم على ذرارينا ونسائنا، ولتميلنَّ أهل فارس على نساء أهل العراق وذراريهم، وإنما يبصر هذا ذوو الأحلام والنُّهى؛ اربطوا المصاحف على أطراف القَنَا.قال صعصعة: فثار أهل الشام فنادوا في سواد الليل: يا أهل العراق، مَن لذرارينا إن قتلتمونا، ومن لذراريكم إن قتلناكم؟ اللهَ الله في البقية». فأصبح أهل الشام وقد رفعوا المصاحف على رءوس الرماح وقلدوها الخيل، والناس على الرايات قد اشتهوا ما دعوا إليه، ورفع مصحف دمشق الأعظم تحمله عشرة رجال على رءوس الرماح، ونادوا: «يا أهل العراق، كتاب الله بيننا وبينكم»(٢).

لقد كان رفع المصاحف عملًا رائعًا اشترك فيه العقلاء من الفريقين، وتُوِّج بموافقة أمير المؤمنين علي ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ ؛ إذ قال: «نعم بيننا وبينكم كتاب الله، أنا أولى به منكم»(٣).

الأخلاق الحسنة أثناء الحرب:

إن وقعة صفين كانت من أعجب الوقائع بين المسلمين، لقد كانت معركة فريدة في بواعثها، وفي طريقة أدائها؛ فكان المتقاتلون إخوة يذهبون معًا إلى مكان الماء فيستقون جميعًا ويزدحمون وهم يغرفون الماء وما يؤذي إنسان إنسانًا(٤).

---

(١) «وقعة صفين» (ص ٤٧٩).

(٢) «وقعة صفين» (ص ٨٨٠).

(٣) «المصنف» (٣٧٦/٨)، «أنساب الأشراف» (٣/ ١٣١).

(٤) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/ ٦١٠).

وهم إخوة يعيشون معًا عندما يتوقف القتال، فهذا أحد المشاركين يقول: «كنا إذا تواعدنا من القتال دخل هؤلاء في معسكر هؤلاء، وهؤلاء في معسكر هؤلاء وتحدثوا إلينا وتحدثنا إليهم»، فهم أبناء قبيلة واحدة ولكل منهما اجتهاده، فيقاتل أبناء القبيلة الواحدة كل في طرف قتالًا مريرًا، وكل منهما يرى نفسه على الحق وعنده الاستعداد لأن يُقْتَل من أجله، فكان الرجلان يقتتلان حتى يُثْخَنا (وهنًا وضعفًا) ثم يجلسان يستريحان، ويدور بينهما الكلام الكثير، ثم يقومان فيقتتلان كما كانا, وهما أبناء دين واحد يجمعهما، وهو أحب إليهما من أنفسهما، فإذا حان وقت الصلاة توقفوا لأدائها[(١)].

وظهر في هذه الحرب نماذج متعددة حول المعاملة الحسنة للأسرى.

يقول محب الدين الخطيب معلقًا على هذه الحرب: «ومع ذلك، فإن هذه الحرب المثالية هي الحرب الإنسانية الأولى في التاريخ التي جرى فيها المتحاربان معًا على مبادئ الفضائل التي يتمنى حكماء الغرب لو يعمل بها في حروبهم، ولو في القرن الحادي والعشرين، وإن كثيرًا من قواعد الحرب في الإسلام لم تكن لتعلم وتدون لولا وقوع هذه الحرب، ولله في كل أمر حكمة»[(٢)].

---

(١) «البداية والنهاية» (٧/ ٢٧٠).

(٢) «العواصم من القواصم» (ص ١٦٨، ١٦٩).

عدد القتلى:

تضاربت أقوال العلماء في عدد القتلى، فذكر ابن أبي خيثمة أن القتلى في صفين بلغ عددهم سبعين ألفًا، من أهل العراق خمسة وعشرون ألفًا، ومن أهل الشام خمسة وأربعون ألف مقاتل، كما ذكر ابن القيم أن عدد القتلى في صفين بلغ سبعين ألفًا أو أكثر(١). وهذه الأرقام غير دقيقة، وربما يكون قد بالغ البعض فيها، لكن بلا شك كثر عدد القتلى في هذه المعركة، وقد ذهب بعض المحققين إلى أن عدد القتلى لا يتجاوز ثمانية آلاف، خمسة آلاف من جيش الشام، وثلاثة آلاف من جيش العراق(٢).

وقد قام أمير المؤمنين علي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ بعد نهاية الجولات الحربية بتفقد القتلى، وقد وقف عليٌّ على قتلاه وقتلى معاوية فقال: «غفر الله لكم، غفر الله لكم»، للفريقين جميعًا. وعن يزيد بن الأصم قال: «لما وقع الصلح بين علي ومعاوية، خرج علي فمشى في قتلاه فقال: «هؤلاء في الجنة»، ثم خرج إلى قتلى معاوية فقال: «هؤلاء في الجنة»، وكان علي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ينهى عن شتم معاوية ولعن أهل الشام(٣).

قضية التحكيم:

تم الاتفاق بين الفريقين على التحكيم بعد انتهاء موقعة صفين؛ وهو أن يُحكِّم كل واحد منهما رجلًا من جهته، ثم يتفق الحكمان على ما فيه مصلحة المسلمين، فوكّل معاوية عمرو بن العاص، ووكل عليٌّ أبا موسى الأشعري ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جميعًا ـ ، وقد

(١) «الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة» (١/ ٣٧٧).

(٢) فواز الشمري: صحيح أخبار صفين والنهروان وعام الجماعة، ص ٥٠١.

(٣) «المصنف» (١٥/ ٣٠٣)، وانظر: فواز الشمري، المرجع السابق.

كان علي بن أبي طالب يريد أن ينوب عنه عبد الله بن عباس، ولكن القراء من أهل العراق قالوا: لَا نَرْضَى إِلَّا بِأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، وكُتبت بين الفريقين وثيقة في ذلك، وكان ذلك في يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة خلت من صفر سنة سبع وثلاثين، على أن يكون مقر اجتماع الحكمين في دومة الجندل(١) في شهر رمضان من نفس العام؛ أي بعد ما يقرب من ستة أشهر تقريبًا، حتى تهدأ النفوس.

وقد رأى قسم من جيش علي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ أن عمله هذا ذنب يوجب الكفر؛ وذلك لأنه حكّم الرجال في دين الله! فعليه أن يتوب إلى الله ـ تعالى ـ، وخرجوا عليه فسموا الخوارج، فأرسل علي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ إليهم ابن عباس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ، فناظرهم وجادلهم ثم ناظرهم علي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ بنفسه، وكذا ناظرهم ابن عباس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ، فرجعت طائفة منهم، وأبت طائفة أخرى، فجرت بينهم وبين علي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ حروب أضعفت من جيشه وأنهكت أصحابه، وما زالوا به حتى قتلوه غيلة، وتعد قضية التحكيم من أخطر الموضوعات في تاريخ الخلافة الراشدة، وقد تاه فيها كثير من الكُتاب، وتخبط فيها آخرون وسطروها في كتبهم ومؤلفاتهم، وقد اعتمدوا على الروايات الضعيفة والموضوعة التي شوهت الصحابة الكرام؛ وخصوصًا أبا موسى الأشعري الذي وصفوه بأنه كان أبله ضعيف الرأي، مخدوعًا في القول، ووصفوا عمرو بن العاص ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ، بأنه كان صاحب مكر وخداع(٢).

---

(١) تقع دُومة الجندل على مشارف الشام. وقال أبو عبيد السكوني: «دومة الجندل: حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبلي طيّء». وذكر الحموي في «معجم البلدان»: أنها سُميت بذلك نسبة إلى حصن بناه دوماء بن إسماعيل. «معجم البلدان» (٢/ ٤٨٥). وانظر: خريطة رقم (٧) في ثبت الخرائط.

(٢) قال ابن العربي: «وقد تكلم الناس في التحكيم فقالوا فيه ما لا يرضاه الله. وإذا لحظتموه بعين المروءة ـ دون الديانة ـ رأيتم أنها سخافة حمل على سطرها في الكتب في الأكثر عدم الدين، وفي الأقل جهل متين.

وما فضل الصحابيين منا ببعيد؛ فلقد أثنى عليهما رسول الله - ﷺ - في مواطن كثيرة.

ما نصت عليه وثيقة التحكيم:

١- هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب, ومعاوية بن أبي سفيان وشيعتهما, فيما تراضيا فيه من الحكم بكتاب الله وسنة نبيه - ﷺ - .

٢- قضية علي على أهل العراق شاهدهم وغائبهم, وقضية معاوية على أهل الشام شاهدهم وغائبهم.

والذي يصح من ذلك ما روى الأئمة كخليفة بن خياط، والدارقطني: أنه لما خرجت الطائفة العراقية في مائة ألف والشامية في سبعين أو تسعين ألفًا ونزلوا على الفرات بصفين، اقتتلوا في أول يوم وهو الثلاثاء ثم التقوا يوم الأربعاء لسبع خلون من صفر سنة [سبع وثلاثين]، ويوم الخميس ويوم الجمعة وليلة السبت، ورفعت المصاحف من أهل الشام، ودعوا إلى الصلح، وتفرقوا على أن تجعل كل طائفة أمرها إلى رجل حتى يكون الرجلان يحكمان بين الدعويين بالحق، فكان من جهة علي: أبو موسى، ومن جهة معاوية: عمرو بن العاص، وكان أبو موسى رجلًا تقيًّا فقيهًا عالمًا، وأرسله النبي - ﷺ - إلى اليمن مع معاذ، وقدمه عمرو وأثنى عليه بالفهم. وزعمت الطائفة التاريخية الركيكة أنه كان أبله ضعيف الرأي مخدوعًا في القول، وأن ابن العاص كان ذا دهاءٍ وأرب حتى ضربت الأمثال بدهائه تأكيدًا لما أرادت من الفساد، وتبع في ذلك بعض الجهال بعضًا وصنفوا فيه حكايات. وغيره من الصحابة كان أحذق منه وأدهى، وإنما بنوا على أن عمرًا غدر بأبي موسى في قصة التحكيم صار له الذكر في الدهاء والمكر. =

= وقالوا: إنما لما اجتمع بأذرح من دومة الجندل وتفاوضا، اتفقا على أن يخلعا الرجلين. فقال عمرو لأبي موسى: «اسبق بالقول. فتقدم، فقال: إني نظرت فخلعت عليًّا عن الأمر، وينظر المسلمون لأنفسهم، كما خلعت سيفي هذا من عنقي أو من عاتقي». وأخرجه من عنقه فوضعه في الأرض. وقام عمرو فوضع سيفه في الأرض وقال: «إني نظرت فأثبت معاوية في الأمر كما أثبت سيفي هذا في عاتقي». وتقلده. فأنكر أبو موسى. فقال عمرو: «كذلك اتفقنا». وتفرق الجمع على ذلك من الاختلاف» اهـ بتصرف يسير من «العواصم من القواصم» (ص ١٦٦و١٦٧ و١٦٨).

٣- إنا تراضينا أن نقف عند حُكم القرآن فيما يحكم من فاتحته إلى خاتمته, نحيي ما أحيا ونميت ما أمات. على ذلك تقاضينا وبه تراضينا.

٤- وإن عليًّا وشيعته رضوا بعبد الله بن قيس ناظرًا وحاكمًا, ورضي معاوية بعمرو بن العاص ناظرًا وحاكمًا.

٥- على أن عليًّا ومعاوية أخذا على عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله, أن يتخذا القرآن إمامًا ولا يعدوا به إلى غيره في الحكم بما وجداه فيه مسطورًا, وما لم يجدا في الكتاب رداه إلى سنة رسول الله الجامعة, لا يعتمدان لها خلافًا, ولا يبغيان فيها بشبهة.

٦- وأخذ عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص على علي ومعاوية عهد الله وميثاقه بالرضا بما حكما به مما في كتاب الله وسنة نبيه, وليس لهما أن ينقضا ذلك ولا يخالفاه إلى غيره.

٧- وهما آمنان في حكومتهما على دمائهما وأموالهما وأشعارهما وأبشارهما وأهاليهما وأولادهما, ما لم يَعْدُوَا الحق, رضي به راض أو سخط ساخط, وإن الأمة أنصارهما على ما قضيا به من الحق مما في كتاب الله.

٨- فإن توفي أحد الحكمين قبل انقضاء الحكومة, فلشيعته وأنصاره أن يختاروا مكانه رجلًا من أهل المعدلة والصلاح, على ما كان عليه صاحبه من العهد والميثاق.

٩- وإن مات أحد الأميرين قبل انقضاء الأجل المحدود في هذه القضية, فلشيعته أن يولوا مكانه رجلًا يرضون عدله.

١٠- وقد وقعت القضية بين الفريقين والمفاوضة ورفع السلاح.

١١- وقد وجبت القضية على ما سميناه في هذا الكتاب, من موقع الشرط على الأميرين والحكمين والفريقين, والله أقرب شهيد وكفى به شهيدًا, فإن خالفا وتعديا, فالأمة بريئة من حكمهما, ولا عهد لهما ولا ذمة.

١٢- والناس آمنون على أنفسهم وأهاليهم وأولادهم وأموالهم إلى انقضاء الأجل, والسلاح موضوعة, والسبل آمنة, والغائب من الفريقين مثل الشاهد في الأمر.

١٣- وللحكمين أن ينزلا منزلًا متوسطًا عدلًا بين أهل العراق والشام.

١٤- ولا يحضرهما فيه إلا من أحبَّا عن تراض منهما.

١٥- والأجل إلى انقضاء شهر رمضان, فإن رأى الحكمان تعجيل الحكومة عجلاها, وإن رأيا تأخيرها إلى آخر الأجل أخَّراها.

١٦- فإن هما لم يحكما بما في كتاب الله وسنة نبيه إلى انقضاء الأجل, فالفريقان على أمرهما الأول في الحرب.

١٧- وعلى الأمة عهد الله وميثاقه في هذا الأمر, وهم جميعًا يد واحدة على من أراد في هذا الأمر إلحادًا أو ظلمًا أو خلافًا. وشهد على هذا الكتاب الحسن والحسين, وعبد الله بن عباس, وغيرهم كثير[(١)].

وبعد ما كتبت هذه الوثيقة بدأ علي بن أبي طالب ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ يتوجه بجيشه إلى الكوفة، وعاد معاوية بجيشه إلى الشام، وبذلك توقف القتال، وتم دفن القتلى ـ رحمة الله عليهم أجمعين ـ.

(١) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/ ٦٦٥ - ٦٦٦) , «البداية والنهاية» (٧/ ٢٧٦ - ٢٧٧)، وانظر: «جمل من أنساب الأشراف» (١/ ٣٨٢)، «الأخبار الطوال» (ص ٥٣٧).

وجاء شهر رمضان عام ٣٧ هـ، فأرسل علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى دومة الجندل أربعمائة فارس، معهم أبو موسى الأشعري، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وأمّر عبد الله بن عباس على الصلاة؛ وأرسل معاوية رضي الله عنه أربعمائة فارس إلى أرض دومة الجندل معهم عمرو بن العاص رضي الله عنه، وكان معهم من رءوس الناس عبد الله بن الزبير بن العوام رضي الله عنهما، والمغيرة بن شعبة رضي الله عنه، وكان معهم أيضًا عبد الله بن عمر بن الخطّاب رضي الله عنهما، و في رواية في أنساب الأشراف للبلاذري؛ أن معاوية حضر، حيث خرج مُعَاوِيَة من دمشق في أربعمائة حَتَّى نزل دومة الجندل.

وبعد مشاورات ومحاورات كثيرة، واختلاف في الرأي حول أصل المسألة، حيث كان أبو موسى الأشعري يؤيد علي بن أبي طالب رضي الله عنه في أنه تجب له البيعة من معاوية ومن معه، ثم بعد أن تستقر الأمور يُؤخذ الثأر من قتلة عثمان بن عفان رضي الله عنه، ولكن عمرو بن العاص طالب بقتلهم أولًا، أو تسليمهم إليهم ليقتلوهم، وبعدها يبايعون، فلما تحدثا في هذا الأمر كثيرًا، ولم يصلا إلى شيءٍ، اتفقا على أن يُترك أمر تحديد الخلافة إلى مجموعة من الصحابة الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راضٍ، وهم أعيان وكبار الصحابة، وفيهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ لأنه من السابقين الأولين، ومن أصحاب الشورى الستة، ولا يكون فيهم معاوية بن أبي سفيان، ولا عمرو بن العاص رضي الله عنهما؛ لأنهما ليسا من السابقين، ويُستعان برأيهما إن رأى القوم أن يستعينوا برأيهما، وإن لم يروا فلا يستعينوا برأيهما؛ و تفيد بعض الروايات أنهما اتفقا على تولية عبد الله بن عمر لكنه رفض.

واتفقوا بحضور الشهود على أن يكون هذا الاجتماع في العام المقبل في دومة الجندل، وإلى أن يحين موعد هذا الاجتماع يحكم كلٌ من علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، ما تحت يده في الدولة الإسلامية، وبعد تعيين الخليفة الجديد على الجميع أن يطيع الخليفة الجديد؛ سواءً رأى قتل قتلة عثمان أولًا؛ أو رأى تأخير ذلك.

ثم انشغل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بالخوارج وقتالهم، كما سنوضح في الصفحات القادمة؛ وتفيد بعض الروايات التاريخية[(١)]، بأن معاوية أرسل جيشًا إلى مصر بقيادة عمرو بن العاص، واستطاع أن يسيطر على مصر عام ٣٨هـ، حيث انتزعها من محمد بن أبي بكر، وهو الوالي عليها من قبل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وتولى عمرو بن العاص ولاية مصر لمعاوية، وأخذ معاوية يُغير على ما تحت يدي علي بن أبي طالب، وحاول أن يسيطر على البصرة أيضًا لكنه لم ينجح.

ومن تتبع الروايات التاريخية، ونظر إليها بعين الإنصاف، يظهر له أن معاوية تطلع إلى الحكم بعد قضية التحكيم، حيث كان يرى أنه أحق بهذا الأمر والله أعلم.

وفي عام (٤٠هـ)، جرت بين عليٍّ وبين معاوية المهادنة ـ بعد مكاتبات جرت بينهما ـ على وضع الحرب بينهما، ويكون لعليٍّ العراق ولمعاوية الشام، فلا يدخل أحدهما على صاحبه في عمله بجيش ولا غارة ولا غزو؛ فأقام معاوية بالشام بجنوده يجبيها وما حولها، وعليٌّ بالعراق يجبيها ويقسمها بين جنوده[(٢)].

---

(١) هذه الروايات ذكرها الطبري وخليفة بن خياط وابن كثير وغيرهم من المؤرخين.

(٢) «تاريخ الرسل والملوك» (٦/٦٠)، «البداية والنهاية» (٧/٣٣٦)، «المنتظم» (٣/ ٤٠٤)، وراجع: صحيح أخبار صفين والنهروان وعام الجماعة، لمؤلفه: فواز بن فرحان.

قراءة نقدية وتحليل لأحداث الموقعتين:

إن المتأمل في هذه الأحداث الجسام التي وقعت منذ أن توفي أمير المؤمنين عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ، يعلم أن ما حدث وما جرى في هذه الحقبة التاريخية يُعد من أشد المحن التي واجهت الأمة منذ بعثة النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ، وإن الناظر والمتأمل في الأحداث بعين العدل والإنصاف، يعلم علم اليقين أن مسألة الحُكم من أشد الأمور تعقيدًا.

وقد ظهر ذلك جليًّا في نهاية عصر أمير المؤمنين عثمان، وفي مدة خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ.

يقول محب الدين الخطيب: «وقد يظن من لا نظر له في حياة الشعوب وسياستها أن الحاكم يستطيع أن يكون كما يريد أن يكون حيثما يكون، وهذا خطأ؛ فللبيئة من التأثير في الحاكم وفي نظام الحكم أكثر مما للحاكم ونظام الحكم من التأثير على البيئة. وهذا من معاني قول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]»(١).

وإذا تأملنا أحداث موقعتيّ الجمل وصفين، نرى أنه كان من الصعوبة بمكان أن يسيطر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب على الأحداث، وأن يمسك بزمام الأمور، وأن يسيطر على الدولة، وأن يُرضي جميع الأطراف المختلفة والمتناحرة؛ وذلك لوجود عدد من السبئية في الصف ممن يهيجون المشاعر وينشرون الفتن، وإذا تعالت الأصوات وكثر الصراخ بين الناس وكثرت الشائعات في المجتمع، أدى كل ذلك إلى ضعف صوت العقل، فلا يسمعه إلا القليل من الناس.

---

(١) «العواصم من القواصم» (ص ٧٧).

ومما نتعلمه من هذه الأحداث التاريخية أن الحماس وحده لا يكفي، وأن الإخلاص وحده لا يكفي أيضًا، بل لابد من مراعاة الواقع، والترجيح ما بين المصالح والمفاسد، وتقدير مواطن القوة والضعف. ولابد من مراعاة المصالح العُلْيَا للعباد والبلاد؛ فدفع المفاسد مقدم على جلب المصالح، ولابد من تحمل الضرر الخاص لرفع الضرر العام، والذين طالبوا بدم عثمان نحسبهم جميعًا على خير ولا نطعن في نواياهم، ولكنهم أخطأوا في اجتهادهم وتقديرهم للأمور، فكان من الأولى أن نحافظ على وحدة الأمة، وعلى دماء المسلمين، حتى لو أدى ذلك إلى ارتكاب مفسدة هي أدنى من مفسدة أخرى؛ فالشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، إذن فلابد من مراعاة قاعدة: «اعتبار القدرة والعجز»، وقاعدة: «تفويت أدنى المصلحتين لتحصيل أعلاهما»، وقاعدة: «ارتكاب أخف المفسدتين لتفويت أشدهما»، وقاعدة: «اعتبار المآلات». وهذا ما أصاب فيه أمير المؤمنين علي، وأخطأ فيه غيره، بل ودلَّ موقفه على فقهه وفطنته - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - .

ثم إن الواجب علينا في هذه الفتنة هو الإمساك عما شجر بين الصحابة إلا فيما يليق بهم - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -؛ لما يسببه الخوض في ذلك من توليد العداوة والحقد والبغض لأحد الطرفين، ويجب على كل مسلم أن يحب الجميع ويرضى عنهم ويترحم عليهم، ويحفظ لهم فضائلهم، ويعترف لهم بسوابقهم، وينشر مناقبهم، وأن الذي حصل بينهم إنما كان عن اجتهاد، والجميع مثابون في حالتيّ الصواب والخطأ، غير أن ثواب المصيب ضعف ثواب المخطئ في اجتهاده، وأن القاتل والمقتول من الصحابة في الجنة، ولم يجوَّز العلماء الخوض فيما شجر بينهم، وهذا هو مذهب أهل السُّنَّة والجماعة أن عليًّا هو المصيب وإن كان معاوية مجتهدًا، وهو مأجور - إن شاء الله - ، ولكن عليًّا هو الإمام، فله أجران كما ثبت في صحيح البخاري: «**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله**

أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر»(١). وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

ففي هذه الآية أمر الله ـ تعالى ـ بالإصلاح بين المؤمنين إذا ما جرى بينهم قتال؛ لأنهم إخوة، وهذا الاقتتال لا يخرجهم عن وصف الإيمان حيث سماهم الله ـ عَزَّوَجَلَّ ـ: «مؤمنين»، وأمر بالإصلاح بينهم.

وإذا كان حصل اقتتال بين عموم المؤمنين، ولم يخرجهم ذلك من الإيمان، فأصحاب رسول الله ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ الذين اقتتلوا في موقعة الجمل وبعدها أول من يدخل في اسم الإيمان الذي ذكر في هذه الآية؛ فهم لا يزالون عند ربهم مؤمنين إيمانًا حقيقيًّا، ولم يؤثر ما حصل بينهم من شجار في إيمانهم بحال؛ لأنه كان عن اجتهاد.

وقد سئل عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ عن القتال الذي حصل بين الصحابة فقال: «تلك دماء طهر الله يدي منها، أفلا أطهر منها لساني؟! مثل أصحاب رسول الله ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ مثل العيون، ودواء العيون ترك مسها».

قال البيهقي معلقًا على قول عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ: «هذا حسن جميل؛ لأن سكوت الرجل عما لا يعنيه هو الصواب».

وسئل الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ عن قتال الصحابة فيما بينهم فقال: «قتال شهده أصحاب محمد ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وغبنا، وعلموا وجهلنا، واجتمعوا فاتبعنا، واختلفوا فوقفنا»(٢).

---

(١) البخاري مع شرحه في «فتح الباري» (١٣/ ٣١٨).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٣٣٢).

وقال الإمام أحمد ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ بعد أن قيل له: «ما تقول فيما كان بين علي ومعاوية؟ قال: ما أقول فيهم إلا الحسنى».

وقال أبو بكر بن الطيب الباقلاني: «ويجب أن يُعلم أن ما جرى بين أصحاب النبي ـ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ـ , من المشاجرة نكف عنه، ونترحم على الجميع ونثني عليهم، ونسأل الله ـ تعالى ـ لهم الرضوان والأمان، والفوز والجنان, ونعتقد أن عليًّا ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ أصاب فيما فعل وله أجران, وأن الصحابة ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ـ ما صدر منهم كان باجتهاد، فلهم الأجر ولا يُفَسَّقُون ولا يبدعون, والدليل عليه قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]»[١].

وقال ابن تيمية في صدد عرضه لعقيدة أهل السُّنَّة والجماعة فيما شجر بين الصحابة: «ويمسكون عما شجر بين الصحابة، ويقولون: إن هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو زيد فيه ونقص وغير عن وجهه, والصحيح منه هم فيه معذورون, إما مجتهدون مصيبون, وإما مجتهدون مخطئون»[٢].

وقال ابن كثير: «أما ما شجر بينهم بعده ـ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: فمنه ما وقع من غير قصد كيوم الجمل, ومنه ما كان عن اجتهاد كيوم صفين, والاجتهاد يخطئ، ولكن صاحبه معذور، وإن أخطأ فهو مأجور أيضًا. وأما المصيب فله أجران»[٣].

---

(١) «أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ» (ص ٦٤٨).
(٢) «عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم ـ» (ص ٢٥).
(٣) «الباعث الحثيث اختصار علوم الحديث» (ص ١٨٢).

وقال ابن حجر: «واتفق أهل السُّنَّة على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة بسبب ما وقع لهم من ذلك ولو عرف الحق منهم؛ لأنهم لم يقاتلوا في تلك الحروب إلا عن اجتهاد, بل ثبت أنه يؤجر أجرًا واحدًا, وأن المصيب يؤجر أجرين»(١).

وعن عمر بن عبد العزيز قال: «رأيت رسول الله - ﷺ - في المنام وأبو بكر وعمر جالسان عنده، فسلمت عليه وجلست، فبينما أنا جالس إذ أُتِيَ بعلي ومعاوية فَأُدْخِلَا بيتًا وأُجِيفَ(٢) الباب وأنا أنظر، فما كان بأسرع من أن خرج علي وهو يقول: قضى لي ورب الكعبة، فما كان بأسرع من أن خرج معاوية وهو يقول: غفر لي ورب الكعبة»(٣).

وكذا يجب علينا أن نترضى على الطرف الثالث الذي اعتزل الفتنة: كسعد ابن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وغيرهما، وللأسف فإن بعض المؤرخين يطعنون في معاوية - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، بل ويفسقونه! ونسي هؤلاء أن معاوية من كتبة الوحي لرسول الله - ﷺ - .

يقول ابن تيمية: «ولم يكن معاوية ممن يختار الحرب ابتداءً، بل كان من أشد الناس حرصًا على ألَّا يكون قتال».

وفي النهاية: نؤكد على أن هذه الحقبة التاريخية كانت من أخطر الأزمنة التي مرت على الأمة، وهذه الفتنة هي أشد فتنة أيضًا، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

---

(١) «فتح الباري» (١٣/ ٣٤).

(٢) أجيف الباب: رد وأغلق. «المعجم الوسيط».

(٣) «البداية والنهاية» (٨/ ١٣٣).

ومن هنا يتضح أنه لابد من محاربة الفرق الضالة والطوائف المنحرفة، محاربة فكرية واجتماعية وأمنية أيضًا؛ لأنها عندما تنتشر في بلاد المسلمين تعرض أهلها للخطر، وتهدد الأمن والاستقرار، وتشكك الناس في عقيدتهم، وتلك هي حال الخوارج المارقين الذين خرجوا على علي ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ وكفروه، وقتله نفر منهم، زاعمين أنهم يتقربون بهذا الفعل إلى الله، وما عندهم في ذلك مستند ولا برهان، إن هو إلا اتباع الأهواء وطاعة الشياطين.

ولابد أن يقوم العلماء والدعاة بواجبهم في ذلك؛ حفاظًا على الإسلام والمسلمين، ولتمكين عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة، وهذه هي الطريقة المثلى لجمع الشمل ووحدة الصف.

ومَن تأمل تاريخ الإسلام الطويل وجد أن الدول التي قامت على السنة هي التي جمعت شمل المسلمين وعز بها الإسلام قديمًا وحديثًا، وهذا بخلاف الدول التي قامت على البدعة، وأشاعت الفوضى والفرقة والمحدثات، وفرقت الشمل، فهذه سرعان ما تندثر.

المبحث الرابع

تنازل الحسن بن علي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - عن الخلافة، وتأسيس الدولة الأموية

أولًا: ظهور الخوارج ومقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -:

بعد الاتفاق الذي تم بين أهل الشام وأهل العراق على التحكيم، وأثناء عودة علي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - من صفين إلى الكوفة، انفصل الخوارج في جماعة كبيرة من جيش علي(١)، وقد قُدر عددهم ببضعة عشر ألفًا, فقدر في رواية: باثني عشر ألفًا.

---

(١) عرَّف أهل العلم الخوارج بتعريفات، منها: ما بيَّنه أبو الحسن الأشعري, أن اسم الخوارج يقع على تلك الطائفة التي خرجت على رابع الخلفاء الراشدين علي بن أبي طالب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - , وبيَّن أن خروجهم على عليّ هو العلة في تسميتهم بهذا الاسم, حيث قال - رَحِمَهُ اللَّهُ -: «والسبب الذي سموا له خوارج، خروجهم على عليّ لما حكَّم». وأما ابن حزم فقد بيَّن أن اسم الخارجي يتعدى إلى كل مَن أشبه أولئك النفر الذين خرجوا على علي بن أبي طالب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -, وشاركهم في معتقدهم, فقد قال: «ومَن وافق الخوارج من إنكار التحكيم، وتكفير أصحاب الكبائر، والقول بالخروج على أئمة الجور, وأن أصحاب الكبائر مخلدون في النار, وأن الإمامة جائزة في غير قريش فهو خارجي، وإن خالفهم فيما عدا ذلك مما اختلف فيه المسلمون، وخالفهم فيما ذكرنا؛ فليس خارجيًّا». وأما الشهرستاني فقد عرف الخوارج بتعريف عام اعتبر فيه الخروج على الإمام الذي اجتمعت عليه الكلمة وعلى إمامته الشرعية خروجًا في أي زمان كان, حيث قال في تعريفه للخوارج: «كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجيًّا؛ سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين أم كان بعدهم على التابعين بإحسان والأئمة في كل زمان». وقال ابن حجر معرفًا لهم: «والخوارج هم الذين أنكروا على عليّ التحكيم وتبرؤوا منه ومن عثمان وذريته وقاتلوهم, فإن أطلقوا تكفيرهم فهم الغلاة». وقال في تعريف آخر: «أما الخوارج فهم جماعة خارجة, أي: طائفة, وهم قوم مبتدعون سموا بذلك لخروجهم على الدين وخروجهم على خيار المسلمين». انظر: «الفصل في الملل والأهواء والنحل» (٢/ ١١٣)، «فتح الباري» (٢/ ٢٨٣)، «التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع» (ص ٤٧).

وفي رواية: بثمانية آلاف, وفي رواية: بأنهم أربعة عشر ألفًا[١]. وقد انفصل هؤلاء عن الجيش قبل أن يصلوا إلى الكوفة بمراحل, وقد أقلق هذا التفرق أصحاب علي وهالهم, وسار عليٌّ بمن بقي من جيشه على طاعته حتى دخل الكوفة, وانشغل أمير المؤمنين بأمر الخوارج خصوصًا بعد ما بلغه تنظيم جماعتهم من تعيين أمير للصلاة وآخر للقتال, وأن البيعة لله ـ عَزَّوَجَلَّ ـ , والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر, مما يعني انفصالهم فعليًّا عن جماعة المسلمين، فأرسل ابن عباس إليهم لمناظرتهم فرجع منهم ألفان بعد مناظرة ابن عباس لهم.

وهاك نص المناظرة:

عَن عَبد الله بن عباس ـ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا ـ قَالَ: «لَمَّا خَرَجَتِ الْحَرُورِيَّةُ[٢] اجْتَمَعُوا فِي دَارٍ وَهُمْ سِتَّةُ آلاَفٍ فأَتَيْتُ عليًّا ـ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ ـ فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَبْرِدْ بِالظُّهْرِ لَعَلِّي آتِي هَؤُلاَءِ الْقَوْمَ فَأُكَلِّمُهُمْ. قَالَ: إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ. قَالَ: قُلْتُ: كَلَّا. قَالَ: فَخَرَجْتُ آتِيهُمْ وَلَبِسْتُ أَحْسَنَ مَا يَكُونُ مِنْ حُلَلِ الْيَمَنِ فَأَتَيْتُهُمْ وَهُمْ مُجْتَمِعُونَ فِي دَارٍ وَهُمْ قَائِلُونَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِمْ فَقَالُوا: مَرْحَبًا بِكَ يَا ابن عَبَّاسٍ فَما هَذِهِ الْحُلَّةُ؟ قَالَ: قُلْتُ: مَا تَعِيبُونَ عليّ لَقَدْ رَأَيْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ـ ﷺ ـ أَحْسَنَ مَا يَكُونُ مِنَ الْحُلَلِ وَنَزَلَتْ: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]. قَالُوا: فَما جَاءَ بِكَ؟ قُلْتُ: أَتَيْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ صَحَابَةِ النَّبِى ـ ﷺ ـ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ لأُبْلِغَكُمْ مَا يَقُولُونَ وَتُخْبِرُونِي بِمَا تَقُولُونَ، فَعَلَيْهِمْ نَزَلَ الْقُرْآنُ وَهُمْ أَعْلَمُ بِالْوَحْيِ مِنْكُمْ وَفِيهِمْ أُنْزِلَ، وَلَيْسَ فِيكُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا تُخَاصِمُوا قُرَيْشًا فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَأَتَيْتُ قَوْمًا لَمْ أَرَ

(١) «المصنف» (١٠/ ١٥٧ – ١٦٠)، و«البداية والنهاية» (٧/ ٢٨٠،٢٨١).

(٢) سموا الحرورية نسبة إلى بلدة حروراء في الكوفة، وكانت مركز خروجهم على علي بن أبي طالب.

قَوْمًا قَطُّ أَشَدَّ اجْتِهَادًا مِنْهُمْ مُسَهَّمَةٌ وُجُوهُهُمْ مِنَ السَّهَرِ(١) كَأَنَّ أَيْدِيَهُمْ وَرُكَبَهُمْ ثَفِنٌ(٢)، عَلَيْهِمْ قُمُصٌ مُرَحَّضَةٌ(٣)، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَنُكَلِّمَنَّهُ وَلَنَنْظُرَنَّ مَا يَقُولُ. قُلْتُ: أَخْبِرُونِي مَاذَا نَقَمْتُمْ عَلَى ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ـ ﷺ ـ وَصِهْرِهِ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ؟ قَالُوا: ثَلاَثًا. قُلْتُ: مَا هُنَّ؟ قَالُوا: أَمَّا إِحْدَاهُنَّ فَإِنَّهُ حَكَّمَ الرِّجَالَ فِي أَمْرِ اللَّهِ، قَالَ اللَّهُ ـ عَزَّوَجَلَّ ـ : ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، وَمَا لِلرِّجَالِ وَمَا لِلْحُكْمِ. فَقُلْتُ: هَذِهِ وَاحِدَةٌ. قَالُوا: وَأَمَّا الأُخْرَى: فَإِنَّهُ قَاتَلَ وَلَمْ يَسْبِ وَلَمْ يَغْنَمْ فَلَئِنْ كَانَ الَّذِينَ قَاتَلَ كُفَّارًا لَقَدْ حَلَّ سَبْيُهُمْ وَغَنِيمَتُهُمْ وَإِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ مَا حَلَّ قِتَالُهُمْ. قُلْتُ: هَذِهِ ثِنْتَانِ؛ فَمَا الثَّالِثَةُ؟ قَالُوا: إِنَّهُ مَحَا اسْمَهُ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَهُوَ أَمِيرُ الْكَافِرِينَ. قُلْتُ: أَعِنْدَكُمْ سِوَى هَذَا؟ قَالُوا: حَسْبُنَا هَذَا. فَقُلْتُ لَهُمْ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ قَرَأْتُ عَلَيْكُمْ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَمِنْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ ـ ﷺ ـ مَا يُرَدُّ بِهِ قَوْلُكُمْ أَتَرْضَوْنَ؟ قَالُوا: نَعَمْ فَقُلْتُ لَهُمْ: أَمَّا قَوْلُكُمْ حَكَّمَ الرِّجَالَ فِي أَمْرِ اللَّهِ، فَأَنَا أَقْرَأُ عَلَيْكُمْ مَا قَدْ رُدَّ حُكْمُهُ إِلَى الرِّجَالِ فِي ثَمَنِ رُبُعِ دِرْهَمٍ فِي أَرْنَبٍ وَنَحْوِهَا مِنَ الصَّيْدِ فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥]، فَنَشَدْتُكُمْ بِاللَّهِ: أَحُكْمُ الرِّجَالِ فِي أَرْنَبٍ وَنَحْوِهَا مِنَ الصَّيْدِ أَفْضَلُ أَمْ حُكْمُهُمْ فِي دِمَائِهِمْ وَإِصْلاَحِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ وَأَنْ تَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَوْ شَاءَ لَحَكَمَ وَلَمْ يُصَيِّرْ ذَلِكَ إِلَى الرِّجَالِ؟! وَفِي الْمَرْأَةِ وَزَوْجِهَا قَالَ اللَّهُ ـ عَزَّوَجَلَّ ـ : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ [النساء: ٣٥]، فَجَعَلَ اللَّهُ حُكْمَ الرِّجَالِ سُنَّةً مَاضِيَةً. أَخَرَجْتُ مِنْ هَذِهِ؟

---

(١) أي متغير لون وجوههم. «لسان العرب».

(٢) جمع ثفنة بكسر الفاء: ما ولي الأرض من كل ذات أربع إذا بركت كالركبتين وغيرهما، أي: غلظت جلود أكفهم لطول السجود. «النهاية في غريب الحديث» (١/٢١٥-٢١٦).

(٣) أي مغسولة.

قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: قَاتَلَ فَلَمْ يَسْبِ وَلَمْ يَغْنَمْ! أَتَسْبُونَ أُمَّكُمْ عَائِشَةَ ثُمَّ تَسْتَحِلُّونَ مِنْهَا مَا يُسْتَحَلُّ مِنْ غَيْرِهَا؟! فَلَئِنْ فَعَلْتُمْ لَقَدْ كَفَرْتُمْ وهي أُمُّكُمْ، وَلَئِنْ قُلْتُمْ لَيْسَتْ بِأُمِّنَا لَقَدْ كَفَرْتُمْ فَإِنَّ اللَّهَ ـ تَعَالَى ـ يَقُولُ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، فَأَنْتُمْ تَدُورُونَ بَيْنَ ضَلالَتَيْنِ أَيُّهُمَا صِرْتُمْ إِلَيْهَا صِرْتُمْ إِلَى ضَلالَةٍ، فَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ. قُلْتُ: أَخَرَجْتُ مِنْ هَذِهِ؟ قَالُوا: نَعَمْ. وَأَمَّا قَوْلُكُمْ مَحَا نَفْسَهُ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَأَنَا آتِيكُمْ بِمَنْ تَرْضَوْنَ أُرِيكُمْ قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّ النَّبِيَّ ـ ﷺ ـ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ كَاتَبَ الْمُشْرِكِينَ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو وَأَبَا سُفْيَانَ ابْنَ حَرْبٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ لأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ: «اكْتُبْ يَا عليُّ هَذَا مَا اصْطَلَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ». فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: لَا وَاللَّهِ مَا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا قَاتَلْنَاكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ: **«اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي رَسُولُكَ، اكْتُبْ يَا عليُّ هَذَا مَا اصْطَلَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ»**. فَوَاللَّهِ لَرَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ خَيْرٌ مِنْ عليٍّ، وَمَا أَخْرَجَهُ مِنَ النُّبُوَّةِ حِينَ مَحَا نَفْسَهُ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ: فَرَجَعَ مِنَ الْقَوْمِ أَلْفَانِ وَقُتِلَ سَائِرُهُمْ عَلَى ضَلَالَةٍ»[1].

كانت فتنة الخوارج وبدعتهم أول بدعة اعتقادية ظهرت في أواخر عصر الصحابة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ، وكانت تتعلق بقضايا الإيمان؛ فبدعة الخوارج هي أول البدع ظهورًا

---

(١) وفي رواية عند النسائي والبيهقي وذكرها ابن حجر في فتح الباري، قال علي "لَا وَاللهِ لَا أَمْحُهَا» فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، «أَرِنِي مَكَانَهَا، فَأَرَيْتُهُ فَمَحَاهَا» وَقَالَ: «أَمَا إِنَّ لَكَ مِثْلَهَا، سَتَأْتِيهَا وَأَنْتَ مُضْطَرٌّ"، قال ابن حجر: يُشِيرُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى مَا وَقَعَ لِعَلِيٍّ يَوْمَ الْحَكَمَيْنِ. وهذه الرواية ضعفها أبوحذيفة الكويتي في كتاب: أَنِيسُ السَّارِي في تخريج وَتحقيق الأحاديث التي ذكرها الحَافظ ابن حَجر العسقلاني في فَتح البَاري. وانظر: الحاكم (٢٦٥٧) في «المستدرك»، والطبراني في «الكبير»، وعبد الرزاق (٨٧٦٨١) في «المصنف»، وأحمد (٣١٨٧).

وأكثرها تأثيرًا وأشدها ضررًا على وحدة الأمة بسبب غلوهم وجهلهم وضلالهم، وأحاديث الخوارج من الأحاديث المتواترة كما نص على ذلك كثير من المحدثين، وكان اعتقاد الخوارج في ذلك أن مرتكب الكبيرة كافر ومخلد في النار، فتساهلوا في مسألة التكفير، ونحن نرى الآن من يُكفر المسلم بالزي والثياب، فمن الناس من يقول مثلًا: من ارتدى الزي العسكري أو ثياب الفرنجة الكفار فهو كافر، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد رأينا كيف أنهم أنكروا على ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أنه لبس حلة جميلة حسنة من حُلل اليمن، فهذه المُناظَرة فيها فوائد كثيرة لِمَن يَتدبَّرها؛ فوائد تَنفَع الدُّعاةَ وطلاب العلم لاسيما في واقِعنا المُعاصِر، وقد كثرت الفتن وانتشرت المناهج المنحرفة، فصاحب هذه المناظرة هو حَبْرُ الأمَّة وعالمها عبد الله بن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - الذي دعا له رسولُ الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بالفقه في الدين، فلنتأمل كيف كان ابن عباس حريصًا على هداية مَن ضلَّ الطريق، وهذا الحرص ينبع من حبه للمسلمين ومن خوفه على أمته، والدين النصيحة كما أخبر بذلك رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فلا حرج من إجراء بعض المناظرات مع المخالفين إن كانت هناك مصلحة في ذلك، مع الأخذ بعين الاعتبار أن تكون النية هي الحرص على هداية الخلق والوصول للحق، لا الانتصار للنفس وحب الظهور والشهرة، قال الشافعي - رَحِمَهُ اللَّهُ -: «ما كلَّمت أحدًا قط إلا أحببت أن يوفَّق ويسدد ويعان, ويكون عليه رعاية من الله وحفظ, وما كلمت أحدًا قطُّ إلا ولم أبالِ بيَّن الله الحقَّ على لساني أو لسانِه».

ولنتأمل أيضًا حرص علي بن أبي طالب على ابن عباس، قال علي لابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم -: «إني أخافُهم عليك»، وكان قد اشتَهَر عن الخوارج استِحلال دماء

المسلمين، كما وصَفَهم رسول الله ـ ﷺ ـ بقوله: «يَقتُلون أهل الإسلام، ويَدَعون أهل الأوثان»(١)، وهذا ما يجب أن يكون بين أهل العلم وطلابه.

ولنتأمل أيضًا حسن توكُّل ابن عباس، واستِحضار مشيئة الله وقدره، كما قال ابن عباس لعلي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ لما قال له علي: «أخافُهم عليك»، قال ابن عباس: «كلا ـ إن شاء الله ـ»، والداعية إلى الله لابد وأن يتعرَّض في دعوته للمَخاطِر والابتلاءات، فإن لم يُحسِن التوكُّل على الله، ويحسن الظنَّ بخالقه، ويستشعر معنى اسم الله «الحفيظ». واسم الله «القوي»، ونحو ذلك، ربما أدى ذلك إلى تركه للدعوة بالكلية.

ولنتأمل كذلك قول ابن عباس للخوارج: «أتيتكم من عند أصحاب النبي ـ ﷺ ـ المهاجرين والأنصار، ومن عند ابن عمِّ النبي ـ ﷺ ـ وصهره، وعليهم نزَل القرآن، فهم أعلم بتأوِيله منكم، وليس فيكم منهم أحد», فكأنه يقول لهم: «فكيف تُخالِفونهم؟»، ثم مَن تُناصِبُونه العداء هو علي ابن عمِّ رسول الله ـ ﷺ ـ وزوج ابنته فاطمة التي هي بضعة منه! وهؤلاء جميعًا هم مَن نزل عليهم القرآن، فهم أَوْلَى منكم بمعرفة تفسيره وأحكامه، ولم ينحز واحدٌ منهم إليكم، ولا فهم الذي فهمتم من القرآن، وبهذا يُرَسِّخ الداعية للحقِّ الذي يحمله مع مُخالِفه، فيجعله أكثر قابليَّة للحق.

وتدل المناظرة على استِعمال عامَّة أهل البِدَع والضَّلال نصوص الوحيَيْن في غير موضعها، كما استدلَّت الخوارج على ترك السماع من ابن عباس؛ لأنه قرشيٌّ؛ والله يقول عن قريش: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]! فالآية نزلت في مُشرِكي قريش الذين يُخاصِمون بالباطل، وابن عباس إنَّما جاءهم ليَرُدَّهم إلى الحقِّ،

---

(١) متفق عليه.

ويُكلِّمهم بكتاب الله وسُنَّة النبي -ﷺ-؛ فكيف يجعَلونه من أهل هذه الآية؟! وفي هذه المُناظَرة الكثير من جهل الخوارج بنصوص كتاب الله -تعالى- وتنزيلها غير موضعها، أو عدم فهمها ابتِداءً.

ومن الفوائد أيضًا: عدم الاغتِرار بالهدي الظاهر، والسَّمْت فقط؛ لأنَّ الدين مَبناه على العلم والعمل جميعًا، لا العمل على جهل كحال الخوارج هنا، ولا العلم دون عمل كحال كثيرٍ من الناس، فابن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- يقول عن الخوارج: «وما أتيتُ قومًا قطُّ أشدَّ اجتِهادًا منهم، مُسهِمة وجوههم من السهر! كأنَّ أيديهم ورُكَبهم ثَفَن»(١)، لكنَّهم مع ذلك «يقرؤون القرآن لا يُجاوِز حَناجِرَهم»؛ كما قال النبي -ﷺ- في الحديث المتَّفَق عليه(٢)؛ فكيف تُؤثِّر فيهم القراءة، وكيف يَفقَهُون ما يقرؤون؟! فهم يعبدون الله على جهل، وكثيرٌ من الناس يَغتَرُّون ببعض الدعاة وبشهرتهم وبلباقة لسانهم ولا يفرقون بين العالم وغيره، فكل من لبس لباسًا معينًا فهو عندهم العالم، ومن هنا تقع الفِتَن والمِحَن.

ومن الفوائد أيضًا: إياك وسوء الظن في المخالفين جملة واحدة، فمن الخوارج من قال: «لنُكَلِّمنَّه ولنَنظُرَنَّ ما يقول»، وهذا منهم تحرٍّ للخير؛ ثم منهم من قبل الحق وعاد إلى صوابه ولم يستكبر.

ثم لابد من دراسة وتعلم فن المناظرة، ويَظهَر هذا جليًّا من أسئلة ابن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- للخوارج، فهو يقول لهم أولًا: «هاتوا ما نقمتم على أصحاب رسول الله -ﷺ- وابن عمِّه؟»، وقال لهم: «هل عندكم شيء غير هذا؟» ثم قال لهم ابن عباس كذلك مُشترِطًا: «أرأيتُكم إن قرأت عليكم من كتاب الله وسنَّة نبيِّه -ﷺ-

---

(١) ثفنت يده أي: غلظت ويبست من العمل.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٣).

ما يردُّ قولكم، أترجعون؟»، وهذا أيضًا من حُسْنِ سياسة ابن عباس في حوارِه، فهو سأَلَهم بدايةً ما يُنكِرونه على أصحاب النبي، ثم اشتَرَط عليهم الرُّجوع إلى الجماعة إذا ما ردَّ عليهم قولهم من كتاب الله وسنَّة نبيِّه ـ ﷺ ـ ، وبعد كلِّ تفنيد شبهة يسألهم: «أخرجت من هذه؟»؛ فالمناظرة فن لا يحسنه كل أحد، فلابد من تعلم هذا الفن، وألا يتصدر له إلا مَن أتقنه فحسب؛ لأنه من الممكن لضعف المُنَاظِر ينتصر الباطل فيما يظهر للناس.

وكذا لابد أن نحذر من الاستخفاف بالمخالفين، فابن عباس لم يَتعالَ عن مُناقَشة عقولٍ بهذا الفكر وهذا الفهم، وهذا هو واجب الدُّعاة إلى الله في كلِّ زمان.

ومن فقه الداعية أيضًا: تذكيره لِمُخالِفيه بالله حتى تلِين قلوبُهم للحقِّ ولا يُكابِرون، كما كان يقول ابن عباس للخوارج: «أنشدكم بالله، أحكم الرجال في صَلاحِ ذات البَيْنِ وحَقْنِ دمائهم أفضل، أو في أرنب؟ قالوا: بلى، بل هذا أفضل».

فالعبد يحتاج للتذكير بالله في خصوماته دومًا، ليُصَحِّح نيَّته، ويرضى بالحقِّ ويقبله.

وهذه المناظرة أكبر دليل على أننا بحاجة ماسة لاسيما في واقعنا المعاصر إلى العُلَماء الربانيِّين، وطلاب العلم النابِغين، الذين يَرُدُّون الناس إلى الحقِّ، ويَأْخُذون بأيديهم إلى السنَّة، فابن عباس جعَلَه الله سببًا في هِدايَة أَلفَيْن من رجال الخوارج، الله أعلم بمصيرهم لو لم يرجعوا معه.

ثم إنه يجب على أهل العلم الذين مَنَّ الله عليهم بالفقه في الدين إذا ظهرت الفتن أن يُخرجوا علمهم ويدلوا بدلوهم؛ لكشف الجهل وأهله، وتحذير الناس من الباطل.

ولابد أن يكون الجميع على يقين أن الفكر لا يُقَاوَمْ إلا بالمواجهة الفكرية؛ فالخلل

الفكري لا يُوَاجَهُ بالسجون والتعذيب والتنكيل، فإن هذا قد لا يزيدهم إلا تشددًا وتعصبًا لأفكارهم، فالمواجهة الأمنية لا تكفي هنا، بل لابد من مواجهة فكرية علمية معهم، يقوم بها رجال ثقات في علمهم، ثقات في دينهم، فإن الذي يتعمق في واقع هذه الجماعات الإسلامية التي اتخذت العنف سبيلًا لها، يجد بوضوح أن وراءها أسبابًا فكرية هي الأكبر تأثيرًا؛ فهناك عوامل نفسية وسياسية واجتماعية تسهم بحد كبير جدًّا في ظهور التطرف والانحراف الفكري، فلابد من معالجتها بما يتناسب معها.

فهذه كانت مناظرة حبر الأمة للخوارج، وهذه كانت بعض الدروس والعبر المستفادة من المناظرة؛ لعلها تنير لنا الطريق لاسيما في خضم هذه الأحداث المتلاحقة والفتن المختلفة.

ثم خرج أمير المؤمنين علي بنفسه إليهم فكلمهم فرجعوا ودخلوا الكوفة, إلا أن هذا الوفاق لم يستمر طويلًا؛ بسبب أن الخوارج فهموا من علي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أنه رجع عن التحكيم وتاب من خطيئته.

ثم تدهورت الأمور وتأزمت، فكانت معركة النهروان (٣٨ هـ-٦٥٨م) بين أمير المؤمنين علي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وبين الخوارج[١]، وسبب المعركة أن أمير المؤمنين علي اشترط على الخوارج أن لا يسفكوا دمًا, ولا يروعوا آمنًا, ولا يقطعوا سبيلًا, ونظرًا لأن الخوارج يكفِّرون مَن خالفهم ويستبيحون دمه وماله, فقد بدأواْ بسفك الدماء المحرمة في الإسلام, وقد تعددت الروايات في ارتكابهم المحظورات, وكان أمير المؤمنين علي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يدرك أن هؤلاء القوم هم الخوارج الذين عناهم رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بالمروق من الدين, لذلك أخذ يحث أصحابه أثناء مسيرهم

(١) «تاريخ بغداد» (١/ ٢٠٥،٢٠٦).

إليهم ويحرضهم على قتالهم, فقد كان ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ يحث جيشه على البدء بهؤلاء الخوارج, فقال: «أيها الناس إني سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: **«يخرج قوم من أمتي يقرؤون القرآن, ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء, ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء, ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء, يقرؤون القرآن, يحسبون أنه لهم وهو عليهم, لا تجاوز صلاتهم تَرَاقِيهِم, يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية»**(١). وقال ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ في يوم النهروان: «أمرت بقتال المارقين، وهؤلاء المارقون»(٢).

وعسكر الجيش في مقابلة الخوارج يفصل بينهما نهر النهروان, وأمر عليٌّ جيشه أن لا يبدؤوا بالقتال, حتى يجتاز الخوارج النهر غربًا, وأرسل علي ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ رسله يناشدهم الله ويأمرهم أن يرجعوا, وأرسل إليهم البراء بن عازب ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ يدعوهم ثلاثة أيام فأبوا(٣), ولم تزل رسله تختلف إليهم حتى قتلوا رسله, واجتازوا النهر(٤), وعندما بلغ الخوارج هذا الحد وقطعوا الأمل في كل محاولات الصلح وحفظ الدماء, ورفضوا عنادًا واستكبارًا العودة إلى الحق وأصروا على القتال, قام أمير المؤمنين بترتيب الجيش, وتهيئته للقتال وزحف الخوارج إلى علي, وقدم علي بين يديه الخيل, وقدم منهم الرماة، وصف الرجالة وراء الخيالة, وقال لأصحابه: «كفوا عنهم حتى يبدأوكم», وأقبلت الخوارج يقولون: «لا حكم إلا لله, الرواح الرواح إلى الجنة», وبدأ القتال فاستقبلهم الرماة بالنبل, فرموا وجوههم,

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤) في صحيحيهما.
(٢) «السنة» لابن أبي عاصم (٢/ ٤٣٠).
(٣) «السنن الكبرى» (٨/ ١٩٧).
(٤) «المصنف» (١٥/ ٣٢٥ - ٣٢٧).

وعطفت عليهم الخيالة من الميمنة والميسرة, ونهض إليهم الرجال بالرماح والسيوف, فأناموا الخوارج فصاروا صرعى وقُتل أمراؤهم(١).

وقد كانت معركة حاسمة وقصيرة أخذت وقتًا من اليوم التاسع من شهر صفر من عام ثمان وثلاثين للهجرة, وأسفرت هذه المعركة الخاطفة عن عدد كبير من القتلى في صفوف الخوارج, وكان الحال على عكس ذلك تمامًا في جيش أمير المؤمنين علي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - , فقتلى أصحاب علي فيما رواه مسلم في صحيحه, عن زيد بن وهب: «رجلان فقط»(٢). وفي رواية: «وقتل من أصحاب علي اثنا عشر أو ثلاثة عشر»(٣).

ثم وافق أمير المؤمنين علي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - في سنة أربعين للهجرة بعد الاتفاق الذي تم بين الطرفين بشكل مؤقت أن يكون لمعاوية بن أبي سفيان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - الشام على أن يكون العراق له، ولا يدخل أحدهما على صاحبه في عمله بجيش ولا غارة ولا غزو، وذلك بعد ما جرت بين علي ومعاوية المهادنة بعد مكاتبات جرت بينهما(٤).

وكان أمير المؤمنين - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قد تنغصت عليه الأمور، واضطرب عليه جيشه، وخالفه أهل العراق، ونكلوا عن القيام معه، وقد كان أهل الشام بعد التحكيم يسمون معاوية الأمير، وكلما ازداد أهل الشام قوة، ضعف جأش أهل العراق، هذا وأميرهم علي بن أبي طالب خير أهل الأرض في ذلك الزمان؛ أعبدهم وأزهدهم، وأعلمهم وأخشاهم لله - عَزَّوَجَلَّ - ، ومع هذا كله خذلوه وتخلوا عنه حتى كره الحياة وتمنى الموت، وذلك لكثرة الفتن وظهور المحن، فكان يكثر أن

(١) «أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - » (ص ٤٣٤). نقلًا عن «تاريخ الخلافة الراشدة» (ص ٤٢٥)، و«تاريخ الدولة العربية» (ص ٣٣٣).

(٢) رواه مسلم (١٠٦٦). باب: التحريض على قتل الخوارج.

(٣) «المصدر السابق» (٥/ ٣١١).

(٤) «تاريخ الرسل والملوك» (٦ - ٥٦).

يقول: «ما يحبس أشقاها»، أي ما ينتظر؟ ما له لا يقتل؟[١] وكان علي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ في هذا التوقيت يتوجه إلى الله بالدعاء، ويطلب منه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن يعجل منيته، وقال يومًا: «اللَّهم إني قد سئمتهم وسئموني، ومللتهم وملوني، فأرحني منهم وأرحهم مني، فما يمنع أشقاكم أن يخضبها بدم»، ووضع يده على لحيته[٢].

وتفيد بعض الروايات أن عليًّا ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ كان على علم مسبق من رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ بأنه سيموت مقتولًا، وهو من الشهداء بنص أحاديث رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ، وقد جمع البيهقي هذه الروايات في كتاب: «دلائل النبوة»، وجمعها الحافظ ابن كثير في كتابه: «البداية والنهاية»[٣].

فعن علي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: «عهد إِلَيَّ رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ أن لا أموت حتى تخضب هذه ـ يعني لحيته ـ من دم هذه ـ يعني هامته ـ»[٤].

لقد تركت معركة النهروان في نفوس الخوارج جرحًا غائرًا، فاتفق نفر منهم على أن يفتكوا بعلي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ، ويثأروا لمن قُتل من إخوانهم في النهروان، فاجتمع عبد الرحمن بن ملجم الكندي، وكان في وجهه علامة السجود من كثرة العبادة، وكان معروفًا بها، والبُرك بن عبد الله، وعمرو بن بكر التيمي، فتذاكروا أمر الناس، وعابوا على ولاتهم، ثم ذكروا أهل النهر فترحموا عليهم، وقالوا: «ما نصنع بالبقاء بعدهم شيئًا، إخواننا الذين كانوا دعاة الناس لعبادة ربهم، والذين كانوا لا يخافون في الله لومة لائم، فلو شرينا أنفسهم فأتينا أئمة الضلالة فالتمسنا قتلهم فأرحنا منهم

---

(١) «البداية والنهاية» (٣٥٨/٧).

(٢) «المصنف» (١٠/ ١٥٤) بإسنادٍ صحيحٍ، «الطبقات» (٣/ ٤) بسندٍ صحيحٍ.

(٣) «دلائل النبوة» (٦/ ٤٣٨ – ٤٤١)، «البداية والنهاية» (٧/ ٣٢٣ – ٣٢٥).

(٤) «دلائل النبوة» (٦ / ٤٣٨)، والحديث في مسند أحمد (١ / ١٠٢) بسندٍ صحيحٍ.

البلاد، وثأرنا بهم إخواننا»، فقال ابن ملجم: «أنا أكفيكم علي بن أبي طالب ـ وكان من أهل مصر ـ »، وقال البرك بن عبد الله: «وأنا أكفيكم معاوية»، وقال عمرو ابن أبي بكر: «وأنا أكفيكم عمرو بن العاص»، فتعاهدوا وتواثقوا بالله لا ينكص رجل منا عن صاحبه الذي توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه، فأخذوا أسيافهم، فسموها واتعدوا لسبع عشرة تخلو من رمضان أن يثب كل واحد منهم على صاحبه الذي توجه إليه، وأقبل كل رجل منهم إلى المصر الذي صاحبه فيه يطلب.

ودخل شهر رمضان فواعدهم ابن ملجم ليلة الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت[1]، وقال: هذه الليلة التي واعدت أصحابي فيها أن يثأروا بمعاوية وعمرو ابن العاص، فجاء هؤلاء الثلاثة ـ وهم ابن ملجم، ووردان، وشبيب ـ وهم مشتملون على سيوفهم فجلسوا مقابل السدة التي يخرج منها علي، وانتظر عبد الرحمن ابن ملجم في فجر هذا اليوم حتى خرج علي بن أبي طالب ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ من بيته لصلاة الفجر، وأخذ يمرّ على الناس يوقظهم للصلاة، وكان لا يصطحب معه حراسًا، حتى اقترب من المسجد فضربه شبيب بن نجدة ضربة وقع منها على الأرض، لكنه لم يمت منها، فأمسك به ابن ملجم، وضربه بالسيف المسموم على رأسه، فسالت الدماء على لحيته، ولما ضربه ابن ملجم قال: «لا حكم إلا لله ليس لك يا علي ولا لأصحابك، وجعل يتلو قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ [البقرة: ٢٠٧]». ونادى علي: «عليكم به»، وهرب وردان فأدركه رجل من حضرموت فقتله، وذهب شبيب فنجا بنفسه وفات الناس، ومسك ابن ملجم وقدَّم علي جعدة بن هبيرة بن أبي وهب فصلى بالناس صلاة الفجر، وحمل

---

(١) «الكامل في التاريخ» (٣-٢٠)، و«البداية والنهاية» (٧/٣٥٦).

علي إلى منزله، وحمل إليه عبد الرحمن بن ملجم فأوقف بين يديه وهو مكتوف ـ قبحه الله ـ فقال له: «أي عدو الله ألم أحسن إليك؟ قال: بلى. قال: فما حملك على هذا. قال: شحذته أربعين صباحًا وسألت الله أن يقتل به شر خلقه، فقال له علي: لا أراك إلا مقتولًا به، ولا أراك إلا من شر خلق الله»، ثم قال: «إن مت فاقتلوه وإن عشت فأنا أعلم كيف أصنع به»، فقال جندب بن عبد الله: «يا أمير المؤمنين إن مت نبايع الحسن؟ فقال: لا آمركم ولا أنهاكم، أنتم أبصر».

ولما احتضر علي جعل يكثر من قول: «لا إله إلا الله»، لا يتلفظ بغيرها. وقد قيل: إن آخر ما تكلم به: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨][(١)]. وقد أوصى ولديه الحسن والحسين بتقوى الله، والصلاة والزكاة، وكظم الغيظ، وصلة الرحم، والحلم عن الجاهل، والتفقه في الدين، والتثبيت في الأمر، والتعاهد للقرآن، وحسن الجوار، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واجتناب الفواحش، ووصاهما بأخيهما محمد ابن الحنفية، ووصاه بما وصاهما به، وأن يعظمهما ولا يقطع أمرًا دونهما، وكتب ذلك كله في كتاب وصيته ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه ـ وقد غسله ابناه الحسن والحسين، وعبد الله بن جعفر، وصلى عليه الحسن[(٢)].

ولما جاء خبر مقتل علي إلى معاوية جعل يبكي، فقالت له امرأته: «أتبكيه وقد قاتلته؟ فقال: ويحك إنك لا تدرين ما فقد الناس من الفضل والفقه والعلم»[(٣)].

---

(١) «الطبقات» (٣ / ٣٨)، «تاريخ الرسل والملوك» (٦ –٨٥).

(٢) «الطبقات» (٣/ ٣٣٧، ٣٣٨).

(٣) «البداية والنهاية» (٨/ ١٣٣). وهذا يدل على إنصاف الصحابة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ وأنهم مع اختلافهم لكنهم، لا ينكرون فضل أحد، فرغم ما حدث بينهم إلا أنهم يعرفون فضل بعضهم على بعض ولا ينكرونه، ولا يحملهم ما جرى ووقع بينهم على ألا يعدلوا، فعَن عبد الرَّحْمَنِ

وكانت مدة خلافة علي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ على قول خليفة بن خياط «أربع سنين وتسعة أشهر وستة أيام»، ويقال: ثلاثة أيام، ويقال: أربعة عشر يومًا.

فكانت وفاته شهيدًا في شهر رمضان يوم الجمعة لسبع عشرة خلت منه(١). وقيل: في اليوم الحادي والعشرين من شهر رمضان عام أربعين للهجرة(٢). وأما معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ فقد انتظره البرك بن عبد الله الذي تعهد بقتله في نفس التوقيت، وضربه بالسيف المسموم، فتجنّبه معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ فأصاب فخذه، فحمله الناس إلى بيته، وقبضوا على البرك بن عبد الله، وداوى الناس معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ فشفاه الله، ولم يمت من هذه الضربة، أما عمرو بن العاص فذهب إليه عمرو بن بكر المتعهد بقتله، وانتظر خروجه لصلاة الصبح، ولكن سبحان من بيده ملكوت كل شيء، كان مريضًا في هذا اليوم، فعهد بالصلاة إلى نائبه خارجة، فلما خرج إلى الصلاة ظنّه الرجل عمرو بن العاص، فذهب إليه وقتله، فأمسكوا به وقتلوه به، ونجّى الله عمرو بن العاص منه، وقال الناس: «أراد عمرًا وأراد الله خارجة». فصارت مثلًا لمن أراد شيئًا وأراد الله شيئًا غيره.

ابْن مَعْقِلٍ، قَالَ: «صَلَّيْتُ مَعَ عَلِيٍّ صَلَاةَ الْغَدَاةِ، قَالَ: فَقَنَتَ، فَقَالَ فِي قُنُوتِهِ: «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِمُعَاوِيَةَ وَأَشْيَاعِهِ، وَعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ وَأَشْيَاعِهِ، وَأَبِي السُّلَمِيِّ وَأَشْيَاعِهِ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ وَأَشْيَاعِهِ» «مصنف ابن أبي شيبة». وقال شيخ الإسلام معلقًا على هذا الأثر: «وَقِيلَ: إِنَّ كُلَّ طَائِفَةٍ كَانَتْ تَقْنُتُ عَلَى الْأُخْرَى. وَالْقِتَالُ بِالْيَدِ أَعْظَمُ مِنَ التَّلَاعُنِ بِاللِّسَانِ، وَهَذَا كُلُّهُ سَوَاءٌ كَانَ ذَنْبًا أَوِ اجْتِهَادًا: مُخْطِئًا أَوْ مُصِيبًا، فَإِنَّ مَغْفِرَةَ اللَّهِ وَرَحْمَتَهُ تَتَنَاوَلُ ذَلِكَ بِالتَّوْبَةِ، وَالْحَسَنَاتِ الْمَاحِيَةِ، وَالْمَصَائِبِ الْمُكَفِّرَةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ». «منهاج السنة» (٤/٤٦٩). وقد سمع عمار بن ياسر رجلًا بجواره يقول: «كفر أهل الشام». فنهاه عمار عن ذلك وقال: «إنما بغوا علينا، فنحن نقاتلهم لبغيهم؛ فإلهنا واحد، ونبينا واحد، وقبلتنا واحدة».

(١) «تاريخ الرسل والملوك» (٥ /١٤٣).

(٢) «التاريخ الكبير» (١/ ٩٩) بسندٍ صحيحٍ.

وبعد مقتل علي بن أبي طالب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أصبح المسلمون بلا خليفة، وبدأ المسلمون يفكرون في اختيار خليفة لهم(١).

ثانيًا: بيعة الحسن بن علي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -:

لما ظهر من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - علامات الوداع ومفارقة الدنيا، قال له بعض من كانوا حوله: «فاستخلف علينا. قال: لا، ولكن أترككم إلى ما ترككم إليه رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - . قالوا: فما تقول لربك إذا أتيته؟ قال: أقول: اللّٰهم تركتني فيهم ما بدا لك، ثم قبضتني إليك وأنت فيهم، فإن شئت أصلحتهم، وإن شئت أفسدتهم»(٢). وفي رواية: أقول: «اللّٰهم استخلفتني فيهم ما بدا لك، ثم قبضتني وتركتك فيهم»(٣). فلما مات جاء الناس وبايعوا ولده الحسن بن علي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - ، وكان أول من بايع الحسن(٤): قيس بن سعد، قال له: ابسط

---

(١) «الأخبار الطوال» (ص ٢١٣)، «البداية والنهاية» (٧/ ٣٦١).

(٢) «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد» (٩/ ١٣٩) وانظر: «المسند» وقال شعيب الأرنؤوط في تحقيق شرح مشكل الآثار للطحاوي: «سنده حسن في الشواهد»، وضعفه عطية الرازي في تحقيق كتاب «السنة» لأبي بكر الخلال.

(٣) «كشف الأستار عن زوائد البزار» (٣/ ٢٠٤).

(٤) هو أبو محمد الحسن بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف الهاشمي القرشي، المدني الشهيد، فهو سبط رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وريحانته من الدنيا وهو سيد شباب أهل الجنة، فهو ابن السيدة فاطمة بنت رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وأبوه أمير المؤمنين علي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، وحفيد أم المؤمنين خديجة، وخامس الخلفاء الراشدين. ولد - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه - في رمضان سنة ثلاث من الهجرة النبوية على الصحيح. وقيل: ولد في شعبان. وقيل: ولد بعد ذلك. انظر: «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٢٤٦). عن بُريدة الأسلمي كانَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ يخطُبُنا إذ جاءَ الحسنُ والحُسَيْنُ عليهما قميصانِ أحمرانِ يمشيانِ ويعثُرانِ ، فنزلَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ منَ المنبرِ فحملَهُما ووضعَهُما بينَ يديهِ ، ثمَّ قالَ : صدقَ اللَّهُ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ

يدك أبايعك على كتاب الله ـ عَزَّوَجَلَّ ـ، وسنة نبيه، وقتال المُحلِّين. فقال له الحسن ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ: على كتاب الله وسنة نبيه، فإن ذلك يأتي من وراء كل شرط»، فبايعه وسكت، وبايعه الناس(١).

وقد اشترط الحسن بن علي على أهل العراق عندما أرادوا بيعته فقال لهم: «إنكم سامعون مطيعون، تسالمون من سالمت، وتحاربون من حاربت»(٢). وفي رواية ابن سعد: «إن الحسن بن علي أبي طالب بايع أهل العراق بعد علي على بيعتين: بايعهم على الإمرة، وبايعهم على أن يدخلوا فيما دخل فيه ويرضوا بما رضي به»(٣).

ويستفاد من الروايات السابقة ابتداء الحسن ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ في التمهيد للصلح فور استخلافه، وقد استمر أمير المؤمنين الحسن بن علي بعد بيعته، خليفة على الحجاز، واليمن، والعراق، وغير ذلك نحو سبعة أشهر. وقيل: ثمانية أشهر. وقيل: ستة أشهر. وكانت خلافته هذه المدة خلافة راشدة حقة؛ لأن هذه المدة كانت تتمة لمدة الخلافة الراشدة التي أخبر النبي ـ ﷺ ـ أن مدتها ثلاثون سنة، فقد روى

وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ نظرتُ إلى هذينِ الصَّبيَّينِ يمشيانِ ويعثُرانِ فلم أصبِر حتَّى قطعتُ حديثي ورفعتُهُما(صحيح الترمذي وأخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه ، وأحمد) (يَسْقُطانِ على الأرضِ لصِغَرِهما ويَقومانِ).

(١) «تاريخ الرسل والملوك» (٦/ ٧٣).

(٢) «المصدر السابق» (٦/ ٧٧).

(٣) «الطبقات» (١/ ٢٨٦، ٢٨٧).

الترمذي بإسناده إلى سفينة مولى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك»(١).

(١) وعند الإمام أحمد من حديث سفينة أيضًا بلفظ: «الخلافة ثلاثون عامًا ثم يكون بعد ذلك الملك»، وعند أبي داود بلفظ: «خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم يؤتي الله الملك من يشاء أو ملكه من يشاء».

ولم يكن في الثلاثين بعده ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا الخلفاء الأربعة وأيام الحسن، وقد قرر جمع من أهل العلم عند شرحهم لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «الخلافة في أمتي ثلاثون سنة» أن الأشهر التي تولى فيها الحسن ابن علي بعد موت أبيه كانت داخلة في خلافة النبوة ومكملة لها، فقد قال أبو بكر بن العربي ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ: «فنفذ الوعد الصادق في قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ »: «الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ثم تعود ملكًا»، فكانت لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وللحسن منها ثمانية أشهر لا تزيد ولا تنقص يومًا، فسبحان المحيط لا رب غيره». وقال القاضي عياض: «لم يكن في ثلاثين سنة إلا الخلفاء الراشدون الأربعة، والأشهر التي بويع فيها الحسن بن علي... والمراد من حديث: «الخلافة ثلاثون سنة»، خلافة النبوة وقد جاء مفسرًا في بعض الروايات: «خلافة النبوة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكًا». وقال الحافظ بن كثير ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ: «والدليل على أنه أحد الخلفاء الراشدين: الحديث الذي أوردناه في «دلائل النبوة» من طريق سفينة مولى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكًا»، وإنما كملت الثلاثون بخلافة الحسن بن علي»، وقال شارح الطحاوية: «وكانت خلافة أبي بكر الصديق سنتين وثلاثة أشهر، وخلافة عمر عشر سنين ونصفًا، وخلافة عثمان اثنتي عشرة سنة، وخلافة علي أربع سنين وتسعة أشهر، وخلافة الحسن ستة أشهر». وقال المناوي بعد ذكره لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : **«ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»**، قال: «وكان ذلك فلما بويع له بعد أبيه وصار هو الإمام الحق مدة ستة أشهر تكملة للثلاثين سنة التي أخبر المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنها مدة الخلافة وبعدها يكون ملكًا عضوضًا». انظر: «تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي» (٦/ ٣٩٥ – ٣٩٧)، و«البداية والنهاية» (١١/ ١٣٤)، «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ٨٧٩)، «سنن أبي داود» (٢/ ٥١٥).

ثالثًا: الصلح بين الحسن بن علي ومعاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ:

بويع الحسن ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ، وبايعه الأمراء الذين كانوا مع والده، وكل الناس الذين بايعوا لأمير المؤمنين علي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ، وباشر سلطته كخليفة، فرتب العمال وأمّر الأمراء وجند الجنود وفرق العطايا، وزاد المقاتلة في العطاء، وكان في وسعه أن يخوض حربًا لا هوادة فيها ضد معاوية، وكانت شخصيته الفذة من الناحية السياسية، والعسكرية، والأخلاقية، والدينية تساعد على ذلك مع وجود عوامل أخرى، كوجود قيس بن سعد بن عبادة، وحاتم بن عدي الطائي، وغيرهما من قادة المسلمين الذين لهم من القدرات القيادية الشيء الكثير، إلا أن الحسن بن علي مال إلى السلم والصلح لحقن الدماء، وتوحيد الأمة، ورغبة فيما عند الله وزهدًا في الملك، وغير ذلك من الأسباب.

وقد قاد الحسن بن علي مشروع الإصلاح الذي توّج بوحدة الأمة، وظل زمام الموقف في جانبه وبيده ويد أنصاره، وكانت جبهته العسكرية قوية كما جاء في رواية البخاري، وقد عبر عن ذلك عمرو بن العاص عندما قال: «إني لأرى كتائب لا تولي حتى تقتل أقرانها»(١)، وقال الحسن بن علي: «كانت جماجم العرب بيدي تحارب من حاربت، وتسالم من سالمت»(٢)، ولكن الحسن كان ذا خلق يجنح إلى السلم، وكراهة الفتنة، ونبذ الفرقة(٣).

---

(١) رواه البخاري (٢٧٠٤).

(٢) «المستدرك» (٣/ ١٧٠).

(٣) قال ابن تيمية: «فقد كان بمقدور الحسن أن يقاتل معاوية بمن كان معه وإن كان أقل ممن كان مع معاوية، صنيع الذين قاتلوا خصومهم على قلة من كان معهم من الأعوان والأنصار، ولكن الحسن كان ذا خلق يجنح إلى السلم، وكراهة الفتنة، ونبذ الفرقة، جعل الله به رأب الصدع، وجمع الكلمة». انظر: «منهاج السنة» (٤/ ٥٣٦).

وهذا الفعل من الحسن يعد علمًا من أعلام النبوة، والحجة في ذلك ما أخرجه البخاري من طريق أبي بكرة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: رأيت رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ على المنبر، والحسن بن علي إلى جنبه ـ وهو يقبل على الناس مرة وعليه أخرى، ويقول: **«إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»**[(١)].

إن صلح الحسن مع معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ من الأحداث العظام في تاريخ الأمة الإسلامية، فمن ثمار هذا الصلح: حقن دماء المسلمين، وجمع كلمتهم على إمام واحد بعد سنوات من الفرقة.

ويُعد الحسن ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ أول خليفة يتنازل عن منصبه ويخلع نفسه طواعية، دون إجبار من أحد، وذلك مع قدرته على أن يستمر في الحكم، ولكن الحسن كان ينظر إلى المصلحة العامة للأمة، ويريد جمع شتاتها، وتوحيد كلمتها، وبعد أن كشف الحسن عن نيته في الصلح مع معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ وقعت المحاولة الأولى لاغتياله ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ، وهذه المحاولة يبدو أنها قد جرت بعد استخلافه بقليل، فإن الحسن بن علي لما استخلف بعد مقتل علي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ، بينما هو يصلي إذ وثب عليه رجل فطعنه بخنجر ـ وزعم حصين بن عبد الرحمن السلمي أنه بلغه أن الذي طعنه رجل من بني أسد ـ والحسن ساجد، قال حصين: «وعمي أدرك ذلك»، قال: «فيزعمون أن الطعنة وقعت في وَرِكِهِ فمرض منها أشهرًا ثم برئ»، فقعد على المنبر فقال: «يا أهل العراق اتقوا الله فينا، فإنا أمراؤكم وضيفانكم، أهل البيت الذين قال الله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ

(١) رواه البخاري (٧١٠٩).

تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، قال: فما زال يقول ذلك حتى ما رُئي أحد من أهل المسجد إلا وهو يخن[(١)] بكاء»[(٢)].

خروج الحسن ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ بجيش العراق من الكوفة إلى المدائن:

بعد أن بايع أهل العراق الحسن بن علي، قالوا له: «سر إلى هؤلاء القوم الذين عصوا الله ورسوله، وارتكبوا العظيم وابتزوا[(٣)] الناس أمورهم، فإنا نرجو أن يمكن الله منهم»، فسار الحسن إلى أهل الشام، وجعل على مقدمته قيس بن سعد ابن عبادة[(٤)] في اثني عشر ألفًا[(٥)].

وبهذا يتضح أن أهل العراق هم الذين دفعوا الحسن ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ إلى الخروج لقتال أهل الشام من غير رغبة منه، وهذا الأمر قد أشار إليه ابن كثير ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ بقوله: «ولم يكن في نية الحسن أن يقاتل أحدًا، ولكن غلبوه على رأيه، فاجتمعوا اجتماعًا عظيمًا لم يُسمع بمثله، فأمّر الحسن بن علي، قيس بن سعد بن عبادة على المقدمة في

---

(١) الخنين: البكاء في الأنف. «القاموس المحيط» (ص ١٥٤١).

(٢) «الطبقات» (١/ ٣٢٣).

(٣) الابتزاز: أخذ الشيء بجفاء وقهر. وهو مصدر اِبْتَزَّ. والابتزاز: الحصول على المال أو المنافع من شخص تحت التَّهديد بفضح بعض أسراره أو غير ذلك. وَيُقَالُ: «ابْتَزَّ الرجلُ جاريتَهُ مِنْ ثِيَابِهَا إذا جَرَّدَها» «المعجم الوسيط»، «لسان العرب» (٥/٣١٢).

(٤) قيس بن سعد بن عباده بن دليم بن بني ساعدة الأنصاري الخزرجي، صحابي جليل وابن صحابي، شهد المشاهد مع رسول الله، وكان سخيًّا كريمًا، داهية، صاحب رأي ومكيدة في الحرب، وكان من النبي بمنزلة صاحب الشرطة من الأمير، شهد فتح مصر واختط بها دارًا. وتولى إمارتها لعلي، ولما عزله علي قدم الكوفة وكان معه، وشهد صفين وبقي في الكوفة حتى مقتل علي ثم كان مع الحسن. ولما صالح معاوية رجع قيس إلى المدينة وبقي فيها حتى مات في آخر خلافة معاوية. «طبقات ابن سعد» (٦/ ٥٢)، «الإصابة» (٥/ ٤٧٣).

(٥) «الطبقات» (١/ ٣١٩ - ٣٢١).

اثني عشر ألفًا بين يديه، وسار هو بالجيوش في أثره قاصدًا بلاد الشام، فلما اجتاز بالمدائن نزلها وقدم المقدمة بين يديه، وقد أظهر الحسن حِنْكَة كبيرة دلت على سعة أفقه ودهائه وبصيرته، عندما لم يشأ أن يواجه أهل العراق من البداية بميله إلى مصالحة معاوية وتسليمه الأمر؛ لأنه يعرف خفتهم وتهورهم، فأراد أن يقيم من مسلكهم الدليل على صدق نظرته فيهم، وعلى سلامه ما اتجه إليه، فوافقهم على المسير لحرب معاوية وعبأ جيشه»(١).

خروج معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ من الشام إلى العراق:

بعد أن وصل خبر خروج الحسن من الكوفة إلى المدائن بجيوشه، أقبل معاوية في أهل الشام يريد الحسن حتى نزل جسر منبج(٢)، ثم أقبل من جسر منبج إلى مسكن(٣) في خمسة أيام وقد دخل يوم السادس، وقد تأخر خروج معاوية وكان ذلك بعد سماعه لخروج الحسن بجيوشه، وكان معاوية قد أصيب إصابة بليغة من جراء محاولة الاغتيال التي تعرض لها من قِبَلْ الخارجي البرك بن عبد الله التميمي حين خرج لصلاة الفجر، وهي المحاولةَ التي نفذت في نفس فجر اليوم الذي اغتيل فيه علي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ، وهو فجر يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان عام (٤٠هـ) على الصحيح المشهور من الأقوال(٤)، وقد أشار الخلاَّل إلى شدة إصابة معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ في الرواية التي أخرجها من طريق جُنْدُبٍ، قَالَ: «كُنَّا مَعَ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ فِي رَكْبٍ فَنَزَلَ سَعْدٌ وَنَزَلْتُ، وَاغْتَنَمْتُ نُزُولَهُ، قَالَ:

---

(١) «البداية والنهاية» (١١/ ١٣٢).

(٢) جسر منبج: قرية في الجزيرة الفراتية. «الطبقات» (١/ ٣٢١).

(٣) مسكِن ـ بكسر الكاف ـ : موضع على نهر دجيل عند دير الجاثليق به كانت الوقعة بين عبد الملك ابن مروان ومصعب بن الزبير سنة ٧٢ هـ. «معجم البلدان» (٥/ ١٢٧).

(٤) «البداية والنهاية» (١١/ ١٣١).

فَجَعَلْتُ أَمْشِي إِلَى جَانِبِهِ، فَحَمِدْتُ اللَّهَ، وَأَثْنَيْتُ عَلَيْهِ، وَقُلْتُ: إِنَّ مُعَاوِيَةَ طعن طَعْنَا بَيْنَنَا لَا أُرَاهَا إِلَّا قَاتِلَتُهُ، وَإِنَّ النَّاسَ(١) قَاتِلُونَ بَقِيَّةَ أَصْحَابِ الشُّورَى وَبَقِيَّةَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ـ ﷺ ـ، فَأَنْشُدُكَ اللَّهَ إِنْ وُلِّيتَ شيئًا مِنْ أَمْرِهِمْ، أَوْ تَشُقُّ عَصَاهُمْ، وَأَنْ تُفَرِّقَ جَمْعَهُمْ، أَوْ تَدعَهُمْ إِلَى أَمْرِ هَلَكَةٍ. فَحَمِدَ سَعْدٌ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، فَوَاللَّهِ لَا أَشُقُّ عَصَاهُمْ، وَلَا أُفَرِّقُ جَمْعَهُمْ، وَلَا أَدْعُهُمْ إِلَى أَمْرِ هَلَكَةٍ حَتَّى يَأْتُونِي بِسَيْفٍ. يَقُولُ: يَا سَعْدُ، هَذَا مُؤْمِنٌ فَدَعْهُ، وَهَذَا كَافِرٌ فَاقْتُلْهُ». قَالَ جُنْدُبٌ: فَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ فِي شَيْءٍ مِمَّا غيرا»(٢).

وبينما الحسن في المدائن، إذ نادى منادٍ من أهل العراق: «إن قيسًا قد قتل، وهنا دبت الفوضى في الجيش، وعادت إلى أهل العراق طبيعتهم في عدم الثبات، فاعتدوا على سرادق الحسن ونهبوا متاعه حتى إنهم نازعوه بساطًا كان تحته، وطعنوه وجرحوه!؛ علمًا بأن خبر مقتل قيس بن سعد لم يكن صحيحًا.

وهنا حدثت حادثة لها دلالة كبيرة، فقد كان والي المدائن من قبل علي، سعد ابن مسعود الثقفي، فأتاه ابن أخيه المختار بن أبي عبيد بن مسعود، وكان شابًا، فقال له: هل لك في الغنى والشرف؟ قال: وما ذاك؟ قال: توثق الحسن، وتستأمن به إلى معاوية! فقال له عمه: عليك لعنة الله، أثب على ابن بنت رسول الله ـ ﷺ ـ فأوثقه، بئس الرجل أنت»(٣)، فلما رأي الحسن صنع أصحابه أيقن أنه لا فائدة منهم، ولا نصر يرجى على أيديهم، وهذه كانت قناعته منذ البداية، فدفعه ذلك إلى قطع خطوات أوسع، والاقتراب أكثر من الصلح.

---

(١) يقصد الخوارج.

(٢) «السنة» (٢/ ٤٧٠).

(٣) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/ ١٦٠)، «تاريخ الدولة العربية» (ص ٣٦٣).

وقوع الصلح بين الحسن ومعاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ:

لقد سجلت لنا صفحات التاريخ تلك اللحظات الحرجة من تاريخ الأمة المسلمة حين التقى الجمعان: جَمْعُ أهل الشام وجمع أهل العراق، وذلك في الرواية التي أخرجها البخاري من طريق الحسن البصرى، قال: «اسْتَقْبَلَ وَاللَّهِ الحَسَنُ ابْنُ عَلِيٍّ مُعَاوِيَةَ بِكَتَائِبَ أَمْثَالِ الجِبَالِ، فَقَالَ عَمْرُو بْنُ العَاصِ: إِنِّي لَأَرَى كَتَائِبَ لَا تُوَلِّي حَتَّى تَقْتُلَ أَقْرَانَهَا، فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ ـ وَكَانَ وَاللَّهِ خَيْرَ الرَّجُلَيْنِ ـ: أَيْ عَمْرُو إِنْ قَتَلَ هَؤُلَاءِ هَؤُلَاءِ، وَهَؤُلَاءِ هَؤُلَاءِ مَنْ لِي بِأُمُورِ النَّاسِ؟! مَنْ لِي بِنِسَائِهِمْ؟! مَنْ لِي بِضَيْعَتِهِمْ؟! فَبَعَثَ إِلَيْهِ رَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ مِنْ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ: عَبْدَ الرَّحْمَنِ ابْنَ سَمُرَةَ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَامِرِ بْنِ كُرَيْزٍ، فَقَالَ: اذْهَبَا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ، فَأَعْرِضَا عَلَيْهِ، وَقُولَا لَهُ، وَاطْلُبَا إِلَيْهِ، فَأَتَيَاهُ فَدَخَلَا عَلَيْهِ فَتَكَلَّمَا، وَقَالَا لَهُ فَطَلَبَا إِلَيْهِ. فَقَالَ لَهُمَا الحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ: إِنَّا بَنُو عَبْدِ المُطَّلِبِ، قَدْ أَصَبْنَا مِنْ هَذَا المَالِ، وَإِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ قَدْ عَاثَتْ فِي دِمَائِهَا، قَالَا: فَإِنَّهُ يَعْرِضُ عَلَيْكَ كَذَا وَكَذَا، وَيَطْلُبُ إِلَيْكَ وَيَسْأَلُكَ قَالَ: فَمَنْ لِي بِهَذَا، قَالَا: نَحْنُ لَكَ بِهِ، فَمَا سَأَلَهُمَا شيئًا إِلَّا قَالَا: نَحْنُ لَكَ بِهِ، فَصَالَحَهُ[(١)].

---

(١) (بكتائب): جمع كتيبة وهي الجيش. ويقال: الكتيبة ما جمع بعضها إلى بعض. (أقرانها): جمع قرن وهو الكفء والنظير في الشجاعة والحرب. (خير الرجلين): من كلام الحسن البصري وقع معترضًا بين قوله: «قال له معاوية» وبين قوله: «أي عمرو» وأراد بالرجلين: معاوية وعمرًا، وأراد بخيرهما: معاوية. وقال ذلك؛ لأن عمرًا كان أشد من معاوية في الخلاف مع الحسن ابن علي ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ. (بضيعتهم): أي من يقوم بأطفالهم وضعفائهم الذين لو تركوا بحالهم لضاعوا؛ لعدم قدرتهم على الاستقلال بالمعاش. (أصبنا من هذا المال): أي أيام الخلافة حصل لدينا مال كثير وصارت عادتنا الإنفاق على الأهل والحاشية، فإن تركنا هذا الأمر قطعنا عادتنا. (عاثت): قتل بعضها بعضًا فلا يكفون إلا بالمال. (فمن لي بهذا): يتكفل لي بالذي تذكرانه. (ابني): المراد ابن ابنته ويطلق على ولد الولد أنه ابن. انظر: «شرح وتعليق، مصطفى ديب البغا» (١٨٦/٣).

فَقَالَ الحَسَنُ: وَلَقَدْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرَةَ يَقُولُ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - عَلَى المِنْبَرِ وَالحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ إِلَى جَنْبِهِ، وَهُوَ يُقْبِلُ عَلَى النَّاسِ مَرَّةً، وَعَلَيْهِ أُخْرَى وَيَقُولُ: **«إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ المُسْلِمِينَ»**(١).

فالذي حدث من الحسن بن علي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - هو علم من أعلام النبوة، ومنقبة للحسن بن علي، فإنه ترك الملك لا لقلة، ولا لذلة، ولا لعلة، بل لرغبته فيما عند الله لما رآه من حقن دماء المسلمين، فراعى مصلحة الأمة.

وفي هذه الرواية رد على الخوارج الذين كانوا يكفرون عليًّا ومن معه، ومعاوية ومن معه، بشهادة النبي - ﷺ - للطائفتين بأنهم من المسلمين.

وفيها دلالة على رأفة معاوية بالرعية، وشفقته على المسلمين، وقوة نظره في تدبير الملك، ونظره في العواقب. وفيها جواز خلع الخليفة نفسه إذا رأي في ذلك صلاحًا للمسلمين(٢).

وفي رواية: «أن معاوية كان يعلم أن الحسن أكره الناس للفتنة، فلما توفي علي بعث معاوية إلى الحسن، فأصلح الذي بينه وبينه سرًّا، وأعطاه معاوية عهدًا إن حدث به حدث والحسن حي لَيُسَمِّيَنَّه(٣) وليجعلن هذا الأمر إليه»(٤). فلما توثق منه الحسن، قال ابن جعفر(٥): «والله إني لجالس عند الحسن إذ أخذت لأقوم فجذب بثوبي

---

(١) رواه البخاري (٧١٠٩).

(٢) «فتح الباري شرح صحيح البخاري» (١٣/ ٦٦).

(٣) أي يرشحه للخلافة من بعده.

(٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء(٤/ ٣٣٨).

(٥) أي: عبد الله بن جعفر.

وقال: اقعد يا هناه(١)، واجلس، فجلست قال: إني قد رأيت رأيًا وأحب أن تتابعني عليه. قال: قلت: ما هو؟ قال: قد رأيت أن أعمد إلى المدينة فأنزلها وأخلي بين معاوية وبين هذا الحديث، فقد طالت الفتنة، وسقطت فيها الدماء، وقطعت فيها الأرحام، وقطعت السبل، وعُطلت الفروج(٢). فقال ابن جعفر: جزاك الله عن أمة محمد، فأنا معك على هذا الحديث، فقال الحسن: ادع لي الحسين، فبعث إلى الحسين فأتاه فقال: يا أخي قد رأيت رأيًا، وإني أحب أن تتابعني عليه. قال: ما هو؟ قال: فقص عليه الذي قال لابن جعفر قال الحسين: أعيذك بالله أن تكذب عليًّا في قبره وتصدق معاوية. قال الحسن: والله ما أردت أمرًا قط إلا خالفتني إلى غيره، والله لقد هممت أن أقذفك في بيت فأطينه عليك حتى أقضي أمري. قال: فلما رأي الحسين غضبه، قال: أنت أكبر ولد علي(٣)، وأنت خليفته، أمرنا لأمرك تبع، فافعل ما بدا لك»(٤).

ويُلَاحَظُ من الروايتين: أن الرغبة في الصلح كانت موجودة لدى الطرفين، فقد سعى الحسن ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ إلى الصلح، وخطط له منذ اللحظات الأولى لمبايعته، ثم جاء معاوية فأكمل ما بدأه الحسن، فكان عمل كل واحد منهما مكملًا للآخر ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ.

وبعد نجاح مفاوضات الصلح بين الحسن ومعاوية ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ـ، شرع الحسن ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ في تهيئة نفوس أتباعه على تقبل الصلح الذي تم، فقام فيهم خطيبًا

(١) يا هناه: يا رجل. «لسان العرب» (١٣/ ٣٢٥).
(٢) يعنى الثغور. «لسان العرب» (٢/ ٣٤٢).
(٣) ولد الحسن عام ٣هـ، وولد الحسين عام ٤هـ، فالحسن أكبر سنًا من الحسين.
(٤) «الطبقات» (١/ ٣٣٠، ٣٣١).

ليبين لهم ما تم بينه وبين معاوية، وفيما هو يخطب هجم عليه بعض عسكره محاولين قتله، لكن الله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ أنجاه كما أنجاه من قبل.

وقد أورد البلاذري خطبة الحسن التي ألقاها في أتباعه، ومحاولة قتله ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ فقال: «إني أرجو أن أكون أنصح خلقه لخلقه، وما أنا محتمل على أحد ضغينة، ولا حقدًا، ولا مريدًا به غائلة، ولا سوءًا، ألا وإن ما تكرهون في الجماعة خير لكم مما تحبون في الفرقة، ألا وإني ناظر لكم خيرًا من نظركم لأنفسكم، فلا تخالفوا أمرى، ولا تردوا عليّ، غفر الله لي ولكم». فنظر بعض الناس إلى بعض وقالوا: «عزم والله على صلح معاوية، وضعف وخار»، وشدوا على فسطاطه، فدخلوه، وانتزعوا مصلاه من تحته، وانتهبوا ثيابه! ثم شد عليه عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي جعال الأزدى، فنزع مطرفه[١] من عاتقه، ثم تعرض للحسن الجراح بن سنان[٢]، وكان يرى رأي الخوارج، فقعد للحسن ينتظره، فلما مر الحسن ودنا من دابته فأخذ بلجامها، أخرج الجراح معولًا[٣] كان معه، وقال: «أشركت يا حسن كما أشرك أبوك من قبل»، وطعنه بالمعول في أصل فخذه، فشق في فخذه شقًا كاد يصل إلى العظم، وهذه محاولة أخرى لاغتيال الحسن ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ، وضرب الحسن وجهه، ثم اعتنقا وخرا إلى الأرض، ووثب عبد الله بن الخضل الطائي، فنزع المعول من يد الجراح، وأخذ ظبيان بن عمارة التميمي[٤] بأنفه فقطعه، وضرب بيده إلى قطعة

---

(١) مطرفه: أي رداءه. «القاموس المحيط» (١٠٧٥).

(٢) الجراح بن سنان الأسدي له سابقة في الشر، حيث كان من الذين بهتوا سعد بن أبي وقاص ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ، وسعوا في عزله في الكوفة أيام خلافة عمر، فدعا عليهم سعد، فكان لهم من سوء الخاتمة نصيب. «تاريخ الرسل والملوك» (٤/ ١٤١).

(٣) معولًا: حديدة ينقر بها الصخر. «القاموس المحيط» (ص١٣٤٠).

(٤) ظبيان بن عمارة، يروى عن علي من تابعي أهل الكوفة. «الطبقات الكبرى» (٦/ ٢٢٩).

آجرة فشدخ بها وجهه ورأسه حتى مات، وحُمل الحسن إلى المدائن، ثم إن سعد ابن مسعود أتى الحسن بطبيب، وقام عليه حتى برئ وحوَّله إلى أبيض[١] المدائن [٢].

وفي بعض الروايات: أن الحسن بن علي خطب الناس في قصر المدائن، فقال: «يا أهل العراق، لو لم تذهل نفسي[٣] عنكم إلا لثلاث خصال لذهلت: مقتلكم أبي، ومطعنكم بغلتي وانتهابكم ثقلي، أو قال: ردائي عن عاتقي، وإنكم قد بايعتموني أن تسالموا من سالمت وتحاربوا مَن حاربت، وإني قد بايعت معاوية فاسمعوا له وأطيعوا قال: ثم نزل فدخل القصر»[٤].

وهنا حدث اضطراب في مقدمة جيش العراق وهم شرطة الخميس[٥]، فقد أخرج الحاكم عن أبي الغريف[٦] قال: «كنا في مقدمة الحسن بن علي اثني عشر ألفًا، تقطر أسيافنا من الحدة على قتال أهل الشام، وعلينا أبو العمرطة[٧]، فلما أتانا صلح الحسن بن علي ومعاوية كأنما كسرت ظهورنا من الحرد[٨] والغيظ، فلما قدم

---

(١) يسمى القصر الأبيض، يقع على الضفة الشرقية لنهر دجلة. «الروض المعطار في خبر الأقطار» (ص ٩).

(٢) «جمل من أنساب الأشراف» (٣/ ٣٥).

(٣) تذهل نفسي: تسلو نفسي. «لسان العرب» (١١/ ٢٥٩).

(٤) «الطبقات» (١/ ٣٢٤).

(٥) شرطة الخميس: الخميس هو الجيش، و سمي بذلك لأنه يتكون من خمس فرق: مقدمة، وقلب، وميمنة، وميسرة، وساقة.

(٦) هو عبيد الله بن خليفة الهمداني المرادي، صدوق، رمي بالتشيع. انظر: «تقريب التهذيب» (ص ٣٧٠).

(٧) اسمه عمير بن يزيد الكندي، شارك في حركة حجر بن عدي سنة ٥١هـ. «تاريخ الطبري» (٥/ ٢٥٩).

(٨) الحرد: الغضب. «القاموس المحيط» (ص ٣٥٣).

الحسن بن عليّ على الكوفة، قام إليه رجل منا يكنى أبو عامر سفيان بن الليل[١]. فقال: السلام عليك يا مذل المؤمنين! فقال الحسن: لا تقل ذلك يا أبا عامر، لم أذل المؤمنين، ولكني كرهت أن أقتلهم في طلب الملك». فبعث الحسن بالبيعة إلى معاوية، فكتب بذلك الحسن إلى قيس بن سعد، فقام قيس بن سعد في أصحابه فقال: «يا أيها الناس، أتاكم أمران، لابد لكم من أحدهما: دخول في الفتنة، أو قتل مع غير إمام، فقال الناس: ما هذا؟ فقال: الحسن بن علي قد أعطى البيعة معاوية، فرجع الناس، فبايعوا معاوية». وقد أشار ابن كثير ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ إلى ذلك بقوله: «وبعث الحسن بن علي إلى أمير المقدمة قيس بن سعد أن يسمع ويطيع، فأبي قيس ابن سعد قبول ذلك، وخرج من طاعتهما جميعًا، واعتزل بمن أطاعه، ثم راجع الله، فبايع معاوية»[٢].

وتباينت ردود الأفعال بالنسبة لأمراء علي بن طالب ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ وموقفهم من الصلح ما بين القبول والاستحسان، أو الرفض ثم القبول، وهناك فريق ثالث دخل في الصلح وهو كاره له.

ثم ترك الحسن المدائن وسار إلى الكوفة، وسار معاوية ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ من مسكن إلى النخيلة[٣]، ونزل بين النخيلة ودار الرزق، ثم خرج الحسن ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ من الكوفة إلى النخيلة ليقابل معاوية ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ ويسلم الأمر له، فعن الشعبي، قال: «شهدت الحسن بن علي ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ـ بالنخيلة حين صالحه معاوية ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ ،

---

(١) من الذين شاركوا المختار الثقفي في الطلب بدم الحسين ٦٦هـ. «الأخبار الطوال» (ص ٢٢٠)، «البداية والنهاية».

(٢) «البداية والنهاية» (٨/ ١٦).

(٣) النخيلة: موضع قرب الكوفة على سمت الشام. «معجم البلدان» (٥/ ٢٧٨).

فقال معاوية: إذا كان ذا فقم فكلم وأخبر الناس أنك قد سلمت هذا الأمر لي، فقام فخطب على المنبر فحمد الله وأثنى عليه. قال الشعبي: وأنا أسمع، ثم قال: أما بعد، فإن أكيس[١] الكيس التُقَى، وإن أَحْمَقَ الحُمْقِ الفجور، وإن هذا الأمر الذي اختلفت فيه أنا ومعاوية إما كان حقًّا لي تركته لمعاوية إرادة صلاح هذه الأمة وحقن دمائهم، أو يكون حقًّا كان لامرئ كان أحق به مني ففعلت ذلك: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأنبياء: ١١١][٢]. وفي رواية: قال الحسن بن علي يوم كلم معاوية: «ما بين جابلص وجابلق[٣] رجل جده نبي غيري وأخي، وإني رأيت أن أصلح بين أمة محمد ـ ﷺ ـ، وكنت أحقهم بذاك، ألا إنا قد بايعنا معاوية ولا أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين».

وبتنازل الحسن بن علي عن الخلافة ومبايعته لمعاوية تنتهي بذلك فترة خلافة النبوة، وهي ثلاثون سنة، والحجة في ذلك قول الرسول ـ ﷺ ـ: «خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم يؤتي الله الملك، أو ملكه من يشاء»[٤].

وقد علق ابن كثير على هذا الحديث فقال: «وإنما كملت الثلاثون بخلافة الحسن بن علي، فإنه نزل على الخلافة لمعاوية في ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين، وذلك كمال ثلاثين سنة من موت رسول الله ـ ﷺ ـ، فإنه توفي في ربيع الأول

---

(١) أكيس: أعقل. والكيس: العقل. «لسان العرب» (١٦/ ٢٠١).

(٢) «الطبقات» (١/ ٣٢٩)، «المستدرك» (٣/ ١٧٥)، «حلية الأولياء» (٢/ ٣٧). «دلائل النبوة» (٦/ ٤٤٤). «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» (١/ ٣٨٨، ٣٨٩).

(٣) وقيل: جابرس؛ وجابلص وجابلق: مدينتان، إحداهما بالمشرق والأخرى بالمغرب. انظر: «معجم البلدان» (٢/ ٩٥).

(٤) «سنن أبي داود مع شرح عون المعبود» (١٢/ ٢٥٩)، «صحيح سنن أبي داود»، الألباني (٣/ ٨٧٩).

سنة إحدى عشرة من الهجرة، وهذا من دلائل النبوة ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، وبذلك يكون الحسن بن علي ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ـ خامس الخلفاء الراشدين»[١].

وبهذا حقن الحسن دماء المسلمين، وقد قال الحسن ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ: «خشيت أن يجيء يوم القيامة سبعون ألفًا، أو أكثر أو أقل، كلهم تنضح أوداجهم دمًا، كلهم يستعدي الله فيمَ هُريق دمه»[٢]. فالحسن بن علي ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ـ أراد أن يحقن دماء المسلمين قربة إلى الله ـ عَزَّوَجَلَّ ـ، وخشي على نفسه من حساب الله يوم القيامة في أمر الدماء، ولو أدى به الأمر إلى ترك الخلافة، فكان ذلك دافعًا له نحو الصلح، فالحسن بن علي ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ـ يعلم خطورة سفك الدماء بين المسلمين؛ لأن ذلك من أخطر الأمور التي تهز كيان البشرية، ثم حرص الحسن على وحدة الأمة بتنازله عن عَرَضٍ زائل من أعراض الدنيا حتى سمي ذلك العام: «عام الجماعة»، وهذا يدل على فقه الحسن في معرفته لاعتبار المآلات، ومراعاته نتائج التصرفات، ولهذا الفقه مظاهره في كتاب الله وشواهده.

وكان هذا العام سعيدًا على المسلمين؛ لاجتماع الكلمة ووحدة الصف، وللمرة الأولى منذ ست سنوات يهدأ القتال، وتُجمع الأمة الإسلامية على خليفة واحد.

وبهذا قامت الدولة الأموية وتأسست على يد معاوية ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ، وتصدت الدولة الأموية للخوارج، ثم عادت حركة الفتوحات المباركة، وتعد الفتنة التي أدت إلى استشهاد عثمان ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ أكبر معوق أصاب الدعوة الإسلامية بعد حركة الردة أيام أبي بكر ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ، حيث أدى استشهاد عثمان إلى توقف الجهاد، واتجاه سيوف المسلمين إلى بعضهم في فتنة كادت تعصف بالأمة الإسلامية

---

(١) «البداية والنهاية» (١١/ ٢٠٦).

(٢) «المصدر السابق» (١١/ ٢٠٦).

لولا أن تداركتها رحمة الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - بصلح الحسن بن علي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - مع معاوية - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - .

الفصل الثالث

معارضة أهل الحجاز للدولة الأموية

المبحث الأول

خلافة معاوية وفتنة حجر بن عدي، وتحول الخلافة إلى ملك وراثي وإشكالية أخذ البيعة ليزيد

بتنازل الحسن بن علي - رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا - اكتملت عوامل تولي معاوية الخلافة، وقد أجمعت الأمة على معاوية وبايعه علماء الصحابة والتابعين وعدوا خلافته شرعية ورضوا إمامته، ورأوا أنه خير مَن يلي أمر المسلمين ويقوم به خير قيام في تلك المرحلة.

قال ابن حزم: «فبويع الحسن ثم سلّم الأمر إلى معاوية، وفي بقايا الصحابة من هو أفضل منهما بلا خلاف ممن أنفق قبل الفتح وقاتل، وكلهم أولهم عن آخرهم بايع معاوية، ورأي إمامته»(١).

السياسة الداخلية لمعاوية - رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ -:

انعقد إجماع الأمة الإسلامية على خلافة معاوية سنة ٤١هـ-٦٦١م فأخذ يعمل بكل ما أوتي من ذكاء وفطنة ودهاء على توطيد دعائم الأمن والاستقرار في ربوع العالم الإسلامي، فانتهج سياسة داخلية، تقوم على الإحسان إلى كبار الشخصيات من شيوخ الصحابة وأبنائهم، فكان الحسن والحسين - رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا - يقبلان جوائز معاوية - رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ - فقد أمر معاوية مرّة للحسن بن علي بمائة ألف فذهب بها إليه فقال لمن حوله: «مَن أخذ شيئًا فهو له»، وأمر للحسين بن علي بمائة ألف فذهب

(١) «الفصل في الملل والنحل» (٥/ ٦).

بها إليه وعنده عشرة فقسمها عليهم عشرة آلاف، عشرة آلاف، وأمر لعبد الله بن الزبير بمائة ألف(١).

وكان معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ إذا لقي الحسن بن علي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال: «مرحبًا بابن رسول الله وأهلًا»، ويأمر له بثلاثمائة ألف، ويلقى ابن الزبير ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ فيقول: «مرحبًا بابن عمة رسول الله وابن حواريه»، ويأمر له بمائة ألف، وكان معاوية يوقر عبد الله بن عباس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ ويحترمه ويقربه ويعظمه، وكان معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ يعرف لابن عباس مكانته الاجتماعية والعلمية.

ومن القواعد التي قامت عليها سياسة معاوية الداخلية: مباشرة الأمور بنفسه، وكان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ يحرص على معرفة كل صغيرة وكبيرة في الدولة، فرغم أنه استعان بأمهر رجال عصره؛ إلا أنه لم يكن يكتفي بذلك، بل كرّس كل وقته وجهده للدولة ورعاية مصالح المسلمين(٢).

وكان معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ يظهر في اليوم والليلة خمس مرات، فكان إذا صلى الصبح جلس للقصاص حتى يفرغ من قصصه ثم يدخل فيؤتى بمصحفه، فيقرأ جزأه ثم يدخل إلى منزله فيأمر وينهى ثم يصلي أربع ركعات، ويخرج إلى مجلسه، فينادي بخاصته، فيحدثهم ويحدثونه، ويدخل عليه وزراؤه، فيكلمونه فيما يريدون من يومهم ثم يقوم ويتقدم آخر حتى يأتي على أصحاب الحوائج كلهم، وربما قدم عليه من أصحاب الحوائج أربعون أو نحوهم على قدر الغداء، ثم يرفع الغداء، وينصرف الناس، ويدخل منزله، فلا يطمع فيه طامع حتى ينادى بالظهر، فيخرج فيصليّ، وهكذا كان معاوية قريبًا من رعيته.

---

(١) «تاريخ دمشق» (٦٢/ ١٣٣).

(٢) «العالم الإسلامي في العصر الأموي: (٤١-١٣٢هـ/٦٦١-٧٥٠م) ـ دراسة سياسية» (ص ١١٧).

ومن القواعد التي بنى عليها معاوية سياسته الداخلية: توطيد الأمن في ربوع الدولة، وقد اتخذ معاوية عدة وسائل لتحقيق هذا الهدف، وكان معاوية بن أبي سفيان أول مَن اتخذ الحاجب في الإسلام؛ لكي يتجنب محاولات الاعتداء عليه من الخوارج وغيرهم، كما وقع بعمر وعلي ومعاوية وعمرو بن العاص وغيرهم، فكان العامل الأمني وراء اتخاذ معاوية الحراس ونحوهم، وذلك بعد محاولة اغتياله التي دبرها الخوارج[١]، ثم استحدث المقصورات وحرس الليل، وقيام الشرطة على رأسه إذا سجد[٢]، وقد كان معاوية وبنو أمية يعيشون في الشام قريبًا من أعدائهم الموتورين من الروم، فضلًا عن أعدائهم الموتورين من الشيعة والخوارج المتفرقين في البلاد، وكانوا يرون أنه لابد لهم من هذه الأمور المستحدثة من أجل استقرار الدولة الإسلامية التي قتل ثلاثة من خلفائها، وكان الخوارج من أشد أنصار علي بن أبي طالب ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ، وحضروا معه موقعة الجمل وصفين، ولكنهم انشقوا عليه بعدها ورفضوا التحكيم، وحاول علي إقناعهم وردهم إلى الجماعة، لكنهم تشبثوا بموقفهم وبالغوا في شقاقهم، وتطرفوا حتى عاثوا في الأرض فسادًا؛ مما جعل عليًّا يقاتلهم ويقضي على معظمهم في معركة النهروان، وهم لا يرضون عن تسميتهم خوارج؛ لأن هذه التسمية أطلقها عليهم خصومهم لخروجهم على الإمام ولتكفيرهم لغيرهم، أما هم فيسمون أنفسهم الشراة؛ لأنهم باعوا أنفسهم لله ـ تعالى ـ على أن لهم الجنة، يشيرون بذلك إلى قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾

(١) «ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر» (٢/ ١٥٠).

(٢) «تاريخ الرسل والملوك» (٦/ ٦٥).

[التوبة: ١١١]. ويسمون المحكمة؛ لأنهم قالوا: «لا حكم إلا لله»، وكان يطلق عليهم أيضًا: «الحرورية» نسبة إلى قرية حروراء التي انحازوا إليها بظاهر الكوفة لأول خروجهم على علي[١].

وإذا كان الخوارج قد خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وكفروه وحاربوه، فسيكون موقفهم من الدولة الأموية أعنف وبغضهم لها أشد، فقد شهروا السلاح في وجهها من أول لحظة، فثاروا على معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قبل أن يغادر الكوفة عام ٤١ هـ؛ فلقد خرجت الخوارج التي اعتزلت أيام علي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ بشهرزور[٢] على معاوية[٣]، فعن عوانه، قال: «قدم معاوية قبل أن يبرح الحسن من الكوفة حتى نزل النخيلة، فقالت الحرورية[٤] الخمسمائة التي كانت اعتزلت بشهرزور مع فروة بن نوفل الأشجعي: قد جاء الآن ما لا شك فيه، فسيروا إلى معاوية فجاهدوه»، فأقبلوا وعليهم فروة بن نوفل حتى دخلوا الكوفة، فأرسل إليهم معاوية خيلًا من خيل أهل الشام، فكشفوا أهل الشام، فقال معاوية لأهل الكوفة: «لا أمان لكم والله عندي حتى تكفوا بوائقكم»، فخرج أهل الكوفة إلى الخوارج فقاتلوهم، فقالت لهم الخوارج: «ويلكم ما تبغون منا، أليس معاوية عدونا وعدوكم، دعونا حتى نقاتله، وإن أصبناه كنا قد كفيناكم عدوكم، وإن أصابنا كنتم كفيتمونا، قالوا: لا والله حتى نقاتلكم، فقالوا: رحم الله إخواننا من

---

(١) «العالم الإسلامي في العصر الأموي» (ص ٤٥٤).

(٢) شهرزور: كورة واسعة تقع بين إربل وهمذان، أهلها أكراد، وهي في العراق اليوم. «معجم أماكن الفتوح» (ص ٧٤١).

(٣) «تاريخ الرسل والملوك» (٦/ ٨١).

(٤) الحرورية: هم الخوارج، وحروراء قرية بظاهر الكوفة نزل فيها الخوارج الذين خالفوا عليًّا ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ، فنسبوا إليها. «معجم البلدان» (٢/ ٢٤٥).

أهل النهر[١]، هم كانوا أعلم بكم يا أهل الكوفة». وهناك رواية هامة تبين موقف معاوية - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - من الخوارج بعد توليه الخلافة، وتؤكد أن الناس بايعوا معاوية ولم يكن لمعاوية هَمٌّ بعد ذلك إلا الذين بالنهروان[٢]، فجعلوا يتساقطون عليه فيبايعونه حتى بقي منهم ثلاثمائة أو نيف[٣]، وهم أصحاب النخيلة[٤] ثم كانت حركة المستورد بن عُلَّفة التميمي، ثم كانت حركات الخوارج في البصرة على يد يزيد الباهلي وسهم الهجيمي في عام ٤١هـ، ثم حركة قريب الأزدي وزحاف الطائي في عام ٥٠هـ، ثم حركة مرداس بن أُدَيَّة.

وفي عام ٥٨هـ، كل هذه الحركات قاتلها معاوية - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -؛ حفاظًا على وحدة الأمة وبسط الأمن فيها وخوفًا من نشر هذه المعتقدات الفكرية المنحرفة، وكان معاوية - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - على وعي تام بحقيقة المعارضة الخارجيّة وموقفها من السلطة ومن شخصه بالذّات، ولذلك لم يعمل على جلب الخوارج إلى صفّه، وقرّر منذ اللحظة الأولى التصدي لهم بالقوة[٥]، وقد عمل معاوية بن أبي سفيان على تحسين حالة الجند المعاشية؛ فزاد في أعطياتهم بسبب الظروف المستجدة وتحسن الأحوال الاقتصادية في الدولة، وكان أمير المؤمنين معاوية: يتفقد أحوال القبائل، كجزء من سياسته في حفظ التوازن بين قبائل اليمن والقبائل القيسية، وكان قد جعل على كل قبيلة من قبائل العرب بمصر رجلًا يصبح كل يوم فيدور على المجالس فيقول: «هل ولد الليلة فيكم مولود؟ وهل نزل بكم نازل؟ فيقال: ولد لفلان

---

(١) «تاريخ الرسل والملوك» (٦/ ٦٥).

(٢) أي الخوارج.

(٣) النيف: من واحد إلى ثلاثة. «القاموس المحيط» (ص ١١١).

(٤) سمو بذلك؛ لأنهم قتلوا في النخيلة. «معجم البلدان» (٢/ ١٨٥).

(٥) «الدولة الأمويّة عَوامِلُ الازدهارِ وَتَداعيات الانهيار» (١/ ٢٤٨).

غلام، ولفلان جارية. فيقال: سموهم، فيكتب ويقال: نزل بنا رجل من أهل اليمن بعياله فيسمونه وعياله، فإذا فرغ من القبائل كلها أتى الديوان»[١].

كان للجند ديوان مركزي في دمشق في حين وجدت دواوين فرعية في مراكز الولايات: كالكوفة، والبصرة، والفسطاط، وتطورت نفقات الضمان الاجتماعي في الدولة الأموية فكانت في صورة عينية، وكمثال على ذلك: ما ورد من أن الفقراء في إقليمي الحجاز والعراق خلال المدة (٤٥هـ - ٥٣هـ) كانوا يحملون بطاقات محدد لهم فيها الكمية المخصصة لكل فرد منهم من المعونة العينية، ثم أصبحت في عهد عمر بن عبد العزيز (٩٩هـ - ١٠١هـ) مزيجًا من النفقات النقدية والعينية، واهتم معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ بالزراعة وإحياء الأرض الموات، وكذلك اهتم معاوية بالتجارة الداخلية والخارجية وبدأت حركة التجارة الداخلية تزدهر كما كانت عليه قبل ذلك، واهتم معاوية بمصالح التجار وعمل على توسيع نطاق التجارة، وتميز أهل الشام في حرفة التجارة وفتحوا علاقات تجارية مع غربي أوروبا، وتطورت صناعة السفن الحربية في العصر الأموي بشكل كبير ومتلاحق، فقد كان الإنتاج في بداية العصر الأموي مقتصرًا على السفن التي كانت تنفرد مصر بصنعها حتى عام ٤٩هـ-٦٦٩م، حيث أمر معاوية بن أبي سفيان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ بإنشاء دار لصناعة السفن بالشام بمدينة عكا، وقد استقدم من مصر الخبراء للاستفادة منهم في دار الصناعة الجديدة، والتي تميزت بسهولة حصولها على الأخشاب من جبال لبنان[٢]. ثم تطورت هذه الصناعة،

---

(١) «حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة» (١/ ١٥٠).

(٢) «خطط الشام» (٥/ ٣٧).

فأنشأت في مصر منطقة صناعية جديدة، خاصة بصناعة السفن الحربية، وذلك عام (٥٤ هـ-٦٧٤م)[١].

وكان معاوية ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ أول خليفة امتنع من القضاء تمامًا، ودفعه إلى غيره، فكان له قضاة في قاعدة ملكه، فضلًا عن قضاته في الأمصار، وفي عهد معاوية حدث تطور هام فيما يخص القضاء وهو تسجيل الأحكام بسبب تناكر الخصوم، ولأول مرة يتم تسجيل الأحكام القضائية التي يصدرها القاضي في سجله، وديوان المحكمة ليرجع إليه القاضي عند الحاجة، وأول من سجل الأحكام سُليَم ابن عنز التجيبي قاضي مصر في عهد معاوية[٢].

وشهد عهد معاوية بن أبي سفيان ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ـ تطورًا كبيرًا في نظام الشرطة كمؤسسة رسمية على مستوى الدولة وبصورة لم تُعرف من قبل؛ لقد أصبحت مؤسسة الشرطة مسئولة مسئولية كاملة ومباشرة عن توفير الأمن وإقرار النظام في جميع الأمصار الإسلامية، وأصبحت أهم قوة أمن يعتمد عليها معاوية وولاته لتحقيق الأمن الشخصي من جهة، وحفظ الأمن والنظام في الداخل من جهة أخرى، يضاف إلى هذا كله: أن أصبحت الشرطة المدافع الأول عن نظام الأمن الأموي، وحمايته من اعتداءات الفرق الأخرى المعارضة له: كالخوارج، والشيعة، وغيرهما التي كانت تعمل على إسقاطه بشتى السبل.

وقد استعمل معاوية ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ الشرطة كحرس خاص لحمايته شخصيًّا، ودونما شك أن المحاولة الفاشلة التي قام بها الخوارج لاغتيال معاوية كان لها دور كبير في

(١) «الدولَة الأمويَّة: عَواملُ الازدهارِ وَتَداعيات الانهيار» (١/ ٢٨١).

(٢) «تاريخ القضاء في الإسلام» (ص ١٨٠)، «تاريخ الدولة العربية» (ص ١٩٨).

دفع معاوية لاتخاذ قراره بالاعتماد على الشرطة كحرس خاص لضمان عدم تكرار المحاولة، وخصوصًا أن عليًّا وعمرو بن العاص قد تعرضا للمحاولة نفسها، قُتل على إثرها أمير المؤمنين عليّ، وكان ذلك عام ٤٠هـ، ومنذ ذلك ومعاوية لا يخرج بدون حماية خاصة، وحتى أوقات الصلوات، كان يأمر حراسه بالوقوف عند رأسه حماية له من الاعتداءات المحتملة من مناوئيه[١].

الفتوحات فِي عهد معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ:

إن استئناف حركة الجهاد في عهد معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ لم تكن وليدة لحظة، بل بدأها في زمن ولايته على بلاد الشام، وهي جبهة واسعة من جبهات الجهاد، ومعاوية مجاهد موفق في البر والبحر منذ عهد أبي بكر وعمر وعثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ، وكان له فتوحاته الكبرى في الساحل الشمالي للشام، كما أن له الفضل بعد الله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ في تأسيس البحرية الإسلامية، وهزيمة الروم في البحر وانتزاع السيادة منهم لأول مرة في تاريخ المسلمين[٢].

وكان معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ يرى أن الخطر الأكبر من وجهة نظره: «الدولة البيزنطية»، وإن كانت قد خسرت أهم أقاليمها في الشرق: الشام ومصر؛ إلا أن عاصمتها باقية، وممتلكاتها في آسيا الصغرى وأوروبا وشمال إفريقيا لا زالت شاسعة، وكان معاوية رجل المرحلة وقادرًا على فهم وتقدير هذا الخطر وعلى مواجهته.

---

(١) «تاريخ الرسل والملوك» (٦/ ٦٥).

(٢) «الدولة الأموية المفترى عليها» (ص ٢٣٩)، «تاريخ الدولة العربية» (ص ١٧٩).

وهو أيضًا كان موجودًا بالشام منذ مطلع الفتوحات في عهد أبي بكر الصديق، وأصبح واليًا عليه ولمدة عشرين سنة تقريبًا، وهو يشكل مع مصر خط المواجهة الرئيسي مع الدولة البيزنطية، فطول إقامة معاوية ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ بالشام، أكسبته خبرة واسعة بأحوال البيزنطيين وسياستهم وأهدافهم؛ مما أعانه على أن يعرف كيف يتعامل معهم، فبعد أن استقر الأمر لمعاوية بن أبي سفيان سنة ٤١هـ خليفة للمسلمين، باشر في تطوير الأسطول البحري ليكون قادرًا على دك معاقل القسطنطينية عاصمة الروم، ومبعث العدوان والخطر الدائم ضد المسلمين[(١)].

وبدأ الخليفة نشاطه البحري بإرسال حملات بحرية استطلاعية، منها: حملة فضالة بن عبيد الأنصاري؛ للوقوف على تحركات الروم، وكان يرسل الحملات في الشتاء والصيف، وكان يضغط على الدولة البيزنطية من خلال الضغط على عاصمتها القسطنطينية[(٢)].

وعمل معاوية على تقوية الثغور البحرية في مصر والشام، فقد آثر أن يحصن المدن الساحلية ويزودها بالقوات المجاهدة بما يجعلها قواعد تنقل منها الجنود بحرًا إلى أي مكان يشاء، ووضع لهذه المدن نظامًا عرف بالرباط، وهو ما يقصد به الأماكن التي تتجمع بها الجند والركبان استعدادًا للقيام بحملة على أرض العدو، واعتنى بهذا النظام حتى أصبح جزءًا مرتبطًا أشد الارتباط بالجهاد، وبسط معاوية ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ اهتمامه إلى سائر المدن الساحلية، وقد بدأ ذلك بالاستيلاء على جزيرة قبرص ثم

---

(١) «الحملة الأخيرة على القسطنطينية في العصر الأموي» (ص٤١٠).

(٢) «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» (١/ ١٣٤).

رودس[١] وغيرهما من الجزر الساحلية، وقد بعث معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ سنتي ٤٧ و٤٨هـ سرايا من قواته لتغير على الأراضي البيزنطية لتمهد الطريق في سبيل الوصول إلى القسطنطينية[٢]، ولقد شهدت سنة ٤٩هـ أول حصار إسلامي لمدينة القسطنطينية، واستطاع معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ أن يضيق الخناق على الدولة البيزنطية بالحملات المستمرة والاستيلاء على جزر رودس وأرواد، وقد كان لجزيرة أرواد والتي تسميها المصادر الأوربية «كزيكوس» أهمية خاصة لقربها من القسطنطينية، حيث اتخذ منها الأسطول الإسلامي في حصاره الثاني للمدينة أو حرب السنين السبع (٥٤ – ٦٠هـ) قاعدة لعملياته الحربية، وذلك أن معاوية أعد أسطولًا ضخمًا، وأرسله ثانية لحصار القسطنطينية، وظل مرابطًا أمام أسوارها من سنة ٥٤هـ إلى سنة ٦٠هـ[٣].

وقد اهتم معاوية كذلك بفتوحات الشمال الإفريقي، فكانت جبهة شمال أفريقيا من أولى الجبهات التي وجَّه إليها معاوية اهتمامه؛ لأنها تُتَاخِمُ حدود مصر الغربية من ناحية ومن ناحية أخرى فهي تخضع لنفوذ الدولة البيزنطية، ففي أول سنة من حكمه ٤١هـ أرسل معاويةُ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ معاويةَ بن خُديج[٤] على رأس حملة إلى أفريقيا ثم أرسله ثانية سنة ٤٥هـ على رأس حملة من عشرة آلاف مقاتل، فمضى

---

(١) هي جزيرة يونانية في البحر الأبيض المتوسط، تقع بالقرب من الساحل الجنوبي لتركيا، في منتصف المسافة بين جزر اليونان الرئيسية وقبرص. وتعد رودس أبعد الجزر الشرقية بالنسبة لليونان وبحر إيجة. تبعد عن غرب تركيا بحوالي ١٨ كلم تقريبًا. انظر: «بوابة اليونان القديم».

(٢) «تاريخ الرسل والملوك» (٦/ ١٤٨).

(٣) «العالم الإسلامي في العصر الأموي» (ص ٣٥١).

(٤) خُديج الكندي له صحبة ورواية قليلة عن النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ، فقد روى حديث رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: **«إن كان في شيء شفاء فشربة عسل أو شرطة محجم، أو كية نار، وما أحب أن أكتوي»** [أخرجه البخاري (٧٥٥٩)]، وكان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ملكًا مطاعًا من أشراف كندة، وكان من خيرة الأمراء. «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٣٧).

حتى دخل إفريقية ثم تم فتح مدينة جلولاء[١] ثم كانت حركة الفتوحات بقيادة عقبة بن نافع القرشي الفهري، وكان عقبة قد شارك في غزو إفريقية منذ البداية مع عمرو بن العاص، واكتسب في هذا الميدان خبرات واسعة، وكان عمرو ابن العاص قد خلفه على برقة عند عودته إلى الفسطاط، فظل فيها يدعو الناس إلى الإسلام، وقد جاء إسناد القيادة إلى عقبة بن نافع خطوة موفقة في طريق فتح شمال أفريقيا كله، فلما أسند إليه معاوية بن أبي سفيان قيادة الفتوحات في إفريقية، أرسل إليه عشرة آلاف فارس وانضم إليه من أسلم من البربر فكثر جمعه[٢]، وسار في جموعه حتى نزل بمغمداش من سرت[٣]، ثم واصل فتوحاته، ففتح قصور كُوّار[٤]، وخاور[٥]، وغدامس[٦]، وغيرها[٧].

وفي سنة ٥٠هـ بدأت إفريقية الإسلامية عهدًا جديدًا مع عقبة بن نافع الذي علم أن السبيل الوحيد للمحافظة على إفريقية ونشر الإسلام بين أهلها هو إنشاء مدينة تكون محط رحال المسلمين، ومنها تنطلق جيوشهم؛ فأسس مدينة القيروان وبنى

---

(١) هنالك مدينتان تحملان هذا الاسم، إحداهما بفارس، بينها وبين خانقين سبعة فراسخ، وهي على طريق خراسان، وبها كانت الوقعة المشهورة بين المسلمين والفرس سنة ١٦هـ، وهذه التي بأفريقيا بينها وبين القيروان أربعة وعشرون ميلًا. «معجم البلدان» (٢/ ١٥٦).

(٢) «الكامل في التاريخ» (٢/ ٤٨٣).

(٣) سرت: مدينة بين برقة وطرابلس. «معجم البلدان» (٣/ ٢٠٦). انظر: الخريطة رقم (٨) ثبت الخرائط.

(٤) إقليم ببلاد السودان الغربي جنوب فزان. «معجم البلدان» (٤/ ٤٨٦).

(٥) خاور: مدينة جنوب فزان. «معجم البلدان» (٢/١٤٢).

(٦) غدامس: مدينة جنوب ليبيا قرب الحدود الجزائرية. وقيل: هي مدينة بالمغرب ثم في جنوبيّه ضاربة في بلاد السودان بعد بلاد زافون. «معجم البلدان» (٤/١٨٧).

(٧) «العالم الإسلامي في العصر الأموي» (ص ٢٨٠).

جامعها[1]. ثم كانت هناك فتوحات كثيرة في الجناح الشرقي للدولة الأموية، تمثلت في خراسان، وسجستان، وما وراء النهر، فتم فتح مدينة زرنج[1]، صلحًا ووافق مرزبانها على دفع ألفي ألف (مليوني) درهم، وألفي وصيف[4]، ثم تقدموا

---

(١) القَيْرَوَان: مدينة تونسية، تبعد حوالي ١٦٠ كيلومتر عن تونس العاصمة، ويعود سبب أهميتها إلى دورها الاستراتيجي في الفتح الإسلامي، فمنها انطلقت حملات الفتح نحو الجزائر والمغرب وإسبانيا وأفريقيا؛ بالإضافة إلى أنها رقاد لعدد من صحابة رسول الله - ﷺ - ويعود تاريخ القيروان إلى عام (٥٠هـ -٦٧٠م)، عندما قام بإنشائها عقبة بن نافع، وكان هدفه من هذا البناء أن يستقر به المسلمون؛ إذ كان يخشى إن رجع المسلمون عن أهل إفريقية أن يعودوا إلى دينهم.
ويعتبر القيروان من أقدم وأهم المدن الإسلامية، بل هي المدينة الإسلامية الأولى في منطقة المغرب، ويعتبر إنشاء مدينة القيروان بداية تاريخ الحضارة العربية الإسلامية في المغرب العربي، فلقد كانت مدينة القيروان تلعب دورين هامين في آن واحد، هما: الجهاد والدعوة، فبينما كانت الجيوش تخرج منها للغزو والتوسعات، كان الفقهاء يخرجون منها لينتشروا بين البلاد يعلِّمون العربية وينشرون الإسلام. فهي بذلك تحمل في كلّ شبر من أرضها عطر مجد شامخ وإرثًا عريقًا يؤكده تاريخها الزّاهر، ومعالمها الباقية التي تمثل مراحل هامة من التاريخ العربي الإسلامي.
لقد بقيت القيروان حوالي أربعة قرون عاصمة الإسلام الأولى لإفريقية والأندلس، ومركزًا حربيًّا للجيوش الإسلامية، ونقطة ارتكاز رئيسية لإشاعة اللغة العربية. وعندما تُذْكَرُ القيروانُ يُذْكَرُ القائدُ العربي الكبير عقبة بن نافع وقولته المشهورة عندما بلغ في توسعاته المحيط = = الأطلسي وهو يرفع يده إلى السماء ويصرخ بأعلى صوته: «اللّهم اشهد أني بلغت المجهود، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد من دونك». تقع القيروان في تونس على بُعد ١٦٠ كم من العاصمة تونس. وكلمة القيروان كلمة فارسية دخلت إلى العربية، وتعني مكان السلاح ومحط الجيش، أو استراحة القافلة وموضع اجتماع الناس في الحرب. ويعد مسجد القيروان الذي بناه عقبة بن نافع عند إنشاء المدينة من أهم معالمها عبر التاريخ. انظر: «موقع البيان، القيروان مدينة تآخت مع التاريخ»، و«معجم البلدان» (٤/ ٤٢٠). وانظر: الخريطة رقم (٩) ثبت الخرائط.

(١) زرنج: مدينة كبيرة هي قصبة سجستان. «معجم البلدان» (٣/ ١٣٨).

(٤) الوصيف: هو الغلام، أو الجارية، أو الخادم.

نحو مدن خواش(٢)، وبست، وخُشَّك(٣)، وغيرها من البلدان وتمكنوا من فتحها، كما تمكنوا من فتح مدينة كابل بعد أن ضربوا عليها حصارًا استمر لعدة أشهر(٤).

وما لبث أن جعل معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ إقليم سجستان ولاية مستقلة وأمّر عليها عبد الرحمن بن سمرة كمكافأة له على تحقيقه مثل تلك الفتوحات (٥).

ثم تمكن المسلمون في عهد معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ من بسط نفوذهم إلى ما وراء نهر السند، ففي سنة (٤٤ هـ-٦٦٤م) غزا المهلب بن أبي صفرة ثغر السند فأتى بَنَّة(٦)، ولاهور، وهما بين المُلْتان(٧) وكابل، ثم تم فتح بلاد القيقان(٨) وقُنْدُهار وغيرهما من البلدان(٨)، وهكذا كثرت الفتوحات الإسلامية في عهد معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ .

---

(٢) خواش: مدينة بسجستان. «معجم البلدان» (٢/ ٣٩٨).

(٣) خشك: بلدة من نواحي كابل. «معجم البلدان» (٢/ ٣٧٣).

(٤) «فتوح البلدان» (ص ٣٩٥).

(٥) «فتوح البلدان» (ص ٣٩٦).

(٦) بَنَّة: مدينة بكابل. «معجم البلدان» (٢/ ٥٠٠).

(٧) المُلتان: بالضم، وسكون اللام، وتاء مثناة من فوقها، وآخره نون. وأكثر ما يكتب مولتان: بالواو. هي مدينة من نواحي الهند قرب غزنة، أهلها مسلمون منذ قديم. «معجم البلدان» (٥/١٨٩).

(٨) القيقان: بلاد قرب طبرستان. «معجم البلدان» (٤/ ٤٢٣).

(٨) «فتوح البلدان» (ص ٤٣٢).

فتنة حُجر بن عدي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ عام ٥١ هـ.

هذه حركة معارضة جديدة، قادها حجر بن عدي الكندي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ [١]، وحجر بن عدي مختلف في صحبته، وذكر ابن سعد ومصعب الزبيري فيما رواه الحاكم عنه أنه وفد على النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ هو وأخوه هانئ بن عدي. أما البخاري, وابن أبي حاتم عن أبيه، وخليفة بن خياط, وابن حبان فذكروه في التابعين، كان حجر بن عدي من شيعة علي في الجمل وصفين، وكان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ من المعارضين للصلح الذي قام بين الحسن ومعاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ، غير أن هذه المعارضة لم يترتب عليها في هذه المرحلة أي فعل، بل اقتصرت على الأقوال فقط[٢]، ولم يزل حجر بن عدي منكرًا على الحسن بن علي بن أبي طالب صلحه لمعاوية، فكان يلومه على ذلك ويقول: «تركت القتال ومعك أربعون ألفًا ذوو نيات، وبصائر في قتال عدوك»، ثم كان بعد ذلك يذكر معاوية فيعيبه[٣]، وكان زياد بن أبيه في خلافة علي واليًا من ولاته، وكان حجر بن عدي من أولياء زياد ابن أبيه وأنصاره يومئذٍ، ولم يكن ينكر عليه شيئًا. فلما صار من ولاة معاوية صار ينكر عليه، ولما قدم زياد الكوفة أميرًا من قبل معاوية أكرم حجر بن عدي، وأدناه وشفَّعَه، وقَالَ له: «قد بلغني ما كنت تصنع بالمغيرة بن شعبة وما كان يحتمل منك»، ثم لما أراد زياد الانحدار إلى البصرة دعاه فقال له: «يا حجر إنك قد رأيت ما صنعت بك، وإني أريد البصرة، فأحب أن تشخص معي، فإني أكره

---

(١) قيل هو من أهل الطائف، وولد في العام الأول الهجري، والله أعلم.

(٢) «مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري» (ص ٤٢٢).

(٣) «أنساب الأشراف» (٤/ ٢٥٥).

أن تتخلف بعدي، فعسى أن أبلغ عنك شيئًا فيقع في نفسي، وإذا كنت معي لم يقع في نفسي منك شيء، فقد علمت رأيك في علي بن أبي طالب، وقد كان رأيي فيه قبلك على مثل ذلك، فلما رأيت الله صرف الأمر إلى معاوية، لم أتهم قضاء الله ورضيت به، وقد رأيت إلى ما صار أمر علي وأصحابه، وإني أحذرك أن تركب أعجاز أمور هلك من ركب صدورها».

وهذا تحذير من زياد لحجر يدل على رغبته على حسم مادة الفتنة؛ ولذلك حرص على اصطحابه معه إلى البصرة، فقال حجر: «إني مريض ولا أستطيع الشخوص»، فخرج زياد فلحق بالبصرة، واجتمع إلى حجر قُرّاء أهل الكوفة، فجعل لا ينفذ لعامل زياد معهم أمر، ولا يريد شيئًا إلا منعوه إياه[1].

والمقصود من كلام زياد أنه كان من خواص علي ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ، ولما رأى تنازل الحسن لمعاوية وإجماع الأمة عليه دخل في الجماعة وحرص على وحدة الصف وحذر من الفتن.

ثم في عام ٥١هـ حدث تدهور آخر في علاقة حجر بن عدي مع زياد بن أبيه والي العراق، وقد ذكر المؤرخون أن زيادًا ـ وهو أمير الكوفة ـ خطب خطبة أطال فيها، فنادى حجر بن عدي: «الصلاة!» فمضى زياد في خطبته، فحصبه حجر وحصبه آخرون معه[2]، فكتب زياد إلى معاوية يشكو بغي حجر على أميره في بيت الله، وعد ذلك من الفساد في الأرض، فكتب معاوية إلى زياد أن سرح به إليَّ[3].

---

(١) «أنساب الأشراف» (٤/ ٢٧٠).

(٢) أي: ألقوه بالحجارة.

(٣) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/ ١٦٩).

قال أبو بكر بن العربي: «ولكنَّ حجرًا فيما يقال رأى من زياد أمورًا منكرة فحصبه، وخلعه، وأراد أن يقيم الخلق للفتنة، فجعله معاوية ممن سعى في الأرض فسادًا»(١).

ويقول محب الدين الخطيب: «كان حجر بن عدي من أولياء زياد وأنصاره، ولم يكن ينكر عليه شيئًا، فلما صار من ولاة معاوية صار ينكر عليه مدفوعًا بعاطفة التحزب والتشيع، وكان حجر يفعل مثل ذلك مع من تولى الكوفة لمعاوية قبل زياد»(٢).

ثم كان من أمر معاوية أنه أمر بقتل حجر بن عدي وبعض أصحابه، وهو لم يقتلهم على الفور، ولم يطلب منهم البراءة من علي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ كما تزعم بعض الروايات الشيعية المكذوبة، بل استشار أهل مشورته، ثم كان حكمه فيهم.

والحجة في ذلك ما يرويه صالح بن أحمد بن حنبل بإسناد حسن عن ابن عياش قال: «حدثني شرحبيل بن مسلم قال: لما بُعِث بحجر بن عدي وأصحابه من العراق إلى معاوية بن أبي سفيان، استشار الناس في قتلهم، فمنهم المشير، ومنهم الساكت. فدخل معاوية منزله، فلما صلى الظهر قام في الناس خطيبًا فحمد الله وأثنى عليه، ثم جلس على منبره، فقام المنادي فنادى: «أين عمرو بن الأسود العنسي؟»، فقام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «ألا إنا بحصن من الله حصين لم نؤمر بتركه، وقولك يا أمير المؤمنين في أهل العراق ألا وأنت الراعي ونحن الرعية، ألا وأنت أعلمنا بدائهم، وأقدرنا على دوائهم، وإنما علينا أن نقول: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]». فقال معاوية: «أما عمرو بن الأسود فقد تبرأ إلينا من دمائهم، ورمى بها ما بين عيني معاوية». ثم قام

(١) «العواصم من القواصم» (ص ٢١٣).
(٢) «المصدر السابق» (ص ٢١٤).

المنادي فنادى: «أين أبو مسلم الخولاني؟»، فقام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد فلا والله ما أبغضناك منذ أحببناك، ولا عصيناك منذ أطعناك، ولا فارقناك منذ جامعناك، ولا نكثنا بيعتنا منذ بايعناك، سيوفنا على عواتقنا، إن أمرتنا أطعناك، وإن دعوتنا أجبناك وإن سبقناك نظرناك». ثم جلس. ثم قام المنادي فقال: «أين عبد الله بن مِخْمَر الشرعبي؟»، فقام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «وقولك يا أمير المؤمنين في هذه العصابة من أهل العراق، إن تعاقبهم فقد أصبت، وإن تعفُ فقد أحسنت». فقام المنادي فنادى: «أين عبد الله ابن أسد القسري؟»، فقام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «يا أمير المؤمنين، رعيتك وولايتك وأهل طاعتك، إن تعاقبهم فقد جنوا على أنفسهم العقوبة، وإن تعفوا فإن العفو أقرب للتقوى، يا أمير المؤمنين لا تطع فينا من كان غشومًا ظلومًا بالليل نؤومًا عن عمل الآخرة سؤومًا، يا أمير المؤمنين إن الدنيا قد انخشعت أوتارها، ومالت بها عمادها وأحبها أصحابها، واقترب منها ميعادها»، ثم جلس، ثم قتل معاوية بعضًا واستحيا بعضًا، وكان فيمن قتل حجر بن عدي»[(١)].

وقد اعتمد معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ في قضائه على قوله ـ ﷺ ـ : «من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يَشُقَّ عصاكم، أو يفرق جماعتكم فاقتلوه»[(٢)]، وقوله ـ ﷺ ـ : «إنه ستكون هنات[(٣)]، وهنات، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة، وهي جميع، فاضربوه بالسيف كائنًا من كان»[(٤)]. وعن ابن أبي مليكه: «إن معاوية جاء يستأذن على عائشة، فأبت أن تأذن له، فخرج غلام لها يقال له: ذكوان، قال:

(١) أحمد بن حنبل: المسائل رواية ابنه صالح (٢/ ٣٢٨، ٣٣١).
(٢) صحيح مسلم (١٢/ ٢٤٢).
(٣) هنات: جمع هَنَّة، والمراد بها هنا الفتن والأمور الحادثة. «شرح صحيح مسلم» (١٢/ ٢٤١).
(٤) صحيح مسلم (١٢/ ٢٤٣).

ويحك أدخلني على عائشة فإنها قد غضبت عليَّ، فلم يزل بها غلامها حتى أذنت له، وكان أطوع مني عندها، فلما دخل عليها قال: "أُمّاه فيما وجَدْتِ عليَّ يرحمكِ الله؟» قالت: «وجدت عليك في شأن حِجْر وأصحابه أنك قتلتهم». فقال لها: «وأما حِجْر وأصحابه فإني تخوفت أمرًا، وخشيت فتنة تكون، تهراق فيها الدماء، تستحل فيها المحارم، وأنت تخافيني، دعيني والله يفعل ما يشاء». قالت: «تركتك والله، تركتك والله، تركتك والله». وجاء في رواية أخرى: لما قدم معاوية دخل على عائشة، فقالت: «أقتلت حجرًا؟». قال: «يا أم المؤمنين، إني وجدت قتل رجلٍ في صلاح الناس، خيرًا من استحيائه في فسادهم»(١). ومع ذلك فقد ذكرت بعض المصادر التاريخية أن معاوية ندم بعد ذلك على قتل حجر ابن عدي(٢).

يقول أبو بكر بن العربي: «فإن قيل: قتل حجر بن عدي ـ وهو من الصحابة مشهور بالخير ـ صبرًا أسيرًا، وبعثت إليه عائشة في أمره فوجدته قد فات بقتله. قلنا: علمنا قتل حجر كلنا، واختلفنا: فقائل يقول: قتله ظلمًا، وقائل يقول: قتله حقًا. فإن قيل: الأصل قتله ظلمًا إلا إذا ثبت عليه ما يوجب قتله. قلنا: الأصل أن قتل الإمام بالحق(٣)، فمن ادعى أنه بالظلم فعليه الدليل. ولو كان ظلمًا محضًا لما بقي بيت إلا لُعن فيه معاوية. وقد كلمته عائشة في أمره حين حج، فقال لها: دعيني وحجرًا حتى نلتقي عند الله. وأنتم معشر المسلمين أولى أن تدعوهما حتى يقفا بين يدي الله مع صاحبهما العدل الأمين المصطفى المكين».

---

(١) «تاريخ دمشق» (٤/ ٢٧٣، ٢٧٤).

(٢) «تاريخ الطبري» (٦/ ١٩٥)، «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٤٦٥).

(٣) لا شك أن الأصل في الدماء أنها معصومة، وذلك ثابت بنصوص الكتاب والسُّنَّة.

ويقول محب الدين الخطيب: «فالذين يريدون أن معاوية قتله بحق يقولون: ما من حكومة في الدنيا تعاقب بأقل من ذلك، من يحصب أميره وهو قائم يخطب على المنبر في المسجد الجامع، مندفعًا بعاطفة الحزبية والتشيع، والذين يعارضونهم يذكرون فضائل حجر ويقولون: كان ينبغي لمعاوية ألا يخرج عن سجيته من الحلم وسعة الصدر لمخالفيه. ويجيبهم الآخرون بأن معاوية يملك الحلم وسعة الصدر عند البغي عليه في شخصه، فأما البغي على الجماعة في شخص حاكمها وهو على منبر المسجد فهو ما لا يملك معاوية أن يتسامح فيه، ولا سيما في مثل الكوفة التي أخرجت العدد الأكبر من أهل الفتنة الذين بغوا على عثمان بسبب مثل هذا التسامح، فكبدوا الأمة من دمائها وسمعتها وسلامة قلوبها ومواقف جهادها تضحيات غالية كانت في غنى عنها لو أن هيبة الدولة حفظت بتأديب عدد قليل من أهل الرعونة والطيش في الوقت المناسب.

وكما كانت عائشة تود لو أن معاوية شمل حجرًا بسعة صدره، فإن عبد الله ابن عمر كان يتمنى مثل ذلك.

والواقع أن معاوية كان فيه من حلم عثمان وسجاياه، إلا أنه في مواقف الحكم كان يتبصر في عاقبة عثمان وما جر إليه تمادي الذين اجترأوا عليه.

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية: «وَقَلَّ مَنْ خَرَجَ عَلَى إِمَامٍ ذِي سُلْطَانٍ إِلَّا كَانَ مَا تَوَلَّدَ عَلَى فِعْلِهِ مِنَ الشَّرِّ أَعْظَمَ مِمَّا تَوَلَّدَ مِنَ الْخَيْرِ. وَأَمَّا أَهْلُ الْحَرَّةِ وَابْنُ الْأَشْعَثِ وَابْنُ الْمُهَلَّبِ وَغَيْرُهُمْ، فَهُزِمُوا وَهُزِمَ أَصْحَابُهُمْ، فَلَا أَقَامُوا دِينًا وَلَا أَبْقَوْا دُنْيَا»(١).

وهكذا مرت هذه الحركة من المعارضة دون أن تحقق أدنى مصلحة، ولابد أن نتعلم من التاريخ؛ فهو مرآة الأمم. والله المستعان.

---

(١) «منهاج السنة» (ص ٢/ ٢٤١).

الملك الوراثي وأخذ البيعة ليزيد بن معاوية:

يُحمِّل كثير من الباحثين، المغيرة بن شعبة[١] المسئولية عن بيعة يزيد بن معاوية[٢]، وذلك باعتباره العقل المدبر، وصاحب الفكرة الأولى حين عرض على معاوية بأن يتولى يزيد الخلافة من بعده، وتكفل بالدعوة ليزيد وتهيئة أهل الكوفة لتقبل خبر اختيار يزيد لولاية العهد، وكل من اتهم المغيرة بن شعبة، كان حجته في ذلك تلك الرواية التي أوردتها بعض المصادر القديمة، وهي: أن المغير بن شعبة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ دخل على معاوية واستعفاه من ولاية الكوفة فأعفاه، وأراد معاوية أن يولي بدلًا منه سعيد بن العاص، فبلغ ذلك أحد الموالين للمغيرة، وتأثر المغيرة عند ذلك،

(١) أبو عبد الله هو المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي، توفي سنة٥٠هـ. ولد في ثقيف بالطائف، وبها نشأ، وكان كثير الأسفار. كُني بـ «أبي عيسى»، ويقال: أبو عبد الله. من دهاة العرب وذوي آرائها وهو من كبار الصحابة أولي الشجاعة والمكيدة والدهاء، كان ضخم القامة، عَبل الذراعين، بعيد ما بين المنكبين، أصهب الشعر جعده، وكان لا يفرقه. قال عنه الطبري: «كان لا يقع في أمر إلا وجد له مخرجًا، ولا يلتبس عليه أمران إلا أظهر الرأي في أحدهما». وقد اعتزل الحروب التي وقعت بين المسلمين: كالجمل، وصفين، وقد عينه معاوية واليًا على الكوفة، ثم عزله بعد ذلك. وقال عنه الحافظ الذهبي: «من كبار الصحابة، أولي الشجاعة والمكيدة، شهد بيعة الرضوان، كان رجلًا طِوالًا، مهيبًا، ذهبت عينه يوم اليرموك. وقيل: يوم القادسية. توفي في الكوفة عن عمر يناهز ٧٠ سنة. انظر: «البداية والنهاية» (٨/ ٥٠)، «تاريخ بغداد» (١/ ١٩١)، «تاريخ الإسلام» (ص ١١٧)، «سير أعلام النبلاء للذهبي» (٣/ ٢١).

(٢) هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس القرشي، يكنى «أبو خالد» وجدته من جهة أبيه: هند بنت عتبة بن ربيعة، أسلمت يوم الفتح، وكانت من أعقل النساء، حازمة شاعرة ذات نفس وأنفة، وأمه ميسون بنت بحدل الكلبية شاعرة من شاعرات العرب، وكانت امرأة لبيبة، وأبوها من أشراف قبيلة كلب. وكانت ولادة يزيد بن معاوية في خلافة عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ في سنة ست وعشرين. وقيل: إن ولادته وولادة عبد الملك بن مروان في سنة واحدة سنة ست وعشرين من الهجرة، واهتم به والده وعين له مؤدبًا ليعلمه، وجعل معاوية ابنه يحضر في مجالسه ويستفيد من سياسته وتدبيره للملك، وقد توفر ليزيد ما لم يتوفر لغيره إضافة إلى أن أباه هو أحد الصحابة الأجلاء ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ. انظر: «الطبقات» (٨/ ١٧٠)، «تهذيب التهذيب» (١١/ ٣١٦- ٣١٧)، «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٣٦- ٣٧).

وتمنى العودة للإمارة، فقام فدخل على يزيد وعرّض له بالبيعة، فأخبر يزيد والده بما قال له المغيرة، فاستدعى معاوية المغيرة بن شعبة وأمره بالرجوع واليًا مرة أخرى على الكوفة وأن يعمل في بيعة يزيد، وأسانيد هذه الرواية ضعيفة(١)، كما أن المغيرة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ صحابي جليل وقد توفي عام ٥٠هـ(٢) قبل ظهور فكرة ولاية العهد عند معاوية، حيث بدأت هذه الفكرة في الظهور في عهد زياد بن أبيه على العراق، وقد صرّح الطبري بأن معاوية إنما دعا إلى بيعة يزيد سنة ٥٦هـ(٣). وللأسف فإن بعض المراجع الحديثة تقبلت مثل هذه الروايات دون تثبت من صحة سندها، واعتبرت ذلك من المسلَّمات(٤)!

الخطوات التي اتخذها معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ لأخذ البيعة ليزيد:

بعد أن خلت الساحة من وجود الصحابة الكبار المبشَّرين بالجنة من أمثال سعد ابن أبي وقاص، وسعيد بن زيد بن عمرو، وبعد وفاة الحسن بن علي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جميعًا ـ، وبعض الكذابين يتهمون معاوية بأنه سم الحسن وقتله، وذلك باطل وكذب(٥)؛ هنا بدأ معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ يفكر ويهيئ الأمور لترشيح يزيد للخلافة، بعد أن

(١) «الإشراف في منازل الأشراف» (ص ١٢١) بسندٍ ضعيف، «تاريخ الطبري» (٦/ ٢٢٠) بإسناد ضعيف جدًّا، «تاريخ الذهبي: حوادث (٦١ - ٨٠ هـ)» (ص ٢٧٢) بسند ضعيف جدًّا. وانظر: «مواقف المعارضة في عهد يزيد» (ص ٨٤ إلى ٨٧).

(٢) «تاريخ الرسل والملوك» (٦/ ١٥٠).

(٣) «المصدر السابق» (٦/ ٢١٩)، «مواقف المعارضة في عهد يزيد» (ص ٨٧).

(٤) «تاريخ الإسلام» (١/ ٢٨١)، «التاريخ الإسلامي» (٢/ ٤١)، «تاريخ الدولة العربية» (ص ٢٨٣).

(٥) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة (٢/ ٢٢٥) فيما تزعمه الشيعة من أن معاوية سم الحسن: «لم يثبت ذلك ببينة شرعية، ولا إقرار معتبر، ولا نقل يجزم به. وهذا مما لا يمكن العلم به، فالقول به قول بلا علم». وقال: «وقد رأينا في زماننا من يقال عنه سم ومات مسمومًا من الأتراك وغيرهم. ويختلف الناس في ذلك حتى في نفس الموضع الذي مات فيه والقلعة التي مات فيها، فتجد كلًّا منهم يحدث بالشيء بخلاف ما يحدث به الآخر».

عُرف يزيد عند قيادته لجيش المسلمين الذي حاصر القسطنطينية، وقد ظهر يزيد بمظهر مشرف أثناء قيادته لهذا الجيش، وبدأ معاوية المرحلة الأولى، وهي مرحلة المشاورات؛ لأنه يريد أن يرى رد الفعل قبل أن يقدم على هذا الأمر الخطير الذي لم يسبقه إليه أحد، وكان من الطبيعي أن يستشير زياد بن أبيه[1] بعد ما أصبح أخًا له، وصار يقال له: زياد بن أبي سفيان، وولاه العراق، فكتب إليه زياد يأمره بالتريث والتمهل وأرسل زياد إلى يزيد يطلب منه أن يكون قدوة للمسلمين، وأن يترفع عن التساهل في اتباع الصيد والاهتمام به[2].

ومن هنا يتضح: أن معاوية كان يدرك أنه كان يقدم على أمر خطير، بل على حدث لم يسبقه إليه أحد، ولهذا اصطفى زيادًا للاستشارة، وزياد هو الذي قال عنه الأصمعي: «الدهاة أربعة: معاوية للروية، وعمرو بن العاص للبديهة، والمغيرة ابن شعبة للمعضلة، وزياد لكل صغيرة وكبيرة». وقد أشار عليه زياد بالتؤدة فقبل. ولهذا لم يُقدم معاوية على الأمر الخطير إلا بعد وفاة زياد[3]، وكذلك استشار معاوية عبد الله بن الزبير وهو من سادات أبناء الصحابة وهو يمثل لسان أهل المدينة والحجاز، واستشار الأحنف بن قيس زعيم قبيلة تميم وكان من أشراف المسلمين، ولم يأخذ معاوية منهما موافقة على ترشيح يزيد، بل يظهر من ثنايا كلامهما عدم الموافقة[4].

وقد أدرك معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ حرص أهل الشام على بقاء الخلافة فيهم، فقد حسم أهل الشام أمرهم وأصبح خيارهم في ولاية العهد ليزيد، ووجدوا فيه ضالتهم لاستمرار صدارتهم في الدولة الإسلامية، ولم يكن أهل الشام يستغربون

---

(١) راجع ترجمة زياد ابن أبيه، ص٩٥.
(٢) «تاريخ الرسل والملوك» (٦/ ٢٢١).
(٣) «المصدر السابق» (٦/ ٢٢١).
(٤) «العقد الفريد» (٤/٢٧٠).

فكرة توريث الخلافة كما كان يستغربها أهل الحجاز؛ إن أهل الشام استجابوا لرغبة معاوية في تولية يزيد وليًّا لعهده من بعده، وقد أعلنها معاوية في أهل الشام، وذلك بعد عودة يزيد من غزو القسطنطنية(١).

وقد أدى طرح هذه الفكرة إلى قبول وإجماع من أهل الشام بالموافقة على بيعة يزيد، ولم يكن هناك أي معارض(٢)، وقد أسهم أهل الشام فيما بعد في أخذ البيعة ليزيد من الأمصار الأخرى، مثل: «الحجاز»، ثم كانت بيعة الوفود؛ فقد عقد معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ اجتماعًا موسعًا في دمشق بعد ما جاءت الوفود من الأقاليم، وكانت هذه الوفود تضم مختلف رجالات القبائل العربية، فمثلًا من بلاد الشام: الضحاك بن قيس الفهري(٣)، ثور بن معن السلمي(٤)، عبد الله ابن عضاة الأشعري(٥)، عبد الله بن مسعدة الفزاري(١)، عبد الرحمن بن عثمان الثقفي، حسان بن مالك بن بحدل الكلبي(٢)، وغيرهم.

---

(١) «مواقف المعارضة في عهد يزيد» (ص ١٠٥).

(٢) «تاريخ خليفة بن خياط» (ص ٢١١).

(٣) الضحاك بن قيس الفهري القرشي: صحابي من صغار الصحابة وله أحاديث. كان جوادًا، شهد فتح دمشق وسكنها ووليها بعد ما كان ولي الكوفة من قِبَل معاوية بن أبي سفيان. دعا لخلافة عبد الله بن الزبير بعد وفاة يزيد بن معاوية فقُتل سنة ٦٤ للهجرة في حرب خاضها ضد مروان بن الحكم بمرج راهط. «الطبقات» (١٩٠/٢).

(٤) هو من أصحاب الضحاك، وقد دعا لابن الزبير وقتل مع الضحاك في مرج راهط. انظر: «مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر» (٣٨٧/٣).

(٥) عبد اللَّه بن عضاه الأشعري، وأبو عضاه ـ بضاد معجمة وآخره هاء عوض الميم، وذكر أنه شهد صفّين مع معاوية، وكان رسول يزيد بن معاوية إلى عبد اللَّه بن الزبير في طلب البيعة له، وأنه كان ممن استخلفه مسلم بن عقبة لما فرغ من وقعة الحرّة، وقصد مكة فأدركته الوفاة. «الإصابة في تمييز الصحابة» (١٥٤/٤).

كما حضر عن أهل المدينة عمرو بن حزم الأنصاري، وذلك في وقت متأخر، وحضر عن أهل البصرة: الأحنف بن قيس التميمي(٣)، ثم تكلم كل زعيم من هؤلاء الزعماء ورحبوا بالفكرة وأثنوا عليها، وأكدوا أن هذه هي الطريقة الأصوب لحقن الدماء وحفظ الألفة والجماعة(٤)، ثم تكلم الأحنف بن قيس بكلام طيب فقال: «يا أمير المؤمنين، أنت أعلم بيزيد في ليله ونهاره، وسرّه وعلانيته، ومدخله ومخرجه، فإن كنت تعلمه لله رضا، ولهذه الأمة، فلا تشاور الناس فيه، وإن كنت تعلم منه غير ذلك فلا تزوّده الدنيا وأنت تذهب إلى الآخرة»(٥). ثم تمت البيعة ليزيد بولاية العهد على أن الشيء المؤكد أن عمرو ابن حزم الأنصاري لم يحضر هذا الاجتماع؛ وذلك لأحد أمرين:

الأمر الأول: هو أن أهل المدينة لم يوافقوا في الأصل على البيعة وعارضوها بشدة، فلم يرسلوا في موعد الوفود أحدًا.

الأمر الثاني: هو أن معاوية قد رفض الالتقاء بعمرو بن حزم وما ذلك إلا لأنه بلغه معارضة أهل المدينة، وعرف أن عمرو بن حزم مندوب عن أولئك المعارضين، فخشي إن حضر الاجتماع سوف يشتت الآراء، ويحدث بلبلة من

---

(١) عبد الله بن مسعدة الفزاري: من صغار الصحابة، من قادة العصر الأموي. «الإصابة في تمييز الصحابة» (٤/١٩٦).

(٢) زعيم بني كلب، شهد صفين مع معاوية، وهو الذي قام بأمر البيعة لمروان بن الحكم. انظر: «مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر» (٤/١٤٨).

(٣) «العقد الفريد» (٤/٣٧٠).

(٤) «مواقف المعارضة في عهد يزيد» (ص ١٠٦).

(٥) «العقد الفريد» (٤/٣٧١).

خلال معارضته؛ ولهذا استجاب له أخيرًا فالتقى به على انفراد وحصل بالفعل ما كان يظن معاوية ولكن معاوية تقبل الانتقاد وأجزل له العطاء(١).

معاوية يطلب البيعة من أهل المدينة المنورة:

المدينة هي عاصمة الإسلام الأولى، ومدينة رسول الله - ﷺ - وموطن المهاجرين والأنصار، ولها أهمية كبرى، وفيها تكونت الدولة المسلمة، وبعد أن أخذ معاوية البيعة ليزيد من أهل الشام والوفود، أرسل معاوية إلى المدينة يطلب من أميرها أخذ البيعة ليزيد(٢)، فقام مروان بن الحكم أمير المدينة خطيبًا؛ فحض الناس على الطاعة وحذرهم الفتنة، ودعاهم إلى بيعة يزيد، وقال مروان: «سُنة أبي بكر الراشدة المهدية»، واستدل على ذلك بولاية العهد من أبي بكر لعمر، فرد عليه عبد الرحمن بن أبي بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَ -(٣)، ونفى أن تكون هناك مشابهة بين هذه البيعة وبيعة أبي بكر، وقال: «فقد ترك أبو بكر الأهل والعشيرة وعمد إلى رجل من بني عدي بن كعب إذ رأي أنه لذلك أهل فبايعه». ثم قال: «هذه البيعة شبيهة بيعة هرقل وكسرى»، ثم حدث بينه وبين مروان نزاع(٤).

---

(١) «مسند أبي يعلى» (٦/ ٢٥٣).

(٢) «العقد الفريد» (٤/ ٣٧٠، ٣٧٢).

(٣) عبد الرحمن بن أبي بكر: هو ابن خليفة المسلمين الأول أبو بكر الصديق التيمي القرشي، وأمه أم رومان بنت عامر بن عويمر الكنانية، وأخته السيدة عائشة بنت أبي بكر أم المؤمنين، تأخر إسلامه إلى قبيل الفتح، شهد اليمامة والفتوح، توفي عام ٥٣هـ. «الإصابة» (٨/ ٣٩٠).

(٤) «مجمع الزوائد» (٥/ ٢٤١) بسندٍ حسنٍ. وانظر: «البخاري مع الفتح» (٨/ ٤٣٩)، «البداية والنهاية» (٨/ ٩٢).

وجاء في رواية عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ: «يا معشر بني أمية اختاروا منها بين ثلاثة: بين سنة رسول الله، أو سنة أبي بكر أو سنة عمر، ألا وإنما أردتم أن تجعلوها قيصرية كلما مات قيصر كان قيصر»(١).

فقال مروان: «خذوه»، فدخل بيت عائشة، فلم يقدروا عليه.

والذي يظهر أن أهل المدينة لم يبايع منهم أحد؛ لاسيما مع رفض بعض الكبراء فيهم كعبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن الزبير، والحسين، وغيرهم(٢)، وقد عبَّر عبد الرحمن بن أبي بكر عمّا في نفوسهم.

ومما سبق نلاحظ: أن مروان بن الحكم لم يوفق في المهمة التي كلفه بها معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ، وعند ذلك قرر معاوية إرسال يزيد بن أبي سفيان ليثني أهل المدينة عن رفضهم، فخطبهم قائلًا: «يا معشر أهل المدينة، إن أمير المؤمنين حسن نظره إليكم وإن جعل لكم مفزعًا تفزعون إليه، يزيد ابنه(٣)».

وهنا كرر عبد الرحمن بن أبي بكر اعتراضه بشدة، وهنا علم معاوية بمدى خطورة الموقف في المدينة، وموقف كثير من الصحابة من هذه القضية المهمة، فجاء ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ معتمرًا في شهر رجب من سنة ٥٦هـ-٦٧٦م(٤)، فلما علم عبد الرحمن بن أبي بكر وابن عمر وابن الزبير بقدوم معاوية خرجوا من المدينة، واتجهوا من المدينة إلى مكة(٥).

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٨٢٧).

(٢) «مواقف المعارضة في عهد يزيد» (ص ١٠٨).

(٣) «تاريخ الإسلام، حوادث (٤١-٦٠)» (ص ١٤٧، ١٤٨).

(٤) «البداية والنهاية» (١١/ ٣٠٥).

(٥) «مواقف المعارضة في عهد يزيد» (ص ١٢١).

فلما قدم معاوية المدينة خطب الناس وحثهم على البيعة، وبيّن أن يزيد هو أحق الناس بالخلافة[١]، عِلْمًا بأن أهل المدينة قد وافقوا في بداية الأمر على أن يُرَشِّحَ معاوية من يقوم بالأمر من بعده، وقد أرسل معاوية رسالة إلى مروان بن الحكم قال فيها: «إني قد كبرت سني وخشيت الاختلاف على الأمة بعدي، وقد رأيت أن أتخير لهم من يقوم بالأمر بعدي، وكرهت أن أقطع أمرًا دون مشورة من عندك، فاعرض عليهم ذلك، وأعلمني بالذي يردون عليك». فقام مروان في الناس فأخبرهم بما أراد معاوية فقال الناس: «أصاب معاوية، ووفق وقد أحببنا

(١) «تاريخ خليفة بن خياط» (ص٢١٣، ٢١٤). وشباب قريش المعاصرون ليزيد ـ ممن يحدثون أنفسهم بولاية الأمر لبعض الاعتبارات التي يعرفونها لأنفسهم ـ كثيرون جدًّا حتى سعيد ابن عثمان بن عفان ومن هم دون سعيد كانوا يطمعون بولاية الأمر بعد معاوية. ومبدأ الشورى في انتخاب الخليفة أفضل بكثير من مبدأ ولاية العهد، لكن معاوية كان يظن أن فتح باب الشورى في انتخاب من يخلفه سيحدث في الأمة الإسلامية مجزرة لا ترقأ فيها الدماء إلا بفناء كل ذي أهلية في قريش لولاية شيء من أمور هذه الأمة. ومعاوية أحصف من أن يخفى عليه أن المزايا موزعة بين هؤلاء الشباب القرشيين، فإذا امتاز أحدهم بشيء منها على أضرابه ولداته، فإن فيهم من يمتاز عليه بشيء آخر منها، غير أن يزيد ـ مع مشاركته لبعضهم في بعض ما يمتازون به ـ يمتاز عليهم بأعظم ما تحتاج إليه الدولة، أعني القوة العسكرية التي تؤيده إذا تولى الخلافة، فتكون قوة للإسلام. كما تؤيده إذا أوقع الشيطان الفتنة على هذا الكرسي بين المتزاحمين عليه، فيكون ما لا يحب كل مسلم أن يكون، ولو لم يكن ليزيد إلا أخواله من قضاعة وأحلافهم من قبائل اليمن، لكان منهم ما لا يجوز لبعيد النظر أن يسقطه من الحساب عندما يفكر في هذه الأمور. انظر: «العواصم من القواصم» (ص ٢١٦). قلت: فمعاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ من خيار ملوك المسلمين، ولا ريب أنه قد أخطأ بتولية الخلافة لابنه يزيد، فقد كان في المسلمين من هو أحق بالخلافة وأصلح للأمة، ولكن لا يعني هذا الخطأ إهدار فضل معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ، فله في الإسلام سعي مشكور وعمل مبرور وآثار حسنة، وقد ولَّاه عمر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ على الشام، وبقي معاوية على ولايته إلى تمام خلافة عمر وعثمان، ورعيته تشكره وتشكر سيرته فيهم، وتُوَالِيهِ وتحبه، لِمَا رأوا من حلمه وعدله، حتى إنه لم يشتكِ منهم مشتكٍ ولا تظلَّمه منهم متظلِّم، وقد قال ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ : **«خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم، ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم»** [رواه مسلم (١٨٥٥)].

أن يتخير لنا فلا يألوا»، ولكن عندم طرح اسم يزيد امتنع أهل المدينة عن البيعة، وعبَّر عبد الرحمن بن أبي بكر عمّا في نفوسهم(١).

ولما خطب معاوية في الناس قال: «قد بايعنا يزيد فبايعوه»(٢). ويبدو أن معاوية قد ذكر أنه يخشى على ابن عمر وغيره من القتل إن مانعوا، ويقصد بخوفه عليهم من أهل الشام، الذين لا يمكن أن يتصوروا أن أحدًا يخالف أمير المؤمنين في أمر اتفق عليه كثير من الناس، فقد ذكر أن معاوية قال: «والله ليبايعنَّ ابن عمر أو لأقتلنّه»، فلما بلغ الخبر عبد الله بن صفوان، غضب وعزم على مقاتلة معاوية إن ثبت هذا. فلما سأل معاوية أنكر ذلك، وقال: «أنا اقتل ابن عمر، إني والله لا أقتله»(٣).

---

(١) «مواقف المعارضة في عهد يزيد» (ص ٩٩).

(٢) الجورقاني: الحسين بن إبراهيم بن الحسين بن جعفر، أبو عبد الله الهمذاني الجورقاني (المتوفى: ٥٤٣هـ) الأباطيل والمناكير والصحاح والمشاهير، تحقيق وتعليق: الدكتور عبد الرحمن ابن عبد الجبار الفريوائي، الناشر: دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض ـ المملكة العربية السعودية، مؤسسة دار الدعوة التعليمية الخيرية، الهند، الطبعة: الرابعة، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م، عدد الأجزاء: ٢ (١/ ١٢٥).

(٣) «الطبقات» (٤/ ٨٣)، «تاريخ خليفة» (ص ٢١٤، ٢١٥)، «مواقف المعارضة» (ص ١٢١)، وقد أنكر هذه الرواية محب الدين الخطيب في «العواصم» لابن العربي، فقال: «هذا الخبر عن وهب بن جرير بن حازم يشعر بأن معاوية خطب هذه الخطبة وهو في المدينة قادمًا إليها من دمشق قبل أن يصل إلى مكة، وأن ابن عمر كان يومئذٍ في مكة فركب إليه ابنه حتى لقيه بمكة وأخبره بهذه الخطبة. وفي الخبر الذي قبل هذا ـ وهو مروي عن وهب بن جرير بن حازم أيضًا ـ التصريح بأن ابن عمر كان بالمدينة عند وصول معاوية إليها من دمشق، وأنه كان مع الأعيان الذين خرجوا لاستقباله. فالخبران متناقضان يُكَذِّبُ أحدهما الآخر مع أنهما عن راوٍ واحد. ولا أدري من أين جاء بهما المؤلف؟ ولم ينقلهما الطبري مع أنه يعتني بأخبار وهب بن جرير؛ لأنه ثقة، ووهب مات سنة ٢٠٦ وأبوه سنة ١٧٠هـ بعد أن اختلط، فبينهما وبين هذه الحوادث رواة آخرون، وبينهما وبين الطبري وغيره من المؤرخين رواة كثيرون. وأعتقد أن هذه الأخبار غير صحيحة لتناقضها، ولو عرفنا رواتها إلى وهب وبعد وهب لعرفنا من أين جاء الكذب. وهذا =

فلما قدم معاوية مكة، وقضى نسكه بعث إلى ابن عمر فقدم عليه فتشهد معاوية، وقال: «أما بعد يا ابن عمر، فإنك قد كنت تحدثني أنك لا تحب أن تبيت ليلة سوداء وليس عليك أمير، وإني أحذرك أن تشق عصا المسلمين، وأن تسعى على فساد ذات بينهم»، فرد ابن عمر على معاوية، وبيَّن له كيف كانت طريقة بيعة الخلفاء الراشدين، وذكر له كيف أن لهم أبناء خير من يزيد، فلم يروا في أبنائهم ما يرى معاوية في يزيد، ثم بيَّن له أيضًا أنه لا يريد أن يشق عصا المسلمين، وأنه موافق على ما تجتمع عليه أمة محمد ـ ﷺ ـ، فأثلج هذا القول صدر معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ وقال: «يرحمك الله»[١]. فقد اشترط ابن عمر حدوث الإجماع على بيعة يزيد حتى يعطيه البيعة. وفي رواية للبخاري أنه ذهب فبايع، وهذا هو الصحيح، وسيأتي تفصيله في موقعة الحرة[٢].

ثم استدعى معاوية عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ، فأخذ معاوية في الكلام، فقاطعه عبد الرحمن ورد عليه بلهجة شديدة، وذكر أنه يمانع بيعة يزيد، وطلب أن يكون الأمر شورى، وتوعد معاوية بالحرب[٣] ثم قام، فقال معاوية: «اللّهم اكفنيه بما شئت»، وطلب منه أن يتمهل، وألا يعلن رفضه أمام أهل الشام فيقتلوه، فإذا جاء العشي وبايع الناس ثم يكن بعد ذلك على ما عنده من رأي[٥].

= الخبر معارض بما في كتاب المغازي من صحيح البخاري (ك ٦٤ ب ٢٩ - ج ٥ ص ٤٨) عن ابن عمر أن أخته ـ أم المؤمنين حفصة ـ نصحت له بأن يسرع بالذهاب للبيعة وقالت: «الحق، فإنهم ينتظرونك، وأخشى أن يكون في احتباسك عنهم فرقة فلم تدعه حتى ذهب». انظر: «العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ـ ﷺ ـ» (ص ٢١٨).

(١) «تاريخ خليفة بن خياط» (ص ٢١٤، ٢١٥) بسندٍ صحيح.

(٢) «مواقف المعارضة» (ص ١٢٢).

(٣) «المرجع السابق» (ص ١٠٣).

(٥) «تاريخ خليفة بن خياط» (ص ٢٠١٥)، «تاريخ أبي زرعة الدمشقي» (١/٢٢٩).

ثم استدعى معاوية ابن الزبير، واتهمه معاوية بأنه السبب في منع البيعة، وأنه وراء ما حدث من ابن عمر وابن أبي بكر، فردّ عليه ابن الزبير وطلب منه أن يتنحى عن الإمارة إن كان ملّها ثم طلب من معاوية أن يضع يزيد خليفة بدلًا منه فيبايعه. ثم استدل على عدم موافقته على المبايعة بما استنبطه من حديث الرسول - ﷺ - بأنه لا يجوز مبايعة اثنين في آن واحد[1]، ثم قال: «وأنت يا معاوية أخبرتني أن رسول الله - ﷺ - قال: **إذا كان في الأرض خليفتان فاقتلوا أحدهما**»[2].

ويتبين لنا من خلال الحوار الذي دار بين معاوية وعبد الله بن عمر، وعبد الرحمن ابن أبي بكر وعبد الله بن الزبير - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - أنهم يمانعون البيعة لسببين:

أ- اعتراضهم على تولية يزيد للعلاقة بين الأب والابن، وأن هذه لم تكن طريقة الخلفاء الراشدين.

ب- الاستدلال على بطلان هذه البيعة ورفضها لمخالفتها النص الصريح الذي ورد في الحديث النبوي، والذي لا يجيز البيعة لشخصين في آن واحد. والملاحظ هنا هو أن المعارضين لم يذكروا قدحًا في يزيد؛ وإلا كيف يمكن أن يتجاهلوا صفات يزيد التي اتهم بها فيما بعد، وخاصة في ذلك الموقف الذي يتطلب حشد أي دليل في مقابل الخصم؟![3] وحضور أكابر الصّحابة لذلك وسكوتهم عنه: دليل على انتفاء الرّيب فيه؛ فليسوا ممّن يأخذهم في الحقّ هوادة، وليس معاوية ممّن

---

(١) «تاريخ خليفة بن خياط» (ص ٢١٤)، «حلية الأولياء» بإسناد حسن. (١/ ٣٣٠، ٣٣١). وقد علق محب الدين الخطيب على هذا فقال: «ابن الزبير أذكى من أن يفوته أن البيعة ليزيد بعد معاوية، وليست لهما معا في حياة معاوية».

(٢) «المعجم الكبير» (١٩/ ٣١٤)، «مجمع الزوائد» (٥/ ١٩٨). قال الهيثمي: «ورجاله ثقات. وله شاهد من حديث أبى سعيد الخدري عند مسلم، إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما».

(٣) «مواقف المعارضة في عهد يزيد» (ص ١٢٣).

تأخذه العزّة في قبول الحقّ فإنّهم كلّهم أجلّ من ذلك وعدالتهم مانعة منه، وفرار عبد الله بن عمر من ذلك إنّما هو محمول على تورّعه من الدّخول في شيء من الأمور مباحًا كان أو محظورًا كما هو معروف عنه(١). والحقيقة أنه كان هناك شعور قوي بين بعض الناس ـ خاصة بين أبناء المهاجرين ـ هو: كيف أن معاوية الذي أسلم في فتح مكة يتولى خلافة المسلمين (٢). وهناك مَن هو أقدم إسلامًا وأحق منه؟!(٣)، وكان البعض معترضًا على تقديم يزيد خوفًا من القيصرية والهرقلية على حد تعبير عبد الرحمن بن أبي بكر. ولما رأى معاوية أوجه الانتقادات التي انتقد فيها أبناء الصحابة بيعة يزيد، ورأي أنها لا تمس يزيد شخصيًا بل إنها وجهات نظر رأوها ورأى معاوية خلافها، فهؤلاء مدفعون بحرصهم على جعل منصب

(١) «المقدمة» (١/٢٦٣).

(٢) قيل: إنه أسلم هو وأبوه وأمه وأخوه يزيد يوم فتح مكة. وقيل: إنه أسلم قبل الفتح وبقي يخفي إسلامه حتى عام الفتح. قال الذهبي: «أسلم قبل أبيه في عمرة القضاء، وبقي يخاف من الخروج إلى النبي ـ ﷺ ـ من أبيه». وروي عن معاوية أنه قال: «لما كان عام الحديبية صدت قريش رسول الله ـ ﷺ ـ عن البيت ودافعوه بالراح وكتبوا بينهم القضية، فوقع الإسلام في قلبي، فذكرت ذلك لأمي هند بنت عتبة فقالت: إياك أن تخالف أباك، أو أن تقطع أمرًا دونه فيقطع عنك القوت، فكان أبي يومئذ غائبًا في سوق حباشة قال: فأسلمت وأخفيت إسلامي، فوالله لقد دخل رسول الله ـ ﷺ ـ من الحديبية إني مصدق به، وأنا على ذلك أكتمه من أبي سفيان، ودخل رسول الله ـ ﷺ ـ مكة عام عمرة القضية وأنا مسلم مصدق به، وعلم أبو سفيان بإسلامي فقال لي يومًا: لكن أخوك خير منك، فهو على ديني، قلت: لم آل نفسي خيرًا. وقال: فدخل رسول الله ـ ﷺ ـ مكة عام الفتح فأظهرت إسلامي ولقيته فرحب بي». انظر: «تهذيب الأسماء واللغات» (٢/١٠٢)، وانظر: «تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام» (٢/٥٤٠)، «الطبقات الكبرى» (١/١٠٦).

(٣) «المصنف» (١١/٣٤٤) بإسنادٍ صحيح، «المصنف» (١١/٢٩٤)، «أنساب الأشراف» (٤/٤٧)، وانظر: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» (٣/١٤٢٢) ثم قال ابن عبد البر: «وَهَذَا الخبر من أصح مَا يروى من حديث ابْن شهاب، رواه عَنْهُ مَعْمَر وجماعة من أصحابه».

الخلافة لا تتطرق إليه العلاقات الأسرية والرغبات الشخصية، ومن ثم تكون قيمة الخليفة واختياره مبنية على علاقته بالخليفة الذي قبله، ومعاوية مدفوع بحرصه على وحدة الكلمة هو أيضًا.

قام معاوية بعد اجتماعه مع ابن عمر وابن الزبير وابن أبي بكر، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إنا وجدنا أحاديث الناس ذات عوار، زعموا أن ابن عمر وابن الزبير، وابن أبي بكر الصديق لم يبايعوا يزيد، قد سمعوا وأطاعوا وبايعوا له. فقال أهل الشام: لا والله لا نرضى حتى يبايعوا على رءوس الناس وإلا ضربنا أعناقهم»، فانتهرهم معاوية وقال: «مه، سبحان الله! ما أسرع الناس إلى قريش بالسوء، لا أسمع هذه المقالة من أحد بعد اليوم»، ثم نزل فقال الناس: «بايع ابن عمر وابن الزبير وابن أبي بكر» ويقولون: «لا والله ما بايعنا!»، ويقول الناس: «بلى لقد بايعتم». وارتحل معاوية ولحق بالشام[(١)].

وبهذه الرواية الصحيحة يتبين لنا كذب تلك الرواية التي تتهم معاوية ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ بأنه أقام على رأس كل رجل من الصحابة الأربعة، وهم: عبد الله ابن عمر، عبد الله بن الزبير، عبد الرحمن بن أبي بكر، والحسين بن علي ـ رضوان الله عليهم ـ، أقام على رأس كل واحد منهم رجلين، وأعطى الإشارة لكل حارس بقتل من يمانع البيعة، فبايع الناس وبايع ابن عمر، وابن الزبير، وابن أبي بكر تحت تهديد السلاح؛ فبالإضافة إلى ضعف الرواية سندًا، فإن متنها لا يقل عن سندها من حيث الضعف[(٢)]، ومن الملاحظ أن الرواية السابقة لم تذكر الحسين بن علي ضمن

(١) «تاريخ خليفة بن خياط» (ص ٢١٤).

(٢) «مواقف المعارضة في خلافة يزيد» (ص ١٠٦)، «تاريخ خليفة» (ص ٢١٥) بسند جويرية ابن أسماء قال: «سمعت أشياخ أهل المدينة يتحدثون». والرواية ضعيفة لا يمكن الاعتماد عليها.

من استشارهم معاوية في بيعة يزيد، ولعل السبب يعود إلى أن معاوية أدرك العلاقة بين أهل العراق وبين الحسين، وأنهم كانوا يكتبون له ويمنونه بالخلافة من بعد معاوية، وأما ما قاله معاوية عن موافقة ابن عمر وابن الزبير وابن أبي بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -، فلعل معاوية كان يرى أنهم موافقون من حيث المبدأ على بيعة يزيد؛ لذا أعلن ذلك، فعبد الله بن عمر قال: إنه لا يريد أن يشق عصا المسلمين، وإنه موافق على ما تجتمع عليه أمة محمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فقد اشترط ابن عمر حدوث الإجماع على بيعة يزيد حتى يعطيه البيعة، وأما عبد الرحمن فقد قال له معاوية: «على رسلك أيها الرجل، لا تشرفن لأهل الشام، فإني أخاف أن يسبقوني بنفسك، حتى أخبر العشية أنك قد بايعت، ثم كن بعد ذلك على ما بدا لك من أمرك»[1]. وأما ابن الزبير فقد قال لمعاوية: «إن كنت مللت الإمارة فهلم ابنك فلنبايعه»، فلا اعتراض عنده على يزيد[2]، علمًا بأن يزيد قد عُرف عنه الشجاعة، والكرم، والفصاحة، وغير ذلك من الصفات الحميدة، فرأى معاوية من ذلك الموافقة منهم على بيعة يزيد.

ونستنتج مما سبق: قدر الوعي السياسي عند أسلافنا، فمعاوية لم يقصد مِنْ فِعْلِهِ إلا مصلحة الأمة، وأما بعض أبناء الصحابة فقد أدركوا أن الأمر سيتغير مع مرور الزمن، وبالفعل أصبحت الخلافة وراثية بعد ذلك، ومعاوية لم يستخدم القوة والسيف، بل شاور الناس وتقبل بعض الانتقادات التي وجهها له بعض أبناء الصحابة، وهكذا تمت بيعة أهل الحجاز، وعاد معاوية إلى دمشق.

---

(١) «مواقف المعارضة في خلافة يزيد» (ص ٢١٩)، وانظر: «تاريخ أبي زرعة الدمشقي» (١/ ٢٢٩).

(٢) «المصدر نفسه» (ص ٢١٤).

المبحث الثاني

معارضة الحسين بن علي في عهد يزيد بن معاوية

وفاة معاوية ومعارضة الحسين بن علي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ:

تُمثل معارضة الحسين[١] بن علي ليزيد بن معاوية نقطة تحول في التاريخ، فهي تُعد أول معارضة عملية في خلافة يزيد، وقد أثرت حادثة مقتل الحسين على المجتمع الإسلامي بصفة عامة، وعلى الدولة الأموية وتاريخها بصفة خاصة، بل واستمر تأثير هذه الحادثة لمدة قرون طويلة، بل إلى يومنا هذا، وهناك مَن انحرف مِن أبناء الأمة بسبب هذه الحادثة، وظهر بسببها التعصب والانحراف الفكري عند الكثيرين، وكانت هذه الحادثة هي إحدى الروافد التي ساعدت على قيام الثورات

(١) هو أبو عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم، سِبْطُ رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وريحانته ومحبوبه، ابن بنت رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فاطمة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ، كان مولده سنة أربع للهجرة، ومات ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قتيلًا شهيدًا في يوم عاشوراء من شهر المحرم سنة إحدى وستين هجرية بكربلاء من أرض العراق ـ فرضي الله عنه وأرضاه ـ. انظر: «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٢٨٠). ومن فضائل الحسين: ما رواه أحمد بإسناده إلى يعلي العامري ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ أنه خرج مع رسول الله يعني إلى طعام دُعُوا له، قال: فاستمثل رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ أمام القوم، وحسين مع غلمان يلعب فأراد رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ أن يأخذه فطفق الصبي يفر هنا مرة وهاهنا مرة، فجعل النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يضاحكه حتى أخذه قال: فوضع إحدى يديه تحت قفاه والأخرى تحت ذقنه ووضع فاه وقبله وقال: **«حسين مني وأنا من حسين، اللَّهم أحب من أحب حسينًا، حسين سبط من الأسباط»** (حسنه الألباني). وما رواه البخاري بإسناده إلى ابن عمر وقد سأله رجل من العراق عن المحرم يقتل الذباب فقال ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ: «أهل العراق يسألون عن الذباب وقد قتلوا ابن ابنة رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وقال النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: **«هما ريحانتاي من الدنيا»**، وروى أحمد بإسناده إلى أبي سعيد الخدري ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: قال رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: **«الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»**. سنن الترمذي (٥/ ٦٥٦) حديث رقم (٣٧٦٨) وصححه الألباني في «الأحاديث الصحيحة» (٢/ ٤٤٨).

ضد الأمويين، وكان موقف الحسين من بيعة يزيد بن معاوية هو موقف المعارض، وشاركه في المعارضة عبد الله بن الزبير.

والسبب في ذلك: حرصهما على مبدأ الشورى، وأن يتولى الأمة أصلحها. وتلك الممانعة الشديدة من قبل الحسين وابن الزبير، قد عبرت عن نفسها بشكل عملي فيما بعد، فالحسين - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - كما مر سابقًا، كان معارضًا للصلح بين الحسن ومعاوية، والذي حمله على قبوله هو متابعة أخيه الحسن بن علي ثم إن الحسين ابن علي استمر على صِلَاتِهِ بأهل الكوفة وقد كان يعدهم بالمعارضة، ولكن بعد وفاة معاوية، والدليل على ذلك أنه بمجرد وفاة معاوية سارع زعماء الكوفة بالكتابة إلى الحسين، وطلبوا منه المسير إليهم على وجه السرعة(١).

والذي يبدوا: أن أهل الكوفة كانوا يتخيلون ويتوقعون أن المرشح الأقوى للخلافة بعد معاوية هو الحسين - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -(٢)، وكان معاوية - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - دائم الصلة بالحسين، وكان يوقره ويكرمه ويغدق له في العطاء. وقيل: إنه أعطاه مرة أربعمائة ألف(٣)، وقد أوصى معاوية ابنه يزيد فقال: «انظر حسين بن علي ابن فاطمة بنت رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فإنه أحب الناس إلى الناس، فصل رحمه، وارفق به يصلح لك أمره، فإن يك منه شيء فإني أرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه»(٤).

وقد كانت هناك وصية جامعة من معاوية لابنه يزيد، قال عوانة: «قد سمعنا أن معاوية لما حضره الموت - وذلك في سنة ستين - وكان يزيد غائبًا، فدعا بالضحاك

---

(١) «مواقف المعارضة في خلافة يزيد» (ص ١٨٠).

(٢) «أنساب الأشراف» (٣/١٥٢).

(٣) «المصنف» (١١/٩٤)، «أنساب الأشراف» (٣/١٥٥).

(٤) «الطبقات» (١/٢٤٤).

بن قيس الفهري ـ وكان صاحب شرطته ـ ومسلم بن عقبة المري، فأوصى إليهما فقال: بَلِّغَا يزيد وصيتي، انظر أهل الحجاز فإنهم أصلك، فأكرم مَن قدم عليك منهم، وتعاهد من غاب، وانظر أهل العراق، فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملًا فافعل، فإن عَزْلَ عامل أحب إلي من أن تشهر عليك مائة ألف سيف، وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك، فإن نابك شيء من عدوك فانتصر بهم، فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم، فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم، وإني لست أخاف من قريش إلا ثلاثة: حسين ابن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، فأما ابن عمر فرجل قد وقذه الدين، فليس ملتمسًا شيئًا قبلك. وأما الحسين بن علي فإنه رجل خفيف، وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه، وخذل أخاه، وإن له رحمًا ماسة، وحقًّا عظيمًا، وقرابة من محمد ـ ﷺ ـ، ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه، فإن قدرت عليه فاصفح عنه، فإني لو أني صاحبه عفوت عنه. وأما ابن الزبير فإنه خب[1] ضب، فإذا شخص لك فالبد له[2] إلا أن يلتمس منك صلحًا، فإن فعل فاقبل، واحقن دماء قومك ما استطعت»[3].

وهكذا رسم معاوية ليزيد سياسة التعامل مع الأقاليم المختلفة، وكذلك بعض الأشخاص أيضًا، وقد أمر يزيد فنودي في الناس أن الصلاة جامعة، ودخل الخضراء فاغتسل ولبس ثيابًا حسنة ثم خرج فخطب الناس أول خطبة خطبها وهو أمير المؤمنين، فقال بعد حمد الله والثناء عليه: «أيها الناس، إن معاوية كان

(١) الخب: الخداع. «لسان العرب» (١/٣٤١).

(٢) أَلْبَدَ بالمكان: أَقام به. وأَلْبَدَ الشيءُ بالشيءِ: رَكِبَ بعضُه بعضًا، وأَلْبَدَ الشيءَ بالشيء: أَلصقه به. والبِدَّة هي: الْقُوَّةُ. والمقصود: أي تعامل معه بقوة وحزم وحرص. «لسان العرب» (٣/٨١).

(٣) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/٥٢٣).

عبدًا من عبيد الله، أنعم الله عليه ثم قبضه إليه، وهو خير ممن بعده ودون من قبله، ولا أزكيه على الله ـ عَزَّوَجَلَّ ـ فإنه أعلم به، إن عفا عنه فبرحمته، وإن عاقبه فبذنبه، وقد وليت الأمر من بعده، ولست آسى على طلب، ولا أعتذر من تفريط، وإذا أراد الله شيئًا كان اذكروه واستغفروه». وقال لهم في خطبته هذه: «وإن معاوية كان يغزيكم في البحر، وإني لست حاملًا أحدًا من المسلمين في البحر، وإن معاوية كان يشتيكم بأرض الروم ولست مشتيًا أحدًا بأرض الروم، وإن معاوية كان يخرج لكم العطاء أثلاثًا وأنا أجمعه لكم كله»[١]. ثم توافدت الرسائل من زعماء الكوفة على الحسين ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ والتي تطلب منه المسارعة في القدوم إليهم، ولما كان العدد مشجعًا أراد أن يطلع على حقيقة الأمر، فبعث ابن عمه مسلم ابن عقيل بن أبي طالب ليستجلي له حقيقة الخبر، ثم يكتب إليه بواقع الحال، فإن كان ما يقولون حقًّا قدم عليهم، ولما بلغ أهل الكوفة قدوم مسلم بن عقيل قدموا إليه فبايعه اثنا عشر ألف[٢]، وقيل ثمانية عشر ألفًا، وتمت تلك المبايعة بصورة سرية، ولما تأكد لمسلم ابن عقيل رغبة أهل الكوفة في الحسين وقدومه إليهم كتب إلى الحسين. «أما بعد، فإن الرائد لا يكذب أهله، إن جميع أهل الكوفة معك فأقبل حين تنظر في كتابي». وهنا تأكد للحسين صدق نوايا أهل الكوفة، وأنه ليس عليهم إمام كما ذكروا من قبل[٣]، فلما وصل إلى الحسين بن علي كتاب مسلم بن عقيل والذي طلب منه القدوم إلى الكوفة وأن الأمر مهيأ لقدومه؛ تجهز الحسين بن علي، وعزم على المضي إلى الكوفة بأهله وخاصته[٤].

---

(١) «البداية والنهاية» (١٥٣/٨).

(٢) «تاريخ دمشق»، ترجمة الحسين ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ. وانظر: «تهذيب الكمال في أسماء الرجال» (٤٢٣/٦).

(٣) «تاريخ الرسل والملوك» (٦/ ٢٧٢).

(٤) «تاريخ الرسل والملوك» (٦/ ٣٠٥).

نصائح الصحابة والتابعين إلى الحسين بعدم الخروج إلى الكوفة:

لا شك أن مسألة خروج الحسين على يزيد كانت محل جدال وخلاف بين الكثيرين(١)، وقد حرص كثير من الصحابة على منع الحسين من الخروج، لكنه أبى،

---

(١) قال ابن تيمية في «منهاج السنة»: «إن الله ـ تعالى ـ بعث رسوله ـ ﷺ ـ بتحصيل المصالح، وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، فإذا تولى خليفة من الخلفاء: كيزيد، وعبد الملك، والمنصور، وغيرهم، فإما أن يُقال: يجب منعه من الولاية وقتاله حتى يولى غيره كما يفعله من يرى السيف، فهذا رأي فاسد، فإن مفسدة هذا أعظم من مصلحته، وقلَّ من خرج على إمامٍ ذي سلطان إلا كان ما تولد على فعله من الشر أعظم مما تولد من الخير، كالذين خرجوا على يزيد بالمدينة، وكابن الأشعث الذي خرج على عبد الملك بالعراق، وكابن المهلب الذي خرج على ابنه بخراسان، وكأبي مسلم صاحب الدعوة الذي خرج عليهم بخراسان أيضًا، وكالذين خرجوا على المنصور بالمدينة والبصرة وأمثال هؤلاء، وغاية هؤلاء إما أن يُغلبوا وإما أن يَغلبوا ثم يزول ملكهم فلا يكون لهم عاقبة، فإن عبد الله بن علي وأبا مسلم هما اللذان قتلا خلقًا كثيرًا، وكلاهما قتله أبو جعفر المنصور، وأما أهل الحرة وابن الأشعث وابن المهلب وغيرهم فهُزموا وهُزم أصحابهم، فلا أقاموا دينًا ولا أبقوا دنيا. والله ـ تعالى ـ لا يأمر بأمر لا يحصل به صلاح الدين ولا صلاح الدنيا، وإن كان فاعل ذلك من أولياء الله المتقين ومن أهل الجنة، فليسوا أفضل من علي وعائشة وطلحة والزبير وغيرهم، ومع هذا لم يُحمد ما فعلوه من القتال، وهم أعظم قدْرًا عند الله وأحسن نية من غيرهم. وكذلك أهل الحرَّة كان فيهم من أهل العلم والدين خَلْق، وكذلك أصحاب ابن الأشعث كان فيهم خَلْق من أهل العلم والدين، والله يغفر لهم كلهم. قال: وكان الحسن البصري يقول: إن الحجاج عذاب الله، فلا تدفعوا عذاب الله بأيديكم، ولكن عليكم بالاستكانة والتضرع، فإن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦]. وكان طلق ابن حبيب يقول: اتقوا الفتنة بالتقوى، فقيل له: أجمل لنا التقوى، فقال: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو رحمة الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله. وكان أفاضل المسلمين ينهون عن الخروج والقتال في الفتنة، كما كان عبد الله بن عمر، وسعيد بن المسيب، وعلي ابن الحسين، وغيرهم، ينهون عام الحرَّة عن الخروج على يزيد، وكما كان الحسن البصري ومجاهد وغيرهما ينهون عن الخروج في فتنة ابن الأشعث. ولهذا استقر أمر أهل السنة على ترك القتال في الفتنة للأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ـ ﷺ ـ، وصاروا يذكرون هذا في عقائدهم ويأمرون بالصبر على جَوْر الأئمة وترك قتالهم، وإن كان قد قاتل في الفتنة خَلْقٌ كثيرٌ من أهل العلم والدين. =

= وباب قتال أهل البغي والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يشتبه بالقتال في الفتنة، وليس هذا موضع بسطه، ومن تأمل الأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي - ﷺ - في هذا الباب، واعتبر أيضًا اعتبار أولي الأبصار علم أن الذي جاءت به النصوص النبوية خير الأمور، ولهذا لما أراد الحسين - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أن يخرج إلى أهل العراق لما كاتبوه كتبًا كثيرة، أشار عليه أفاضل أهل العلم والدين: كابن عمر، وابن عباس، وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ألا يخرج، وغلب على ظنهم أنه يُقتل حتى إن بعضهم قال: أستودعك الله من قتيل. وقال بعضهم: لولا الشفاعة لأمسكتك. والله ورسوله إنما يأمر بالصلاح لا بالفساد، لكن الرأي يصيب تارة ويخطئ أخرى. فتبين أن الأمر على ما قاله أولئك، ولم يكن في الخروج لا مصلحة دين ولا مصلحة دنيا، بل تمكن أولئك الظلمة الطغاة من سبط رسول الله - ﷺ - حتى قتلوه مظلومًا شهيدًا، وكان في خروجه وقتله من الفساد ما لم يكن حصل لو قعد في بلده، فإن ما قصده من تحصيل الخير ودفع الشر لم يحصل منه شيء، بل زاد الشر بخروجه وقتله ونقص الخير بذلك، وصار ذلك سببًا لشرٍ عظيم، وكان قتل الحسين مما أوجب الفتن كما كان قتل عثمان مما أوجب الفتن. وهذا كله مما يبين أن ما أمر به النبي - ﷺ - من الصبر على جَوْر الأئمة وترك قتالهم والخروج عليهم هو أصلح الأمور للعباد في المعاش والمعاد، وأن من خالف ذلك متعمدًا أو مخطئًا لم يحصِّل بفعله صلاحٌ، بل فسادٌ. ولهذا أثنى النبي - ﷺ - على الحسن بقوله: **«ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»**، ولم يثنِ على أحدٍ لا بقتالٍ في فتنة، ولا بخروجٍ على الأئمة، ولا نزع يدٍ من طاعة، ولا مفارقةٍ للجماعة». إلى أن قال: «وكذلك الحسن كان دائمًا يشير على أبيه وأخيه بترك القتال، ولما صار الأمر إليه ترك القتال وأصلح الله به بين الطائفتين المقتتلتين، وعلي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - في آخر الأمر تبين له أن المصلحة في ترك القتال أعظم منها في فعله. وكذلك الحسين - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لم يُقتل إلا مظلومًا شهيدًا تاركًا لطلب الإمارة، طالبًا للرجوع؛ إما إلى بلده، أو إلى الثغر، أو إلى المتولي على الناس (يزيد). وإذا قال القائل: إن عليًّا والحسين إنما تركا القتال في آخر الأمر للعجز؛ لأنه لم يكن لهما أنصار فكان في المقاتلة قتل النفوس بلا حصول المصلحة المطلوبة. قيل له: وهذا بعينه هو الحِكْمَة التي راعاها الشارع - ﷺ - في النهي عن الخروج على الأمراء، وندب إلى ترك القتال في الفتنة، وإن كان الفاعلون لذلك يرون أن مقصودهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كالذين خرجوا بالحرَّة وبدير الجماجم على يزيد والحجاج وغيرهما، لكن إذا لم يزل المنكر إلا بما هو أنكر منه صار إزالته على هذا الوجه منكرًا، وإذا لم يحصل المعروف إلا بمنكر مفسدته أعظم من مصلحة ذلك المعروف، كان تحصيل ذلك المعروف على هذا الوجه منكرًا. انتهى من «منهاج السنة» (٤/٥٢٧-٥٣٦).

وقد أثرت حادثة مقتل الحسين على المجتمع الإسلامي بصفة عامة، وهناك من انحرف من أبناء الأمة بسبب هذه الحادثة، وظهر بسببها التعصب والانحراف الفكري عند الكثيرين.

ـ ومن الأفاضل الذين عارضوا خروج الحسين:

محمد بن الحنفية(١): لما بلغ محمد بن الحنفية عزم أخيه الحسين على الخروج إلى الكوفة قدم عليه وقال: «يا أخي أنت أحب الناس إلي، وأعزهم علي، ولست أَدَّخِرُ النصيحة لأحد من الخلق أحق بها منك، تَنَح ببيعتك عن يزيد بن معاوية وعن الأمصار ما استطعت، ثم ابعث رسلك إلى الناس فادعهم إلى نفسك، فإن بايعوا لك حمدنا الله على ذلك، وإن أجمع الناس على غيرك لم ينقص الله بذلك دينك ولا عقلك، ويذهب به مروءتك ولا فضلك، إني أخاف أن تدخل مصرًا من هذه الأمصار وتأتي جماعة من الناس فيختلفون بينهم، فمنهم طائفة معك، وأخرى عليك فيقتتلون فتكون لأول الأسنة، فإذا خير هذه الأمة كلها نفسًا، وأبًا، وأمًا، أضيعها دمًا، وأذلها أهلًا. فقال الحسين: فإني ذاهب يا أخي، قال: فانزل مكة فإذا اطمأنت بك الدار فسبيل ذلك، وإن نبت بك لحقت بالرمال وشعف الجبال، وخرجت من بلد إلى بلد حتى تنتظر إلى ما يصير أمر الناس وتعرف عند ذلك الرأي فإنك أصوب ما تكون رأيًا وأحزمه عملًا حين تستقبل الأمور استقبالًا، ولا تكون الأمور عليك أبدًا أشكل منها حين تستدبرها استدبارًا. قال: يا أخي قد نصحت فأشفقت، وأرجو أن يكون رأيك سديدًا»(٢).

---

(١) محمد بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي، وأمه خولة بنت جعفر الحنفية، فينسب إليها تمييزًا عن أخويه الحسن والحسين، ولد في خلافة عمر بن الخطاب سنة إحدى وعشرين للهجرة، وهو أحد الأبطال الأشداء، كان ورعًا، واسع العلم ثقة، له عدة أحاديث في الصحيحين. انظر: «تهذيب التهذيب» (٩/ ٤٤٠).

(٢) «أنساب الأشراف» (٤/ ١٥، ١٦)، «تاريخ الرسل والملوك» (٥/ ٣٤١).

عبد الله بن عباس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ: ولما بلغ خبر عزمه على الخروج إلى ابن عمه عبد الله بن عباس أتاه، وقال: «يا ابن عم، إنه قد أرجف الناس أنك سائر إلى العراق، فبيّن لي ما أنت صانع؟ قال: قد أجمعت المسير في أحد يوميّ هذين ـ إن شاء الله تعالى ـ. فقال له ابن عباس: أخبرني إن كان عدوك بعد ما قتلوا أميرهم ونفوا عدوهم وضبطوا بلادهم فسر إليهم، وإن كان أميرهم حي وهو مقيم عليهم، قاهر لهم وعماله تجبي بلادهم فإنهم إنما دعوك للفتنة والقتال، ولا آمن عليك أن يستفزوا عليك الناس ويقلبوا قلوبهم عليك، فيكون الذي دعوك أشد الناس عليك. فقال الحسين: إني استخير الله وأنظر ما يكون». ولكن ابن عباس أدرك من كلام الحسين واستعداده أنه عازم على الخروج، ولكنه يحاول إخفاء الأمر عنه لعلمه بعدم رضاه عن ذلك، لذا جاء ابن عباس إلى الحسين من الغد فقال: «يا ابن عم إني أتصبر ولا أصبر، وإني أتخوف عليك في هذا الوجه الهلاك، أن أهل العراق قوم غدر فلا تغترن بهم، أقم في هذا البلد حتى ينفي أهل العراق عدوهم ثم أقدم عليهم، وإلا فسر إلى اليمن فإن به حصونًا وشعابًا، ولأبيك به شيعة، وكن عن الناس بمعزل، واكتب إليهم وبث دعاتك فيهم، فإني أرجو إذا فعلت ذلك أن يكون ما تحب. فقال الحسين: يا ابن عم، والله إني لأعلم أنك ناصح شفيق، ولكني قد أزمعت المسير. فقال له: فإن كنت ولا بد سائرًا فلا تسر بأولادك ونسائك، فوالله إني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه[1].

عبد الله بن الزبير ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ: وقد اتهمته بعض الروايات الضعيفة أنه أحد المتسببين في إقناع الحسين بالخروج إلى الكوفة، وهو نفسه ثبت عنه بأنه قد أسدى النصائح للحسين، وحذره من مغبة مغادرة مكة والذهاب إلى الكوفة، وقد نصح

(١) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/٣٨١)، «تاريخ دمشق» (ترجمة الحسين، ص ٢١٤).

الحسين قائلًا: «أين تذهب؟! إلى قوم قتلوا أباك وطعنوا أخاك؟! فقال له الحسين: «لأن أقتل بمكان كذا وكذا أحب إلي من أن تستحل بي. يعني مكة»(١).

عبد الله بن عمر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ: فقد نصح الحسين ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ في أكثر من موقف، فحين بلغه خروج ابن الزبير والحسين إلى مكة رافضين بيعة يزيد، لقيهما وقال: «أذكركما الله إلا رجعتما فدخلتما في صالح ما يدخل فيه الناس وتنظران، فإن اجتمع عليه الناس لم تشذا، وإن افترق عليه كان الذي تريدان»(٢). ولما قدم المدينة وبلغه خروج الحسين لأهل الكوفة لحقه ابن عمر على مسيرة ليلتين فقال: «أين تريد؟» قال: «العراق»، ومعه طوامير وكتب، فقال: «لا تأتهم. قال: هذه كتبهم وبيعتهم. فقال: إن الله خير نبيه بين الدنيا والآخرة، فاختار الآخرة، وإنكم بضعة منه، لا يليها أحد منكم أبدًا، وما صرفها الله عنكم إلا للذي هو خير لكم، فارجعوا»، فأبى، فاعتنقه ابن عمر، وقال: «استودعك الله من قتيل»(٣). وكان ابن عمر يقول بعد ذلك: «غلبنا الحسين بن علي بالخروج، ولعمري لقد رأى في أبيه وأخيه عبرة، ورأى من الفتنة وخذلان الناس لهم ما كان ينبغي له ألا يتحرك ما عاش، وأن يدخل في صالح ما دخل فيه الناس، فإن الجماعة خير»(٤).

وقد نظر بعض الصحابة إلى العمل الذي سيقدم عليه الحسين بأنه في حقيقته خروج على الإمام صاحب البيعة، كما نظروا إلى خروج الحسين وما يحمله خروجه على أنه نذير شر وبلاء على الأمة مهما كانت النتائج لأي من الطرفين، ومن هؤلاء:

---

(١) «المصنف» (١٥/ ٩٥)، وانظر: «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٧٢٥).
(٢) «الطبقات الكبرى» (١/ ٤٤٤).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٢٩٢).
(٤) «مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر» (٧/ ١٣٨).

أبو سعيد الخدري ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ: حيث قال: «غلبني الحسين على الخروج، وقد قلت له: اتقِ الله في نفسك والزم بيتك، ولا تخرج على إمامك»(١).

وقال جابر بن عبد الله ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ: «كلمت حسينًا فقلت له: اتقِ الله، ولا تضرب الناس بعضهم ببعض، فوالله ما حمدتم ما صنعتم فعصاني»(٢).

ولم تتوقف المحاولات الهادفة بين الحسين وبين خروجه إلى الكوفة فكتب إليه:

عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ: «أما بعد، فإني أسألك بالله لما انصرفت حين تنظر في كتابي، فإني مشفق عليك من الوجه الذي توجهت له أن يكون فيه هلاكك واستئصال أهل بيتك»(٣)، ولكن الحسين رفض الرجوع، وهنا ظن عبد الله بن جعفر أن سبب خروج الحسين هو خوفه من الوالي عمرو ابن سعيد بن العاص، فذهب إلى عمرو بن سعيد بن العاص وطلب منه أن يكتب كتابًا إلى الحسين يؤمنه فيه ويعده بالخير، وكان رد عمرو بن سعيد أن قال لعبد الله ابن جعفر: «اكتب ما شئت وائت به أختمه»، فكتب ابن جعفر: «بسم الله الرحمن الرحيم. من عمرو بن سعيد إلى الحسين بن علي، أما بعد، فإني أسأل الله أن يصرفك عما يبوقك، وأن يهديك لما يرشدك، بلغني أنك قد توجهت إلى العراق، وإني أعيذك بالله من الشقاق، فإني أخاف عليك فيه الهلاك، وقد بعثت إليك عبد الله بن جعفر، ويحيى بن سعيد، فأقبل إليّ معهما، فإن لك عندي الأمان، والبر والصلة، وحسن الجوار لك، والله بذلك شهيد وكفيل، ومراع ووكيل، والسلام عليك»، ولكن الحسين ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ رفض هذا الرجاء أيضًا وواصل مسيره(٤).

---

(١) «تهذيب الكمال» (٦/ ٤٦١)، «الطبقات» (١/ ٤٤٥)، «البداية والنهاية» (٩/ ١٦٥).

(٢) «الطبقات» (١/ ٤٤٥)، «تهذيب الكمال» (٦/ ٤٦١).

(٣) «تاريخ الرسل والملوك» (٦/ ٣١١).

(٤) «تاريخ الرسل والملوك» (٦/ ٣١١).

وقد حاول كثير من أهل الرأي والحكمة منع الحسين، وكتب إليه المسور بن مخرمة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ، وأبو واقد الليثي، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث، وعبد الله بن مطيع، وسعيد بن المسيب، الذي قال" لَوْ أَنَّ حُسَيْنًا لَمْ يَخْرُجْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُ"، وعمرو بن سعيد بن العاص، وابن عياش، ويزيد بن الأصم، والأحنف بن قيس، وعمرة بنت عبد الرحمن، وغيرهم[١]، ومن الملاحظ: إجماع كل من نصح الحسين على أن لا يخرج للعراق ولا يثق في أهل الكوفة. ومما يلفت الانتباه: إجماع الناصحين للحسين على خيانة أهل الكوفة ووجوب عدم الثقة بوعودهم.

كذلك يلفت الانتباه إجماعهم في توقعهم لمقتل الحسين كما يبدو ذلك من أسفهم عليه وكلمات التوديع له؛ وما ذلك إلا دليل على معرفة أولئك الناصحين من العلماء بالأوضاع، ووعيهم لما سبق من أحداث جرت إبان الفتنة بين علي ومعاوية عرفوا من خلالها الدوافع والأهواء التي تدفع ببعض الأقوام للاستفادة من إثارة الإحن ودوام الفتن[٢].

وكل هذه النصائح لم تؤثر على الحسين في قراره بالخروج إلى الكوفة، وعقد العزم على الخروج، وأخذ يجهز نفسه وأهل بيته للخروج، وبالفعل خرج في يوم التروية، الثامن من ذي الحجة سنة ٦٠ هـ-٦٨٠م، وخرج معه أهل بيته. وقيل: خرج معه ستون شيخ من أهل الكوفة، وهنا تكررت بعض المحاولات من كثير من الناصحين أثناء سير الحسين ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ إلى الكوفة، ولكنها دون جدوى،

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية(٨/١٧٧).

(٢) عبد الله الخرعان: أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية (ص ٤٨١).

فالحسين رغم كل ما سمعه من المقربين المخلصين لا يتراجع عن قراره، فهذا قدر الله وهذه حكمته، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا.

ولعل من الأسباب التي جعلت الحسين لا يتراجع عن رأيه، هو الواقع الذي يراه الحسين، فيزيد لن يترك الحسين هكذا دون بيعة، وربما توقع الحسين أن يزيدًا سيحمله على البيعة في أقرب وقت ممكن، ولن يرضى أن تكون له حرية التصرف دون بيعة، ولعل الحسين شعر بالحرج من وجوده في مكة دون بيعة الخليفة، دون أن يكون له ما يبرر موقفه بشكل واضح. أضف إلى ذلك: الخوف من تأصيل القيصرية والهرقلية والتوريث في الأمة، وهذا يعد من أنواع الفساد بلا شك، وكان موقف الحسين من بيعة يزيد بن معاوية هو موقف المعارض منذ البداية، والسبب في ذلك: الحرص على مبدأ الشورى، وأن يتولى الأمة أصلحها، ثم الصورة المشجعة التي نقلها له ابن عمه مسلم ابن عقيل لحالة الكوفة وأن أهلها جميعًا ينتظرون الحسين، والنصر يتوقف على حضور الحسين فقط، فربما كانت هذه بعض الأسباب التي جعلت الحسين اتخذ قراره بلا رجعة والله أعلى وأعلم[1].

موقف يزيد من أحداث الكوفة:

لم يغب عن يزيد تحركات الحسين، وخروجه من المدينة رافضًا البيعة واستقراره بمكة، وعلاقته مع الكوفيين، لكنه كان يريد العمل بوصية أبيه معاوية مع الحسين، وهي الرفق به؛ لذا لم يحرك يزيد ساكنًا مع معرفته بما يحدث، لكنه لما تأكد من تصميم الحسين على الاستجابة لدعوة أهل الكوفة، كتب لابن عباس؛ لأنه شيخ بني هاشم في عصره وعالم المسلمين قائلًا: «ونحسب أن رجالًا أتوه من

---

(١) «مواقف المعارضة في خلافة يزيد» (ص ٣٠٢).

المشرق فمنّوه الخلافة، فإنهم عندك منهم خبرة وتجربة، فإن كان فعل فقد قطع وشائج القرابة، وأنت كبير أهل بيتك، والمنظور إليه، فاكففه عن السعي في الفرقة»، ثم كتب بهذه الأبيات إليه، وإلى مكة والمدينة من قريش:

«يا أيها الراكب الغادي لطيته[١] ... على عُذَافرةٍ[٢] في سيرها قحم[٣]
أبلغ قريشًا على نأي المزار بها ... بيني وبين حسين الله والرحم»

إلى أن قال:

«يا قومنا لا تشبوا الحرب إذ خمدت ... وأمسكوا بجبال السلم واعتصموا
لا تركبوا البغي إن البغي مصرعه ... وإن شارب كأس البغي يتخم
فقد غرّت الحرب من كان قبلكم ... من القرون وقد بادت بها الأمم
فأنصفوا قومكم لا تهلكوا بذخًا ... فرب ذي بذخ زلت به القدم»[٤].

فكتب إليه ابن عباس: «إني لأرجو ألا يكون خروج الحسين لأمر تكرهه، ولست أدع النصيحة له في كل ما يجمع الله به الألفة وتطفى بها الثائرة»[٥].

وفي تلك الأثناء كانت الأحداث تتسارع، وذلك بعدما أخذ الشيعة يلتفون حول مسلم بن عقيل ويبايعونه، وعندما أحس النعمان بن بشير الأنصاري والي الكوفة بخطورة الوضع قام فخطب في الناس، وقال: «اتقوا الله عباد الله ولا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة فإن فيها يهلك الرجال، وتسفك الدماء، وتغصب الأموال»، وقال: «إني لن أقتل مَنْ لم يقاتلني، ولن أثب على من لا يثب علي، لا أشاتمكم ولا أتحرش بكم، ولا آخذ بالقرف ولا الظنة والتهمة، ولكن إن أبديتم صفحتكم لي،

---

(١) طيته: أي حاجته.
(٢) عذافرة: الناقة الشديدة العظيمة.
(٣) قحم: أي سريعة تطوي المنازل وتقتحمها منزلة بعد منزلة.
(٤) «البداية والنهاية» (١١/ ٥٠٥).
(٥) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٣٠٤).

ونكثتم بيعتكم، وخالفتم إمامكم، فوالله الذي لا إله غيره لأضربنكم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي، ولو لم يكن لي منكم ناصر، أما إني أرجو أن يكون من يعرف الحق منكم أكثر ممن يرديه الباطل»(١).

ولم تعجب يزيد سياسة النعمان فعزله من ولاية الكوفة وعين بدله عبيد الله ابن زياد واليه على البصرة؛ وذلك لأن بعض المقربين من يزيد أخبروه أن النعمان يميل إلى السلم، وقد ظهر هذا في حديثه وخطبته، وأقبل ابن زياد إلى الكوفة ودخلها متلثمًا والناس قد بلغهم إقبال الحسين إليهم، فهم ينظرون قدومه، فظنوا حين قدم عبيد الله أنه الحسين بن علي، فأخذ لا يمر على جماعة من الناس إلا سلموا عليه وقالوا: «مرحبًا بك يا ابن رسول الله، قدمت خير مقدم»، فلما أكثروا عليه صاح فيهم مسلم بن عمرو وقال: «تأخروا، هذا الأمير عبيد الله بن زياد». فلما نزل في القصر نودي الصلاة جامعة، فاجتمع الناس فخرج إليهم ثم خطبهم ووعد من أطاع منهم خيرًا، وتوعد من خالف وحاول الفتنة منهم شرًّا»(٢).

وكان عبيد الله يتمتع بشخصية قوية، وقد بدأ بمراقبة وحصر الفئات المؤيدة لمسلم بن عقيل والذين يؤمِّنون له السكن والمأوى والاجتماعات، وذلك عن طريق العرفاء، وقد نجح عبيد الله بهذا من تحجيم تحركات مسلم بن عقيل، ونجح في ضبط الأمن في الكوفة، وبدأ الخوف يدب في قلوب بعض المؤيدين لابن عقيل، واستطاع عبيد الله عن طريق أحد رجاله أن يصل إلى مكان اختباء ابن عقيل(٣). وحرص عبيد الله بن زياد على جمع المعلومات بواسطة جواسيسه على الفئات المعارضة، واستطاع أن يخترق أتباع مسلم بن عقيل، وعلم بنزول

---

(١) «تاريخ الرسل والملوك» (٦/ ٢٧٧).

(٢) «تاريخ الرسل والملوك» (٦/ ٢٨٠).

(٣) «المصدر السابق» (٦/٣٦١).

مسلم بن عقيل في دار هانئ بن عروة [١]، واستطاع عبيد الله بحيلة أن يأتي بهانئ في قصر الإمارة وواجهه بما يعرف؛ فأنكر هانئ في البداية، لكنه اعترف بعد ذلك؛ لأنه أيقن أن عبيد الله علم بكل شيء بعد أن استدعى عينه الذي استطاع الوصول إلى دار هانئ، فقال هانئ: «أصدُقُك والله أيها الأمير، وإني والله ما دعوت مسلم ابن عقيل وما شعرت به»، ثم قصّ عليه قصّته على وجهها، ثم قال: «فأمّا الآن فأنا مخرجه من داري لينطلق حيث يشاء، وأعطيك عهدًا وثيقًا أن أرجع إليك». قال ابن زياد: «لا والله لا تفارقني حتى تأتيني به. فقال هانئ: أو يجمل بي أن أسلم ضيفي وجاري للقتل، والله لا أفعل ذلك أبدًا». فاعترضه ابن زياد بالخيزرانة، فضرب وجهه، وهشم أنفه، وكسر حاجبه، وسال منه الدم، وأمر به فأدخل بيتًا وتم سجنه فيه[٢].

ولما بلغ مسلم بن عقيل خبر ضرب وجه هانئ بن عروة، أمر أن ينادى في أصحابه الذين بايعوه، واستخدم كلمة السر، وهي: « يَا مَنْصُورُ أَمِتْ أَمِتْ »[٣]، فتنادى أهل الكوفة فاجتمعوا إليه، وكان عدد الذين حضروا أربعة آلاف رجل[٤].

---

(١) «الأخبار الطوال» (ص ٢١٨).

(٢) «أنساب الأشراف» (٣/ ٢٢٤).

(٣) شعار من باب التفاؤل، حيث استعمله بعض الصحابة في بعض الغزوات، كبني المصطلق وخيبر.

(٤) «تاريخ الرسل والملوك» (٦/ ٢٨٠).

وتقدم مسلم بهذه الجموع، صوب قصر الإمارة التي يتحصن بها ابن زياد، وهنا طلب ابن زياد من أشراف الناس وزعماء الكوفة الذين معه في القصر، وكان قد جمعهم عنده، فطلب منهم أن يعظوا الناس ويخذلوهم ويخوفوهم بقرب أهل الشام، وصار هؤلاء الأمراء والزعماء يثبطون الناس، ويذكرونهم بالسلامة والأمن، وأنهم إن لم ينصرفوا سيحرمون من العطاء، وسيساقون إلى الثغور وسينالهم العقاب الشديد، ولم يكن التثبيط مقصورًا على الأمراء فقط، بل إن النساء كان لهن دور كبير في إضعاف عزيمة المناصرين لمسلم، إضافة إلى الآباء وكبار السن، فقد كان لهم نفس الدور، وكانت المرأة تأتي ابنها وأخاها وتقول: «انصرف، الناس يكفونك»، ويجيء الرجل إلى ابنه وأخيه ويقول: «غدًا يأتيك أهل الشام فما تصنع بالحرب والشر؟! انصرف»[(١)]. وأمام هذه الإجراءات السريعة من ابن زياد، وأمام الشد النفسي الذي نازع غالبية من انضموا إلى مسلم ابن عقيل أخذ هذا العدد يتضاءل حتى وصل إلى ستين رجلًا[(٢)].

ثم حدثت معركة بين مسلم وأتباعه وبين ابن الأشعث، والقعقاع بن شور، وثبت بن ربعي عند الرحبة، ويبدو أن هذه المعركة لم تدم طويلًا عندما تنبه القعقاع بن شور إلى أن المقاتلين إنما يقاتلون لأجل النجاة؛ عند ذلك أمر بإفساح الطريق لهم، فهربوا نحو المسجد، ولما أمسى المساء تفرق الناس وبقي مسلم ابن عقيل وحيدًا في طرقات الكوفة [(٣)]، وهكذا أصبح مسلم بن عقيل وحيدًا

---

(١) «تاريخ الرسل والملوك» (٦/ ٢٨١).

(٢) «الطبقات» (٥/ ٣٧٤).

(٣) «تاريخ الرسل والملوك» (٦/ ٢٩٣).

يتردد في طرق الكوفة، فأتى بيتًا فخرجت إليه امرأة، فقال: «اسقني»، فسقته، ثم دخلت، ومكثت ما شاء الله، ثم خرجت، فإذا به على الباب، فقالت: «يا هذا، إن مجلسك مجلس ريبة، فقم، فقال: أنا مسلم بن عقيل، فهل عندك مأوىً؟ قالت: نعم»، فأدخلته، وكان ابنها مولى لمحمد بن الأشعث، فانطلق إلى مولاه فأعلمه، فبعث عبيد الله الشُّرَط إلى مسلم، فخرج وسل سيفه، وقاتل فأعطاه ابن الأشعث أمانًا فسلمّ نفسه بعدما جُرح وسال منه الدم[1]، ودخل على ابن زياد فقال له: «إني قاتلك». قال: «كذلك؟»، قال: «نعم». قال: «فدعني أوصي إلى بعض قومي»، قال: «أوصي». فنظر مسلم في جلسائه وفيهم عمر بن سعد بن أبي وقاص، فقال: «عمر، إن بيني وبينك قرابة، ولي إليك حاجة، وهي سر، فقم معي إلى ناحية القصر حتى أقولها لك»، فأبى أن يقوم معه حتى أذن له ابن زياد، فقام فتنحى قريبًا من ابن زياد، فقال له مسلم: «إن عليَّ دينًا في الكوفة سبعمائة درهم، فاقضها عني، واستوهب جثتي من ابن زياد فَوَارِهَا، وابعث إلى الحسين، فإني كنت قد كتبت إليه أن الناس معه، ولا أراه إلا مقبلًا»، فقام عمر فعرض على ابن زياد ما قال له، فأجاز ذلك كله، ثم أمر ابن زياد بقتل مسلم واتخذ ابن زياد إجراءً يدل على قسوته وجبروته وظلمه، فقد أمر بهانئ فأخرج إلى السوق وقتل وظل هانئ يصيح لقبيلته مذحج، ولكن لم ينصره أحد، ثم صلب هانئ ومسلم في سوق أمام الناس ثم أمر بضرب أعناق اثنين من الذين كانوا يخططون لنصر مسلم بن عقيل وصلبهما في السوق أيضًا[2]، وكان مسلم بن عقيل يدعو

(١) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٣٠٨).

(٢) «مروج الذهب» (٦٩/٣)، «التمثيل والمحاضرة» (ص ٤١)، «تاريخ الرسل والملوك» (٦/ ٣١٠).

عليهم عند قتله ويقول: «اللّهمّ احكم بيننا وبين قوم غرُّونا وكذبونا ثم خذلونا وقتلونا»(١).

موقف عبيد الله بن زياد من الحسين ومعركة كربلاء عام ٦١هـ:

خرج الحسين ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ من مكة يوم التروية الموافق لثمان من ذي الحجة سنة ستين، وأدرك والي مكة عمرو بن سعيد بن العاص خطورة الموقف فأرسل وفدًا إلى الحسين، وعلى رأسهم أخوه يحيى بن سعيد بن العاص، فحاولوا أن يثنوه عن عزمه، ولكنه رفض فنادوه: «يا حسين، ألا تتقي الله تخرج عن جماعة المسلمين وتفرق بين هذه الأمة»، فردَّ الحسين بقول الله ـ تعالى ـ: ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١]. فخرج الحسين متوجهًا إلى العراق في أهل بيته وستين شيخًا من أهل الكوفة (٢)، وكتب مروان بن الحكم وعمرو بن سعيد بن العاص إلى ابن زياد ينهيانه عن التعرض للحسين، وأن يكون حذرًا في تعامله مع الحسين فهو الحسين بن فاطمة، وفاطمة بنت رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ، وتالله ما أحد يسلمه الله أحب إلينا من الحسين، وإياك أن تهيج على نفسك ما لا يسده شيء ولا ينساه العامة، ولا يدع ذكره، والسلام عليك(٣).

---

(١) «مروج الذهب» (٣/ ٦٩).

(٢) «تاريخ الرسل والملوك» (٦/ ٣١٠).

(٣) «الطبقات» (٥/ ١٦٧)، «تهذيب الكمال» (٦/ ٤٢٢).

وفي الطريق إلى الكوفة قابل الحسين الفرزدق الشاعر المشهور بذات عرق[(١)] فسأله الحسين بن علي عن تصوره لما يقوم به أهل الكوفة حياله، ثم أراد أن يعطي الفرزدق إيضاحًا أكثر وقال: «هذه كتبهم معي»، فرد عليه الفرزدق: «يخذلونك فلا تذهب فإنك تأتي قومًا قلوبهم معك وأيديهم عليك»[(٢)]. واستمر الحسين في مسيره إلى الكوفة وهو لا يعلم شيئًا عن التغيرات التي حدثت، واتخذ ابن زياد بعض التدابير لكي يحول بين أهل الكوفة وبين الحسين، ويحكم سيطرته على الكوفة، فقام بجمع المقاتلة وفرق عليهم العطاء حتى يضمن ولاءهم ثم أصدر أوامره إلى الحصين بن تيم صاحب شرطته بأن يقبض على كل من ينكره، ثم أمر ابن زياد بمراقبة جميع الطرق ما بين مكة والشام والبصرة، وأرسل خيله إلى حدود الكوفة ومنافذها، ولم يترك أحدًا يدخل أو يخرج، وبهذا قطع الاتصالات بين الكوفة والحسين[(٣)].

وكانت لتلك الإجراءات الأمنية الصارمة التي اتخذها ابن زياد أثر كبير على نفوس أتباع الحسين، فهم يرون أن من كان له علاقة بالحسين فإن مصيره القتل وعلى أبشع صوره، فأصبح من يفكر في نصرة الحسين فإن عليه أن يتصور نهايته على ذلك النحو المؤلم، ولما بلغ الحسين زبالة[(٤)]، وقيل: شراف[(٥)] جاءه خبر مَقْتَل

---

(١) ذات عرق على مرحلتين من مكة. وهو ميقات أهل العراق، وهو الحد بين نجد وتهامة. انظر: «معجم البلدان» (١٠٨/٤).

(٢) «البداية والنهاية» (١١/ ٥١٠)، «أنساب الأشراف» (١٦٥/٣).

(٣) «البداية والنهاية» (١١/ ٥١٢).

(٤) زبالة: منزل معروف بطريق مكة من الكوفة بين واقصة والثعلبين. «معجم البلدان» (١٢٩/٣).

(٥) شراف: بين واقصة والقرعاء على ثمانية أميال من الأحساء. «معجم البلدان» (٣٣١/٣).

مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة وعبد الله بن بقطر، إضافة إلى تخاذل أهل الكوفة عن نصرته. وكان لهذا الخبر المفجع المؤلم وقعه الشديد على الحسين ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ، فهؤلاء أقرب الناس إليه قد قتلوا وأهل الكوفة تخاذلوا في نصرته(١).

ولما بلغ الحسين مقتل ابن عمه مسلم بن عقيل وتخاذل الناس عنه أعلم الحسين من معه بذلك، وقال: «من أحب أن ينصرف فلينصرف» فتفرق الناس عنه يمينًا وشمالًا! وقال له بعض من ثبتوا معه: «ننشدك الله إلا ما رجعت من مكانك، فإنه ليس لك بالكوفة ناصر ولا شيعة، بل نتخوف أن يكونوا عليك».

وهنا راجع الحسين أمره وفكر في الوضع الراهن والواقع في الكوفة، وَهَمَّ أَنْ يتراجع، وشاركه في رأيه ابنه الأكبر علي(٢)، فوثب بنو عقيل إخوة مسلم وقالوا: «والله لا نبرح حتى ندرك ثأرنا أو نذوق كما ذاق مسلم»(٣)، ثم قال له بعض من حوله: «إنك لست كمسلم بن عقيل ولو قدمت الكوفة لأسرع الناس إليك»(٤).

فواصل الحسين سيره، وكان ابن زياد قد أمر الحرَّ بن يزيد وكان يقود ألف فارس أن يعسكر في شراف، وأن يلازم الحسين عندما يدركه ولا يأذن له بالانصراف حتى يدخله الكوفة، وقد أدرك الحرُّ بن يزيد الحسين ومن معه قريبًا من شراف. ولما طلب منه الحسين الرجوع منعه، وذكر له أنه مأمور بملازمته حتى الكوفة، وقام الحسين وأخرج خرجين مملوءة بالكتب التي تطلب منه القدوم إلى الكوفة، فأنكر الحر والذين معه أي علاقة لهم بهذه الكتب، وهنا رفض الحسين الذهاب

---

(١) «تاريخ الرسل والملوك» (٦/ ٣٢٢).

(٢) «الطبقات» (٥/ ١٦٩).

(٣) «تاريخ الرسل والملوك» (٦/ ٣٢٢).

(٤) «المصدر السابق» (٦/ ٣٢٤).

مع الحر إلى الكوفة وأصر على ذلك، فاقترح عليه الحر أن يسلك طريقًا يجنبه الكوفة ولا يرجعه إلى المدينة، وذلك من أجل أن يكتب الحر إلى ابن زياد بأمره، وأن يكتب الحسين إلى يزيد بأمره. وبالفعل تياسر الحسين عن طريق العذيب والقادسية واتجه شمالًا على طريق الشام، وأخذ الحر يساير الحسين وينصحه بعدم المقاتلة ويذكّره بالله، وبيّن له أنه إذا قاتل فسوف يقتل، وكان الحسين يصلي بالفريقين إذا حضرت الصلاة [١].

ولما وصل الحسين إلى كربلاء أدركته خيل عمر بن سعد ومعه شمر ابن ذي الجوشن، والحصين بن تميم [٢]، وكان هذا الجيش الذي يقوده عمر ابن سعد مكونًا من أربعة آلاف مقاتل، ولما وصل الحسين كربلاء أحاطت به الخيل، وبدأ الحسين بن علي بالتفاوض مع عمر بن سعد، وبيّن الحسين أنه لم يأتِ إلى الكوفة إلا بطلب من أهلها. وأبرز لعمر بن سعد الدليل على ذلك، وأشار إلى حقيبتين كبيرتين تتضمن أسماء المبايعين والداعين للحسين، وكتب عمر بن سعد لابن زياد بما سمعه من الحسين وقال: «بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد، فإني حيث نزلت بالحسين بعثت إليه رسولي، فسألته عما أقدمه وماذا يطلب؟ فقال: كتب إلي أهل هذه البلاد وأتتني رسلهم، فسألوني القدوم ففعلت، فأما إذا كرهوني، فبدا لهم غير ما أتتني به رسلهم فأنا منصرف عنهم». فلما قرِئ على ابن زياد تمثل قول الشاعر:

الآن إذا علقت مخالبنا به ... يرجو النجاة ولات حين مناص

---

(١) «تاريخ الرسل والملوك» (٦/ ٣٢٩).

(٢) «أنساب الأشراف» (٣/ ١٦٦).

ثم كتب ابن زياد لعمر بن سعد: «بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد، فقد بلغني كتابك، وفهمت ما ذكرت، فاعرض على الحسين أن يبايع ليزيد بن معاوية وجميع أصحابه، فإذا فعل ذلك رأيْنا رأينَا والسلام». ولما اطلع عمر بن سعد على جواب ابن زياد ساءه ما يحمله الجواب من تعنت، وعرف أن ابن زياد لا يريد السلامة[١]، ورفض الحسين هذا العرض، ثم لما رأى جهامة الموقف وخطورته طلب من عمر بن سعد مقابلته، وعرض على عمر بن سعد عرضًا آخر يتمثل في إجابته واحدة من ثلاث نقاط:

أ- أن يتركوه فيرجع من حيث أتى.

ب - وإما أن يتركوه ليذهب إلى الشام فيضع يده في يد يزيد بن معاوية.

جـ - وإما أن يسيّروه إلى أي ثغر من ثغور المسلمين فيكون واحدًا منهم له ما لهم وعليه ما عليهم[٢].

وقد أكد الحسين ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ موافقته للذهاب إلى يزيد، وكتب عمر بن سعد إلى ابن زياد بكتاب أظهر فيه أن هذا الموقف المتأزم قد حُلّ، وأن السلام قد أوشك، وما عَلَى ابن زياد إلا الموافقة، وبالفعل فقد أوشك ابن زياد أن يوافق ويرسله إلى يزيد، لولا تدخل شمر بن ذي الجوشن الذي كان جالسًا في المجلس حين وصول الرسالة فقد اعترض على رأي ابن زياد في أن يرسله إلى يزيد، وبيَّن لابن زياد أن الأمر الصائب هو أن يطلب من الحسين أن ينزل على حكمه ـ أي ابن زياد ـ حتى

(١) «تاريخ الرسل والملوك» (٦/ ٣٣١).

(٢) «المحاسن والمساوئ» (ص ٨٣)، و«أنساب الأشراف» (٣/٢٢٩)، «تاريخ الرسل والملوك» (٦/٣٣٢).

يكون هو صاحب الأمر المتحكم فيه[١]، فلما وصل الخبر إلى الحسين ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ رفض الطلب، وقال: «لا والله، لا أنزل على حكم عبيد الله ابن زياد أبدًا»، وقال لأصحابه الذين معه: «أنتم في حِلٍ من طاعتي»، ولكنهم أصرّوا على مصاحبته والمقاتلة معه حتى الشهادة[٢].

واتخذ ابن زياد إجراءً احترازيًّا حين خرج إلى النخيلة[٣]، واستعمل على الكوفة عمرو بن حريث، وضبط الجسر ولم يترك أحدًا يجوزه، وخاصة أنه علم أن بعض الأشخاص من الكوفة بدأوا يتسللون من الكوفة إلى الحسين[٤]، وانضم الحر بن يزيد إلى الحسين لِيُكَفِّر عن فعله، فهو الذي منع الحسين من الرجوع إلى المدينة، وانضم إليه أيضًا ثلاثون رجلًا من جيش عمر بن سعد[٥].

وفي صباح يوم الجمعة العاشر من شهر المحرم عام ٦١هـ-٦٨٠م نظم الحسين ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ أصحابه وعزم على القتال، وكان معه اثنان وثلاثون فارسًا، وأربعون راجلًا، فجعل زهير بن القين في ميمنته، وحبيب بن مظاهر في الميسرة، وأعطى رايته العباس بن علي، وجعل البيوت وراء ظهورهم، وأمر الحسين بحطب وقصب فجعله من وراء البيوت، وأشعل فيه النار مخافة أن يأتوهم من خلفهم[٦].

---

(١) «المحن» (ص ١٥٤)، «تاريخ الرسل والملوك» (٦/ ٣٣٤).
(٢) «المصدر السابق» (٦/ ٣٤٦).
(٣) النخيلة: تصغير نخلة. موضع قرب الكوفة. «معجم البلدان» (٥/ ٢٧٨).
(٤) «الطبقات» (٥/ ٣٧٨).
(٥) «المحن» (ص ١٥٥)، «ابن عساكر: ترجمة الحسين» (ص ٢٣٠).
(٦) «تاريخ الرسل والملوك» (٦/ ٣٤٨).

وأما عمر بن سعد[١]، فقد نظم جيشه، وجعل على الميمنة: عمرو بن الحجاج الزبيدي بدلًا من الحر بن يزيد الذي انضم إلى الحسين، وجعل على الميسرة: شمر بن ذي الجوشن، وعلى الخيل: عزرة بن قيس الأحمسي، وعلى الرجال: شبث بن ربعي الرياحي، وأعطى الراية ذويدًا مولاه، وبدأت المعركة سريعة وكانت مبارزة في بداية الأمر، وكانت المقاومة شديدة من قبل أصحاب الحسين، حيث إن مقاتلتهم اتسمت بالفدائية فلم يعد لهم أمل في الحياة[٢]، وتفيد بعض الروايات أنهم منعوا الماء عن الحسين رضي الله عنه، وكان الحسين ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ في البداية لم يشترك في القتال، وكان أصحابه يدافعون عنه، ولما قُتل أصحابه لم يَجْرُؤْ أحد على قتله، وكان جيش عمر بن سعد يتدافعون ويخشى كل فرد أن يبوء بقتله وتمنوا أن يستسلم، ولكن الحسين ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ لم يبدِ شيئًا من الليونة، بل كان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ يقاتلهم بشجاعة نادرة، عندئذٍ خشي شمر بن ذي الجوشن من انفلات زمام الأمور فصاح بالجند وأمرهم بقتله، فحملوا عليه، وضربه زُرْعَة بن شريك التميمي ثم طعنه سنان ابن أنس النخعي واحتز رأسه، ويقال: إن الذي قتله: عمرو بن بطار التغلبي، وزيد بن رُقاد الجنبي.

---

(١) كان عمر بن سعد لا يستشير أحدًا إلا نهاه عن المسير إلى الحسين، حتى قال له ابن أخته حمزة بن المغيرة بن شعبة: إياك أن تسير إلى الحسين فتعصي ربك وتقطع رحمك، فوالله لأن تخرج من سلطان الأرض كلها أحب إليك من أن تلقى الله بدم الحسين، فقال: إني أفعل إن شاء الله تعالى، ثم إن عبيد الله بن زياد تهدده وتوعده بالعزل والقتل.

(٢) «المصدر السابق» (٦/ ٣٥٠).

ويقال: إن المتولي للإجهاز عليه: شمر بن ذي الجوشن الضبي، وحمل رأسه إلى ابن زياد خولي بن يزيد الأصبحي[١]. ولا تعارض بين الروايات، فهؤلاء جميعًا اشتركوا في قتل الحسين ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ[٢]، ولكن الثابت أن سنان بن أنس هو من قتله[٣].

وكان قتله ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ في محرم في العاشر منه سنة إحدى وستين. وقُتل مع الحسين ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ اثنان وسبعون رجلًا، وقتل من أصحاب عمر ثمان وثمانون رجلًا، وكان الذين قتلوا مع الحسين ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ من آل أبي طالب، سبعة عشر شابًا، منهم خمسة من إخوته، وقُتل من أولاده: عبد الله، وعلي الأكبر[٤] ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ[٥].

لقد قُتل الحسين وهو ابن ست وخمسين سنة، وبعد انتهاء المعركة أمر عمر بن سعد بألا يدخل أحد على نساء الحسين وصبيانه، وأن لا يتعرض لهم أحد بسوء[٦]، وأرسل عمر بن سعد برأس الحسين ونسائه ومَن كان معه الصبيان إلى ابن زياد.

---

(١) «المصدر نفسه» (٦/ ٣٥٥).

(٢) «مواقف المعارضة في خلافة يزيد» (ص ٣٤٩).

(٣) «المعجم الكبير» (٣/ ١١١).

(٤) علي الأكبر غير عليّ زين العابدين؛ لأنه كان عنده علي الأصغر، وعلي الأكبر، وعبد الله. ومن أبناء الحسن: قتل عبد الله، والقاسم، وأبو بكر. ومن أولاد عقيل: قتل جعفر، وعبد الله، وعبد الرحمن، ومسلم بن عقيل قتل بالكوفة، وعبد الله بن مسلم. ومن أولاد عبد الله ابن جعفر: قتل عون، ومحمد، فقيل: قُتل ثمانية عشر رجلًا كلهم من بيت رسول الله قد قتلوا في هذه المعركة. «تاريخ خليفة بن خياط» (ص ٢٣٤).

(٥) «تاريخ الخلفاء» (ص ٢٠٧)، «الطبقات» (٥/ ٤٠٥)، «المحن» (ص ١٥٧).

(٦) «الطبقات» (٥/ ٣٨٥).

ولما وصل نساء الحسين وصبيانه أمر لهم بمنزل في مكان معتزل فأجرى عليهم الرزق، وأمر لهن بالكسوة والنفقة(١).

وهناك روايات كثيرة تتحدث عن صفة مقتله؛ وتأثر الكون كله بمقتله ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ، وعن الذلة والمهانة التي تعرض لها أهله ونساؤه بعد مقتله، وهذا كله كذب وباطل ولم يثبت(٢).

---

(١) «أنساب الأشراف» (٣/ ٢٢٦). قلتُ: لقد قُتِلَ الحسين ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ في يوم عاشوراء ٦١هـ، وقد قُتل عبيد الله بن زياد المتحمل الأول لدم الحسين أيضًا في يوم عاشوراء عام ٦٧هـ على يد إبراهيم بن الأشتر الذى قطع رأس ابن زياد وأرسل بها إلى المختار الثقفي. وتم تتبع كل من شاركوا في قتل الحسين وتم قتل معظمهم في الكوفة.

(٢) وليس صحيحًا كذلك أن ابن زياد قد أساء معاملة نساء الحسين بعد قتله، أو في ترحيله لهن إلى الشام، فالروايات التاريخية تخبرنا أن أحسن شيء صنعه ابن زياد أنه أمر لهن بمنزل في مكان معتزل، وأجرى عليهن رزقًا، وأمر لهن بنفقة وكسوة.

ويقول ابن تيمية في رده على بعض كذابي الشيعة: «وأما ما ذكره من سبي نسائه والدوران بهن على البلدان وحملهن على الجمال بغير أقتاب، فهذا كذب، وباطل وما سبى المسلمون ـ ولله الحمد ـ هاشمية قط، ولا استحلت أمة محمد ـ ﷺ ـ هاشمية قط، ولكن أهل الهوى والجهل يكذبون كثيرًا». بل المرجح أن ابن زياد بعد أن ذهبت عنه نشوة النصر، أحس بفداحة خطئه، وكان ذلك الشعور هو المسيطر على بعض أفراد أسرته القريبين منه، فقد كانت أمه تقول له: «ويلك ماذا صنعت، أو ماذا ركبت؟!»، وكان أخوه عثمان بن زياد يقول: «لوددت والله أنه ليس من بني زياد رجل إلا وفي أنفه خزامة إلى يوم القيامة، وأن حسينًا لم يقتل!» فلا ينكر عليه عبيد الله قوله.

وقال ابن كثير: «ولقد بالغ الشيعة في يوم عاشوراء، فوضعوا أحاديث كثيرة كذبًا فاحشًا، من كون الشمس كسفت يومئذٍ حتى بدت النجوم، وما رفع يومئذٍ حجر إلا وجد تحته دم، وأن أرجاء السماء احمرت، وأن الشمس كانت تطلع وشعاعها كأنه الدم، وصارت السماء كأنها

ونشير إلى أن رسول الله ـ ﷺ ـ قد أخبر فيما رُوِيَ عنه أن الحسين سيُقتل بشط الفرات، وهذه من معجزات رسول الله ـ ﷺ ـ[1].

علقة، وأن الكواكب ضرب بعضها بعضًا، وأمطرت السماء دمًا أحمر، وأن الحمرة لم تكن في السماء قبل يومئذٍ، ونحو ذلك.

وروى ابن لهيعة، عن أبي قبيل المعافري: أن الشمس كسفت يومئذٍ حتى بدت النجوم وقت الظهر، وأن رأس الحسين لما دخلوا به قصر الإمارة جعلت الحيطان تسيل دمًا، وأن الأرض أظلمت ثلاثة أيام، ولم يمس زعفران ولا ورس مما كان معه يومئذٍ إلا احترق من مسه، ولم يرفع حجر من حجارة بيت المقدس إلا ظهر تحته دم عبيط، وأن الإبل التي غنموها من إبل الحسين حين طبخوها صار لحمها مثل العلقم إلى غير ذلك من الأكاذيب والأحاديث الموضوعة التي لا يصح منها شيء. «البداية والنهاية» (٢٠١٩/٨).

(١) عن عبد الله بن يحيى، عن أبيه أنه سار مع علي ـ وكان صاحب مطهرته ـ فلما جاءوا نينوى وهو منطلق إلى صفين. فنادى علي: «اصبر أبا عبد الله، اصبر أبا عبد الله»، بشط الفرات قلت: «وماذا تريد؟» قال: «دخلت على رسول الله ـ ﷺ ـ ذات يوم وعيناه تفيضان فقلت: ما أبكاك يا رسول الله؟ قال: **«بلى، قام من عندي جبريل قبل، فحدثني أن الحسين يقتل بشط الفرات، قال: فقال: هل لك أن أشمك من تربته؟ قال: فمد يده فقبض قبضة من تراب فأعطانيها فلم أملك عيني أن فاضتا»** قال الألباني: «قلت: وهذا إسناد ضعيف، نجي والد عبد الله لا يدرى من هو كما قال الذهبي، ولم يوثقه غير ابن حبان وابنه أشهر منه، فمن صحح هذا الإسناد فقد وهم». والحديث قال الهيثمي (٩ / ١٨٧): «رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني ورجاله ثقات ولم ينفرد نجي بهذا». قال الألباني: «قلت: يعني أن له شواهد تقويه وهو كذلك». وعن عبد الله بن سعيد عن أبيه عن عائشة أو أم سلمة قال وكيع: شك هو يعني عبد الله بن سعيد ـ أن النبي ـ ﷺ ـ قال لأحدهما: **«لقد دخل علي البيت ملك لم يدخل علي قبلها، فقال لي: إن ابنك هذا ـ حسين ـ مقتول، وإن شئت أريتك من تربة الأرض التي يقتل بها. قال: فأخرج تربة حمراء»**. قال الألباني: «قلت: وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين»، وحسنه شعيب الأرناؤوط.

موقف يزيد بن معاوية من قتل الحسين ومن أهل الحسين وذريته:

كتب عبيد الله بن زياد إلى يزيد بن معاوية يخبره بما حدث ويستشيره في شأن أبناء الحسين ونسائه، فلما بلغ الخبر يزيد بن معاوية بكى وقال: «كنت أرضى من طاعتكم - أي أهل العراق - بدون قتل الحسين، كذلك عاقبة البغي والعقوق، لعن الله ابن مرجانة لقد وجده بعيد الرحم منه، أما والله لو أني صاحبه لعفوت عنه فرحم الله الحسين»(١). وفي رواية أنه قال: «أما والله لو كنت صاحبه، ثم لم أقدر على دفع القتل عنه إلا ببعض عمري لأحببت أن أدفعه عنه»(٢)، فجاء رد يزيد على ابن زياد يأمره بإرسال الأسارى إليه، وبادر ذكوان أبو خالد فأعطاهم عشرة آلاف درهم فتجهزوا بها(٣).

وَقِيلَ: وَلَمَّا وَصَلَ رَأْسُ الْحُسَيْنِ إِلَى يَزِيدَ حَسُنَتْ حَالُ ابْنِ زِيَادٍ عِنْدَهُ وَزَادَهُ وَوَصَلَهُ وَسَرَّهُ مَا فَعَلَ، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ إِلَّا يَسِيرًا (حَتَّى بَلَغَهُ بُغْضُ النَّاسِ لَهُ وَلَعْنُهُمْ وَسَبُّهُمْ) ، فَنَدِمَ عَلَى قَتْلِ الْحُسَيْنِ، فَكَانَ يَقُولُ: وَمَا عَلَيَّ لَوِ احْتَمَلْتُ الْأَذَى وَأَنْزَلْتُ الْحُسَيْنَ مَعِي فِي دَارِي وَحَكَّمْتُهُ فِيمَا يُرِيدُ، وَإِنْ كَانَ عَلَيَّ فِي ذَلِكَ وَهْنٌ فِي سُلْطَانِي حِفْظًا لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَرِعَايَةً لِحَقِّهِ وَقَرَابَتِهِ، لَعَنَ اللَّهُ ابْنَ مَرْجَانَةَ فَإِنَّهُ اضْطَرَّهُ، وَقَدْ سَأَلَهُ أَنْ يَضَعَ يَدَهُ فِي يَدِي أَوْ يَلْحَقَ بِثَغْرٍ حَتَّى يَتَوَفَّاهُ اللَّهُ، فَلَمْ يُجِبْهُ إِلَى ذَلِكَ فَقَتَلَهُ، فَبَغَّضَنِي بِقَتْلِهِ إِلَى الْمُسْلِمِينَ، وَزَرَعَ فِي قُلُوبِهِمُ

---

(١) «تاريخ الرسل والملوك» (٦/ ٣٥٩) «أنساب الأشراف» (٣/ ٢٢٩).

(٢) «الأباطيل والمناكير والصحاح والمشاهير» (١/ ٢٦٥) بسندٍ كل رجاله ثقات إلا أن فيه انقطاعًا بين الشعبي والمدائني.

(٣) «الطبقات» (٥/ ٣٩٣).

الْعَدَاوَةَ، فَأَبْغَضَنِي الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ بِمَا اسْتَعْظَمُوهُ مِنْ قَتْلِي الْحُسَيْنَ، مَا لِي وَلِابْنِ مَرْجَانَةَ، لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ![1].

ومن هنا يعلم أن ابن زياد لم يحمل آل الحسين بشكل مؤلم أو أنه حملهم مغللين، كما ورد في بعض الروايات، وقد مر معنا كيف أن ابن زياد قد أمر للأسارى بمنزل منعزل وأجرى عليهم الرزق والنفقة وكساهم.

وتذكر رواية عوانة: أن محفز بن ثعلبة هو الذي قدم بأبناء الحسين على يزيد[2]، ولما دخل أبناء الحسين على يزيد قالت فاطمة بنت الحسين: «يا يزيد: أبنات رسول الله ـ ﷺ ـ سبايا؟! قال: بل حرائر كرام، ادخلي على بنات عمك تجديهن قد فعلن ما فعلت». قالت فاطمة: «فدخلت إليهن فما وجدت فيهن سفيانية إلا ملتزمة تبكي»[3].

وعندما دخل علي بن الحسين قال يزيد: «يا حبيب، إن أباك قطع رحمي وظلمني، فصنع الله به ما رأيت». وكان علي بن الحسين في معركة كربلاء لم يشترك بسبب المرض الذي كان ملازمه، وكان أثناء احتدام المعركة طريح الفراش فحمل إلى ابن زياد مع بقية الصبيان والنساء، فرد علي بن الحسين على يزيد: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [الحديد: ٢٢]. ثم طلب يزيد من ابنه خالد أن يجيبه، فلم يدر خالد ما يقول،

---

(١) «تاريخ الرسل والملوك» (٣٥٩/٦)، ابن الأثير: الكامل في التاريخ(١٩٠/٣).

(٢) «تاريخ الرسل والملوك» (٣٤٩/٦).

(٣) «العقد الفريد» (٣٨٣/٤).

فقال يزيد: «قل له: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠][١]».

وهناك بعض الروايات تفيد بأن أبناء الحسين وبناته تعرضن للمهانة وكأنهن في مزاد علني، فهذا من الكذب البين الذي لم يدعمه سند صحيح، ثم إنها مغايرة لما ثبت من إكرام يزيد لآل الحسين، ثم إن يزيد لم يستعرض النساء ويجعلهن عرضة للجمهور ليختر ما يشاء[٢].

وأرسل يزيد إلى كل امرأة من الهاشميات يسأل عن كل ما أخذ منهن، وكل امرأة تدعي شيئًا بالغًا ما بلغ إلا أضعفه لهن في العطية، وكان يزيد لا يتغذى ولا يتعشى إلا دعا علي بن الحسين[٣].

وبعث يزيد إلى المدينة فقدم عليه ذوي السن من موالي بني هاشم ومن موالي بني علي، وبعد أن وصل الموالي أمر يزيد بنساء الحسين وبناته أن يتجهزن، وأعطاهن كل ما طلبن حتى لم يدع لهن حاجة بالمدينة إلا أمر بها[٤]، ثم أمر النعمان بن بشير أن يقوم بتجهيزهم[٥]، وقبل أن يغادروا قال يزيد لعلي ابن الحسين: «إن أحببت أن تقيم عندنا فنصل رحمك، ونعرف لك حقك فعلت»، ولكن علي بن الحسين اختار الرجوع إلى المدينة، وأكرم يزيد أبناء الحسين وخيّرهم بين المقام عنده والذهاب إلى المدينة فاختاروا الرجوع إلى المدينة[٦]، وعند مغادرتهم دمشق كرّر

---

(١) «تاريخ الرسل والملوك» (٦/ ٣٦٠)، «أنساب الأشراف» (٣/ ٢٣٣).

(٢) «مواقف المعارضة في خلافة يزيد» (ص ٣٦١).

(٣) «الطبقات» (٥/ ٣٩٧).

(٤) «المصدر السابق» (٥/ ٣٩٧)، «تاريخ الرسل والملوك» (٦/ ٣٩٢).

(٥) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٣٨٦).

(٦) «تاريخ الرسل والملوك» (٦/ ٣٩٣)، «منهاج السنة» (٤/ ٥٥٩).

يزيد الاعتذار من علي بن الحسين وقال: «لعن الله ابن مرجانة، أما والله لو أني صاحبه ما سألني خصلة أبدًا إلا أعطيتها إياه، ولدفعت عنه الحتف بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدي، ولكن الله قضى ما رأيت، كاتبني بكل حاجة تكون لك»(١). وأمر يزيد بأن يرافق ذرية الحسين وفد من موالي بني سفيان، وكان عددهم ثلاثين فارسًا، وأمر المصاحبين لهم أن ينزلوا حيث شاءوا ومتى شاءوا، وبعث معهم أيضًا: محرز بن حريث الكلبي ورجل من بهرا، وكانا من أفاضل أهل الشام، وخرج آل الحسين من دمشق محفوفين بأسباب الاحترام والتقدير حتى وصلوا إلى المدينة(٢).

قال ابن كثير في يزيد: «وأكرم آل بيت الحسين، ورد عليهم جميع ما فقد لهم وأضعفه، وردهم إلى المدينة في محامل وأبهة عظيمة، وقد ناح أهله على الحسين»(٣).

وهكذا قتل الحسين ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ.

وقد حمَّلَ العلماء مسئولية قتل الحسين لعبيد الله بن زياد، وعمر بن سعد ابن أبي وقاص، وشمر بن ذي الجوشن، وحمَّلُوا كذلك أهل الكوفة مسئولية مقتله؛ فهم الذين كاتبوا الحسين بن علي ثم خذلوه.

واختلف العلماء في أمر يزيد: هل يتحمل دم الحسين أم لا؟ فلقد قُتل الحسين في خلافته، وعلى أرض تسيطر عليها جيوشه.

---

(١) «تاريخ الرسل والملوك» (٦/ ٣٩٣).

(٢) «مواقف المعارضة في خلافة يزيد» (ص ٢٨٦).

(٣) «البداية والنهاية» (٨/ ٢٥٤).

وقد كان أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ يُحمّل نفسه مسئولية بغلة عثرت في العراق أو في الشام[1]،

....

(١) وقد سئل ابن الصلاح عن يزيد فقال: «لم يصح عندنا أنه أمر بقتل الحسين ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ والمحفوظ أن الآمر بقتاله المفضي إلى قتله إنما هو عبيد الله بن زياد والي العراق إذ ذاك، وأما سب يزيد ولعنه فليس ذلك من شأن المؤمنين، وقد ورد في الحديث المحفوظ: **«إن لعن المؤمن كقتاله»** «البخاري مع الفتح» (١٠/٤٧٩).

قال شيخ الإسلام: «افْتَرَقَ النَّاسُ فِي «يَزِيدَ» بْنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ ثَلَاثُ فِرَقٍ، طَرفان ووَسُط، أَحدُ الطَّرَفَيْنِ قَالُوا: إنَّهُ كَانَ كَافِرًا مُنَافِقًا، وَأَنَّهُ سَعَى فِي قَتْلِ سَبْطِ رَسُولِ اللَّهِ تَشَفِّيًا مِنْ= = رَسُولِ اللَّهِ ـ ﷺ ـ وَانْتِقَامًا مِنْهُ، وَأَخْذًا بِثَأْرِ جَدِّهِ عتبة وَأَخِي جَدِّهِ شَيْبَةَ وَخَالِهِ الْوَلِيدِ بْنِ عتبة وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ قَتَلَهُمْ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ بِيَدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَغَيْرِهِ يَوْمَ بَدْرٍ وَغَيْرِهَا؛ وَقَالُوا: تِلْكَ أَحْقَادٌ بَدْرِيَّةٌ وَآثَارُ جاهِلِيَّةٍ، وَهَذَا الْقَوْلُ سَهْلٌ عَلَى الرَّافِضَةِ الَّذِينَ يُكَفِّرُونَ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ؛ فتَكْفِيرُ يَزِيدَ أَسْهَلُ بِكَثِيرِ. وَالطَّرَفُ الثَّانِي يَظُنُّونَ أَنَّهُ كَانَ رجلًا صَالِحًا، وَإِمَامٌ عَدْلٌ، وَأَنَّهُ كَانَ مِنْ «الصَّحَابَةِ» الَّذِينَ وُلِدُوا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ، وَحَمَلَهُ عَلَى يَدَيْهِ وَبَرَّكَ عَلَيْهِ، وَرُبَّمَا فَضَّلَهُ بَعْضُهُمْ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ. وَالْقَوْلُ الثَّالِثُ: أَنَّهُ كَانَ مَلِكًا مِنْ مُلُوكِ الْمُسْلِمِينَ لَهُ حَسَنَاتٌ وَسَيِّئَاتٌ، وَلَمْ يُولَدْ إلَّا فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ وَلَمْ يَكُنْ كَافِرًا؛ وَلَكِنْ جَرَى بِسَبَبِهِ مَا جرى مِنْ مَصْرَعِ «الْحُسَيْنِ»، وَفِعْلِ مَا فُعِلَ بِأَهْلِ الْحَرَّةِ، وَلَمْ يَكُنْ صَاحِبًا وَلَا مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، وَهَذَا قَوْلُ عَامَّةِ أَهْلِ الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ وَالسُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ. ثُمَّ افْتَرَقُوا ثَلَاثَ فِرَقٍ: فِرْقَةٌ لَعَنَتْهُ، وَفِرْقَةٌ أَحَبَّتْهُ، وَفِرْقَةٌ لَا تَسُبُّهُ وَلَا تُحِبُّهُ، وَهَذَا هُوَ الْمَنْصُوصُ عَنْ الْإِمَامِ أَحْمَد وَعَلَيْهِ الْمُقْتَصِدُونَ مِنْ أَصْحَابِهِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، وأما قتل الحسين فلم يأمر به ولم يرضَ به، بل ظهر منه التألم لقتله، وذم من قتله، ولم يُحمل الرأس إليه، وإنما حُمِلَ إلى ابن زياد». انظر: «مجموع الفتاوى».

وقال أيضًا في «الوصية الكبرى»: «وَجَرَتْ فِي إمَارَتِهِ أُمُورٌ عَظِيمَةٌ: أَحَدُهَا مَقْتَلُ الحسين ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ وَهُوَ لَمْ يَأْمُرْ بِقَتْلِ الحسين، وَلَا أَظْهَرَ الْفَرَحَ بِقَتْلِهِ؛ وَلَا نَكَّتَ بِالْقَضِيبِ عَلَى ثَنَايَاهُ ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ، وَلَا حَمَلَ رَأْسَ الحسين ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ إلَى الشَّامِ، لَكِنْ أَمَرَ بِمَنْعِ الحسين ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ وَبِدَفْعِهِ عَنْ الْأَمْرِ وَلَوْ كَانَ بِقِتَالِهِ، فَزَادَ النُّوَّابُ عَلَى أَمْرِهِ، وحض الشمر بن ذي الجوشن الجيوش عَلَى قَتْلِهِ لعبيد الله بن زياد؛ فَاعْتَدَى عليه عبيد الله بن زياد، وأمر عمر بن سعد بقتاله، فَطَلَبَ مِنْهُمْ الحسين ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ أَنْ يَجِيءَ إلَى يزيد، أَوْ يَذْهَبَ إلَى الثَّغْرِ مُرَابِطًا أَوْ يَعُودَ إلَى مَكَّةَ

علمًا بأنه لم يأمر بقتله، بل ولم يشر إلى ذلك، ولكن يؤخذ علي يزيد أنه ما انتصر للحسين، ولا أمر بقتل قاتله، بل ولم يعزله أو يعاقبه على قتله للحسين ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ(١)، وكان موقف الحسين من بيعة يزيد بن معاوية هو موقف المعارض منذ البداية، والسبب في ذلك: الحرص على مبدأ الشورى، وأن يتولى الأمة أصلحها، فالحسين اعترض على فكرة التوريث دفاعًا عن الشورى ومبادئ الإسلام الداعمة لحق الأمة في اختيار مَن تريد، وأحاديث النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ التي يأمر فيها بقتل المفارق للجماعة لم تتناوله، فإنه ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ لم يفارق الجماعة، ولم يقتل إلا وهو طالب للرجوع، إلى بلده، أو إلى الثغر، أو إلى يزيد داخلًا في الجماعة، معرضًا عن تفريق

فَمَنَعُوهُ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ إِلَّا أَنْ يَسْتَأْسِرَ لَهُمْ، وَأَمَرَ عمر بن سعد بِقِتَالِهِ فَقَتَلُوهُ مَظْلُومًا لَهُ وَلِطَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ. وَكَانَ قَتْلُهُ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ مِنْ الْمَصَائِبِ الْعَظِيمَةِ، فَإِنَّ قَتْلَ الحسين، وَقَتْلَ عثمان قَبْلَهُ كَانَا مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الْفِتَنِ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَقَتَلَتُهُمَا مِنْ شِرَارِ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ» اهـ.

وقال في «منهاج السنة»: «إِنَّ يَزِيدَ لَمْ يَأْمُرْ بِقَتْلِ الْحُسَيْنِ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ النَّقْلِ، وَلَكِنْ كَتَبَ إِلَى ابْنِ زِيَادٍ أَنْ يَمْنَعَهُ عَنْ وِلَايَةِ الْعِرَاقِ، وَالْحُسَيْنُ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ أَهْلَ الْعِرَاقِ يَنْصُرُونَهُ وَيَفُونَ لَهُ بِمَا كَتَبُوا إِلَيْهِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمُ ابْنَ عَمِّهِ مُسْلِمَ بْنَ عَقِيلٍ، فَلَمَّا قَتَلُوا مُسْلِمًا وَغَدَرُوا بِهِ وَبَايَعُوا ابْنَ زِيَادٍ، أَرَادَ الرُّجُوعَ فَأَدْرَكَتْهُ السَّرِيَّةُ الظَّالِمَةُ، فَطَلَبَ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى يَزِيدَ، أَوْ يَذْهَبَ إِلَى الثَّغْرِ، أَوْ يَرْجِعَ إِلَى بَلَدِهِ، فَلَمْ يُمَكِّنُوهُ مِنْ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى يَسْتَأْسِرَ لَهُمْ، فَامْتَنَعَ، فَقَاتَلُوهُ حَتَّى = = قُتِلَ شَهِيدًا مَظْلُومًا ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ، وَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ يَزِيدَ أَظْهَرَ التَّوَجُّعَ عَلَى ذَلِكَ، وَظَهَرَ الْبُكَاءُ فِي دَارِهِ، وَلَمْ يَسْبِ لَهُ حَرِيمًا أَصْلًا، بَلْ أَكْرَمَ أَهْلَ بَيْتِهِ، وَأَجَازَهُمْ حَتَّى رَدَّهُمْ إِلَى بَلَدِهِمْ، ويزيد هو أول مَن غزا القسطنطينية، غزاها في خلافة أبيه معاوية. وقد روى البخاري في «صحيحه» عن ابن عمر قال: قال رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: **«أول جيشٍ يغزو القسطنطينية مغفورٌ له»** اهـ. وبهذا قال جمع من أهل العلم: كابن طولون في كتاب «قيد الشريد»، وكذا قال الطيب النجار، ويوسف العش، وغيرهما.

(١) «البداية والنهاية» (٩/٢٠٤)، «منهاج السنة» (٤/٥٥٨).

الأمة، ولو كان طلب ذلك أقل الناس؛ لوجب إجابته إلى ذلك، فكيف لا تجب إجابة الحسين[٢]؟!

وأما عن مكان رأس الحسين ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ فإن سبب الاختلاف في موضع رأس الحسين ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ عند عامة الناس إنما هو ناتج عن تلك المشاهد المنتشرة في

---

(٢) «ولهذا لما أراد الحسين ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ أن يخرج إلى أهل العراق لما كاتبوه كتبًا كثيرة أشار عليه أفاضل أهل العلم والدين: كابن عمر، وابن عباس، وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ابن هشام ألا يخرج، وغلب على ظنهم أنه يُقتل حتى إن بعضهم قال: «أستودعك الله من قتيل. وقال بعضهم: لولا الشفاعة لأمسكتك، والله ورسوله إنما يأمر بالصلاح لا بالفساد، لكن الرأي يصيب تارة ويخطئ أخرى. =

= فتبين أن الأمر على ما قاله أولئك، ولم يكن في الخروج لا مصلحة دين ولا مصلحة دنيا، بل تمكن أولئك الظلمة الطغاة من سبط رسول الله ـ ﷺ ـ حتى قتلوه مظلومًا شهيدًا، وكان في خروجه وقتله من الفساد ما لم يكن حصل لو قعد في بلده، فإن ما قصده من تحصيل الخير ودفع الشر لم يحصل منه شيء، بل زاد الشر بخروجه وقتله ونقص الخير بذلك، وصار ذلك سببًا لشرٍ عظيم، وكان قتل الحسين مما أوجب الفتن كما كان قتل عثمان مما أوجب الفتن. وهذا كله مما يبين أن ما أمر به النبي ـ ﷺ ـ من الصبر على جَوْر الأئمة وترك قتالهم والخروج عليهم هو أصلح الأمور للعباد في المعاش والمعاد، وأن من خالف ذلك متعمدًا أو مخطئًا لم يحصِّل بفعله صلاحًا، بل فسادًا؛ ولهذا أثنى النبي ـ ﷺ ـ على الحسن بقوله: **«ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ»**، ولم يثنِ على أحدٍ لا بقتالٍ في فتنة، ولا بخروجٍ على الأئمة، ولا نزع يدٍ من طاعة، ولا مفارقةٍ للجماعة». إلى أن قال: «وكذلك الحسن كان دائمًا يشير على أبيه وأخيه بترك القتال، ولما صار الأمر إليه ترك القتال، وأصلح الله به بين الطائفتين المقتتلتين، وعلي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ في آخر الأمر تبين له أن المصلحة في ترك القتال أعظم منها في فعله. وكذلك الحسين ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ لم يُقتل إلا مظلومًا شهيدًا تاركًا لطلب الإمارة، طالبًا للرجوع؛ إما إلى بلده، أو إلى الثغر، أو إلى المتولي على الناس يزيد. وإذا قال القائل: إن عليًّا والحسين إنما تركا القتال في آخر الأمر للعجز؛ لأنه لم يكن لهما أنصار فكان في المقاتلة قتل النفوس بلا حصول المصلحة المطلوبة. قيل له: وهذا بعينه هو الحِكْمَة التي راعاها الشارع ـ ﷺ ـ في النهي عن الخروج على الأمراء، وندب إلى ترك القتال في الفتنة، وإن كان الفاعلون لذلك يرون أن مقصودهم الأمر

ديار المسلمين والتي أقيمت في عصور التخلف الفكري والعقدي، وكلها تدعي وجود رأس الحسين، ثم إن الجهل بموضع رأس الحسين جعل كل طائفة تنتصر لرأيها في ادعاء وجود الرأس عندها، وإذا أردنا التحقيق في مكان الرأس فإنه يلزمنا تتبع وجود الرأس منذ انتهاء معركة كربلاء.

لقد ثبت أن رأس الحسين حمل إلى ابن زياد فجعل الرأس في طست وأخذ يضربه بقضيب كان في يده، فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ : أُتِيَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادٍ بِرَأْسِ الحُسَيْنِ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ، فَجُعِلَ فِي طَسْتٍ، فَجَعَلَ يَنْكُتُ، وَقَالَ فِي حُسْنِهِ شيئًا، فَقَالَ أَنَسٌ: «كَانَ أَشْبَهَهُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ»[(١)]. ثم بعد ذلك تختلف الروايات والآراء اختلافًا بينًا بشأن رأس الحسين ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ، فهناك بعض الروايات التي ذكرت أن ابن زياد أرسل الرأس إلى يزيد بن معاوية، وهي روايات ضعيفة ولم تثبت[(٢)]، ثم كان مما ترتب على مقتل الحسين: التفاف الناس حول ابن الزبير

بالمعروف والنهي عن المنكر، كالذين خرجوا بالحرَّة وبدير الجماجم على يزيد والحجاج وغيرهما، لكن إذا لم يزل المنكر إلا بما هو أنكر منه صار إزالته على هذا الوجه منكرًا، وإذا لم يحصل المعروف إلا بمنكر مفسدته أعظم من مصلحة ذلك المعروف، كان تحصيل ذلك المعروف على هذا الوجه منكرًا». «منهاج السنة» (٤/٥٢٧).

(١) «صحيح البخاري» (٥/٢٦)، «سنن الترمذي» (٥/ ٦٥٩).

(٢) وقد ذهب ابن كثير إلى ذهاب الرأس إلى يزيد فقد قال: «وقد اختلف العلماء في رأس الحسين: هل سيّره ابن زياد إلى الشام أم لا؟ على قولين الأظهر منها أنه سيّره إليه، فقد ورد في ذلك آثار كثيرة والله أعلم». وقال ابن كثير في موضع آخر: «والصحيح أنه لم يبعث برأس الحسين إلى الشام». «البداية والنهاية» (١١/ ٥٨٠). والقول بإرسالها إلى الشام هو ما ذهب إليه الذهبي «تاريخ الإسلام». وقال ابن تيمية بضعف الروايات التي تقول بإرسال الرأس إلى الشام. وقد اُختلف في المكان المقبور به رأس الحسين وهي ما بين دمشق والرقة وعسقلان، والقاهرة وكربلاء والمدينة، وأقرب الأقوال: أن الرأس بالمدينة، فقد ذكر ابن سعد بإسناد جمعي: أن يزيد بعث بالرأس إلى عمرو بن سعيد والي المدينة، فكفنه ودفنه بالبقيع إلى حيث قبر أمه فاطمة بنت

حتى قاد حركة المعارضة في الحجاز، وقيام حركات ثورية في الكوفة وغيرها، مثل: حركة التوابين، وحركة المختار بن أبي عبيد الثقفي، وكلها نادت بالثأر للحسين ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ، فضلًا عن بعض الانحرافات الفكرية التي تولدت عند البعض.

رسول الله ـ ﷺ ـ . وقال ابن تيمية: «ثم إن دفنه بالبقيع هو الذي تشهد له عادة القوم فإنهم كانوا في الفتن إذا قتل الرجل منهم ـ لم يكن منهم ـ سلموا رأسه وبدنه إلى أهله كما فعل الحجاج بابن الزبير لما قتله وصلبه، ثم سلموه إلى أهله، وقد علم أن سعي الحجاج في قتل ابن الزبير، وأن ما كان بينهما من الحروب أعظم بكثير مما كان بين الحسين وبين خصومه» اهـ. وبهذا قال الزبير بن بكار ومحمد بن سعد وهما من المؤرخين. وأما بدن الحسين فهو بكربلاء والله أعلم. انظر: «أنساب الأشراف» (٣/٣١٧)، «مواقف المعارضة في خلافة يزيد» (ص ٣٩٨).

المبحث الثالث

معارضة أهل المدينة في عهد يزيد

وموقعة الحرة[١] عام ٦٣هـ-٦٨٣م

فكما هو معلوم فإن المدينة هي عاصمة الإسلام الأولى، ومدينة رسول الله ـ ﷺ ـ وموطن المهاجرين والأنصار، ولها أهمية كبرى وفيها تكونت الدولة المسلمة، ومهما تعددت العواصم في العالم الإسلامي تبقى المدينة هي العاصمة الروحية للمسلمين؛ ففيها وجد رسول الله ـ ﷺ ـ المأوى والأمن، والتأييد والنصرة من الأنصار ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ ، وبعد أن لحق الرسول ـ ﷺ ـ بالرفيق الأعلى، استمرت هي العاصمة للخلفاء الراشدين: أبي بكر وعمر وعثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ ، وفي المدينة يوجد مسجد رسول الله ـ ﷺ ـ ، ولما آلت الخلافة إلى معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ واتخذ دمشق عاصمة للدولة، ظلت المدينة تحتفظ بقيمتها ومكانتها في قلوب المسلمين، وكان معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ يعلم ذلك جيدًا، وكان يوقر ويحترم ويكرم أهل المدينة وأوصى بذلك ولده يزيد.

إن ثورة أهل المدينة ومعارضتهم للحكم الأموي وخلافة يزيد بن معاوية ما هي إلا امتداد طبيعي لمعارضة ابن الزبير التي بدأها في مكة، ثم إن قرب فترة يزيد بن معاوية (٦٠هـ) بالخلافة الراشدة جعل أبناء الصحابة أكثر شوقًا لإعادة الشورى وتمكينها بين الناس، وعندما قتل الحسين ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ بتلك الصورة الشنيعة ومعه إخوته وأبناء عمه على يد عبيد الله بن زياد أحس الكثير من أبناء الصحابة بحجم

---

(١) الحرة: أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار، وهذه الحَرَّة تسمى واقِمٍ: وهي إحدى حرّتي المدينة، وهي الشرقية، سميت برجل من العماليق اسمه واقم. «معجم البلدان» (٢/ ٢٥٠).

الاستبداد والتسلط الذي بدأت تمارسه الدولة؛ الأمر الذي جعل الناس في الحجاز يتعاطفون مع ابن الزبير - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، ورفعه شعار الشورى، ورفضه مبدأ التوريث، في الوقت الذي لم يحاكِم يزيد عبيد الله بن زياد كأحد المسئولين المباشرين عن الجريمة النكراء التي لحقت بالحسين وأهله في كربلاء، واعتبر الناس هذا التصرف محاباة لابن زياد من قبل ابن عمه يزيد بن معاوية.

ومما لا شك فيه أن مقتل الحسين ومن معه بتلك الصورة قد أغضب الناس جميعًا، وَوَلَّدَ لديهم شعورًا بالحزن والأسى العميق على فقدانه بتلك الطريقة البشعة[1].

وعند دراسة معارضة أهل المدينة يلاحظ أن الحماس الممزوج بالعاطفة لا يتلاءم مع منهجية التغيير الصحيحة.

وقد ظهر في هذه الحادثة: الفارق الكبير ما بين جيش منظم له أهدافه وخططه الواضحة، وبين أناس تجمعوا يرفعون بعض الشعارات الممزوجة بأحلام اليقظة، يدفعهم الحماس، وتحركهم العاطفة دون معرفة وبصيرة بحقائق الواقع ومآلات الأمور وعواقبها، ومن الأسباب التي أدت إلى معارضة أهل المدينة إضافة لمقتل الحسين: أن بعض أبناء الصحابة يرون أنهم أحق من يزيد بأمر الخلافة، ثم إن البعض له بعض المآخذ على شخصية يزيد بن معاوية، فهناك مَن اتهمه بشرب الخمر، وترك الصلاة، وغير ذلك؛ مع أن هذا لم يثبت على يزيد، ولكنه كلام يتردد بين الناس.

معارضة أهل المدينة وخلع يزيد بن معاوية:

أراد والي المدينة عثمان بن محمد بن أبي سفيان أن يثبت ولاء أهل المدينة ليزيد، فاختار منها وفدًا وأرسلهم إلى دمشق. وقيل: إن الوفد هو الذي طلب الذهاب

(١) «مواقف المعارضة في خلافة يزيد» (ص ٤٥٢).

إلى يزيد، وهناك استقبلهم يزيد استقبالًا حسنًا، فأكرم وفادتهم، وأحسن جوائزهم وأجزل عطاءهم، وكان في وفد المدينة عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاري، وعبد الله بن أبي عمرو بن حفص المغيرة الحضرمي، والمنذر ابن الزبير، ورجال كثير من أشراف أهل المدينة، وبعد أن أخذوا جوائزهم انصرفوا إلى المدينة[١]، وهناك عابوا يزيد وشتموه، وأظهروا العداء له، وخلعوه، وأخرج أهل المدينة عامل يزيد عثمان بن محمد من المدينة كما أخرجوا مروان بن الحكم وسائر بني أمية، وبلغ الأمر يزيد، وعلم بما كان من أهل المدينة من خلعه، والميل إلى ابن الزبير؛ فأعد جيشًا لغزو المدينة أسند قيادته لمسلم بن عقبة المري[٢].

وقد اعترض بعض علماء المدينة على خلع يزيد والخروج عليه، ولم يؤيدوا من قام بالخروج، وقاموا بنصح إخوانهم واعتزلوا الفتنة، وكان أغلب هذا الرأي من أهل العلم والفقه في الدين، وفي مقدمة هؤلاء: الصحابي الجليل عبد الله بن عمر ابن الخطاب ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ فقد اشتهر عنه إنكاره على الذين رفضوا البيعة ليزيد وسعوا في خلعه، وعندما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية جمع ابن عمر حشمه وولده، فقال: إني سمعت النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يقول: « **يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** »، وإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله، وإني لا أعلم غدرًا أعظم من أن يبايع رجل على بيع الله ورسوله ثم ينصب له القتال، وإني لا أعلم أحدًا منكم خلعه ولا تابع في هذا الأمر إلا كانت الفيصل بيني وبينه[٣].

---

(١) «تاريخ دمشق، ترجمة عبادة بن أوفى، وعبد الله بن ثوب» (ص ٨٧)، «البداية والنهاية» (١١/ ٦٢٤، ٦٢٥).

(٢) «تاريخ خليفة» (ص ٢٣٧).

(٣) «مسلم، كتاب الإمارة» (٣/ ١٤٧٨)، «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٣٢٣).

- فقد عارض ابن عمر من خرج من أهل المدينة لسببين:

الأول: نقضهم البيعة، وهو يرى أنهم أعطوا البيعة عن رضا واختيار، ولم يفعلوا مثل الحسين - رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ - ، حيث كان موقفه واضحًا منذ البداية، ولم يعطِ البيعة، وذلك عند ابن عمر خيانة وغدر، ويتضح ذلك في قوله لعبد الله ابن مطيع: «إني سمعت رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يقول: «**من خلع يدًا من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية**»[1].

الثاني: هو تعظيم حرمة دماء المسلمين وحرمة الاقتتال بينهم، وتزداد هذه الحرمة في الأماكن المقدسة كمكة والمدينة، ولقد استدل ابن حجر بموقف ابن عمر السابق والأحاديث التي استشهد بها عَلَى وجوب طاعة الإمام الذي انعقدت له البيعة، والمنع من الخروج عليه، ولو جار في حكمه، وأنه لا ينخلع بالفسق، وتبع ابن عمر في موقفه أيضًا: محمد بن علي بن أبي طالب (ابن الحنفية)؛ فإنه لم يرَ خروج أهل المدينة على يزيد، ولم يستجب لدعوتهم إياه بالخروج معهم، بل كان يجادلهم في نفي التهم التي أشاعوها عن يزيد، فقال له ابن مطيع: «إن يزيد يشرب الخمر، ويترك الصلاة، ويتعدى حكم الكتاب. فقال لهم: ما رأيت منه ما تذكرون، وقد حضرته وأقمت عنده فرأيته مواظبًا على الصلاة، متحرِّيًا للخير، يسأل عن الفقه، ملازمًا للسُّنَّة. قالوا: فإن ذلك كان منه تصنعًا لك. فقال: وما الذي خاف مني أو رجا حتى يظهر لي الخشوع؟ فَأَطْلَعَكُمْ على ما تذكرون من شرب الخمر؟ فلئن كان أَطْلَعَكُمْ على ذلك إنكم لشركاؤه، وإن لم يكن أطلعكم؛ فما يحل لكم أن

(١) «صحيح مسلم» (١٨٥١).

تشهدوا بما لم تعلموا. قالوا: إنه عندنا لحق، وإن لم يكن رأيناه. فقال لهم: أبى الله ذلك على أهل الشهادة فقال: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]، ولست من أمركم في شيء[1]، قالوا: فلعلك تكره أن يتولى الأمر غيرك فنحن نوليك أمرنا. قال: ما أَسْتَحِلُّ القتال على ما تريدون عليه تابعًا ولا متبوعًا. قالوا: فقد قاتلت مع أبيك، قال: جيئوني بمثل أبي أقاتل على ما قاتل عليه»، ولما رأي محمد بن الحنفية الأمور تسير في الاتجاه الذي لا يريده، وبدأ يظهر له سوء عاقبة تصرفات المخالفين له من أهل المدينة حينما ترامى إلى الأسماع قدوم جيش أهل الشام إلى المدينة؛ لذلك قرر ترك المدينة وتوجه إلى مكة[2]، وقد سار أهل بيت النبوة على هذا الطريق ولزموا الطاعة، ولم يخرجوا مع أهل المدينة ضد يزيد، فعلي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا ـ لم يخرج مع أهل المدينة ولزم الطاعة ليزيد، وهو الذي قال فيه الزهري: «كان أفضل أهل بيته وأحسنهم طاعة»، وقال عنه: «لم أدرك من آل البيت أفضل من علي بن الحسين»[3]، وكذلك ابن عباس ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا ـ وهو فقيه الأمة وحبرها وعالمها لم ينقل عنه تأييد لأهل المدينة كما أنه لم يذكر عنه أنه نزع بيعة يزيد بن معاوية، فهؤلاء أفضل آل بيت النبوة في زمانهم ومع ذلك لم يخرجوا مع أهل المدينة، ومسوغات الخروج على يزيد عندهم هي أكثر من غيرهم.

وممن عاب على أهل المدينة خروجهم وعارضه: الصحابي الجليل النعمان بن بشير الأنصاري، وقد كان إبان خروج أهل المدينة في الشام، فاستغل يزيد فرصة

---

(١) «البداية والنهاية» (١١/ ٦٥٤).

(٢) «البداية والنهاية» (١١/ ٦٥٤).

(٣) «تاريخ دمشق» (١٢/ ٣٥)، «مواقف المعارضة» (ص ٤٥٨).

وجوده فبعثه إلى أهل المدينة لعله يفلح في صدهم عن الخروج ويعيدهم إلى الطاعة ولزوم الجماعة، فاستجاب النعمان لذلك وقدم المدينة فجمع عامة الناس، وأمرهم بالطاعة ولزوم الجماعة، وخوفهم الفتنة وقال لهم: «إنه لا طاقة لكم بأهل الشام»، فقال له عبد الله بن مطيع: «ما يحملك يا نعمان على تفريق جماعتنا، وفساد ما أصلح الله من أمرنا؟!»، فقال النعمان: «أما والله لكأني بك لو قد نزلت تلك التي تدعو إليها، وقامت الرجال على الركب تضرب مفارق القوم وجباههم بالسيوف، ودارت رحى الموت بين الفريقين قد هربت على بغلتك تضرب جبينها إلى مكة، وقد خلفت هؤلاء المساكين يُقتلون في سككهم ومساجدهم، وعلى أبواب دورهم»؛ فعصاه الناس، فانصرف، وكان والله كما قال[1].

وهذا موقف عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ: فقد كان بالشام عندما عزم يزيد أن يبعث جيشًا إلى المدينة، فحاول عبد الله بن جعفر أن يتدخل في الأمر ليجنب أهل المدينة شر القتال، فكلم يزيد وطلب منه الرفق بأهل المدينة ورققه عليهم، وقال: «إنما تقتتل بهم نفسك»، وقد تجاوب معه يزيد حين قال: «فإني أبعث أول جيش وآمرهم أن يمروا بالمدينة إلى ابن الزبير، فإنه قد نصب لنا الحرب ويجعلونها طريقًا ولا يقاتلهم، فإن أقر أهل المدينة بالسمع والطاعة تركهم»، وقد وجد عبد الله ابن جعفر مدخلًا لكف القتال والأذى عن أهل المدينة، فكتب على الفور إلى زعماء أهل المدينة يخبرهم بذلك ويقول: «استقبلوا ما سلف، واغنموا السلامة والأمن، ولا تعرضوا لجنده ودعوهم يمضون عنكم»[2]. وكان ردهم عليه: «لا يدخلها

---

(١) «تاريخ الرسل والملوك» (٦/ ٤١٥).

(٢) «الطبقات» (٥/ ١٤٥).

علينا عنوةً»، وكذلك سعيد بن المسيب ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ، فإنه قد اعتزل فتنة خروج أهل المدينة ولم يدخل فيما دخلوا فيه، ولم يكن يحضر لهم أمرًا من أمورهم إلا الجمعة والعيد، وقد لزم المسجد نهاره ولا يبرحه إلى الليل والناس في قتالهم أيام الحرة[١].

وهكذا لم يقبل أهل المدينة من المعارضين جميع النصائح من أهل العلم والفضل، وعقدوا النية على القتال.

معركة الحرَّة:

تولى القيادة على قريش وقبائل المهاجرين في المدينة: عبد الله بن مطيع[٢]، وتولى القيادة على الأنصار: عبد الله بن حنظلة، واتفق المعارضون على أن يكون القتال داخل المدينة وألا يخرجوا منها، وبدأوا في حفر بعض الخنادق داخل المدينة[٣].

واشتد الأمر على يزيد حين علم بأن بني أمية في المدينة محاصرون في دار مروان ابن الحكم، فأراد أن يخلصهم من هذا الحصار قبل أن يُقْتَلُوا أو يحل بهم مكروه، وكانوا ألف رجل، فعز عليه أن يُقتل هؤلاء دون أن يقدم لهم عونًا فأمر بتجهيز جيش ليذهب إلى المدينة، فيخلص بني أمية، ويرد هؤلاء المتمردين إلى الطاعة، وطلب عمرو بن سعيد ليقود الجيش فأبى، وأرسل إلى عبيد الله بن زياد ليرد أهل المدينة إلى أهل الطاعة ثم يغزو ابن الزبير، فقال: «لا أجمعهما للفاسق أبدًا،

---

(١) «المصدر السابق» (٥/ ١٣٢)، «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٢٢٨، ٢٢٩).

(٢) عبد الله بن مطيع بن الأسود تابعي وأحد كبار أنصار عبد الله بن الزبير، ويعد من رواة الحديث النبوي، وقُتل عبد الله بن مطيع في حصار الحجاج بن يوسف الثقفي لمكة مع عبد الله بن الزبير عام ٧٣ هـ.

(٣) «مواقف المعارضة في خلافة يزيد» (ص ٥٢١).

أقتل ابن بنت رسول الله ـ ﷺ ـ وأغزو البيت!»، ثم استقر الرأي على إرسال مسلم ابن عقبة المرِّي(١).

واجتمع الجيش، وَهَمَّ مسلم بن عقبة أن ينطلق بهم إلى المدينة فقال له يزيد: «ادع القوم ثلاثًا، فإن رجعوا إلى الطاعة، فاقبل وكف عنهم، وإلا فاستعن بالله وقاتلهم، وإذا ظهرت عليهم فأبح المدينة ثلاثًا، ثم اكفف عن الناس، وانظر إلى علي بن الحسين فاكفف عنه، واستوصِ به خيرًا، وأدن مجلسه فإنه لم يدخل في شيء مما دخلوا فيه»، وأمر مسلمًا إذا فرغ من المدينة أن يذهب لحصار ابن الزبير، وقال له: «إن حدث بك أمر فعلى الناس حصين بن نمير السكوني»(٢)، واستعرض مسلم بن عقبة جيشه الذي سيحارب به أهل المدينة وسار مسلم إلى المدينة فوجد بني أمية وقد أُخْرِجُوا منها، وساروا في اتجاه الشام، فاستوقفهم وسألهم عن الوضع في المدينة، فلم ينطقوا بجواب، وكان أهل المدينة، قد أطلقوا حصارهم بعد أن أخذوا عليهم العهود والمواثيق ألَّا يدلوا على عورة ولا يعاونوا عدوًّا، وطلب مسلم منهم أن يدلوه على ما ورائهم فلم يستجيبوا، فغضب مسلم منهم غضبًا شديدًا، فلم يبرد غضبه إلا عبد الملك بن مروان الذي دلَّه على الخطة التي يجب اتباعها في حرب المدينة، فأشار إليه بأن يأتيها من جهتها الشرقية، ويلحق في الجنوب منها، يواجه أهل المدينة في مكان يسمى الحرَّة(٣)، وتأتي الشمس أمام

---

(١) «تاريخ الرسل والملوك» (٦/ ٤١٦).

(٢) «البداية والنهاية» (١١/ ٦١٧).

(٣) انظر: الخريطة رقم (١٠) في ثبت الخرائط.

جيش الشام فتلمع خوذهم وسلاحهم فيرهبون عدوهم، ويكون لهم السيطرة من الوجهة الحربية(١).

ومن الواضح جدًّا عدم التكافؤ بين الجيشين، فعدد الجيش الشامي اثنا عشر ألفًا، بينما عدد أهل المدينة ألفا رجل(٢). وارتحل الناس مع مسلم حتى نزل المنزل الذي أمره به عبد الملك، فصنع فيه ما أمره به، ثم مضى في الحرة حتى نزلها، فأتاهم من قبل المشرق ثم دعاهم مسلم بن عقبة، فقال: «يا أهل المدينة، إن أمير المؤمنين يزيد بن معاوية يزعم أنكم الأصل، وأني أكره هراقة دمائكم، وأني أؤجلكم ثلاثًا، فمن ارعوى وراجع الحق قبلنا منه، وانصرفت عنكم، وسرت إلى هذا الملحد الذي بمكة، وإن أبيتم كنا قد أعذرنا إليكم»، ولما مضت الأيام الثلاثة قال: «يا أهل المدينة قد مضت الأيام الثلاثة فما تصنعون؟ أتسالمون أم تحاربون؟ فقالوا: بل نحارب، فقال لهم: لا تفعلوا، بل ادخلوا في الطاعة، ونجعل حدنا وشوكتنا على هذا الملحد الذي قد جمع إليه المراق والفساق من كل أوب. فقالوا لهم: يا أعداء الله، والله لو أردتم أن تجوزوا إليهم ما تركناكم حتى نقاتلكم، نحن ندعكم أن تأتوا بيت الله الحرام، وتخيفوا أهله، وتلحدوا فيه، وتستحلوا حرمته! لا والله لا نفعل»(٣).

وفي يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من شهر ذي الحجة (٦٣هـ-٦٨٣م) وقعت المعركة، فوجه مسلم خيله نحو أهل المدينة، والتقى الجيشان، وحمل عبد الله ابن حنظلة الغسيل على خيل الشام، فانكشفت الخيل وانهزموا حتى انتهوا إلى

(١) «أنساب الأشراف» (٤/ ٢٢٣)، «البداية والنهاية» (١١/ ٦١٩).

(٢) «الطبقات» (٥/ ١٤٦).

(٣) «أنساب الأشراف» (٤/ ٢٢٥)، «المحاسن والمساوئ» (ص ٨٨).

مسلم، فنهض مسلم بمن معه وقاتلوا قتالًا شديدًا، وانكشف أهل المدينة من كل جانب، وجاء الفضل بن عباس بن ربيعة إلى ابن الغسيل فقاتل معه، وطلب منه أن يجمع الفرسان ليقاتلوا معه، وكان قد عزم على الوصول إلى مسلم بن عقبة ليقتله، فأمر ابن الغسيل أن يجتمع الفرسان حول الفضل، وحمل الفضل بهم على أهل الشام فانفرجوا وجثث الرجال أمامه على الركب، ومضى نحو راية مسلم فقتل صاحبها وهو يظنه مسلمًا[1]، وكان الذي قتله الفضل غلامًا لمسلم اسمه رومي، وأخذ مسلم الراية ونادى في جيشه يحضهم على القتال، وأمر أحد قادته أن ينضحوا ابن الغسيل بالنبل ونادى مسلم: «يا أهل الشام، أهذا هو قتال قوم يريدون أن يدفعوا به عن دينهم، وأن يُعزّوا به نصر إمامهم، قبح الله قتالكم منذ اليوم، ما أوجعه لقلبي، وأغيظه لنفسي، أما والله ما جزاؤكم عليه إلا أن تُحرموا العطاء، وأن تجمروا[2] في أقاصي الثغور، شدوا مع هذه الراية»، ومشى برايته، وشدت الرجال أمام الراية، وكانت هناك محاولات كثيرة من أهل المدينة لقتل مسلم بن عقبة، لكنها فشلت جميعًا، ثم إن خيل مسلم ورجاله أقبلت نحو عبد الله بن حنظلة الغسيل ورجاله حتى دنوا منه، وركب مسلم بن عقبة فرسًا له، فأخذ يسير في أهل الشام ويحرضهم ويقول: «يا أهل الشام: إنكم لستم بأفضل العرب في أحسابها وأنسابها، ولا أكثرها عددًا، ولا أوسعها بلدًا، ولم يخصكم الله بالذي خصكم به من النصر عل عدوكم وحسن المنزلة عند أئمتكم إلا بطاعتكم واستقامتكم، وإن هؤلاء القوم وأشباههم من العرب غيَّروا

---

(١) «تاريخ الرسل والملوك» (٦/ ٤٢٢).

(٢) تجمروا: تُحبسوا. تَجْمِيرُ الجَيْشِ: جَمْعُهم في الثُّغور وحَبْسُهم عَنِ الْعَوْدِ إِلى أَهليهم. «لسان العرب» (٤/١٤٦).

فغير الله بهم، فتموا على أحسن ما كنتم عليه من الطاعة يتمم الله لكم أحسن ما ينيلكم من النصر والظفر»[١]، واختل نظام الدفاع لأهل المدينة وتراجعوا وتفرقوا، وانتهت المعركة لصالح جيش الشام، وهزم أهل المدينة هزيمة ماحقة، قتل فيها خلق كثير من القادة ووجوه الناس وكان القتل ذريعًا في المدنيين، وقد شبهتهم الرواية بنعام الشُّرَّد، وأهل الشام يقتلونهم في كل وجه[٢].

وقد قتل في هذه المعركة عدد من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ، ويشهد لذلك ما ذكره سعيد بن المسيب حينما قال: «وقعت الفتنة الأولى ـ يعني مقتل عثمان ـ، فلم تبقِ من أصحاب بدر أحدًا، ثم وقعت الفتنة الثانية ـ يعني الحرَّة ـ؛ فلم تبقِ من أصحاب الحديبية أحدًا»[٣].

ولقد أورد «خليفة» في تاريخه قوائم بأسماء قتلى الحرَّة ثم قال: «فجميع مَن أصيب من قريش والأنصار: ثلاثمائة رجل وستة رجال»، وقد تابعه على ذلك أبو العرب[٤]، والأتابكي[٥].

وهناك رواية مسندة عن الإمام مالك قال فيها: «إن قتلى الحرَّة سبعمائة رجل من حملة القرآن»، وقال الراوي: «وحسبت أنّه قال: وكان معهم ثلاثة أو أربعة من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ»[٦].

---

(١) «تاريخ الرسل والملوك» (٦/ ٤٢٣).
(٢) «الطبقات» (٥/ ١٤٦).
(٣) «تاريخ خليفة» (ص ٢٥٠).
(٤) «المحن» (ص ١٨٧).
(٥) «النجوم الزاهرة» (١/ ١٦٠).
(٦) «المحن» (ص ٢٠٠) بإسنادٍ صحيح.

أعمال مسلم بن عقبة بعد معركة الحرة:

نهب المدينة:

لقد اشتُهِرَ أن مسلم بن عقبة المري أمر بانتهاب المدينة، فمكثوا ثلاثة أيام من شهر ذي الحجة ينتهبون المدينة حتى رأوا هلال محرم، فأمر الناس فكفوا، وذلك لأن المعركة كانت لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وستين للهجرة. وتعتبر رواية نافع مولى ابن عمر هي أصح رواية نصت على حدوث الانتهاب، فقد قال: «وظفر مسلم بن عقبة بأهل المدينة وقتلوا، وانتهبت المدينة ثلاثًا»(١).

وقد وردت لفظة الاستباحة عند السلف لتعني النهب، وقرار انتهاب المدينة الذي اتخذه هو يزيد بن معاوية، وقد حمَّله الإمام أحمد مسئولية انتهاب المدينة، فعندما سأله مهنا بن يحيى الشامي السلمي عن يزيد قال: «هو الذي فعل بالمدينة ما فعل. قلت: وما فعل؟ قال نهبها»(٢).

وقال ابن تيمية: «فبعث إليهم» ـ أي أهل المدينة ـ جيشًا، وأمره إذا لم يطيعوه بعد ثلاث أن يدخلها بالسيف ويبيحها ثلاثًا(٣). وذهب إلى ذلك: ابن حجر(٤)، وبهذا قال ابن كثير(٥)، وأبو الفدا، وغيرهم(٦).

---

(١) «الطبقات الكبرى» (٥/ ٣٨).

(٢) «السنة للخلال» (ص ٥٢٠).

(٣) «الوصية الكبرى» (ص ٤٥٢).

(٤) «تهذيب التهذيب» (١١/ ٣١٦).

(٥)) «البداية والنهاية» (١١/ ٦٢٨).

(٦) أبو الفدا: أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه ابن أيوب، الملك المؤيد، صاحب حماة (المتوفى: ٧٣٢هـ) «المختصر في أخبار البشر» (١/ ١٩٢).

ولا شك أن انعدام الأمن والخوف في المدينة قد أدّى بالبعض إلى الهروب من المدينةوالالتجاء إلى الجبال المجاورة، كما حدث لأبي سعيد الخدري ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ، فقد هرب من المدينة ودخل غارًا والسيف في عنقه، ودخل عليه شامي فأمره بالخروج، فقال: «لا أخرج وإن تدخل قتلتك»، فدخل عليه فوضع أبو سعيد السيف وقال: «بؤ بإثمي وإثمك». قال: «أنت أبو سعيد الخدري؟!» قال: «نعم». قال: «فاستغفر لي»، فخرج(١).

ونود أن نشير إلى أن النهب لم يشمل كل أهل المدينة، فلم نسمع أن ابن عمر قد انتهبت داره أو علي بن الحسين، أو غيرهما من الذين لم يقفوا بجانب المعارضين، وإنما كان الانتهاب في الأماكن التي يدور فيها القتال وتعرف فيه معارضة للحكم الأموي(٢). ثم إن الذين قاموا بالنهب فئة من الجيش، وليس الجيش كله؛ لأن الجيش يضم أخلاطًا من الناس، فالجيش الشامي تعداده حوالى اثني عشر ألف مقاتل(٣).

ما قيل حول انتهاك الأعراض:

بعد التتبع لكتب التاريخ التي تُعد بمثابة العُمدة حول أحداث موقعة الحرة، مثل: «تاريخ الطبري، وأنساب الأشراف للبلاذري، وتاريخ خليفة بن خياط، وطبقات ابن سعد»، لم نجد ما يشير إلى وقوع انتهاك أعراض النساء من قبل جيش يزيد، وأول من أشار إلى انتهاك الأعراض: المدائني المتوفي سنة ٢٢٥هـ حيث قال المدائني عن أبي قرة عن هشام بن حسان قال: «وَلَدت بعد الحرة ألف

---

(١) «تاريخ خليفة» (ص ٢٣٩)، «أنساب الأشراف» (٤/٣٣٥).

(٢) «مواقف المعارضة في خلافة يزيد» (ص ٥٢٩).

(٣) «المرجع السابق» (ص ٥٤٥).

امرأة من غير زوج»، ويعتبر ابن الجوزي هو أول من أورد هذا الخبر في تاريخه من طريق هشام بن حسان قال: «ولدت ألف امرأة بعد الحرة من غير زوج»(١).

وقد نقلها عن ابن الجوزي السمهودي مؤرخ المدينة المتوفى في القرن العاشر الهجري(٢)، وقد ورد في دلائل النبوة للبيهقي من طريق يعقوب بن سفيان قال: «حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا جرير بن المغيرة، قال: أنهب مسرف بن عقبة المدينة ثلاثة أيام، فزعم المغيرة أنه افتض فيها ألف عذراء».

ومن الجدير بالذكر: أن كل من أورد خبر انتهاك أعراض أهل المدينة في معركة الحرَّة قد اعتمد على رواية يعقوب أو رواية المدائني فقط، وكلتاهما لا تصح ولا تثبت(٣). ويبدو أن الطبري، والبلاذري، وخليفة بن خياط، وغيرهم، لم يقتنعوا بصحة هذا الخبر، فإنهم قد أعرضوا عنه ولم يدخلوه في كتبهم ولا يوجد خبر صحيح الإسناد في حادثة الاغتصاب المزعومة، وقد أورد هذا الخبر أيضًا ابن كثير(٤)، وقد أقر بوقوع انتهاك الأعراض أيضًا ابن تيمية(٥)، وابن حجر(١)، ومع ذلك لم يوردا مصادرهما التي استقيا معلوماتها تلك.

---

(١) «المنتظم في تاريخ الأمم والملوك» (٦/ ١٥).

(٢) «وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى».

(٣) قد قام الشيباني بدراسة عميقة حول هذا الموضوع، وأثبت ضعف هذه الروايات، انظر: أسباب رد الخبرين من جهة السند. «مواقف المعارضة في خلافة يزيد» (ص ٥٤٩).

(٤) «البداية والنهاية» (١١/ ٦٣٦).

(٥) قال ابن تيمية: «والأمر الثاني: نقض أهل المدينة لبيعة يزيد، فقد نقضوا بيعته وأخرجوا نوابه وأهله، فبعث إليهم يزيد جيشًا لإخضاعهم، وأمر القائد إذا لم يطيعوا ولم يرجعوا إلى الطاعة خلال ثلاثة أيام أن يدخلها بالسيف، وأن يبيحها مدة ثلاثة أيام، فمن زنى أو سرق أو قتل فلا يقام عليه الحد، هذا معنى الإباحة، فصار عسكره في المدينة النبوية ثلاثًا يقتلون مَن شاءوا، وينهبون ما شاءوا، ويفتضون الفروج المحرمة، ثم أرسل يزيد جيشًا إلى مكة المشرفة

ثم إن القرائن المصاحبة لمعركة الحرّة لا تثبت وجود أي نوع من الاغتصاب، وقد رأينا أن الروايات الحسنة التي ذكرت انتهاب المدينة وأثبتناها في موضعها، لم يرد فيها ذكر لانتهاك الأعراض.

ومن المعلوم أن وقوع حالات الاغتصاب هي أعظم وأشد من النهب، فلو كانت واقعة مع حالات النهب لذكرها الرواة الذين ذكروا وقوع النهب، ثم إن المدينة في هذا التوقيت كانت تضم بين جنباتها كثيرًا من الصحابة وأهل التقوى والصلاح، فكيف يسكت هؤلاء على وقوع هذا الجُرم دون إنكار؟! ولم يرد ذكر انتهاك الأعراض على لسان كبار الصحابة الذين شهدوا الواقعة، ولم يُعرف عن أحد من المسلمين الوقوع في هذا الفعل حتى مع الكافرات، منذ عصر الرسالة وحتى عصر الفتوحات، وذلك مع كثرة الفتوحات؛ فكيف يكون هذا مع المسلمات العفيفات؟ فلابد من وجود أدلة صريحة وصحيحة، واعتراف من أهل الزمان والمكان للاعتراف بوقوع هذا الجرم العظيم(٢).

أخذ البيعة من أهل المدينة ليزيد بن معاوية ووفاة مسلم بن عقبة:

تعتبر الكيفية التي تمّ بها أخذ البيعة من المدنيين من أكبر الأمور التي انتقد فيها يزيد معاوية، فقد وردت الروايات لتبين أن مسلم بن عقبة أخذ البيعة من أهل المدينة على أنّهم عبيد ليزيد بن معاوية، يتصرف في دمائهم وأموالهم كيفما يشاء، وتضيف إحدى الروايات صيغة أخرى لأخذ البيعة من أهل المدينة، فتذكر

فحاصروا مكة؛ لأن فيها عبد الله بن الزبير، فتوفي يزيد وهم يحاصرون مكة». انظر: «الوصية الكبرى» (ص ٤٥).

(١) «الإصابة» (٦/٢٩٥).

(٢) «مواقف المعارضة في خلافة يزيد» (ص ٥٤٩).

الرواية: أنهم بايعوا كعبيد ليزيد في طاعة الله ومعصيته! وهذه الرواية سندها ضعيف[١]، وليس هناك تفصيل وبيان عمن بايع على هذه الصفة، وهل كل المدنيين بايعوا هذه البيعة بمن فيهم ابن عمر، وعلي بن الحسين، وأبي سعيد الخدري، وسعيد بن المسيب، وغيرهم من الذين لم يشتركوا في محاربة أهل الشام؟ والذي يبدو من خلال مجمل الروايات أنه فور انتهاء معركة الحرّة دعا مسلم بن عقبة الناس للبيعة، كما يبدو أن البيعة أخذت من جميع الناس[٢]، فعن جابر بن عبد الله قال: «لما قدم مسلم بن عقبة المدينة بايع الناس، (يعني بعد وقعة الحرّة)، قال: وجاءه بنو سلمة فقال: لا أبايعكم حتى يأتي جابر، قال: فدخلت على أم سلمة أستشيرها، فقالت: إني لأراها بيعة ضلالة، وقد أمرت أخي عبد الله ابن أبي أمية أن يأتيه فيبايعه. قال: فأتيته فبايعته»[٣].

ولعل بني أُمية بايعوا ليزيد ليكونوا قدوة للناس وتأكيدًا على طاعتهم له، حتى إن علي بن الحسين قد أُتي به إلى مسلم بن عقبة فأكرمه مسلم، وذلك بسبب وصية يزيد لمسلم بوجوب حسن معاملة علي بن الحسين، مما يدل على أن أهل المدينة ـ الخارج على طاعة يزيد والمقر بطاعة يزيد ـ كلهم قد دعوا إلى مسلم ابن عقبة[٤].

---

(١) «تاريخ خليفة» (ص ٢٣٩)، و«أنساب الأشراف» (٤/٣٣٥).

(٢) «تاريخ دمشق» (ترجمة معقل بن سنان).

(٣) «الإصابة» (٤/١٢) بإسنادٍ حسن. وقال ابن حجر: «ويحتمل في هذا أن يكون الصواب فأمرت ابن أخي».

(٤) «البداية والنهاية» (١١/ ٦٣٩)، «الطبقات» (٥/ ١٢٥)، «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٣٢٠ - ٣٢١).

ولقد وردت روايات أخرى تفصل وتبين هذه البيعة، وتجعل هذه البيعة لفئة مخصوصة، وكان الدافع لذلك هو غضب مسلم بن عقبة على هذه الفئة[١]، فالله أعلى وأعلم بالصواب.

وقد قام مسلم بقتل ثلاثة من قادة حركة المعارضة، وهم: يزيد بن عبد الله ابن زمعة بن الأسود، ومحمد بن أبي الجهم بن حذيفة العدوي، ومعقل بن سنان الأشجعي. وفي النهاية بايع الجميع ولو كان مكرهًا أو خوفًا من القتل، لاسيما مع القسوة والشدة من قبل مسلم بن عقبة، وبهذا تم القضاء على حركة المعارضة.

ولما بلغ يزيد خبر أهل المدينة وما وقع بهم قال: «واقوْماه!»، ثم دعا الضّحَّاك ابن قيس الفهري فقال له: «ترى ما لقي أهل المدينة، فما الرأي الذي يجبرهم؟ قال: الطعام والأعطية»، فأمر بحمل الطعام إليهم وأفاض عليهم أعطيته[٢].

علمًا بأن مسلمًا لم يفاجئ أهل المدينة بالقتال، ولكنه أنذرهم وحذرهم، وحاول إقناعهم وألحّ عليهم أن يقبلوا السلام، وأن يكفوا عن القتال، ولكنهم سبوه وشتموه وردوا عليه أمانه، ويا ليت مسلمًا امتنع من حصار المدينة المحرمة وقتال أهلها، ولكنه دخل معهم في معركة طاحنة، وأنزل بأهل المدينة روعًا عظيمًا، وأعمل فيهم السيوف وقتل خيارهم، وانتهت المعركة، واستسلمت المدينة.

وفي أوّل المحرم من عام (٦٤هـ-٦٨٣م) - بعد فراغ مسلم من حرب المدينة - سار إلى مكة قاصدًا قتال ابن الزبير، ولما بلغ ثنيَّة هرْش[١] بعث إلى رءوس الأجناد

(١) «المحاسن والمساوئ» (ص ٨٩)، «المحن» (ص ١٨١).

(٢) «البداية والنهاية» (١١/ ٦٥٥).

فجمعهم فقال: «إنّ أمير المؤمنين عهد إليَّ إن حَدَثَ بي حَدَثُ الموت أن أستخلف عليكم حصين بن نمير السَّكوني». ثم دعا به فقال: **«احفظ ما أوصيك به»**. ثم أمره إذا وصل مكة أن يناجز ابن الزبير قبل ثلاث، ثم مات ودفن بالمُشلل(٢).

قراءة وتحليل حول موقعة الحرة:

لا شك أن القتال الذي حدث بين المسلمين في القرن الأول الهجري هو من الفتن والمصائب التي حلت بالمسلمين؛ لأنه اشتبه على كثير من الناس الحق والباطل؛ لذا قد اعتزل كثير من الصحابة أحداث موقعتيّ: الجمل وصفين؛ وذلك نظرًا لالتباس الأمور عليهم وعدم وضوح الحق، أو حقنًا لدماء المسلمين؛ لأن المنازع هو من المسلمين، وقد حُرم دمه وماله وعرضه. وقد اعتمد هؤلاء على حديث رسول الله ـ ﷺ ـ : «ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، من تشرف لها تستشرفه، فمن وجد منها ملجأ أو معاذًا فليعذبه». قال أحد الصحابة: أفرأيت إن دخل عليَّ بيتي فبسط إليَّ يده ليقتلني، قال: كن كابن آدم(٣).

---

(١) هرْش: مكان مرتفع من طريق مكة، قريبة من الجحفة يُرى منها البحر. «معجم البلدان» (٣٩٦/٥).

(٢) بين مكة والمدينة. «البداية والنهاية» (١١/ ٢٦٣)، «معجم البلدان» (١٣٦/٥). وقال ابن كثير معلقًا على موته:" ثم أتبعه الله بيزيد بن معاوية فمات بعده في ربيع الأول لأربع عشرة ليلة خلت منه، فما متعهما الله بشيء مما رجوه وأملوه، بل قهرهم القاهر فوق عباده، وسلبهم الملك، ونزعه منهم من ينزع الملك ممّن يشاء.وقد قَالَ مسلم عند موته:" اللَّهُمَّ إِنِّي لَمْ أَعْمَلْ عَمَلًا قَطُّ بَعْدَ شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رسول الله، أحب إلى من قتل أهل المدينة".ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك(٢٢/٢).

(٣) رواه أحمد (١٦٠٩)، والترمذي (٢١٩٤)، والبخاري مع «الفتح» (٣٣/١٣).

ولا شك أن معركة الحرة كانت مؤسفة للغاية، وهو خطأ بلا شك قد وقع فيه كثيرون من أهل المدينة، وجُرم ارتكبه بعض أهل الشام، وقد حمَّل كثير من المؤرخين والعلماء يزيد بن معاوية مسئولية ما حدث، بل يُعتبر هو المسئول الأول؛ لأنه هو الذي أذن لمسلم بن عقبة بأن يفعل ما فعل. وكذلك أهل المدينة يتحملون مسئولية كبيرة؛ لأنهم أصروا على موقفهم ولم يسمعوا نصيحة أكابر الصحابة حول نقضهم البيعة، لكن ما حدث لا يدعونا إلى الإنكار لهذه الأحداث بالكلية، وكذلك لا نقبل التضخيم والتهويل، ولا شك أن موقعة الحرة من الفتن التي حدثت بين المسلمين، وقد ظن أهل المدينة أن المصلحة ستتحقق بما فعلوا، وستعود الشورى مرة أخرى، وللأسف فقد ازدادت المفسدة؛ فلا أقاموا دينًا ولا أبقوا دنيا.

وهناك أسباب كثيرة أدت إلى هزيمة أهل المدينة، من هذه الأسباب: عدم وجود القائد الحكيم الذي يستطيع أن يزن الأمور بميزانها الصحيح المعتبر، فلابد للقائد أن يجيد فهم الواقع، وأن يجيد الترجيح بين المصالح والمفاسد، وأن يجيد فقه الحركة؛ بمعنى متى يتقدم؟ ومتى يتأخر؟ ومتى يثبت مكانه؟

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «فَإِنَّ اللَّهَ ـ تَعَالَى ـ بَعَثَ رَسُولَهُ ـ ﷺ ـ بِتَحْصِيلِ الْمَصَالِحِ وَتَكْمِيلِهَا، وَتَعْطِيلِ الْمَفَاسِدِ وَتَقْلِيلِهَا. فَإِذَا تَوَلَّى خَلِيفَةٌ مِنَ الْخُلَفَاءِ، كَيَزِيدَ وَعَبْدِ الْمَلِكِ وَالْمَنْصُورِ وَغَيْرِهِمْ، فَإِمَّا أَنْ يُقَالَ: يَجِبُ مَنْعُهُ مِنَ الْوِلَايَةِ وَقِتَالُهُ حَتَّى يُوَلَّى غَيْرُهُ كَمَا يَفْعَلُهُ مَنْ يَرَى السَّيْفَ، فَهَذَا رَأْيٌ فَاسِدٌ، فَإِنَّ مَفْسَدَةَ هَذَا أَعْظَمُ مِنْ مَصْلَحَتِهِ. وَقَلَّ مَنْ خَرَجَ عَلَى إِمَامٍ ذِي سُلْطَانٍ إِلَّا كَانَ مَا تَوَلَّدَ عَلَى فِعْلِهِ مِنَ الشَّرِّ أَعْظَمَ مِمَّا تَوَلَّدَ مِنَ الْخَيْرِ. وَأَمَّا أَهْلُ الْحَرَّةِ وَابْنُ الْأَشْعَثِ وَابْنُ الْمُهَلَّبِ وَغَيْرُهُمْ فَهُزِمُوا وَهُزِمَ أَصْحَابُهُمْ، فَلَا أَقَامُوا دِينًا وَلَا أَبْقَوْا دُنْيَا. وَاللَّهُ ـ تَعَالَى ـ لَا يَأْمُرُ بِأَمْرٍ لَا يَحْصُلُ بِهِ صَلَاحُ الدِّينِ وَلَا صَلَاحُ الدُّنْيَا، وَإِنْ كَانَ فَاعِلُ ذَلِكَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ، وَمِنْ

أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَلَيْسُوا أَفْضَلَ مِنْ عَلِيٍّ وَعَائِشَةَ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ وَغَيْرِهِمْ، وَمَعَ هَذَا لَمْ يُحْمَدُوا مَا فَعَلُوهُ مِنَ الْقِتَالِ(١)، وَهُمْ أَعْظَمُ قَدْرًا عِنْدَ اللَّهِ وَأَحْسَنُ نِيَّةً مِنْ غَيْرِهِمْ».

وإذا تأملنا كلام شيخ الإسلام: نلحظ أنه كان دقيقًا جدًّا في اختيار ألفاظه؛ فلقد قال: «وَقَلَّ مَنْ خَرَجَ عَلَى إِمَامٍ ذِي سُلْطَانٍ إِلَّا كَانَ مَا تَوَلَّدَ عَلَى فِعْلِهِ مِنَ الشَّرِّ أَعْظَمَ مِمَّا تَوَلَّدَ مِنَ الْخَيْرِ». ومعنى على إمام ذي سلطان: أي ذي منعة وشوكة وقوة. أما في حالات ضعف الإمام فربما يؤدي ذلك إلى حدوث التغيير، كما قامت الدولة العباسية بعد وقوع الضعف الشديد الذي حل بآخر خلفاء عصر بني أُمية، ولما حل الضعف كذلك بالدولة العباسية قامت الدويلات المستقلة في المشرق والمغرب في ظل وجود الخلافة العباسية؛ فلقد استطاع عبد الرحمن الداخل أن يعيد قيام الدولة الأموية في الأندلس، وقد قامت بعض الدول في بلاد المغرب: كالدولة الرستمية، ودولة الأدارسة، ودولة الأغالبة، وكذا قامت بعض الدول الأخرى في بلاد المشرق: كالدولة الطاهرية، والدولة الصفارية، والدولة السامانية، والدولة الغزنوية، وفي مصر والشام: قامت الدولة الطولونية، والدولة الإخشيدية، والدولة الحمدانية، والدولة الفاطمية، والدولة الأيوبية، والدولة المملوكية، وغير ذلك من الدول التي استقلت عن الدولة العباسية، كل ذلك في ظل وجود الخلافة العباسية، لكن كان الخليفة العباسي آنذاك عبارة عن صورة شكلية فقط وليس له من الأمر من شيء، فلا يستطيع أن يأمر أو وينهى أو أن يولي ويعزل من شاء.

لذا نقول: هناك من استطاع التغيير، ولكن هذا الأمر مرده إلى دراسة موازين القوى، ومبناه على الترجيح بين المصالح والمفاسد، فإن كانت المصلحة في الصبر، فالصبر يُقدم، ولا يلزم من الصبر الرضا كما يظن البعض.

---

(١) يرى شيخ الإسلام أن ترك علي بن أبي طالب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - للقتال كان هو الأولى، وجمهور العلماء يقولون: «إن عليًّا - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - كان على الحق». والنصوص تثبت ذلك.

ومن أهم أسباب الفشل أيضًا: تعدد القادة؛ لأن تعدد القوّاد في المعركة من دواعي الهزيمة، وهذا ما تنبأ به عبد الله بن عباس عندما سئل عن حالهم، فقيل: «استعملوا عبد الله بن مطيع على قريش، وعبد الله بن حنظله على الأنصار». فقال ابن عباس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ: «أميران؟! هلك القوم»[١].

ثم تأمل البون الشاسع بين الجيشين؛ جيش كبير منظم له أهدافه وخططه الواضحة، وجيش آخر يرفع جنوده بعض الشعارات الممزوجة بأحلام اليقظة، يدفعهم الحماس وتحركهم العاطفة، دون معرفة وبصيرة بحقائق الواقع، ومآلات الأمور وعواقبها.

ولابد للقائد أن يكون ملمًا بكل شيء يحدث من حوله، ويجيد السياسة والحنكة أثناء المفاوضات إن وجدت، وأثناء التعامل مع الخصم، ولابد أن يكون شجاعًا مضحيًّا في سبيل ما يؤمن به، ولكننا إذا تأملنا ـ على سبيل المثال ـ : حال عبد الله بن مطيع نراه على العكس من ذلك تمامًا؛ فلقد فر هاربًا إلى مكة بعد ما أيقن وقوع الهزيمة في أهل المدينة، وترك أتباعه يقتلون على أبواب الدور والمساجد، وهكذا عبر الأزمنة تجد من يحرض الناس ويحثهم ويشجعهم على القتال والثبات حتى الموت، ثم تراه يفر هاربًا من ساحة القتال، فسبحان الله! فالتاريخ يتكرر كما هو في كثير من الأحداث.

ومن دواعي الفشل: قلة ما تحت أيديهم من الأرزاق، ولو استمر الحصار مدة طويلة لهلك الناس من الجوع، لأن ما بها من الميرة لا يكفيها لسد حاجتها أيامًا، وجُل طعامها يأتيها من التجارة، أو من بساتين خارج حدود المدينة، ثم إن زعامة المدينة المنورة، لم تكن راضية عن هذه الثورة، فهناك أسرتان كبيرتان من

---

(١) «العقد الفريد» (٤/ ٣٨٨).

المهاجرين عارضتا أهل المدينة، وهما: آل الخطاب، وآل هاشم، وعلى رأس آل الخطاب: شيخ الصحابة في زمانه وفقيههم عبد الله بن عمر، ومن آل هاشم: عبد الله بن العباس، وعلي بن الحسين ومحمد بن الحنيفة.

وقد حمَّل كثير من المؤرخين والعلماء يزيد بن معاوية مسئولية ما حدث كما ذكرنا، بل يُعتبر هو المسئول الأول؛ لأنه هو الذي أذن لمسلم بن عقبة بأن يفعل ما فعل. والله المستعان.

المبحث الرابع

الأحداث السياسية بين عبد الله بن الزبير ويزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان

محاولات يزيد للسيطرة على عبد الله بن الزبير:

كان ابن الزبير ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قد عقد العزم على عدم البيعة ليزيد، واختار الذهاب والاستقرار بمكة، ومكة هي المكان الوحيد الذي يمكن اللجوء إليه في هذه الفترة وذلك لأن الأقاليم الأخرى ليست مناسبة؛ فالعراق بِمِصْرَيْهِ: الكوفة والبصرة لا يمكن ضمان ولاء أهلها لأي زعيم معارضة ضد بني أمية، وما فعلوه مع الحسين خير دليل على ذلك، وكان ابن الزبير يعي ذلك تمامًا حينما نصح الحسين بعدم الذهاب إلى العراق[1]، فقال له: «أين تذهب؟! إلى قوم قتلوا أباك، وطعنوا أخاك؟!»، أما مصر واليمن فقد كانتا بعيدتين عن مسرح الأحداث، ولم يكن لابن الزبير في هذين الإقليمين أنصار ومؤيدون يمكن أن يعتمد عليهم، وأما الشام فكما هو معروف كان معقل الأمويين، ثم إن مكة بلد حرام لا يجوز سفك الدماء بها، وهذا يكفل لمن يعتصم بها حماية من القتل إلا إذا ارتكب حدًّا يوجب ذلك، ثم إن مكة بلد له مكانته وقدسيته في نفوس المسلمين ثم إنه يجتمع بمكة في موسم الحج كل عام الألوف من المسلمين من مختلف الأقاليم، ويمكن من خلال هذا الموسم التأثير على الرأي العام وتوجيهه، وهو ما لا يمكن توفره في أي إقليم.

وأخيرًا: فإن معارضة ابن الزبير يقويها ويعضدها معارضة أهل المدينة لبني أمية، وبالتالي كان من المناسب أن يكون ابن الزبير قريبًا من المدينة ليضمن استمرار

---

(١) «نسب قريش» (ص ٢٣٩).

تأييد أهلها له، ولكي يتمكن من الاتصال المستمر بهم، وكان معاوية - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - على معرفة بطبيعة ابن الزبير، وأنه لن يبايع ليزيد، وقد طلب ابن الزبير من معاوية أن يتنحى عن الإمارة إن كان ملّها ثم طلب من معاوية أن يضع يزيد خليفة بدلًا منه فيبايعه. ثم استدل على عدم موافقته على المبايعة بما استنبطه من حديث الرسول - ﷺ - بأنه لا يجوز مبايعة اثنين في آن واحد[1] ثم قال: «وأنت يا معاوية أخبرتني أن رسول الله - ﷺ - قال: **«إذا كان في الأرض خليفتان فاقتلوا أحدهما»**، وقد قال معاوية في وصيته ليزيد: «وأما ابن الزبير فإنه خب[2] ضب فإذا شخص لك فالبد له[3] إلا أن يلتمس منك صلحًا، فإن فعل فاقبل، واحقن دماء قومك ما استطعت»[4].

وكان مقصد ابن الزبير - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ومن معه، ومن بينهم بعض الصحابة والتابعين: كالمسور بن مخرمة، وعبد الله بن صفوان، ومصعب بن عبد الرحمن ابن عوف، وغيرهم من فضلاء عصرهم هو تغيير الواقع بالسيف؛ لما رأوا تحول الخلافة إلى وراثة ملك، وكان ابن الزبير - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - يرى أنه باستعماله للسيف وتغييره للمنكر بالقوة يتقرب إلى الله ويضع حدًّا لانتقال الخلافة إلى ملك ووراثة؛ ولهذا لم يدع لنفسه حتى توفي يزيد بن معاوية[5].

---

(١) «تاريخ خليفة بن خياط» (ص ٢١٤)، «حلية الأولياء» بإسنادٍ حسن (١/ ٣٣٠، ٣٣١). وقد علق محب الدين الخطيب على هذا فقال: «ابن الزبير أذكى من أن يفوته أن البيعة ليزيد بعد معاوية، وليست لهما معًا في حياة معاوية».

(٢) الخب: الخداع. «لسان العرب» (١/٣٤١).

(٣) أي تعامل معه بحزم وحرص.

(٤) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/٥٢٣).

(٥) «الطبقات» (٥/ ١٤٧).

وكان ابن الزبير يخطب ويقول: «والله، لا أريد إلا الإصلاح وإقامة الحق، ولا ألتمس جمع مال ولا ادخاره»، ثم إن ابن الزبير يرى في نفسه أنه أهل لمنصب الخلافة بعد وفاة معاوية؛ لما يتمتع به من بعض الخصائص والصفات، إضافة لنسبه الكريم، حيث أبوه: الزبير بن العوام أحد العشرة المبشرين بالجنة، وحواري رسول الله ـ ﷺ ـ، وأمه: أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين ـ رضي الله عنهما ـ، وجده من جهة أمه: أبو بكر الصديق خليفة رسول الله ـ ﷺ ـ وصاحبه، وهو أول مولود يولد للمسلمين بعد الهجرة، وارتجت المدينة بالتكبير عند مولده [١]، وكان معاوية ـ رضي الله عنه ـ يعرف قدر ابن الزبير ومكانته، وكان يحترمه ويقدره، وقد أدرك ابن الزبير مكانة معاوية وحلمه ولينه، وكيف كان معاوية يقابل شدتهم باللين وقسوتهم بالرفق، وكان ابْنُ الزُّبَيْرِ يقول بعد وفاة معاوية: «لِلَّهِ دَرُّ مُعَاوِيَةَ، إِنْ كَانَ لَيَتَخَادَعُ لَنَا وَإِنَّهُ لأَدْهَى الْعَرَبِ، مَعَ حِلْمٍ لا يُنَادَى وَلِيدُهُ، وَإِنْ كَانَ لَيَتَضَاعَفُ لَنَا وَهُوَ أَنْجَدُ الْعَرَبِ» [٢].

---

(١) وهو من فقهاء الصحابة وأحد العبادلة، وأحد الشجعان من الصحابة، وكان فارس قريش في زمانه وله مواقف مشهودة، شهد اليرموك وهو شاب، وفَتْح المغرب، وغَزْو القسطنطينية. كان لا ينازع في ثلاثة: شجاعة ولا عبادة ولا بلاغة. عن عمرو بن دينار قال: «ما رأيت مصليًّا قط أحسن صلاة من عبد الله بن الزبير». وعن مجاهد: «كان ابن الزبير إذا قام للصلاة كأنه عمود». وقال ابن أبي مليكة: «قال لي عمر بن عبد العزيز: إن في قلبك من ابن الزبير قلت: لو رأيته ما رأيت مناجيًا ولا مصليًّا مثله». وقال ثابت البناني: «كنت أَمُرُّ بابن الزبير وهو خلف المقام يصلي كأنه خشبة منصوبة لا تتحرك». وعن مجاهد: «ما كان باب من العبادة يعجز عنه الناس إلا تكلفه ابن الزبير». وقال عنه ابن عباس: «أَمَّا أَبُوهُ: فَحَوَارِيُّ النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ، يُرِيدُ: الزُّبَيْرَ، وَأَمَّا جَدُّهُ: فَصَاحِبُ الْغَارِ، يُرِيدُ: أَبَا بَكْرٍ، وَأُمُّهُ: فَذَاتُ النِّطَاقِ، يُرِيدُ: أَسْمَاءَ، وَأَمَّا خَالَتُهُ: فَأُمُّ الْمُؤْمِنِينَ، يُرِيدُ: عَائِشَةَ، وَأَمَّا عَمَّتُهُ: فَزَوْجُ النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ، يُرِيدُ: خَدِيجَةَ، وَأَمَّا عَمَّةُ النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ: فَجَدَّتُهُ، يُرِيدُ: صَفِيَّةَ، ثُمَّ عَفِيفٌ فِي الإِسْلَامِ، قَارِئٌ لِلْقُرْآنِ». انظر: «البخاري مع الفتح» (١٧٧/٨)، «حلية الأولياء» (٣٣٣/١)، «المستدرك» (٥٥٥/٣).

(٢) «أنساب الأشراف» (٩٥/٤).

وعندما سمع ابن الزبير بمقتل الحسين ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قام خطيبًا في مكة وترحم على الحسين وذم قاتليه، وقال: «أما والله لقد قتلوه طويلًا قيامه، وكثيرًا في النهار صيامه، أحق بما هم فيه منهم، وأولى بما هم فيه منهم، وأولى به في الدين والفضل، أما والله ما كان يبدّل بالقرآن الغناء، ولا البكاء من خشية الله الحداء[1]، ولا بالصيام شراب الحرام، ولا بالمجالس في حلق الذكر الركض في طلب الصيد ـ يعرّض بيزيد ـ ؛ فسوف يلقون غيًّا»[2].

ونظرًا للمشاعر العاطفية التي أثرت على أهل الحجاز عمومًا بسبب قتل الحسين ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ فقد أبدى البعض استعداده لبيعة ابن الزبير[3].

ولاحظ ابن الزبير مشاعر السخط التي عمّت أهل الحجاز بسبب قتل الحسين ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ فأخذ يدعو إلى الشورى وينال من يزيد ويشتمه[4]، ويذكر شربه للخمر ويثبط الناس عنه، وأخذ الناس يجتمعون إليه فيقوم فيهم، فيذكر مساوئ بني أمية[5]، ولم يحاول يزيد في بداية الأمر أن يعمل عملًا من شأنه أن يعقّد النزاع مع ابن الزبير، ولهذا فلقد أرسل إليه رسالة يذكّره فيها بفضائله ومآثره في الإسلام، ويحذره من الفتنة والسعي فيها، وكان مما قال له: «أذكرك الله في نفسك، فإنك ذو سن من قريش، وقد مضى لك سلف صالح، وقدم صدق من اجتهاد وعبادة، فأربب صالح ما مضى ولا تبطل ما قدمت من حسن، وادخل فيما دخل فيه الناس، ولا تردهم في فتنة، ولا تحل ما حرم الله»، فأبى أن يبايع[6].

---

(١) الحداء: صوت الغناء للإبل.

(٢) «أنساب الأشراف» (٤/ ٣٠٤).

(٣) «المصدر نفسه» (٤/ ٣٠٤).

(٤) «المصدر نفسه» (٤/ ٣٠٤).

(٥) «أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار» (١/ ٢٠١) بسندٍ كل رجاله ثقات.

(٦) «أنساب الأشراف» (٤/ ٣٠٣- ٣٠٤).

ولم يستجب ابن الزبير لدعوة يزيد السلمية ورفض بيعته وأقسم يزيد على أنه لا يقبل بيعة ابن الزبير حتى يأتي إليه مغلولًا(١)، ولقد حاول معاوية بن يزيد أن يثني والده عن هذا القسم، وذلك لمعرفته بابن الزبير، وأنه سيرفض القدوم على يزيد وهو في الغل(٢)، وكان معاوية بن يزيد صالحًا تقيًّا ورعًا، يجنح للسلم ويخشى من سفك دماء المسلمين، وساند معاوية في رأيه عبد الله بن جعفر، ولكن يزيد أصر على رأيه، وحتى يخفف يزيد من صعوبة الموقف على ابن الزبير، فقد بعث بعشرة من أشراف أهل الشام، وأعطاهم جامعة(٣) من فضة، وبرنس خز(٤).

وفي رواية أخرى: أن يزيد بعث لابن الزبير بسلسلة من فضة وقيد من ذهب(٥).

وعند وصول أعضاء الوفد إلى مكة تكلم ابن عضاة الأشعري، وقال: «يا أبا بكر!: قد كان من أثرك في أمر أمير الخليفة المظلوم ـ يعني عثمان بن عفان ـ ونصرتك إياه يوم الدار ما لا يجهل، وقد غضب أمير المؤمنين بما كان من إبائك مما قدم عليك فيه النعمان بن بشير، وحلف أن تأتيه في جامعة خفيفة لتحل يمينه،

---

(١) «أنساب الأشراف» (٤/ ٣٠٤)، «أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه» (٢/ ٣٥١) وإسناده حسن.

(٢) من المعلوم أن الحر لا يقبل الهوان، ومن تتبع سيرة عبد الله بن الزبير منذ صغره، سيلحظ أن ابن الزبير من هذا النوع، فلقد مَرَّ بِهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَهُوَ يَلْعَبُ مع الصبيان، فَفَرَّ الصِّبْيَانُ وَوَقَفَ هُوَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: مَا لَكَ لَمْ تَفِرَّ مَعَهُمْ؟ فَقَالَ: لَمْ أُجْرِمْ فَأَخَافَكَ، وَلَمْ تَكُنِ الطَّرِيقُ ضَيِّقَةً فَأُوَسِّعَ لَكَ. ابن الأثير: الكامل في التاريخ(٣/٤٠٨).

(٣) الجَامِعَةُ: الغُلُّ يجمع اليدين إلى العُنُق.

(٤) «تاريخ خليفة» (ص ٢٥١) إسناده حسن، «تاريخ دمشق، ترجمة ابن الزبير» (ص ٤٥٢).

(٥) «الآحاد والمثاني» (٤١٦/١) بسندٍ صحيح، «حلية الأولياء» (١/ ٣٣٣).

فالبس عليها برنسًا فلا ترى، ثم أنت الأثير عند أمير المؤمنين الذي لا يخالف في ولاية ولا مال»(١).

استأذن ابن الزبير الوفد بضعة أيام يفكر ويستشير، فعرض الأمر على والدته أسماء بنت أبي بكر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ فقالت: «يا بني، عش كريمًا، ومت كريمًا، ولا تمكن بني أمية من نفسك، فتلعب بك، فالموت أحسن من هذا»(٢). ثم جاء رد ابن الزبير على الوفد بالمنع، وبعد ما أجاب ابن الزبير على الوفد بالمنع قال لابن عضاة(٣): «إنما أنا بمنزلة حمام من حمام مكة أفكنت قاتلًا حمامًا من حمام مكة؟ قال: نعم، وما حرمة حمام مكة؟ يا غلام ائتني بقوسي وأسهمي فأتاه بقوسه وأسهمه، فأخذ سهمًا فوضعه في كبد القوس ثمّ سدده نحو حمامة من حمام المسجد، وقال: «يا حمامة! أيشرب يزيد الخمر، قولي: نعم. فوالله: لئن فعلت لأرمينك. يا حمامة أتخلعين يزيد بن معاوية وتفارقين أمة محمد ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ ، وتقيمين في الحرم حتى يستحل بك؟ والله لئن فعلت لأرمينك. فقال ابن الزبير: ويحك أو يتكلم الطائر؟ قال: لا، ولكنك يا ابن الزبير تتكلم، أقسم بالله لتبايعن طائعًا أو مكرهًا أو لتعرفن راية الأشعريين في هذه البطحاء(٤)، ولئن أمرنا بقتالك ثم دخلت الكعبة لنهدمنها أو لنحرقنها عليك. فقال ابن الزبير: أو تحل الحرم

---

(١) «أنساب الأشراف» (٤/ ٣٠٨).

(٢) «أخبار مكة» (١/ ٢٠١) بسندٍ كل رجاله ثقات.

(٣) ابن عضاة الأشعري، هو أحد أتباع يزيد في الوفد.

(٤) حديث: «نعم الحي الأسد والأشعريون لا يفرون في القتال ولا يغلون، هم مني وأنا منهم» ضعفه الألباني، وشعيب الأرنؤوط.

والبيت؟! قال: إنما يحله من أحد فيه»[١]. ثم قال ابن الزبير: «إنه ليست في عنقي بيعة ليزيد. فقال ابن عضاة: يا معشر قريش قد سمعتم ما قال، وقد بايعتم وهو يأمركم بالرجوع عن البيعة»[٢]، وأخذ ابن الزبير يبسط لسانه في تنقص يزيد وقال: «لقد بلغني أنه يصبح سكران ويمسي كذلك»، ثم قال: «يا ابن عضاة! والله ما أصبحت أرهب الناس ولا البأس، وإني لعلى بينة من ربي، فإن أُقْتَلْ فهو خير لي، وإن أَمُتْ حتف أنفي فالله يعلم إرادتي وكراهتي لأن يعمل في أرضه بالمعاصي»، وأجاب الباقين بنحو جوابه [٣]. ثم قال ابن الزبير: «اللّٰهم إني عائذ ببيتك»[٤]، ولقب نفسه: «عائذ الله»[٥]، وكان يسمَّى العائذ[٦].

التدابير التي اتخذها يزيد ضد ابن الزبير:

ـ حملة عمرو بن الزبير:

لقد علم ابن الزبير أن رفضه لمطالب يزيد وبسط لسانه وتنقصه والنيل منه، سيعقبه شدة وقسوة من يزيد؛ لاسيما بعد ما تفوه به على رءوس أشراف أهل الشام، فقام ابن الزبير بجمع مواليه ومن تألف معه من أهل مكة وغيرهم، وكان يقال لهم: «الزبيرية»[٧].

---

(١) «الأغاني» (١/ ٢١)، «أنساب الأشراف» (٤/ ٣٠٩).

(٢) «عيون الأخبار» (١/ ١٩٦).

(٣) «أنساب الأشراف» (٤/ ٣٠٩).

(٤) «الطبقات» (٥/ ٤٥٦)، «تاريخ دمشق: (ترجمة ابن الزبير)» (ص ٤٥٠).

(٥) «الإصابة» (٤/ ٤٩) بسندٍ صحيح.

(٦) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/ ٤٩٤).

(٧) «أخبار مكة» (١/ ٢٠٢) بسندٍ كل رجاله ثقات.

وهنا رأى يزيد أنه لابد من القيام بعمل عسكري يكون الهدف منه القبض أو القضاء على ابن الزبير أو حمله على الامتثال لقسم يزيد ووضع الأغلال في عنقه، ولما حج عمرو بن سعيد بن العاص والي المدينة في تلك السنة ـ والمرجح سنة إحدى وستين ـ، حج ابن الزبير معه، فلم يصلِّ بصلاة عمرو، ولا أفاض بإفاضته(١)، وهذا العمل من ابن الزبير يعني المفارقة الواضحة لسلطة دولة يزيد، وعدم الاعتراف بها، وخصوصًا أن إقامة الحج تمثل الدليل الأقوى على شرعية الدولة وقوة سلطانها، مثله مثل إقامته الجهاد في سبيل الله.

ثم منع ابن الزبير الحارث بن خالد المخزومي من أن يصلي بأهل مكة، وكان الحارث بن خالد المخزومي نائبًا لعمرو بن سعيد على أهل مكة(٢)، وكان ابن الزبير يتصرف وكأنه مستقل عن الدولة، وكان لا يقطع أمرًا دون المسور بن مخرمة(٣)، ومصعب بن عبد الرحمن بن عوف، وجبير بن شيبة، وعبد الله بن صفوان بن أمية، وكان يريهم أن الأمر شورى فيما بينهم، وكان يلي بهم الصلوات، والجمع، ويحج بهم(٤)، فكتب يزيد إلى عمرو بن سعيد بن العاص واليه على المدينة أن يوجه له جُندًا، فعين عمرو بن سعيد بن العاص على قيادة هذه الحملة: عمرو بن الزبير بن العوام شقيق عبد الله بن الزبير، وكان عمرو بن الزبير قد وَلِيَ شرطة المدينة لعمرو ابن سعيد، وكان شديد العداوة لأخيه عبد الله، وقام بضرب كل من كان يتعاطف مع ابن الزبير، واتجه جيش عمرو بن الزبير إلى مكة وكان قوامه ألف رجل.

---

(١) «أنساب الأشراف» (٤/ ٣٠٧).

(٢)«البداية والنهاية» (١٥١/٩).

(٣) المسور بن مخرمة بن نوفل، له ولأبيه صحبة. «التقريب» (ص ٥٣٢).

(٤) «تاريخ دمشق: (ترجمة ابن الزبير)» (ص ٤٥٠).

وجعل على مقدمته: أنيس بن عمرو الأسلمي في سبعمائة من الجند[١]، فسار أنيس بن عمرو الأسلمي حتى نزل بذي طوى، وسار عمرو بن الزبير حتى نزل بالأبطح، وأرسل عمرو بن الزبير إلى أخيه عبد الله يطلب منه الامتثال ليمين يزيد ابن معاوية وحذره من القتال في البلد الحرام[٢]، وكان عمرو بن الزبير يخرج من معسكره فيصلي بالناس خلال المفاوضات مع أخيه عبد الله، وكان عبد الله يسير معه ويلين له، ويقول: «إني سامع مطيع وأنت عامل يزيد، وأنا أصلي خلفك، وما عندي خلاف، فأما أن تجعل في عنقي جامعة، ثم أُقاد إلى الشام، فإني نظرت في ذلك، فرأيت أنه لا يحل لي أن أحله بنفسي، فراجع صاحبك واكتب إليه»، ولكن عمرو بن الزبير اعتذر من الكتابة ليزيد، وذلك لأنه جاء في مهمة محددة مطلوب منه تنفيذها.

وكان عبد الله بن الزبير قد أرسل عبد الله بن صفوان الجمحي ومعه بعض الجند، وأخذوا أسفل مكة، وأحاطوا بأنيس بن عمرو الأسلمي، ولم يشعر بهم أنيس إلا وقد أحاطوا به، فقتل أنيس وانهزم أصحابه، وفي الوقت الذي قتل فيه وانهزم جيش أنيس بن عمرو الأسلمي، كان مصعب بن عبد الرحمن بن عوف يقود طائفة أخرى من الجند نحو عمرو بن الزبير، الذي كان معسكرًا في الأبطح، فانهزم عمرو بن الزبير، ودخل دار رجل يقال له علقمة، فجاءه أخوه عبيدة بن الزبير فأجاره، فأخذه إلى عبد الله، وذكر له أنه أجاره، فقال عبد الله: «أما حقي فنعم، وأما حق الناس فلأقتص منه لمن آذاه في المدينة»[٣]، وأقام عبدُ الله عمرو

---

(١) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/٤٩٩).

(٢) «تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام» (حوادث ٦١ - ٨٠) (ص ١٩٩).

(٣) «الطبقات» (٥/٤٨٥)، «أنساب الأشراف» (٤/ ٣١٢).

ابن الزبير ليقتص الناس منه، فكل من ادعى على عمرو بأنه فعل به كذا وكذا وكذا؛ قال له عبد الله بن الزبير: «افعل به مثلما فعل بك»، وتذكر المصادر أن عمرو بن الزبير تعرض لتعذيب شديد من جراء ذلك، ومات تحت الضرب[١].

لقد أثبت ابن الزبير ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ أنه يملك ذكاء ودهاء بَارِزَيْن، الأمر الذي مكّنه من تحويل القضية لصالحه بعد ما كانت في يد يزيد بن معاوية[٢]، وكان ابن الزبير في بداية معارضته يعتمد على أن البيعة التي تمت ليزيد بن معاوية لم تكن بموافقة الناس، ولابد من مشاركة الناس، وكان يدعو إلى الشورى، ولم تحقق معارضة ابن الزبير أي نجاح يذكر، فخلال سنتين أو أكثر من معارضته ليزيد لم يحدث أي تغير بشأن هيمنة الدولة على الحجاز، فضلًا عن غيره من الأقطار، لقد ارتكب يزيد خطأً فادحًا عندما أقسم أن يأتيه ابن الزبير إلى دمشق في جامعة، فكيف يعقل من صحابي جليل تجاوز الستين من عمره أن يرضخ لطلب يزيد بن معاوية؟! ولقد استطاع ابن الزبير أن يظهر يزيد أمام أهل الحجاز بأنه شخص متسلط ليس أهلًا لولاية المسلمين، وجعلت هذه الحادثة من ابن الزبير في نظر الكثير من المترددين في موقفهم من ابن الزبير، أنه طالب حق يواجه خليفة يحمل الظلم في أحكامه والتعسف في قراراته، والذي مكّن ابن الزبير وأكسبه الكثير من التعاطف هو موقف أمير المدينة عمرو بن سعيد، فكان هذا الأمير ـ كما تذكر الروايات ـ شديدًا على أهل المدينة معرضًا عند نصحهم، متكبرًا عليهم[٣].

---

(١) «تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام» (حوادث ٦١ - ٨٠) (ص ١٩٩).
(٢) «مواقف المعارضة في خلافة يزيد» (ص ٦٥٢).
(٣) «الأخبار الموفقيات للزبير بن بكار» (ص ١٥٢).

ثم ذلك الخطأ الكبير الذي وقع فيه عمرو بن الزبير ـ الذي تذكره الروايات أيضًا ـ بأنه كان عظيم الكبر، شديد العجب، ظلومًا قد أساء السيرة، وكان يضرب بالسياط، فكان ممن ضرب: المنذر بْن الزبير، ومحمد بْن المنذر، وعثمان ابْن عبد اللَّه بْن حكيم بْن حزام، وخبيب بْن عبد اللَّه بْن الزبير، ومحمد بْن عمار بْن ياسر، وغيرهم. وكان يقال: «عمرو لا يُكَلَّم، من يكلمه يندم»[1].

ومن الأخطاء التي وقع فيها يزيد بن معاوية، وعمرو بن سعيد بن العاص والي المدينة، واستطاع ابن الزبير أن يوظفها لصالحه: «غزو مكة بجيش»؛ فمكة لها حرمتها وخصوصيتها في الجاهلية ثم جاء الإسلام فزادها مكانة وقداسة على مكانتها تلك التي كانت في الجاهلية، وقام عمرو بن سعيد يتحدى مشاعر المسلمين في المدينة حين رقى المنبر في أول يوم من ولايته على المدينة، فقال عن ابن الزبير: «تعوذ بمكة، فوالله لنغزونه، ثم والله لئن دخل الكعبة لنحرقنها عليه، على رغم أنف من رغم»[2].

ولما جهّز الحملة التي سيوجهها لابن الزبير في مكة، نصحه بعض الصحابة وحذّروه، وذكّروه بحرمة الكعبة وبحديث رسول الله ـ ﷺ ـ في بيان حرمتها، ولكنه رفض السماع لنصحهم[3]، وكان مروان بن الحكم وهو الأمير المحنك والسياسي الداهية قد حذّر عمرو بن سعيد من غزو البيت وقال له: «لا تغزو مكة، واتقِ الله ولا تحل حرمة البيت، وخلوا ابن الزبير فقد كبر، هذا له بضع وستون سنة، وهو

(١) «أنساب الأشراف» (٤/ ٣١٢).

(٢) «تاريخ خليفة» (ص ٢٣٣).

(٣) «أنساب الأشراف» (٤/ ٣١٣).

رجل لجوج[١]، والله لئن لم تقتلوه ليموتن»، فقال له عمرو: «والله لنقاتلنّه، ولنغزونّه في جوف الكعبة على رغم أنف من رغم، فقال مروان: والله إن ذلك يسوؤني»[٢].

وكان عبد الله بن الزبير ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قد اختار لقبًا مؤثرًا حين أطلق على نفسه: «العائذ بالله»، فأصبح المساس بحرمة مكة أمر لا يوافق عليه الصحابة والتابعون، وكان لا بد من الدفاع عن مكة في وجه جيش يريد استحلال حرمتها، وحتى الذي لا يستطيع أن يدافع عن مكة فسوف يكون متعاطفًا مع ابن الزبير بصفته يدافع عن بيت الله، وتدافع الناس نحو ابن الزبير من نواحي الطائف يعاونونه ويدافعون عن الحرم[٣].

وهذه القضايا المعنوية والحسية كان لها الأثر البالغ في تعاظم مكانة ابن الزبير لدى أهل الحجاز؛ الأمر الذي جعله يحقق نصرًا ساحقًا وسهلًا على جيش عمرو ابن الزبير.

ومن الأمور التي انتقدها يزيد على عمرو بن سعيد: كيف أنه لم يبادر بطلب جند من أهل الشام حين جهز حملة عمرو بن الزبير؟![٤].

حملة الحصين بن نمير وحصار ابن الزبير وحريق الكعبة:

لم يقم مسلم بن عقبة في المدينة أكثر من ثلاثة أيام بعد موقعة الحرة، ومات في السابع من شهر المحرم وهو في طريقه لابن الزبير، وتولى القيادة من بعده:

---

(١) صفة مشبَّهة تدلّ على الثبوت. ورَجُلٌ لَجُوجٌ: كَثِيرُ الإِلْحَاحِ، مِلْحَاحٌ. ولجَّ في الأمر: تمادى فيه معاندًا، لازمه وأبى أن ينصرف عنه.

(٢) «البداية والنهاية» (٩/١٥١).

(٣) «أنساب الأشراف» (٤/ ٣١٣).

(٤) «أنساب الأشراف» (٤/٣١٨).

الحصين بن نمير السكوني، ووصل إلى مكة قبل انقضاء شهر المحرم بأربع ليالي تقريبًا، وعسكر الحصين بن نمير بالحجون[١] إلى بئر ميمون[٢]، وبذلك فقد عمل الحصين بن نمير على نشر جيشه على مسافة واسعة، والذي دفعه إلى ذلك طبيعة الحرب التي ستدور في مكة، وقام ابن الزبير يحث الناس على قتال جيش أهل الشام، وانضم المنهزمون من معركة الحرّة إلى ابن الزبير، وقدم على ابن الزبير أيضًا نجدة بن عامر الحنفي في ناس من الخوارج، وذلك لمنع البيت من أهل الشام[٣]. وقيل: إن النجاشي أرسل جماعة من جيشه للدفاع عن الكعبة[٤]، وكان عدد المقاتلين الذين اشتركوا مع ابن الزبير أقل بكثير من المقاتلين الذين اشتركوا في معركة الحرّة، ولم تكن القوات متكافئة، وعرض الحصين بن نمير الصلح والتسليم على عبد الله بن صفوان أحد أمراء عبد الله بن الزبير، فرفض ابن صفوان وأصر على الحرب والقتال ووافقه من معه[٥].

وكان مسلم بن عقبة عند موته قد أوصى الحصين فقال: «فاحفظ عني ما أقول لك: لا تطيلنّ المقام بمكة فإنها أرضٍ جردية لا تحتمل الدواب، ولا تمنع أهل الشام من الحملة، ولا تمكن قريشًا من أُذُنِكَ فإنهم قوم خدع، وليكن أمرك الوقاف ثم الثقاف ثم الانصراف، أفهمت يا حصين؟ قَالَ: نعم. قَالَ: واعلم أنك

(١) الحجون: الجبل المشرف حذاء مسجد البيعة، بينه وبين الحرم ميل ونصف. «أخبار مكة» (٢/ ٢٧٣).

(٢) بئر ميمون: حفرها ميمون بن الحضرمي. وهي في طريق منى. «أخبار مكة» (٢/ ٢٢٢).

(٣) «تاريخ الرسل والملوك» (٥/ ٤٩٩).

(٤) النجاشي: لقب لكل من حكم الحبشة. «أنساب الأشراف» (٤/ ٤٣٤) بسندٍ حسن.

(٥) «المحن» (ص ٢٠٣).

تقدم على قوم لا منعة لهم، ولا عدة ولا سلاح، ولهم جبال مشرفة عليهم، فانصب عليهم المجانيق، فإن عاذوا بالبيت فارمه فما أقدرك على بنائه»[(١)].

وفي يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من صفر نشب القتال شديدًا بين الطرفين، ويبدوا أن ابن الزبير قد حقق في البداية شيئًا من التكافؤ مع جيش الحصين[(٢)]، لكن سرعان ما تحول الوضع لصالح الحصين بن نمير بعد أن ابتلي ابن الزبير بفقد خيرة أصحابه، مثل أخويه: المنذر، وأبي بكر ابنيّ الزبير، ومصعب ابن عبد الرحمن، وحذافة بن عبد الرحمن بن العوام، وعمرو بن عروة بن الزبير[(٣)].

وبعد ثلاثة أيام من ربيع الأول سنة (٦٤هـ-٦٨٣م) قام الحصين بن نمير بنصب المنجنيق على جبل أبي قبيس[(٤)]، وجبل قُعَيْقِعَانُ [(٥)]، وفقد ابن الزبير أهم مستشاريه ومناصريه، وهو المسور بن مخرمة بعد أن أصابه بعض أحجار المنجنيق، وانكشفت مواقع ابن الزبير أمام الحصين بن نمير، ولم يبقَ مأمن لابن الزبير من أحجار المنجنيق سوى الحِجر[(٦)].

---

(١) «الطبقات» (٥/٤٧٦)، «أنساب الأشراف» (٤/٤٣٤)، «أخبار مكة» (٦/٢٠٦)، «التعازي [والمراثي والمواعظ والوصايا]» (ص ٢٥٢).

(٢) «الطبقات» (٥/١٥٩).

(٣) الزبير بن بكار بن عبد الله القرشي الأسدي المكي (المتوفى: ٢٥٦هـ) «جمهرة نسب قريش وأخبارها» (ص ٣٦٢).

(٤) جبل أبي قبيس: وهو أحد أخشبي مكة وهو جبل مطل على الصفا. «أخبار مكة» (٢/٢٦٦).

(٥) قيعقعان: جبل بمكة مقابل لأبى قبيس. «شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام» (١/١٦).

(٦) «المحن» (ص ٢٠٣).

وحوصر ابن الزبير حصارًا شديدًا، ولم يعد يملك إلا المسجد الحرام فقط بعد أن فقد مواقعه المتقدمة في الأبطح(١).

وقد عمد ابن الزبير إلى وضع ألواح حول البيت وعلى المسجد، وألقى عليها الفرش حتى توفر لهم غطاءً من كثرة الحجارة المنهمرة عليهم من أعالي الجبال، وحتى يتمكنوا من أداء الصلاة والطواف حول الكعبة، وقد جعل ابن الزبير فسطاطًا في المسجد فيه نساء يسقين الجرحى ويطعمن الجائع(٢).

وفي أثناء احتدام المعارك بين ابن الزبير والحصين بن نمير احترقت الكعبة وهذه مصيبة أضيفت إلى مصائب المسلمين التي نتجت عن استحلال القتال في البلد الحرام الذي حرم الله ورسوله ـ ﷺ ـ القتال فيه، وكان يزيد بن معاوية قد مات في منتصف شهر ربيع الأول(٣)، ولم يعلم أحد بموته نظرًا لبعد المسافة بين مكة ودمشق، وقد جاء الخبر بموت يزيد إلى مكة لهلال شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين، ولم تكن الكعبة مقصودة في ذاتها بالإحراق، بل كان نتيجة حريق في الخيام المحيطة بها، والدليل على ذلك: ما أحدثه حريق الكعبة من ذهول وخوف من الله في كلا الطائفتين(٤): جيش الحصين بن نمير، وجيش ابن الزبير، فقد نادى رجل من أهل الشام بعد أن احترقت الكعبة وقال: «هلك الفريقان والذي نفس

---

(١) «تاريخ خليفة» (ص ٢٥٢)، والأبطح: المكان المتَّسعُ يَمُرّ به السيل، فيترك فيه الرملَ والحصى الصغار، ومنه: أَبطح مكَّة، هو مسيل واسع يقع بين مكة ومنى. والجمع: أَباطح. انظر: «المعجم الوسيط».

(٢) «تاريخ دمشق: (ترجمة ابن الزبير)» (ص ٤٧٤).

(٣) «تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة» (١/٤٥٣).

(٤) «أخبار مكة» (١/٢٠٣).

محمد بيده»(١)، وأما أصحاب ابن الزبير، فقد خرجوا كلهم في جنازة امرأة ماتت في صبيحة ليلة الحريق خوفًا من أن ينزل العذاب بهم، وأصبح ابن الزبير ساجدًا ويقول: «اللّٰهم إني لم أتعمد ما جرى فلا تهلك عبادك بذنبي، وهذه ناصيتي بين يديك»(٢)، ولا شك أن أحدًا من أهل الشام لم يقصد إهانة الكعبة، بل كل المسلمين يعظمونها، وإنما كان مقصودهم حصار ابن الزبير، والضرب بالمنجنيق كان لابن الزبير لا للكعبة(٣)، ويزيد لم يهدم الكعبة، ولم يقصد إحراقها، لا هو ولا نوابه باتفاق المسلمين(٤)، ولكن يؤخذ على أهل الشام أنهم يعلمون جيدًا أن احتمالية وقوع الضرر بالكعبة قائمة، ومع ذلك لم يراعوا هذا الأمر، وهناك بعض الروايات التي تشير إلى أن الحصين بن نمير قد عرض على ابن الزبير بعد موت يزيد أن يتولى الخلافة حقنًا لدماء المسلمين، ولكن بشرط أن يتوجه معه إلى بلاد الشام فرفض ابن الزبير هذا العرض، وطلب المقام في مكة(٥)، ثم انسحب جيش الشام بعد ذلك(٦). وهناك بعض الروايات تشير إلى أن الحريق كان بسبب اقتراب مشعل أحد جنود ابن الزبير من كساء الكعبة، والله أعلم بحقائق الأمور.

---

(١) «تاريخ خليفة» (ص ٢٥٢).

(٢) «مواقف المعارضة» (ص ٦٧٨).

(٣) وتشير بعض الروايات التاريخية إلى أن الحريق كان بسبب اقتراب مشعل أحد جنود ابن الزبير من كساء الكعبة، والله أعلم بحقائق الأمور.

(٤) «منهاج السنة» (٤/ ٤٧٧).

(٥) «تاريخ الرسل» (٦/٤٣٦)، «أنساب الأشراف» (٤/٥٧).

(٦) «تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف» (ص ١٠٥).

وحينما نحاول أن نقوّم حركة ابن الزبير، ومدى تأثيرها على المجتمع الإسلامي في تلك الفترة، فإننا نجد أن نتيجة الحرب التي دارت بين الحصين وابن الزبير لم تصل إلى نتيجة واضحة بسبب وفاة يزيد بن معاوية وانسحاب جيش الشام، ولكننا نشير إلى عدم رضا كثير من الصحابة عن معارضة ابن الزبير وموقفه، وهذا يظهر جليًّا في موقف ابن عمر، وهو أفضل وأفقه أهل زمانه حيث إن يزيد بن معاوية ـ في نظره ـ يمثِّل الخليفة الشرعيّ للمسلمين، وأنه قد أعطى البيعة؛ ولذا لا يجوّز الخروج عليه، وقد كان ابن عمر يعْلم نتائج معارضة ابن الزبير حيث سيكون هناك حربٌ وقتالٌ بين المسلمين، ويُقتل الناس، وتبتلى الأمة، وتُعَطّل الثغور ويتوقف الجهاد في سبيل الله، إلى غير ذلك من المفاسد التي يعتقد ابن عمر أنها ستحدث لا محالة إذا استمر ابن الزبير في معارضته.

ولكي يصرف ابن عمر الناس عن مناصرة ابن الزبير فقد قال بأن قتال ابن الزبير إنما هو لأجل الدنيا(١)، وأخذ يخبر الناس ويحذرهم أن قتالهم ومناصرتهم لابن الزبير إنما هو قتال على الملك فقط(٢)، ولم يكتفِ ابن عمر بذلك، بل كان دائم المناصحة لابن الزبير ويحذِّره من عواقب الفتن، وكان يعرّفه بأن نهاية هذه المعارضة ستكون بائسة له(٣). وهكذا كان موقف ابن عباس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ وهو فقيه عالمٌ مفسّرٌ للقرآن، كان أشد المعارضين لموقف ابن الزبير، فلم يُنقل عنه أنه كان راضيًا عن ابن الزبير أو أنه تعاطف مع معارضته، بل إنه لم يبايعه بعد وفاة يزيد بن معاوية،

---

(١) «المصنف» (١٠٧٠٨) بسندٍ صحيح، و«الطبقات» (٤٧٢/٥) بسندٍ صحيح.

(٢) «البخاري مع الفتح» (٤٥١٣) كتاب «التفسير»، وأحمد في «المسند» (٥٦٩٠)، وصحح إسناده أحمد شاكر.

(٣) «مسلم بشرح النووي» (٩٨/١٦)، «الطبقات» (٥١٧/٥).

وكان يصرِّح بأنه إذا كان تحت حكم بني أمية خيرٌ له من حكم ابن الزبير(١)، ولم يكن راضيًا عن شخص ابن الزبير، ويفضِّل عليه معاوية بن أبي سفيان(٢)، بل وكان يُحَمِّلُه جزءًا من المسئولية عن إحلال القتال ببيت الله(٣). وهكذا كان موقف أبي برزة الأسلمي، وجندب بن عبد الله البجلي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ وقولهم جميعًا بأن قتاله من أجل الدنيا إنما كان بسبب النظرة إلى الفتن التي تجري بين المسلمين في ذلك الحين، ويهدفون إلى تحذير كل من يلتحق، أو ينوي الانضمام لأي من الطائفتين.

ومراد هؤلاء الصحابة الذين نقلنا عنهم رأيهم في قتال ابن الزبير وأنه كان من أجل الدنيا، هو تثبيط الناس عن الاشتراك معه، ومعرفتهم بأن النتائج التي ستترتب على أي قتال يحدث هي أعظم من المنفعة المرجوة بعده؛ فهذا ابن عمر يترحم على ابن الزبير بعد أن قتله الحَجّاج ويقول: «لقد كنتَ صوّامًا قوّامًا تصِل الرّحم». ويقول أيضًا: «رحمك الله، لقد سَعِدَتْ أمة أنت شرُّها»(٤).

ولا شك أن هؤلاء الصحابة قد آلمهم تعريض ابن الزبير الحرم للقتال والحرب؛ لما له من مكانة وحرمة، فهذا عمر يقول عن الحرم: «لو وجدت فيه قاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه»(٥).

---

(١) «البخاري مع الفتح» (١٧٧/٨).

(٢) «المصنف» (٤٥٣/١١) (٢٠٩٨٥) بسندٍ صحيح، «الآحاد والمثاني» (٣٧٨/١) بسندٍ صحيح، والطبري (٣٣٧/٥) بسندٍ حسن، والطبراني في «الكبير» (٣٣٧/٥) بسندٍ صحيح.

(٣) «البخاري مع الفتح» (١٧٧/٨).

(٤) «مسلم بشرح النووي» (٩٩/١٦).

(٥) «المصنف» (١٥٣/٥).

وبالرغم من القتال الذي دار بسببه؛ إلا أن القتل الذي أصاب إخوته وأصحابه وأصابه هو نفسه، فإنه مكفِّرٌ ـ بإذن الله ـ عما اقترف من الذنوب، ولذا قال ابن عمر مخاطبًا ابن الزبير وهو مصلوب: «أما والله إني لأرجو مع مساوئ ما قد عملت من الذنوب ألا يعذبك الله»(١).

ثم إن بعض الذين قاموا مع ابن الزبير هم من الصحابة الأجلاء، فمعاذ الله أنهم قاموا وقاتلوا وقُتلوا من أجل الدنيا، بل لقد كان مقصدهم ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ هو تغيير الواقع بالسيف، لمّا رأوا تحول الخلافة إلى وراثة وملك.

ولقد كان ابن الزبير يهدف من وراء المعارضة أن تعود الأمة إلى حياة الشورى، ويتولى الأمة أفضلها وكان يخشى من تحول الخلافة إلى ملك، وكان يرى ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ أنه باستعماله للسيف وتغييره للمنكر بالقوة يتقرب إلى الله، ويضع حدًّا لانتقال الخلافة إلى ملك ووراثة، ولهذا لم يدعو لنفسه حتى توفي يزيد ابن معاوية (٢)، فهو وإن أخطأ فإنه مجتهد مأجور بلا أدنى شك.

ومع ذلك فإن التمسك بنصوص الكتاب والسُّنَّة بلزوم الجماعة، والتي تحذر من شق عصا الطاعة، هو أولى من الذي أقدم عليه ابن الزبير وأهل المدينة، فكم من دم أريق، وامرأة ترمَّلت، وطفلٍ تيتَّم، ومالٍ نُهِب وأضيع، وغير ذلك من المفاسد، وبما أن كل طرف يقاتل ويرى أنه على حق، فلهذا سمى السلف معارضة ابن

---

(١) «المستدرك» (٣/٥٥٢).

(٢) «الطبقات» (٥/١٤٧)، «التاريخ الكبير» (٢/١٣٢) بإسنادٍ حسن.

الزبير فتنة[١]؛ وذلك لأنه قتال بين المسلمين لا نفع من ورائه ولا خير؛ فالكل يقاتل عن تأويل، ومع ذلك نقول كما قال الذهبي: «فليته ـ أي: ابن الزبير ـ كفَّ عن القتال لمّا رأي الغلبة، بل ليته ما التجأ إلى البيت. نعوذ بالله من الفتنة الصَّمَّاء»[٢].

وفاة يزيد بن معاوية وخلافة معاوية بن يزيد:

في عام (٦٤هـ-٦٨٣م) توفي يزيد بن معاوية، وكانت وفاته بقرية من قرى حمص يقال لها حوّارين من أرض الشام، لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة ٦٤هـ وهو ابن ثمان وثلاثين سنة، أو وهو ابن تسع وثلاثين، وكانت ولايته ثلاث سنين وستة أشهر أو ثمانية أشهر[٣]، فتولى الخلافة بعده معاوية بن يزيد وهو ثالث الخلفاء الأمويين[٤]، ولد سنة ٤٤هـ ونشأ في بيت الخلافة، بويع له بالخلافة بعد موت أبيه، في رابع عشر ربيع الأول سنة أربع وستين هجرية، ويختلف المؤرخون كثيرًا في المدة التي حكمها معاوية بن يزيد، ويتراوح الخلاف بين عشرين يومًا إلى

(١) «الموطأ» (١/ ٣٦٠)، «البخاري مع الفتح» (٧/ ٥٢١) و(٨/ ٣٢)، «التاريخ الكبير» (١/ ٩٧)، مسلم في صحيحه (٢/ ٩٠٣)، «الآحاد والمثاني» (١/ ٤١١)، «تاريخ دمشق، ترجمة عبد الله ابن الزبير» (ص٤٥٤)، «تهذيب التهذيب» (٦/ ٢٣).

(٢) «السير» (٣/ ٣٧٣-٣٨٤).

(٣) «تاريخ الرسل» (٦/ ٤٣٣).

(٤) معاوية بن يزيد: هو ثالث الخلفاء الأمويين، وكنيته أبو يزيد أو عبد الرحمن، أبوه يزيد بن معاوية ابن أبي سفيان، وأمه أم هاشم بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة. ويسمى معاوية الأصغر. ولد سنة ٤٤هـ ونشأ في بيت الخلافة، وكان ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ أبيض شديد البياض، كثير الشعر، كبير العينين، جعد الشعر، أقنى الأنف، مدور الرأس، جميل الوجه، كثير شعر الوجه، دقيقه، حسن الجسم، وكان رجلًا صالحًا ناسكًا. «تاريخ الرسل» (٦/ ٤٣٤).

ثلاثة أشهر[١]. وكان مريضًا مدة ولايته، ولهذا لم يؤثر له عمل ما مدة خلافته، حتى الصلاة، فإن الضحاك بن قيس هو الذي كان يصلي بالناس، ويسيّر الأمور، وظل الضحاك يصلي بالناس حتى بعد وفاة معاوية، حتى استقر الأمر لمروان بالشام.

ولما أحس معاوية بن يزيد بالموت نادي في الناس الصلاة جامعة، وخطب فيهم، وكان مما قال: «أيها الناس إني قد وليت أمركم وأنا ضعيف عنه، فإن أحببتم تركتها لرجل قوي، كما تركها الصديق لعمر، وإن شئتم تركتها شورى في ستة كما تركها عمر بن الخطاب، وليس فيكم من هو صالح لذلك، وقد تركت أمركم، فولوا عليكم من يصلح لكم»، ثم نزل ودخل منزله، فلم يخرج حتى مات ـ رحمه الله تعالى ـ[٢].

قد أراد معاوية بن يزيد أن يقول لهم: إنه لم يجد مثل عمر، ولا مثل أهل الشورى، فترك لهم أمرهم يولون من يشاءون، وقد جاء ذلك صريحًا في رواية أخرى للخطبة عند ابن الأثير قال فيها: «أما بعد، فإني ضعفت عن أمركم فابتغيت مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده، فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم، فأنتم أولى بأمركم، فاختاروا له من أحببتم»، ثم دخل منزله وتغيب حتى مات[٣]. واعتبر هذا الموقف منه دليلًا على عدم رضاه عن تحويل الخلافة من الشورى إلى الوراثة[٤]، فقد رفض أن يعهد لأحد من أهل بيته حينما قالوا له: «اعهد إلى أحد من أهل بيتك»، فقال: «والله ما ذقت حلاوة خلافتكم،

---

(١) «تاريخ الرسل والملوك» (١١/ ٦٦٢).

(٢) «البداية والنهاية» (١١/ ٦٦٣، ٦٦٤).

(٣) «الكامل في التاريخ» (٢/ ٦٠٥).

(٤) «العالم الإسلامي في العصر الأموي» (ص ١٣٧).

فكيف أتقلد وزرها، وتتعجلون أنتم حلاوتها، وأتعجل مرارتها، اللَّهم إني بريء منها، مُتخلٍّ عنها». وجاء في رواية: قيل له: «ألا توصي؟» فقال: «لا أتزوّد مرارتها وأترك حلاوتها لبني أمية»(١).

وتعتبر حادثة تَنَازُلْ معاوية بن يزيد عن الخلافة حادثة نادرة في التاريخ الإنساني، وإذا كان معاوية بن أبي سفيان أول الخلفاء الأمويين قد حول الخلافة من الشورى إلى الملك، فإن حفيده معاوية الثاني، ثالث خلفاء الأمويين أيضًا، قد أعاد الخلافة من الملك العضوض إلى الشورى الكاملة، وإنه لمما يستوجب الإنصاف أن تصاغ القضية على هذا النحو بدلًا من التركيز على الشق الأول الخاص بتوريث الخلافة فقط(٢).

لقد مات معاوية بن يزيد عن إحدى وعشرين سنة. وقيل: عن ثلاث وعشرين سنة وثمانية عشر يومًا. وقيل: تسع عشرة سنة. وقيل: عشرين سنة. وقيل: ثلاث وعشرين سنة. وقيل غير ذلك.

قراءة حول الملك والخلافة:

فهذه نبذة مختصرة نريد أن نلقي الضوء من خلالها على بعض المسائل الخاصة بالملك والخلافة، وذلك بعد عرضنا لبعض أحداث الفتن السياسية التي وقعت في عصر الصحابة - رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ -، لاسيما فتنة عبد الله بن الزبير - رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا - ورفضه بيعة يزيد، ومِن ثَمَّ رفضه لخلافته. فهناك عدة مسائل نلخصها في عدة نقاط لتخرج القراءة بصورة بنائية متكاملة.

---

(١) «البداية والنهاية» (١١/ ٦٦٣، ٦٦٤).

(٢) «الدولة الأموية المفترى عليها» (ص ٢٩٣).

أولًا: شروط يجب توافرها في الإمام أو الخليفة:

ذكر أهل العلم شروطًا معينة يجب توافرها في الخليفة ليصلح لتولي أمر الأمة، ومنها: الإسلام، والبلوغ، والعقل، والحرية، والذكورية، والعلم، والعدالة، والقرشية، وغير ذلك من الشروط، لكننا نريد أن نسلط الضوء على شرطيّ: العلم والعدالة، فلابد أن يكون الخليفة عدلًا أمينًا. والعدالة: هي عبارة عن الالتزام بالفرائض والفضائل وتجنب الفواحش والرذائل.

وقد ذكر «أبو بكر الجصاص» في كتابه «أحكام القرآن» أن في قوله ـ تعالى ـ لإبراهيم: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] إجابة لسؤاله أن يجعل من ذريته أئمة، وتعريفًا له بذلك، وبأن الظالمين منهم لا يكونون أئمة. ثم قال: «فلا يجوز أن يكون الظالم نبيًّا، ولا خليفة لنبي، ولا قاضيًا، ولا من يلزم الناس قبول قوله في أمور الدين من مفتٍ أو شاهد أو مخبر عن النبي ـ ﷺ ـ خبرًا، فقد أفادت الآية أن شرط جميع من كان في محل الائتمام به في أمر الدين العدالة والصلاح» اهـ.

وذكر القاضي «البيضاوي»: «أن الجملة تفيد إجابة إبراهيم إلى ملتمسه، وأن الظالمين من ذريته لا ينالون الإمامة؛ لأنها أمانة من الله وعهد، وأن الفاسق لا يصلح للإمامة» اهـ.

والمراد أن إمامة غير العدل لا تصح فلا يكون إمامًا شرعيًّا لا أنها لا تقع، وقد نقل الجصاص وغيره عن ابن عباس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ أنه قال: «لا يلزم الوفاء بعهد الظالم، فإن عقد عليك في ظلم فانقضه». هذا بالنسبة لشرط العدالة علمًا بأن يزيد كانت تلاحقه الإشاعات التي تقدح في عدالته، وقد كان عبد الله بن الزبير ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ يقول بعد مقتل الحسين ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ: «أما والله ما كان يبدّل بالقرآن الغناء، ولا

البكاء من خشية الله الحداء[(١)]، ولا بالصيام شراب الحرام، ولا بالمجالس في حلق الذكر الركض في طلب الصيد ـ يعرّض بيزيد ـ، فسوف يلقون غيًّا[(٢)]»، ثم يدعو إلى الشورى وينال مِن يزيد ويشتمه[(٣)]، ويذكر شربه للخمر ويثبط الناس عنه، وأخذ الناس يجتمعون إليه فيقوم فيهم، فيذكر مساوئ بني أمية[(٤)].

وقد كان بعض الناس في المدينة أيضًا يذكرون هذا الكلام، ولعل هذه الاتهامات التي تقدح في العدالة كانت من الأسباب التي جعلت عبد الله بن الزبير يرفض بيعة يزيد بالإضافة إلى السبب الرئيسي، وهو طريقة ترشيح يزيد وتوليه الخلافة.

وأما بالنسبة لشرط العلم: فيعنون به العلم بأمور الدين ومصالح الأمة وسياستها، ومن الآثار في ذلك: سيرة عمر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ في أمرائه الذين كان يؤمِّرهم في البلاد؛ أنه كان لا يراعي الأفضل في الدين فقط، بل يضم إليه مزيد المعرفة بالسياسة؛ مع اجتناب ما يخالف الشرع فيها؛ فلأجل ذلك أَمَّرَ معاوية، والمغيرة بن شعبة، وعمرو بن العاصم، مع وجود من هو أفضل منهم في أمر الدين والعلم: كأبي الدرداء في الشام، وابن مسعود في الكوفة.

جاء في «الموسوعة الفقهية» في بيان المقصد الأساس للدولة: «هُوَ رِعَايَةُ مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ. يَقُول الْمَاوَرْدِيُّ: الإْمَامَةُ مَوْضُوعَةٌ لِخِلاَفَةِ النُّبُوَّةِ فِي حِرَاسَةِ الدِّينِ وَسِيَاسَةِ الدُّنْيَا. وَالإْمَامُ هُوَ مَنْ تَصْدُرُ عَنْهُ جَمِيعُ الْوِلاَيَاتِ فِي الدَّوْلَةِ, وَيَقُول ابْنُ تَيْمِيَّةَ: فَالْمَقْصُودُ الْوَاجِبُ بِالْوِلاَيَاتِ: إِصْلاَحُ دِينِ الْخَلْقِ الَّذِي مَتَى

---

(١) صوت الغناء للإبل.

(٢) «أنساب الأشراف» (٤/ ٣٠٤).

(٣) «المصدر السابق» (٤/ ٣٠٤).

(٤) «أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار» (١/ ٢٠١) بسندٍ كل رجاله ثقات.

فَاتَهُمْ خَسِرُوا خُسْرَانًا مُبِينًا، وَلَمْ يَنْفَعْهُمْ مَا نَعِمُوا بِهِ فِي الدُّنْيَا، وَإِصْلاَحُ مَا لاَ يَقُومُ الدِّينُ إِلاَّ بِهِ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاهُمْ، وَيَقُول ابْنُ الأَزْرَقِ: إِنَّ حَقِيقَةَ هَذَا الْوُجُوبِ الشَّرْعِيِّ يَعْنِي وُجُوبَ نَصْبِ الإِمَامِ رَاجِعَةٌ إِلَى النِّيَابَةِ عَنِ الشَّارِعِ فِي حِفْظِ الدِّينِ وَسِيَاسَةِ الدُّنْيَا بِهِ، وَسُمِّيَ بِاعْتِبَارِ هَذِهِ النِّيَابَةِ خِلاَفَةً وَإِمَامَةً؛ وَذَلِكَ لأَنَّ الدِّينَ هُوَ الْمَقْصُودُ فِي إِيجَادِ الْخَلْقِ لاَ الدُّنْيَا فَقَطْ» اهـ.

إذن فلابد من وجود العلم للحفاظ على أمريّ الدين والدنيا؛ لأن جهل الخليفة أو الإمام سيعود بلا شك بالضرر البالغ على العباد والبلاد، وأما من كان مستجمعًا لأكثر الشروط ولم يجمعها كلها فيجوز مبايعته، مع الاجتهاد والسعي لاستجماعها كلها، ومثال ذلك: من تغلب عليها وهو جاهل يفقد شرط العلم مثلًا، وكان صرفه ومنابذته فتنة وفساد، حكمنا بانعقاد إمامته حفاظًا على وحدة الكلمة وكيان الأمة، فلقد قُتل عبد الله بن الزبير ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ وقد كان أميرًا للمؤمنين، ودخلت في طاعته ومبايعته: «الكوفة، والبصرة، ومصر، وخراسان، والشام ـ معقل الأمويين ـ»، ولم يبقَ سوى الأردن في عهد عبد الملك بن مروان، وقد قتله الحجاج؛ فماذا كان موقف عبد الله بن عمر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ ؟!

عن نافع عن ابن عمر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال: أَتَى رَجُلاَنِ فِي فِتْنَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ فَقَالاَ: «إِنَّ النَّاسَ صَنَعُوا وَأَنْتَ ابْنُ عُمَرَ، وَصَاحِبُ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ ، فَمَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَخْرُجَ؟ فَقَالَ: «يَمْنَعُنِي أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ دَمَ أَخِي»، فَقَالاَ: أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٣٩]، فَقَالَ: «قَاتَلْنَا حَتَّى لَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ، وَكَانَ الدِّينُ لِلَّهِ، وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا حَتَّى تَكُونَ فِتْنَةٌ، وَيَكُونَ الدِّينُ لِغَيْرِ اللَّهِ».

وعن أبي نوفل بن أبي عقرب قال: «لَمَّا قَتَلَ الْحَجَّاجُ ابْنَ الزُّبَيْرِ وَصَلَبَهُ عَلَى طَرِيقِ الْمَدِينَةِ يُغَايِظُ بِهِ قُرَيْشَ الْمَدِينَةِ، فَمَرَّ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ فَوَقَفَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «السَّلامُ عَلَيْكَ أَبَا خُبَيْبٍ، ثَلاثَ مَرَّاتٍ، وَاللَّهِ كُنْتُ أَنْهَاكَ عَنْ هَذَا، ثَلاثًا، وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتَ صَوَّامًا قَوَّامًا وَصُولًا لِلرَّحِمِ، وَاللَّهِ لأُمَّةٌ أَنْتَ شَرُّهَا لَنِعْمَ تِلْكَ الأُمَّةُ. ثُمَّ مَضَى».

بل كان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ يصلي خلف الحجاج، بل وحج معه، وبايع عبد الملك ابن مروان، ولم يخرج على الحاكم أو يأمر بالخروج عليه؛ لأنه كان يكره اللجوء إلى العنف والاقتتال؛ لما في ذلك من سفك الدماء، وإضعاف لوحدة الجماعة المسلمة، فلما أجمع الناس على البيعة لعبد الملك بن مروان كتب إليه ابن عمر: «أما بعد, فإني قد بايعت لعبد الملك أمير المؤمنين بالسمع والطاعة على سنة الله وسنة رسوله فيما استطعت, وإن بنيّ قد أقروا بذلك»[1]؛ فالعلة ليست في ثبوت الولاية الشرعية من عدمها، ولكن العلة هي سفك الدماء «علمًا بأننا لا نثبت الولاية الشرعية في النظام الجمهوري الحديث، فانتبه».

ولقد قامت الدولة العباسية على أنقاض الدولة الأموية على يد أبي العباس السفاح الذي قضى على الدولة الأموية، وقتل عشرات الآلاف من المسلمين، وهنا سؤال: ماذا فعل العلماء في عصره؟! لقد بايعوه ولم يأمروا بقتاله؛ نظرًا لعدم القدرة على ذلك، وللمفاسد المحتملة، بل وربما المفاسد المحققة.

يقول الشيخ محمد بن صالح العثيمين ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ في شرح العقيدة السفارينية: «(وشرطه): أي شرط الإمام الذي يكون خليفة على المسلمين، وعدد شروطًا... ومنها: (الإسلام): وهذا لابد منه، فلا يمكن أن يتولى على المسلمين غير مسلم

(١) «الطبقات» (٤/ ١٥٢).

أبدًا، بل لابد أن يكون مسلمًا، فلو استولى عليهم كافر بالقهر، وعندهم فيه من الله برهان أنه كافر؛ بأن يعلن أنه يهودي أو نصراني مثلًا، فإن ولايته عليهم لا تُنَفَّذُ ولا تصح، وعليهم أن ينابذوه، ولكن لابد من شرط مهم وهو القدرة على إزالته، فإن كان لا تمكن إزالته إلا بإراقة الدماء وحلول الفوضى؛ فليصبروا حتى يفتح الله لهم بابًا؛ لأن منابذة الحاكم بدون القدرة على إزالته لا يستفيد منها الناس إلا الشر والفساد والتنازع، وكون كل طائفة تريد أن تكون السلطة حسب أهوائها...» ثم قال: «ولابد أن يكون على دراية ومعرفة بالسياسة، ومعرفة بالأحوال حتى يدير الحكم على ما تقتضيه الشريعة، وتقتضيه المصالح»(١).

ثانيًا: من يرشح الخليفة ويوليه وينصبه:

يرشح الخليفة أهل الحل والعقد عن طريق الشورى، وأهل الحل والعقد هم أهل العلم، وأولو المكانة ووجوه الناس وزعماؤهم، وموضع الثقة بالنسبة للناس، فالأمة تتبعهم في طاعة من يولونه، ولا يلزم اجتماعهم جميعًا، بل ما يتيسر اجتماعهم منهم، وهذا هو المأخوذ من عمل الصحابة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ في تولية الخلفاء الراشدين؛ فإن عمر عدَّ البدء في بيعة أبي بكر فلتة؛ لأنه وقع قبل أن يتم التشاور بين جميع أهل الحل والعقد، إذ لم يكن في سقيفة بني ساعدة أحد من بني هاشم، وتضافرت الروايات بأن أبا بكر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ أطال التشاور مع كبراء الصحابة في ترشيح عمر، ولما طُعن عمر رأى حصر الشورى الواجبة في الستة الزعماء الذين مات الرسول ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وهو عنهم راضٍ؛ لعلمه بأنه لا يتقدم عليهم أحد ولا يخالفهم فيما يتفقون عليه أحد.

---

(١) «شرح العقيدة السفارينية» ـ محمد بن صالح العثيمين (ص ٦٨٥).

وإذا تأملنا حال الستة نرى أنه لم يكن في أهل الإسلام أحد له من المنزلة في الدين والهجرة والسابقة، والعقل والعلم، والمعرفة بالسياسة، ما للستة الذين جعل عمر الأمر شورى بينهم.

وقد صح أن عمر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ أنكر على من زعم أن البيعة تنعقد بواحد من غير مشاورة الجماعة، فلقد قال على منبر الرسول ـ ﷺ ـ: «بلغني أن قائلًا منكم يقول: والله لو مات عمر لبايعت فلانًا. فلا يغترنَّ امرؤ أن يقول: إن بيعة أبي بكر كانت فلتة فتمت، ألا وإنها قد كانت كذلك، ولكن وقى الله شرها، وليس فيكم من تقطع إليه الأعناق مثل أبي بكر»، وقد أقرت جماعة الصحابة عمر على ذلك، فكان إجماعًا.

فتحرر بهذا: أن الأصل في المبايعة أن تكون بعد استشارة جمهور المسلمين، واختيار أهل الحل والعقد، ولا نعتبر مبايعة غيرهم إلا أن تكون تبعًا لهم، وإمامة عثمان لم تكن بمبايعة عبد الرحمن بن عوف وحده، بل كانت عامة لا خاصة به، وكان يملك تفويضًا بذلك، وكذلك مبايعة عمر لأبي بكر.

ثالثًا: الأمة تابعة لأولي الأمر:

وقد أمر الله بطاعة أولي الأمر، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]. عن ابن عباس: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ يعني: «أهل الفقه والدين». وكذا قال مجاهد، وعطاء، والحسن البصري، وأبو العالية: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ يعني: «العلماء». وَقَالَ ابْنُ كَيْسَانَ: «هُمْ أُولُو الْعَقْلِ وَالرَّأْيِ الَّذِينَ يُدَبِّرُونَ أَمْرَ النَّاسِ». وقال أبو هريرة: «هم الأمراء»، وقال ابن كثير بعد أن ساق أقوال من قال هم العلماء وأقوال من قال هم الأمراء: «والظاهر ـ والله أعلم ـ أن الآية في جميع أولي الأمر من الأمراء والعلماء» اهـ.

وإذا تأملنا نجد أن ولي الأمر واحد منهم، وإنما يطاع بتأييد جماعة المسلمين الذين بايعوه وجعلوا ثقتهم به، ويدل على هذا المعنى ما ورد من الأحاديث الصحيحة في التزام الجماعة، وقد جاء في الحديث: **«من رأى من أميره شيئًا فليصبر عليه، فإن من فارق الجماعة شبرًا فمات مات ميتة جاهلية»**[1]، فقد أجمع أهل العلم على وجوب طاعة خليفة المسلمين إذا كان عادلًا، وحرمة خلعه والخروج عليه؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء: ٥٩].

وفي الصحيحين وغيرهما عن عبادة بن الصامت ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: «بايعنا رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله؛ إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم من الله فيه برهان».

والكفر البواح هو الظاهر الذي لا يحتمل تأويلًا.

وفي صحيح مسلم وغيره عن عوف بن مالك عن رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قال: **«خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، ويصلون عليكم وتصلون عليهم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم»**. قيل: يا رسول الله، أفلا ننابذهم بالسيف؟ قال: **«لا ما أقاموا فيكم الصلاة، وإذا رأيتم من ولاتكم شيئًا تكرهونه، فاكرهوا عمله ولا تنزعوا يدًا من الطاعة»**.

وللأمة خلع الإمام وعزله بسبب يوجبه، فإذا ثبت كفر الخليفة فقد سقطت بيعته شرعًا، وفي حال بغيه وجوره فإن حكم الخروج عليه وخلعه يدور مع المصلحة وجودًا وعدمًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٥٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الواجب تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، فإذا تعارضت كان تحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، ودفع أعظم المفسدتين مع احتمال أدناهما هو المشروع».

وقال الدسوقي المالكي: «يحرم الخروج على الإمام الجائر؛ لأنه لا يُعزل السلطان بالظلم والفسق وتعطيل الحقوق بعد انعقاد إمامته، وإنما يجب وعظه وعدم الخروج عليه، إنما هو تقديم أخف المفسدتين إلا أن يقوم إمام عادل فيجوز الخروج عليه وإعانة ذلك القائم» اهـ.

والخلع يعني تنحية الإمام عن الحكم فتسقط طاعته وتنحل بيعته، ولا تكون له حقوق عند الرعية زائدة عن حقوق المسلم على المسلم.

وأَضْرِبُ مثالين في هذه المسألة، **أولهما**: «موقعة الحرة» فلا شك أن موقعة الحرة من الفتن التي حدثت بين المسلمين، وقد ظن أهل المدينة أن المصلحة ستتحقق بما فعلوا، وستعود الشورى مرة أخرى، وللأسف فقد ازدات المفسدة، فلا أقاموا دينًا ولا أبقوا دنيا.

والمثال الثاني: هو مقتل الملك المعز «عز الدين أيبك»، ثم قتلت بعده زوجته «شجرة الدر»، ثم تولى الحكم السلطان الطفل «المنصور نور الدين علي بن عز الدين أيبك»، ثم تولى «سيف الدين قطز» الوصاية على السلطان الصغير، وإن كان قطز يدير الأمور فعليًّا في مصر؛ إلا أن الذي يجلس على الكرسي سلطان طفل! ولا شك أن هذا يضعف من هيبة الحكم في مصر، ويزعزع من ثقة الناس بملكهم، ويقوي من عزيمة الأعداء إذ يرون الحاكم طفلًا.

وفي ضوء الخطر التتري الرهيب، والمشكلات الداخلية الطاحنة، وثورات بعض المماليك، وأطماع بعض الأمراء لم يجد قطز أي معنى لأن يبقى السلطان الطفل

«نور الدين علي» على كرسي أهم دولة في المنطقة، وهي مصر، والتي لم يعد هناك أمل في صد التتار إلا فيها، فتم مبايعة قطز ليتولى الأمر في مصر، وتم عزل السلطان الطفل وقد تم ذلك في اجتماع حضره كبار أهل الرأي من العلماء والقضاة، وقد أجرى قطز بعض التعديلات في المناصب القيادية، وولى أصحاب الخبرة والكفاءة والأمانة، وقام ببعض الإصلاحات الداخلية لتستقر الأمور في مصر، ثم كانت الوحدة بين مصر والشام.

قال ابن كثير: «وقد اجتمعت الكلمة عليه حتى انتهى إلى الشام» ـ يعني اجتمعت الكلمة لقواد وأمراء المسلمين ـ . وتحرك قطز بجيوش المسلمين وانتصر على التتار، وانتهت أسطورة الجيش الذي أرهب العالم وسيطر على نصف الكرة الأرضية تقريبًا.

لذا نقول: إن الأمة تابعة لأهل الحل والعقد، وعدم الطاعة يترتب عليه مفاسد كبرى، وقد ظهر ذلك جليًّا في عدم مبايعة معاوية لأمير المؤمنين علي ابن أبي طالب ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ، وما ترتب على ذلك من قتال وفساد وشر.

رابعًا: مسألة توريث الحكم:

إن مسألة توريث الحكم من الأمور التي انتشرت واستمرت في العصور المختلفة، فقد بدأت في عصر معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ وترشيحه لابنه يزيد، ثم استمرت في عصر الدولة الأموية، وكذلك في عصر الدولة العباسية، ثم في عصر الدولة العثمانية. ولا شك أن مسألة التوريث كان لها أثر سلبي على الأمة في كثير من المواطن والأزمنة.

يقول الشيخ «محمد الغزالي» في كتابه: «الإسلام والمناهج الاشتراكية»: «إن الإسلام الذي أقر مبدأ التوارث المالي رفض بشدة مبدأ توارث الزعامات الروحية

أو المدنية أو غيرها، فعندما اختار الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ نبيًّا طلب منه هذا النبي الكريم أن تنتقل نعمة الاختيار في بنيه؛ فأبى الله عليه ذلك ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]. فتعاليم الإسلام تقطع دابر هذا التوريث، ولا ترشح للزعامة إلا الذين يدركونها عن جدارة وكفاية» اهـ.

لذا امتنع بعض الصحابة ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ـ عن مبايعة يزيد في عصر معاوية ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ، وكان موقف الحسين من بيعة يزيد بن معاوية هو موقف المعارض، وشاركه في المعارضة عبد الله بن الزبير؛ والسبب في ذلك: حرصهما على مبدأ الشورى، وأن يتولى الأمة أصلحها، كما عبر عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ـ عن اعتراضه بقوله: «يا معشر بني أمية اختاروا منها بين ثلاثة: بين سنة رسول الله، أو سنة أبي بكر أو سنة عمر، ألا وإنما أردتم أن تجعلوها قيصرية، كلما مات قيصر كان قيصر»، وكم عانى المسلمون من أمر التوريث في الحكم خلال العصر العباسي، وقد بدأت الفتن بما حدث بين الأمين وأخيه المأمون بسبب ولاية العهد، فولاية العهد كانت من الكوارث التي حلت بنظام الحكم، وكانت تؤدي في كثير من الأحيان إلى فساد العلاقات ووقوع القتال بين أفراد الأسرة الواحدة، وكم قامت ثورات مسلحة بين أبناء البيت الواحد بسبب ولاية العهد وتوريث الحكم، فضلًا عن توريث الحكم أحيانًا لبعض الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم بعد!

ويكفي أن نعلم أن الخليفة العباسي «المقتدر بالله» بويع له بالخلافة عند موت أخيه المكتفي وعمره ثلاث عشرة سنة، وكان عصره من أشد العصور وبالًا على المسلمين؛ نظرًا للصراعات العنيفة التي وقعت بين النظام الحاكم المتمثل في الخليفة الضعيف، والتيارات السياسية المختلفة التي تمثلت في القصر ونسائه، والخدم

والحاشية، وبين القيادات العسكرية من جهة أخرى، وقد اشتهر عصر المقتدر بالله بعصر «نفوذ النساء»، ولك أن تتخيل أن فترة حكمه استمرت ربع قرن من الزمان من عام ٢٩٥هـ وحتى ٣٢٠هـ.

وحدث في عهده للمرة الأولى في التاريخ أن تولت امرأة منصب القضاء، وهي «ثمل القهرمانة» إحدى نساء القصر، فكانت تقضى في الخصومات والنزاعات، ويحضر مجلسها الوزراء والقضاة وكبار رجال الدولة، فكانت تشبه الآن مجلس الدولة والمحاكم الإدارية العليا، وكانت « شَغَب» أم الخليفة هي المسيطرة على المسرح السياسي في الدولة، إلى غير ذلك من التدهور الذي حدث في عصر المقتدر بالله في النواحي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وغير ذلك.

وحدث مثل هذا في عصر الدولة العثمانية؛ فلقد تولى السلطان محمد الرابع المسئولية وهو ابن سبع سنين، وهنا رأت أوروبا أن الوقت قد حان للنيل من الدولة العثمانية، فبعد عصر الفتوحات والانتصارات التي تمثلت في فتح القسطنطينية، وبلجراد، والبلقان، وبلغاريا، وغاليبول، بإيطاليا، والمجر، وفتح جزيرتي قبرص ورودس باليونان، وغير ذلك من الفتوحات التي سطرتها صفحات التاريخ المشرقة للدولة العثمانية، لك أن تتخيل أن يتولى صبيٌّ مقاليد الحكم وهو في السابعة من عمره! وكذا تولى «عثمان الثاني» وهو في الثالثة عشرة من عمره، وتولى السلطان «أحمد الأول» وهو في الرابعة عشرة من عمره، وهذا يعد من أسباب ضعف الدولة وتدهور أحوالها على كافة المستويات والنواحي المختلفة.

لذا نقول: كان عبد الله بن الزبير وغيره من الصحابة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - على حق عندما رفضوا مبدأ التوريث في الحكم، وكان أبو هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - «يتعوذ من إمارة الصبيان والسفهاء»(١).

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (ص ٤٧)، وقال الألباني: «صحيح».

وعلى الشق الآخر: لقد عاشت الأمة أزهى عصورها يوم تخلت عن توريث الحكم للأبناء، فإذا تأملنا حال سليمان بن عبد الملك ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ، نرى أنه من أفضل خلفاء بني أمية، فلقد حرص والده على تربيته تربية عالية، وتعليمه أصول الحكم، كما كانت أخلاقه مضربًا للأمثال، ولذلك كانت بطانته من العلماء والحكماء والصالحين، أمثال: رجاء بن حيوة، وعمر بن عبد العزيز، وغيرهما. توفي سليمان بن عبد الملك في مرج دابق مرابطًا في سبيل الله في شهر صَفَر سنة ٩٩هـ، وبُويِعَ في اليوم نفسه لابن عمه عمر بن عبد العزيز الذي عهد له من بعده. وكان محمد بن سيرين يترحم على سليمان بن عبد الملك، ويقول: «افتتح خلافته بخير وختمها بخير، افتتحها بإجابة الصلاة لمواقيتها، وختمها باستخلافه عمر بن عبد العزيز». فلقد توج سليمان بن عبد الملك أعماله بما يدل على حرصه على مصلحة المسلمين؛ فاختار عمر بن عبد العزيز قبل موته ليكون وليًّا للعهد ويخلفه من بعده، ولم يعهد لأحدٍ ممن هم أقرب إليه من عمر بن عبد العزيز.

الواقع في عصر معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ:

الحكم على الشيء فرع عن تصوره، ذهب كثير من المؤرخين إلى أن معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قد أخطأ يوم أخذ البيعة لابنه يزيد في حياته، ولكننا نريد أن نلقي الضوء على الواقع في عصر معاوية، وذلك من باب الإنصاف حتى نستطيع أن نحسن الحكم على مسألة التوريث ليزيد بن معاوية، وأريد أن أشير إلى شيء يسير من فضائله ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ؛ لأنه من الشخصيات التي نالها الكثير من التشويه، فمن فضائل معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ: دعاء النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ له بالهداية وبالوقاية من العذاب، فَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي عُمَيْرَةَ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ

ـ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ ـ عَنْ النَّبِيِّ ـ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ ـ أَنَّهُ قَالَ لِمُعَاوِيَةَ: **«اللهُمَّ اجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا وَاهْدِ بِهِ»**(١). **(هَادِيًا)**: أَيْ: لِلنَّاسِ أَوْ دَالًّا عَلَى الْخَيْرِ. (مَهْدِيًّا): أَيْ: مُهْتَدِيًا فِي نَفْسِهِ. وثَبَتَ أن النبيَّ ـ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ ـ دعا لمعاوية فقال: **«اللهُمَّ عَلِّمْهُ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ، وقِهِ الْعَذَابَ»**(٢)، فضلًا عن أنه كان من كتبة الوحي لرسول اللهِ ـ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ ـ.

قال عمر بن الخطاب ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ: «تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما، وعندكم معاوية!»، ويقول عبد الله بن عمر ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا ـ: «ما رأيت أحدًا أسود من معاوية. قال: قلت: ولا عمر؟ قال: كان عمر خيرًا منه، وكان معاوية أسود منه». وفي رواية: «ما رأيت أحدًا بعد رسول الله ـ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ـ أسود من معاوية. قيل: ولا أبا بكر؟ قال: كان أبو بكر وعمر وعثمان خيرًا منه, وهو أسود منهم»(٣).

ويقول عبد الله بن عباس ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا ـ: «ما رأيت رجلًا كان أخلق بالملك من معاوية»(٤).

وقال ابن أبي العز الحنفي: «وأول ملوك المسلمين: معاوية وهو خير ملوك المسلمين». ويقول ابن تيمية: «واتفق العلماء على أن معاوية أفضل ملوك هذه الأمة, فإن الأربعة قبله كانوا خلفاء نبوة وهو أول الملوك, كان ملكه ملكًا ورحمة»(٥). وقال: «فلم يكن من ملوك المسلمين خيرًا منهم في زمان معاوية إذا

---

(١) رواه الترمذي وغيره، وصححه الألباني.

(٢) رواه الطبراني وغيره وصححه الألباني.

(٣) «البداية والنهاية» (١١/ ٤٣٠)، ورواه أبو بكر بن الخلال في «السنة» بسندٍ صحيحٍ، وأسود: أي: أحكم. والأَسْوَدُ من الناس: أكثرهُم سيادة. «معجم المعاني».

(٤) «البداية والنهاية» (١١/ ٤٣٩).

(٥) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٤٧٨).

نسبت أيامه إلى أيام من بعده، أما إذا نسبت إلى أيام أبي بكر وعمر ظهر التفاضل».

وذكر ابن تيمية قول الأعمش عندما ذكر عنده عمر بن العزيز فقال: «فكيف لو أدركتم معاوية؟ قالوا: في حلمه. قال: لا والله في عدله»[(١)].

ثم نعود إلى استقراء الواقع وذكر الملامح العامة للواقع في عصر معاوية ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ ، فبعد انتهاء عصر الخلافة الراشدة كانت بنو أمية قادرة فعلًا على الحكم، واستطاع معاوية أن يحكم الدولة بِحِكْمَتِهِ، وأن يحافظ على وحدتها بعد سنوات من الفرقة والقتال الذي وقع بين أبناء الأمة، وكان معاوية يرى ـ والله أعلم ـ أن الأمة يصعب أن تجتمع على شخص واحد بعد موته عن طريق الشورى، وكان يعلم أيضًا أن بني أُمية لن ترضى بأحد من غيرها.

وفي هذا الصدد يرى «ابن خلدون»: أن الفترة النبوية هي فترة استثنائية، انتصر فيها الوازع الديني على الوازع العصبي (القبلي/ العشائري) الذي يقوم عليه الملك، لكن لما بدأ هذا الوازع يقل عند الناس كان لا بد من عودة قانون العصبية إلى مسار التاريخ» اهـ. فالذي دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون من سواه إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس، واتفاقهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذٍ من بني أمية؛ إذ بنو أمية يومئذٍ لا يرضون سواهم، وأما من بعدهم من لدن معاوية فكانت العصبية قد أشرفت على غايتها من الملك، والوازع الديني قد ضعف فلو عهد إلى غير من ترتضيه العصبية لردت ذلك العهد وانتقض أمره سريعًا، وصارت الجماعة إلى الفُرقة والاختلاف، والقتال الذي توقف بين المسلمين يسهل أن يعود مرة أخرى، فمعاوية ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ قد عدل عن الفاضل إلى المفضول حرصًا على الاتفاق والاجتماع.

---

(١) «منهاج السنة» (٦/ ٢٣٢) (٣/ ١٨٥).

يقول محب الدين الخطيب ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ في تعليقه على «العواصم من القواصم»: «عدل عن الوجه الأفضل؛ لما كان يتوجس من الفتن والمجازر إذا جعلها شورى، وقد رأى القوة والطاعة والنظام والاستقرار في الجانب الذي فيه ابنه» اهـ. ويروي الذهبي في «تاريخ الإسلام»: «خطب معاوية فقال: «اللّٰهم إن كنت إنما عهدت ليزيد لما رأيت من فضله فبلغه ما أملت وأعنه، وإن كنت إنما حملني حب الوالد لولده، وإنه ليس بأهل فاقبضه قبل أن يبلغ ذلك». ها هو يدعو في خُطبه بمثل هذا الدعاء، ويستمع إلى قول السامعين: «آمين». بل لما تنازل حفيده معاوية الثاني عن الخلافة وتركها للأمة نشبت الخلافات بالفعل، ثم حسمها البيت الأموي لثاني مرة وأمسك بالحُكم مروان بن الحكم، ولقد واجهت الدولة الأموية كثيرًا من الثورات وحركات الخروج والتمرد عليها، وكانت كثير من هذه الثورات يتزعمها أناس لهم ثقلهم الكبير ووزنهم الضخم في وجدان كل المسلمين، لكنها انتصرت عليهم برغم كل هذا.

ومن أقوى الثورات التي قامت ضد الدولة الأموية: ثورة العراق بقيادة عبد الرحمن بن الأشعث، ودارت معارك طاحنة، مثل: معركة «دير الجماجم» حتى عرض عليهم «عبد الملك» أن يعزل «الحجاج» عن العراق إنْ كان هذا يرضيهم، لكن الثوار رفضوا ثم هزموا. واستطاعت الدولة الأموية القضاء على حركة الخوارج أيضًا في خراسان وما بعدها، واستقرت أمور الدولة وبدأت الفتوحات من جديد في عهد عبد الملك بن مروان.

إذن، خلال عشرين سنة تقريبًا ظل البيت الأموي يواجه ثورات متعددة وقوية، وقياداتها من كبار الزعماء، لكنها استطاعت أن تهزمها كلها ثم تستقر، ثم تبدأ في حركة الفتوحات. فأيُّ البيوت العربية كان يستطيع ذلك في هذا الوقت؟!

ومن شهادة التاريخ أيضًا: أن الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز مع كل تقواه وورعه وزهده، وتلك الطفرات التي أحدثها في الحكم والإدارة، إلا أننا لا نجد في أي مرجع تاريخي أنه كان يستطيع إلغاء نظام الوراثة وإعادتها إلى الشورى، بل ورد عنه ما يفيد العجز عن هذا صراحة، فقد قال عند الموت: «لو كان لي من الأمر شيء ما عدوت بها القاسم بن محمد». فبلغت هذه المقولة القاسم بن محمد، فترحم عليه وقال: «إن القاسم ليضعف عن أهليه فكيف يقوم بأمر أمة محمد»[1]، لكن الذي تولى الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز يزيد بن عبد الملك، بويع له بالخلافة بعد عمر بن عبد العزيز في رجب سنة إحدى ومائة، بعهد من أخيه سُليمان بن عبد الملك، على أن يكون الخليفة بعد عمر بن عبد العزيز.

إذن لابد أن نعلم أن الواقع يفرض نفسه أحيانًا، فعمر بن عبد العزيز كان يرى أن القاسم هو الأفضل، ولكن المصلحة كانت تقتضي خلاف ذلك؛ لذا نقول: لعل معاوية ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ كان معذورًا فيما فعل أو أنه اجتهد حسب معطيات الواقع آنذاك.

وقد فعل معاوية ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ ذلك وهو يرى أن هذا هو الأصلح للأمة، وأن مقام اجتماع الأمة وعدم تفرقها أولى من أي اعتبارات أخرى فلقد اجتهد ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ فلعله أصاب، ولعله أخطأ، وفي الحالتين هو مأجور ـ بإذن الله تعالى ـ، ولا يصح بأي حال من الأحوال إهدار فضل معاوية ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ؛ فله في الإسلام سعي مشكور، وعمل مبرور، وآثار حسنة، وإن كان الأصل ـ كما ذكرنا ـ أن يكون الأمر شورى في المسلمين.

وختامًا. كانت هذه قراءة مختصرة حول بعض مسائل الملك والخلافة؛ لعلها تساعدنا في إبراز بعض حقائق التاريخ. والله المستعان.

---

(١) «الطبقات الكبرى».

بيعة عبد الله بن الزبير:

بعد موت يزيد بن معاوية لم يكن هناك من خليفة، وإذا كان يزيد قد أوصى لابنه معاوية فإن هذا لا يكفي للبيعة، إضافة إلى أن الذين قد بايعوا معاوية بن يزيد لا يزيدون على دمشق وما حولها، ثم إن معاوية بن يزيد لم يعش طويلًا، وترك الأمر شورى، ولم يستخلف أحدًا، ولم يوصِ إلى أحد، وكان عبد الله بن الزبير ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ـ قد بويع له في الحجاز بعد موت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وكذا في العراق وما يتبعه إلى أقصى مشارق ديار الإسلام، وفي مصر وما يتبعها إلى أقصى بلاد المغرب، وبايعت الشام أيضًا إلا بعض جهات منها، ولم يكن رافضًا بيعة ابن الزبير في الشام إلا منطقة البلقاء (الأردن) وفيها حسان بن مالك بن بحدل الكلبي[١].

وهكذا تمّت البيعة لعبد الله ابن الزبير في ديار الإسلام، وأصبح الخليفة الشرعي[٢]، وعين نوابّه على الأقاليم، وتكاد تجمع المصادر على أن جميع الأمصار قد أطبقت على بيعة ابن الزبير خليفة للمسلمين.

ويقول ابن كثير: «ثم هو ـ أي ابن الزبير ـ الإمام بعد موت معاوية بن يزيد لا محالة، وهو أرشد من مروان بن الحكم، حيث نازعه بعد أن اجتمعت الكلمة عليه وقامت البيعة له في الآفاق وانتظم له الأمر»[٣]، ويؤكد كل من ابن حزم[٤] والسيوطي[٥] شرعية ابن الزبير، ويعتبران مروان بن الحكم وابنه عبد الملك

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٣٧٣).

(٢) «الدولَة الأمويَّة عَواملُ الازدهارِ وَتَداعيات الانهيار» (٥٩٦/١) نقلًا عن «عبد الله بن الزبير» (ص ٦٨).

(٣) «البداية والنهاية» (١١/ ٦٦٦).

(٤) «المحلى» (١١/ ٩٨).

(٥) «تاريخ الخلفاء» (ص ٢١٢).

باغيين عليه خارجين على خلافته، كما يؤكد الذهبي شرعية ابن الزبير ويعتبره أمير المؤمنين(١). وهذا هو الذي عليه المؤرخون والعلماء.

موقف أهل الشام من بيعة ابن الزبير:

إن تنازل معاوية بن يزيد قد أحدث أزمة في الشام، فقد كان أخوه خالد بن يزيد صبيًّا صغيرًا، وكان أمر ابن الزبير قد استفحل وبايع له الناس من أنحاء الدولة، فرأى فريق من جند الشام على رأسهم: الضحاك بن قيس أمير دمشق أن يبايعوا لابن الزبير، وحتى مروان بن الحكم(٢) كبير بني أمية فكر في الذهاب إلى ابن الزبير ليبايعه ويأخذ منه الأمان، ولكن سائر الجند والقادة بزعامة حسان

(١) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٣٦٣).

(٢) هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن شمس بن عبد مناف القرشي الأموي، أبو عبد الملك، ويقال: أبو الحكم، ويقال: أبو القاسم، وهو صحابي عند طائفة كثيرة؛ لأنه وُلِدَ في حياة النبي ـ ﷺ ـ، أما ابن سعد فقد عَدَّه في الطبقة الأولى من التابعين. روى عن النبي ـ ﷺ ـ حديثًا في صلح الحديبية، والحديث في صحيح البخاري عن مروان والمسور بن مخرمة، كما روى مروان عن عمر وعثمان، وكان كاتبَه ـ أي كان كاتب عثمان ـ وروى عن علي وزيد بن ثابت، وروى عنه ابنه عبد الملك وسهل بن سعد، وسعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وعلي بن الحسين (زين العابدين) ومجاهد وغيرهم. كان مروان بن الحكم من سادات قريش وفضلائها، وقد قاتل مروان يوم الدار قتالًا شديدًا، وقَتَلَ بعض الخارجين على عثمان، وكان على الميسرة يوم الجمل، وكان علي بن أبي طالب ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ يكثر السؤال عن مروان حين انهزم الناس يوم الجمل، يخشى عليه من القتل، فلما سُئِلَ عن ذلك قال: «إنه يعطفني عليه رحم ماسة، وهو سيد من شباب قريش». كان مروان قارئًا لكتاب الله، فقيهًا في دين الله، شديدًا في حدود الله، ومن أجل ذلك ولاه معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ المدينة غير مرة، وأقام للناس الحج في سنين متعددة. كما كان مروان قضَّاء يتتبع قضايا عمر بن الخطاب ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ، وكان جوادًا كريمًا، فقد روى المدائني عن إبراهيم بن محمد عن جعفر بن محمد أن مروان أسلف علي بن الحسين ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ حين رجع إلى المدينة بعد مقتل الحسين ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ستة آلاف دينار، فلما حضرته الوفاة أوصى إلى ابنه عبد الملك أن لا يسترجع من علي بن الحسين شيئًا، فبعث إليه عبد الملك بذلك فامتنع =

= من قبولها، فألح عليه فقبلها، وقال الشافعي: «إن الحسن والحسين كان يصليان خلف مروان ولا يعيدانها، ويعتدان بها». وكان مروان حكيمًا ذا عقل وكياسة، ومما يدل على حكمته وعقله أنه كان أثناء ولايته على المدينة إذا وقعت مشكلة شديدة جمع مَنْ عنده من الصحابة فاستشارهم فيها، وهو الذي جمع الصيعان فأخذ بأعدلها فنسب إليه الصاع؛ فقيل: صاع مروان. انظر: «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٤٧٦)، «البداية والنهاية» (٨/ ٢٦٠). وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: «مروان ابن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عم عثمان بن عفان يقال له رؤية فإن ثبتت فلا يعرج على من تكلم فيه. وقال عروة بن الزبير: كان مروان لا يُتهم في الحديث، وقد روى عنه سهل بن سعد الساعدي الصحابي اعتمادًا على صدقه، وإنما نقموا عليه أنه رمى طلحة يوم الجمل بسهم فقتله ثم شهر السيف في طلب الخلافة حتى جرى ما جرى، فأما قتل طلحة فكان متأولًا فيه كما قرره الاسماعيلي وغيره، وأما ما بعد ذلك فإنما حمل عنه سهل بن سعد، وعروة، وعلي بن الحسين، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث، وهؤلاء أخرج البخاري أحاديثهم عنه في صحيحه لما كان أميرًا عندهم بالمدينة قبل أن يبدو منه في الخلاف على ابن الزبير ما بدا والله أعلم. وقد اعتمد حتى مالك على حديثه ورأيه والباقون سوى مسلم «فتح الباري» (١/ ٤٤٣) اهـ. هذا وقدِ اختَلف العلماءُ في صِحَّة نِسبة رمْي مرْوان لطلحةَ يوم الجمل إلى فريقين: الفريق الأول: مَن ذهَب إلى أنَّ مَرْوان بنَ الحكَم ليس بقاتلِ طلحة بن عُبَيد الله، منهم: أبو بكر بن العربي، وابن كثير، وظاهِر كلام ابنِ حزْم. واستدلوا بأنَّه لم يصحَّ أثَر في قِصَّة رمْي مروان لطلحة. قال أبو بكر بن العربي: «وقدْ رُوي أنَّ مروان لما وقعَتْ عينه في الاصطفافِ على طلحة، قال: لا أطلُب أثرًا بعد عَين، ورَماه بسهمٍ فقتَله، ومَن يعلم هذا إلَّا علاَّمُ الغيوب؟! ولم ينقُلْه ثبْتٌ، وقد رُوي أنَّه أصابه سهمٌ بأمر مرْوان، لا أنَّه رماه، وقد خرَج كعبُ بن سور بمصحفٍ منشور بيدِه يُناشد الناسَ ألاَّ يريقوا دِماءَهم، فأصابه سهمٌ غرب فقتَلَه، ولعلَّ طلحةَ مِثله، ومعلومٌ أنَّه عند الفِتنة وفي ملحمة القتال، يتمكَّن أولو الإحَنِ والحقود مِن حَلِّ العُرَى ونقض العهود، وكانت آجالًا حضرت، ومواعد انتجزَت». وقال ابنُ كثير: «يُقال: إنَّ الذي رماه بهذا السهم مَرْوان بن الحَكم، وقال لأبان بن عثمان: قدْ كفيتُك رجالًا مِن قتَلَةِ عثمان. وقد قيل: إنَّ الذي رماه غيرُه، وهذا عندي أقربُ، وإنْ كان الأوَّل مشهورًا، والله أعلم». الفريق الثاني: مَن ذهَب إلى أنَّ مرْوان بن الحَكم هو قاتلُ طلحة بن عُبيد الله، منهم: ابن قتيبة، والبلاذري وأحمد بن إسحاقَ اليعقوبي، وابن حِبَّان، والإسماعيلي، والمطهِّر بن طاهِر، وابن عبد البر، والذَّهبي، والصَّفدي، وابن حجر العَسقلاني، والعيني، وابن تَغرِي بَرْدي، والسخاوي، وغيرهم، واستدلوا بوفرةِ وشُهرة الأدلَّة التي تناقلها المؤرِّخون.

ابن مالك زعيم القبائل اليمنية الذين كانوا أقوى المؤيدين لبني أمية وهم أخوال يزيد، رفضوا أن يخرج الأمر عن بني أمية وأن يبايعوا لابن الزبير.

وهناك روايات تذكر أن مروان بن الحكم كان قد عزم على مبايعة ابن الزبير لولا أن تَدَخَّلَ عبيد الله بن زياد وغيره في آخر لحظة وأثنوه عن عزمه، وأقنعوه أن يدعو لنفسه(١). ولبث الشام ستة أشهر بدون إمام؛ نظرًا للاختلاف الشديد الذي وقع بين القبائل، وأخيرًا اتفق القوم على أن يعقدوا مؤتمرًا للشورى ليبحثوا فيه عمَّن يصلح للخلافة ويصلوا في ذلك إلى قرار، وانعقد المؤتمر في الجابية، وكانت أهم قرارات مؤتمر الجابية(٢): عدم مبايعة ابن الزبير, واستبعاد خالد بن يزيد ابن معاوية من الخلافة؛ لأن البعض كان ينادي ببيعته، فتم استبعاده؛ لأنه صغير السن, ومبايعة مروان بن الحكم وهو الشيخ المحنك, ونجح مروان في لم الشمل بالشام بعد معركة «مرج راهط»(٣)، وقد نجح كذلك في إعادة مصر إلى الحكم

---

(١) وهذا الموقف يوضح لنا مدى خطورة البطانة؛ فلولا البطانة التي كانت تُحيط بمروان لقام مروان بمبايعة ابن الزبير ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ، فعن أبي سعيد الخدري ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ أنَّ رسولَ الله ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قال: **«مَا بَعَثَ اللهُ مِنْ نَبِيٍّ، ولا استَخْلَفَ مِن خَليفةٍ، إلا كانَتْ لَهُ بِطَانَتانِ: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالمعْرُوفِ، وَتَحُضُّهُ عليه، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ، وَتَحُضُّهُ عليه، والمَعْصُومُ مَنْ عَصمَ اللهُ»** (أخرجه البخاري (٦٦١١) وأحمد). وعن عائشة ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ قالت: قال رسول الله ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: **«إذا أراد الله بالأمير خيرًا جعل له وزير صدق، إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه، وإذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء، إن نسي لم يذكره، وإن ذكر لم يعنه»**. (رواه أبو داود (٢٩٣٢) والنسائي).

(٢) الجابية: بلدة من أعمال دمشق من ناحية الجولان قرب مرج الصفّر في شمالي حوران. «معجم البلدان» (٢/٩١).

(٣) انقسمت الشام، معقل نفوذ الأمويين بين مبايعين لمروان بن الحكم، ومبايعيين لعبد الله ابن الزبير، وعلى رأسهم: الضحاك بن قيس الذي سيطر على دمشق وكان يَدعو لبيعة ابن الزبير، فهاجم مروان جيش الضحاك فواقعه بمرج راهط وهزمه، وقد استغرقت المعركة ٢٠ يومًا وانتهت بنصر مروان بن الحكم ومقتل الضحاك، وكان ذلك في أواخر عام ٦٤هـ. «الكامل في التاريخ» (٤/١٦٥)، «البداية والنهاية» (١١/ ٦٦٩).

الأموي[١]، ثم دعا مروان بن الحكم بعد ذلك إلى أن يعهد لابنيه عبد الملك، وعبد العزيز، وذلك سنة ٦٥هـ، ولم تدم مدة حكمه طويلًا، فقد توفي مروان بن الحكم بدمشق لثلاث خلون من شهر رمضان سنة ٦٥هـ وهو ابن ثلاث وستين سنة, وصلى عليه ابنه عبد الملك, وكانت مدة حكمه تسعة أشهر وثمانية عشر يومًا[٢].

عبد الملك بن مروان وصراعه مع أهل العراق:

تولى عبد الملك بن مروان[٣] الحُكم بعد وفاة أبيه، فبعث عبد الملك إلى عبيد الله بن زياد يقرُّه على ما ولّاه عليه أبوه مروان في العراق، وتقدم ابن زياد نحو

---

(١) بعد السيطرة على الشام خرج مروان بجيشة إلى مصر التي كانت قد بايعت عبد الله بن الزبير، فدخلها في غُرَّة جمادى الأولى سنة ٦٥هـ، فأخذها من نائبها الذي كان لعبد الله بن الزبير، وهو عبد الرحمن بن جحدم، وولى ابنه عبد العزيز بن مروان عليها، وأقام مروان بن الحكم في مصر نحو شهرين ثم غادرها في أول رجب سنة ٦٥هـ بعد أن وطَّد أمورها وأعادها ثانية للحكم الأموي. «الكامل في التاريخ» (٤/١٦٩)، «البداية والنهاية» (١١/ ٦٧٩).

(٢) «تاريخ الرسل» (٦/٢٤٦)، «البداية والنهاية» (٨/٢٦٦).

(٣) هو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية, أبو الوليد الأموي, وأمه عائشة بنت معاوية ابن المغيرة بن أبي العاص بن أمية، ولد سنة ٢٦هـ في خلافة عثمان، شهد يوم الدار وعمره عشر سنوات، وكان أميرًا على أهل المدينة وله ست عشرة سنة، ولاه إياها معاوية بن أبي سفيان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ، وكان يجالس الفقهاء والعلماء والعباد والصلحاء. روى عبد الملك بن مروان الحديث عن أبيه، وجابر، وأبي سعيد الخدري، وأبي هريرة، وابن عمر، ومعاوية، ويزيد ابن معاوية، وأم سلمة، وبريرة مولاة عائشة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين ـ. وروى عنه جماعة، منهم: خالد بن معدان، وعروة بن الزبير، والزهري، وعمرو بن الحارث، ورجاء بن حيوة، وجرير ابن عثمان، وثعلبة بن أبي مالك القرظي، وربيعة بن يزيد، ويونس بن ميسرة، وابنه محمد بن عبد الملك ـ رحمهم الله تعالى ـ.

روى ابن سعد بسنده أَنَّ معاوية بن أبي سفيان جلس ذات يوم ومعه عمرو بن العاص ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ، فمر بهما عبد الملك بن مروان فقال معاوية: «ما آدَبَ هذا الفتى وأحسن مُرُوَّتَهُ؟»، فقال عمرو ابن العاص: «يا أمير المؤمنين، إن هذا الفتى أخذ بخصال أربع وترك خصالًا ثلاث: «أَخَذَ =

= بِحُسْنِ الْحَدِيثِ إِذَا حَدَّثَ، وَحُسْنِ الِاسْتِمَاعِ إِذَا حُدِّثَ، وَحُسْنِ الْبِشْرِ إِذَا لَقِيَ، وَخِفَّةِ الْمُؤُونَةِ إِذَا خُولِفَ. وَتَرَكَ مِنَ الْقَوْلِ مَا يَعْتَذِرُ مِنْه، وَتَرَكَ مُخَالَطَةَ اللِّئَامِ مِنَ النَّاسِ، وَتَرَكَ مُمَازَحَةَ مَنْ لَا يُوثَقُ بِعَقْلِهِ وَلَا مُرُوَّتِه» «الطبقات الكبرى» (٥/ ٢٢٤). وقال عنه البخاري: «كان عبد الملك بن مروان قد جالس العلماء والفقهاء وحفظ عنهم، وكان قليل الحديث، فمن حديثه ما رواه ابن عساكر في تاريخه بسنده أن عبد الملك بن مروان قال: كنت أجالس بريرة مولاة عائشة بالمدينة قبل أن ألي هذا الأمر، فكانت تقول: يا عبد الملك إني لأرى فيك خصالًا، لخليق أن تلي أمر هذه الأمة، فإن وليت فاحذر الدماء، فإني سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: **«إن الرجل ليدفع عن باب الجنة أن ينظر إليها بملء محجمة من دم يريقه من مسلم بغير حق»**. «تاريخ دمشق» (٣٧/ ١١٢). وعن الشعبي قال: «ما جالست أحدًا إلا وجدت لي الفضل عليه إلا عَبد المَلِك بن مروان فإني ما ذاكرته حديثًا إلا زادني فيه، ولا شعرًا إلا زادني فيه». وقال الأصمعي: «قيل لعبد الملك: عجل بك الشيب. قال: وكيف لا وأنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة». «تهذيب الكمال في أسماء الرجال». اشتهر عبد الملك بن مروان بالعلم والفقه والعبادة، فقد كان أحد فقهاء المدينة الأربعة، قال الأعمش عن أبي الزناد: «كان فقهاء المدينة أربعة: سعيد ابن المسيب، وعروة بن الزبير، وقبيصة بن ذؤيب، وعبد الملك بن مروان»، حتى قال نافع مولى عبد الله بن عمر: «أدركت المدينة وما بها شاب أَنْسَك، ولا أشد تشميرًا، ولا أكثر صلاة، ولا أطلب للعلم، ولا أفقه ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان». وعن ابن عمر أنه قال: «ولد الناس أبناء، وولد مروان أبًا» يعني عبد الملك. ورآه يومًا وقد ذكر اختلاف الناس، فقال: «لو كان هذا الغلام اجتمع الناس عليه». وقال رجاء بن أَبي سلمة، عن عبادة بن نسي: «قيل لابن عمر: إنكم معشر أشياخ قريش يوشك أن ينقرضوا، فمن نسأل بعدكم. فقال: إن لمروان ابنًا فقيهًا فسلوه». «تاريخ بغداد» (١٠/ ٣٨٨)، «البداية والنهاية» (٩/ ٦٢- ٦٣). وقد عرف عن عبد الملك بن مروان فقهه وتقواه وملازمته لكتاب الله، فكان يسمى حمامة المسجد؛ لحرصه على المكث فيه، ومداومته قراءة القرآن، وقد استشهد الإمام مالك في «الموطأ» بفقهه وأحكامه وقضاياه، قال أبو بكر بن العربي: «فهذا مالك ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قد احتج بقضاء عبد الملك ابن مروان في موطئه، وأبرزه في جملة قواعد الشريعة.. وأخرج البخاري عن عبد الله بن دينار قال: شهدت ابن عمر حيث اجتمع الناس على عبد الملك بن مروان كتب: «إني أقر بالسمع والطاعة لعبد الملك أمير المؤمنين على سنة الله وسنة رسوله، ما استطعت، وإن بني قد أقروا =

العراق وهدفه إجلاء ولاة ابن الزبير، ولكنه اضطر إلى أن يغير خطته، فقد ظهر في الميدان أعداء جدد لم يكونوا في حسبان ابن زياد وهم «التوابون»[1].

= بمثل ذلك». «العواصم من القواصم». وانظر: (هامش ٣ ص ٢٤٩). وكان عبد الملك بن مروان يحض الناس في خلافته على طلب العلم، فيقول: «إن العلم سيقبض قبضًا سريعًا، فمن كان عنده علم فليظهره غير غالٍ فيه ولا جافٍ عنه»، وكان يَجِدّ في الأذكار الصالحة ويوصي بذلك أصحابه، فقد روى ابن أبي الدنيا أن عبد الملك كان يقول لمن يسايره في سفره إذا رفعت له شجرة: «سبحوا بنا حتى تأتي تلك الشجرة، كبروا بنا حتى تأتي تلك الشجرة، ونحو ذلك» «البداية والنهاية» (٩/ ٦٤). وكان في حياته الخاصة قد ترك سبل اللهو من الشراب والخمر والموسيقى والغناء. «الدولة الأموية المفترى عليها» (ص٢٠١- ٢٠٣). وقال الأصمعي عن أبيه عن جده: «وخطب عبد الملك يومًا خطبة بليغة، ثم قطعها وبكى بكاءً شديدًا، ثم قال: يا رب إن ذنوبي عظيمة، وإن قليل عفوك أعظم منها، اللّٰهم فامح بقليل عفوك عظيم ذنوبي، فبلغ ذلك القول زاهد العراق الحسن البصري فبكى وقال: لو كان كلام يكتب بالذهب لكتب هذا الكلام» «البداية والنهاية» (٩/ ٦٧). وقال الشعبي: «خطب عبد الملك، فقال: «اللّٰهمّ إن ذنوبي عظام، وهي صغار في جنب عفوك، فاغفرها لي يا كريم». «تاريخ الإسلام» (١٤٦/٦).

(١) التوابون مجموعة من الشيعة، كان كثير منهم ممن كتبوا إلى الحسين بن علي وهو في مكة بعد موت معاوية ليسير إليهم في الكوفة؛ فلما سار إليهم خذلوه وتخلوا عن نصرته، وأسلموه إلى المصير المؤلم الذي آل إليه، ولكن بعد استشهاده هزتهم الفاجعة، وعضهم الندم على تقصيرهم نحوه، فلم يجدوا طريقة يكفرون بها عن هذا التقصير الكبير، ويتوبون إلى الله بها من هذا الذنب العظيم سوى الثأر للحسين بقتل قتلته، فسُمُّوا بذلك: «التوابين»، وتزعمهم سليمان بن صرد الخزاعي، وسموه: «أمير التوابين»، وعلق ابن كثير على جيش التوابين بقوله: «لو كان هذا العزم والاجتماع قبل وصول الحسين إلى تلك المنزلة لكان أنفع له وأنصر من اجتماعهم لنصرته بعد أربع سنين» «البداية والنهاية» (١١/ ٦٩٧)، «الكامل في التاريخ» (٢/ ٦٣٥).

وسليمان بن صرد هو: سليمان بن صرد بن الجون بن أبي الجون بن منقذ بن ربيعة بن أصرم ابن ضبيس بن حرام بن حبشية بن سلول بن كعب، أبو المطرّف الخزاعيّ. يقال: كان اسمه يسار، فغيره النبي - ﷺ - ، وقد روى عن النبي - ﷺ - ، وعن علي وأبي الحسن، وجبير بن مطعم. وروى عنه أبو إسحاق السّبيعي، ويحيى بن يعمر، وعبد اللّٰه بن يسار، وأبو الضحى، وكان خيّرًا فاضلًا، شهد صفّين مع علي، وقتل حوشبًا مبارزة، ثم كان ممّن كاتب الحسين ثم تخلف =

عَلِمَ التوّابون بقدوم ابن زياد إلى العراق، فرأوا الخروج لقتاله وقتل ابن زياد أخذًا بثأر الحسين، وكان عددهم في بادئ الأمر ستة عشر ألفًا، فلما جاء وقت العمل الجاد نكصوا وتقاعسوا حتى وصل عددهم إلى أربعة آلاف، وحتى الآلاف الأربعة الذين تجمعوا حول زعيم التوابين سليمان بن صرد تخلَّى عنه منهم ألف وبقي معه ثلاثة آلاف فقط.

أما جيش الشام فكان عدده ستين ألفًا، عليهم عبيد الله بن زياد ليعيد العراق إلى سلطان الأمويين بعد أن بسط حكمهم على الشام، فالتقى بالتوابين في عين الوردة[١] من أرض الجزيرة، ودارت معركة غير متكافئة قُتِلَ فيها معظم التوابين وزعيمهم سليمان بن صرد، وكان عُمْرُ سليمان بن صرد - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يوم قُتل ثلاثًا وتسعين سنة[٢]، وكان ذلك في ربيع الآخر سنة (٦٥هـ -٦٨٤م)، وفَرَّ الباقون عائدين إلى الكوفة لينضموا إلى المختار الثقفي[٣] الذي انفرد بزعامة الشيعة، فقويت حركته

= عنه، ثم قدم هو والمسيب بن نجبة في آخرين، فخرجوا في الطلب بدمه وهم أربعة آلاف، فالتقاهم عبيد الله بن زياد بعين الوردة بعسكر مروان، فقتل سليمان ومن معه، وذلك في خمس وستين في شهر ربيع الآخر، وكان لسليمان يوم قتل ثلاث وتسعون سنة، وكان الّذي قتل سليمان يزيد ابن الحصين بن نمير، رماه بسهم فمات وحمل رأسه ورأس المسيّب إلى مروان. «الطبقات» (٤/ ٢٩٢)، «تاريخ الطبري» (٥/ ٥٨٣)، «الإصابة في تمييز الصحابة» (٣/ ١٤٤).

(١) مدينة مشهورة من مدن الجزيرة قرب نصيبين، وتسمى: (عين الوردة)، فيها عيون ماء تجري في جداول تنساب في مروج خضراء ثم تلتقي وتشكل نهر الخابور. وهي من مدن الجمهورية العربية السورية. «التعريف بالأماكن الواردة في البداية والنهاية لابن كثير - الشاملة» (٢/ ١٦٤).

(٢) «البداية والنهاية» (١١/ ٦٩٧).

(٣) هو المختار بن أبي عبيد الثقفي الكذَّاب, كان والده الأمير أبو عبيد بن مسعود بن عمرو ابن عمير بن عوف بن عقدة الثقفي, أسلم في حياة النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - , ولم نعلم له صحبة, استعمله عمر بن الخطاب على جيشٍ فغزا العراق, وإليه تنسب وقعة جسر أبي عبيد, ونشأ المختار فكان من كبراء ثقيف وذوي الرأي والفصاحة, والشجاعة والدهاء، لكن قد تغيرت أحواله فيما بعد، =

وكثُر أتباعه، ثم ازداد مركزه قوة بانضمام إبراهيم بن الأشتر النخعي إليه وهو من زعماء الكوفة، فثار على عبد الله بن مطيع العدوي أمير الكوفة من قِبَلِ عبد الله ابن الزبير فأخرجه منها، وأحكم سيطرته عليها، ولكي يثبت صحة دعواه في المطالبة بدم الحسين تتبع قتلته، فقتل معظمهم في الكوفة، ثم أعد جيشًا جعل على قيادته إبراهيم بن الأشتر، وأرسله إلى قتال عبيد الله بن زياد، فالتقى به عند نهر الخازر بالقرب من الموصل[1]، وحلَّت الهزيمة بجيش ابن زياد الذي خَرَّ صريعًا في ميدان المعركة سنة (٦٧هـ -٦٨٦م)[2]، وكان مقتل عبيد الله بن زياد في يوم عاشوراء سنة سبع وستين, ثم بعث إبراهيم بن الأشتر برأس ابن زياد إلى المختار[3].

وتعاظم نفوذ المختار بعد انتصاره على ابن زياد، وسيطر على شمال العراق والجزيرة، وأخذ يولي العمال من قبله على الولايات ويجبي الخراج، وانضمَّ إليه عدد كبير من الموالي لبغضهم لبني أمية من ناحية؛ ولأنه أغدق عليهم الأموال من ناحية ثانية، وبدا كما لو أنه أقام دولة خاصة به في العراق بين دولتي ابن الزبير في الحجاز، وعبد الملك بن مروان في الشام، ولكنه لم ينعم طويلًا بهذه الدولة[4].

= وكان يزعم أن الوحي ينزل عليه على يد جبريل يأتي إليه. ظهر المختار بن أبي عبيد الثقفي على مسرح الأحداث بعد موت يزيد بن معاوية سنة ٦٤هـ, وهو من الشخصيات التي حفل بها العصر الأموي, والتي كانت تسعى لها عن دور, وتسعى إلى السلطان بأي ثمن, فتقلب من العداء الشديد لآل البيت على ادعاء حبهم والمطالبة بثأر الحسين. «البداية والنهاية» (١١/ ٦٦)، «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٥٣٩).

(١) الخازر: هو نهر يقع بين أربيل والموصل، ويبعد عن الموصل نحو ٣٧ كم يصب في دجلة، وقد جرت عنده وقعة بين عبيد الله بن زياد، والأشتر النخعي أيام المختار الثقفي سنة ٦٧هـ، ومقتل ابن زياد. انظر: «التعريف بالأماكن الواردة في البداية والنهاية» لابن كثير ـ الشاملة (ص ١٦٠).

(٢) «الكامل في التاريخ» (٢/ ٧).

(٣) «تاريخ الرسل والملوك» (٦/ ٢٤٦).

(٤) «المصدر السابق» (٦/ ٢٤٦).

كان المتوقع أن تكون نهاية المختار على يد عبد الملك بن مروان الذي وَتَّرَهُ بقتل ابن زياد أبرز أعوانه، ولكن عبد الملك كان سياسيًّا حكيمًا، وقائدًا محنكًا، فقد ترك لابن الزبير مهمة القضاء على المختار؛ لأن عبد الملك كان يعلم أن ابن الزبير لا بد أن يتحرك للقضاء عليه(١)، فهو لا يسمح لنفوذ المختار أن يتسع ويهدد دولته؛ علمًا بأن عبد الله بن الزبير هو الخليفة الشرعي ومن حقه أن يقاتل من خرج عليه؛ فلذلك آثر عبد الملك بن مروان الانتظار؛ لأن نتيجة المواجهة ستكون حتمًا في صالحه، فسوف يقضي أحدهما على صاحبه ومن يبقى تكون قوته قد ضعفت فيسهل القضاء عليه.

وبالفعل حدث ما كان توقعه عبد الملك بن مروان، فالمختار لم يكتفِ بانتصاره على جيش عبد الملك وبَسْطِ نفوذه على شمال العراق والجزيرة، بل أخذ يُعِدُّ نفسه للسير إلى البصرة لانتزاعها من مصعب بن الزبير الذي أصبح واليًا عليها من قبل أخيه عبد الله بن الزبير - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - ، فسار مصعب بنفسه إلى المختار قبل أن يُعاجِله في البصرة، والتقى به عند حروراء، فدارت الدائرة على المختار فأسرع بالفرار إلى الكوفة، وتحصن بقصر الإمارة، إلا أن مصعبًا حاصره في القصر حتى قُتِلَ سنة (٦٧هـ-٦٨٦م).

وهكذا انتهت حركة هذا الكذاب الضال الذي كان همه الوصول إلى الحكم بأية وسيلة، ولم تنفعه ادعاءاته بحب آل البيت والطلب بثأرهم، فقد انكشفت حيله، وتخلى عنه أهل العراق وأسلموه إلى مصيره المحتوم.

وبعد أن استعاد ابن الزبير سيطرته على العراق كان من الطبيعي أن يحدث الصدام بينه وبين عبد الملك بن مروان، فعزم عبد الملك على السير إلى العراق وانتزاعها من ابن الزبير، وكان ذلك سنة (٧١هـ-٦٩٠م)، وكان ذلك بعد أربع سنين من

(١) «العالم الإسلامي في العصر الأموي» (ص ٤٨٤).

القضاء على المختار[١]، ولعل عبد الملك بن مروان أَخَّر هذا الصدام بينه وبين ابن الزبير إلى هذا الوقت؛ لكي يوطد دعائم حكمه في بلاد الشام، فقضى هذه السنين في حل مشاكله مع زفر بن الحارث الكلابي الذي كان معتصمًا بقرقيسياء[٢] مهددًا بذلك إقليم الجزيرة كله، وقد عالج عبد الملك مشكلة زفر بالحكمة والسياسة، واصطلح معه، وأنهى بذلك مسألة قرقيسياء التي استمرت حوالي سبع سنين كالشوكة في جنب دولته، وأحكم سيطرته على إقليم الجزيرة، ثم تخلص من منافسه الخطير وهو عمرو بن سعيد الأشدق بقتله حيث نازعه الخلافة[٣].

وبعد أن اطمأن عبد الملك إلى استقرار حكمه ببلاد الشام توجه لقتال مصعب بن الزبير، فنزل عبد الملك «مسكن»[٤]، وزحف مصعب نحو باجميرا وعلى مقدمة جيشه إبراهيم بن الأشتر، ثم أخذ عبد الملك يكاتب زعماء أهل العراق من جيش مصعب يعدهم ويمنيهم، بل إن عبد الملك بن مروان صرَّح أن كتب أهل العراق أتته يدعونه إليهم قبل أن يكاتبهم هو ـ وهذا ليس غريبًا عن أهل العراق ـ وفي الوقت الذي كان عبد الملك يكاتب فيه زعماء أهل العراق من قواد مصعب

---

(١) «الكامل في التاريخ» (٣/ ٥١).

(٢) بلدة على نهر الخابور قريبة من رحبة مالك بن طوق، وعند مصب الخابور في الفرات، كانت من محطات القوافل التجارية على نهر الفرات. «التعريف بالأماكن الواردة في البداية والنهاية لابن كثير، الشاملة» (٢/ ٢٠٨).

(٣) «الدولَة الأمويَّة عَواملُ الازدهارِ وَتَداعيات الانهيار» (١/ ٦٠٢)، «موقع قصة الإسلام ـ خلافة عبد الملك ابن مروان».

(٤) مَسْكِن: بالفتح ثم السكون، وكسر الكاف: وهو موضع قريب من أوانا على نهر دجيل عند دير الجاثليق، به كانت الوقعة بين عبد الملك بن مروان ومصعب بن الزبير في سنة ٧٢هـ، فقتل مصعب وقبره هناك معروف. «معجم البلدان» (٥/ ١٢٥). ودير الجاثليق: دير قديم رحب البناء قرب بغداد من ناحية الشمال في غربي دجلة. انظر: «التعريف بالأماكن الواردة في البداية والنهاية» لابن كثير ـ الشاملة (ص ١٦٩).

والذين قبلوا التخلي عنه والانضمام إلى عبد الملك، كان حريصًا على ألا يقاتل مصعبًا للمودة والصداقة القديمة التي كانت بينهما؛ فأرسل إليه رجلًا من كلب وقال له: «أقرئ ابن أختك السلام ـ وكانت أم مصعب كلبية ـ وقل له: يَدَع دعاءه إلى أخيه، وأدَعُ دعائي إلى نفسي، ويُجْعَل الأمرُ شورى. فقال له مصعب: قل له: السيف بيننا»[١]، ثم حاول عبد الملك محاولة أخرى: فأرسل إليه أخاه محمدًا ليقول له: «إن ابن عمك يعطيك الأمان». فقال مصعب: «إن مثلي لا ينصرف عن مثل هذا الموقف إلا غالبًا أو مغلوبًا»[٢].

ثم دارت معركة، وبدأت خيانات أهل العراق تظهر، وَأَمَدَّ مُصْعَبٌ إِبْرَاهِيمَ بِعَتَّابِ بْنِ وَرْقَاءَ، فَسَاءَ ذَلِكَ إِبْرَاهِيمَ وَقَالَ: قَدْ قُلْتُ لَهُ: لَا تَمُدَّنِي بِعَتَّابٍ وَضُرَبَائِهِ، وَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ! فَانْهَزَمَ عَتَّابٌ بِالنَّاسِ، وَكَانَ قَدْ كَاتَبَ عَبْدَ الْمَلِكِ وَبَايَعَهُ، وقُتل إبراهيم بن الأشتر وقُتل معه جماعة من الأمراء، وجعل مصعب ينادي في أتباعه بأن يتقدموا إلى الأمام فلا يتحرك أحد، فجعل يقول: «يا إبراهيم ولا إبراهيم لي اليوم»، فكان قتله خسارة كبيرة لمصعب، لأنه فوق شجاعته كان مخلصًا له غاية الإخلاص، ثم تخلى أهل العراق عن مصعب وخذلوه حتى لم يبقَ معه سوى سبعة رجال[٣]، ولكنه ظل يقاتل في شجاعة وبسالة حتى أثخنته الجراح، وأخيرًا قتله عبيد الله بن زياد بن ظبيان، وكان مقتله في المكان الذي دارت فيه المعركة على قصر دجيل عند دير الجاثليق في جُمَادَى الآخرة سنة (٧٢هـ-٦٩١م)، فلما بلغ عبد الملك مقتله سجد لله شكرًا وقال: «واروه فقد والله كانت الحرمة بيننا قديمة، ولما وضع رأس مصعب بين يدي عبد الملك, بكى وقال: «متى تلد

---

(١) «الكامل في التاريخ» (٣/ ٥٢).

(٢) «تاريخ الرسل والملوك» (٧/ ٤٥).

(٣) «الكامل في التاريخ» (٣/ ٥٣، ٥٤).

النساء مثل مصعب، ما كنت أقدر أن أصبر عليه ساعة واحدة من حبي له, حتى دخل السيف بيننا، ولكن هذا المُلْك عقيم»(١).

وكان ابن ظبيان فاتكًا رديئًا، وكان يقول: «ليتني قتلت عبد الملك حين سجد يومئذٍ فأكون قد قتلت ملكي العرب».

وبمقتل مصعب عادت العراق إلى حظيرة الدولة الأموية، وعين عبد الملك أخاه بشرًا واليًا عليها، وقبل أن يغادرها أَعَدَّ جيشًا للقضاء على عبد الله بن الزبير في مكة.

هذا ونشير إلى أن من أهم أسباب هزيمة مصعب بن الزبير: خيانة أهل العراق لاسيما بعض قادة الجيش ومن تبعهم، ثم إنهاك الجيش في معارك كثيرة طاحنة وشديدة، وربما كذلك عدم مد الخليفة عبد الله بن الزبير أخاه بالقوات قدر المستطاع؛ لاسيما مع كثرة العدد والعدة في جيش عبد الملك، ثم إقباله على القتال بعد انسحاب معظم الجيش، فكان لابد من نظرة واقعية للواقع، وإعمال فقه الموازنات.

عبد الملك بن مروان وصراعه مع عبد الله بن الزبير:

لما بلغ عبد الله بن الزبير قتل أخيه مصعب, قام فخطب في الناس, فقال: «الحمد لله الذي له الخلق والأمر, يؤتي الملك من يشاء, وينزع الملك ممن يشاء, ويعز من يشاء, ويذل من يشاء، ألا إنه لن يذل الله من كان الحق معه، وإن كان فردًا, ولن يعز من كان وليه الشيطان وحزبه وإن كان معه الأنام طُرًّا(٢)؛ ألا وإنه قد أتانا من العراق خبر أحزننا وأفرحنا, أتانا قتل مصعب ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ فأما الذي أفرحنا فعلمنا

(١) «تاريخ الرسل والملوك» (٧/ ٤٤)، «البداية والنهاية» (٨/ ٣٢١)

(٢) طُرّ: مفرد أطرار، والمعنى: جماعة، وجميعًا «جاء القومُ طُرًّا: جميعًا لم يتخلَّف منهم أحد». والأَنام: جميع ما على الأرض من الخلْق. انظر: «معجم اللغة العربية المعاصرة» (٢/ ١٣٩٢).

أن قتله له شهادة, وأما الذي أحزننا فإن لفراق الحميم لوعة يجدها حميمه عند المصيبة, ثم يرعوي بعدها ذو الرأي إلى جميل الصبر, وكريم العزاء, ولئن أصبت بمصعب لقد أصبت بالزبير قبله, وما أنا من عثمان بخلو مصيبة, وما مصعب إلا عبد من عبيد الله وعون من أعواني, إلا أن أهل العراق ـ أهل الغدر والنفاق ـ أسلموه وباعوه بأقل الثمن, فإن يقتل فإنا ـ والله ـ ما نموت على مضاجعنا كما تموت بنو العاص, والله ما قتل منهم رجل في زحف في الجاهلية ولا الإسلام, وما نموت إلا قعصًا[(١)] بالرماح، وموتًا تحت ظلال السيوف. ألا إنما الدنيا عارية من الملك الأعلى الذي لا يزول سلطانه, ولا يبيد ملكه, فإن تُقبل لا آخذها أخذ الأشِر البَطِر, وإن تُدبر لا أبكي عليها بكاء الحَرِق المهين. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم»[(٢)].

وبعد مقتل مصعب انحصرت دولة ابن الزبير في الحجاز، ولم يكن في استطاعته الصمود لافتقاره إلى المال والرجال، كما أن مقتل أخيه مصعب قد فَتَّ في عَضُدِه، ولكنه لم يُلْقِ الراية، وظل يقاوم حتى النهاية؛ فهذه حملة حبيش بن دلجة القيني التي أتت من الشام لقتال ابن الزبير واستطاع ابن الزبير أن يتغلب على هذا الجيش[(٣)]، ثم جاءت حملة عروة بن أنيف في ستة آلاف إلى المدينة, وأمرهم عبد الملك ألا ينزلوا على أحد, ولا يدخلوا المدينة إلا لحاجة ضرورية أو يعسكروا «بالعَرْصة»[(٤)], وسار عروة بن أنيف وعسكر بالعرصة, ومكث عروة على هذا الوضع شهرًا,

---

(١) القعص: الموت السريع. «لسان العرب» (٧٤/٤).

(٢) «تاريخ الرسل والملوك» (٧/ ٤٧).

(٣) «أنساب الأشراف» (٥/ ١٥١ – ١٥٣).

(٤) العرصة: البقعة الواسعة بين الدور لا بناء فيها, وهما عرصتان بنواحي المدينة بالعقيق. «معجم البلدان» (٥٣/٧).

ولم يبعث إليه ابن الزبير أحدًا, ولم تحدث أي مواجهة بين جيشي عروة وابن الزبير, عندها أمر عبد الملك هذا الجيش بالعودة إلى الشام فرجع، ثم كانت حملة عبد الملك ابن الحارث بن الحكم، أرسل عبد الملك بن مروان هذه الحملة ـ وقوامها أربعة آلاف ـ إلى المدينة, وكانت مهمتها الحفاظ على المنطقة ما بين الشام والمدينة، ثم كانت حملة طارق بن عمرو وكانت هذه الحملة هي آخر حملة وجهها عبد الملك بن مروان تجاه الحجاز(١)، ثم لم يضيع عبد الملك بن مروان وقتًا بعد انتصاره على مصعب, وقرر أن يقضي نهائيًّا على دولة ابن الزبير(٢).

ووقع الخيار لقيادة الجيش للقضاء على ابن الزبير على الحجاج بن يوسف, وتوجه بجيشه إلى الحجاز واستقر بالطائف, وبدأ يرسل بعض الفرق العسكرية إلى مكة, وكان ابن الزبير يرسل إليه بمثلها فيقتتلون وتعود كل فرقة إلى معسكرها, وفي محاولة لإنهاك ابن الزبير قام الحجاج بفرض حصار اقتصادي على مكة، وقد أثر هذا الحصار على ابن الزبير وأصابت الناس مجاعة شديدة حتى إن ابن الزبير اضطر إلى ذبح فرسه ليطعم أصحابه(٣)، وفي الوقت نفسه كانت العير تحمل إلى أهل الشام من عند عبد الملك: السويق, والكعك، والدقيق.

وقد ترتب على تردي الأحوال داخل مكة: أن بدأ التخاذل يدب بين أنصار ابن الزبير, وبدأوا ينسحبون واحدًا تلو الآخر, ومما شجع على تخاذل هؤلاء إعطاء الحجاج الأمان لكل من كف عن القتال وانسحب من جيش ابن الزبير(٤)، وأراد

---

(١) «الدولَة الأمويَّة عَواملُ الازدهارِ وَتَداعيات الانهيار» (١/٦٠٧) نقلًا عن «عبد الله بن الزبير, للخراشي» (ص ١٨٥).

(٢) «العالم الإسلامي في العصر الأموي» (ص ٥٠٣).

(٣) «أنساب الأشراف» (٥/ ٣٦١).

(٤) المصدر السابق (٥/ ٣٦٠).

الحجاج بن يوسف الثقفي أن ينهي أمر ابن الزبير فكتب إلى عبد الملك بن مروان يطلب منه الإذن بقتاله ومناجزته, فأجابه عبد الملك بقوله: «افعل ما ترى»[١]، فتوجه الحجاج بن يوسف بجميع جيشه إلى مكة ونصب المنجنيق على جبالها[٢]، وبدأ يضرب ابن الزبير داخل الحرم ضربًا متواصلًا[٣]، وفي الوقت نفسه كانت بقية جيشه يقاتلون البقية الباقية مع ابن الزبير, وتوسط بعض أعيان مكة وعلى رأسهم ابن عمر لدى الحجاج طالبين إليه أن يكف عن استعمال المنجنيق فأجابهم: «والله إني لكاره لما ترون، ولكن ماذا أصنع وقد لجأ هذا إلى البيت؟»، وكانت وفود الحج قد جاءت إلى مكة من كافة الأقطار الإسلامية, وقد منعهم من الطواف حول البيت ما يتعرض له الطائفون من خطر المنجنيق.

ولما كان في ذلك تعطيل لركن من أركان الحج فقد تدخل في الأمر ابن عمر فكتب إلى الحجاج يقول له: «اتقِ الله، فإنك في شهر حرام وبلد حرام, وقد قدمت وفود الله من أقطار الأرض ليؤدوا فريضة الله ويزدادوا خيرًا»[٤]، فأرسل الحجاج إلى طارق بن عمرو بأن يكف عن استعماله حتى ينتهي الناس من الحج, وقال لهم: «والله إني لكاره لما ترون, ولكن ابن الزبير لجأ إلى البيت», وأيًّا ما كان فقد كف عن استعمال المنجنيق حتى انتهى الناس من الطواف, وبعد ما انتهى موسم الحج نادى الحجاج في الناس بالانصراف إلى البلاد، وأن القتال سيستأنف ضد ابن الزبير[٥].

---

(١) «أنساب الأشراف» (٥/ ٣٥٨).

(٢) «تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف» (ص ١٧٠).

(٣) «أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه» (٢/٣٣٥).

(٤) «أنساب الأشراف» (٥/ ٣٧٦)

(٥) المصدر السابق (٥/ ٣٧٦).

وذكر غير واحد أنهم لما رموا بالمنجنيق جاءت الصواعق والبروق والرعود حتى جعلت تعلو أصواتها على صوت المنجنيق، ونزلت صاعقة فأصابت من الشاميين اثني عشر رجلًا فضعفت عند ذلك قلوبهم عن المحاصرة، فلم يزل الحجاج يشجعهم ويقول: «إني خبير بهذه البلاد، هذه بروق تهامة ورعودها وصواعقها، وإن القوم يصيبهم مثل الذي يصيبكم»، وجاءت صاعقة من الغد فقتلت من أصحاب ابن الزبير جماعة كثيرة أيضًا، فجعل الحجاج يقول: «ألم أقل لكم، إنهم يصابون مثلكم وأنتم على الطاعة وهم على المخالفة»(١). ويروي البلاذري أن العديد ممن كانوا مع ابن الزبير حاولوا إقناعه بقبول أمان الحجاج ابن يوسف, فلم يستجب ابن الزبير لمحاولاتهم وأصر على القتال, وقد سطرت الروايات مواقف بطولية رائعة لابن الزبير -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- في مواجهة كتائب الحجاج(٢)، وبالفعل بدأ الحجاج يضرب بعد انصراف الناس, وشدد على ابن الزبير, وتحرج موقفه وانفض عنه معظم أصحابه, وما زال أهل مكة يخرجون إلى الحجاج بالأمان ويتركون ابن الزبير حتى خرج إليه قريب من عشرة آلاف، فأمنهم وقل أصحاب ابن الزبير جدًّا، حتى خرج ابناه حمزة وخبيب, اللذان ذهبا إلى الحجاج وأخذا منه الأمان لنفسيهما(٣)، فلما رأى ابن الزبير ذلك دخل على أمه فقال لها: «يا أمه, خذلني الناس حتى ولديّ وأهلي, فلم يبقَ معي إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة, والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا, فما رأيك؟ فقالت: أنت - والله - يا بني أعلم بنفسك, إن كنت تعلم أنك على الحق وإليه

---

(١) «البداية والنهاية» (١١/ ٦٩).

(٢) «الدولَة الأمويَّة عَواملُ الازدهارِ وَتَداعيات الانهيار» (٦٠٧/١) نقلًا عن «عبد الله بن الزبير, للخراشي» (ص ١٩١).

(٣) «الكامل في التاريخ» (٣/ ٦٩).

تدعو فامضِ له، فقد قُتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك يلعب بها غلمان بني أمية، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك، وأهلكت من قُتل معك، وإن قلت: كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت، فهذا ليس من فعل الأحرار ولا أهل الدين، وكم خلودك في الدنيا، القتل أحسن، والله لضربة بالسيف في عزٍّ، أحب إلي من ضربة بسوط في ذلٍّ. قال: إني أخاف إن قتلوني أن يمثلوا بي، قالت: يا بني إن الشاة لا يضرها سلخها بعد ذبحها[1]. فدنا منها وقبل رأسها، وقال: هذا والله رأيي، والذي قمت به داعيًا إلى يومي هذا، ما ركنت إلى الدنيا، ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل حرمته، ولكني أحببت أن أعلم رأيك، فزدتيني بصيرة مع بصيرتي، فانظري يا أمه فإني مقتول من يومي هذا، فلا يشتد حزنك وسلمي الأمر لله، فإن ابنك لم يتعمد منكرًا، ولا عمل بفاحشة قط، ولم يجر في حكم الله، ولم يغدر في أمان، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد، ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به، بل أنكرته، ولم يكن شيء آثر عندي من رضا ربي، اللّهم إني لا أقول هذا تزكية مني لنفسي، أنت أعلم بي، ولكن أقوله تعزية لأمي لتسلو عني، فقالت أمه: إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسنًا إن تقدمتني، وإن تقدمتك ففي نفسي، أخرج حتى أنظر إلى ما يصير أمرك. قال: جزاك الله يا أمه خيرًا، فلا تدعي الدعاء لي قبل وبعد. فقالت: لا أدعه أبدًا لمن قتل على باطل، فقد قتلت على حق، ثم قالت: اللّهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل، وذلك النحيب، والظمأ في هواجر المدينة ومكة، وبره بأبيه وبي، اللّهم قد سلمته لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت فأثبني في عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين»[2]. فتناول يديها ليقبلها فقالت:

---

(١) «جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة» (٢/ ١٧٢).

(٢) «تاريخ الرسل والملوك» (٧/ ٧٦).

«هذا وداع فلا تبعد. فقال لها: جئت مودعًا لأني أرى هذا آخر أيامي من الدنيا. قالت: امضِ على بصيرتك وادن مني حتى أودّعك. فدنا منها فعانقها وقبلها، ثم أخذته إليها فاحتضنته لتودعه، واعتنقها ليودعها»، وكانت قد أضرت في آخر عمرها، فوجدته لابسًا درعًا من حديد. فقالت: «يا بني، ما هذا لباس من يريد ما تريد من الشهادة. فقال: يا أماه، إنما لبسته لأطيب خاطرك، وأسكن قلبك به. فقالت: لا يا بني، ولكن انزعه». فنزعه، وجعل يلبس بقية ثيابه ويتشدد، وهي تقول: «شمر ثيابك». وجعل يتحفظ من أسفل ثيابه; لئلا تبدو عورته إذا قتل، وجعلت تذكره بأبيه الزبير، وجده أبي بكر الصديق، وجدته صفية بنت عبد المطلب، وخالته عائشة زوج رسول الله ـ ﷺ ـ، وترجيه القدوم عليهم إذا هو قتل شهيدًا، ثم خرج من عندها، فكان ذلك آخر عهده بها ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ وعن أبيه وأبيها. ثم قالت: «امضِ على بصيرة» فودعها وخرج[1]. قال مصعب بن ثابت: «فما مكثتْ بعده إلا عشرًا»، ويقال: «خمسة أيام»[2].

استشهاد ابن الزبير ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ:

كان ابن الزبير يخرج من باب المسجد الحرام، وهناك خمسمائة فارس وراجل، فيحمل عليهم فيتفرقون عنه يمينًا وشمالًا، ولا يثبت له أحد، وكانت أبواب الحرم قد قلَّ من يحرسها من أصحاب ابن الزبير، وكان لأهل حمص حصار الباب الذي يواجه باب الكعبة، ولأهل دمشق باب بني شيبة، ولأهل الأردن باب الصفا، ولأهل فلسطين باب بني جمح، ولأهل قنسرين باب بني سهم، وعلى كل باب قائد، ومعه أهل تلك البلاد، وكان الحجاج وطارق ابن عمرو في

(١) «البداية والنهاية» (١١/ ٦٩).
(٢) «تاريخ الرسل والملوك» (٧/ ٧٩).

ناحية الأبطح[(١)]، وكان ابن الزبير لا يخرج على أهل باب إلا فرقهم وبدد شملهم[(٢)].

وفي آخر يوم من حياته صلى ركعتي الفجر ثم تقدم وأقام المؤذن فصلى بأصحابه، فقرأ: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ﴾ حرفًا حرفًا، ثم سلم فقام، فحمد الله وأثنى عليه ثم خطب خطبة بليغة ثم قال: «احملوا على بركة الله». ثم حمل عليهم حتى بلغ بهم الحجون[(٣)] فرُمي بحجر، فأصاب جبهته، فسقط، ودمي وجهه[(٤)]، وقاتلهم قتالًا شديدًا، فتعاونوا عليه فقتلوه يوم الثلاثاء من جمادى الآخرة وله ثلاث وسبعون سنة[(٥)]، وتولى قتله رجل من قبيلة مراد، وحمل رأسه إلى الحجاج، فخر ساجدًا - قبحه الله - ، وسار الحجاج وطارق بن عمرو حتى وقفا عليه، فقال طارق: «ما ولدت النساء أذكر مِن هذا! فقال الحجاج: أتمدح مخالف أمير المؤمنين؟ قال: نعم، هو أعذر لنا، ولولا هذا لما كان لنا عذر، إنا محاصروه منذ سبعة أشهر وهو في غير جند ولا حصن ولا منعة فينتصف منا، بل يفضل علينا»، فبلغ كلامهما عبد الملك فصوب طارقًا[(٦)].

(١) الأبطح: المكان المتَّسعُ يَمُرّ به السيل، فيترك فيه الرملَ والحصى الصغار، ومنه أَبطح مكَّة: هو مسيل واسع يقع بين مكة ومنى. والجمع: أباطح. انظر: «المعجم الوسيط».

(٢) «البداية والنهاية» (١١/ ٦٩).

(٣) الحجون: جبل بأعلى مكة. وهو الجبل المشرف حذاء مسجد البيعة بينه وبين الحرم ميل ونصف. «أخبار مكة».

(٤) «الأخبار الطوال» (ص ٣١٥).

(٥) «تاريخ الرسل والملوك» (٧/ ٧٧).

(٦) «الكامل في التاريخ» (٣/ ٧٣).

وقد ذُكر أن ابن الزبير في يوم استشهاده قال: «ما أُراني اليوم إلا مقتولًا, لقد رأيت في ليلتي كأن السماء فرجت لي, فدخلتها, فقد ـ والله ـ مللت الحياة وما فيها»(١).

ولما قُتل عبد الله خرجت إليه أمه حتى وقفت عليه, وهي على دابة, فأقبل الحجاج في أصحابه فسأل عنها فأُخْبِرَ بها, فأقبل حتى وقف عليها فقال: «كيف رأيت نصر الله الحق وأظهره؟ قالت: ربما أُديل الباطل على الحق. فقال: إن ابنك ألحد في هذا البيت, وقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]، وقد أذاقه الله ذلك العذاب الأليم, قالت: كذبت, كان أول مولود ولد في الإسلام بالمدينة, وسُرّ به رسول الله ـ ﷺ ـ, وحنكه بيده وكبر المسلمون يومئذٍ حتى ارتجت المدينة فرحًا به, وقد فرِحتَ أنت وأصحابك بمقتله, فمن كان فرح يومئذٍ خير منك ومن أصحابك, وكان مع ذلك برًّا بالوالدين، صوامًا قوامًا بكتاب الله، معظمًا لحُرم الله, يُبْغِض أن يُعصى الله ـ عَزَّوَجَلَّ ـ»(٢).

وقد دافعت عن ابنها دفاعًا مجيدًا, فانكسر الحجاج وانصرف, فبلغ ذلك عبد الملك, فكتب إليه يلومه في مخاطبته أسماء وقال: «ما لك ولابنة الرجل الصالح»(٣). وقيل: إن الحجاج دخل عليها بعد أن قتل ابنها فقال: «يا أماه إن أمير المؤمنين أوصاني بك فهل لك من حاجة؟ فقالت: لست لك بأم، إنما أنا أم المصلوب على الثنية، وما لي من حاجة، ولكن أحدثك أني سمعت رسول الله

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٣٧٨).

(٢) «البداية والنهاية» (١١/ ٢٠٩).

(٣) «المصدر السابق» (١١/ ٢٠٩).

ـ ﷺ ـ يقول: «**يخرج من ثقيف كَذَّابٌ وَمُبِيرٌ** »؛ فأما الكذاب فقد رأيناه، وأما المبير فلا أراك إلا إياه»[١].

ولما قتل ابن الزبير ارتجت مكة بكاء على عبد الله بن الزبير ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ ، فخطب الحجاج الناس فقال: «أيها الناس، إن عبد الله بن الزبير كان من خيار هذه الأمة حتى رغب في الخلافة، ونازعها أهلها، وألحد في الحرم، فأذاقه الله من عذاب أليم، وإن آدم كان أكرم على الله من ابن الزبير، وكان في الجنة، وهي أشرف من مكة، فلما خالف أمر الله وأكل من الشجرة التي نُهي عنها أخرجه الله من الجنة، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله». وقيل: إنه قال: «يا أهل مكة، بلغني إكباركم واستعظامكم قتل ابن الزبير، فإن ابن الزبير كان من خيار هذه الأمة حتى رغب في الدنيا، ونازع الخلافة أهلها فخلع طاعة الله، وألحد في حرم الله، ولو كانت مكة شيئًا يمنع القضاء لمنعت آدم حرمة الجنة وقد خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، فلما عصاه أخرجه من الجنة وأهبطه إلى الأرض، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير، وإن ابن الزبير غَيَّرَ كتاب الله. فقال له عبد الله بن عمر ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ـ: لو شئت أن أقول لك: كذبت; لقلت. والله إن ابن الزبير لم يغير كتاب الله، بل كان قوامًا به، صوامًا، عاملًا بالحق»[٢].

ثم أمر الحجاج بجثة ابن الزبير فصلبت على ثنية كداء عند الحجون، فما زالت مصلوبة حتى مر به عبد الله بن عمر ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ـ فقال: «رحمة الله عليك يا أبا خبيب، أما والله لقد كنت صوامًا قوامًا، وصولًا للرحم, أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا, أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا, أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا, والله

(١) المبير: هو الذي يسفك الدماء، ويعتدي على الناس، ويظلمهم.
(٢) «تاريخ دمشق» (١٢/ ١٢١).

لأمة أنت شرها لأمة خير»، ثم قال: «أما آن لهذا الراكب أن ينزل؟»، فبعث الحجاج فأُنزل عن الجذع[١] ودفن هناك. ولما صلب ابن الزبير ظهرت منه رائحة المسك[٢]، ودخل الحجاج إلى مكة فأخذ البيعة من أهلها لأمير المؤمنين عبد الملك ابن مروان، ولم يزل الحجاج مقيمًا بمكة حتى أقام للناس الحج عامه هذا أيضًا وهو على مكة واليمامة واليمن، وقد كتب عبد الملك إلى الحجاج بن يوسف ألا يخالف عبد الله بن عمر في الحج لما يعرفه من فضله وفقهه[٣].

ولما أجمع الناس على البيعة لعبد الملك بن مروان كتب إليه ابن عمر:
«أما بعد، فإني قد بايعت لعبد الملك أمير المؤمنين بالسمع والطاعة على سنة الله وسنة رسوله فيما استطعت، وإن بنيّ قد أقروا بذلك، وقد بلغني أن المسلمين اجتمعوا على البيعة لك، وقد دخلت فيما دخل فيه المسلمون، والسلام»[٤].

ولا شك أن مذهب أهل الحق أن ابن الزبير كان مظلومًا، وأن الحجاج ورفقته خارجون عليه، وقد ذكرنا سابقًا آراء العلماء في ذلك، وأن مروان بن الحكم وابنه عبد الملك باغين على ابن الزبير خارجين على خلافته؛ فهو أمير المؤمنين وقد انعقدت له البيعة، وكانت مدة خلافته تسع سنين، وتوفي وله اثنان وسبعون سنة.

وبهذا انتهت التوترات السياسية واستقر الأمر لعبد الملك، وسيطر على الدولة في كافة أنحائها، واستمرت الدولة الأموية دون خلافات مع أهل الحجاز، لكن الخلافات لم تنتهِ في أرض العراق. فإن قال قائل: لماذا لم يستسلم ابن الزبير - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -

(١) «البداية والنهاية» (١١/ ٢٠٩).
(٢) «الكامل في التاريخ» (٣/ ٧٤).
(٣) «صحيح البخاري، كتاب الحج» (١٦٦٣).
(٤) «الطبقات» (٤/ ١٥٢).

بعد مقتل أخيه مصعب وسيطرة عبد الملك بن مروان على بلاد الشام والعراق ومصر والحجاز، ويكون تنازله دفعًا للمفسدة الكبرى وهي سفك الدماء واستحلال الحرم، ولقد فعل ذلك الحسن - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عندما تنازل لمعاوية بن أبي سفيان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - ، وقد نال الحسن على فعله هذا الثناء من رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -.

فالجواب: نعم، كان هذا بإمكانه - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، وقد كان كثير من أصحابه يرون ذلك، ويتضح ذلك ويظهر في قول ابن عمر: «لقد كنت أنهاك عن هذا»، ولكن ابن الزبير اجتهد فأخطأ، ولعله أراد أن يتأسى في ذلك بأمير المؤمنين عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - الذي رفض التنازل عن الخلافة، ولكن عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، كان يملك النص الصريح في عدم تنازله؛ فلقد قال له رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : **«فإن نازعوك على خلعه فلا تخلعه»**، ولعله أيضًا غلب على ظنه أنه مقتول في جميع الأحوال حتى لو استسلم للحجاج[1].

---

(١) وَكَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ امْتَنَعَ أَنْ يُبَايِعَ لِابْنِ الزُّبَيْرِ أَوْ لِعَبْدِ الْمَلِكِ، كَمَا كَانَ امْتَنَعَ أَنْ يُبَايِعَ لِعَلِيٍّ أَوْ مُعَاوِيَةَ، ثُمَّ بَايَعَ لِمُعَاوِيَةَ لَمَّا اصْطَلَحَ مَعَ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ وَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ، وَبَايَعَ لِابْنِهِ يَزِيدَ بَعْدَ مَوْتِ مُعَاوِيَةَ لِاجْتِمَاعِ النَّاسِ عَلَيْهِ، ثُمَّ امْتَنَعَ مِنَ الْمُبَايَعَةِ لأحد حَال الِاخْتِلَاف إِلَى أن قتل بن الزُّبَيْرِ، وَانْتَظَمَ الْمُلْكُ كُلُّهُ لِعَبْدِ الْمَلِكِ فَبَايَعَ لَهُ حِينَئِذٍ. فتح الباري(١٣/ ١٩٥)، قلت: وكذلك فعل عبد الله بن عباس، فهو لم يبايع لابن الزبير أيضًا. وكذلك محمد بن الحنفية، يقول ابن الأثير " ثُمَّ إِنَّ ابْنَ الزُّبَيْرِ دَعَا مُحَمَّدَ ابْنَ الْحَنَفِيَّةِ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وَشِيعَتِهِ وَسَبْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا مِنْ وُجُوهِ أَهْلِ الْكُوفَةِ، - لِيُبَايِعُوهُ، فَامْتَنَعُوا وَقَالُوا: لَا نُبَايِعُ حَتَّى تَجْتَمِعَ الْأُمَّةُ. الكامل في التاريخ(٣/٣١٨).

الوفاء في أسمى معانيه:

قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: مَكَثَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ الله بْن الزُّبَيْرِ بَعْدَ قَتْلِ أَبِيهِ حَوْلاً؛ لا يَسْأَلُ أَحَدًا لِنَفْسِهِ شَيْئًا، إِلا الدُّعَاءَ لأَبِيهِ[1].

وفي النهاية نقول: إن الترجيح بين المصالح والمفاسد يختلف من شخص لآخر، ومن زمن إلى زمن، ومن مكان إلى مكان، ولكل واقع معطياته، والواقع يفرض نفسه أحيانًا. والله المستعان.

(١) الاستيعاب لابن عبد البر: (٢/٢٩٨).

الفصل الرابع

الأحداث السياسية في أرض العراق بعد مقتل عبد الله بن الزبير - رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا -

المبحث الأول

ثورة عبد الرحمن بن الأشعث عام ٨١ هـ

فهذه فتنة سياسية جديدة تقع في أرض العراق[١] في عصر الدولة الأُموية، وهي إحدى الثورات القوية التي قام بها أهل العراق، وقد قام أهل العراق بهذه الثورة على واليهم الحجاج بن يوسف، والتفوا جميعًا حول عبد الرحمن ابن الأشعث[٢] الذي تولى قيادة هذه الثورة.

(١) يقع العراق في منطقة الشرق الأوسط في القسم الغربي من قارة آسيا, يحده من الغرب: الأردن وسوريا, ومن الشمال: تركيا ومن الشرق: إيران, ومن الجنوب: الكويت والسعودية والخليج العربي. وتنحصر في أربعة مناطق رئيسية هي: الهضبة الغربية الصحراوية غرب نهر الفرات وأعالي بلاد ما بين النهرين بين نهري دجلة والفرات والمرتفعات الشمالية من كردستان العراق، والمنطقة الجنوبية السهلية وتمتد من السهل الرسوبي حول تكريت إلى الخليج العربي، والجبال في الشمال الشرقي هي امتداد لجبال الألب التي تمتد شرقًا من منطقة البلقان من خلال جنوب تركيا وشمال العراق إيران وأفغانستان وصولًا إلى النهاية في جبال الهيمالايا، والصحراء تمتد في المناطق الجنوبية الغربية والوسطى على طول الحدود مع المملكة العربية السعودية والأردن، وتكون الخصائص الجُغْرَافِيَّة للعراق مشابهة لشبه الجزيرة العربية. وتبلغ المساحة الكلية: ٤٣٤٩٢٠ كم مربع تقريبًا. مساحة اليابسة: ٤٣٢١٦٢ كم مربع تقريبًا. المياه: ٤٩١٠ كم٢. وسمّيت بذلك من عراق القربة وهو الخرز المثنّي الذي في أسفلها أي أنها أسفل أرض العرب. وقال أبو القاسم الزّجاجي: «قال ابن الأعرابي سمي عراقًا؛ لأنه سفل عن نجد ودنا من البحر». انظر: «موقع برنامج الأمم المتحدة للبيئة»، «معجم البلدان» (٤/ ٩٨)، «الموسوعة الجغرافية للوطن العربي» (ص ٣٦٢).

(٢) عبد الرحمن بن محمد الكندي كان قائدًا عسكريًّا أمويًّا من أهل الكوفة وأشرافها، وقد ضم عددًا كبيرًا من البلدان لصالح الدولة الأموية، ولد عبد الرحمن في الكوفة في بيت من أشرافها، فأبوه: محمد بن الأشعث، أحد وجوه كندة، وأمه: أم عمران بنت سعيد بن قيس الهمداني، و قد وُلِدَ مترفًا غنيًّا.

بداية الأحداث:

كان الحجاج قد أرسل جيشًا قويًّا بلغ عدده أربعين ألف مقاتل من أهل البصرة والكوفة، بقيادة عبد الرحمن بن الأشعث لقتال رُتْبِيل ملك سجستان الذي امتنع عن دفع الجزية، وبالفعل تحرك الجيش بقيادة ابن الأشعث لتأديب رُتْبِيل، وكان ذلك عام ٨٠هـ، وقد استطاع الجيش أن يحقق نصرًا عظيمًا في بلاد الترك وتمكن من السيطرة على بعض البلاد، وكان ابن الأشعث كلما فتح بلدًا عين عليها نائبًا, وأوغل جدًّا في بلاد رُتْبِيل وغنم كثيرًا من الأموال والبقر والغنم(١), ثم رأى ابن الأشعث أن يتوقف عن التوغل في تلك البلاد حتى يصلحوا ما بأيديهم من البلاد المفتوحة، وأن يقيموا في هذه البلاد حتى يتقووا إلى العام المقبل، فكتب إلى الحجاج بذلك، فكتب إليه الحجاج يستهجن رأيه في ذلك ويستضعف عقله ويصفه بالجبن والنكول عن الحرب، ويأمره حتمًا بدخول بلاد رُتْبِيل، ثم أردف ذلك بكتاب ثانٍ ثم ثالث مع البريد، وكتب في جملة ذلك: «يا ابن الحائك الغادر المرتد، امضِ إلى ما أمرتك به من الإيغال في أرض العدو وإلا حل بك ما لا يطاق». وهدده بالعزل أيضًا، وكان الحجاج يبغض ابن الأشعث ويقول: «هو أهوج أحمق حسود، وأبوه الذي سلب أمير المؤمنين عثمان ثيابه وقاتله، ودل عبيد الله بن زياد على مسلم بن عقيل حتى قتله».

وكان عبد الرحمن يشعر بأن الحجاج يبغضه، وكان يضمر للحجاج السوء ويتمنى زوال الملك عنه، وهنا غضب ابن الأشعث من كتاب الحجاج وقال: «يكتب إليَّ بمثل هذا وهو لا يصلح أن يكون من بعض جندي ولا من بعض خدمي لخوره وضعف قوته»، ثم إن ابن الأشعث جمع رءوس أهل العراق وقال لهم: «إن الحجاج قد ألح عليكم في الإيغال في بلاد العدو، وهي البلاد التي قد هلك فيها إخوانكم

---

(١) «البداية والنهاية» (٩/ ٣٥)، «تاريخ الطبري» (٦/ ٣٣٠).

بالأمس، وقد أقبل عليكم فصل الشتاء والبرد، فانظروا في أمركم أما أنا فلست مطيعه ولا أنقض رأيًا رأيته بالأمس»، ثم قام فيهم خطيبًا فأعلمهم بما كان رأى من الرأي له ولهم، وهو إصلاح البلاد التي فتحوها، وأن يقيموا بها حتى يَتَقَوُّوا بِغَلَّاتِهَا وأموالها ويخرج عنهم فصل البرد ثم يسيرون في بلاد العدو فيفتحونها بلدًا بلدًا إلى أن يحصروا رتبيل ملك الترك في مدينة العظماء، ثم طلب منهم الرأي، فثار إليه الناس فقالوا: «بل نأبى على عدو الله، ولا نسمع له ولا نطيع»[١].

ثم قاموا إلى عبد الرحمن بن الأشعث فبايعوه بدلًا من الحجاج، ولم يذكروا خلع عبد الملك بن مروان، ثم سار ابن الأشعث بالجنود الذين معه مقبلًا من سجستان إلى الحجاج ليقاتله ويأخذ منه العراق، فلما توسطوا الطريق قالوا: «إن خَلْعنا للحجاج خلع لابن مروان» فخلعوهما وجددوا البيعة لابن الأشعث، فبايعهم على كتاب الله وسنة رسوله، وخلع أئمة الضلالة وهناك من بايع ابن الأشعث بالإمارة ولم يبايعه بالخلافة لأنه من غير قريش فلا يجوز مبايعته، ومن هنا بدأت ثورة ابن الأشعث، وتعد هذه الثورة هي أخطر الثورات التي قامت على الدولة الأُموية، ثم سار الجيش في طريقه إلى العراق قاصدًا الحجّاج، فلما جاء الْخَبَرُ الْحَجّاجَ كتب إلى عبد الملك يخبره بالأمر ويطلب منه المدد ويستعجله في بعثه الجنود إليه، وجاء الحجاج حتى نزل البصرة، وكتب المهلب بن أبي صفرة[٢] إلى ابن الأشعث يقول له: «إنك يا ابن الأشعث قد وضعت رجلك في ركاب طويل، أبقِ على أمة محمد ـ ﷺ ـ، انظر إلى نفسك فلا تهلكها، ودماء المسلمين فلا تسفكها، والجماعة فلا تفرقها، والبيعة فلا

(١) «البداية والنهاية» (٩/٣٧)

(٢) هو المهلب بن أبي صفرة الأزدي (٨هـ - ٨٢هـ) وكنيته أبو سعيد، عزل الحجاج أمية بن عبد الله عن خراسان واستعمل عليها المهلب بن أبى صفرة وقد مات المهلب بها سنة اثنتين وثمانين، وكانت ولايته عليها سنة سبع وسبعين. «الثقات» لابن حبان (٥ / ٤٥١).

تنكثها، فإن قلت أخاف الناس على نفسي فالله أحق أن تخافه من الناس، فلا تعرضها لله في سفك الدماء، أو استحلال محرم والسلام عليك». وكتب المهلب إلى الحجاج: «أما بعد، فإن أهل العراق قد أقبلوا إليك مثل السيل المنحدر من علو ليس شيء يرده حتى ينتهي إلى قراره، وإن لأهل العراق شدة في أول مخرجهم، وصبابة إلى أبنائهم ونسائهم، فليس شيء يردهم حتى يصلوا إلى أهليهم وينبسطوا إلى نسائهم ويشموا أولادهم ثم واقعهم عندها، فإن الله ناصرك عليهم ـ إن شاء الله ـ»[1] ولكن لم يعر ابن الأشعث نصح المهلب أدنى اهتمام.

معركة الزاوية:

ثم أخذ عبد الملك في تجهيز الجنود من الشام إلى العراق في نصرة الحجاج وتجهيزه في الخروج إلى ابن الأشعث، وعصى رأي المهلب فيما أشار به عليه، وكان في مشورته النصح والصدق، وجعلت كتب الحجاج لا تنقطع عن عبد الملك بخبر ابن الأشعث صباحًا ومساءً، أين نزل ومن أين ارتحل، وأي الناس إليه أسرع، وجعل الناس يلتفون على ابن الأشعث من كل جانب، حتى قيل إنه سار معه ثلاثة وثلاثون ألف فارس، ومائة وعشرون ألف راجل، وقيل أكثر من ذلك، يقول ابن كثير " وَكَانَ جُمْلَةُ مَنِ اجْتَمَعَ مَعَ ابْنِ الْأَشْعَثِ مِائَةُ أَلْفِ مُقَاتِلٍ مِمَّنْ يَأْخُذُ الْعَطَاءَ، وَمَعَهُمْ مِثْلُهُمْ مِنْ مَوَالِيهِمْ"، وخرج الحجاج في جنود الشام من البصرة نحو ابن الأشعث، وقد قرر الحجاج مواجهة ابن الأشعث، ومن معه قبل دخولهم العراق، فأرسل الكتائب تلو الكتائب، ولكن لم تستطع إيقاف زحف ابن الأشعث فهزمها، وتقدم حتى دخل البصرة بعد أن خرج منها الحجّاج فارًا بنفسه ومن معه من أهل الشام، ونزل

---

(١) «تاريخ الرسل والملوك» (٦/٣٣٩).

بالزاوية[1]؛ عند ذلك أيقن الحجّاج بصدق المهلب في نصحه له فقال: «لله أبوه، أي صاحب حرب هو! أشار علينا بالرأي فلم نقبل»[2].

وفي شهر المحرم عام ٨٢هـ كانت وقعة الزاوية بين ابن الأشعث والحجاج، وكان أول يوم لأهل العراق على أهل الشام، ثم توافقوا يومًا آخر فحمل سفيان ابن الأبرد أحد أمراء أهل الشام على ميمنة ابن الأشعث فهزمها وقتل خلقًا كثيرًا من القراء من أصحاب ابن الأشعث في هذا اليوم، وخر الحجاج لله ساجدًا بعد ما كان جثى على ركبتيه وسل شيئًا من سيفه وجعل يترحم على مصعب بن الزبير ويقول: «ما كان أكرمه حتى صبر نفسه للقتل»[3]. قال الواقدي: «ولما التقى جيش الحجاج وجيش ابن الأشعث بالزاوية جعل جيش الحجاج يحمل عليهم مرة بعد مرة، فقال القراء: «أيها الناس ليس الفرار من أحد بأقبح منكم فقاتلوا عن دينكم ودنياكم». وقال سعيد بن جبير نحو ذلك، وقال الشعبي: «قاتلوهم على جورهم واستذلالهم الضعفاء وإماتتهم الصلاة»، ثم قاتلوا فانهزموا ولم يقاتلوا كثيرًا علمًا بأن هناك طائفة كبيرة من أهل العلم والصلاح قد اشتركوا في ثورة ابن الأشعث بسبب ظلم الحجاج وانتهاكه للحرمات، وهذا ما سنوضحه في الصفحات التالية بعد معركة «دير الجماجم»، وكان ابن الأشعث يحرض الناس على القتال، فلما رأى ما الناس فيه أخذ من اتبعه وانسحب، ثم رجع ابن الأشعث بمن بقي معه ومن تبعه من أهل البصرة، فسار حتى دخل الكوفة فبايعه

(١) الزاوية: لفظ يطلق على عدة أماكن، والمراد به هنا موضع قرب البصرة. «معجم البلدان» (٣/ ١٢٨).
(٢) «تاريخ الرسل والملوك» (٦/٣٤٦).
(٣) «البداية والنهاية» (٩/٤٠).

أهل الكوفة ولحق به كثير من أهل البصرة، وانضم إليه أهل المسالح[١] والثغور[٢]. وقد قيل: إن الحجاج قتل يوم الزاوية أحد عشر ألفًا[٣]، ثم كانت وقعة دير الجماجم في شعبان من نفس السنة.

معركة دَيْر الجماجم[٤]:

لما رأى أهل الشام وبنو أمية قوة ابن الأشعث أشاروا على عبد الملك بعزل الحجّاج وقالوا: «إن كان إنما يرضي أهل العراق أن تنزع عنهم الحجّاج فانزعه عنهم، تخلص لك طاعتهم، وتحقن به دماءنا ودماءهم »، فبعث عبد الملك ابنه عبد الله وأخاه محمد بن مروان بالجيش إلى العراق وأمرهما أن يعرضا على أهل العراق نزع الحجّاج عنهم، وأن يجري عليهم العطاء، وأن ينزل ابن الأشعث أي بلد شاء من العراق ويكون واليًا، فإن قبلوا ذلك نزعنا عنهم الحجّاج ويكون محمد بن مروان مكانه على العراق، وإن أبوا فالحجّاج أمير الجميع وولي القتال[٥]، ولم يكن أمر أشق على الحجّاج ولا أغيظ له ولا أوجع لقلبه من هذا الأمر، فلقد أحزنه وعزّ عليه أن يضحي به عبد الملك بن مروان بعد كل ما قدمه له من خدمات[٦]، وكتب إليه يذكره بما حدث من أهل العراق مع عثمان بن عفان ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ ، فقال له: «يا أمير المؤمنين، والله لئن أعطيت أهل العراق نزعي لا يلبثون إلا قليلًا حتى يخالفوك ويسيروا إليك، ولا يزيدهم ذلك إلا جرأة عليك»،

(١) مَسالِحُ: جمع مَسلَحة. والمَسْلَحُ: القومُ المسلَّحون في ثغرٍ أَو مخفرٍ.

(٢) «تاريخ الإسلام» (٦/ ٥).

(٣) «تاريخ الرسل» (٦/ ٣٨٠).

(٤) تقع دَيْر الجماجم على سبعة فراسخ من الكوفة من طريق البصرة.

(٥) «تاريخ الرسل والملوك» (٧/ ٢٤٥).

(٦) «العالم الإسلامي في العصر الأموي» (ص ٥١٥).

وأخذ يعدد له بعض مواقف أهل العراق، ومما قاله له: «إن الحديد بالحديد يفلح، كان الله لك فيما ارتأيت والسلام عليك». فأبى عبد الملك إلا عرض هذه الخصال على أهل العراق كما أمر، وبالفعل عرض عبد الله بن عبد الملك ومحمد بن مروان الأمر على أهل العراق، فقالوا: «ننظر في أمرنا غدًا ونرد عليكم الخبر عشية» ثم انصرفوا، فاجتمع جميع الأمراء إلى ابن الأشعث فقام فيهم خطيبًا وندبهم إلى قبول ما عرض عليهم من عزل الحجاج عنهم وبيعة عبد الملك، وإبقاء الأعطيات، وإمرة محمد بن مروان على العراق بدل الحجاج، ومما قاله لهم: «فقد أعطيتم أمرًا انتهازكم اليوم إياه فرصة، ولا آمن أن يكون على ذي الرأي غدًا حسرة»، فنفر الناس من كل جانب وقالوا: «لا والله لا نقبل ذلك، نحن أكثر عددًا، وهم في ضيق من الحال، وقد حكمنا عليهم وذلوا لنا، والله لا نجيب إلى ذلك أبدًا».

ثم جددوا خلع عبد الملك، وكان الأولى بابن الأشعث أن لا ينساق خلف لما تطلبه الجماهير، فقد ضاعت فرصة كبيرة في التخلص من الحجّاج، وكان يمكنهم رفع سقف المطالب والضغط على عبد الملك حتى يستجيب لرفع المظالم، وإقامة العدل، والتقيد بالكتاب والسُّنَّة، ولكن يبدو أن بعض القواعد الشرعية كانت غائبة عن كثير منهم، فلم يفكروا في مآلات الأمور، ولم يحسنوا الترجيح بين المصالح والمفاسد، لقد كان من الأولى أن يحافظ هؤلاء على وحدة الأمة، وعلى دماء المسلمين؛ فالشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها, وتعطيل المفاسد وتقليلها، إذن فلابد من مراعاة قاعدة: «تفويت أدنى المصلحتين لتحصيل أعلاهما». وقاعدة: «ارتكاب أخف المفسدتين لتفويت أشدهما»، وقاعدة: «اعتبار المآلات»، لكن من الواضح أن مبايعة أهل العراق لابن الأشعث جاءت في

لحظات سيطرت فيها العاطفة الثورية، ولم تكن نتيجة معرفة تامة بالواقع وموازين القوى الحقيقية، وهنا يلاحظ: أن الحماس الممزوج بالعاطفة لا يتلاءم مع منهجية التغيير الصحيحة، فلقد توحد هؤلاء وتجمعوا يرفعون بعض الشعارات الممزوجة بأحلام اليقظة، يدفعهم الحماس وتحركهم العاطفة، دون معرفة وبصيرة بحقائق الواقع ومآلات الأمور وعواقبها، ولا شك أن حلم التغيير يراود كثيرًا من المخلصين العاملين لدين الله ـ عَزَّوَجَلَّ ـ، ويتمنى هؤلاء تغيير الواقع المملوء بالظلم وانتشار المنكرات، ويتمنى هؤلاء لو حَكَّمُوا شرع الله ـ عَزَّوَجَلَّ ـ في كل شؤون الحياة، ولكن يتحتم على الجميع أن يكون على دراية كافية بمنهج التغيير الصحيح الموافق للضوابط الشرعية والقواعد التي ذكرناها آنفًا، ثم يتحتم على الحركات الإصلاحية أن تقوم بدراسة عميقة للتاريخ الإسلامي، وما حوته صفحات التاريخ من أحداث وثورات نجح بعضها وفشل البعض الآخر، فلابد من تحليل الأحداث التاريخية ودراسة أسباب النجاح والفشل؛ فلقد كانت هذه الثورة في وقت من الأوقات هي أقوى، بل وأنجح الثورات في التاريخ الأُموي، وكان بإمكان أصحابها أن يقوموا بتغيير الواقع الذي يعيشونه إلى واقع أفضل بكثير، ولكن في لحظة معينة أخطأ الثوار، وأخطأ أيضًا قائدهم فكانت النتيجة أن سلم محمد ابن مروان وعبد الله بن عبد الملك قيادة الجيوش الأموية للحجّاج وقالا: «شأنك بعسكرك وجندك فاعمل برأيك فقد أمرنا أن نسمع لك ونطيع»(١).

وبدأ الفريقان يستعدان للقتال، واجتمع أهل الكوفة وأهل البصرة وأهل الثغور والمسالح بدير الجماجم والقراء من أهل المصرين لقتال الحجاج، وجاءت الحجاج أيضًا أمداده من قِبَل عبد الملك، وخَنْدَقَ كل من الطائفتين على نفسه وحول جيشه

(١) «تاريخ الرسل» (٧/ ٢٤٦).

خندقًا يمتنع به من الوصول إليهم، غير أن الناس كان يبرز بعضهم لبعض في كل يوم فيقتتلون قتالًا شديدًا في كل حين، واشتد القتال بين الفريقين، واستمر القتال لعدة أشهر حتى حلت الهزيمة بابن الأشعث في الرابع من جمادى الآخرة سنة ٨٣هـ(١)، ثم دارت معركة أخرى بعدها في مسكن في شعبان من نفس السنة، فهزم ابن الأشعث أيضًا، ثم ولى هاربًا إلى رُتْبِيل في سجستان، ولكن الحجّاج هدد رُتْبِيل إن لم يسلم إليه ابن الأشعث ليغزون بلاده بألف ألف مقاتل، فرضخ للتهديد وعزم على تسليمه إليه، فلما أحسَ ابن الأشعث بغدر رُتْبِيل ألقى بنفسه من فوق القصر الذي كان فيه، فمات فأخذ رأسه وأرسلها إلى الحجّاج وكان ذلك سنة ٨٥هـ. وقيل: إن رتبيل أرسله مقيدًا إلى الحجاج فلما قرب ابن الأشعث من العراق، ألقى نفسه من قصر خراب أنزلوه فوقه فهلك. وقيل: إنه أُصيب بمرض السُل حتى مات فأرسل رتبيل رأسه إلى الحجاج، وهكذا انتهت حياة ابن الأشعث الذي قاد أخطر ثورة ضد عبد الملك بن مروان، أريقت فيها دماء عشرات الألوف من المسلمين(٢).

أسباب مشاركة بعض العلماء وأهل الفضل في ثورة ابن الأشعث

لقد شارك عدد كبير من أهل الفضل في ثورة ابن الأشعث، منهم العلماء، ومنهم القُراء، ومنهم العُباد والزُهاد المشهورين بكثرة التعبد، ومنهم من كان يحرض على الحجاج، ولكنه لم يخرج مع ابن الأشعث ولم يبايعه.

ويذكر «خليفة بن خياط» أن عددهم بلغ خمسمائة عالم، وقيل بل أكثر من ذلك، حتى قال العِجْلِيُّ " لَمْ يَنْجُ بِالبَصْرَةِ مِنْ فِتْنَةِ ابْنِ الأَشْعَثِ إِلاَّ مُطَرِّف بن عَبْدِ اللهِ

---

(١) «المصدر السابق» (٧/ ٢٥٤).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ١٠٤)، «تاريخ الرسل» (٧/ ٢٨٧)، «الدولَة الأمويَّة عَواملُ الازدهارِ وَتَداعيات الانهيار» (١/ ٦٤٢).

وَابْنُ سِيْرِيْنَ ؛ وَلَمْ يَنْجُ مِنْهَا بِالكُوْفَةِ إِلاَّ خَيْثَمَةُ بنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَإِبْرَاهِيْمُ النَّخَعِيُّ»(١). ولا شك أن كثيرًا من العلماء لم يشتركوا في الفتنة، ولم يقتصر الأمر على ما ذكره العجلي، وسيأتي ذكر بعض أسمائهم، ولكن كلام العجلي فيه إشارة إلى كثرة من شارك.

ولعل هذا العدد الذي ذكره خليفة، يشمل العلماء والقراء وأهل الصلاح(٢)، فقد ذكر الذهبي أن أنس بن مالك ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ الصحابي الجليل قد كان ممن يؤلب على الحجّاج ويدعو إلى الانضمام إلى ابن الأشعث(٣)، ويذكر ابن كثير أن الحجاج توهم أن أنس بن مالك كان له مداخلة في الأمر(٤)، ومن الذين شاركوا: أبو الشعثاء، سليم بن أسود المحاربي ـ رَحِمَهُٱللَّهُ ـ، فقد شارك مع ابن الأشعث، وقيل: قتل يوم الزاوية. عبد الرحمن بن أبي ليلى ـ رَحِمَهُٱللَّهُ ـ، كان من كبار المشاركين في تلك الحركة المحرضين على القتال فيها، وتوفي بوقعة الجماجم حيث اقتحم به فرسه الفرات فغرق ـ رحمه الله تعالى ـ(٥)، وكذا الإمام الشعبي ـ رَحِمَهُٱللَّهُ ـ حيث قال: «فلم أزل عنده ـ أي الحجّاج ـ بأحسن منزلة حتى كان شأن ابن الأشعث، فأتاني أهل الكوفة، فقالوا: يا أبا عمرو، إنك زعيم القراء، فلم يزالوا حتى خرجت معهم»(٦)، ومنهم سعيد بن جبير ممن شارك مع ابن الأشعث وكان يحضض على القتال، ونجا من

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ١٩٠).

(٢) «تاريخ خليفة» (ص ٢٨٦، ٢٨٧).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ١٧٩).

(٤) «البداية والنهاية» (٩/ ٨٩).

(٥) «الطبقات» (٦/ ١١٣).

(٦) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٣٢٧، ٣٣٦)، «الطبقات» (٦/ ٢٦٥).

القتل وتوارى عن الحجّاج مدة، ولكن تمكن منه عندما قبض عليه والي مكة وأرسله إليه، فقتله الحجّاج سنة ٩٤هـ(١).

وقد كان لمشاركة العلماء في هذه الحركة ـ بهذا الحجم ـ أثر كبير على الحركة، كما كان للعلماء المشاركين أثر كبير في ميدان القتال، فكانت لهم كتيبة خاصة بهم

(١) لما انهزم أصحاب الأشعث هرب فلحق بمكة فأخذه بعد مدة طويلة خالد بن عبد الله القسري، وكان والي الوليد بن عبد الملك على مكة، فبعث به إلى الحجاج. عن عمر بن سعيد قال: «دعا سعيد بن جبير حين دُعِيَ ليقتل فجعل ابنه يبكي، فقال: ما يبكيك؟ ما بقاء أبيك بعد سبع وخمسين سنة». عن الحسن قال: «لما أتى الحجاج بسعيد بن جبير قال: أنت الشقي ابن كسير؟ قال: بل أنا سعيد بن جبير. قال: بل أنت الشقي بن كسير قال: كانت أمي أعرف باسمي منك. قال: قال له الحجاج: أما والله لأبدلنك من دنياك نارًا تلظى. قال سعيد: لو علمت أن ذلك إليك ما اتخذت إلهًا غيرك. قال ما تقول في محمد؟ قال: تعني النبي ـ ﷺ ـ؟ قال: نعم. قال: سيد ولد آدم، المصطفى، خير من بقي وخير من مضى. قال: فما تقول في أبي بكر الصديق؟ قال: الصديق خليفة رسول الله ـ ﷺ ـ، مضى حميدًا وعاش سعيدًا، ومضى على منهاج نبيه ـ ﷺ ـ لم يغير ولم يبدل. قال: فما تقول في عمر؟ قال: عمر الفاروق خيرة الله وخيرة رسوله، مضى حميدًا على منهاج صاحبيه لم يغير ولم يبدل. قال: فما تقول في عثمان؟ قال: المقتول ظلمًا، المجهز جيش العسرة الحافر بئر رومة، المشتري بيته في الجنة، صهر رسول الله ـ ﷺ ـ على ابنتيه، زوجه النبي ـ ﷺ ـ بوحي من السماء. قال: فما تقول في علي؟ قال: ابن عم رسول الله ـ ﷺ ـ وأول من أسلم، وزوج فاطمة وأبو الحسن والحسين. قال: فما تقول فيَّ؟ قال: أنت أعلم بنفسك. قال: بث بعلمك قال: إذن نسوءك ولا نسرك. قال: بث بعلمك. قال لم أقتلها أحدًا قبلك ولا أقتلها أحدًا بعدك. قال: إذن تفسد علي دنياي وأفسد عليك آخرتك. قال: يا غلام السيف والنطع. فلما ولى ضحك. قال: قد بلغني أنك تضحك. قال: قد كان ذلك. قال: فما أضحكك عند القتل؟ قال: من جرأتك على الله ـ عَزَّوَجَلَّ ـ ومن حلم الله عنك. قال: يا غلام اقتله. فاستقبل القبلة فقال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فصرف وجهه عن القبلة فقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ قال: اضرب به = = الأرض. قال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ قال: اذبح عدو الله فما أنزعه لآيات القرآن منذ اليوم. فذُبح من قفاه، قال: فبلغ ذلك الحسن بن أبي الحسن البصري فقال:

تسمى: «كتيبة القراء»، وقد لقي الحجّاج وجيشه عنتًا ومشقة من كتيبة القراء، هذا وقد انضم إلى ابن الأشعث طوائف كثيرة وفئات متنوعة تحركها دوافع مختلفة، ولكن الدوافع التي حركت العلماء كانت دوافع شرعية بحسب ما وصل إليه اجتهادهم، وقد كان القاسم المشترك لكل هذه الدوافع شخصية الحجّاج الظالمة، الجائرة المتغطرسة، المتعطشة لسفك الدماء؛ ولذلك كان العلماء ينقمون على الحجّاج تعديه لأعظم الحدود في الإسلام وانتهاكه لحرماته، وتساهله في سفك الدماء، وكانوا ينقمون عليه سوء معاملته وظلمه للجميع بمن فيهم العلماء(١).

ولقد وصل الحجاج في إسرافه في القتل إلى أنه يقتل بأدنى شبهة، فقد روى أبو داود بسند صحيح عن عاصم قال: «سمعت الحجّاج يقول: اتقوا الله ما استطعتم ليس فيها مثنوية(٢)، واسمعوا وأطيعوا ليس فيها مثنوية لأمير المؤمنين

«اللّهم يا قاصم الجبابرة، اقصم الحجاج»، فما بقي إلا ثلاثًا حتى وقع في جوفه الدود فمات». وعن خلف بن خليفة، عن أبيه، قال: «شهدت مقتل سعيد بن جبير، فلما بان رأسه قال: لَا إله إلا الله، لا إله إلا الله. ثم قالها الثالثة فلم يتمها». عاش بعده خمسة عشر يومًا. وفي رواية: ثلاثة أيام. وكان يقول: «ما لي ولسعيد بن جبير؟ كلما أردت النوم أخذ برجلي». وعن عمرو ابن ميمون عن أبيه قال: «لقد مات سعيد بن جبير وما على الأرض أحد إلا وهو يحتاج إلى علمه». وفي رواية: «فكان الحجاج إذا نام يراه في المنام يأخذ بمجامع ثوبه، ويقول: يا عدو الله فيمَ قتلتني؟ فيقول الحجاج: ما لي **ولسعيد بن جبير**، ما لي ولسعيد بن جبير؟»، وكان مقتل سعيد بن جبير عام ٩٤هـ. «صفة الصفوة» (٤٨/٢)، «البداية والنهاية» (٩٧/٩).

(١) الخرعان: أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية. (ص ٥٧٧).

(٢) يعني: اسمعوا وأطيعوا بدون استثناء، ومعلوم أن السمع والطاعة لولاة الأمور فيها استثناء وليست على إطلاقها، بل ذلك في حدود طاعة الله ورسوله ـ ﷺ ـ، فيسمع له ويطاع في حدود طاعة الله ورسوله، وليس على الإطلاق. انظر: «شرح سنن أبي داود، عبد المحسن ابن حمد بن عبد المحسن بن عبد الله بن حمد العباد البدر» (٥١٩/٢٤).

عبد الملك، والله لو أمرت الناس أن يخرجوا من باب من أبواب المسجد فخرجوا من باب آخر لحلت لي دماؤهم وأموالهم، والله لو أخذت ربيعة بمضر لكان ذلك لي من الله حلالًا»[١].

وقال ابن كثير معلقًا على بعض تجاوزات الحجّاج مما يبين سبب استهانته بالقتل: «فإن الحجّاج كان عثمانيًّا أمويًّا، يميل إليهم ميلًا عظيمًا، ويرى خلافهم كفر، ويستحل بذلك الدماء ولا تأخذه في ذلك لومة لائم». وقال في موضع آخر: «أعظم ما نقم عليه وصح من أفعاله سفك الدماء وكفى به عقوبة عند الله ـ عَزَّوَجَلَّ ـ »[٢].

وقد أنكر العلماء على الحجّاج هذا الإسراف في القتل، فروي عن الإمام عبد الرحمن بن أبي نعم أنه قال للحجّاج: «لا تسرف في القتل إنه كان منصورًا، فقال الحجّاج: والله لقد هممت أن أروي الأرض من دمك. فقال: إن من في بطنها أكثر ممن في ظهرها»[٣]، وكان جواب سعيد بن جبير للحجّاج عندما سأله عن رأيه فيه فقال: «نعم، ظهر منك جور في حد الله، وجرأة على معاصيه بقتلك أولياء الله»[٤].

ومن تجاوزات الحجّاج: تطاوله على أصحاب رسول الله ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ، وسوء تعامله مع العلماء، فلقد تجاوز في معاملته مع ابن عمر، وابن الزبير، وأسماء بنت الصديق ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ جميعًا ـ، ومن ذلك: تطاوله على عبد الله بن مسعود وهو متوفي ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ، فعن الصلت بن دينار قال: «سمعت الحجاج على منبر واسط يقول: عبد الله بن مسعود رأس المنافقين، لو أدركته لأسقيت الأرض من دمه». قال:

---

(١) «سنن أبي داود» (٤/ ٢١٠)، وصححه الألباني.

(٢) «البداية والنهاية» (١٢/ ٥٠٧ إلى ٥٥٤).

(٣) «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» (٦/ ٧٠).

(٤) «صفة الصفوة» (٣/ ٤٥).

«وسمعته على منبر واسط وتلا هذه الآية: ﴿وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ [ص: ٣٥] قال: والله إن كان سليمان لحسودًا». وهذه جراءة عظيمة تفضي به إلى الكفر: قبحه الله وأخزاه، وأبعده وأقصاه[١].

وقد رُوِيَ أن الحجاج أرسل إلى سهل بن سعد ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ يريد إذلاله في سنة أربع وسبعين، فقال: «ما منعك من نصر أمير المؤمنين عُثْمان؟ قال: قد فعلت.

(١) «البداية والنهاية» (١٢٩/٩). قال ابن كثير ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: «كان ناصبيًّا يبغض عليًّا وشيعته في هوى آل مروان بني أمية، وكان جبارًا عنيدًا، مقدامًا على سفك الدماء بأدنى شبهة. وقد روي عنه ألفاظ بشعة شنيعة ظاهرها الكفر، فإن كان قد تاب منها وأقلع عنها، وإلا فهو باقٍ في عهدتها، ولكن قد يخشى أنها رويت عنه بنوع من زيادة عليه، فإن الشيعة كانوا يبغضونه جدًّا لوجوه، وربما حرفوا عليه بعض الكلم، وزادوا فيما يحكونه عنه بشاعات وشناعات، وقد روينا عنه أنه كان يتدين بترك المسكر، وكان يكثر تلاوة القرآن، ويتجنب المحارم، ولم يشتهر عنه شيء من التلطخ بالفروج، وإن كان متسرعًا في سفك الدماء، فالله ـ تعالى ـ أعلم بالصواب وحقائق الأمور وساترها، وخفيات الصدور وضمائرها». وقال أيضًا: «وأعظم ما نقم عليه وصح من أفعاله سفك الدماء، وكفى به عقوبة عند الله ـ عَزَّوَجَلَّ ـ، وقد كان حريصًا على الجهاد وفتح البلاد، وكان فيه سماحة بإعطاء المال لأهل القرآن، فكان يعطي على القرآن كثيرًا، ولما مات لم يترك فيما قيل إلا ثلاثمائة درهم وكانت فيه شهامة عظيمة، وقد ذهب جماعة من الأئمة إلى كفره. وإن كان أكثر العلماء لم يروا كفره، وكان بعض الصحابة: كأنس، وابن عمر يصلون خلفه، ولو كانوا يرونه كافرًا لم يصلوا خلفه. فعن قتادة قال: قيل لسعيد بن جبير: خرجت على الحجاج؟ قال: إني والله ما خرجت عليه حتى كفر. وقال الأعمش: اختلفوا في الحجاج فسألوا مجاهدًا فقال: تسألون عن الشيخ الكافر. وقال الشعبي: الحجاج مؤمن بالجبت والطاغوت كافر بالله العظيم. وقال القاسم بن مخيمرة: كان الحجاج ينقض عرى الإسلام. وعن عاصم بن أبي النجود قال: ما بقيت لله ـ تعالى ـ حرمة إلا وقد انتهكها الحجاج» «البداية والنهاية» (١٥٣/٩-١٤٣-١٣٨). قلتُ: والذي يظهر من كلام ابن كثير ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ، أن من كفروا الحجاج كفروه بسبب بعض أقواله الشنيعة التي يكفر قائلها، وليس بسبب سفكه للدماء. والله أعلم.

قال: كذبت، ثم أمر به فخُتم[١] فِي عنقه»، وخُتم أيضًا فِي عنق أنس حتى ورد كتاب عَبد المَلِك فيه[٢]، وخُتم فِي يد جابر بن عبد الله؛ لأنه لم يمد يده إليه في السلام، فكان يريد إذلالهم بذلك وأن يجتنبهم الناس ولا يسمعوا منهم[٣]، هذا فضلًا عن تأخيره للصلاة عن وقتها، ومع تأخيره الصلاة فهو لا يقبل تنبيه أحد من العلماء أو إبداء النصح له في ذلك، وهذا مأخذ آخر أخذه العلماء على الحجّاج؛

(١) وهذا الختم جاء في بعض الروايات أنه عبارة عن خيط فيه رصاص. انظر: كتاب «المحن» لأبي العرب التميمي (ص ٣٣٤). ويحتمل أن يكون المراد به هو «الوسم»، والوسم في اللغة هو الكي بحديدة تترك أثر علامة، أو كتابة على مكان الكيّ.

(٢) قال حنبل بن إسحاق: «ثنا أبو عبد الله الرقاشي، ثنا جعفر بن سليمان، ثنا علي بن يزيد، قال: كنت في القصر مع الحجاج وهو يعرض الناس ليالي ابن الأشعث، فجاء أنس بن مالك، فقال الحجاج: هي يا خبيث جوال في الفتن، مرة مع علي، ومرة مع ابن الزبير، ومرة مع ابن الأشعث، أما والذي نفس الحجاج بيده لأستأصلنك كما تستأصل الصمغة، ولأجردنك كما تجرد الضب. قال: يقول أنس: إياي يعني الأمير؟ قال: إياك أعني، أصم الله سمعك، قال: فاسترجع أنس، وشغل الحجاج، فخرج أنس فتبعناه إلى الرحبة، فقال: لولا أني ذكرت ولدي - وفي رواية لولا أني ذكرت أولادي الصغار - وخفته عليهم ما باليت أي قتل أقتل، ولكلمته بكلام في مقامي هذا لا يتسخفني بعده أبدًا. وقد ذكر أبو بكر بن عياش: أن أنسًا بعث إلى عبد الملك يشكو إليه الحجاج ويقول: والله لو أن اليهود والنصارى رأوا من خدم نبيهم لأكرموه، وأنا قد خدمت رسول الله عشر سنين. كتب عبد الملك إلى الحجاج كتابًا فيه كلام جد وفيه: إذا جاءك كتابي هذا فقم إلى أبي حمزة فترضّاه، وقبل يده ورجله، وإلا حل بك مني ما تستحقه. فلما جاء كتاب عبد الملك إلى الحجاج بالغلظة والشدة، همَّ أن ينهض إليه فأشار عليه إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر، الذي قدم بالكتاب ألا يذهب إلى أنس، وأشار على أنس أن يبادر إلى الحجاج بالمصالحة. «البداية والنهاية» (٩/٩١).

(٣) «تهذيب الكمال في أسماء الرجال» (١٢/٢٩٠)، لكن هذه الروايات لا يمكن الجزم بصحتها، فأكثر كتب التاريخ تنقلها عن الواقدي، والواقدي وإن كان يستأنس به في الروايات التاريخية إلا أنه ليس بثقة؛ فروايته ليست بحجة. قال الذهبي - رحمه الله تعالى -: «وقد تقرر أن الواقدي ضعيف، يحتاج إليه في الغزوات والتاريخ، ونورد آثاره من غير احتجاج؛ إذ قد انعقد الإجماع اليوم على أنه ليس بحجة، وأن حديثه في عداد الواهي - رَحِمَهُ ٱللَّهُ -» انتهى من «سير أعلام النبلاء» (٩ / ٤٦٩)، ولكن لا يُستبعد حصولها؛ لأنها لا تتعارض مع ما اشتهر عن الحجاج من الجرأة على الدماء، وظلمه وبغيه، وعدم احترامه وتوقيره للعلماء.

وهو عدم قبوله لقيامهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبهذا يتضح لماذا شارك بعض العلماء والفقهاء والقراء في ثورة ابن الأشعث، وإن كان بداية الفتنة سببها الخلاف الذي حدث بين الحجاج وابن الأشعث حول التوغل في بلاد الترك، إلا أن ظلم الحجاج وبغيه هو الأصل الذي تحركت الجماهير من أجله.

معارضة بعض العلماء لثورة ابن الأشعث:

هناك طائفة أخرى من العلماء عارضوا الثورة واعتزلوها ولم يروا المشاركة فيها، ومن أبرز هؤلاء: أبو الشعثاء جابر بن زيد الأزدي، وأبو قلابة الجرمي، فلم يشارك وكان يعتب على غيره ممن شارك، ومنهم: إبراهيم النخعي؛ فلم يشارك، وكان يعيب على سعيد بن جبير مشاركته فيها. وقد قيل له: «أين كنت يوم الزاوية؟ قال: في بيتي. قالوا: فأين كنت يوم الجماجم؟ قال: في بيتي. قالوا: فإن علقمة شهد صفين مع علي. فقال: بخ بخ من لنا مثل علي بن أبي طالب ورجاله»، وممن لم يشارك في حركة ابن الأشعث: أيوب السختياني. ومنهم: طلق ابن حبيب، فكان معتزلًا الفتنة وكان يقول: «اتقوها بالتقوى». ومنهم: مطرف ابن عبد الله الشخير؛ فقد امتنع عن المشاركة في هذه الفتنة، وحين جاءه ناس يدعونه للمشاركة امتنع، فلما أكثروا عليه قال: «أرأيتم هذا الذي تدعوني إليه، هل يزيد على أن يكون جهادًا في سبيل الله؟ قالوا: لا. قال: فإني لا أخاطر بين هلكة أقع فيها وبين فضل أصيبه»، ومنهم: مجاهد بن جبر، ويقال: ابن جبير، فإنه لم يشارك وحين دعي للمشاركة قال لمن دعاه: «عُده بابًا من أبواب الخير تخلفت عنه»، ومنهم: خيثمة بن عبد الرحمن الجعفي، ومحمد بن سيرين، ويُعد الحسن البصري واحدًا من العلماء الثقات الذين عايشوا هذه الفتنة، لكنه كان يدعو إلى جمع الكلمة وتوحيد الصف، وينهى عن الإثارة والفرقة، ويدعو إلى السمع والطاعة

للولاة، وكان يرى وجوب الموازنة بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ووحدة الجماعة.

ولقد عاصر الحسن البصري معظم فترات الحكم الأموي، وتأثر بالواقع السياسي في هذه الفترة، فأصبح يمثل مدرسة سياسية في عصره، فهو يرى أن حكم بني أمية فيه ظلم وجور، ولكنهم في نفس الوقت يملكون القوة العسكرية، وموازين القوى في صالحهم، كما أن الفئة الراغبة في التغيير والشاكية من الظلم، ينقصها التنظيم والإعداد والقوة والصبر، ويرى أن الذين يحملون راية الخروج على حكم بني أمية إما مخلص لدينه، ولكنه لا يصلح للحكم ولا يقدر على إحداث التغيير، وإما رجال يستخدمون الدين والدعوة للتغيير لأغراض دنيوية، منها حبهم للسلطة والحكم، فليسوا بأحسن حال من الأمويين، وكان إذا قيل له: «ألا تخرج فتغير» فكان يقول: «إن الله إنما يغير بالتوبة ولا يغير بالسيف»، ومن أقواله: «يا أيها الناس إنه والله ما سلط الله عليكم الحجّاج إلا عقوبة، فلا تعارضوا عقوبة الله بالسيف، ولكن عليكم بالسكينة والتضرع». وقدم عليه جماعة من العلماء يناقشونه في الخروج مع ابن الأشعث على الحجّاج، ويحاولون إقناعه بالخروج مع ابن الأشعث على الحجّاج، ولكنه رفض الخروج وقال: «أرى ألا تقاتلوه، فإنها إن تكن عقوبة من الله؛ فما أنتم برادي عقوبة الله بأسيافكم»، ولكنهم لم يسمعوا كلامه ولم يأخذوا برأيه، فخرجوا مع ابن الأشعث فقتلوا جميعًا[1].

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٧٥)، «الطبقات الكبرى» (٧/ ١٧٢)، «موسوعة فقه الحسن البصري» (١/ ١١).

وهكذا اجتهد العلماء في الخروج، فمنهم من أصاب ومنهم من أخطأ، وقد ترتب على فشل ثورة ابن الأشعث ازدياد ظلم الحجاج وبطشه(١).

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «منهاج السنة»: «وأما أهل الحرة، وابن الأشعث، وابن المهلب وغيرهم فهُزموا وهُزم أصحابهم، فلا أقاموا دينًا ولا أبقوا دنيا. والله ـ تعالى ـ لا يأمر بأمر لا يحصل به صلاح الدين ولا صلاح الدنيا، وإن كان فاعل ذلك من أولياء الله المتقين ومن أهل الجنة، فليسوا أفضل من علي وعائشة وطلحة والزبير وغيرهم، ومع هذا لم يُحمد ما فعلوه من القتال، وهم أعظم قدْرًا عند الله وأحسن نية من غيرهم» اهـ. وَعَن أبي الحارث قَالَ: «سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ فِي أَمْرٍ كَانَ حَدَثَ بِبَغْدَادَ، وَهَمَّ قَوْمٌ بِالْخُرُوجِ، فَقُلْتُ: «يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، مَا تَقُولُ فِي الْخُرُوجِ مَعَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ، فَأَنْكَرَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَجَعَلَ يَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ، الدِّمَاءَ، الدِّمَاءَ، لَا أَرَى ذَلِكَ، وَلَا آمُرُ بِهِ، الصَّبْرُ عَلَى مَا نَحْنُ فِيهِ خَيْرٌ مِنَ الْفِتْنَةِ يُسْفَكُ فِيهَا الدِّمَاءُ، وَيُسْتَبَاحُ فِيهَا الْأَمْوَالُ، وَيُنْتَهَكُ فِيهَا الْمَحَارِمُ، أَمَا عَلِمْتَ مَا كَانَ النَّاسُ فِيهِ، يَعْنِي أَيَّامَ الْفِتْنَةِ، قُلْتُ: وَالنَّاسُ الْيَوْمَ، أَلَيْسَ هُمْ فِي فِتْنَةٍ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ؟ قَالَ: وَإِنْ كَانَ، فَإِنَّمَا هِيَ فِتْنَةٌ خَاصَّةٌ، فَإِذَا وَقَعَ السَّيْفُ عَمَّتِ الْفِتْنَةُ، وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، الصَّبْرَ عَلَى هَذَا، وَيَسْلَمُ لَكَ دِينُكَ خَيْرٌ لَكَ» «السنة» للخلال (١/١٣٢). وقال ابن عبد البر ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ: «فَالصَّبْرُ عَلَى طَاعَةِ الْإِمَامِ الْجَائِرِ أَولَى مِنَ الْخُرُوجِ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ فِي مُنَازَعَتِهِ وَالْخُرُوجِ عَلَيْهِ اسْتِبْدَالَ الْأَمْنِ بِالْخَوْفِ وَإِرَاقَةَ الدِّمَاءِ، وَانْطِلَاقَ أَيْدِي الدَّهْمَاءِ، وَتَبْيِيتَ الْغَارَاتِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَالْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ، وَهَذَا أَعْظَمُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى جَوْرِ الجائر. وروى عبد الرحمن بن هدي عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ قال: قال ابن عُمَرَ حِينَ بُويِعَ لِيَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ: إِنْ كَانَ خَيْرٌ رَضِينَا، وَإِنْ كَانَ بَلَاءٌ صَبَرْنَا» اهـ. إذن فإن مسألة خلع السلطان تدور حول اعتبار المصالح والمفاسد، فلابد من النظر في مثل هذه الأمور إلى عدة مسائل، منها: أمر المصلحة والمفسدة، ومنها: أمر القدرة والعجز، ومنها: اعتبار الضرر الخاص والضرر المتعدي؛ فلو وجد منكر فلا يجوز إزالته بمنكر أعظم، وذلك لأن المقصود إزالة منكرات الشرع كلها، والله ـ عَزَّوَجَلَّ ـ لا يحب الفساد ولا يحب المفسدين. فإذا ترتب على إنكار منكر فساد أعظم كان ذلك مما لا يحبه الله ـ عَزَّوَجَلَّ ـ ، والموازنة بين المصالح والمفاسد إنما تكون بميزان الشريعة، ولا شك أن سفك الدماء المعصومة مع بقاء المنكرات كما هي، فيه عدم تقدير للمصالح والمفاسد، والقدرة والعجز. قال شيخ الإسلام: «وَقَلَّ مَنْ خَرَجَ عَلَى إِمَامٍ ذِي سُلْطَانٍ إِلَّا كَانَ مَا تَوَلَّدَ عَلَى فِعْلِهِ مِنَ الشَّرِّ أَعْظَمَ مِمَّا تَوَلَّدَ مِنَ الْخَيْرِ». ومعنى على =

ولذلك نؤكد على أن مسألة المشاركة في مثل هذه المواقف، من مسائل الاجتهاد، فهي مسألة اجتهادية، ليس فيها مخالفة للنصوص أو الإجماع أو القياس الجلي، حيث أن المسائل السياسية مبناها على الاجتهاد، ولكن ينبغي على العلماء ألا تحركهم العاطفة، ولكن تحركهم الضوابط الشرعية، فما أحوجنا إلى دراسة التاريخ، لاسيما في أوقات الفتن. والله المستعان.

أسباب فشل ثورة ابن الأشعث:

لا يختلف اثنان في أن ثورة ابن الأشعث كانت من أخطر الثورات التي قامت ضد بني أمية، ولقد حققت هذه الثورة في البداية أهدافها ـ كما ذكرنا سابقًا ـ ، ولكن انتهت بالفشل بعد عدم قبول العروض المقدمة من عبد الملك بن مروان.

ومن أهم أسباب فشلها ما يلي:

١- رفع سقف المطالب من المطالبة بعزل أو خلع الحجاج بن يوسف إلى خلع أمير المؤمنين عبد الملك نفسه، وهنا لم يتمكن العلماء من السيطرة على مسار تلك الحركة بعد أن عرض عبد الملك على الثائرين عزل الحجّاج.

٢- تقديم المصلحة الخاصة على المصلحة العامة، فكانت هناك بعض الدوافع المذهبية والإقليمية، هي التي دفعت البعض إلى القيام بالثورة للتخلص من بني أمية.

٣- عدم امتلاك قادة الثورة لرؤية واضحة متكاملة، فقد أصبح العلماء يسيرون في طريق غير واضح المعالم، سوى تحقيق الانتصار على جيوش الأُمويين.

ولكن ماذا بعد؟ من سيتولى أمر الأمة؟ هل سيستسلم أهل الشام؟

وماذا عن بقية الأقطار الإسلامية التابعة للخلافة الأموية؟

وماذا عن القوة العسكرية والجيوش التابعة لبني أمية؟

كل هذه الأسئلة وغيرها لم تُدرس دراسة متأنية، بل لعلها لم تدرس أصلًا!

٤- ذكاء الخليفة عبد الملك، فهو يعرض حلولًا للصلح، ويُلبي طلب أهل العراق في عزل الحجّاج من أجل حقن الدماء والحفاظ على وحدة الأمة، وفي ذات الوقت يقوم بإرسال الجيوش إلى العراق للحجّاج، وهنا يظهر دور الخليفة وفطنته فهو يوافق على عزل الحجّاج حينًا، ويُرسل له الجيوش حينًا آخر، فكانت سياسة عبد الملك قائمة على أصولٍ من الفهم الكامل، ووضعِ خُططٍ بعيدة المدى.

٥- عدم وجود كيان قوي مُنظم متكامل يتحكم في توجيه الثوار وفق الأهداف المرسومة، يجمع بين ابن الأشعث والعلماء وقادة الجماهير، لقد قام ابن الأشعث خطيبًا في الجماهير وندبهم إلى قبول ما عُرض عليهم من عزل الحجاج عنهم وبيعة عبد الملك وإبقاء الأعطيات وإمرة محمد بن مروان على العراق بدل الحجاج، ومما قاله لهم: «فقد أعطيتم أمرًا انتهازكم اليوم إياه فرصة، ولا آمن أن يكون على ذي الرأي غدًا حسرة»، فنفر الناس من كل جانب وقالوا: «لا والله لا نقبل ذلك، نحن أكثر عددًا، وهم في ضيق من الحال وقد حكمنا عليهم وذُلُّوا لنا، والله لا نجيب إلى ذلك أبدًا»، ثم جددوا خلع عبد الملك، وكان الأولى بابن الأشعث أن لا ينساق خلف ما تطلبه الجماهير.

٦ - ضعف تأثير العلماء على مجريات الأمور والأحداث، وإنما الأمر كان بيد ابن الأشعث فقط الذي كان لا يملك بعض صفات القيادة اللازمة؛ لذا لم يستطع أن يقود جيشه كما يريد، بل انقاد لعواطف ومشاعر الجنود والجماهير، ثم وقع في شباك رتبيل وباعه للحجّاج، وهذا بلا شك يختلف تمامًا عن أحوال أهل الشام، على مستوى القادة والجنود.

النتائج المترتبة على فشل ثورة عبد الرحمن بن الأشعث:

١ - ازدياد ظلم الحجّاج وبطشه:

لقد ترتب على فشل ثورة ابن الأشعث نتائج خطيرة، منها: ازدياد ظلم الحجاج وبطشه، واشتد أكثر في تضييقه على العلماء؛ فقتل من قتل منهم، وسجن من سجن منهم، وهرب منه من استطاع.

٢- نَدَمْ الكثير من العلماء على مشاركتهم في الثورة:

لقد نَدَمَ كثير من العلماء المشاركين في ثورة ابن الأشعث؛ فهذا طلحة بن مصرف يقول: «شهدت الجماجم، فما رميت، ولا طعنت، ولا ضربت، ولوددت أن هذه سقطت هنا ولم أكن شهدتها»(١).

وعن محمد بن طلحة قال: «رآني زبيد اليامي مع العلاء بن عبد الكريم ونحن نضحك فقال: لو شهدت الجماجم ما ضحكت، ولوددت أن يدي ـ أو قال يميني ـ قطعت من العضد وأني لم أكن شهدت»(٢)، كما ندم عقبة بن عبد الغافر على مشاركته في القتال كذلك، وغيرهم من العلماء، فعَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنْ أَبِي قِلابَةَ، قَالَ: لَمَّا انْجَلَتْ فِتْنَةُ ابْنِ الأَشْعَثِ كُنَّا فِي مَجْلِسٍ وَمَعَنَا مُسْلِمُ بْنُ يَسَارٍ، فَقَالَ مُسْلِمٌ: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْجَانِي مِنْ هَذِهِ الْفِتْنَةِ، فَوَاللَّهِ مَا رَمَيْتُ فِيهَا بِسَهْمٍ، وَلا طَعَنْتُ فِيهَا بِرُمْحٍ، وَلا ضَرَبْتُ فِيهَا بِسَيْفٍ؛ قَالَ أَبُو قِلابَةَ: فَقُلْتُ لَهُ: فَمَا ظَنُّكَ يَا مُسْلِمُ بِجَاهِلٍ نَظَرَ إِلَيْكَ؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا قَامَ مُسْلِمٌ هَذَا الْمَقَامَ إِلا وَهُوَ يَرَاهُ عَلَيْهِ

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ١٩٢).

(٢) «تاريخ خليفة» (ص ٢٨٧).

حَقًّا، فَقَتَلَ أَوْ قُتِلَ؛ قَالَ: فَبَكَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنْ لا أَكُونَ قُلْتُ لَهُ شَيْئًا (١)". اهـ

٣- علو منزلة العلماء القائلين بعدم الخروج:

لقد علت منزلة العلماء الذين اعتزلوا تلك الفتنة ولم يشاركوا فيها، وقد ظهر أنهم كانوا على الحق، عندما امتنعوا عن المشاركة، بل وحرضوا الناس على ذلك أيضًا، فعن ابن عون قال: «كان مسلم بن يسار أرفع عند أهل البصرة من الحسن حتى خف مع ابن الأشعث وكف الحسن، فلم يزل أبو سعيد ـ يعني الحسن ـ في علو منها»(٢).

٤- وضوح منهج التغيير الصحيح:

لقد أوضحت حركة ابن الأشعث بعد أحداثها المؤلمة: ما هو السبيل الأمثل للتغيير؟ فهناك من كان يرى استخدام القوة وحمل السيف لتغيير الجور والظلم الواقع من بعض الولاة، ولا يرى سبيلًا غير ذلك، ولكن بعد أن انتهت الثورة وقُتل من قُتل، وفَرَّ مَنْ فَرْ، اتضحت الرؤية الصحيحة؛ ولذلك قال ابن تيمية عقب الحديث عمَّا حدث من فتن وقعت باجتهاد من بعض أهل العلم والصلاح: كخروج الحسين بن علي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ ، وفتنة خروج أهل المدينة، ووقعة الحرّة، وفتنة ابن الأشعث ـ قال: «ولهذا استقر مذهب أهل السُّنَّة على ترك القتال في

---

(١) إسناده صحيح، أخرجه عبد الرزاق في مصنفه.

(٢) «الطبقات الكبرى» (٧/ ١٦٥).

الفتنة للأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي - ﷺ -، وصاروا يذكرون هذا في عقائدهم، ويأمرون بالصبر على جَوْرِ الأئمة وترك قتالهم»(١).

---

(١) «منهاج السنة» (٤/ ٥٢٩، ٥٣٠).

المبحث الثاني

ثورة يزيد بن المهلب[(١)] عام ١٠٢ هـ

هذه فتنة سياسية جديدة، وثورة مسلحة وقعت أيضًا في أرض العراق في عصر الدولة الأموية، تبدأ فيها الأحداث بسبب خلاف وقع بين يزيد بن المهلّب، والحجّاج بن يوسف، ولقد ولي يزيد بن المهلّب خراسان بعد وفاة أبيه المهلب ابن أبي صفرة (سنة ٨٣هـ -٧٠٢م)، فمكث نحوًا من ست سنين ثم عزله عبد الملك ابن مروان برأي الحجاج أمير العراقيين في ذلك العهد، وكان الحجاج يخشى بأسه[(٢)]، فلما تم عزله قام الحجاج بحبسه، وظل في الحبس مدة ثم استطاع الهرب

(١) ولد عام ٥٣هـ في خلافة معاوية، ولي المشرق بعد أبيه، ثم ولي البصرة لسليمان بن عبد الملك، ثم عزله عمر بن عبد العزيز بعدي بن أرطاة، وطلبه عمر وسجنه، وكان الحجاج مزوجًا بأخته، وكان يدعو: «اللّهم إن كان آل المهلب براء فلا تسلطني عليهم ونجهم»، وله أخبار في السخاء والشجاعة. قيل: هرب يزيد من الحبس فمر بغريب في البرية فقال لغلامه: «استسقنا منهم لبنًا فسقوه» فقال: «أعطهم ألفًا». قال: «إن هؤلاء لا يعرفونك». قال: «لكني أعرف نفسي». قال شعبة بن الحجاج: «سمعت الحسن البصري يقول في فتنة يزيد بن المهلب: هذا عدو الله يزيد ابن المهلب، كلما نعق بهم ناعق اتبعوه» «تاريخ دمشق» (٤١٩/٧٤).

(٢) قيل في سبب عزله: إن الحجاج وفد إلى عبد الملك، فمر في منصرفه بدير فنزله، فقيل له: «إن في هذا الدير شيخًا من أهل الكتب عالمًا، فدعا به فقال: يا شيخ، هل تجدون في كتبكم ما أنتم فيه ونحن؟ قال: نعم، نجد ما مضى من أمركم وما أنتم فيه وما هو كائن، قال: أفمسمى أم موصوفًا؟ قال: كل ذلك موصوف بغير اسم، واسم بغير صفة. قال: فما تجدون صفة أمير المؤمنين؟ قال: نجده في زماننا الذي نحن فيه، ملك أقرع، من يقم لسبيله يصرع، قال: ثم من؟ قال: اسم رجل يقال له الوليد، قال: ثم ماذا؟ قال: رجل اسمه اسم نبي يفتح به على الناس، قال: أفتعرفني؟ قال: قد أخبرت بك. قال: أفتعلم ما ألي؟ قال: نعم، قال: فمن يليه بعدي؟ قال: رجل يقال له يزيد، قال: في حياتي أم بعد موتي؟ قال: لا أدري، قال: أفتعرف صفته؟ قال: يغدر غدرة، لا أعرف غير هذا. قال: فوقع في نفسه يزيد بن المهلب»، وارتحل فسار سبعًا وهو=

إلى الشام ليحتمي بجوار سليمان بن عبد الملك، فولاه الأخير بعد موت الحجاج العراق ثم خراسان، فعاد إليها وافتتح جرجان وطبرستان ثم نقل إلى إمارة البصرة، فأقام فيها إلى أن استخلف عمر بن عبد العزيز، فعزله عمر عن إمارة خراسان وأمر بالقبض عليه، ولما مثل يزيد بن المهلب بين يدي عمر، سأله عمر عن الأموال التي كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك ثم قال له: «ما أجد في أمرك إلا حبسك، فاتقِ الله وَأَدِّ ما قبلك، فإنها حقوق المسلمين، ولا يسعني تركها»، ثم أمر بحبسه في السجن،

= وجل من قول الشيخ، وقدم فكتب إلى عبد الملك يستعفيه من العراق، فكتب إليه: «يا ابن أم الحجاج، قد علمت الذي تغزو، وأنك تريد أن تعلم رأيي فيك، ولعمري إني لأرى مكان نافع بن علقمة، فاله عن هذا حتى يأتي الله بما هو آتٍ قال فبينا الحجاج يومًا خال إذ دعا عبيد بن موهب، فدخل وهو ينكت في الأرض، فرفع رأسه فقال: ويحك يا عبيد! إن أهل الكتب يذكرون أن ما تحت يدي يليه رجل يقال له يزيد، وقد تذكرت يزيد بن أبي كبشة، ويزيد بن حصين بن نمير، ويزيد ابن دينار، فليسوا هناك، وما هو إن كان إلا يزيد بن المهلب، ثم كتب إلى عبد الملك يذم يزيد وآل المهلب بالزبيرية، فكتب إليه عبد الملك: إني لا أرى نقصًا بآل المهلب طاعتهم لآل الزبير، بل أراه وفاء منهم لهم، وإن وفاءهم لهم يدعوهم إلى الوفاء لي، فكتب إليه الحجاج يخوفه غدرهم لما أخبره به الشيخ؛ فكتب إليه عبد الملك: قد أكثرت في يزيد وآل المهلب، فسم لي رجلًا يصلح لخراسان، فسمى له مجاعة بن سعر السعدي، فكتب إليه عبد الملك: إن رأيك الذي دعاك إلى استفساد آل المهلب هو الذي دعاك إلى مجاعة بن سعر، فانظر لي رجلًا صارمًا، ماضيًا لأمرك، فسمى قتيبة بن مسلم، فكتب إليه: ولّه وبلغ يزيد ان الحجاج نزله، فقال لأهل بيته: من ترون الحجاج يولي خراسان؟ قالوا: رجلًا من ثقيف، قال: كلا، ولكنه يكتب إلى رجل منكم بعهده، فإذا قدمت عليه عزله وولى رجلًا من قيس، وأخلق بقتيبة! قال: فلما أذن عبد الملك للحجاج في عزل يزيد كره أن يكتب إليه بعزله، فكتب إليه أن استخلف المفضل وأقبل فاستشار يزيد حضين ابن المنذر، فقال له: أقم واعتل، فإن أمير المؤمنين حسن الرأي فيك، وإنما أتيت من الحجاج، فإن أقمت ولم تعجل رجوت أن يكتب إليه أن يقر يزيد، قال: إنا أهل بيت بورك لنا في الطاعة، وأنا أكره المعصية والخلاف، فأخذ في الجهاز، وأبطأ ذلك على الحجاج، فكتب إلى المفضل: إني قد وليتك خراسان» «تاريخ الرسل» (٦/ ٣٩٥).

فقد كان عمر بن عبد العزيز يتحسس أخبار ولاته ويراقبهم ويحاسبهم على تقصيرهم، ثم هرب يزيد من السجن في مرض عمر، وقد قال عمر بن عبد العزيز ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ: «اللّهم إن كان يريد بهذه الأمّة شرّه، فاكفهم شره، واردد كيده في نحره»[١].

ولما تولى يزيد بن عبد الملك بن مروان الخلافة خرج يزيد بن المهلّب وخلع بيعته، واستولى على البصرة، فجهّز يزيد بن عبد الملك لقتاله جيشًا بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك، وانتهى إليه مسلمة بن عبد الملك في جنود لا قبل ليزيد بها، فجمع يزيد بن المهلّب جموعًا كبيرة، والتقى الطرفان بالعقر[٢] من أرض بابل، ودارت بينهما معركة رهيبة دامت ثمانية أيّام، فهزم أهلُ البصرة أهلَ الشام، ثم اشتد أهل الشام فحملوا على أهل البصرة فهزموهم وقتلوا منهم جماعة، وكان مع يزيد نحو من مائة ألف وعشرين ألفًا، وقد بايعوه على السمع والطاعة، وعلى كتاب الله وسنة رسوله ـ ﷺ ـ، وعلى ألا يطأ الجنود بلادهم، وعلى ألا تعاد عليهم سيرة الفاسق الحجاج، ومن بايعنا على ذلك قبلنا منه، ومن خالفنا قاتلناه.

وكان الحسن البصري في هذه الأيام يحرض الناس على الكف وترك الدخول في الفتنة، وينهاهم أشد النهي، وذلك لما وقع من القتال الطويل العريض في أيام ابن الأشعث، وجعل الحسن يخطب الناس ويعظهم في ذلك، ويأمرهم بالكف، فبلغ ذلك نائب البصرة عبد الملك بن المهلب، فقام في الناس خطيبًا فأمرهم بالجد والجهاد، والنفر إلى القتال، ثم قال: «ولقد بلغني أن هذا الشيخ الضال المرائي ـ ولم يسمه ـ يثبط الناس، أما والله ليكفن عن ذلك أو لأفعلن ولأفعلن»، وتوعد

---

(١) «وفيات الأعيان» (٦/ ٣٠١).

(٢) العَقْرُ: بفتح أوله، وسكون ثانيه، قال الخليل: «سمعت أعرابيًّا من أهل الصّمان يقول: كل فرجة تكون بين شيئين فهو عَقر وعُقر لغتان. والعقر القصر الذي يكون معتمدًا لأهل القرية. والعقر: عدة مواضع، منها: عقر بابل قرب كربلاء من الكوفة، وهذه هي القرية المقصودة. «معجم البلدان» (٣/ ٣٦٩).

الحسن، فلما بلغ الحسن قوله قال: «أما والله ما أكره أن يكرمني الله بهوانه»، فسلمه الله منه.

ولما اشتد القتال فر أهل العراق سريعًا، وبلغهم أن الجسر الذي جاءوا عليه حُرق فانهزموا، فقال يزيد بن المهلب: «ما بال الناس؟ ولم يكن من الأمر ما يفر من مثله، فقيل له: إنه بلغهم أن الجسر الذي جاءوا عليه قد حُرق. فقال: قبحهم الله».

وفي النهاية قُتل يزيد بن المهلب، وعّدد من إخوته، وخلق كثير من جيشه، وتفرق سائر جيشه وأهل بيته فلوحقوا وقتلوا بكّل مكان، وكان ذلك سنة ١٠٢هـ(١)، وجاءوا برأس يزيد إلى مسلمة بن عبد الملك واستحوذ مسلمة على ما في معسكر يزيد بن المهلب، وأسر منهم نحوًا من ثلاثمائة، فبعث بهم إلى الكوفة، وبعث إلى أخيه فيهم، فجاء كتابه بقتلهم، ولما جاءت أخبار هزيمة ابن المهلب إلى ابنه معاوية وهو بواسط، عمد إلى نحو من ثلاثين أسيرًا في يده فقتلهم، منهم: نائب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، عدي بن أرطاة - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - وابنه، وجماعة من الأشراف(٢).

وقد أورد الذّهبي أن الحسن البصري قال في فتنة يزيد بن المهلب: «هذا عدو الله يزيد بن المهلب، كلما نعق بهم ناعق اتبّعوه»، وفي رواية أخرى أنّه دعا عليه بأن يصرعه الله، وذكر ما كان يفعل من انتهاك المحارم وقتل الأنفس، وأكل أموال الناس. قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «منهاج السنة»: «وأما أهل الحرة، وابن الأشعث، وابن المهلب، وغيرهم فهُزموا وهُزم أصحابهم، فلا أقاموا دينًا ولا أبقوا دنيا» اهـ.

وهكذا في أوقات الفتن تطيش العقول ويسهل سفك الدماء، وتكثر المفاسد، وتعطل الثغور، ولا يثبت إلا أهل العلم والفقه.

---

(١) «تاريخ الرسل والملوك» (٦/ ٣٩٠)، «البداية والنهاية» (٩/ ٢٢٠).

(٢) «البداية والنهاية» (٩/ ٢٢٨).

المبحث الثالث

ثورة زيد بن علي بن الحسين - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - في عصر هشام بن عبد الملك عام (١٢٢هـ - ٧٤١م)

لقد استقرت الأوضاع السياسية في أرض الحجاز إلى حد بعيد بعد مقتل أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - عام (٧٣هـ - ٦٩٣م)، ومن حينها استقر الأمر بعدها لعبد الملك بن مروان، وسيطر على أرض الحجاز دون أي توترات سياسية، وظل الأمر كذلك إلى أن ظهرت حركة معارضة جديدة يقودها زيد بن على بن الحسين - رَحِمَهُ اللَّهُ -(١).

---

(١) هو زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - ، وهو بذلك ينتسب من قِبل أبيه إلى علي بن أبي طالب ابن عم الرسول - ﷺ - ، وإلى فاطمة بنت رسول الله - ﷺ - ، وكان يكنى أبا الحسين، وهو من رجال الطبقة الثالثة من أهل المدينة من التابعين، ووالدته جارية سندية وكانت أم ولد. وتذكر بعض المصادر: أن المختار بن أبي عبيد الثقفي اشتراها واستحسنها ووجدها لا تليق إلا بعلي بن الحسين، وليس هناك أحد أحق بها منه فأهداها إليه. وقيل إن علي ابن الحسين هو الذي اشتراها. وقد مدحها زيد بقوله: «لقد صبرت بعد وفاة سيدها إذ لم يصبر غيرها»، وقالت عنها فاطمة بنت الحسين: «أما والله لنعم دخلية القوم كانت»، ويروي ابن قتيبة: أن اسمها حيدان. وقيل: أم حيدان. وأما أبوه: علي زين العابدين بن الحسين بن علي ابن أبي طالب وهو من رجال الطبقة الثانية من التابعين، ومن كبار ساداتهم دينًا وعلمًا، ومن فقهاء أهل البيت وأفاضل بني هاشم وعباد المدينة، وقد اختلفت الروايات في سنة ولادة زيد فقيل: ولد عام ٧٨هـ. وقيل: مولده عام ٨٠هـ. تزوج زيد ثلاثة نسوة. تزوج أربطة بنت أبي هاشم بن عبد الله بن محمد بن الحنفية، وقد جاءت له بولد وهو يحيى، وعندما كان في الكوفة تزوج اثنتين، وهما: ابنة يعقوب بن عبد الله السلمي أحد بني فرقد، وتزوج ابنة عبد الله ابن ابي العنبس الأسدي، وتزوج بأم ولد فجاءت له بثلاثة أولاد: عيسى وحسين، ومحمد. انظر: «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» (٤/١٨٠-١٩٠)، «تهذيب التهذيب» (٣/٤١٩)، «الطبقات» (٥/ ٢١١)، «نسب قريش» (٢/ ٦٠)، «وفيات الأعيان» (٢/ ٢٦٧).

ولنبدأ بنبذة حول التعريف بشخصية زيد بن علي - رَحِمَهُ ٱللَّهُ -.

تكوينه الثقافِي وحياته العلمية:

لقد نشأ زيد - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - بالمدينة، وكانت آنذاك منارة العلم بمن كان فيها من الصحابة والتابعين، فحفظ القرآن وتعلم العلوم الشرعية، ولقد نشأ زيد وشب وترعرع في بيت من بيوت العلم عامر بميراث النبوة، فوالده كان من كبار التابعين وساداتهم دينًا وعلمًا، وعاش مع والده ثماني عشرة سنة من حياته، تربى خلال هذه الفترة على التدين وحسن الخلق والتمسك بالقرآن وسنة النبي - ﷺ -.

وبعد وفاة والده انتقلت كفالته إلى أخيه الأكبر محمد الباقر، وهو المعروف بزهده وورعه وتقواه، ولقد كان للباقر أثره كذلك في نشأة أخيه زيد وهو لا يزال في تلك السن التي آلت إليه رعايته فيها، ولقد أثرت هذه البيئة الخيّرة الطيبة في قلب زيد وغرزت فيه تقوى الله - عَزَّوَجَلَّ - ويقول زيد عن نفسه: «والله ما كذبت كذبة مُنذ عرفت يميني من شمالي، ولا انتهكت محرمًا لله - عَزَّوَجَلَّ - مُنذ أن عرفت أن الله يؤخذاني»(١).

ولقد كان تأثره بوالده وأخيه وبيئته التي نشأ فيها واضح المعالم، وفي هذه البيئة العلمية المتدينة، بدأ الإمام زيد طلبه للعلم، فحفظ القرآن الكريم مُنذ حداثة سنه، ولقد كان لزيد اشتغال دائم بالقرآن الكريم فهو يقول عن نفسه: «لقد خلوت بالقرآن الكريم ثلاث عشرة سنة أقرأه وأتدبره»، وقد توسع في التفسير والسنة وعلومها، وبالفقه والعقائد وأصول الدين، واللغة وآدابها، وغير ذلك من أنواع الثقافة التي كانت سائدة في عصره، فكان بهذه العلوم الواسعة من علماء الإسلام الذين يشهد لهم القريب والبعيد بالعلم والتفوق، فهذا أخوه محمد الباقر

---

(١) «الروض النضير» (ص ١٢٨).

يقول لمن سأله عنه: «سألتني عن رجل مُلِئ علمًا من أطراف شعره إلى قدميه». ويقول أبو إسحاق السبيعي: «رأيت زيد بن علي فلم أرَ في أهله مثله، ولا أعلم منه ولا أفضل». وقال أبو حنيفة: «شاهدت زيدًا بن علي كما شاهدت أهله، فما رأيت في زمانه أفقه ولا أعلم»، وقال عنه الشعبي: «ما ولدت النساء أفضل من زيد بن علي، ولا أفقه ولا أشجع ولا أزهد»(١). ومن كلام الذهبي عن زيد قوله: «كان ذا علم وجلال وصلاح»(٢)، وقال في تاريخ الإسلام: «كان أحد العلماء الصلحاء»(٣).

وهذه تزكية معتبرة من علماء أهل السُّنَّة تدل على أنه أحد أعلام مدرسة أهل السُّنَّة والجماعة، فزيد ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ، تعددت مفاخره وكثر الثناء عليه ممن عاصره(٤)؛ هذا وقد تتلمذ زيد بن علي على يد مجموعة من الأفاضل والأخيار، وتعلم منهم ونهل كثيرًا من علمهم، ويُعد والده علي زين العابدين هو معلمه الأول، فقد كان علي زين العابدين عالمًا بالحديث لكثرة من أخذ عنهم من الصحابة والتابعين بالإضافة إلى اشتغاله بالفقه(٥)، ومن شيوخ زيد بن علي أيضًا: شقيقه محمد بن علي المعروف بالباقر، وسمي بالباقر؛ لأنه تبقر العلم وتوسع فيه، وقد أخذ الباقر العلم عن كثير من الصحابة والتابعين وروي عنهم، فقد روى عن أبيه علي ابن الحسين، وعن ابن عمر، وجابر، وأبي سعيد، وعبد الله بن جعفر، وسعيد

---

(١) «الحياة السياسية والفكرية للزيدية في المشرق الإسلامي» (ص ٣٧).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٢٣٦، ٢٣٧).

(٣) «تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام» (٨/ ٦٣).

(٤) «الإمام زيد: حياته وعصره» (ص ٤٢-٥٤) «تاريخ الدولة العربية ـ تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية» (ص ٢٦٧).

(٥) «صفة الصفوة» (١/ ٣٥٨).

ابن المسيب، وأبيه زين العابدين، ومحمد بن الحنفية، وغيرهم[١]. ومن شيوخ زيد بن علي الذين روى عنهم الحديث: أبان بن عثمان بن عفان الإمام الفقيه، قال يحيى بن قطان: «فقهاء المدينة عشرة: وذكر منهم: أبان بن عثمان»[٢].

أسباب خروج زيد بن علي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ على هشام بن عبد الملك:

لا شك أن حادثة استشهاد الحسين ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ، قد شكلت تحديات حقيقية أمام الدولة الأموية، وكانت هذه الحادثة هي إحدى الروافد التي ساعدت على قيام الثورات ضد الأمويين، بل قد أثرت حادثة مقتل الحسين على المجتمع الإسلامي بصفة عامة، وقد استمر تأثير هذه الحادثة لمدة قرون طويلة، بل إلى يومنا هذا، وهناك من انحرف من أبناء الأمة بسبب هذه الحادثة، وظهر بسببها التعصب والانحراف الفكري عند الكثيرين، وكانت هذه الحادثة من الأسباب التي أدت إلى خروج زيد بن علي، فلقد تأثر بما حدث لأهل بيته من تقتيل وتشريد، وقتل جده الحسين بن علي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ ، وقد ساهمت أسباب أخرى عديدة في خروجه على هشام بن عبد الملك، ومن هذه الأسباب: تعرضه لبعض الإهانات من بعض ولاة هشام بن عبد الملك، بل ومن هشام نفسه. وتغير حكم الشورى إلى حكم الملك العضوض مع مجيء الأمويين، ثم شعوره بالمظالم الواقعة على الناس، وللمنكرات التي انتشرت في زمانه.

وقد ذكر الطبري في أسباب خروج زيد على هشام عدة روايات، ومنها: ما جاء عن عطاء بْن مسلم الخفاف أن زيد بْن علي رأى في منامه أنه أضرم في العراق نارًا، ثم أطفأها ثم مات فهالته، فقال لابنه يحيى: «يا بني، إني رأيت رؤيا قد راعتني»،

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٣٩٦/٤).

(٢) «المصدر السابق» (٣٥٢/٤).

فقصها عليه وجاءه كتاب هشام بْن عبد الملك بأمره بالقدوم عليه، فقدم فقال له: «الحق بأميرك يوسف»، فقال له: «نشدتك بالله يا أمير المؤمنين، فو الله ما آمن إن بعثتني إليه ألا أجتمع أنا وأنت حَيَّيْنِ على ظهر الأرض بعدها»، فقال: «الحق بيوسف كما تؤمر»، فقدم عليه. وقد قيل: إن هشام بن عبد الملك إنما استقدم زيدًا من المدينة عن كتاب يوسف بن عمر، وكان السبب في ذلك ـ فيما زعم أبو عبيدة ـ أن يوسف بن عمر عذب خالد بن عبد الله، فادعى خالد أنه استودع زيد بن علي، وداود بن علي بن عبد الله بن عباس، ورجلين من قريش: أحدهما مخزومي والآخر جمحي مالًا عظيمًا، فكتب بذلك يوسف إلى هشام، فكتب هشام إلى خاله إبراهيم ابن هشام ـ وهو عامله على المدينة ـ يأمره بحملهم إليه، فدعا إبراهيم بن هشام زيدًا وداود بن علي، فسألهما عما ذكر خالد، فحلفا ما أودعهما خالد شيئًا، فقال: «إنكما عندي لصادقان، ولكن كتاب أمير المؤمنين قد جاء بما تريان، فلابد من إنفاذه»؛ فحملهما إلى الشام، فحلفا بالأيمان الغلاظ ما أودعهما خالد شيئًا قط. وقال داود: «كنت قدمت عليه العراق، فأمر لي بمائة ألف درهم. فقال هشام: أنتما عندي أصدق من ابن النصرانية، فاقدما على يوسف. حتى يجمع بينكما وبينه فتكذباه في وجهه». وفي رواية: أن هشام قال له: «لقد بلغني يا زيد أنك تذكر الخلافة وتتمناها، ولست هناك وأنت ابن أمة! فقال زيد: إن لك يا أمير المؤمنين جوابًا، قال: تكلم. قال: ليس أحد أولى بالله، ولا أرفع عنده منزلة من نبي ابتعثه، وقد كان إسماعيل من خير الأنبياء، وكان إسماعيل ابن أمة وأخوه ابن صريحة مثلك، فاختاره الله عليه، وأخرج منه خير البشر، محمدًا ـ ﷺ ـ . فقال له هشام: اخرج. قَالَ:

أخرج ثم لا تراني إلا حيث تكره. فقال له سالم: يا أبا الحسين، لا يظهرن هذا منك»[(١)].

ومن الأسباب التي ساعدت على خروج زيد أيضًا: أن البيئة بالكوفة كانت مناسبة للثورة، وفيها أتباع أهل البيت المؤيدون لأحقية أهل البيت بالخلافة، الكارهون لحكم بني أمية؛ هذا وقد حدثت عدة اتصالات بين أهل الكوفة وزيد ابن علي عام (١٢١هـ - ٧٤٠م)، وبالفعل قدِم زيد الكوفة وأقام بها مستخفيًا ينتقل في المنازل، وأقبلت الشيعة تختلف إليه تبايعه، فبايعه جماعة منهم وكانت بيعته: «إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ـ ﷺ ـ، وجهاد الظالمين والدفع عن المستضعفين، وإعطاء المحرومين، وردّ المظالم، ونصْر أهل البيت، أتبايعون على ذلك؟ قالوا: نعم، فبايعه خمسة عشر ألفًا. وقيل: أربعون ألفًا»، فأمر أصحابه بالاستعداد، فأقبل من يريد أن يفي له ويخرج معه ويستعدّ ويتهيّأ، فشاع أمره في الناس[(٢)].

وتتلخص أهداف زيد في العودة إلى الكتاب والسنة، وجهاد الظالمين، والدفع عن المستضعفين، وإعطاء المحرومين، وردّ المظالم ونصرة أهل البيت؛ هذه هي الأهداف التي نهض لمثلها زيد، وأيدها الإمام جعفر الصادق، والإمام أبو حنيفة[(٣)].

وقد اعترض بعض الناس على خروج زيد، منهم: عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب فقد كتب كتابًا إلى زيد جاء فيه: «أما بعد، فَإِنَّ أَهْلَ الْكُوفَةِ نَفْخُ الْعَلَانِيَةِ، خَوَرُ السَّرِيرَةِ، هَرَجٌ فِي الرَّخَاءِ، جَزَعٌ فِي اللِّقَاءِ، تَقَدَمُهُمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَلَا تُشَايِعُهُمْ قُلُوبُهُمْ، وَلَقَدْ تَوَاتَرَتْ إِلَيَّ كُتُبُهُمْ بِدَعْوَتِهِمْ، فَصَمَمْتُ عَنْ

---

(١) «تاريخ الرسل» (١٦٦/٧).

(٢) «الكامل في التاريخ» (٣/ ٣٧٤).

(٣) «تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي» (ص ٥٥٦).

نِدَائِهِمْ، وَأَلْبَسْتُ قَلْبِي غِشَاءً عَنْ ذِكْرِهِمْ يَأْسًا مِنْهُمْ وَاطِّرَاحًا لَهُمْ، وَمَا لَهُمْ مَثَلٌ إِلَّا مَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: «إِنْ أُهْمِلْتُمْ خُضْتُمْ، وَإِنْ حُورِبْتُمْ خِرْتُمْ، وَإِنِ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى إِمَامٍ طَعَنْتُمْ، وَإِنْ أَجَبْتُمْ إِلَى مَشَاقَّةٍ نَكَصْتُمْ»(١). وجاء داود بن علي ناصحًا لزيد قال: «يا ابن عمّ إن هؤلاء يغرّونك من نفسك، أليس قد خذلوا من كان أعز عليهم منك جّدك علي بن أبي طالب حتى قتل؟ والحسن من بعده بايعوه ثّم وثبوا عليه فانتزعوا رداءه وجرحوه؟ أو ليس قد أخرجوا جّدك الحسين وحلفوا له وخذلوه وأسلموه ولم يرضوا بذلك حتى قتلوه؟ فلا ترجع معهم». وجاء كذلك سلمة بن كُهَيْل فذكر لزيد قرابته من رسول الله ـ ﷺ ـ وحقّه، فأحسن ثم قال له: «ننشدك الله كم بايعك؟ قال أربعون ألفًا. قال: فكم بايع جَدَّك؟ قال: ثمانون ألفًا. قال: فكم حصل معه؟ قال: ثلاثمائة. قال: نشدتك الله أنت خير أم جَدّك؟ قال: جدّي. قال: فهذا القرن خير أم ذلك القرن؟ قال: ذلك القرن. قال: أفتطمع أن يَفي لك هؤلاء وقد غدر أولئك بجّدك؟ قال: قد بايعوني ووجبت البيعة في عنقي وأعناقهم»(٢).

واستمر زيد في حشد الأنصار، وكانت الأجهزة الأمنية الأموية تتابع الأحداث ومجريات الأمور، وفي المقابل: اشترك عدد من أهل الفضل في ثورة زيد، وقيل: إن أبا حنيفة ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ كان يحرض على الخروج، فعن عبد الله بن مالك بن سليمان قال: «أرسل زيد إليه يدعوه إلى البيعة فقال: لو علمت أن الناس لا يخذلونه كما خذلوا أباه لجاهدت معه؛ لأنه إمام حق، ولكني أعينه بمالي»، فبعث إليه بعشرة آلاف درهم، وقال للرسول: «ابسط عذري عنده». وفي رواية: «اعتذر

---

(١) «الكامل في التاريخ» (٣/ ٣٧٤).

(٢) «الكامل في التاريخ» (٣/ ٣٧٤).

إليه بمرض يعتريه». ولا مانع من الجمع بين الروايتين، وقد سُئل عن خروجه فقال: «ضاهى خروج رسول الله ـ ﷺ ـ يوم بدر»، فقيل له: لمَ تخلفت؟ قال: «حبسني عنه ودائع الناس عرضتها على ابن أبي ليلى فلم يقبل فخفت أن أموت مجهلًا»، وكان كلما ذكر خروجه بكى[1]. وكذا منصور بن المعتمر، فقد ورد أنه كان يحرض على الخروج مع زيد، فعن عقبة بن إسحاق قال: «كان منصور ابن المعتمر يأتي زبيد بن الحارث، فكان يذكر له أهل البيت ويعصر عينيه يريده على الخروج أيام زيد بن علي»[2].

الشيعة الروافض ينشقون عن زيد ويغدرون به:

ولما أمر أصحابه بالاستعداد للخروج، وأخذ من كان يريد الوفاء له بالبيعة يتجهزّ وصل الأمر إلى والي العراق يوسف بن عمر، فاستنفر أجهزة الدولة للقضاء على زيد، وعندما خرج زيد بن علي بن الحسين على هشام بن عبد الملك، فأظهر بعض من كان في جيشه من الشيعة الطعن على أبي بكر وعمر فمنعهم من ذلك، وأنكر عليهم فرفضوه، فسموا بالرافضة، وسميت الطائفة الباقية معه بالزيدية.

يقول ابن تيمية: «إن أول ما عرف لفظ الرافضة في الإسلام عند خروج زيد ابن علي في أوائل المائة الثانية، فسئل عن أبي بكر وعمر فتولاهما فرفضه قوم فسموا رافضة».

ومن زمن خروج زيد افترقت الشيعة إلى رافضة وزيدية، فإنه لما سئل عن أبي بكر وعمر فترحم عليهما رفضه قوم فقال لهم: «رفضتموني»؛ فسموا رافضة لرفضهم

(١) «الجواهر المضية في طبقات الحنفية» (١/ ٤٩٦).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٢٩٤).

إياه، وسمي من لم يرفضه من الشيعة زيديًا لانتسابهم له[١]. وفي رواية أنه سُئل: ما قولك في أبي بكر وعمر؟ قال زيد: «رحمهما الله وغفر لهما، ما سمعت أحدًا من أهل بيتي يقول فيهما إلا خيرًا، وإن أشد ما أقول فيما ذكرتم أنا كنا أحق بسلطان ما ذكرتم من رسول الله ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ من الناس أجمعين، فدفعونا عنه ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفرًا، وقد ولوا فعدلوا في الناس وعملوا بالكتاب والسُّنَّة. قالوا: فلم يظلمك هؤلاء إذا كان أولئك لم يظلموك، فلم تدعو إلى قتالهم؟ فقال: إن هؤلاء ليسوا كأولئك، هؤلاء ظالمون لي ولكم ولأنفسهم، وإنما ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وإلى السنن أن تحيا، وإلى البدع أن تطفأ، فإن أجبتمونا سعدتم، وإن أبيتم فلست عليكم بوكيل»، ففارقوه ونكثوا بيعته وقالوا: «سبق الإمام»، يعنون محمدًا الباقر، وكان قد مات. وقالوا: «جعفر ابنه إمامنا اليوم بعد أبيه»، فسماهم زيد الرافضة، وهم يزعمون أن المغيرة سماهم الرافضة حيث فارقوه وكانت منهم طائفة قبل خروج زيد مروا إلى جعفر بن محمد بن علي، فقالوا له: «إن زيد بن علي فينا يبايع، أفترى لنا أن نبايعه؟ فقال لهم: نعم بايعوه، فهو والله أفضلنا وسيدنا وخيرنا» فجاءوا، فكتموا ما أمرهم به[٢].

هذه هي عقيدة زيد بن علي في الشيخين أبي بكر وعمر ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ ؛ لأنه لا يمكن أن يشذَّ عن المنهج الذي كان عليه والده زين العابدين علي بن الحسين ومن قبله والده ثم جدّه علي بن أبي طالب ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ـ في حبهم الصادق لأبي بكر وعمر وعثمان والصحابة جميعًا.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٣٦).

(٢) «الكامل في التاريخ» (٣/ ٣٨٠).

مقتل زيد بن علي:

لقد عزم زيد على الخروج بمن بقي معه من أصحابه، فواعدهم ليلة الأربعاء من مستهل صفر عام ١٢٢هـ، فبلغ ذلك يوسف بن عمر، فكتب إلى نائبه على الكوفة وهو الحكم بن الصلت يأمره بجمع الناس كلهم في المسجد الجامع، فجمع الناس لذلك في يوم الثلاثاء، قبل خروج زيد بيوم، ثم نادى مناديه: «أَلَا إن الأمير يقول: من أدركناه في رحله فقد برئت منه الذمة، ادخلوا المسجد الأعظم». وخرج زيد ليلة الأربعاء في برد شديد، ورفع أصحابه النيران، وجعلوا ينادون: «يا منصور... يا منصور»(١)، فلما طلع الفجر وقد اجتمع معه مائتان وثمانية عشر رجلًا، فجعل زيد يقول: «سبحان الله! أين الناس؟ فقيل: هم في المسجد محصورون». وكتب الحكم إلى يوسف يعلمه بخروج زيد بن علي، فبعث إليه سرية إلى الكوفة، وركبت الجيوش مع نائب الكوفة، وجاء يوسف بن عمر أيضًا في طائفة كبيرة من الناس، والتقى الطرفان وانتصر زيد في بداية الأمر، وكلما لقي طائفة هزمهم، وجعل أصحابه ينادون: «يا أهل الكوفة اخرجوا إلى الدين والعز والدنيا، فإنكم لستم في دين ولا عز ولا دنيا»، ثم لما أمسوا انضم إليه جماعة من أهل الكوفة، وقد قُتل بعض أصحابه في أول يوم، فلما كان اليوم الثاني اقتتل هو وطائفة من أهل الشام فقتل منهم سبعين رجلًا، وانصرفوا عنه بشر حال، ثم عبأ يوسف بن عمر جيشه جيدًا، ثم أصبحوا فالتقوا مع زيد فكشفهم حتى أخرجهم إلى السبخة(٢)، ثم شد عليهم حتى أخرجهم إلى بني سليم، ثم تبعهم في خيله

---

(١) «تاريخ الرسل» (٧/١٨٨).

(٢) موضع بالبصرة. «معجم البلدان» (٣/١٨٣).

ورجله، ثم اقتتلوا قتالًا شديدًا جدًّا، حتى كان جنح الليل رُمي زيد بسهم فأصاب جانب جبهته اليسرى فوصل إلى دماغه، فرجع ورجع أصحابه، وأُدخل زيد في دار وجيء بطبيب فانتزع ذلك السهم من جبهته، فما عدا أن انتزعه حتى مات من ساعته ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ(١)، فدفنوه في ساقية ماء وجعلوا على قبره التراب والحشيش خوفًا من أن يمثل الوالي الأموي بجثته، ولكن تم الوصول إلى قبره فنبشوا قبره وصُلب جثمانه، وأرسل يوسف برأسه إلى هشام(٢).

ولما وصل رأس زيد إلى هشام استاء من قتله وكان لا يحب القتل(٣)، وبعد مقتل زيد توجه ابنه يحيى إلى خراسان، فأقام بها مدة إلى حين وفاة هشام بن عبد الملك، وولاية الوليد بن يزيد، فخرج، وسرعان ما قُتل أيضًا، ويرى الذهبي أن يحيى قُتل بخراسان في عهد هشام(٤). وقال الليث بن سعد: «قُتل يحيى سنة (١٢٥هـ -٧٤٣م)» وقد تأثر هشام لمقتل زيد ويحيى ودخله من مقتلهما أمر شديد حتى قال: «وددت لو كنت افتديتهما». وهكذا انتهت ثورة زيد بن علي سريعًا كما بدأت سريعًا.

أثر مقتل زيد بن عليّ على الدولة الأموية:

كان لثورة زيد بن علي تأثير مهم في سير الأحداث التي وقعت في العصر الأموي، وتمخضت عنها نتائج بعيدة المدى، وكان فشلها بمثابة الدافع لحركات أخرى حذت حذوها، فقد هرب يحيى بن زيد إلى خراسان وأعلن الثورة على الأمويين هناك، ومع أن يحيى فشل في القضاء على الحكم الأموي كما فشل أبوه من قبل؛ إلا

---

(١) «البداية والنهاية» (٩/ ٣٣٠).

(٢) «تاريخ الملوك والرسل» (٨/ ٦٠).

(٣) «الدولة الأموية» (ص ٢٩٠).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٣٩١).

أن هاتين الثورتين مهدتا بصورة غير مباشرة الطريق للقضاء على الدولة الأموية، واستغل العباسيون العطف الذي لقيه يحيى بن زيد في خراسان لكسب الأتباع والأنصار لهم، وحين قُتل يحيى بن زيد ظل أهل خراسان يبكون بالليل والنهار[(١)].

وبعد وفاة هشام بن عبد الملك عام (١٢٥هـ - ٧٤٣م) دب الوهن والصراع داخل البيت الأموي نفسه، وكثر النزاع على العرش وولاية العهد، واتجهت الدولة نحو التصدع والانهيار، وبرز هذا التصدع منذ ولاية الوليد بن يزيد عام ١٢٥هـ ثم يزيد بن الوليد بن عبد الملك عام (١٢٦هـ-٧٤٤م) ثم إبراهيم ابن الوليد عام (١٢٦هـ-٧٤٤م)، ثم مروان بن محمد عام (١٢٧هـ-٧٤٥م)، وعلى يديه سقطت الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية عام (١٣٢هـ-٧٥٠م). وذلك بعد أكثر من تسعين عامًا حفلت بالفتوحات والأحداث الجسام.

ولقد أدت تلك الثورات الكثيرة إلى تصدع البيت الأموي وسقوط الدولة الأموية، وبذلك غربت شمس الأمويين التي سطعت على بلاد المسلمين أكثر من تسعين عامًا حفلت بالفتوحات والأمجاد، وبرزت فيها الثورات، وأصبحت أعمالهم تاريخًا يُقْرَأُ، وصفحات تُطْوَى، وذكريات تُحْكَى، وهكذا التاريخ يعلمنا أن التغيير له أصول وضوابط، فلابد من دراسة الواقع دراسة متأنية، ودراسة موازين القوى والقدرة والعجز، والترجيح بين المصالح والمفاسد.

---

(١) «ثورة زيد بن علي» (ص١٣٧)، «تاريخ الدولة العربية» (ص ٤٠٦).

ولاشك أن الغاية الكبرى من دراسة التاريخ هي العبرة والعظة، واستخلاص الدروس المستفادة، قَالَ ـ تَعَالَى ـ : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يُوسُف : ١١١].

لذا كان من الأهمية أن نسلط الضوء على مآثر وإنجازات الدولة الأموية[١] وكذا أسباب سقوطها، وكيف أنها تحولت من مرحلة القوة والازدهار إلى مرحلة الضعف والوهن والإخفاق. ولذلك أفردنا لهذا الموضوع كتابًا مستقلًا بفضل الله تعالى، وعنوانه: الدولة الأموية في ميزان التاريخ.

والله المستعان.

---

(١) راجع كتابنا: الدولة الأموية في ميزان التاريخ.

الخاتمة

لاشك أن الغاية الكبرى من دراسة التاريخ هي العبرة والعظة، واستخلاص الدروس المستفادة، قَالَ ـ تَعَالَى ـ : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يُوسُف : ١١١]، وعلى الباحث في التاريخ أن يتجرد من ميوله وأهوائه، وأن ينقل الحقيقة دون تحريف، وتاريخنا الإسلامي تاريخ مشرق في جملته، يمتلئ بالصفحات المشرقة، رغم ما فيه من بعض الأحداث المؤلمة، كبعض الأحداث التي وقعت في القرن الأول، فليس هناك أمة على وجه الأرض سار تاريخها على منوال واحد من الانتصارات والفتوحات والازدهار والحضارة، فلكل أمة كبوة في فترة من الزمن، طالت أو قصرت، وتاريخ أمة الإسلام مليء بالانتصارات والإنجازات، وقد فاق كل الأمم في رصيدها الحضاري.

لذا أقول: إننا بحاجة إلى إعادة صياغة التاريخ الإسلامي؛ لنبين حسنات هذه الأمة ومحاسنها ومظاهر حضارتها، ونعيد فتح صفحات أمجادها بعد أن قام البعض بتشويه تاريخ أمتنا، وذلك عن طريق دس الأكاذيب والضلالات، والأخبار الموضوعة في بعض كتب التاريخ، مما أدى إلى تشويهه، فإن هذه الفترة التاريخية التي تناولتها في الرسالة هي من أكثر الفترات التي تعرضت للتشويه وطمس الحقائق. وقد ذكرنا في هذه الرسالة عوامل تحريف التاريخ الأموي.

ولابد للباحث كذلك: أن يتخلى عن التعصب والحزبية فهما من أسباب تحريف التاريخ، ولعل هذه الدراسة قد أظهرت بعض الحقائق التي تم تحريفها؛ لاسيما أثناء الحديث عن معركتي الجمل وصفين، وإن المتأمل في هذه الأحداث الجسام التي وقعت منذ أن توفي أمير المؤمنين عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ، يعلم أن ما حدث وما جرى في هذه الحقبة التاريخية يُعد من أشد المحن التي واجهت الأمة منذ بعثة

النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وإن الناظر والمتأمل في الأحداث بعين العدل والإنصاف، يعلم علم اليقين أن مسألة الحُكم من أشد الأمور تعقيدًا، وقد ظهر ذلك جليًّا في نهاية عصر أمير المؤمنين عثمان، وفي مدة خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -، يقول محب الدين الخطيب: «وقد يظن من لا نظر له في حياة الشعوب وسياستها أن الحاكم يستطيع أن يكون كما يريد أن يكون حيثما يكون، وهذا خطأ. فللبيئة من التأثير في الحاكم وفي نظام الحكم أكثر مما للحاكم ونظام الحكم من التأثير على البيئة. وهذا من معاني قول الله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. وإذا تأملنا أحداث موقعتي: الجمل وصفين؛ نرى أنه كان من الصعوبة بمكان أن يسيطر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب على الأحداث، وأن يمسك بزمام الأمور، وأن يسيطر على الدولة وأن يُرضي جميع الأطراف المختلفة والمتناحرة؛ وذلك لوجود عدد من السبئية في الصف ممن يهيجون المشاعر وينشرون الفتن، وإذا تعالت الأصوات وكثر الصراخ بين الناس وكثرت الشائعات في المجتمع؛ أدى كل ذلك إلى ضعف صوت العقل، فلا يسمعه إلا القليل من الناس.

ومما نتعلمه من هذه الأحداث التاريخية أن الحماس وحده لا يكفي، وأن الإخلاص وحده لا يكفي أيضًا، بل لابد من مراعاة الواقع والترجيح ما بين المصالح والمفاسد وتقدير مواطن القوة والضعف، ولابد من مراعاة المصالح العليَا للعباد والبلاد، فالشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها, وتعطيل المفاسد وتقليلها، ثم إن الواجب علينا في هذه الفتنة هو الإمساك عما شجر بين الصحابة إلا فيما يليق بهم - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -؛ لما يسببه الخوض في ذلك من توليد العداوة والحقد والبغض لأحد الطرفين ويجب على كل مسلم أن يحب الجميع

ويرضى عنهم ويترحم عليهم, ويحفظ لهم فضائلهم, ويعترف لهم بسوابقهم, وينشر مناقبهم, وأن الذي حصل بينهم إنما كان عن اجتهاد, والجميع مثابون في حالتي الصواب والخطأ, غير أن ثواب المصيب ضعف ثواب المخطئ في اجتهاده, وأن القاتل والمقتول من الصحابة في الجنة, وقد سئل عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ عن القتال الذي حدث بين الصحابة، فقال: «تلك دماء طهر الله يدي منها، فلا أحب أن أخضب بها لساني», وقال ابن كثير: «أما ما شجر بينهم بعده ـ ﷺ ـ: فمنه ما وقع من غير قصد كيوم الجمل, ومنه ما كان عن اجتهاد كيوم صفين, والاجتهاد يخطئ، ولكن صاحبه معذور، وإن أخطأ فهو مأجور أيضًا، وأما المصيب فله أجران»[1]. وقال ابن حجر: واتفق أهل السُّنَّة على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة بسبب ما وقع لهم من ذلك، ولو عرف الحق منهم؛ لأنهم لم يقاتلوا في تلك الحروب إلا عن اجتهاد, بل ثبت أنه يؤجر أجرًا واحدًا, وأن المصيب يؤجر أجرين»[2]. وكذا يجب علينا أن نترضى على الطرف الثالث الذي اعتزل الفتنة: كسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وغيرهما.

وللأسف فإن بعض المؤرخين يطعنون في معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ، بل ويفسقونه، ونسي هؤلاء أن معاوية من كتبة الوحي لرسول الله ـ ﷺ ـ . يقول ابن تيمية: «ولم يكن معاوية ممن يختار الحرب ابتداءً، بل كان من أشد الناس حرصًا على ألا يكون قتال.

ثم إننا نؤكد على أن هذه الحقبة التاريخية كانت من أخطر الأزمنة التي مرت على الأمة، وهذه الفتنة هي أشد فتنة أيضًا، ولله الأمر من قبل ومن بعد. ومن هنا

---

(١) «الباعث الحثيث اختصار علوم الحديث» (ص ١٨٢).

(٢) «فتح الباري» (١٣/ ٣٤).

يتضح أنه لابد من محاربة الفرق الضالة والطوائف المنحرفة، محاربة فكرية واجتماعية وأمنية أيضًا، لأنها عندما تنتشر في بلاد المسلمين تعرض أهلها للخطر، وتهدد الأمن والاستقرار وتشكك الناس في عقيدتهم، وتلك هي حال الخوارج المارقين الذين خرجوا على علي ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ وكفروه، وقتله نفر منهم، زاعمين أنهم يتقربون بهذا الفعل إلى الله، وما عندهم في ذلك مستند ولا برهان.

ومن الدروس المستفادة أيضًا: أنه لابد للحاكم أن يحكم أمور الدولة بكل حزم؛ لأنه لا يَجترئ على فِعل المُحرمات والتّعدي على حقوق الناس ومُمتلكاتهم، ونَشر الفوضى وأعمال البلطجة والتمادي في الإجرام إلا مَن أَمِن العقوبة، فمن أمن العقوبة أساء الأدب، واللين في موضع الشدة ضعف، والشدة في موضع اللين عنف، هذا مع وجود اللين والرفق مع من استحق ذلك من الرعية، فلابد من التوازن بين الشدة واللين، ولا تكون الشدة إلا في موضعها، وكذلك اللين يكون في موضعه. ومن تدبر منهج معاوية ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ في الحكم؛ علم ذلك جيدًا، فلقد استطاع معاوية أن يحكم الدولة الواسعة المترامية الأطراف بكل حزم وحكمة.

وأما عن يزيد فلقد تناولنا أحواله وبيعته وموقفه من المعارضة، ويزيد شخصية طال حولها الجدل، لكننا في نهاية البحث والدراسة نخلص إلى أن البيعة التي أخذها يزيد لم تكن بالإكراه كما صورتها بعض الروايات، بل قد بايعه بعض كبار الصحابة: كابن عمر، وغيره؛ حرصًا على جماعة المسلمين وجمع الكلمة.

وقد حاول البعض أن يظهر أن شخصية يزيد شخصية غير سوية ولا تصلح للقيام بأمر الأمة، وحاولوا أن يشوهوا صورته بكل سبيل، وأن يظهروا أن الناس أجمعوا على سوء خلقه، وهذا كله لا صحة له. ومن الأمور التي توصل إليها البحث أن يزيد بن معاوية لا يتحمل شيئًا من قتل الحسين ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ؛ فهو

لم يأمر بذلك، ولم يرضَ به أيضًا، بل حزن وبكى عندما ورده خبر مقتله، لكن يزيد بن معاوية يتحمل ما حدث في المدينة في موقعة الحرة، وأما عن يزيد وحكم الناس فيه، فلقد افترق الناس في «يزيد» بن معاوية بن أبي سفيان ثلاث فرق: طرفان ووسط. **فأحد الطرفين قالوا:** إنه كان كافرًا منافقًا. **والطرف الثاني:** يظنون أنه كان رجلًا صالحًا وإمام عدل، وأنه كان من «الصحابة» الذين ولدوا على عهد النبي ـ ﷺ ـ وحمله على يديه وبرك عليه، وربما فضله بعضهم على أبي بكر وعمر. وكلا القولين ظاهر البطلان عند من له أدنى عقل وعلم.

والقول الثالث: أنه كان ملكًا من ملوك المسلمين له حسنات وسيئات، ولم يولد إلا في خلافة عثمان ولم يكن كافرًا؛ ولكن جرى بسببه ما جرى من مصرع «الحسين»، وفعل ما فعل بأهل الحرة، ولم يكن من الصحابة ولا من أولياء الله الصالحين، وهذا قول عامة أهل العقل والعلم والسُّنَّة والجماعة.

ومما توصلنا إليه في البحث أيضًا: أن النزاع بين ابن الزبير وأهل الشام والذي ترتب عليه حصار ابن الزبير في الحرم وحريق الكعبة، فإن البيت الحرام لم يكن مقصودًا؛ لأن الكعبة لها منزلة عظيمة في نفوس كلا الفريقين.

ثم تظهر أهمية مراعاة الواقع في الفصل الرابع من الكتاب أيضًا، وذلك يظهر جليًّا من خلال عرضنا للأحداث السياسية التي وقعت بأرض العراق، وقد لخصناها في ثورة عبد الرحمن بن الأشعث، ويزيد بن المهلب، وزيد بن علي، كما يقول شيخ الإسلام: «وَأَمَّا أَهْلُ الْحَرَّةِ، وَابْنُ الْأَشْعَثِ، وَابْنُ الْمُهَلَّبِ، وَغَيْرُهُمْ فَهُزِمُوا وَهُزِمَ أَصْحَابُهُمْ، فَلَا أَقَامُوا دِينًا وَلَا أَبْقَوْا دُنْيَا».

وختامًا: فهذا ما يَسَّرَهُ الله لي من جمع وترتيب لفصول هذا البحث، وما كان من خطأ أو زلل فمني ومن الشيطان، وما كان من توفيق فمن الله وحده، فهو محض فضل الله علي، فله الحمد حتى يرضى، وله الحمد عند الرضا، وله الحمد بعد الرضا، وإذا كان شرف العلم في موضوعه وغايته، ومسائله وبراهينه، وشدة الحاجة إليه؛ فإن بلوغ هذا الشرف درب طويل وأمانة ثقيلة، نجاح أدائها هو شرف الدنيا وعز الآخرة. هذا وأنا أُرحب بالنقد البناء والرد والتعليق والتوجيه.

فاللَّهم هذا مبلغي من العلم، فتجاوز برحمتك عن خطئي، واغفر بعفوك تقصيري، واجعلنا ممن يقولون فيعملون، ويعملون فيخلصون، ويخلصون فيقبلون.

والله أسأل أن ينفع بهذا البحث إخواني المسلمين، وأن يذكرني من يقرؤه في دعائه، فإن دعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب مستجابة ـ إن شاء الله تعالى ـ .

وأختم هذا البحث بقول الله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الخرائط

١ ـ خريطة الربذة

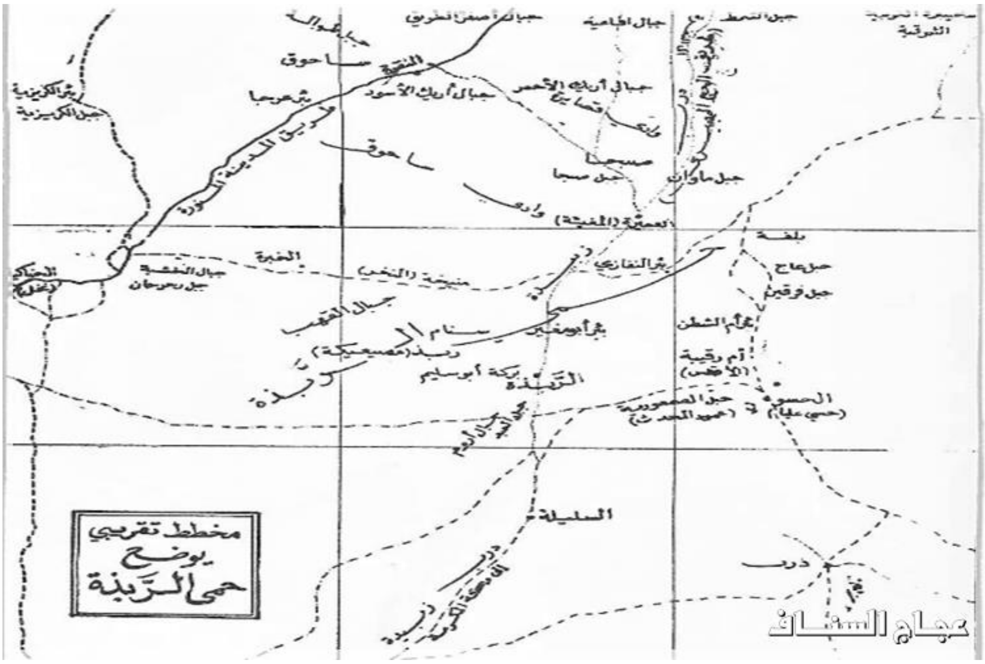

٢ ـ وذي قار بالقرب من الكوفة

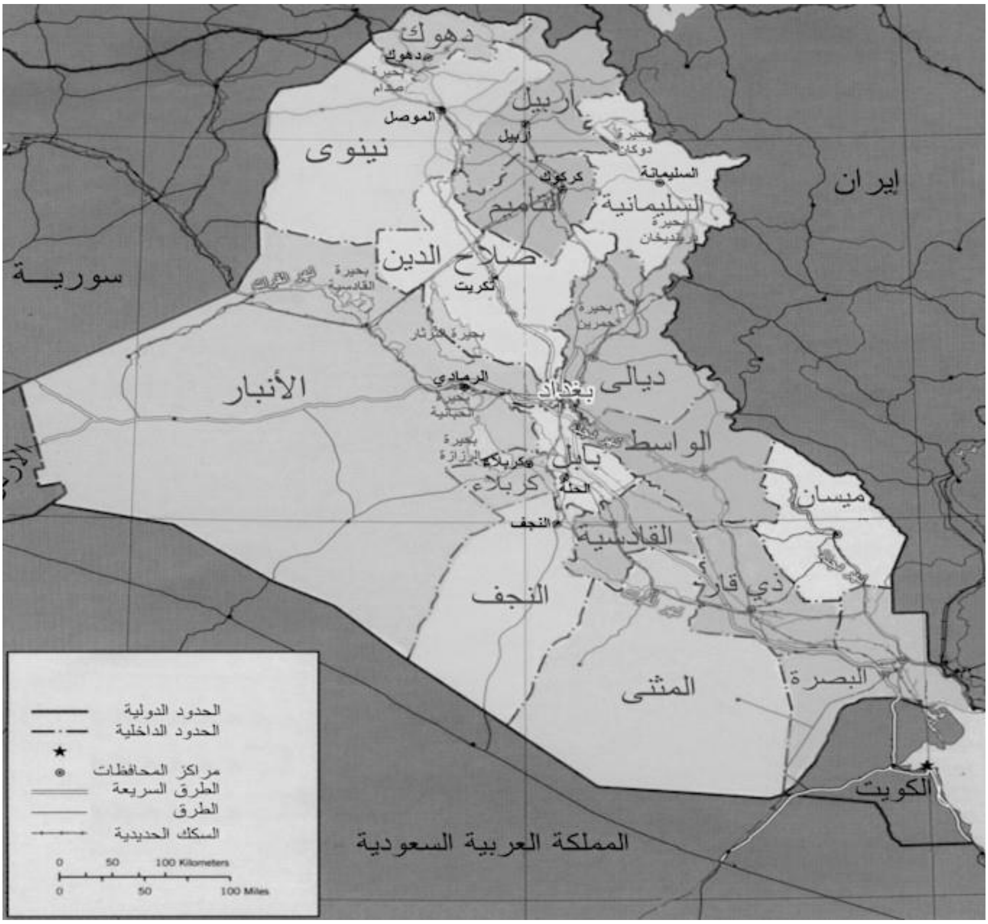

٣ ـ الزابوقة ... قرب البصرة

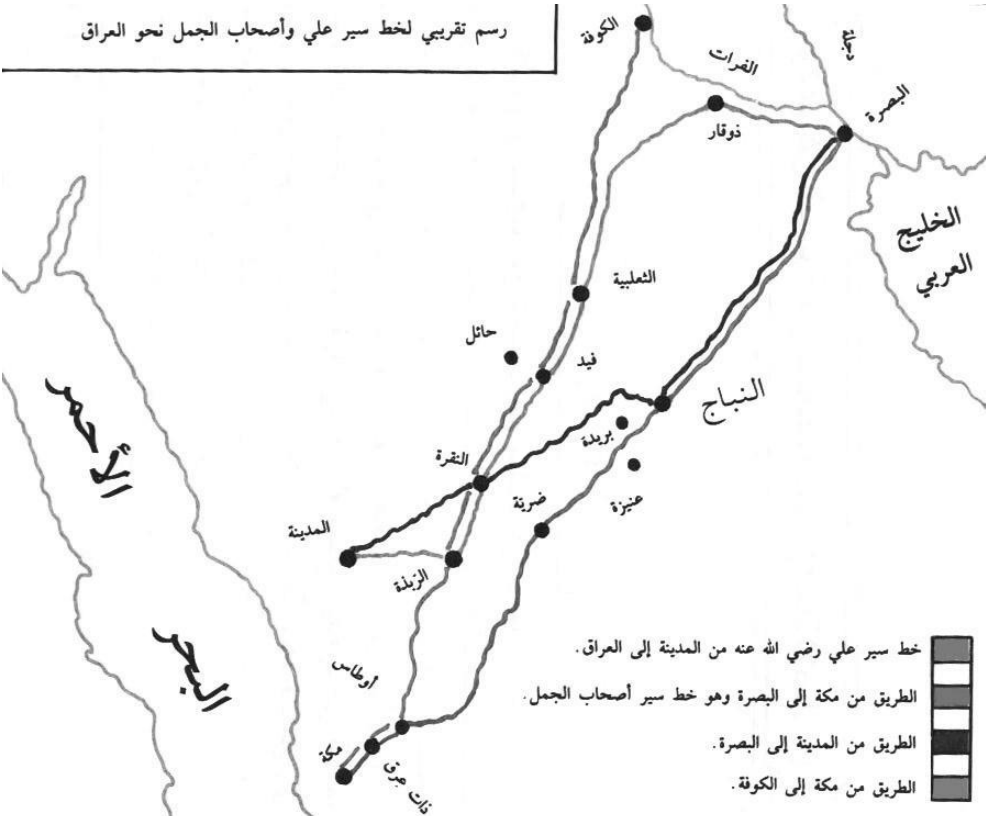

٤ ـ النخيلة موقع قرب الكوفة من جهة الشام

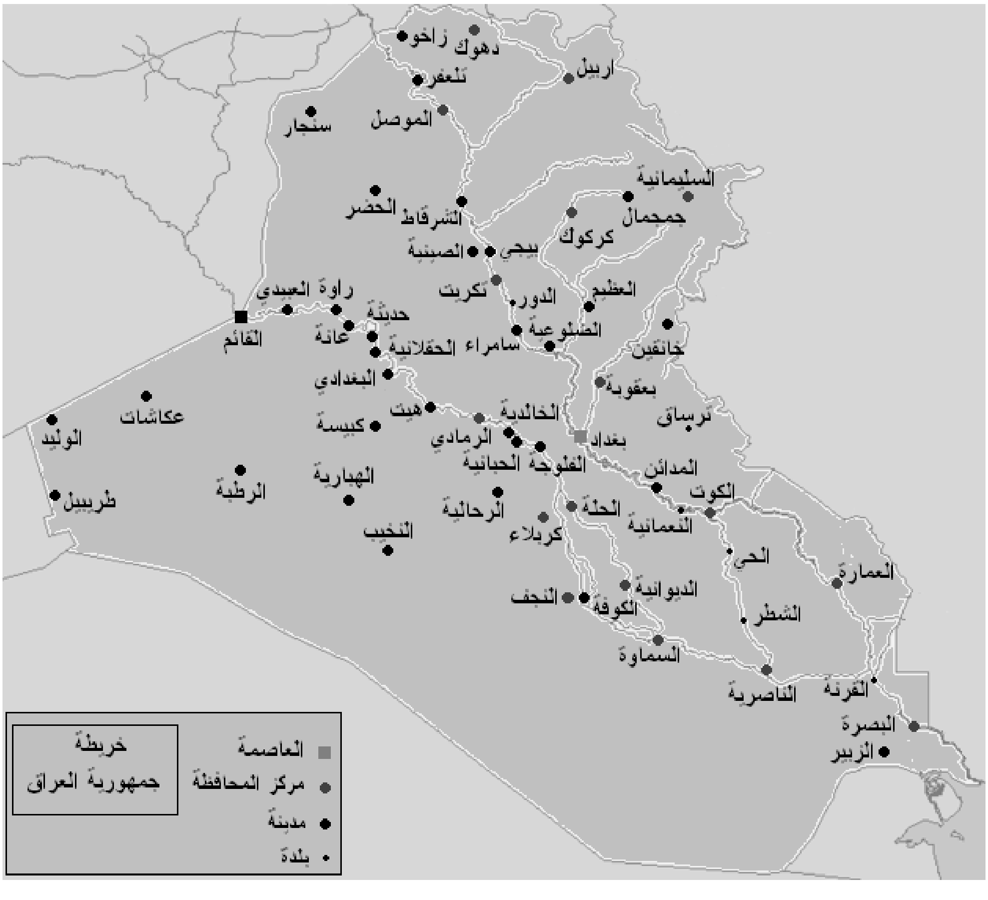

٥ ـ الرقة: مدينة مشهورة ـ في سوريا اليوم ـ على نهر الفرات الشرقي

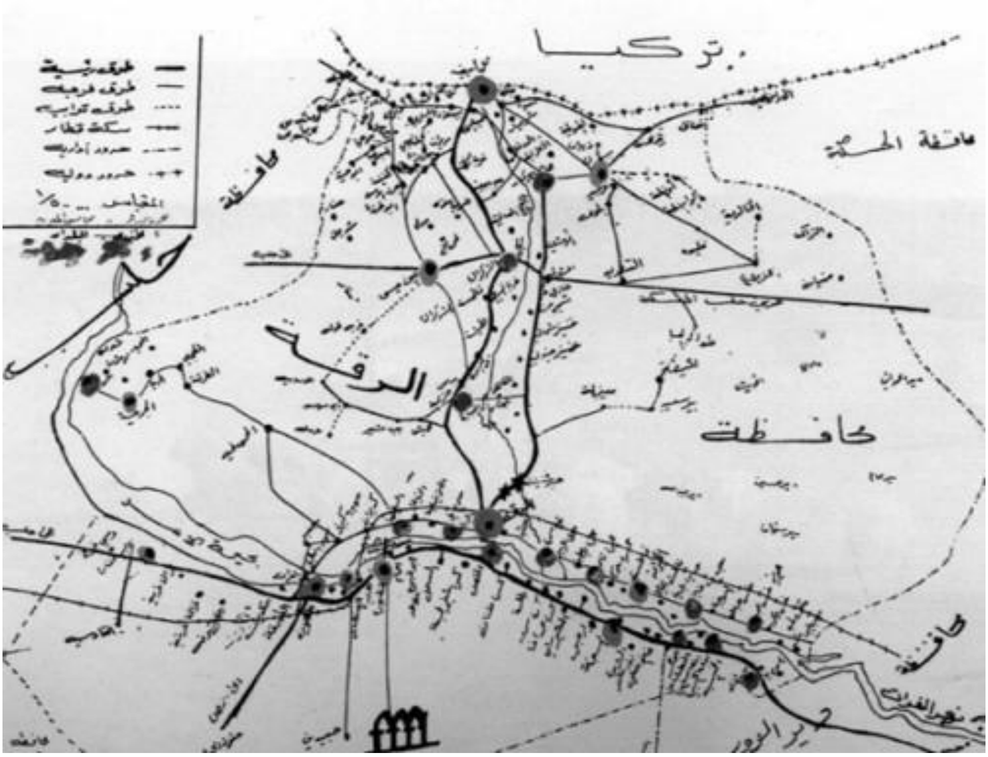

٦ ـ صفين ... مكان موقعة صفين

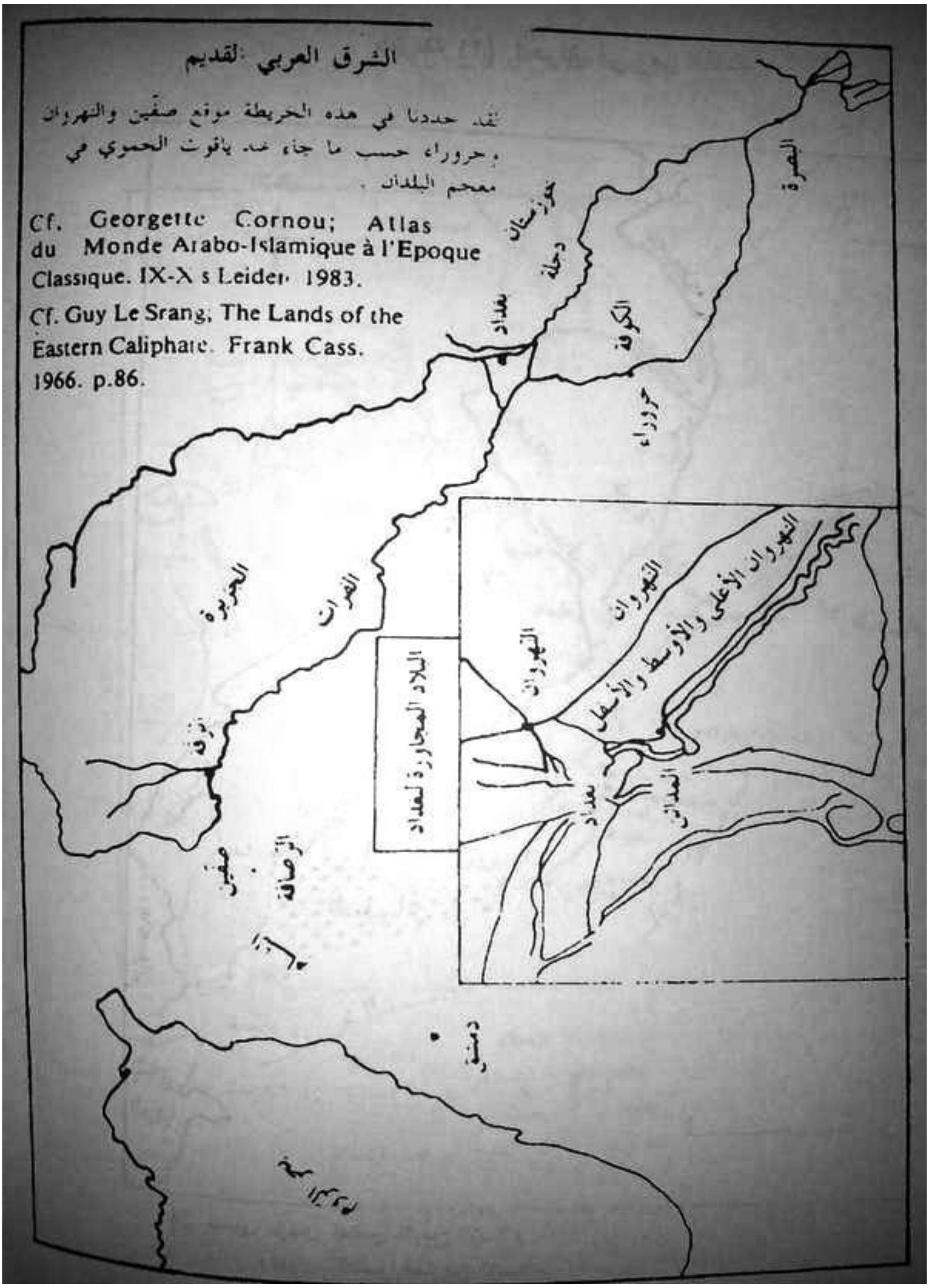

٧ ـ دومة الجندل ... على مشارف الشام

٨ ـ سرت ... مدينة بين برقة وطرابلس

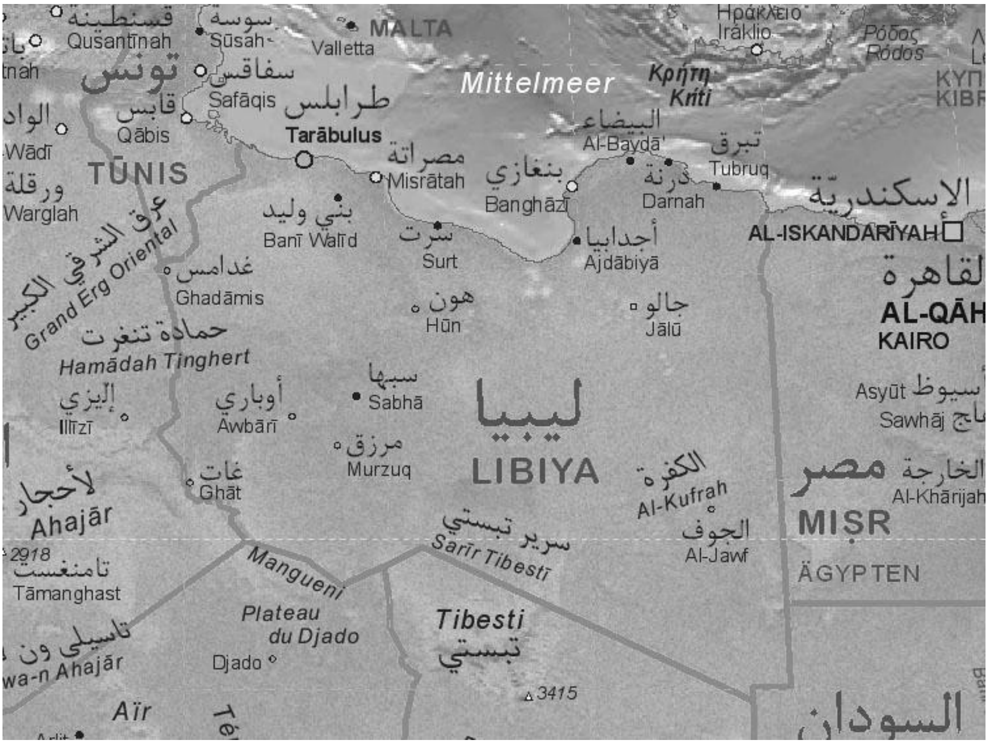

٩ ـ القيروان

البحر الابيض المتوسط
بنزرت
رأس اذار
ايطاليا
عنابة
سكيكدة
باجة
العريانة
تونس
بانتلاريا
جندوبة
قسنطينة
نابل
الكاف
سيلانة
سوسة
مالطة
القيروان
معاكن
تبسة
المهدية
القصرين
صفاقس
البحر الابيض المتوسط
قفصة
حومة السوق
الجزائر
توزر
قابس
جزيرة جربة
قبلي
مدنين
طرابلس
ورقلة
الدويرات
تونس
100كم
100ميل
ليبيا
36
33
30
6
9
12
15

١٠ ـ خريطة المدينة المنورة

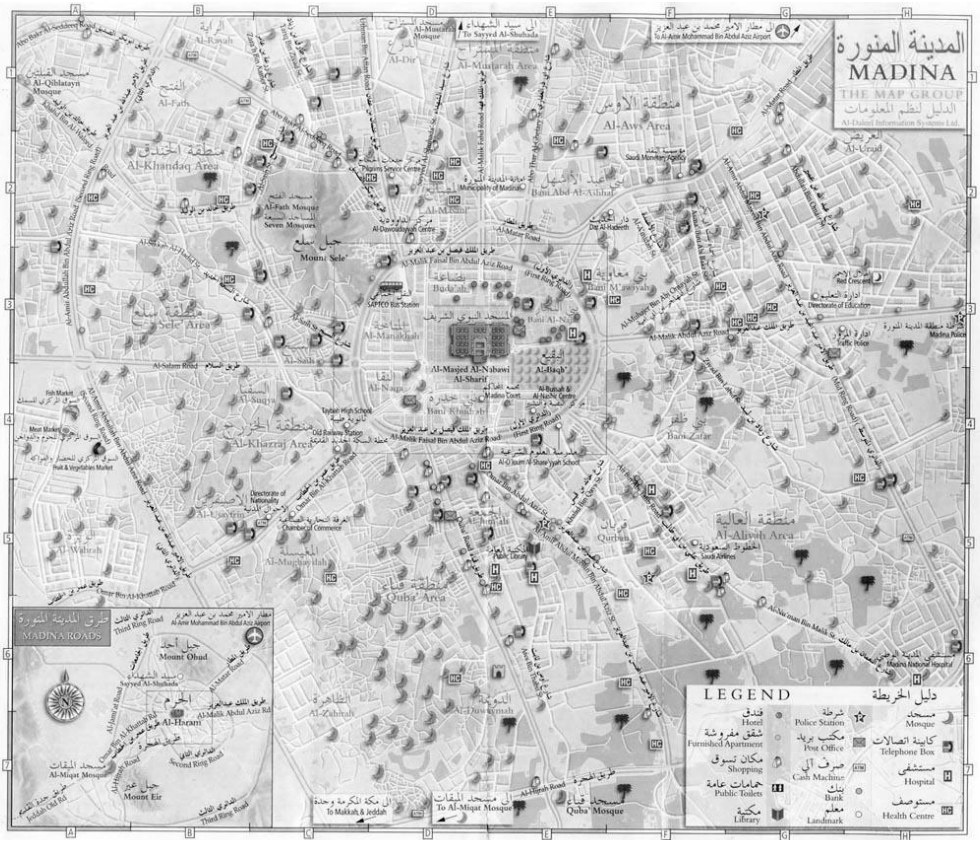

قائمة المصادر والمراجع

أولًا: المصادر:

١- ابن أبي الدنيا: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ). الإشراف في منازل الأشراف، المحقق: د. نجم عبد الرحمن خلف، الناشر: مكتبة الرشد ـ الرياض ـ السعودية، الطبعة: الأولى، (١٤١١هـ -١٩٩٠م).

٢- ابن أبي عاصم: أبو بكر بن أبي عاصم وهو أحمد بن عمرو بن الضحاك ابن مخلد الشيباني (المتوفى: ٢٨٧هـ) الآحاد والمثاني، المحقق: د. باسم فيصل أحمد الجوابرة، الناشر: دار الراية ـ الرياض، الطبعة: الأولى (١٤١١هـ – ١٩٩١م)، عدد الأجزاء: ٦.

٣- ابن أبي عاصم: أبو بكر بن أبي عاصم وهو أحمد بن عمرو بن الضحاك ابن مخلد الشيباني (المتوفى: ٢٨٧هـ) كتاب السنة: المحقق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي ـ بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٠هـ، عدد الأجزاء: ٢.

٤- ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (المتوفى: ٦٣٠هـ) الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة: الأولى (١٤١٧هـ-١٩٩٧م)، عدد الأجزاء: ١٠.

٥- ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (المتوفى: ٦٣٠هـ) أسد الغابة

في معرفة الصحابة، المحقق: علي محمد معوض ـ عادل أحمد عبد الموجود الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، سنة النشر: (١٤١٥هـ-١٩٩٤م)، عدد الأجزاء: ٨.

٦- ابن الأثير: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ) النهاية في غريب الحديث والأثر، الناشر: المكتبة العلمية ـ بيروت (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ـ محمود محمد الطناحي، عدد الأجزاء: ٥.

٧- ابن الجوزي: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، المحقق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م)، عدد الأجزاء: ١٩.

٨- ابن الحائك الهمداني: أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف ابن داود الشهير بالهمداني (المتوفى: ٣٣٤هـ)، صفة جزيرة العرب، طبعة: مطبعة بريل ـ ليدن، ١٨٨٤م.

٩- ابن الحداد محمد بن منصور بن حبيش (المتوفى: بعد ٦٧٣هـ)، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز ـ مكة / الرياض الطبعة الأولى ١٩٩٦م.

١٠- ابن الضياء: محمد بن أحمد بن الضياء محمد القرشي العمري المكي الحنفي، بهاء الدين أبو البقاء، المعروف بابن الضياء (المتوفى: ٨٥٤هـ) تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف، المحقق: علاء إبراهيم، أيمن نصر، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت / لبنان، الطبعة: الثانية (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م).

١١- ابن العبري: غريغوريوس (واسمه في الولادة يوحنا) ابن أهرون (أو هارون) بن توما الملطي، أبو الفرج المعروف بابن العبري (المتوفى: ٦٨٥هـ) تاريخ مختصر الدول، المحقق: أنطون صالحاني اليسوعي، الناشر: دار الشرق، بيروت، الطبعة: الثالثة ١٩٩٢م.

١٢- ابن العربي: القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الإشبيلي المالكي (المتوفى: ٥٤٣هـ) العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ـ ﷺ ـ ، تحقيق محب الدين الخطيب ـ ومحمود مهدي الاستانبولي الناشر: دار الجيل بيروت ـ لبنان الطبعة: الثانية (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م)، عدد الأجزاء: ١.

١٣- ابن العماد: عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح (المتوفى: ١٠٨٩هـ) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، حققه: محمود الأرناؤوط، خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط. الناشر: دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت الطبعة: الأولى (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م) عدد الأجزاء: ١١.

١٤- ابن الفقيه: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهمداني المعروف بابن الفقيه (ت ٣٦٥)، البلدان، المحقق: يوسف الهادي، الناشر: عالم الكتب، بيروت، الطبعة: الأولى (١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م).

١٥- ابن القيم: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، المحقق: علي بن محمد الدخيل الله، الناشر: دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى ١٤٠٨هـ، عدد الأجزاء: ٤.

١٦- ابن النجار: محب الدين أبو عبد الله محمد بن محمود بن الحسن المعروف بابن النجار، (المتوفى: ٦٤٣هـ) الدرة الثمينة في أخبار المدينة المحقق: حسين محمد علي شكري، الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم.

١٧- ابن تغري بردي: يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (المتوفى: ٨٧٤هـ) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الناشر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، عدد الأجزاء: ١٦.

١٨- ابن تيمية: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية المحقق: محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م)، عدد المجلدات: ٩.

١٩- ابن تيمية: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨هـ) مجموع الفتاوى المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: (١٤١٦هـ- ١٩٩٥م).

٢٠- ابن حبان: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ) السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، صحّحه وعلق عليه الحافظ السيد عزيز بك، الناشر: الكتب الثقافية بيروت الطبعة: الثالثة (١٤١٧هـ-١٩٩٥م)، عدد الأجزاء: ٢.

٢١- ابن حبان: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ) الثقات، طبع بإعانة: وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية، تحت مراقبة: محمد عبد المعيد خان مدير دائرة المعارف العثمانية، الناشر: دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند، الطبعة: الأولى (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م)، عدد الأجزاء: ٩.

٢٢- ابن حبان: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ) صحيح ابن حبان، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت الطبعة: الأولى (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م)، عدد الأجزاء: ١٨.

٢٣- ابن حبان: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ) السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، صحّحه وعلق عليه الحافظ السيد عزيز بك وجماعة من العلماء، الناشر: الكتب الثقافية ـ بيروت، الطبعة: الثالثة ١٤١٧هـ، عدد الأجزاء: ٢.

٢٤- ابن حجر: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ) تهذيب التهذيب، الناشر: مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، الطبعة: الطبعة الأولى ١٣٢٦هـ، عدد الأجزاء: ١٢.

٢٥- ابن حجر العسقلاني: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد ابن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ) الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٥هـ عدد الأجزاء: ٨.

٢٦- ابن حجر العسقلاني: تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة، المحقق: إكرام الله إمداد الحق، الناشر: دار البشائر ـ بيروت، الطبعة: الأولى ١٩٩٦م، عدد الأجزاء: ٢.

٢٧- ابن حجر الهيتمي: أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري، شهاب الدين شيخ الإسلام، أبو العباس (المتوفى: ٩٧٤هـ) الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة، المحقق: عبد الرحمن بن عبد الله التركي ـ كامل محمد الخراط، الناشر: مؤسسة الرسالة ـ لبنان، الطبعة: الأولى (١٤١٧هـ - ١٩٩٧م)، عدد الأجزاء: ٢.

٢٨- ابن حجر: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ) لسان الميزان، المحقق: دائرة المعرف النظامية ـ الهند، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت ـ لبنان، الطبعة: الثانية (١٣٩٠هـ - ١٩٧١م)، عدد الأجزاء: ٧.

٢٩- ابن حجر: أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ) المطَالبُ العَاليَةُ بِزَوَائِدِ المسَانيد الثّمَانِيَةِ، الناشر: دار العاصمة للنشر والتوزيع ـ الطبعة الأولى ١٩٩٨م، عدد الأجزاء: ١٩.

٣٠- ابن حجر: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ) فتح الباري شرح صحيح البخاري، الناشر: دار المعرفة ـ بيروت ١٣٧٩هـ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، عدد الأجزاء: ١٣.

٣١- ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ) الفصل في الملل والأهواء والنحل، الناشر: مكتبة الخانجي ـ القاهرة، عدد الأجزاء: ٥.

٣٢- ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ) جمهرة أنساب العرب، تحقيق: لجنة من العلماء، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة: الأولى (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).

٣٣- ابن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ) فضائل الصحابة، المحقق: د. وصي الله محمد عباس، الناشر: مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة: الأولى (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).

٣٤- ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، (المتوفى: ٨٠٨هـ) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، المحقق: خليل شحادة، الناشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثانية (١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م)، عدد الأجزاء: ٨.

٣٥- ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (المتوفى: ٦٨١هـ) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر ـ بيروت.

٣٦- ابن خياط: أبو عمرو خليفة بن خياط بن خليفة الشيباني العصفري البصري (المتوفى: ٢٤٠هـ) تاريخ خليفة بن خياط، المحقق: د. أكرم ضياء العمري، الناشر: دار القلم, مؤسسة الرسالة ـ دمشق, بيروت، الطبعة: الثانية ١٣٩٧هـ.

٣٧- ابن سعد: أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد (المتوفى: ٢٣٠هـ) الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة: الأولى ١٩٩٠م، عدد الأجزاء: ٨.

٣٨- ابن سعد: أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد (المتوفى: ٢٣٠هـ) الطبقات الكبرى، المحقق: زياد محمد منصور، الناشر: مكتبة العلوم والحكم ـ المدينة المنورة، الطبعة: الثانية ١٤٠٨هـ.

٣٩- ابن شبة: عمر بن شبة (واسمه زيد) بن عبيدة بن ريطة النميري البصري، أبو زيد (المتوفى: ٢٦٢هـ)، تاريخ المدينة، طبعة: (١٣٩٩هـ -١٩٧٧م).

٤٠- ابن طولون: شمس الدين محمد بن علي بن خمارويه بن طولون الدمشقي، قيد الشريد من أخبار يزيد، تحقيق: د. فاطمة مصطفى عامر، الناشر: دار العلوم للطباعة ـ القاهرة.

٤١- ابن عباد: إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم الطالقاني، المشهور بالصاحب بن عباد، (المتوفى: ٣٨٥هـ) المحيط في اللغة.

٤٢- ابن عبد البر: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر ابن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ) الاستيعاب في معرفة الأصحاب المحقق: علي محمد البجاوي، الناشر: دار الجيل، بيروت الطبعة: الأولى (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م)، عدد الأجزاء: ٤.

٤٣- ابن عبد ربه: أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب بن حدير بن سالم المعروف بابن عبد ربه الأندلسي (المتوفى: ٣٢٨هـ) العقد الفريد، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٠٤هـ عدد الأجزاء: ٨.

٤٤- ابن عساكر: تاريخ دمشق، ترجمة الحسين ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ، وانظر: المزي: يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، أبو الحجاج، جمال الدين ابن الزكي أبي محمد القضاعي الكلبي المِزِّيّ (المتوفى: ٧٤٢هـ) تهذيب الكمال في أسماء الرجال، المحقق: د. بشار عواد معروف، الناشر: مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة: الأولى (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م)، عدد الأجزاء: ٣٥.

٤٥- ابن عساكر: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (المتوفى: ٥٧١هـ)، تاريخ دمشق، المحقق: عمرو بن غرامة العمروي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عام النشر: (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م)، عدد الأجزاء: ٨٠.

٤٦- ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ) عيون الأخبار، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت، تاريخ النشر: ١٤١٨ هـ، عدد الأجزاء: ٤.

٤٧- ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية (١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م)، عدد الأجزاء: ٨، تفسير سورة الأنعام.

٤٨- ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، المحقق: علي شيري، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الأولى ١٩٨٨م، عدد الأجزاء: ١٤.

٤٩- ابن منظور: محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين بن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ) لسان العرب، الناشر: دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة ١٤١٤هـ عدد الأجزاء: ١٥.

٥٠- ابن هشام: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: ٢١٣هـ)، السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ الشلبي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الثانية (١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م)، عدد الأجزاء: ٢.

٥١- أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي (المتوفى: ٨٢١هـ) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، المحقق: إبراهيم الإبياري، الناشر: دار الكتاب اللبنانين، بيروت، الطبعة: الثانية (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).

٥٢- أبو العرب: محمد بن أحمد بن تميم التميمي المغربي الإفريقي، أبو العرب (المتوفى: ٣٣٣هـ) المحن، المحقق: د عمر سليمان العقيلي، الناشر: دار العلوم - الرياض - السعودية، الطبعة: الأولى (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).

٥٣- أبو الفدا: أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، الملك المؤيد، صاحب حماة (المتوفى: ٧٣٢هـ) المختصر في أخبار البشر، الناشر: المطبعة الحسينية المصرية، الطبعة: الأولى، عدد الأجزاء: ٤.

٥٤- أبو الفلاح: عبد الحي بن أحمد بن محمد بن العماد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح (المتوفى: ١٠٨٩هـ) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، حققه: محمود الأرناؤوط، خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، الناشر: دار ابن كثير، دمشق - بيروت الطبعة: الأولى (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م)، عدد الأجزاء: ١١.

٥٥- أبو القاسم التيمي: إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي التيمي، توفي (٥٣٥) الخلفاء الأربعة أيامهم وسيرتهم، حققه كرم حلمي فرحات أبو صيري، الناشر: مطبعة دار الكتب المصرية عام ١٩٩٩م.

٥٦- أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (المتوفى: ٣٢١هـ) جمهرة اللغة، المحقق: رمزي منير بعلبكي، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الأولى ١٩٨٧م عدد الأجزاء: ٣.

٥٧- أبو جعفر البغدادي: محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي، بالولاء، أبو جعفر البغدادي، (المتوفى: ٢٤٥هـ) المحبر، تحقيق: إيلزة ليختن شتيتر، الناشر: دار الآفاق الجديدة، بيروت.

٥٨- أبو حاتم، الدارمي: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ) السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، صحّحه وعلق عليه الحافظ السيد عزيز بك وجماعة من العلماء، الناشر: الكتب الثقافية - بيروت، الطبعة: الثالثة ١٤١٧هـ، عدد الأجزاء: ٢.

٥٩- أبو داود: سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ) سنن أبي داود، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، عدد الأجزاء: ٤.

٦٠- أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ) مسند الإمام أحمد بن حنبل المحقق: أحمد محمد شاكر الناشر: دار الحديث ـ القاهرة، الطبعة: الأولى (١٤١٦هـ - ١٩٩٥م)، عدد الأجزاء: ٨.

٦١- أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي: (المتوفى: ٤٨٧هـ)، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، الناشر: عالم الكتب، بيروت، الطبعة: الثالثة ١٤٠٣هـ، عدد الأجزاء: ٤.

٦٢- أَبِي دَاود سُليمان بْنِ الأشعثِ الأَزْدِي السِّجِسْتَانِيِّ ٢٠٢هـ - ٢٧٥هـ، سُنَن أَبِي دَاوُد، حقّقهُ وَضَبطَ نَصَّهُ وَخرَّجَ أَحَاديثهُ وَعَلَّقَ عَلَيه، شعَيب الأرنؤوط ومحَمَّد كامِل قره بللي.

٦٣- أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي ت(٨٥٢هـ)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، الناشر: دار المعرفة ـ بيروت ١٣٧٩هـ، عدد الأجزاء: ١٣.

٦٤- الأزرقي أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن الوليد بن عقبة بن الأزرق الغساني المكي المعروف بالأزرقي (المتوفى: ٢٥٠هـ) أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، المحقق: رشدي الصالح ملحس، الناشر: دار الأندلس للنشر ـ بيروت، عدد الأجزاء: ٢.

٦٥- الأصبهاني: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى ابن مهران الأصبهاني، (المتوفى: ٤٣٠هـ) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الناشر: السعادة ـ القاهرة (١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م)، ١٠ج.

٦٦- الأصفهاني: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢هـ)، المفردات في غريب القرآن، المحقق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية ـ دمشق ـ بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٢هـ.

٦٧- الأنباري: محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، أبو بكر الأنباري (المتوفى: ٣٢٨هـ)، الزاهر في معاني كلمات الناس، الناشر: مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة: الأولى (١٤١٢هـ -١٩٩٢م)، عدد الأجزاء: ٢.

٦٨- البخاري: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ)، التاريخ الأوسط، المحقق: محمود إبراهيم زايد، الناشر: دار الوعي, مكتبة دار التراث ـ حلب, القاهرة، الطبعة: الأولى (١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م)، عدد الأجزاء: ٢.

٦٩- البخاري: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ) التاريخ الكبير، الطبعة: دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد ـ الدكن، طبع تحت مراقبة: محمد عبد المعيد خان، عدد الأجزاء: ٨.

٧٠- بدر الدين العيني، (المتوفى: ٨٥٥هـ) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، الناشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، عدد الأجزاء: ٢٥.

٧١- بشار عواد معروف: مقدمة تحقيق سير أعلام النبلاء للذهبي، الناشر: مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة: الثالثة ١٤٠٥هـ.

٧٢- البَلاَذُري: أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البَلاَذُري (المتوفى: ٢٧٩هـ) أنساب الأشراف، تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي، الناشر: دار الفكر ـ بيروت، الطبعة: الأولى (١٤١٧هـ -١٩٩٦م)، عدد الأجزاء: ١٣.

٧٣- ابن أبي شيبة: أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم ابن عثمان بن خواستي العبسي (المتوفى: ٢٣٥هـ) الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، المحقق: كمال يوسف الحوت، الناشر: مكتبة الرشد ـ الرياض الطبعة: الأولى ١٤٠٩عدد الأجزاء: ٧.

٧٤- البيهقي: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي، (المتوفى: ٤٥٨هـ) السنن الكبرى، المحقق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنات، الطبعة: الثالثة (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م).

٧٥- الثعالبي: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (المتوفى: ٤٢٩هـ) التمثيل والمحاضرة، المحقق: عبد الفتاح محمد الحلو، الناشر: الدار العربية للكتاب، الطبعة: الثانية (١٤٠١ هـ - ١٩٨١م) (ص ٤١)، والطبري، «تاريخ الرسل والملوك» (٦/ ٣١٠).

٧٦- جمال الدين بن منظور الانصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، المحقق: روحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد، محمد مطيع، دار النشر: دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق ـ سوريا، الطبعة: الأولى (١٤٠٢هـ - ١٩٨٤م)، عدد الأجزاء: ٢٩.

٧٧- جمال الدين بن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ) لسان العرب، دار صادر ـ بيروت الطبعة: الثالثة ١٤١٤هـ، عدد الأجزاء: ١٥.

٧٨- الجورقاني: الحسين بن إبراهيم بن الحسين بن جعفر، أبو عبد الله الهمذاني الجورقاني (المتوفى: ٥٤٣هـ) الأباطيل والمناكير والصحاح والمشاهير، تحقيق وتعليق: الدكتور عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي، الناشر: دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض ـ المملكة العربية السعودية، مؤسسة دار الدعوة التعليمية الخيرية، الهند، الطبعة: الرابعة (١٤٢٢هـ -٢٠٠٢م)، عدد الأجزاء: ٢.

٧٩- الجويني: عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين (المتوفى: ٤٧٨هـ) لمع الأدلة في

قواعد عقائد أهل السُّنَّة والجماعة، المحقق: فوقية حسين محمود، الناشر: عالم الكتب ـ لبنان، الطبعة: الثانية (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).

٨٠- الحاكم: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه ابن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ) المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت الطبعة: الأولى (١٤١١هـ - ١٩٩٠م)، عدد الأجزاء: ٤.

٨١- حدود العالم من المشرق إلى المغرب، المؤلف: مجهول (توفي: بعد ٣٧٢هـ). تحقيق وترجمة، السيد يوسف الهادي الناشر: الدار الثقافية للنشر، القاهرة، الطبعة ١٤٢٣هـ.

٨٢- الحسني الفاسي: محمد بن أحمد بن علي، تقي الدين، أبو الطيب المكي الحسني الفاسي، (المتوفى: ٨٣٢هـ) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى ٢٠٠٠م عدد الأجزاء: ٢(٢/١٠٤).

٨٣- الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ) معجم البلدان، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الثانية ١٩٩٥م، عدد الأجزاء: ٧.

٨٤- الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ)، (معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى (١٤١٤هـ - ١٩٩٣م)، عدد الأجزاء: ٧ (٦/٢٥٤٦).

٨٥- الحميري: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحِميري (المتوفى: ٩٠٠هـ)، الروض المعطار في خبر الأقطار، المحقق: إحسان عباس،

الناشر: مؤسسة ناصر للثقافة ـ بيروت ـ طبع على مطابع دار السراج، الطبعة: الثانية ١٩٨٠م، عدد الأجزاء: ١.

٨٦- الخطيب البغدادي: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ) تاريخ بغداد، المحقق: الدكتور بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي ـ بيروت، الطبعة: الأولى (١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م)، عدد الأجزاء: ١٦.

٨٧- الخلال: أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد الخَلاَّل البغدادي الحنبلي (المتوفى: ٣١١هـ) السنة، المحقق: عطية الزهراني، الناشر: دار الراية ـ الرياض الطبعة: الأولى (١٤١٠هـ - ١٩٨٩م)، عدد الأجزاء: ٧.

٨٨- خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ)، الأعلام، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشرة ٢٠٠٢م.

٨٩- الدينوري: أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري (المتوفى: ٢٨٢هـ) الأخبار الطوال، تحقيق: عبد المنعم عامر، مراجعة: جمال الدين الشيال، الناشر: دار إحياء الكتب العربي ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه ـ القاهرة، الطبعة: الأولى ١٩٦٠م، عدد الأجزاء: ١.

٩٠- الذهبي: تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام، المحقق: بشار عوّاد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م عدد الأجزاء: ١٥.

٩١- الذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ) سير أعلام النبلاء، الناشر: دار الحديث ـ القاهرة، (١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م)، عدد الأجزاء: ١٨.

٩٢- الرازي: زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ)، مختار الصحاح، المحقق: يوسف الشيخ محمد، الناشر: المكتبة العصرية ـ الدار النموذجية، بيروت ـ الطبعة: الخامسة (١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م).

٩٣- الزَّبيدي: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ) تاج العروس من جواهر القاموس، الناشر: دار الهداية، عدد الأجزاء: ١٥.

٩٤- الزبير بن بكار بن عبد الله القرشي الأسدي المكي (المتوفى: ٢٥٦هـ) جمهرة نسب قريش وأخبارها، المحقق: محمود محمد شاكر، الناشر: مطبعة المدني، عام النشر ١٣٨١هـ.

٩٥- الزبيري: مصعب بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله ابن الزبير، أبو عبد الله الزبيري (المتوفى: ٢٣٦هـ) نسب قريش، المحقق: ليفي بروفنسال، أستاذ اللغة والحضارة بالسوربون، ومدير معهد الدروس الإسلامية بجامعة باريس ـ سابقًا، الناشر: دار المعارف، القاهرة، الطبعة: الثالثة، عدد الأجزاء: ١.

٩٦- الزركلي: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ) الأعلام، الناشر: دار العلم للملايين.

٩٧- السمهودي: علي بن عبد الله بن أحمد الحسني الشافعي، نور الدين أبو الحسن السمهودي، (المتوفى: ٩١١هـ) وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة: الأولى (١٤١٩هـ - ١٩٩٩م)، عدد الأجزاء: ٤.

٩٨- السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ) طبقات الحفاظ، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ.

٩٩- السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، تاريخ الخلفاء، المحقق: حمدي الدمرداش، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز، الطبعة الأولى (١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م).

١٠٠- السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار إحياء الكتب العربية ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه ـ مصر، الطبعة: الأولى (١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م)، عدد الأجزاء: ٢.

١٠١- السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المزهر في علوم اللغة وأنواعها المحقق: فؤاد علي منصور، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى (١٤١٨هـ - ١٩٩٨م)، عدد الأجزاء: ٢.

١٠٢- الشوكاني: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، الناشر: دار المعرفة ـ بيروت، عدد الأجزاء: ٢.

١٠٣- صفي الدين: عبد المؤمن بن عبد الحق، ابن شمائل القطيعي البغدادي، الحنبلي، صفيّ الدين (المتوفى: ٧٣٩ هـ) مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، الناشر: دار الجيل، بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٢ هـ، عدد الأجزاء: ٣.

١٠٤- الطبري: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري (صلة

تاريخ الطبري لعريب بن سعد القرطبي، المتوفى: ٣٦٩هـ) الناشر: دار التراث ـ بيروت، الطبعة: الثانية ١٣٨٧هـ، عدد الأجزاء: ١١.

١٠٥- عبد الحي بن أحمد بن محمد بن العماد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح (المتوفى: ١٠٨٩هـ) شذرات الذهب، حققه: محمود الأرناؤوط، خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، الناشر: دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، الطبعة: الأولى (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م)، عدد الأجزاء: ١١.

١٠٦- عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله بن صفوان النصري المشهور بأبي زرعة الدمشقي الملقب بشيخ الشباب (المتوفى: ٢٨١هـ)، تاريخ أبي زرعة الدمشقي، دراسة وتحقيق: شكر الله نعمة الله القوجاني (أصل الكتاب رسالة ماجستير بكلية الآداب ـ بغداد) الناشر: مجمع اللغة العربية ـ دمشق.

١٠٧- عبد الرزاق الصنعاني: أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (المتوفى: ٢١١هـ) المصنف، المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: المجلس العلمي ـ الهند، الطبعة: الثانية ١٤٠٣هـ عدد الأجزاء: ١١.

١٠٨- عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني المروزي، أبو سعد (المتوفى: ٥٦٢هـ) الأنساب، المحقق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، الناشر: مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الطبعة: الأولى (١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م).

١٠٩- العصامي: عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكي (المتوفى: ١١١١هـ) سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، المحقق: عادل أحمد عبد الموجود ـ علي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة: الأولى (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م)، عدد الأجزاء: ٤.

١١٠- علاء الدين مغلطاوي بن قلنج بن عبد الله البكجري الحنفي، المتوفي (٧٦٢هـ) مختصر تاريخ الخلفاء، الناشر دار الفجر، طبعة عام ٢٠٠١م.

١١١- الفاسي: محمد بن أحمد بن علي، تقي الدين، أبو الطيب المكي الحسني الفاسي (المتوفى: ٨٣٢هـ) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى (١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م)، عدد الأجزاء: ٢.

١١٢- القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ) الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية القاهرة، الطبعة: الثانية (١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م)، عدد الأجزاء: ٢٠.

١١٣- القلقشندي أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي (المتوفى: ٨٢١هـ)، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان المحقق: إبراهيم الإبياري، الناشر: دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني الطبعة: الثانية (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م).

١١٤- القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي (المتوفى: ٨٢١هـ) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، المحقق: إبراهيم الإبياري، الناشر: دار الكتاب اللبنانين، بيروت، الطبعة: الثانية (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م)، عدد الأجزاء: ١.

١١٥- الكلبي: أبو المنذر هشام بن محمد أبي النضر بن السائب بن بشر الكلبي (المتوفى: ٢٠٤هـ) كتاب الأصنام، المحقق: أحمد زكي باشا، الناشر: دار الكتب المصرية ـ القاهرة الطبعة: الرابعة ٢٠٠٠م.

١١٦- مؤلف مجهول (توفي: بعد ٣٧٢هـ)، حدود العالم من المشرق إلى المغرب، حققه: السيد يوسف الهادي، الناشر: الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ١٤٢٣هـ.

١١٧- صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي [الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ـ ﷺ ـ وسننه وأيامه = صحيح البخاري]، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ، عدد الأجزاء: ٩.

١١٨- مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (المتوفى: ١٧٩هـ) [الموطأ]، المحقق: محمد مصطفى الأعظمي، الناشر: مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية ـ أبو ظبي ـ الإمارات، الطبعة: الأولى (١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م)، عدد الأجزاء: ٨.

١١٩- الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ)، الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي وهو شرح مختصر المزني، المحقق: علي محمد معوض ـ عادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة: الأولى (١٤١٩هـ - ١٩٩٩م) عدد الأجزاء: ١٩.

١٢٠- المبرد: محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي، أبو العباس، المعروف بالمبرد (المتوفى: ٢٨٥هـ) التعازي [والمراثي والمواعظ والوصايا]، تحقيق: إبراهيم محمد حسن الجمل، مراجعة: محمود سالم، الناشر: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

١٢١- محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس (المتوفى: ٢٨٥هـ) نسب عدنان وقحطان، المحقق: عبد العزيز الميمنىّ الراجكوتيّ، الناشر: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ الهند، عام النشر ١٩٣٦م.

١٢٢- محمد يحيى الأندلسي: أبو عبد الله محمد بن يحيى بن محمد بن يحيى ابن أحمد بن محمد بن بكر الأشعري المالقي الأندلسي (المتوفى: ٧٤١هـ) التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان، المحقق: د. محمود يوسف زايد الناشر: دار الثقافة ـ الدوحة، الطبعة: الأولى ١٤٠٥هـ.

١٢٣- مسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ، المؤلف: المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، عدد الأجزاء: ٥.

١٢٤- مصعب الزبيري: مصعب بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله ابن الزبير، أبو عبد الله الزبيري (المتوفى: ٢٣٦هـ) نسب قريش، الناشر: دار المعارف، القاهرة، الطبعة: الثالثة.

١٢٥- المقريزي: رسائل المقريزي، الناشر: دار الحديث، القاهرة، الطبعة: الأولى ١٤١٩هـ.

١٢٦- نصر بن مزاحم المنقري: (المتوفي سنة ٢١٢هـ)وقعة صفين، تحقيق عبد السلام هارون، الناشر: دار الجيل بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٠م.

١٢٧- النووي: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، الناشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة: الثانية ١٣٩٢هـ، عدد الأجزاء: ١٨.

١٢٨- النويري: أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري (المتوفى: ٧٣٣هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، الناشر: دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة: الأولى ١٤٢٣هـ، عدد الأجزاء: ٣٣.

١٢٩- الهيثمي: أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧هـ)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، المحقق: حسام الدين القدسي الناشر: مكتبة القدسي، القاهرة، عام النشر (١٤١٤هـ - ١٩٩٤م)، عدد الأجزاء: ١٠.

١٣٠- الهيثمي: كشف الأستار عن زوائد البزار، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى (١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م)، عدد الأجزاء: ٤.

١٣١- الواقدي: محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء، المدني، أبو عبد الله، الواقدي (المتوفى: ٢٠٧هـ) المغازي، تحقيق: مارسدن جونس، الناشر: دار الأعلمي ـ بيروت، الطبعة: الثالثة ١٩٨٩م. عدد الأجزاء: ٣.

١٣٢- يعقوب بن سفيان بن جوان الفارسي الفسوي، أبو يوسف (المتوفى: ٢٧٧هـ) المعرفة والتاريخ، المحقق: أكرم ضياء العمري الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت الطبعة: الثانية، (١٤٠١هـ - ١٩٨١م)، عدد الأجزاء: ٣.

١٣٣- اليعقوبي: أحمد بن إسحاق (أبي يعقوب) بن جعفر بن وهب ابن واضح اليعقوبي (المتوفى: بعد ٢٩٢هـ)، الكتاب: البلدان، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة: الأولى (١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م)، عدد الأجزاء: ١.

ثانيًا: الموسوعات والمعاجم والقواميس:

١- القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، الطبعة: الثامنة (١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م).

٢- المعجم الوسيط، المؤلف: مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى ـ أحمد الزيات ـ حامد عبد القادر ـ محمد النجار) الناشر: دار الدعوة.

٣- عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية. أعده للشاملة: أسامة بن الزهراء، عدد الأجزاء: ٧.

٤- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إصدار: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، إشراف وتخطيط ومراجعة: د. مانع بن حماد الجهني، الناشر: دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة ١٤٢٠هـ، عدد الأجزاء: ٢.

ثالثًا: المراجع:

١- أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري (المتوفى: ١٣٥٣هـ) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت، عدد الأجزاء: ١٠

٢- أبو صفوان ذياب بن سعد بن علي بن حمدان بن أحمد بن محفوظ آل حمدان الغامدي الأزدي: تسديد الإِصَابَةِ فِيْمَا شَجَرَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ، راجعه وقرظه: صَالِح ابنِ فَوْزانَ الفَوْزان، الناشر: مكتبة المورد، الطبعة: الثانية ١٤٢٥هـ.

٣- أحمد إبراهيم الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ـ ﷺ ـ، الناشر: دار الفكر العربي.

٤- أحمد السباعي، تاريخ مكة، دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران، الناشر: مكتبة الملك فهد الوطنية، طبعة عام ٢٠٠٥م.

٥- أحمد أمين سليم، معالم تاريخ العرب قبل الإسلام، الناشر، كريدية إخوان بيروت.

٦- أحمد رحيم هبو، تاريخ العرب قبل الإسلام، السياسي والحضاري، مديرية الكتب والمطبوعات، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.

٧- أحمد زكي صفوت: جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، الناشر: المكتبة العلمية بيروت ـ لبنان، عدد الأجزاء: ٣.

٨- أحمد شبلي: موسوعة التاريخ الإسلامي، الناشر: مكتبة النهضة المصرية، الطبعة السابعة ١٩٨٤م.

٩- أحمد عبد الحميد العباسي، عمدة الأخبار في مدينة المختار، المكاتب الأميرية.

١٠- أحمد معمور العسيري، موجز التاريخ الإسلامي، طبعة (١٤١٧هـ - ١٩٩٦م).

١١- أكرم بن ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة محاولة لنقد الرواية التاريخية وفق منهج المحدثين، أكرم بن ضياء العمري، الناشر: مكتبة العبيكان ـ الرياض، الطبعة: الأولى (١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م).

١٢- أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الأولى (١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م)، عدد الأجزاء: ٤.

١٣- الألباني: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي ابن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، صحيح الجامع الصغير وزياداته، الناشر: المكتب الإسلامي، عدد الأجزاء: ٢.

١٤- توفيق برو، تاريخ العرب القديم، الناشر: دار الفكر، الطبعة الثانية (١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م).

١٥- جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر، أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الخامسة ٢٠٠٣م، عدد الأجزاء: ٥.

١٦- جرجى زيدان، العرب قبل الإسلام، الطبعة الثانية ١٩٢٢م، الناشر: دار الهلال.

١٧- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الناشر: دار الساقي، الطبعة: الرابعة (١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م)، عدد الأجزاء: ٢٠.

١٨- حسين الشيخ، دراسات في الحضارة القديمة، العرب قبل الإسلام، الناشر: دار المعرفة، طبعة ١٩٩٣م.

١٩- حسين فؤاد طلبة، من أخلاق الخلفاء الراشدين، الناشر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، عام ١٩٧٧م.

٢٠- حمدي شاهين، الدولة الأموية المفترى عليها، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، الناشر: دار القاهرة للكتاب، ٢٠٠١م.

٢١- حمدي عبد المنعم حسين: الحضارة الإسلامية، دار المعرفة، ط (١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م).

٢٢- خالد كبير علال: تضارب روايات الفتنة الكبرى، جامعة الجزائر.

٢٣- سعدي بن مهدي الهاشمي، ابن سبأ حقيقة لا خيال، الناشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، طبعة عام (١٤٠٠هـ - ١٩٨١م).

٢٤- سعيد عبد الفتاح، سعد زغلول عبد الحميد، أحمد مختار العبادي، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية، دار المعرفة الجامعية، طبعة ٢٠١١م.

٢٥- سليمان بن عبد الله السويكت: الحملة الأخيرة على القسطنطينية في العصر الأموي، الناشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م).

٢٦- السيد عبد العزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب، الناشر: مؤسسة شباب الجامعة، ط ٢٠١٣م.

٢٧- السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، الناشر: مؤسسة شباب الجامعة، طبعة، ٢٠٠٤م.

٢٨- صادق ابراهيم عرجون، عثمان بن عفان، الناشر: الدار السعودية، الطبعة الثانية (١٤٠٢هـ - ١٩٨١م).

٢٩- صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، الناشر: دار الهلال بيروت، الطبعة، الأولى.

٣٠- عبد الباسط بدر، التاريخ الشامل للمدينة المنورة، الطبعة الأولى عام ١٩٩٣م.

٣١- عبد الشافي محمد عبد اللطيف: العالم الإسلامي في العصر الأموي (٤١ - ١٣٢هـ/ ٦٦١ - ٧٥٠ م) ـ دراسة سياسية، دار السلام، القاهرة، ط ١، (١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م).

٣٢- عبد العزيز صالح، تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة، الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية.

٣٣- عبد العزيز عبد الله الحميدي، الخلفاء الراشدون مواقف وعبر، الناشر: دار الدعوة، طبعة (١٣٢٦هـ - ٢٠٠٥م).

٣٤- عبد القادر بن ملا حويش السيد محمود آل غازي العاني، بيان المعاني، الناشر: مطبعة الترقي ـ دمشق، الطبعة: الأولى (١٣٨٢هـ - ١٩٦٥م)، عدد الأجزاء: ٦.

٣٥- عبد المحسن بن حمد بن عبد المحسن بن عبد الله بن حمد العباد البدر، عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة في الصحابة الكرام ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ وأرضاهم، الناشر: دار ابن خزيمة، الطبعة: الأولى (١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م).

٣٦- عَلي محمد محمد الصَّلاَّبي أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ (شخصيته وعصره ـ دراسة شاملة) الناشر: مكتبة الصحابة، الشارقة ـ الإمارات، عام النشر: (١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م)، عدد الأجزاء: ٢.

٣٧- عَلي محمد محمد الصَّلاَّبي، الدولَة الأمويَّة عَواملُ الازدهارِ وَتَداعيات الانهيار، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، الطبعة: الثانية (١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م)، عدد الأجزاء: ٢.

٣٨- عَلي محمد محمد الصَّلاَّبي، تيسير الكريم المنان في سيرة عثمان بن عفان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ شخصيته وعصره، الناشر: دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة ـ مصر، الطبعة: الأولى (١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م)، عدد الأجزاء: ١.

٣٩- عَلي محمد محمد الصَّلاَّبي، خلافة أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ ، الناشر: مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة ـ مصر، الطبعة: الأولى (١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م)، عدد الأجزاء: ١.

٤٠- عمر بن رضا بن محمد راغب بن عبد الغني كحالة الدمشق، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: السابعة ١٩٩٤م عدد الأجزاء: ٥.

٤١- لطفي عبد الوهاب، العرب في العصور القديمة، الناشر: دار المعرفة الجامعية الطبعة: الثانية، عدد الأجزاء:١.

٤٢- فواز بن فرحان الشمري: صحيح أخبار صفين والنهروان وعام الجماعة.

٤٣- مأمون غريب، خلافة عثمان بن عفان، مركز الكتاب للنشر، دون سنة طباعة.

٤٤- محد الزحيلي: تاريخ القضاء في الإسلام، دار الفكر، سوريا، ط ١٩٩٥م.

٤٥- محمد إبراهيم الفيومي، تاريخ الفكر الديني الجاهلي، الناشر: دار الفكر العربي، الطبعة: الرابعة ١٩٩٤م.

٤٦- محمد أحمد الفاسي المكي، الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة، الناشر: مكتبة الثقافة، الطبعة الأولى ٢٠٠١م.

٤٧- محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي، تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، الناشر: دار طوق النجاة، بيروت ـ لبنان الطبعة: الأولى ٢٠٠١م عدد الأجزاء: ٣٣.

٤٨- محمد الخضر بك: إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء، طبعة المكتبة التجارية الكبرى.

٤٩- محمد السيد الوكيل، جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين، الناشر: دار المجتمع، طبعة (١٣٢٣هـ - ٢٠٠٢م).

٥٠- محمد بن إبراهيم بن أحمد الحمد، مصطلحات في كتب العقائد الناشر: در ابن خزيمة، الطبعة: الأولى.

٥١- محمد بن طه، الأغصان الندية شرح الخلاصة البهية بترتيب أحداث السيرة النبوية، الناشر: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة - دار سبل السلام - الفيوم، الطبعة: الثانية (١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م).

٥٢- محمد بن عبد الرزاق بن محمَّد، كُرْد عَلي، خطط الشام، الناشر: مكتبة النوري، دمشق، الطبعة: الثالثة (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م)، عدد الأجزاء: ٦.

٥٣- محمد بن عبد الله بن عبد القادر غبان الصبحي، فتنة مقتل عثمان ابن عفان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م)، عدد الأجزاء: ٢.

٥٤- محمد بن عبد الهادي بن رزان الشيباني، مواقف المعارضة في عهد يزيد، دار طيبة للنشر، الرياض، طبعة ٢٠٠٩م.

٥٥- محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي، مختصر سيرة الرسول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، الناشر، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى (١٤١٨هـ - ١٩٩٧م).

٥٦- محمد بيومى مهران، دراسات في تاريخ العرب القديم، الناشر: دار المعرفة الجامعية، الطبعة: الثانية، عدد الأجزاء: ١.

٥٧- محمد رضا: عثمان بن عفان، ذو النورين. المكتبة الشاملة دون سنة طباعة.

٥٨- محمد سهيل طقوش، تاريخ الخلفاء الراشدين، الفتوحات والإنجازات السياسية، الناشر: دار النفائس، الطبعة الأولى (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م).

٥٩- محمد ضيف الله بطاينة: دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، دار الفرقان، عمان، طبعة ١٩٩٩م.

٦٠- محمد عبد الحميد الرفاعي وهاشم عبد الراضي محمد عيسى، التاريخ الأموي والعباسي، وهو الكتاب المقرر على الفرقة الثانية في كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، طبعة الجامعة ٢٠٠٨م.

٦١- محمد محمد حسن شُراب، المدينة النبوية في فجر الإسلام والعصر الراشدي، دار القلم: دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، عدد الأجزاء: ٣.

٦٢- محمد نجيب بو طالب، سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي، الناشر: مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م.

٦٣- محمود بن عبد الرحمن قدح، موجز تاريخ اليهود والرد على بعض مزاعمهم الباطلة، الناشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، طبعة عام ٢٠٠٩م.

٦٤- محمود عرفة محمود، العرب قبل الإسلام، أحوالهم الدينية والسياسية وأهم مظاهر حضارتهم، الناشر، عين للدراسات والبحوث، الطبعة الأولى ١٩٩٢م.

٦٥- مروة تهامي، المشاركة السياسية للمرأة في ثورتي مصر وليبيا ٢٠١١م، دراسة إنثروبولوجية ميدانية مقارنة، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة ٢٠١٣م.

٦٦- ناجي حسن: ثورة زيد بن علي، طبعة دار النهضة بغداد، عام ٢٠٠٧م.

٦٧- نبيلة حسن محمد: تاريخ الدولة العربية، الناشر: دار المعرفة، طبعة ٢٠٠٠م.

٦٨- نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ـ السعودية، الطبعة الثانية (١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م).

٦٩- يسري عبد الغني عبد الله: معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر الهجري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١٩٩١م.

رابعًا: المجلات:

١- مجلة لغة العرب العراقية ـ مجلة شهرية أدبية علمية تاريخية، الناشر: وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية ـ مديرية الثقافة العامة، عدد الأجزاء: ٩ (٨/ ٣٤)، وانظر: رسالة من رسائل الجاحظ المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم: (٢٨٥٥)، والتي نشرت بكتاب صدر عام ١٩٤٦م.

٢- مجلة البيان (العدد ٢٣٨) تصدر عن المنتدى الإسلامي، مقال بعنوان: «نظرة أين ذهب تاريخ الأدب».

خامسًا: الندوات والمؤتمرات والتقارير:

١- مصلحة الإحصاءات العامة والمعلومات، المملكة العربية السعودية.

٢- (رأي أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في معاوية والأُمويين) مذيلًا باسم ناشرها السيد: عزت العطار الحسيني.

سادسًا: مواقع الإنترنت:

١- موقع قصة الإسلام، راغب السرجاني.

٢- موقع جامعة أم القرى.

٣- شبكة أنا المسلم للحوار الإسلامي.

٤- موقع طريق الإسلام.

٥- موقع وزارة الأوقاف السعودية.

الفهرس

الموضوع **الصفحة**

إهداء ٥

تقديم فضيلة الشيخ/ محمد عبد الفتاح أبو إدريس ٧

تقديم الدكتور/ أحمد محمود فريد ٩

تقديم الدكتور/ ياسر حسين محمود ١٣

شكر وتقدير ١٥

مقدمة المؤلف ١٨

الفصل الأول: المسرح الجغرافي لأرض الحجاز وشبه الجزيرة العربية والحالة الدينية والسياسية لأهل الحجاز قبل الإسلام ... ٢٩

المبحث الأول: المسرح الجغرافي لأرض الحجاز وشبه الجزيرة العربية ٣٢

(١) شبه الجزيرة العربية ٣٣

(٢) المسرح الجغرافي لأرض الحجاز ٣٥

المبحث الثاني: لفظة العرب ومدلولها وتطورها التاريخي ٣٩

المبحث الثالث: الحياة القبلية عند العرب ٤٣

- طبقات القبائل ٤٣

- مواطن القبائل العربية قبل الإسلام ٤٤

- الحياة المجتمعية والتكوينات السياسية للقبائل العربية ٤٧

الموضوع **الصفحة**

ـ نظام الحكم في القبيلة.......................... ٥٠
المبحث الرابع: الحالة الدينية لأهل الحجاز قبل الإسلام ٥٤
ـ مراسم وطقوس عبادة العرب للأصنام ٥٥
المبحث الخامس: الحالة السياسية لأهل الحجاز قبل الإسلام ٦٧
ـ النظام السياسي في مكة المكرمة ٦٨
ـ مكة في عصر قصي بن كلاب ٦٩
ـ النظام السياسي في المدينة المنورة.......................... ٦٩
ـ العلاقات بين اليهود وبعضهم البعض ٧٢
ـ العلاقات بين العرب واليهود في المدينة ٧٣
ـ العلاقات بين الأوس والخزرج ٧٨
ـ حواضر الحجاز «مدينة الطائف» ٨٠
ـ «مدينة تيماء».......................... ٨٢
ـ «دُومة الجندل».......................... ٨٣
المبحث السادس: ترجمة مختصرة حول سيرة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما: ٨٦
- **اجتماع سقيفة بني ساعدة**.......................... ٨٦
- **فضائل أبي بكر الصديق** ٩٠
- **الفتوحات الإسلامية في عصر خلافة أبي بكر:**.......................... ١٠٠
- **استخلاف عمر بن الخطاب:** ١٠٦

- **الموضوع** **الصفحة**

- **فضائل عمر بن الخطاب.. ١٠٧**
- **مختصر حركة فتوحات العراق وفارس والمشرق في خلافة عمر بن الخطاب:.. ١١١**
- **حول قرار أمير المؤمنين عمر بعزل خالد بن الوليد:.................١١٢**
- **الفتوحات الإسلامية في عصر خلافة عمر بن الخطاب..............١١٣**
- **اتهام عمرو بن العاص بحرق مكتبة الإسكندرية:...........................١٤٦**
- **إعادة فتح الإسكندرية وحقيقة الخلاف بين عثمان بن عفان وعمرو بن العاص:...١٥١**

الفصل الثاني: موقف أهل الحجاز من قيام الدولة الأموية

المبحث الأول: نسب بني أُمية وآراء المؤرخين في دولتهم ١٥٨

ـ نسب بني أمية ١٥٨

ـ آراء المؤرخين فِي دولة بني أمية ١٥٩

ـ التحريف فِي تاريخ بني أُمية ١٦٣

ـ الدلائل والبراهين على ثبوت التحريف فِي التاريخ الأموي ١٦٣

ـ ابن جرير الطبري ١٦٤

ـ ابن الأثير ١٦٤

ـ ابن العربي وكتابته عن الدولة الأموية.............................. ١٦٤

ـ عوامل تحريف التاريخ الأموي ١٦٨

المبحث الثاني: فتنة مقتل عثمان بن عفان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ، وبداية الخلاف....... ١٧٣

الموضوع	الصفحة

- **أولًا**: نبذة حول سيرة عثمان بن عفان ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ ١٧٣
- اسمه ونسبه ولقبه وكنيته ١٧٣
- صفته الْخَلْقِيَّة ١٧٤
- صفاته الخُلُقية ومكانته فِي الجاهلية ١٧٤
- هجرته إلى الحبشة ١٧٦
- عثمان ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ من المبشرين بالجنة ١٧٧
- اختصاصه بكتابة الوحي ١٧٨
- **ثانيًا**: استخلاف عثمان بن عفان ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ ١٧٨
- **ثالثًا**: منهج عثمان بن عفان ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ فِي الحكم ١٨٣
- كُتُب عثمان إلى عماله وولاته وأمراء الجند وعامة الناس ١٨٤
- قواعد الدولة الإسلامية التي اعتمدها عثمان ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ ١٨٦
- **رابعًا**: جمع المصحف والفتوحات ١٨٦

(١) جمع القرآن الكريم في عهد عثمان ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ ١٨٦

(٢) الفتوحات في عهد عثمان ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ ١٨٨

- ذات الصواري ١٩٠
- **خامسًا**: فتنة مقتل عثمان ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ وبداية الخلاف ١٩٢

الموضوع **الصفحة**

ـ أسباب فتنة مقتل عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ.................... ١٩٤

ـ العوامل التي ساعدت على قيام الفتنة ١٩٤

(١) تعدد الثقافات في المجتمع وموت كثير من جيل كبار الصحابة الكرام........................... ١٩٤

(٢) عدم التعامل الحسن مِن الناس تجاه رأفة عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ وحلمه ١٩٥

(٣) العودة إلى العصبية الجاهلية........................... ١٩٧

(٤) تآمر الحاقدين ودور عبد الله بن سبأ في إشعال الفتنة... ١٩٩

ـ المآخذ التي ذكرها قتلة عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ...................... ٢٠٤

ـ الرد على الشبهات والتُهم.................................. ٢٠٥

ـ وابتدع فِي جمع القرآن وتأليفه، وفِي حرق المصاحف............ ٢١٠

ـ وقائع وأحداث فتنة مقتل عثمان بن عفان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ........... ٢٤٨

ـ الوقائع والأحداث التي سبقت مقتل عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ٢٤٨

ـ ثوار الأمصار يتحركون من مراكزهم لمهاجمة عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ... ٢٥٧

ـ موقف الصحابة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ تجاه أمير المؤمنين عثمان ٢٦٢

ـ موقف أمهات المؤمنين.................................. ٢٦٥

ـ يوم الدار واستشهاد عثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ......................... ٢٦٧

الموضوع **الصفحة**

ـ رأي الباحث في منهجية الحكم الصحيحة ٢٧٤
المبحث الثالث: موقعتي الجمل وصفين: «الأسباب والنتائج» ٢٧٩
ـ **أولًا:** بيعة علي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ وتوليه أمر الخلافة ٢٨١
ـ **ثانيًا:** اختلاف الصحابة حول مسألة إقامة الحد على قتلة عثمان ٢٨٣
ـ **ثالثًا:** أحداث موقعة الجمل (٣٦ هـ - ٦٥٦م) ٢٩٢
ـ عدد القتلى ٣١١
ـ مبايعة أهل البصرة ٣١٤
ـ أمير المؤمنين علي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ يرد عائشة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ إلى مأمنها .. ٣١٦
ـ تاريخ معركة الجمل ٣١٨
ـ **رابعًا:** أحداث موقعة صفين (٣٧ هـ - ٦٥٧م) ٣١٨
ـ خروج أمير المؤمنين علي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ إلى بلاد الشام ٣٢٢
ـ خروج معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ إلى صفين ٣٢٣
ـ محاولات الصلح ٣٢٨
ـ وقوع القتال بين الفريقين ٣٢٩
ـ الأخلاق الحسنة أثناء الحرب ٣٢٧

الموضوع **الصفحة**

- عدد القتلى ٣٣٨
- قضية التحكيم ٣٣٨
- ما نصت عليه وثيقة التحكيم ٣٤٠
- قراءة نقدية وتحليل لأحداث الموقعتين ٣٤٥

المبحث الرابع: تنازل الحسن بن علي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ عن الخلافة، وتأسيس الدولة الأموية ٣٥١

- **أولًا**: ظهور الخوارج ومقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ... ٣٥١
- نص المناظرة ٣٥٢
- **ثانيًا**: بيعة الحسن بن علي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ.. ٣٦٦
- **ثالثًا**: الصلح بين الحسن بن علي ومعاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم ـ.. ٣٦٩
- خروج الحسن ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ بجيش العراق من الكوفة إلى المدائن ... ٣٧١
- خروج معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ من الشام إلى العراق ٣٧٢
- وقوع الصلح بين الحسن ومعاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ ٣٧٤

الفصل الثالث: معارضة أهل الحجاز للدولة الأموية ٣٨٤

المبحث الأول: خلافة معاوية وفتنة حجر بن عدي، وتحول الخلافة إلى ملك وراثي وإشكالية أخذ البيعة ليزيد ٣٨٤

- السياسة الداخلية لمعاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ.. ٣٨٥
- الفتوحات في عهد معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ.. ٣٩١

الموضوع **الصفحة**

- فتنة حُجر بن عدي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عام ٥١ هـ ٣٩٦
- الملك الوراثي وأخذ البيعة ليزيد بن معاوية ٤٠٢
- الخطوات التي اتخذها معاوية - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لأخذ البيعة ليزيد ٤٠٤
- معاوية يطلب البيعة من أهل المدينة المنورة........ ٤٠٨
المبحث الثاني: معارضة الحسين بن علي في عهد يزيد بن معاوية ٤١٧
- وفاة معاوية ومعارضة الحسين بن علي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - ٤١٧
- نصائح الصحابة والتابعين إلى الحسين بعدم الخروج إلى الكوفة ٤٢٢
- موقف يزيد من أحداث الكوفة........ ٤٢٨
- موقف عبيد الله بن زياد من الحسين ومعركة كربلاء........ ٤٣٤
- موقف يزيد بن معاوية من قتل الحسين ومن أهل الحسين وذريته........ ٤٤٤
المبحث الثالث: معارضة أهل المدينة في عهد يزيد وموقعة الحرة عام ٦٣ هـ - ٦٨٣م ٤٥٣
- معارضة أهل المدينة وخلع يزيد بن معاوية ٤٥٤
- معركة الحرَّة ٤٥٩
- أعمال مسلم بن عقبة بعد معركة الحرة ٤٦٤
- ما قيل حول انتهاك الأعراض ٤٦٥
- أخذ البيعة من أهل المدينة ليزيد بن معاوية ووفاة مسلم بن عقبة........ ٤٦٧
- قراءة وتحليل حول موقعة الحرة........ ٤٧٠

الموضوع **الصفحة**

المبحث الرابع: الأحداث السياسية بين عبد الله بن الزبير ويزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان ٤٧٥
- محاولات يزيد للسيطرة على عبد الله بن الزبير ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ ٤٧٥
- التدابير التي اتخذها يزيد ضد ابن الزبير ٤٨١
- حملة الحصين بن نمير وحصار ابن الزبير وحريق الكعبة ٤٨٦
- وفاة يزيد بن معاوية وخلافة معاوية بن يزيد ٤٩٤
- قراءة حول الملك والخلافة ٤٩٦
- **أولًا:** شروط يجب توافرها في الإمام أو الخليفة ٤٦٧
- **ثانيًا:** من يرشح الخليفة ويوليه وينصبه ٥٠١
- **ثالثًا:** الأمة تابعة لأولي الأمر ٥٠٢
- **رابعًا:** مسألة توريث الحكم ٥٠٥
- الواقع في عصر معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ٥٠٨
- بيعة عبد الله بن الزبير ٥١٣
- موقف أهل الشام من بيعة ابن الزبير ٥١٤
- عبد الملك بن مروان وصراعه مع أهل العراق ٥١٧
- عبد الملك بن مروان وصراعه مع عبد الله بن الزبير ٥٢٥
- استشهاد ابن الزبير ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ ٥٣١

الفصل الرابع: الأحداث السياسية في أرض العراق بعد مقتل عبد الله بن الزبير ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ ٥٤٠

الموضوع الصفحة

المبحث الأول: ثورة عبد الرحمن بن الأشعث عام ٨١هـ ٥٤١
- بداية الأحداث ٥٤٢
- معركة الزاوية... ٥٤٤
- معركة دير الجماجم.. ٥٤٦
- أسباب مشاركة بعض العلماء وأهل الفضل في ثورة ابن الأشعث ٥٤٩
- معارضة بعض العلماء لثورة ابن الأشعث.......................... ٥٥٦
- أسباب فشل ثورة ابن الأشعث.................................. ٥٥٩
- النتائج المترتبة على فشل ثورة عبد الرحمن بن الأشعث ٥٦١
المبحث الثاني: ثورة يزيد بن المهلب عام ١٠٢هـ ٥٦٤
المبحث الثالث: ثورة زيد بن علي بن الحسين - رضي الله عنهما - في عصر هشام بن عبد الملك عام (١٢٢هـ - ٧٤١م)............................ ٥٦٨
- تكوينه الثقافي وحياته العلمية................................... ٥٦٩
- أسباب خروج زيد بن علي - رضي الله عنه - على هشام بن عبد الملك ٥٧١
- الشيعة الروافض ينشقون عن زيد ويغدرون به........................ ٥٧٥
- مقتل زيد بن علي... ٥٧٧
- أثر مقتل زيد بن عليّ على الدولة الأموية ٥٧٨
الخاتمة ٥٨٢
الخرائط ٥٨٨

الموضوع **الصفحة**

قائمة المصادر والمراجع ٥٩٨
- **أولًا:** المصادر.. ٥٩٨
- **ثانيًا:** الموسوعات والمعاجم والقواميس.............................. ٦٢١
- **ثالثًا:** المراجع ٦٢١
- **رابعًا:** المجلات ٦٢٩
- **خامسًا:** الندوات والمؤتمرات والتقارير.............................. ٦٢٩
- **سادسًا:** مواقع الإنترنت.. ٦٢٩
الفهرس ٦٣١

تاريخ أمتنا

ولعل من المُسلَّم به لدى الباحثين في التاريخ، أن التاريخ الإنساني لا يعرف أمة على مر العصور دونت تاريخها بكل حسناته وسيئاته كأمة الإسلام، فلم يحاول المؤرخون أن يتستروا على سيئات تاريخهم بل نقلوا الأحداث بكل أمانة، فليس في تاريخنا ما نخجل منه، حتى ما وقع من أحداث مؤلمة، فلا تخلوا دراسته من فائدة، ولا يجادل عاقل منصف، في أن أمتنا الإسلامية، أمة حية، بدينها وتاريخها وقيمها ورصيدها الحضاري، لذا قدمت الأمة للإنسانية خدمات لا ينكرها منصف قط، والواجب علينا كباحثين، أن نقوم بدور التحليل والتنقيح، وأن نعكف على تاريخ أمتنا بعزيمة صادقة، وبصيرة نافذة، فكم خسرت البشرية بتأخر وتراجع المسلمين، ولقد عانى التاريخ الإسلامي من حملات التشويه والتحريف، حتى أصبح التاريخ الإسلامي غرضًا ومرمى لسهام أعداء الإسلام، وقد تضافرت عوامل شتى لطمس تاريخ أمتنا المشرق، هذا مع ما نعانيه من قصور شديد في معرفة وفهم الصحيح من تاريخ الأمة، لذا فقد حاولت في بحثي هذا أن أجمع بين التاريخ كعلم للأخبار والحوادث، وبين التاريخ كتفسير لهذه الحوادث والمتغيرات.